ROBERT LACEY

INSIDE THE KINGDOM



روبرت ليسي

صاحب الكتب الأكثر مبيعًا
ومؤلف كتابي جلالة الملكة و المملكة

المملكة من الداخل

تاريخ السعودية الحديث

الملوك - المؤسسة الدينية - الليبراليون والمتطرفون

نقله إلى العربية
خالد بن عبد الرحمن العوض



المسبار

الملك عبدالله وعيد الحب
فصل خاص
بالطبعة العربية



روبرت ليسي

صاحب الكتب الأكثر مبيعاً ومؤلف كتابي جلالة الملكة والمملكة

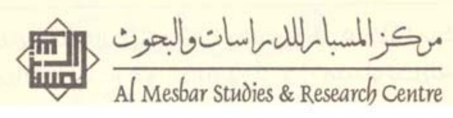
المملكة من الداخل

تاريخ السعودية الحديث

الملوك، المؤسسة الدينية، الليبراليون والمتطرفون

نقله إلى العربية

خالد بن عبد الرحمن العوض



الكتاب: **المملكة من الداخل**

المؤلف: **روبرت ليسي**

نقله إلى العربية: **خالد بن عبد الرحمن العوض**

الناشر: **مركز المسبار للدراسات والبحوث**

الطبعة الأولى، يناير (كانون الثاني) 2011

الطبعة الثانية، فبراير (شباط) 2011

الطبعة الثالثة، مايو (أيار) 2011

الطبعة الرابعة، أغسطس (آب) 2011

التصنيف: **السعودية - التاريخ السياسي والاجتماعي - العلاقات الداخلية والخارجية**

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-443-43-8

الموقع على الإنترنت:

www.almesbar.net

المراسلات البريدية:

ص.ب. 333577

دبي، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 77 151 36 4 971+

فاكس: 78 151 36 4 971+

بريد إلكتروني:

info@almesbar.net

الكتاب متوفر على الإنترنت:

مكتبة نيل وفرات. www.nwf.com



المملكة
من الداخل

إلى فائزة، فوزية، غادة، هالة، هتون، مها، نجاة،
وجميع أمهات المملكة العربية السعودية.

***

وإلى ذكرى والدتي
فيدا ليسي (1913 - 2008)

المحتويات

الباب الأول

مملكة الإيمان

الباب الثاني

المملكة في ساحة الحرب

الباب الثالث

القاعدة تعود إلى الوطن

مقدمة الترجمة العربية

عشت في المملكة العربية السعودية أكثر من أربع سنوات في بحث وكتابة هذا الكتاب، المملكة من الداخل؛ وخلال تلك الفترة حظيت بمساعدة جيش من الأصدقاء السعوديين. نجحت في تكوين صداقات جديدة خلال بحثي هذا، لذلك أنا مسرور جداً في تقديم هذه الطبعة والنسخة العربية هديةً متواضعةً لأصدقائي السعوديين الذين ساعدوني – إنها القصة المدهشة لوطنهم الاستثنائي خلال الثلاثين سنة الماضية مكتوبة بلغتهم الأم. أرجو أن تستمتعوا بقراءة هذه الكلمات كما أنا استمتعت بكتابتها.

أود أن أعبر عن شكري الخاص لتركي الدخيل الذي كان صاحب فكرة إنتاج هذه النسخة العربية الأنيقة، ولخالد العوض الذي اجتهد كثيراً في ترجمة كلماتي بشكل جميل. الشكر موصول أيضاً إلى وفيق وهبي المدير التنفيذي لمركز المسبار – لم يسبق أن مرّ كتاب صعب بمثل هذه السلاسة في النشر – ولصديقتي وزميلتي هالة الحوطي التي ساعدتني في تحقيق المستحيل وتذليل الكثير من الصعوبات. أهدي هذه النسخة العربية لهالة.

روبرت ليسي
السبت 12 **يونيو** 2010

كلمة الناشر

لماذا هذا الكتاب؟

المملكة من الداخل... وقد ارتفعت مبيعاته في الغرب لتصل إلى مئات آلاف النسخ في أوروبا وأمريكا.

من وجهة النظر المألوفة فإن الإقبال من قبل الغرب على الكتاب مبرّر...

هي أولاً، لأنه الميل المعتاد للغرب لمعرفة المزيد عن روحانيات الشرق الفاتن والساحر بكل ما فيه من تعقيد وتناقض.

وهي ثانياً، لأنها المملكة العربية السعودية بالتحديد... هذه التي تمتد على صدر الصحراء الحارقة والغامضة، حيث أول بيت وضع للناس، وحيث آخر كلمة من السماء إلى الأرض، هذه الكلمة التي بدأت بصناعة الحدث التاريخي في أحد أهم منعطفاته الحادة والفارقة فتغيرت وجوه وأمم وممالك، بدءاً من الربع الأول للقرن السابع الميلادي وحتى اكتشاف النفط، هذا الذي لا يكاد العالم الحديث يستطيع أن يتحرك لولا تدفقه في شرايينه، منذ النصف الأول للقرن العشرين.

وها هي المملكة من جديد، لغز هذا الشرق وحلمه المتجدد، تحملها الدنيا في قلبها والتاريخ على يديه، هو اللغز نفسه الذي أشار إليه روبرت ليسي في إحدى ملاحظاته الكثيرة والمهمة في هذا الكتاب.

«إن الحدث السعودي غيّر عالمنا الحديث ووجّه القرن الواحد والعشرين إلى بداية لم يمكن لأحد أن يتوقعها، وما زلنا للّحظة نحاول أن ندرك معانيها». إن إدراك معاني هذه البداية يتمثل في أن المملكة لا تزال هي، كما هي، في تاريخها القديم، كما في تاريخها الحديث والممتد على هذا المدى العالمي المتشابك والمعقد والحافل، المؤثّر والمتأثر، بغناها الروحي وتراثها الإسلامي، ثم بغناها المادي.

إنها لا تزال تلعب أحد أهم الأدوار في صناعة الأحداث الإقليمية والدولية.

إنها تاريخ الدولة -العائلة- التي تسعى قيادتها إلى الانتقال بمجتمعها المتمسك بالموروث من العادات والتقاليد إلى الحداثة، فتعترضها العقبات وهي تحاول أن تبرز الوجه السمح للإسلام في أصوله البكر، بعكس الصورة البشعة التي طفت على سطح الأحداث من خلال أعمال بعض المتشددين المهووسين الذين قادهم الإجرام إلى تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر 2001، وما تبعها من أعمال إرهابية مستنكرة.

وبعد...

ليس أفضل من الكاتب روبرت ليسي مقدرة للولوج إلى داخل موضوعات معقّدة يعبّر عنها بلغة سلسة، ومنهج استقصائي مميّز.

إنه بتمرسه وتمكنه وبنظرته الثاقبة يضعنا في كتابه الجديد عن المملكة أمام بانوراما ضخمة من الأحداث في سياق تاريخي حي، لوجوهِ العيش والحياة بكل أنماطها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبدقة متناهية، بل بأصغر تفاصيلها المرمّزة والدالّة. أبطال حقيقيون من لحم ودم، وأحداث متشابكة لمجتمع تتفاعل فيه الأحداث وتتصارع المفاهيم والقيم على مسرح حياة صاخبة ومتعددة الوجوه، كل ذلك بأسلوب تتوافر فيه كل شروط العمل الإبداعي. أظن أن هذا الكتاب يصلح لأن يكون مصدراً ومرجعاً متيناً وموثوقاً لأي باحثٍ أو دارسٍ في التاريخ السياسي والاجتماعي والديني وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالبحث الموزون عن المملكة العربية السعودية.

وقد حققنا، نحن في مركز المسبار للدراسات والبحوث، إنجازاً بحيازتنا لحقوق ترجمة ونشر هذا الكتاب باللغة العربية، برغم منافسة أعرق دور النشر لنا، الأمر الذي يحمّلنا مسؤولية أدبية في عالم النشر نرجو أن نضطلع بواجباتها.

من أجل ذلك أيضاً حرصنا في مركز المسبار على أن نعطي القوس باريها، فتعهدنا الترجمة بفائق العناية، وجَهِدنا أن يكون العمل بوزن الأهمية قدْراً بقدْرٍ.

وإننا إذ نعتذر من المؤلف (الذي حصلنا على موافقته) على تدخلنا في بعض الأحيان لنخرّج بعض التعابير ونشذّب بعض المواقف بما يتناسب وموروثنا الثقافي وتعبيرنا الأدبي، آخذين بالاعتبار الفروق ما بين قيم الغرب وقيمنا نحن الشرقيين، لنتمنى أن يجد عملنا هذا قبولاً لدى القراء الكرام.

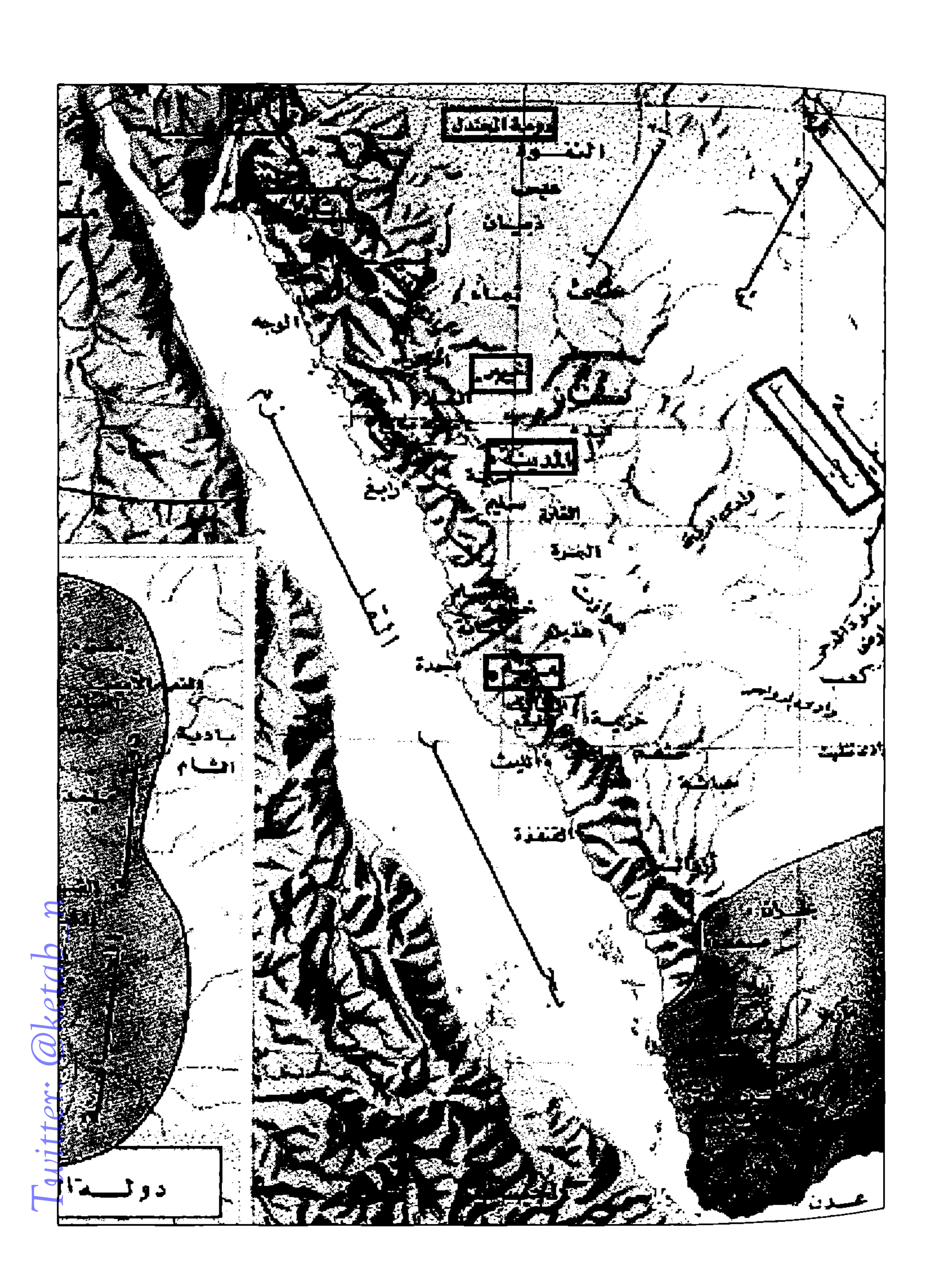
قراءة ممتعة...

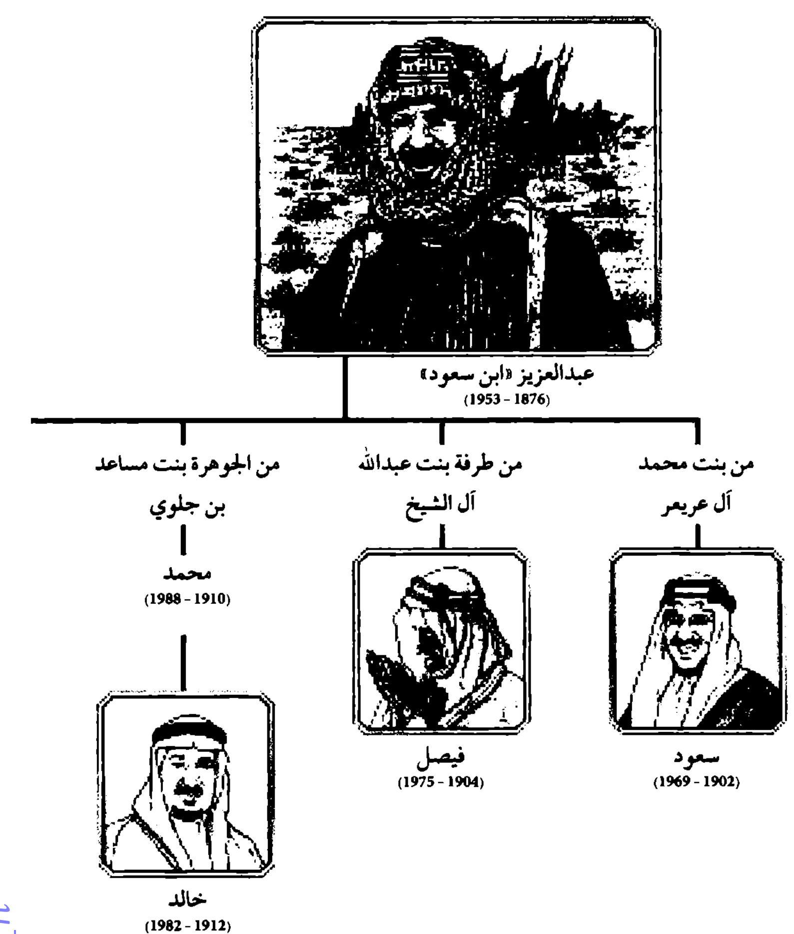
تركي الدخيل



خارطة المملكة العربية السعودية



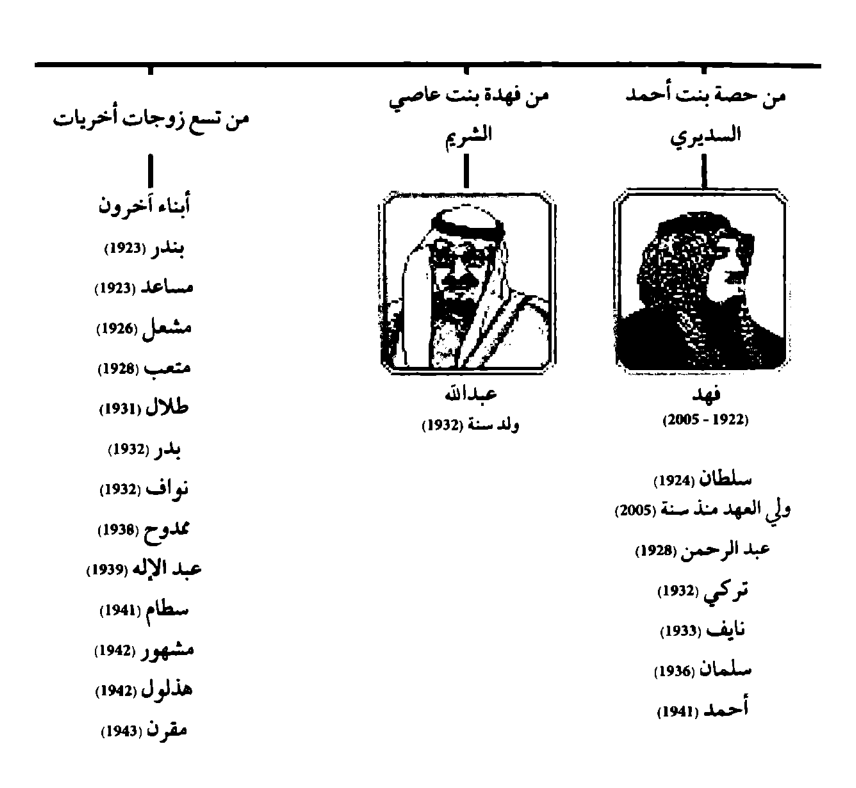

الوجه
تيماء
جدة
الليث
القنفذة
عدن
بادية
الشام



عبدالعزيز «ابن سعود»
(1953 - 1876)
من بنت محمد
آل عريعر
من طرفة بنت عبدالله
آل الشيخ
من الجوهرة بنت مساعد
بن جلوي
محمد
(1988 - 1910)
سعود
(1969 - 1902)
فيصل
(1975 - 1904)
خالد
(1982 - 1912)

ملوك المملكة العربية السعودية

الملك عبدالعزيز وأبناؤه - شجرة عائلية مبسطة



ملاحظة في التقويم الهجري الإسلامي

تبدأ الأشهر الإسلامية وتنتهي بحسب مراحل تطوّر القمر. الناس يرفعون أبصارهم نحو السماء في كل جزء من مناطق المملكة، بحثاً عن الهلال الجديد وبعد رؤيته يتم تسجيل ذلك بالمحكمة، و يكون الشهر قد بدأ بشكل رسمي.

اثنا عشر شهراً قمرياً أو 354 يوماً – أي أقل بنحو أحد عشر يوماً من السنة الميلادية. لذا فإن من يبلغ عمره 100 سنة هجرية لا يعني أنه قد بلغ السابعة والتسعين في السنة الميلادية التي يصل عدد أيامها إلى 365 يوماً، على الرغم من أن السنة الهجرية تزداد سرعتها تدريجياً عن سرعة السنة الميلادية، ولهذا السبب تأتي الاحتفالات بعيد الأضحى (الحج) وعيد الفطر (بعد شهر رمضان) متقدمةً أحد عشر يوماً في التاريخ الميلادي كل سنة.

يبدأ التقويم الهجري بتاريخ مختلف وخاص به – بالهجرة – أو نقطة التحول في مولد الدين الإسلامي عندما هاجر الرسول من مكة بعد أن أظهرت له العداوة (في 622م)، إلى المدينة المنورة. سوف ترى في الصفحات المقبلة من هذا الكتاب، السنوات الإسلامية عن طريق التأريخ بالسنة الهجرية باختصارها بحرف الهاء لتعني السنة الهجرية.

أهلاً بكم في المملكة

نظرياً، لم تَكُن السعودية لتكون! بقاؤها يتحدّى قوانين المنطق والتاريخ. أُنظر إلى حكامها العظام الذين يرتدون تلك الملابس الغريبة ويثقون بالله أكثر مما يثقون بالبشر، ويديرون دولتهم الغنية معتمدين على مبادئ تركها العالم منذ زمن. في السعودية، تُغلق المحلات للصلاة خمس مرات في اليوم وتُنفَّذ فيها أحكام الإعدام بالشارع. ولن نخوض الآن في الحديث عن مكانة المرأة هناك. تعتبر السعودية أحد ألغاز هذا الكوكب المثيرة للبعض والمزعجة للبعض الآخر. لهذا السبب ذهبت للعيش هناك قبل ثلاثة عقود مضت.

كان ذلك في عام 1979م عندما انتهيت من نشر كتابي الموسوم «صاحبة الجلالة» عن السيرة الذاتية للملكة إليزابيث الثانية والذي رصد الازدهار المتناقض لمَلَكية قديمة في عالم يبتعد عن الملكية تدريجياً. كنت أبحث بعد ذلك عن مفارقة من نوع مختلف ولم يكن ذلك صعباً فقد عثرت عليها في الرياض. كان علي أن أشرب العديد من أكواب الشاي الحلوة في صباحات كثيرة قبل أن أتمكن من الحصول على موافقة رسمية من رئيس المراسم الملكية لمقابلة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود (1975 – 1982)، ذلك الملك الرقيق الخجول الذي ملأ فراغ السلطة في المملكة عندما تعرّض الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود (1964) للاغتيال في عام 1975م. (كان الملوك الخمسة الذين حكموا السعودية منذ عام 1953م إخوة غير أشقاء، وكان هناك الكثير من الإخوة الأشقاء وغير الأشقاء وأبناؤهم على سلم الانتظار).

وأثناء انتظاري مقابلة الملك كنت أفكر، وأنا أتناول أقداح الشاي لأسابيع، في السؤال المهم حول ما يمكنني تقديمه له. ماذا يمكنني أن أقدم لهذا الرجل الذي كان يملك- أو في وسعه أن يملك- أي شيء؟ وأخيراً قررت أن أقدم له صوراً فوتوغرافية. قبل مجيئي للسعودية كنت قد اطلعت على ما كتبه الرحّالة البريطانيون عن الجزيرة العربية والذين أخلصوا النية لحكومة التاج الاستعمارية وطافوا خلال الكثبان الرملية في قلب الصحراء أوائل القرن العشرين وهم يلبسون خوذاتهم الشمسية وأحذيتهم العسكرية التي تمتد إلى الركبة. كان العديد من هؤلاء يضع الخشب الثقيل والكاميرات النحاسية الشائعة في ذلك الوقت على ظهور الجمال مصطحبين معهم أيضاً ألواح النيجاتيف الزجاجية الرقيقة والغرف المظلمة المحمولة التي يستخدمونها في إظهار وطبع الصور في خيامهم.

جمعت ألبوماً من هذه الصور، التي لم يعرف عنها أحد من قبل وعلّقت تحتها بعبارات مطوّلة تُرجمت فيما بعد إلى اللغة العربية الفصحى، وحملت هذه الهدية إلى البلاط الملكي. ذهبنا إلى ما يُعرف بالديوان الملكي أو المجلس – أي مكان الجلوس- حيث يستقبل الملك البدو الذين جاؤوا من الصحراء للجلوس معه. كان يوجد داخل ساحات القصر الملكي سيارات تويوتا الصغيرة والمغبرة الواقفة بشكل عشوائي على الرخام جنباً إلى جنب مع سيارات الرولز رايس والبي إم دبليو التابعة للأمراء والوزراء. لم يوجد فوق ظهور تلك السيارات أي نوع من الماشية في ذلك الوقت، لكن من الواضح من خلال الرائحة التي تنبعث منها أنها كانت محمّلة للتوّ ببعض الكائنات الصوفية.

كنت جاهزاً تماماً للاستقبال الذي ينتظرني بعد لحظات. وكان تقبيل اليد والأنف - والملك يقابل شعبه - لوحة حية ومشهداً جاذباً لأي وفد تلفزيوني أو صحافي زائر «إنها ديموقراطية الصحراء الخاصة بنا» — هكذا قال لنا بتفاخر أحد المراقبين التابعين لوزارة الإعلام. منذ ذلك الوقت وأنا ناجح تماماً في تجنّب الرقيب التابع لتلك الوزارة (بعد ثلاثين سنة منذ ذلك التاريخ وأنا ما أزال أتحرك بحرية تامة)، وقد طوّرت نظرتي الخاصة المتشككة حول ديموقراطية الصحراء هذه. يبدو بالنسبة لي أن الأمر لا يتعلق فقط بالإثارة العابرة الناتجة من لقاء ملكي، أو توزيع الأموال والامتيازات التي تقوّض عمليات الحكومة الجيدة. لذا كان يداخلني الشك بنسبة خمسين بالمئة وأنا أدخل المجلس الملكي، لكن سرعان ما تحول الشك إلى مفاجأة مدهشة بنسبة مئة بالمئة وأنا أحظى بالاستقبال الملكي المباشر الخاص بي.

كان يقف أمام الملك بدوي طاعن في السن يحرّك أصابع قدميه الحافيتين بقلق على السجاد الحريري الفاخر وهو يشدو بقصيدته النبطية التي ألّفها وهو في الطريق إلى هذا المكان:

أهلا هلا باللي دعانا هلا به   يا مرحبا خالد عسى الله يحييك
أنت المليك اللي عزيز(ن) جنابه   بحضوركم كل البشر تبتهج فيك

الاستماع إلى الشعر هو أحد الأعباء الوظيفية التي يقوم بها الملك في السعودية. تقوم الملكة إليزابيث بمصافحة الكثير من ممرضات الرعاية المنزلية بينما يجب على الملك في السعودية أن يتذوق القصائد الطويلة والمُكررة التي تُلقى على مسامعه وتحت إشرافه. في أثناء ذلك كان كرم

الضيافة يملأ المكان بصوت القهوة الخفيفة وصواني الشاي التي يُطاف بها على الحضور. الصورة المقابلة لحرس قصر باكينجهام في الرياض هي أولئك الحرس الذين يتمتعون بنظرات حادة ويرتدون الأحزمة والمسدسات والسيوف.

جاء دوري فجأة لتحية الملك حيث وجدت نفسي أحمل هديتي باتجاه الأريكة المطرّزة الخضراء بجانبه. نوعية الديكور الذي يفضّله السعوديون في قصورهم هي ما يُعرف بطراز «لويس فاروق» الذي يجمع بين طراز فرساي الفرنسي و طراز ملك مصر المزخرف.

كان من الصعوبة فتح الألبوم أول الأمر إذ بدت صفحاته لزجة. كم كان عدد المرات التي اضطر فيها هذا الملك الخجول الذي عانى من المرض كثيراً أن يقبل هدية من أجانب فقدوا توازنهم؟ لكن بمجرد أن بدأ بتقليب صفحات الألبوم أدرك الملك خالد أنه أمام شيء يعرفه. لقد تعرّف على أعمامه وأولاد عمّه والأماكن القديمة، والأهم من ذلك كله صورة والده، تلك الشخصية الجذابة وغير العادية، الملك عبدالعزيز، أو عبد الله الذي لا إله إلا هو و الذي سخّر عبد العزيز جهوده لخدمته من خلال العقيدة التي يسمّيها الغرباء الوهّابية، أو التفسير الصارم للدين الإسلامي في وسط الجزيرة العربية[1].

قام هذا الملك المحارب، والذي يعرفه الغرب بابن سعود، بإخضاع قبائل الجزيرة العربية وجمعها تحت رايته بين عامي 1901 و 1925م ثم قام

1 - العديد من السعوديين يرفضون وصفهم "بالوهابية" لأنهم يرون أنفسهم مؤمنين بالإسلام الحقيقي وليس مجرد أعضاء في جماعة أو مذهب (انظر الفصل الأول، "الوهابي الأول").

بفخر (وبعضهم قال بغرور) بإضافة اسم عائلته إلى هذا الكيان الموحّد ليصبح المملكة العربية السعودية – أي الجزيرة العربية التابعة لابن سعود.

ابن هذا الملك العظيم، أي الملك خالد، كان يقلب صفحات الألبوم الذي أهديته باهتمام كبير إلى درجة أنه نادى بعض من حوله لمشاهدة ذلك الوجه، أو السؤال عن مدى صحة ما كُتب تحت الصور أو التاريخ أو المكان – حتى جاء إلى صورة مؤرخة في عام 1918م كانت تُظهر الملك عبدالعزيز يبتسم واثقاً وهو يلبس شماغه وعباءته الشتوية مُحاطاً بأصحابه وأقاربه الذين بدوا أقصر قامة وأقل ثقة منه، بينما كان يقف في الصف الأول مجموعة من الأطفال الصغار ذوي الملابس الرثة وهم يستفهمون بنظرات خجلى عن أول أوروبي تقع عيونهم عليه.

كان الأطفال من لفت انتباه الملك خالد.

«هذا أنا! أنا أحدهم» قال الملك مندهشاً، ثم أخذ يسرد من خلال مترجمٍ تذكّره لذلك الخواجة (الغربي) الذي جاء لمقابلة والده، ثم أخذهم جميعاً ليصطفوا خارج الفناء، ثم اختفى الغريب تحت ذلك الغطاء وأخذ ينظر إليهم من خلال تلك الآلة الغريبة بعد أن طلب منهم عدم التحرك مطلقاً.

لكن خالداً الصغير آنذاك لم يكن يفهم السبب في وقفتهم تلك ولم يتم إطلاعه على النتيجة. بعد ستة عقود، هذه هي النتيجة – «والله العظيم!» (وهذا هو القسم الشائع المحبّب في المملكة العربية السعودية).

أغلق الملك الألبوم وأمر بخادم أن يأخذه إلى الداخل كي تشاهده العائلة تلك الليلة. أما أنا فقد رجعت إلى مكاني مكرّماً لكي أجلس ساعة أخرى أتطيّب فيها من عود البخور وأتذوق الشعر مأخوذاً بطبيعة هذه الأرض المثيرة للفضول. لقد وجدت المفارقة التي أبحث عنها — أو على الأصح المفارقتين.

لقد حُكمت المملكة العربية السعودية، وهي الأرض الغنية بالثروات، بواسطة رجل بدأ حياته صغيراً حافي القدمين يلعب بالكثبان الرملية. وفي الوقت الذي كان فيه الملك خالد الحاكم المطلق بسلطات وثروات غير محدودة، إلا أنه اصطف مع ضيوفه ذلك الصباح بعد القصيدة الأخيرة ومن دون مقدمات لكي يؤدي الصلاة.

***

وهكذا كانت فكرة كتابي، المملكة، الذي نُشر في عام 1981م، وهي الانتقال بسرعة الصاروخ نحو الحداثة لمجتمع يصرّ على اتباع التقاليد، والحكمة المتوازنة للعائلة المالكة التي أدى طموحها القوي إلى تجميع كيان قوي كان لفترة ماضية لا يتمتع بالكثير من المصداقية.

«كيف؟» -كما قال لي أحد الصحفيين الأمريكيين - «يمكن لمجموعة صغيرة تقود الإبل أن يجمعوا هذا الشتات؟!».

أجاب كتاب المملكة على هذا السؤال في 631 صفحة بما فيها الملاحق والملاحظات. لكن الحياة صغيرة، وقد نفدت طبعات الكتاب. لذا، وهنا وفي فقرة واحدة، سنبيّن أهمية آل سعود. فكّروا في الجزيرة العربية

كثلاثة أجزاء – حقول النفط في الشرق، المدينتين المقدستين مكة والمدينة في الغرب، والصحراء القاحلة في الوسط. في بداية القرن العشرين، وأغلب القرون الماضية عبر تاريخ الجزيرة العربية، كانت تلك الأجزاء الجغرافية الثلاثة دولاً مختلفة، وإلى حد ما ثقافات مختلفة. كان الإنجاز العظيم لآل سعود من خلال الحروب الشرسة والماكرة، والموهبة الفذة في إدارة الصراع، والجاذبية الكبيرة للرسالة الوهّابية، الأثر الكبير في جمع شتات هذه الأجزاء الثلاثة بحيث أصبحت الدولة التي تمتلك أكبر احتياطي للنفط في العالم مع نهاية القرن العشرين موحّدة من البحر إلى البحر، ومركزاً يعتبر هو الأضخم في العالم للحج كل عام، عاصمتها الرياض، معقل الوهابية في الجزيرة العربية.

هذه هي الأهمية التاريخية لأولئك السعوديين الذين امتطوا تلك الجمال. لو لم يكن هناك ابن سعود وأولاده لكانت تلك الحقول النفطية التي تُسمى الآن السعودية إمارة أخرى مُرفّهة وعصرية على ساحل الخليج العربي مليئة بالمناطق الضحلة والعاهرات الروسيات.

ولكانت حقول النفط بعائداتها المالية الضخمة وتأثيرها الدولي الكبير منفصلة عن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة – وسوف تتبع هذه الدويلات الافتراضية مذهباً إسلامياً أكثر تسامحاً وانفتاحاً من المذهب الوهابي الصارم الذي انبعث في الرياض.

«ماذا لو؟» سؤال يفتح عمل الشيطان، لكن بالاعتماد على الدليل فإنه يمكن القول إنه لولا الإنجاز التاريخي لآل سعود لما تعرّضت الولايات المتحدة الأمريكية للكارثة المرعبة في الحادي عشر من سبتمبر 2001؛

لأن العداء الشديد الذي يكنّه أسامة بن لادن للغرب لا يمكن غرسه إلا في المملكة العربية السعودية.

***

تلكم هي الفكرة الرئيسية للصفحات التالية: قصة الصراعات التي جعلت بضعة سعوديين لغزاً قاتلاً لثلاثة آلاف شخص في مركز التجارة العالمي في نيويورك، وفي وزارة الدفاع البنتاغون في واشنطون دي سي، وفي أحد حقول بنسلفانيا في صباح الحادي عشر من سبتمبر 2001م.

كيف لدين قديم أن يؤسّس دولة حديثة، ويوقد شرارة العنف وينشرها خارج حدود المملكة العربية السعودية؟ فكّروا في الكلمات الجديدة التي كان علينا أن نتعلمها خلال الثلاثين سنة الماضية: الوهّابي، الجهادي، الأفغان العرب، عاصفة الصحراء، فتوى، القاعدة.

ما الذي تشترك فيه هذه الكلمات؟ من هي الدولة التي دعمت خمسة عشر خاطفاً من أصل تسعة عشر في أن يقترفوا ما اقترفوه في الحادي عشر من سبتمبر؟ هل هي المجموعة الأكبر من ضمن مجموعات المقاتلين الأجانب التي قُبض عليها في أفغانستان؟ هل هي المجموعة الكبيرة التي تحتل المركز الثاني من أصل المحتجزين في معسكر غوانتانامو؟ أم مئات الإرهابيين والانتحاريين في العراق؟

التفاعلات السعودية غيّرت عالمنا الحديث. وحوّلت بآلامها المتزايدة القرن الحادي والعشرين إلى بداية لم يمكن لأحد أن يتوقّعها، وما زلنا للّحظة نحاول أن نفهم معانيها. لم يَدُر بخلدي، عندما أحضرت عائلتي معي للعيش

في جدة منذ ثلاثة عقود مضت، أنني سأصل إلى ذروة الصراع في العالم محاطاً بالتناقضات والحقائق الزائفة. لهذا السبب أنا أكتب هذا الكتاب: ارجعوا إلى العام 1979م وحاولوا التفكير معي: كيف حدث ذلك؟ هذا الكتاب يمثّل تكملة لكتاب «المملكة» السابق، لكنه يقوم بذلك بعين فاحصة لكل شيء حدث في الماضي.

في عام 1982م، وبعد سنة من نشر كتاب «المملكة» في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، حظرته الحكومة السعودية حيث رصد المراقب الإعلامي في وزارة الإعلام سبعة وتسعين اعتراضاً على النص، وكنت مستعداً لمراجعة أربعة وعشرين اعتراضاً فقط. كل هذه الاعتراضات تدور حول الإسلام وقد كنت سعيداً بذلك ومنقاداً له لأن لجنة من المسلمين يعرفون دينهم أكثر مني. لكنني رفضت مراجعة بعض فقرات مطولة تتناول بعض الحقائق التاريخية وخاصة ما كتبته حول الاختلافات بين ابني عبدالعزيز فيصل وسعود، والتي انتهت بخلع الملك سعود عن العرش في عام 1964م. نتيجة لذلك، تم حظر الكتاب من التوزيع أو البيع داخل المملكة العربية السعودية (وما زالت ترجماته في الإنترنت محظورة من قبل مواقع الإنترنت السعودية)، وقد ارتفعت مبيعاته بشكل كبير وخاصة في الشرق الأوسط. كان عليّ أن أكتب بعد ذلك كتباً أخرى ولم أرجع إلى المملكة لأكثر من ربع قرن.

ثم في عام 2006، اقترح عليّ نفس الصديق السعودي، الذي أمّن لي الحصول على تأشيرة الدخول في عام 1979م ونجا من عاصفة حظر كتابي «المملكة»، أن أعود بعد أن تغيرت الأجواء عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أنا ممتن لثقته، وممتن كذلك للكثير من السعوديين الذين فتحوا

قلوبهم للحديث عن تجاربهم المؤثّرة أحياناً والمؤلمة أحياناً أخرى – هذه هي قصتهم. بعض الشخصيات التي تقابلها في البداية ستظهر مرة أخرى من خلال السرد لتكمل قصصها الشخصية حتى النهاية.

هذا الكتاب، مثل سابقه، يعتمد على إقامتي في المملكة العربية السعودية لمدة ثلاث سنوات بقيت خلالها محاولاً العيش والدخول في النسيج الاجتماعي للمملكة بأكثر ما يستطيع فعله أي أجنبي، دون أن يفقد وجهة نظره كأجنبي. كل كلمة وردت خلال السرد صحيحة بأقصى ما أستطيع وقد فحصتها مرة بعد مرة عن طريق مصادرها الأصلية. ستجد، من خلال النص، مجموعة من النكت والحكايا الشعبية التي سردها السعوديون عندما حاولوا توضيح كيف آلت إليه بعض الأشياء الغريبة. وهي نفس الآلية التي تبنيتها في كتاب المملكة لتعكس إيقاع وتعقيد السرد المحلي الذي يستخدم الخرافة للمساعدة في توضيح بعض الحقائق.

***

أنا أكتب هذه الكلمات على متن طائرة متجهة من حقول النفط الساحلية السعودية إلى الرياض مسترخياً مع جهازي المحمول بجانب نافذة أنظر من خلالها إلى الصحراء البرتقالية الشاسعة في الأسفل، من دون أن أتمكن من تجنب التفكير في المغامرين البريطانيين الذين عبروا هذه الأمكنة قبل نحو قرن من الزمان ليقضوا أكثر من أسبوع لقطع نفس مسافة هذه الرحلة. أنا أسافر أحياناً من أجل السفر فقط. التجربة السعودية الحديثة قد تبدو بعيدة، لكنها ليست كذلك في الغرب. في ذاكرة آبائنا وأجدادنا – حيث كان معظم الناس مؤمنين وغير متسامحين في دينهم، وخائفين ومرتابين. كان

معظم الناس – كما يذكر آباؤنا وأجدادنا – متمسكين بدينهم إلى درجة التعصب وكان ينتابهم بعض الخوف والشك من الأجناس والعقائد الأخرى: لا يحق «للجنس الضعيف» التصويت، وكان حكم الإعدام ضرورياً، وتتم مراقبة الكتب والمسرحيات (أفلامنا ما زالت تخضع للرقابة)، والأب يعرف أكثر، والفتيات الطيبات هن اللواتي يبقين أبكاراً حتى الزواج. لقرون مضت كانت تلك هي الحياة التي يعيشها الغرب، لكن منذ وقت قريب مضى بدأنا في البحث عن قيم جديدة – نقوم أحياناً بتقديمها عن طريق انتقاد الآخرين الذين يرفضون التنازل عن القيم القديمة.

أشعر وأنا أنظر إلى الأسفل أن الطائرة قد غيرت من سرعتها. سنهبط بعد قليل في الرياض بعد أقل من ساعة في الجو. ها نحن، كلنا، نتجه نحو المستقبل – حيث السعوديون، هذه الأيام، يتقدمون بأسرع مما كانوا عليه سابقاً. لقد كان تطورهم خلال الثلاثة عقود الماضية نهضوياً في بعض المجالات، إلا أنه صادم ومدمّر في مجالات أخرى. إنها قصة دراماتيكية ومهمة.

في الوقت الذي أتجه فيه نحو سردها لكم ما زلت أتساءل: هل سيحظرون هذا الكتاب هذه المرة مثل ما حظروا سابقه؟

روبرت ليسي
الرياض، 2009

الباب الأول

مملكة الإيمان

1979 - 1990م (1400 - 1411هـ)



ليس هناك أسهل من أن تشجب الشرّير.
وليس هناك أصعب من أن تفهمه.

- فيودور دوستويفسكي، (الممسوس)

الفصل الأول

الوجه الغاضب

«جهيمان» كلمة تعني «الوجه الغاضب» وهي مشتقّة من الفعل الماضي جَهَم وفعلها المضارع يتجهّم، أي يجعل تعابير وجهه غاضبة. هناك عادة لدى العرب في تسمية أطفالهم بأسماء مخيفة أو قبيحة لاعتقادهم بأنها تبعدهم عن سوء الطالع في عالم مليء بالمشكلات. وفي حالة جهيمان العتيبي، أو الوجه الغاضب من قبيلة عتيبة، جاء هذا الاسم ليساعده في الوقوف ضد المشكلات العصيبة. بدا جهيمان بلحيته المتوحشة وعينيه الثاقبتين شبيهاً بتشي غيفارا أو ربما تشارلز مانسون.

في شهري نوفمبر وديسمبر من عام 1979م، أرعب الوجه الغاضب العالم الإسلامي عندما قاد المئات من الشباب إلى حتفهم في مكة. كان ذلك تعصباً دينياً أحمق، وقد أحسن آل سعود في التعامل معه وسحقه. استخدام العنف باسم الدين لم يكن يوماً خصلة سعودية، كما يقول المتعاطفون مع الحكومة، وجهيمان كان استثناءً شاذاً، وقد يبررون بنفس الكلام بعد عشرين سنة لو سُئلوا عن أسامة بن لادن.

***

في عام 1973م، أعلن الملك فيصل حظر بيع نفط المملكة إلى الولايات المتحدة في احتجاج غاضب على الدعم العسكري الذي كان

يقدّمه ريتشارد نيكسون لإسرائيل في حرب أكتوبر ضد مصر وسوريا، مؤمّلاً أن يساهم ذلك في تغيير دراماتيكي للسياسة الأمريكية. لكن على الرغم من أن المقاطعة النفطية العربية قد قفزت بسعر النفط في السوق العالمية إلى خمسة أضعاف، إلا أن التغيير الدراماتيكي الحقيقي كان يحدث في داخل المملكة وليس خارجها.

«لم يحدث أي شيء خلال ثمانية عشر شهراً»، هكذا يتذكر الدكتور هورست ارتل الذي كان يدرّس الهندسة الكيميائية في كلية البترول والثروة المعدنية في الظهران، «ثم في ربيع 1975م، وقبل موت الملك فيصل، أخذت سيارتي مسافراً عبر الرياض إلى ساحل البحر الأحمر. فجأة، امتلأت جيوب الناس بالدراهم. كان ذلك أمراً لا يُصدق. في لحظة ما، كان فقط القليل من الطلاب الأغنياء من يمتلك سيارة، لكن في اللحظة التالية امتلأت مواقف الجامعة بالسيارات».

بعد قرون من السبات وعقود قليلة من التغير التدريجي، فجأة انقلبت الحياة في المملكة رأساً على عقب. جلبت الدراهم الأجنبية معها أفكاراً أجنبية —الجيد منها والرديء، وفي عيون العديد من السعوديين القبيح جداً. بدأت النساء بالظهور في التلفزيون، وبشكل خادش للحياء للعديد من المحافظين. ظهر البعض منهن نصف عاريات بجانب حمامات السباحة في بعض الفنادق. أصبحت مدن المملكة تعجّ بفوضى البناء إلى الدرجة التي بدا فيها العمّال خلف الأتربة وهم يلبسون الخوذات الصلبة أشبه ما يكونون بالنمل المنتشر.أصبحت الرافعة المستخدمة بالبناء كما يقول البعض الشعار الوطني الجديد للمملكة العربية السعودية فانتشرت المدارس والجامعات

والقصور والمستشفيات والمساجد والمجمعات التجارية وشبكات الطرق والفنادق — والمتاجر فالمتاجر والمزيد من المتاجر.

«قد تسافر في الصيف»، هكذا يتذكر الأمير عمرو محمد الفيصل، حفيد الملك فيصل، «ثم تعود لتكتشف أنك محاط بأحياء جديدة. سوف تضيع في مدينتك!».

العائد البترولي تسبّب في موت سوق الندى الساحر في جدة، والتي أخذت هذا الاسم الشاعري من رائحة الصبح الرطبة التي تخرج من الأرض؛ إذ تم تغطية الأرض الناعمة ببلاط السيراميك الرخيص ذي البهرجة الزائدة، وقد ذهبت رائحة الندى إلى الأبد وجاءت بدلاً منها رائحة البترول المنبعثة من المولدات الكهربائية المزعجة التي يستخدمها التجار.

نظر الملك خالد، وهو خليفة الملك فيصل وأخوه غير الشقيق الذي استلم دفة الحكم في 1975م، إلى هذه التغيرات باندهاش كبير. «هل تستطيعون إخباري يا أبنائي؟». كان هذا لسان حال الملك خالد وهو يسأل أبناء إخوانه، أولئك الأمراء الشباب الموهوبين العائدين للتوّ من كاليفورنيا يحملون الشهادات العليا في إدارة الأعمال والهندسة والعلوم السياسية، «ماذا عليَّ أن أفعل تجاه هذه السمكة التي تفتح فمها وتبتلع الدراهم لتعطينا الحديد والإسمنت؟ هل هذه الثروات نعمة من الله للمسلمين أم أنها مجرد ابتلاء ولعنة؟».

لم يخامر ذلك الملك الورع أي شك في الإجابة على ذلك التساؤل. كان مجتمع المملكة مغلقاً بأمان لعدة قرون وأصبح اليوم مفتوحاً على

مصراعيه أمام كل خطر. لقد تعرّض عالم المملكة الصافي إلى التهديد. لكن الأبناء المزهوّين بأنفسهم كثيراً يعرفون الآن أكثر مما يعرف آباؤهم. أصبحت اللغة الإنجليزية أكثر أهمية من اللغة العربية، وهي اللغة التي اختار الله أن يكتب بها القرآن. لم يجد التقليديون في تلك اللحظة أي فرصة في التألق والمجد إذ إن تلك الظروف الجديدة ستسلبهم ماضيهم الجميل. شعروا بالخوف والضياع والغضب أمام هذه التغيرات الجارفة. لقد أصبحوا شذر مذر. لم يكن أمامهم وقد أصبحوا عاجزين عن مواجهة هذا التيار إلا الدفاع عن أنفسهم بهذه الكلمة «بدعة».

«كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، هكذا يقول الحديث الشريف عن النبي – على الرغم من أن استنكار الحديث، كما يراه معظم علماء الإسلام المعاصرون، يتعلق بتغيير الممارسات والشعائر الدينية، وليس المستحدثات التقنية كالسيارات والتلفزيون.

«الحياة قبل الثورة النفطية كان لها مذاق حلو، ونراها الآن شيئاً ثميناً»، هكذا يتذكر الدكتور خالد باحاذق الذي كان في الثالثة والعشرين من عمره في عام 1973م يدرس في أمريكا «عندما كنت طفلاً، كنا نعيش في بيوت جيراننا كما لو كانت بيوتنا. كنا نطبخ الطعام ونتشارك في أكله عندما نفطر في رمضان. إذا ارتكبت خطأً ما أمام جاري فسوف يؤدّبني وسوف يشكره والدي على ذلك. كنا عائلة واحدة وأصدقاء، ولم نكن بحاجة إلى سنّ القوانين حول مسألة تغطية الفتيات وجوههن. كنا مجتمعاً واحداً، ثم جاء المال، وجاءت معه السيارات فبدأنا بالسفر خارج البلدة واتخذ كل واحد منا منزلاً كبيراً محاطاً بجدران عالية – وسوف يعتبرك الجميع فاشلاً إن لم تفعل ذلك.

وجدنا أنفسنا منفصلين عن بعضنا البعض. أحسسنا بنوعٍ من الفراغ يدب في أعماقنا. عندما نحتفل بالزواج لا نجتمع كما كنا سابقاً نزيّن بيوتنا وبيوت جيراننا والساحات المحيطة بنا، بل صرنا نستأجر صالة ما في فندق حديث».

ملأ باحاذق الفراغ الذي شعر به في داخله بالاتجاه نحو الإسلام عندما كان يدرس في أمريكا مستعيذاً بالله من إغراءات الخمر والنساء فيها.

طلب من عائلته عندما عاد في إجازة عام 1975م أن يبحثوا له عن زوجة سعودية لتحصين نفسه ضد الحياة الماجنة في الولايات المتحدة.

«قامت العائلة بالاختيار. كان مسموحاً لي أن أقابلها قبل الزواج – أي أن «أتفحّصها» إن شئت ذلك. لكنني شعرت أن ذلك يؤذي مشاعرها. وثقت برأي عائلتي ووثقت بها. كنت سعيداً بعدم التصرف على الطريقة المادية الغربية الحديثة. لذا، كانت أول مرة رأينا فيها بعضنا البعض ليلة الزواج. وفقنا الله وبارك لنا هذا الزواج منذ ذلك اليوم».

أخذ باحاذق زوجته معه إلى أمريكا حيث أصبح ناشطاً إسلامياً هناك يساعد في إدارة وتنظيم المركز الإسلامي في الجامعة التي يدرس فيها. وفي الوقت الذي ازدادت فيه الثروة النفطية في نهاية السبعينات، كانت الصحف الغربية تكتب بشكل مكثف عن العرب الأغنياء الذين ينفقون أموالهم ببذخ سافرٍ في أوروبا. لكن اتضح لاحقاً أن هؤلاء الذين تبنّوا الانفلات الغربي فيَ العيش لا يمثّلون الإسلام الحقيقي. الثورة النفطية خلقت ثورة دينية لم تكن ضمن العناوين الرئيسية في الأخبار، وأصبح المستقبل تحت سيطرة رجال

أتقياء مثل خالد باحاذق الذي حمل رشّاشه الكلاشينكوف بعد ذلك واتجه نحو أفغانستان، أو بشكل أكثر دراماتيكية بيد أشخاص مثل ذلك الذي يُدعى «الوجه الغاضب».

***

كان لدى جهيمان العتيبي طاقة قلقة زائدة. «لم أره أبداً نائماً»، هكذا يتذكر ناصر الحزيمي الذي عاش وسافر مع جهيمان لمدة أربع سنوات في منتصف السبعينات. «كان مثل الأب أو الأخ للجميع، وكان دائماً جاهزاً لتقديم المساعدة، عندما نذهب للنوم، كان يطوف علينا ليتأكّد من غطاء كل واحد فينا. لقد أحبّه أتباعه. عندما يقود سيارة (الجمس) الخاصة به ونحن معه من أجل تجنيد الناس في القرى كان يردد «الله أكبر» طوال الطريق. كان قائداً. بعبارة أخرى، كما يقول الغرب، كان يملك الكاريزما، أو الجاذبية».

يبدو جهيمان، للعين الغربية، كما لو كان يملك بعضاً من ملامح رجال الدين المذكورين في التوراة. في ثوبه القصير وساقيه العاريتين، بَدَا جهيمان في شعره المجعّد كما لو كان يعيش في قرن مختلف، أو كبدوي في جدة يرتدي موضات جوتشي وأحذيتها وسياراتها الرياضية، وفي معنى ما كان هو كذلك. كانت حساسيته شديدة لكلمة «بدعة»، أو أي مستحدث في القرن العشرين. وفي الوقت الذي زاد فيه التأثير الغربي الناتج من الطفرة النفطية في كل أرجاء المملكة، التجأ جهيمان إلى الماضي القديم حيث وجد نفسه كما هو الحال عند من يبحث عن مستقبل جديد في الدين، أو في عالم بسيط وفطري، عندما يكون الإيمان نقياً وجديداً، جديداً جداً إلى الدرجة التي يتشكّل فيها إيمان جديد فعلاً.

ماذا أوحى الله للنبي محمد؟

«إقرأ!»

بدأ الله كلامه مع النبي محمد عندما كان عمره أربعين سنة — في الحساب القمري: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق» كانت هذه هي الكلمات التي ترتلت على سَمْع ذلك التاجر الشاب المرتبك وهو يتعبد في غار فوق أحد الجبال الشاهقة المحيطة بمكة. لقد شعر، كما قال لاحقاً، أن ملاكاً قد أحاط به وضغط على صدره.

كانت التعليمات الأساسية التي أخبره الله بها أن يجعل هذا العالم مكاناً أفضل، حيث الأغنياء يقدّمون المساعدة المالية للفقراء، وللنساء نصيبهن من ميراث الوالدين، وللرجال الحق في التعدّد بما لا يزيد عن أربع زوجات واقتصار القصاص على العين بالعين فقط.

لكن هذا الرأي الوسط الذي يحمل نوعاً من المساواة —والذي يُعتبر نموذجاً في الإصلاح الاجتماعي في ذلك العصر— لم يلق الترحيب من قبل تجّار مكة الأغنياء الذين بنوا ثرواتهم من الحجاج الذين يأتون لعبادة أكثر من 360 صنماً في المدينة. إصرار (النبي) محمد على أن هناك إلهاً واحداً فقط —كما يقول بذلك (النبي) ابراهيم (عليه السلام)— يُعتبر نوعاً من التهديد للتيار المكّي الذي يهتم بزيادة الدخل، وقد قاموا بكل ما يستطيعون القيام به

للوقوف في وجه هذه الحركة الجديدة عن طريق تعذيب أتباع النبي وأصحابه وتدبير مكيدة لقتله في فراشه.

لذلك أصدر (النبي) محمد توجيهاته لأتباعه بمغادرة مكة بعد أن رفض الناس الاتجاه إلى الله. لقد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة أولاً، ثم أمرهم لاحقاً أن يذهبوا نحو الشمال إلى واحة يثرب -على بعد مسافة خمسة أيام على الجمل- وعندما غادر آخر رجل من أصحابه مكة تبعهم مع صديقه العزيز ونصيره أبي بكر.

حظي الرجلان بعد سلامة الوصول إلى يثرب باستقبال حافل. كان أتباع (النبي) محمد ينتظرونه بشغف لأيام عديدة وهم ينظرون إلى الأفق الجنوبي خلف بساتين النخيل، وعندما لاحظوا في مساء متأخر شبح شخصين يمشيان في الأفق البعيد باتجاههم مع غروب الشمس صرخوا جميعاً محتفلين: «جاء الرسول! الرسول هنا!».

أصبحت هجرة الرسول من مكة بداية التاريخ الهجري الإسلامي حين أصبح أعضاء المجتمع الصغير الذين اجتمعوا حوله في يثرب قادرين على العيش لأول مرة بحرية ووضوح كمسلمين حقيقيين. في أسابيع قليلة، بنوا أول مسجد في الإسلام وهو عبارة عن بناية ذات جدار منخفض من اللبنات الطينية وفناء تظلّله أشجار النخيل، وقد استمعوا إلى الأذان الأول يُرفع لأول مرة بصوت بلال (العبد الذي حرّره أبو بكر) ، وباتباع توجيهات النبي صام المسلمون لأول مرة، وأقاموا القانون الإسلامي لأول مرة، هذا بالإضافة إلى سنّ العديد من الشعائر والشرائع التي أصبحت فيما بعد الهوية التي يحملها

كل مسلم. لقد أصبحت حركة الإصلاح الاجتماعي التي قادها الرسول ديناً جديداً حقيقياً بُني على (6236) آية أوحيت له (أو ما يُعرف بالعربية بالقرآن)[1].

أعيدت تسمية يثرب فأصبحت (المدينة)، أو مدينة الرسول، ومنذ ذلك الحين خضعت كل تفاصيل حياة الرسول في المدينة المنورة إلى الدراسة الفاحصة الدقيقة من قبل المسلمين؛ لأن محمداً لم يقدّم دينه كمادة نظرية للمدينة الفاضلة التي يمكن بناؤها في المستقبل. لقد قدّم الحياة في يثرب وتحت أشجار نخيلها كما يريدها الله أن تكون. في الوقت الذي اعتقد فيه المسلمون أن عالمهم يكتنفه الكثير من الصعوبات وأن حياتهم تسير في الاتجاه المعاكس لمكة الفاسدة، فقد حاول الكثير منهم تقييم حياتهم ومراجعتها بالمقارنة مع القالب القديم الذي كانوا عليه. هي بالأحرى العودة إلى ما كانت عليه الحياة في المدينة المنورة.

***

في منتصف السبعينات كان جهيمان العتيبي يعيش في المدينة المنورة محاولاً تقمّص الحياة التي كان يعيشها الرسول في ذلك الجزء من العالم قبل أربعة عشر قرناً. كان يملك منزلاً يبعد نصف ساعة مشياً على الأقدام عن مسجد الرسول، في الحرة الشرقية، وهي منطقة مجدبة من الصخور البركانية، وكان يعيش في بيت شعبي مع عائلته. أما مناصروه وأتباعه الذين بدأ في

---

1 - أصبحت الآيات التي أوحيت للنبي محمد خلال اثنتين وعشرين سنة وخمسة شهور في صدور قراء محترفين يحفظونها عن ظهر قلب. قام بكتابة هذه الآيات سكرتيره (أحد كُتّابه) زيد بن ثابت وجُمعت بعد ذلك في كتاب واحد (مصحف) في عام 644م، أي بعد اثنتي عشرة سنة من وفاة الرسول.

تجميعهم فقد كانوا يعيشون على بعد خمس دقائق من مقر إقامته في نزل مستعمل هو الآخر اسمه بيت الإخوان.

«كنّا ننام جميعاً على الأرض الطينية»، هكذا يتذكّر ناصر الحزيمي الذي ترك المدرسة وجاء إلى المدينة بحثاً عن معنى لحياته من خلال التبتّل في العبادة والاستغراق الديني. «لم يكن لدينا أي هاتف، ولم تحمل جدراننا أي نوع من الديكورات. أردنا أن نعيش ببساطة بأكثر مما نستطيع، كما كان يفعل النبي وأصحابه. لكن كنا بحاجة إلى قراءة القرآن ودراسته. لذا قرّرنا بعد مناقشة مستفيضة أن الاستعانة بمصباح كهربائي واحد أمر جائز».

كان هناك العديد من مثل هذه المناقشات.

«هل كان الرسول يأكل الدجاج؟» يسأل أحدهم وهم يتناولون إحدى الوجبات. «سؤال وجيه»، يردّ عليه جهيمان.

يتوقف الأكل في مثل هذه اللحظة ويذهب الإخوان لاستشارة القرآن والحديث (أقوال وأفعال النبي). كان جهيمان يحفظ كتبه في صندوق كبير محكم الإغلاق على ظهر سيارته الجمس، وفي لحظة كهذه يقوم بفتح ذلك الصندوق لكي يشرك الجميع في محتويات مكتبته الرحّالة. لا يأخذ الأمر وقتاً طويلاً في البحث عن إجابة لمسألة أكل الدجاج. تصوّر إحدى الآيات المذكورة في القرآن النبيّ وهو مسترخٍ في الجنّة يتناول فيها «فاكهة مما يتخيّرون، ولحم طير مما يشتهون».

إذاً، الدجاج حلال —ثم بعد ذلك يستأنفون أكل الطعام. هنا نحن أمام أصولية من أكثر الأنواع تشدّداً. يتجه الناس عادة إلى الدين في الأوقات العصيبة. «خير القرون قرني»، كما يقول الرسول في أحد أحاديثه الشهيرة، «ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». هذا يبدو كما لو كان دعوة إلى العودة إلى الوراء. بموجب هذا الحديث، فكل تفاصيل الحياة مهما كانت صغيرة بحاجة إلى البحث عن مقابل لها في الحياة التي عاشتها تلك الأجيال الثلاثة الفاضلة في ذلك الوقت.

هذه العملية تكررت تقريباً في كل جزء من العالم العربي في السبعينات الميلادية ردة فعل مع اختلافات بالطبع في طريقة الاستجابة للمؤثرات المادية والروحية التي جاءت من الغرب. يُطلق على هؤلاء الذين اختاروا فكرة العودة إلى الأساسيات اسم «السلفيون» لأنهم أرادوا أن يتصرّفوا كما تصرّف السلف، أو حرفياً أولئك الزهّاد الذين ينتمون إلى القرون الثلاثة التي فضّلها الرسول. أصبحت الجماعة التي تسمّي نفسها «الجماعة السلفية المحتسبة» الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر نشيطة في المدينة المنورة لبعض الوقت وقد التحق بها جهيمان عندما جاء إلى هناك فأصبح بذلك منتمياً إلى أقوى وأقدم جماعات العبادة والتقوى في المملكة.

***

أُنشئت الجماعة السلفية في المدينة المنورة في عام 1965م تقريباً بعد سلسلة من الاضطرابات المحلية التي عُرفت آنذاك بتكسير الصور الموجودة في الأماكن العامة وتمزيقها، بما فيها تلك التي تحمل صورة الملك.

«تعليق الصور على الجدار قد يؤدي إلى تعظيمها أو عبادتها»، هكذا أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز[2]، الرئيس القوي للجامعة الإسلامية في المدينة «وخاصة تلك التي تحمل صورة الملك». مكث هؤلاء المتظاهرون فترة وجيزة في السجن وبعد خروجهم قرّروا أن يؤسّسوا جماعة سلفية دعوية واتجهوا نحو ابن باز لكي يحصلوا على موافقته.

لقد كان عبد العزيز بن باز، وهو الأعمى منذ أن كان في الثامنة من عمره، مشهوراً في كل أرجاء المملكة كرجل دين لا يُشق له غبار. يظهر الشيخ دائماً مضبوطاً في وضعية الاستماع بعينين مغلقتين تماماً ووجهٍ قوي القسمات منتصب نحو السماء كما لو كان يريد الإمساك بهمسات شفيفة من لدن الله، خفية لا تكاد تُدرك. كما هي فتواه الآنفة الذكر في صور الملك، لم يكن ابن باز يخشى أي سلطة دنيوية. وبحسب الوثائق الأمريكية، كان شجاعاً إلى الدرجة التي واجه فيها الملك عبد العزيز نفسه في عام 1944م عندما ذهب إلى الرياض للشكوى والاعتراض على نشاطات المهندسين الزراعيين الأمريكيين في الخرج، تلك الواحة التي تقع في وسط نجد. لقد اعترض ابن باز، الذي كان يعمل قاضياً في الثانية والثلاثين من عمره في تلك البلدة، على الملك في تسليمه الأرض الإسلامية لمجموعة من الكفّار، وهذا يتناقض مع واجباته كولي أمر للمسلمين. كان القاضي الشاب غاضباً بشكل خاص

---

2 - عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن باز، أشهر علماء السعودية في العصر الحديث على الإطلاق، ولد في الرياض سنة 1330هـ (1913)م، وشغل مناصب علمية ودينية وقضائية عدة حتى وفاته سنة 1430هـ (1999)م. له أكثر من ستين مؤلفاً بين كتاب ورسالة أو تعليق، تولى رئاسة إدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد، ثم عُيّن مفتياً عاماً للملكة ورئيساً لهيئة كبار العلماء، ورئيساً لمجلس التأسيس لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس الأعلى العالمي للفتاوى ولمجمع الفقه الإسلامي، وسبق أن ترأس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

من اختلاط زوجات المهندسين بالنساء المحليات وهو الأمر الذي يجعلهن عرضة للتأثر بالأفكار الغربية المتحررة.

الوهابي الأول

وُلد محمد بن عبد الوهاب في عام 1115هـ (1703 – 1704 في التاريخ الميلادي) وتعلّم القرآن في وقت مبكر. سافر وهو في سن المراهقة إلى مكة والمدينة ثم أكمل ترحاله إلى البصرة في العراق لإكمال دراساته الدينية.

عند وصوله إلى القصيم، تلك المنطقة الجافة شمال الرياض في عام 1153هـ (1740م). أدرك الداعية الشاب الذي كان في السابعة والثلاثين من عمره أن مسلمي عصره قد ضلّوا ضلالاً بعيداً.كان الناس يقدمون القرابين ويقدسون القباب المشيدة على الأضرحة والقبور، بل وحتى الصخور والكهوف والأشجار التي يعتقدون أن لها علاقة بالأولياء الصالحين. كانوا يلبسون بشكل مترف ويدخنون السجائر ويمارسون الغناء والرقص بشكل لا يتفق مع قراءته المتشددة للقرآن.

شجب ابن عبد الوهاب واستنكر هذه الممارسات «الكافرة»، ودعا إلى العودة إلى الرسالة الأساسية في الإسلام وهي «لا إله إلا الله» وقاد الحملات لإيقاف الموسيقى وتحطيم القبب وشواهد القبور باسم التوحيد.كان يحب هو وأتباعه أن يُنادوا «بالموحّدين»، فهم لا يعتبرون أنفسهم مدرسة منفصلة في الفكر الإسلامي وإنما يشعرون أنهم فقط قد عادوا إلى الأساسيات. لكن

منتقديهم يصفونهم «بالوهابية»، كما أن العديد من ساكني نجد رفضوا دعوة الشيخ وهجمته الصحوية على ملذاتهم.

ثم قابل الوهّابي الأول هذا محمد بن سعود حاكم الدرعية الطموح، والدرعية واحة صغيرة بالقرب من واحة أصغر منها هي الرياض، فتغير التاريخ بعد ذلك. في عام 1157هـ (1733 م) عقد المحمدان - ابن سعود وابن عبد الوهاب - اتفاقاً تاريخياً بموجبه يقدم ابن سعود الحماية له والدعم في نشر دعوته الإصلاحية التي تجعل من القرآن أساساً للحكم.

وفي المقابل، يقدم ابن عبد الوهاب الدعم للحاكم مبشراً إياه «بالعزة والمنعـة» حيث وعده أن من تمسك برسالة التوحيد «ملك بها البلاد والعباد».

وقد نجح هذا الاتفاق. أعلن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الجهاد في السنة التالية من أجل تطهير الجزيرة العربية، وبعد سلسلة من الحملات العسكرية الدامية دخلت الجيوش الوهابية مكة في أبريل 1803م - (1218هـ)، موسّعة النفوذ السعودي من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. بعبارة أخرى كان ابن سعود يسيطر على مناطق أكثر مما كانت تسيطر عليه المملكة المتحدة آنذاك.

لم تدم هذه الإمبراطورية طويلاً، فقد غزت القوات التركية والمصرية نجد تحت اسم الخليفة العثماني من أجل معاقبة الوهابيين على جرأتهم غير المسبوقة. في عام 1233 هـ (1818 م) ، أمطر الغزاة الدرعية بوابل من الرصاص باستخدام المدافع التي أحضروها وأحالوا أسوار الدرعية الطينية إلى ركام على الأرض. لكن التحالف السعودي الوهابي أثبت قوته إلى

الدرجة التي تجاوز فيها هذه الإهانة وكل الخلافات العائلية التي لحقتها وعاد من جديد تحت راية عبد العزيز بن سعود (الحفيد الثالث لمحمد بن سعود). احتكمت السعودية الجديدة إلى القرآن كما كانت الدرعية تفعل وبقيت العقيدة الوهابية قوية كما كانت عليه – وهي عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي صنعها الإنسان بيديه، والاستمرار على النهج الإسلامي الأصيل ببساطة شديدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

***

المبدآن الأخيران واللذان يشكلان مفهوم الحسبة هما العنصران اللذان، كما يقول ابن باز، يفتقدهما الاقتراح الذي قدّمته مجموعة المدينة السلفية له في عام 1965م بعد حركة تكسير الصور في الأماكن العامة. اقترح عليهم إضافة الحسبة (وصِفتها المحتسبة) إلى اسم الحركة وبذلك تمت ولادة الجماعة السلفية المحتسبة، أو المجموعة السلفية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وقائدها الروحي أو مرشدها ذلك الشيخ الأعمى، ثم انطلقت هذه الحركة باسم الله تنشر الكلمة الطيبة في أرجاء المملكة.

كان علي سعد الموسى، وهو الآن أكاديمي وكاتب عمود صحفي من المنطقة الجنوبية في عسير، في السادسة عشرة من عمره عندما وصلت دعوة هذه المجموعة السلفية إلى الجنوب في منتصف السبعينات. كانوا يطوفون في منطقة علي الجبلية الخضراء على تخوم الحدود الجنوبية مع اليمن.

«بَدَوا كما لو كانوا الحواريين القدماء»، هكذا يتذكر علي: «يجوبون كل المناطق المحيطة. أقاموا معسكراً في مسجدنا لمدة أسبوع وعاشوا ببساطة على ما يمكن أن نقدم لهم. مازلت أتذكر لحاهم الكثة حتى هذه اللحظة».

كانت اللحى الكثيفة، وما زالت، أحدى أهم العلامات المميزة للمدرسة السلفية، وذلك بسبب الاعتقاد السائد، الذي قد يخالفه بعض العلماء، أن الرسول لم يحلق لحيته أبداً. العلامة المميزة الأخرى هي الثوب القصير وذلك لأن ثوب الرسول لم يلمس الأرض ولم يجره يوماً.

كان أكثر ما جذب علي بوجه خاص اللحية السوداء الشرسة لجهيمان الذي أصبح في ذلك الوقت أحد قادة الجماعة وأحد الدعاة الأقوياء والمؤثرين. يستطيع الدكتور علي، كمحاضر في علم اللغة، أن يحلل الآن أسلوب جهيمان الدعوي: «يبدأ حديثه بالأعداء الواضحين مثل أمريكا، والغرب، والمنكرات التي يقوم بها غير المسلمين. ثم يُشعر مستمعيه بالذنب فيعترفوا به ويتملكهم الخوف بعد ذلك، فيستمر بالعزف على وتر الأشياء التي يخافون منها «أنتم مجتمع فاسد» كان يقول لهم، «يجب أن تعودوا إلى الله». كان يعرف كيف يخيف العامة والبسطاء. كان ذلك كله يتمحور حول كلمة الخوف. وكان أيضاً ينتقد الإعلام ويسمه بالعلمانية حيث صور النساء تنتشر في الصحف، كما انتقد أيضاً المناهج الدراسية وعدم كفاية ما تقدمه عن الدين. كان حريصاً على ألا ينتقد بشكل مباشر العائلة المالكة، لكن منهجه كله كان ضد الحكومة».

أينما يولي جهيمان وجهه يجد البدعة، أو المحدثات الخطيرة، أمامه.

كان الهدف الرئيسي من الجماعة السلفية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أن تركّز على الإصلاح الأخلاقي، وليس على الإصلاح السياسي. لكن الدين هو السياسة والعكس صحيح في مجتمع قد اختار القرآن لتنظيم حياته.

«اختلف جهيمان مع الحكومة عندما سهّلت حصول النساء على عمـل». هكذا يتذكر ناصر الحزيمي، وهو أحد أتباع جهيمان العتيبي.

«وكان يعتقد أن الحكومة قد قامت بعمل غير أخلاقي عندما سمحت بإقامة مباريات كرة القدم يلبس فيها اللاعبون السراويل القصيرة في تلك الأيام. كان يستخدم العملة المعدنية، ويرفض الورقية لأنها تحمل صور الملك. كان يعتقد أن طباعة صور الحكام على الأوراق النقدية بدعة سيئة. إنها مثل التلفزيون، ذلك الشيطان المخيف الذي دخل كل منزل».

لم يكن جهيمان وحده في ذلك التفكير الإقصائي بل شاركه كل من كان يسكن في بيت الإخوان، وخاصة المجندين الجدد. البعض منهم كان يرفض جواز السفر والبطاقة الشخصية بحجة أنها تُظهر الولاء والطاعة لكيانات غير الإسلام. والبعض الآخر منهم كان يعكف على دراسة القرآن والسنّة لاشتقاق تفسيرات خاصة بهم حول بعض الطقوس الدينية، فيأتون تبعاً لذلك بقوانين جديدة مثل تلك المسألة الخاصة بإبقاء أو خلع الحذاء أثناء الصلاة. وبعد بروز أخبار هذه الفتاوى المتشددة انتبه المشرفون على هذه الجماعة للخطر القادم، خاصة مع غياب ابن باز الذي انتقل إلى الرياض في عام 1975م للاضطلاع بمسؤوليات دينية أكبر، وسافر البعض منهم إلى ذلك

الجزء المظلم غير المرحّب به في شرق المدينة لإعادة جهيمان وجماعته الشابة المتطرفة إلى الطريق المستقيم.

«كان ذلك في نهاية صيف 1977م». كما يقول ناصر الحزيمي. «كانت ليلة حارة وكان علينا أن نصعد إلى السطح هرباً من ذلك الحر الشـديد».

كانت قطع «البلوك» الإسمنتية تحيط بمنزل الإخوان من الخارج فلم يكتمل العمل فيه بعد حيث بدت الأنابيب العارية تتدلى من السطح. في هذا المكان الخام وتحت نجوم السماء دار حديث صاخب بين ذلك الوفد وجهيمان الذي أخذ زمام الحديث بعنف واستأثر به نيابة عن أتباعه المتطرّفين فتكلم عن أهمية «الصحوة» متهماً الشيوخ ببيع أنفسهم للحكّام، وأنهم لا يمثلون السلف الصالح ولم يقرأوا أمهات الكتب بشكل جيد، ثم استمر في كيل اتهاماته إلى الدرجة التي اتهمهم فيها بأنهم مجرد مخبرين يعملون في المباحث.

كان نقاشاً شخصياً مريراً فوق السطوح انتهى بانقسام شديد. وفي الوقت الذي غادر فيه الشيوخ بأقلية تمثّل الأعضاء المؤسسين للجماعة، بقيت الأغلبية التي تمثل ذلك الشباب المتحمس في نزل بيت الإخوان يأخذون توجيهاتهم من جهيمان. منذ تلك اللحظة، بدأوا في تسمية أنفسهم بالإخوان – وهي كلمة طالما جلبت معها الذكريات القاسية في المجتمع السعودي.

الفصل الثاني



الإخوان

ترمز كلمة «الإخوان»، في معظم الدول العربية في السبعينات، إلى حركة الإخوان المسلمين، تلك الشبكة القوية من النشطاء الإسلاميين التي تعمل تحت السطح وأثّرت أفكارها على أسامة بن لادن في شبابه. أسّست حركة الإخوان المسلمين في مصر ومن جذورها المتشددة خرج المتطرفون الذين اغتالوا الرئيس المصري أنور السادات في عام 1981م. لكن عندما كانت تُقال كلمة «إخوان» لمعظم السعوديين في السبعينات، وخاصة للكبار منهم، فإنهم سيتذكرون إخواناً من نوع مختلف وقديم كان ذا طابع سعودي خالص.

عبد العزيز والإخوان

كان المحاربون من القبائل البدوية الذين حاربوا مع عبد العزيز بن سعود في العقود الأولى من القرن العشرين يسمون أنفسهم بالإخوان، وكانت شراستهم في المعارك مفتاح النجاح العسكري لابن سعود. أخبرهم إمامهم، كما في دعوة محمد بن عبد الوهاب التاريخية، أن دعم ابن سعود هو نوع من الجهاد وأن من يعارضونه هم من الكفار ويستحقون الموت. كما أنهم يعتقدون

أن من يموت في المعركة من المقاتلين معه سيذهب مباشرة إلى الجنـة، وهذا ما أقنع الإخوان في عدم الاهتمام بالموت الأمر الذي جعل معظم المدن تستسلم بمجرد اقترابهم من تخومها لأنها أدركت أن ذلك أفضل من مغامرة الموت تحت سيوفهم.

لذلك ساهم المحاربون من الإخوان، في أوائل العشرينات الميلادية، في مدّ السلطة السعودية إلى حدود البحر الأحمر. زاد الملك عبد العزيز قواته من أبناء المدن أو الحواضر، لكن الإخوان بقوا كما كانوا في طليعة جيشه متجهين نحو مكة والمدينة، حتى وصلوا إلى ميناء جدة الغني حيث استسلمت لآل سعود في عام 1925م. تم بناء الإمبراطورية فأمر الملك عبد العزيز محاربيه الأتقياء بالعودة إلى مناطقهم الريفية محمّلين بما استطاع أن يجمعه من ذهب. أخبرهم أنه لم يتبق هناك من أعداء لمحاربتهم. جاء الوقت لهؤلاء المحاربين الشرسين من أصحاب اللحى أن يعودوا إلى ديارهم للاستمتاع بحياتهم بين زوجاتهم وأولادهم والعيش بسلام وهدوء.

لكن الإخوان لم يتعودوا على الاستقرار، فهم بدو رحّل آخر الأمر. كانت حياتهم عبارة عن مجموعة من الغارات هنا وهناك، ومن وجهة نظرهم فإن هناك الكثير من المعارك التي تنتظرهم خاصة ضد بعض المارقين في العراق وما وراء الأردن، أي جيرانهم الجدد في شمال غرب، وشمال شرق الجزيرة العربية. أقامت بريطانيا هذه المستعمرات بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن قسّمت الإمبراطورية العثمانية المنهزمة، وبالنسبة للإخوان فإن مبدأهم الذي طالما آمنوا به معرّض للخطر.

وفي محاولة لترسيم الحدود الجديدة مع الجيران قام الإنجليز بوضع علامات حدودية في الصحراء وذلك من أجل إيقاف حرية الحركة لهؤلاء البدو الرحّل الذين تعودوا على التحرّك في أي اتجاه يريدون.

وفي نهاية العشرينات، استمر الإخوان من قبائل مطير وعتيبة الذين أصبحوا أكثر عدة وعدداً في الإغارة والكرّ والفرّ كما كانوا يفعلون سابقاً. لقد بدأ يساورهم الشك في أن قائدهم السابق قد عقد اتفاقية سلام مع البريطانيين، وأنه، وهذا أشد خطورة، قد نسي كيف يحارب. لا يملك عبد العزيز جيشاً حقيقياً. هكذا يقول قائد الإخوان فيصل الدويش ساخراً وهو يتحدث إلى زميله قائد عتيبة سلطان بن بجاد. آل سعود هم مجموعة من المرفّهين الذين ينامون على الفرش الناعمة.

كان الإخوان محقّين في مسألة البريطانيين. لقد قرّر عبد العزيز أن يعيش بانسجام مع أكبر قوة استعمارية في المنطقة لأنه لا يملك خياراً آخر. كما أنه يجب احترام الحدود الدولية وخاصة مع تلك الدول التي تخضع للحماية البريطانية في حدوده الشمالية. لهذا السبب طلب من الإخوان أن يتراجعوا عن غاراتهم، وعندما تجاهلوا أوامره أعلن أنهم مجموعة من المتمردين.

لكن الإخوان كانوا مخطئين عندما اعتقدوا أن الملك عبد العزيز كان ضعيفاً. لقد أمضى الملك عبد العزيز قرابة العام محاولاً استرضاء الدويش قبل المواجهة الحاسمة. في بداية شهر مارس من عام 1929م تحرّك الملك السعودي شمال الرياض بقوة عسكرية من السيارات المفتوحة التي تحمل الرشاشات الأوتوماتيكية وواجه المتمردين الذين كانوا يمتطون الجمال في

الساحة المفتوحة لروضة السبلة التي كانت تذروها الرياح. قدّم لهم الملك فرصة أخيرة للاستسلام وعندما تجاهلوه وهجموا عليه، أعطى أوامره بإطلاق النار. قُتِل المئات من الإخوان وكذلك جمالهم معهم.

تحاول العائلة المالكة أن تقنع الجميع بأن معركة السبلة كانت حرباً عادلة —وكانت تلك المعركة، بل والمشروع السعودي برمّته، تحت المحك. لكن في الطرف الآخر، يرى المنتقدون أن تلك لم تكن كذلك— بل وأسوأ من ذلك: في سياق الخمس عشرة سنة السابقة، كانت تلك المعركة تمثّل تخلياً لا رحمة فيه عن المحاربين الذين قاتلوا إلى جانب آل سعود.

«لقد وصلت السعودية تقريباً إلى شكلها النهائي كنتيجة لحربها المستمرة ضد الكفّار»، هكذا كتب هاري سانت جون فيلبي، أول مؤرخ إنجليزي كتب عن المملكة، بعد ذلك، أصبح الكفار بقدرة قادر حلفاء وموضع التقدير والاحترام .«أما المتعصبون من الإخوان فلا يجب الانتباه لهم، لأنه لم يعد لهم دور يمكنهم القيام به».

***

من بين الإخوان الذين نجوا من المدافع الرشاشة محمد بن سيف العتيبي الذي جاء إلى المعركة مع قائده سلطان بن بجاد، وهو أحد المحاربين المشهورين الناقمين على عبد العزيز. انتهت حياة القائد العتيبي في أحد سجون الرياض، كما تقول الرواية، وقد كانت كلماته الأخيرة «لا تستسلموا أبداً». أما صاحبه محمد بن سيف العتيبي فقد رجع إلى ساجر، معقل الإخوان، وهي البلدة التي تقع في الأرض المنبسطة على الحدود مع منطقة القصيم. في

تلك المدينة وفي أوائل الثلاثينات الميلادية وُلد له ابن اختار له اسماً صعباً هو جهيمان.

ورث جهيمان العتيبي الذي نشأ في ساجر التركة المتناقضة للإخوان. كان شغوفاً في سرد قصص الشجاعة التي عاشوها يحاربون من أجل عبد العزيز ويحاربونه أيضاً. التحق في سن العشرين بالحرس الوطني، الجيش القبلي الذي شكّلته الدولة السعودية من الإخوان الذين بقوا على وفائهم لعبدالعزيز (والذين يمثّلون الأغلبية). كان الحرس الوطني يُعرف «بالجيش الأبيض» على اعتبار أنهم لا يلبسون زياً عسكرياً ويتم استدعاؤهم للخدمة بشكل عشوائي في تلك الأيام بثيابهم البيضاء. ترك جهيمان العتيبي دراسته في المرحلة الابتدائية بعد فشله في مهارة الكتابة. لكنه في مكان ما أظهر رغبة مذهلة في القراءة الدينية وبدأ بجمع الكتب التي كانت تفيض بها شنطته المغلقة في صحن سيارته (الجمس).

شجّع الحرس الوطني منتسبيه على ممارسة النشاطات الدينية، إذ كان لكل وحدة منه إمام وشيخ متخصّص في الدعوة الوهّابية – وهؤلاء أصبحوا تابعين للحكومة السعودية الحديثة فلم يعودوا يتكلمون عن الجهاد. لهذا السبب تركهم جهيمان في بداية السبعينات الميلادية للمشاركة في نشاطات المجموعة السلفية في المدينة المنورة التي كانت أكثر إثارة وجاذبية، وقد كان يكسب رزقه عن طريق الشراء الحاذق للسيارات – ثم إصلاح الرديء منها وبيعها في حراج السيارات بجدة. ونظراً لمباركة ابن باز وموافقة المؤسسات الدينية على نشاطات المجموعة آنذاك فقد انهالت التبرعات الخيرية من أهل البر والجمعيات الخيرية في المملكة.

«في أول الأمر كان الدعم المالي لبيت الإخوان يأتي من ابن باز»، كما يقول الحزيمي، إلا إن ذلك قد تغير في عام 1977م بعد القطيعة التراجيدية سابقة الذكر التي حدثت فوق سطوح ذلك المنزل وبين أنابيبه العارية. وحتى ذلك الوقت، كان ما زال الاعتقاد الشرّيرِ الذي يؤمن به جهيمان حول الأوراق النقدية ولاعبي كرة القدم رائجاً ومقبولاً.

«عندما نتعرّض لعقبة رسمية»، يقول الحزيمي، «كان ابن باز يرفع سماعة الهاتف أو يذهب لهم شخصياً ليشرح لهم أننا نقوم بنشر الدين الصحيح لنجعل دولتنا أكثر إيماناً. وعندما تم القبض على مجموعة من الإخوان في الرياض في أحد الأيام، اتصل الشيخ بوزارة الداخلية، فتم إطلاق سراح الجميع».

«بعد تلك المواجهة التي حدثت فوق السطوح، وبعد العداء المستحكم الذي يكنّه المشايخ لجهيمان بعد رفضه لهم، وجد الإخوان أنفسهم تحت ضغوط كثيرة. في أواخر عام 1977م أسرّ أحد أصدقاء جهيمان -والذي كان يعمل في قوات الأمن- أسرّ له خبراً وحذّره من أن أمراً قد صدر بالقبض عليه للتحقيق معه.

«جمعنا متاعنا وغادرنا جميعاً في تلك الليلة»، يقول الحزيمي والذي كان يرافق جهيمان، «كنّا نهرب من الباب الخلفي في الوقت الذي كانت فيه الشرطة تطرق الباب الأمامي».

منذ تلك اللحظة، صار جهيمان مطارداً. تمّ القبض على أكثر من ثلاثين

من الإخوان للتحقيق معهم واحتُجِزوا لفترات تتراوح بين أسبوع وعدة أشهر وتغيّرت بالتالي التكتيكات التي كانت تستخدمها الحركة. بدأت مغامرات جهيمان عندما اتجه نحو الصحاري الشمالية متفادياً محاولات القبض عليه كما كان يفعل روبن هود. كاد أن يقع في أيدي السلطات عندما غامر في زيارة أمه في ساجر لولا أنه عرف في اللحظات الأخيرة أن السلطات بصدد حصار بيت عائلته. وتم تهريبه، في إحدى المرّات، إلى طبيب أسنان ليعالج أحد أسنانه الملتهبة بعد أن أخذ العهد عليه بعدم كشف شخصيته. حالة الهرب التي كان عليها جهيمان خلقت جوّاً من الخوف والمواجهة وأعلنت بدء عصر جديد للحملة الإصلاحية التي كان يقوم بها الإخوان – والتي انتقلت من الخيار إلى الإجبار، حيث أصبحت الآن أكثر تطرّفاً وعنفاً وسريةً في نشاطاتها مما كانت عليه. لقد اتجهت في الواقع إلى الإرهاب.

***

تحوّل جهيمان إلى الكلمة المكتوبة والصوتية حيث لم يعد بمقدوره أن يقابل زملاءه ويتحدث معهم بشكل مباشر. لم يعثر أحد على أشرطته الصوتية التي سجّلها خلال الأشهر التي قضاها، لكن ما زال هناك بعض الكلمات المكتوبة المنسوبة إليه وهي اثنتا عشرة خطبة لاذعة وغاضبة يتناقلها المتطرّفون الإسلاميون بينهم خلال السنوات الماضية كالأساطير، يسمّونها «رسائل جهيمان».

يمكن اختصار الرسالة التي تحملها هذه الخطب بموضوعه الموسوم «الدولة، الولاء، والطاعة» والذي يعتبر أهم هذه الخطب سياسياً. يبيّن جهيمان أن آل سعود قد استغلّوا الدين «كوسيلة لتحقيق مآربهم الدنيوية بعد

أن أنهوا الجهاد وأظهروا الولاء للمسيحيين (أمريكا)، وأحضروا الشرّ والفساد إلى المسلمين». هذا يلخّص الاتهامات التي يحملها المتطرّفون ضد العائلة المالكة السعودية، والتي تنتهي عادة منذ ذلك التاريخ بكلمة واحدة هي الخيانة. هذا هو التبرير نفسه الذي استخدمه الإخوان الأوائل الذين حاربوا في معركة السبلة، وهو نفس الرسالة التي حملها أسامة بن لادن في هجماته في الحادي عشر من سبتمبر على أمريكا.

لكن بعد هذه الافتتاحية العصماء، أفسد جهيمان قضيته عندما خاض في مسائل شائكة تتعلق بالسلالة الإسلامية لكي يثبت أن آل سعود ليسوا من سلالة الرسول، وهذه نقطة لا معنى لها لأنهم لم يدّعوا أبداً أنهم كذلك. لم يكن جهيمان أبداً مفكّراً منضبطاً، وها هو الآن يتعرّض للانتقاد في الرسالة التي وضعها لنفسه. كان يملي أفكاره بمجرد دخولها في رأسه على أصحابه المذعنين له. «كان يقرأ أفكاره بصوت عالٍ»، يقول ناصر الحزيمي، «كما لو كان رسولاً يتلقّى الوحي»، ولهذا كانت رسائله تأخذ طابع خطب الجمعة المجلجلة.

«تبدو غريبة بعض الشيء»، هكذا يتذكّر نبيل الخويطر، الطالب آنذاك في جامعة البترول والثروة المعدنية، والذي اطّلع بالصدفة على بعض هذه الرسائل في عام 1979م. نُشرت تلك الرسائل المطبوعة بالألوان الخضراء والصفراء والزرقاء، بشكل خفي وهُرّبت عبر الحدود مع الكويت حتى وصلت إلى داخل مصاحف القرآن الكريم الموضوعة في مؤخرة مسجد السكن الجامعي الذي كان يصلّي فيه نبيل وزملاؤه الطلاب – الذين كانوا يمثّلون خبراء البترول في المستقبل للمملكة العربية السعودية.

«كانت تلك الرسائل تتحدّى فكرة الشرعية الدينية والمشروعية السياسية لحكم آل سعود»، كما يتذكّر الخويطر، «وقد كان ذلك صادماً في تلك الأيام لأنه لا يوجد انتقاد للحكومة أبداً في الصحافة، وإن وُجِد فإن ذلك يكون على استحياء كشكوى لوزير ليس من العائلة المالكة عن بعض خدمات وزارته. لم أتجرأ أبداً في إخبار أحد عن تلك الرسائل إلا لمن أثق بهم من الأصدقاء والأقارب- وفي الحقيقة حذّرني أحد أقاربي من أن هذا قد يكون من عمل المباحث (الشرطة السرّية) كطعم من أجل الإيقاع بمن كان يحمل أي نوازع أو اتجاهات في الانشقاق أو المعارضة».

«من هو الشخص الذي سمع باسم مثل جهيمان؟ إذا كان رجلاً حقيقياً فليخرج ويعطي اسمه الحقيقي بدل محاولة تضليل مجموعة من طلاّب الجامعة الشباب ودفعهم للقيام بالدور القذر الذي تهرّب منه».

يحاول جهيمان إقناعنا أن استخدام الصور في البطاقة الشخصية دليل على أن الحكومة كافرة. لا أجد نفسي شخصياً منجذباً إلى مثل هذا الكلام، لكن الرسائل التي كتبها جهيمان قد سجّلت فعلاً ما دار في ذلك التاريخ. من ناحية، كانت هناك الثروة الجديدة- أي الثروة النفطية الهائلة وما يعنيه ذلك من الاتجاه نحو الحياة على الطريقة الغربية. ومن ناحية أخرى، كانت هناك الهوية الضائعة حيث ذهبت الحياة القديمة إلى غير رجعة. كان هناك ذلك الإحساس المزعج في أن الأشياء قد انحرفت عن طريقها الصحيح، ولهذا كان هناك نوع من الراحة أن تجد بعض الخيارات والبدائل، حتى ولو كانت مكتوبة على الورق، وتحمل طابعاً غريباً. أنا مع الفكرة التي تقول إننا بحاجة إلى أناس يخافون الله يشغلون مناصب في السلطة. هذا ما كان يفكّر به العديد من الشباب في ذلك

الوقت. كانت الرسالة واضحة – «ضعوا رجال الدين في السلطة».

***

حدثت المرحلة الأخيرة في انتقال جهيمان العتيبي من الدعوة الجادة إلى الدعوة الثورية العنيفة في مكان ما في الصحاري الشمالية في نهاية 1978م، إذ كان ذلك الهاربِ مستلقياً تحت بطانيته وهو ينظر إلى السماء. بدأ جهيمان يحلم. كان دائماً يفكّر بالنبوءات التي ستحدث في المستقبل عن المسيح الإسلامي- أو المهدي، الذي سيهبط إلى الأرض لعلاج المشكلات التي يعاني منها البشر. كانت الفكرة متداولة بين رجال الدين وأهل التقوى والآن، كما يحلم جهيمان، حان الوقت أن يأتي رجل لإصلاح ما فسد في الجزيرة العربية.

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾. كما في إحدى سور القرآن الكريم والتي لا يتم تداولها كثيراً أمام ملوك الشرق الأوسط، ﴿أفسدوها وجعلوا أعزَّة أهلها أذلة﴾. (النمل: 34).

في الصفحات الأولى من رسائله، يبيّن جهيمان، من وجهة نظره، أن الظروف والأحداث التي شهدتها الجزيرة العربية هي تلك العلامات التي تشير إلى قرب ظهور المهدي حيث «تنتشر الفتن» كما تقول بعض النبوءات، «وسيبتعد المسلمون تدريجياً عن الدين». أصبحت هذه الأمور حقيقةً وواقعاً مشاهداً بعد أن جلب آل سعود الكفّار إلى الجزيرة العربية. وهناك نبوءة أخرى تقول إن المهدي سيظهر في فجر القرن الجديد. كان ذلك أيضا صحيحاً حيث كان العام يوافق 1399هـ حسب التقويم الإسلامي.

هذه كانت أحلام جهيمان التي كشفت له شخصية المهدي — وهو أحد أتباعه واسمه محمد ابن عبد الله القحطاني، شاب ورع ووسيم كان قد ترك الجامعة واشتهر بين محيطيه بقول الشِعر، وكان من أعضاء الجماعة السلفية الذين تم احتجازهم في الرياض ثم أُطلق سراحهم بعد ذلك.

«المهدي منّا آل البيت (قريش)»، كما جاء في أحد الأحاديث النبوية التي رواها أبو سعيد الخدري، «أجلى الجبهة، أشمّ الأنف».

هذه السمات تتطابق مع القحطاني الوسيم الذي كان اسمه واسم أبيه مطابقاً لاسم الرسول، أما عائلته غير القرشية فقد تم تبريرها بقصة تبنّ حدثت للقحطاني في أجيال سابقة.

يعتقد ناصر الحزيمي أن هذه القصة سخيفة جداً.

«كان القحطاني رجلاً عادياً، وليس المهدي المنتظر».

لم يقتنع الحزيمي بقصة التبنّي البعيدة للقحطاني ولا بحقيقة أنه من سلالة النبيّ، وبدأ يساوره الشك في أحاديث أخرى كان جهيمان يفسّرها، مثل ذلك الحديث الذي يتعلّق بجيش يأتي من الشمال فتبتلعه الأرض. طلب جهيمان من الإخوان إعداد السلاح قبل نهاية العام، وشراء أجهزة مذياع (راديو) صغيرة لسماع أخبار عن الملائكة التي ستهبط من السماء لكي تهزم الجيش الشمالي. سافر جهيمان إلى المدن الرئيسية لتجنيد ما تبقّى من المخلصين للجماعة السلفية التي كانت موجودة في الستينات وإخبارهم

بالعلامات التي تؤكد ظهور المهدي قريباً. وقد بيّنت عمليات القبض الأخيرة على بعض المؤمنين الأتقياء من الإخوان أن الحكومة كانت تحاول منع تحقيق هذه النبوءة. طلب جهيمان من أتباعه الخروج إلى الصحراء لكي يتدربوا على الرماية والتصويب.

هذا ما كان يكرهه ناصر الحزيمي ذلك الرجل المسالم الذي ينفر من حمل السلاح؛ لذلك، مثل العديد من الأشخاص اعتذر بهدوء وانسحب من الحركة التي بدأت تفقد الصلة بالواقع.

لكن جهيمان مؤمن حقيقي، ويأخذ الأحلام على محمل الجدّ كما يفعل المسلمون- كان جبريل يتكلّم مع الرسول في أحلامه.

«إنها رؤى، ورؤيا المؤمن صادقة» كما قال أحد الإخوان للحزيمي قبل أن ينفصل عن الجماعة، «وهذا يدلّ على أننا أكثر ورعاً وتقوى».

وفي الوقت الذي كان جهيمان يسرد رؤاه حول المهدي، كان أيضاً لأصحابه المخلصين أحلامهم الخاصة في هذا الأمر، ومن بينهم أخت القحطاني التي رأت في منامها أخاها يقف داخل المسجد الحرام في مكة يستقبل المهنئين من المصلّين بجانب الكعبة (ذلك المبنى المكعّب المطرّز بالقماش الذهبي والأسود في منتصف ساحة المسجد). طلّق جهيمان زوجته وتزوّج بصاحبة الرؤى، لكي يصبح صهر المهدي.

وباقتراب العام 1400هـ، بدأ نوع من الهستيريا يسيطر على الإخوان. كانوا يروحون ويجيئون داخل مكة كرجال دين مطّلعين على بواطن الأمور في الحرم بينما كانت عيونهم تتجه إلى خلوة المسجد، حيث المخابئ وغرف القراءة الموجودة في قبو المسجد الحرام. يُسمح فقط للمعتكفين والزهّاد بالنزول إلى الخلوة التي تحتوي على أروقة واسعة وأماكن مفروشة وغرف مستقلّة مخصصة للعبادة والتبتّل الديني. لقد قرّروا أن تكون هذه الغرف السفلية مقراً لإقامتهم- حيث يمكنهم الدخول فيها وحمايتها بانتظار أن تتحقق نبوءاتهم.

الآن، أصبح المتمردون ينتقدون العائلة المالكة بصراحة بشكل مُعلن إلا إنهم في الوقت نفسه لا يملكون خطة محكمة لقلب نظام الحكم في السعودية. كانوا يعتقدون أنهم إذا وضعوا أنفسهم في المكان المناسب وفي الوقت المناسب فإن الله سيتكفّل بالباقي- وسوف تُحجز لهم عند ذلك المقاعد الأمامية. تمكّنوا بعد رشوة مقاولي الصيانة والبناء التابعين لشركة بن لادن والمسؤولين عن الموقع في المسجد من إدخال سياراتهم مباشرة إلى قبو المسجد. وباقتراب نهاية عام 1399هـ أخذوا يروحون ويجيئون في شوارع مكة بشكل مُعلن وهم يتزوّدون بالمتاع والزاد وينقلونه إلى خلوة المسجد- التمر والماء والإقط وأيضاً الأسلحة والذخيرة.

حاول المتمردون أن تكون خططهم طي الكتمان، لكنهم من فرط الحماسة والإثارة بقرب تحقّق أكثر النبوءات شهرة في الإسلام، خاصة وأن أعدادهم بالمئات، لم يكن من المستغرب أن تتسرّب بعض مخططاتهم. في أوائل نوفمبر، كان علي بن سعد الموسى، ذلك الطالب اللامع الذي كان قد

استمع إلى جهيمان وهو يتحدث منذ سنوات، يحضر جنازة لأحد أقاربه في عسير. «كانت ليلة باردة»، يقول الموسى، «وفجأة تكلّم شخص ما من قريتنا بصوت مرتفع قائلاً إن الخضر، ذلك الرجل الصالح الذي يخلط المسلمون بينه وبين المهدي، سوف يظهر مع مقدم القرن الجديد، وسوف تتغير الأمور». استمع الناس باهتمام كبير وهم يهزون رؤوسهم. كان واضحاً أن مجموعة كبيرة من الناس قد صدّقوه.

***

الأكفان السعودية ليست صناديق خشبية، بل هي أشبه بناقلات الإسعاف المفتوحة حيث يُسجّى فوقها الميّت لكي يتم نقله إلى قبره. إحدى المميزات التي يتمتع بها أهل مكة هي إمكانية دفنهم فيها والصلاة عليهم في أقدس بقعة إسلامية وفي قلب الإسلام. لذلك فإنه يمكن استخدام عشرين كفناً مزيّفاً كغطاء يستخدمه جهيمان وأتباعه لتهريب الأسلحة والعتاد إلى داخل المسجد الحرام في مكة في الساعات الأولى من 20 نوفمبر 1979م - أي اليوم الأول من محرم، أو الشهر الأول في السنة الهجرية 1400هـ. كان يوجد تحت الأغطية المحمولة فوق النعوش أسلحة كثيرة: المسدسات، والبنادق، والكلاشينكوف والذخائر الحية.

سوف يُنادى لصلاة الفجر في ذلك اليوم في الساعة 5:18 صباحاً - وهو الوقت الذي يسبق شروق الشمس عندما يتبيّن الخيط الأبيض عبر الأفق - عندما ينفض الإخوان عباءة «الحداد» ويصطفّون في الضوء الخافت. كانت الأكفان ما زالت تدخل وتخرج طوال الوقت، وفي هذا الصباح غير العادي، كان الضوء باهتاً على غير العادة. وفي الوقت الذي انتشر فيه

جهيمان وأتباعه بهدوء مع أسلحتهم في ساحات المسجد الحرام الباردة وفي الفناء الواسع حول الكعبة، ظهر الهلال بشكل ضعيف في السماء فوقهم: قمر جديد، شهر جديد، سنة جديدة، قرن جديد. هذا بالرغم من أن حاكم الرياض، الأمير سلمان، سخر من هذه الحقيقة لأن القرن الماضي سيكتمل في نهاية 1400هـ عندما يبدأ القرن الخامس عشر الهجري في اليوم الأول من عام 1401هـ.

وعند سماع الأذان لأول صلاة في عام 1400هـ تقدّم جهيمان حافي القدمين نحو منبر الإمام وأزاحه جانباً واستلم المايكروفون متحكّماً بالنظام الصوتي الذي يصل من خلاله إلى كل أركان المسجد. تبع ذلك طلقات احتفالية. أطلق المتمردون عيارات نارية في الهواء بينما كان الإخوان يحيطون بمحمد القحطاني، المهدي المنتظر، وهم يبسطون أيديهم لمبايعته.

«أنظروا إلى المهدي»، كانوا ينادون الجميع، «أنظروا إلى الإمام العادل» الآن جاء وقت تلاوة البيان الذي أعدّه جهيمان وسيقرأه على الملأ أحد أتباعه.

«سيملأ المهديُّ الأرضَ عدلاً»، جاء البيان عبر مكبرات المسجد الصوتية موقظاً الأعداد الصغيرة من رجال الشرطة النائمين والمرتبكين وموضّحاً لهم لأول مرة الخطر الكبير المحيط بهم. «جهيمان، أخو المهدي، يطلب منكم أن تبايعوا أخاه. بايعوا المهدي الذي سيخلّص هذا العالم من الفساد».

بدأت الأسلحة تظهر من تحت ثيابهم وهم يجلجلون بأصواتهم ويندفعون في كل أرجاء المسجد متجهين نحو أبواب الحرم الخمسة والعشرين. ظهر المسلّحون البالغ عددهم الآن نحو المائتين، من بين صفوف المصلّين. حاول شرطي وإمام شاب المقاومة فأردوهما صريعين على الفور. وصل المسلحون إلى الأبواب فأوصدوها، وأصبح الحرم الشريف الذي تتجه إليه أفئدة المسلمين كأطهر بقعة على وجه الأرض مغلقاً تماماً. لقد اختُطف بيتُ الله الحرام!

الفصل الثالث



الحصار

نزلت أخبار اختطاف المسجد الحرام على الرياض كالصاعقة.

«ليتهم فعلوا ذلك في قصري وليس في المسجد»، هكذا قال الملك التقيّ خالد وهو يتلقى الأنباء المروّعة.

جاء الملك خالد، البالغ من العمر وقتها السابعة والستين، إلى العرش قبل أربع سنوات بعد حلٍّ وسط توصلت إليه العائلة المالكة. إذ كان من المفترض أن يأتي بعد الملك فيصل بحسب الأقدمية في السنّ الأمير القوي محمد، وهو الأخ الشقيق لخالد. لكن العمر لم يكن المعيار الوحيد في السلطة في الجزيرة العربية. بحثت العائلة عن المرشح الأفضل الذي يتفق عليه الجميع، وكانت المجالس الداخلية لعائلة آل سعود تعرف تماماً القوة التي يتمتع بها الأمير محمد، أو «أبو الشرّين» وهو اللقب الذي اشتهر به. كان الأمير محمد معروفاً بالقوة والبطش وقد عرف العالم كله هذه الخصلة عنه في عام 1979م، عندما أمر بقتل حفيدته وحبيبها عندما قرّرا الهرب سرّاً من أجل الزواج. هذه الفضيحة المأساوية كانت موضوع فيلم بريطاني اسمه «مقتل

أميرة»[1]، وقد يسبّب ذلك إحراجاً أكبر لآل سعود لو لم يتنازل الأمير محمد عن الخلافة في الستينات. ابتعد الأمير عن السلطة بعد أن حصل على منح عقارية واستجابة لا نهائية لمطالبه، علاوة على الحفاظ على كبريائه الصعب عن طريق اختيار أخيه الشقيق خالد بديلاً منه.

كان أسلوب خالد المعتدل والمسالم خير حافظ لتوازن العائلة. وكان الدور الذي يقوم به عادة هو التصديق على القرارات التي يتخذها أخوه غير الشقيق وولي العهد الأمير فهد ذو الاتجاهات الغربية. لكن الملك خالد يمتلك خصال البدو القاسية، ولديه ميزتان قويتان جداً- علاقاته الجيدة بالقبائل الذين رحّبوا به كثيراً بشكل لا يمكن أن يحصل لفهد، وعلاقاته القوية والطيبة مع هيئة كبار العلماء (أو أصحاب الفضيلة العلماء من المشايخ). هاتان الخصلتان هما ما تحتاجه أزمة المسجد الحرام، كما صادف أن فهد كان بعيداً عن الرياض في أول يوم من القرن الجديد حيث كان ولي العهد يمثّل المملكة في قمة جامعة الدول العربية المنعقدة في تونس.

«استيقظنا على رنين الهاتف مبكراً صباح ذلك اليوم»، كما يتذكر الأمير تركي الفيصل، المدير الشاب للمخابرات السعودية الذي كان يحضر القمّة هناك. «طلب مني ولي العهد العودة فوراً. كانت هناك قضايا مهمة في تونس تستدعي بقاءه هناك».

---

1 - أدّى عرض فيلم موت أميرة في التلفزيون البريطاني إلى طرد السفير البريطاني من جدة عام 1980م. أنظر الفصل الثامن والأربعين من كتاب «المملكة». تقول الأسطورة الرومانسية للفيلم إن الاثنين لم يُقتلا بل تم تهريبهما خارج البلاد لبدء حياة جديدة في مكان آخر. هذا يبدو أمراً بعيد الاحتمال.

كان الأمير تركي أحد الأمراء الصاعدين والبارزين في العائلة حيث تلقّى تعليمه في مدرسة لورنسفيل في نيوجرسي، وجورج تاون، وبرنستون وكامبرج. كان يملك الجدّية التي كان يتمتع بها والده الملك فيصل وكان لديه من الجرأة قضاء أربعة أشهر وهو في العشرينات في قيادة سيارته (اللامبورغيني) الجديدة من لندن وحتى الجزيرة العربية. عندما رجع إلى مكة في ليلة الثلاثاء في العشرين من نوفمبر، 1979 م، اكتشف سريعاً طبيعة العدو الذي كان على آل سعود مواجهته؛ إذ بمجرد أن وضع يديه على باب فندق شبرا، مقر القيادة الذي اتخذه أعمامه، اخترقت رصاصة قادمة من المسجد زجاج الفندق أمام عينيه. كان جهيمان قد كلف مجموعة من القنّاصين بالتمركز فوق منارات المسجد الحرام العالية، وقد أثبتت هذه الاستراتيجية فعاليتها بعد سقوط عدد من الضحايا.

***

أصبحت مهمة استعادة المسجد على عاتق كل من وزير الدفاع الأمير سلطان، وهو الأخ الشقيق لفهد، والأمير نايف، وزير الداخلية بمساعدة نائبه وأخيه الأصغر الأمير أحمد. هؤلاء الأمراء، بالإضافة إلى الأمير سلمان حاكم الرياض، يمثلون لب الأمراء السبعة من أولاد الملك عبد العزيز الذين جاؤوا عن طريق زوجته الذكية حصة السديري، ويطلق على هؤلاء «السدارى السبعة».

وصل الأميران سلطان ونايف إلى مكة في الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم وبدأ الاثنان فوراً في حشد قواتهما- بعض أفواج الجيش، ومجموعتان من قوات الأمن الخاصة، وهي وحدة تابعة لوزير الداخلية الأمير

نايف. أما فوج الحرس الوطني في مكة فقد تحرك إلى وسط المدينة بانتظار وصول رئيسه الأمير عبدالله الذي كان في طريقه إليهم عائداً من إجازة في المغرب. أصبحت الآن القوات السعودية على أهبة الاستعداد متخذة مواقعها حول المسجد خلال ساعات. لكن رؤساء هذه القوات من الأمراء لا يملكون السلطة في اتخاذ قرار الهجوم على المسجد الحرام- وهو قرار بيد هيئة كبار العلماء الذين اجتمعوا بشكل عاجل في الرياض. كما أن الأمراء، في هذه المرحلة، لايعرفون الكثير عن هوية وطبيعة من سيقاتلون: انتشرت سلسلة من الشائعات حول أنهم مجموعة من الإيرانيين، أو جهاز المخابرات الأمريكية، أو عملاء من إسرائيل.

***

يجتمع الملك عادة مع هيئة كبار العلماء والمشايخ بانتظام كل ثلاثاء. كان يظهر في مثل هذه الاجتماعات التي يبثها التلفزيون السعودي في أخباره الشيخ الضرير ابن باز برأسه المرتفعة نحو السماء جالساً في منصة الشرف بجانب الملك. نظرياً، لا يوافق العلماء على التلفزيون، لكن بسبب أنه أصبح حقيقة واقعة لا فرار منها فإن ظهورهم فيه أفضل بكثير من بعض التفاهات التي يبثّها التلفزيون كأفلام الكارتون. الآن، وهم يسرعون الخطى فوق السجاد المخملي في قصر المعذر، هناك حقائق مُرّة تنتظرهم عليهم مواجهتها.

كانوا يعرفون تماماً من سيطر على المسجد الحرام. رجل الدين الذي أزاحه جهيمان ذلك الصباح وأخذ منه المايكروفون لم يكن إلاّ الشيخ محمد ابن سبيّل، الإمام الرئيسي في الحرم، وأحد المعلّمين الذين جلس جهيمان وأتباعه عند أقدامهم يوماً ما يتلقون منهم العلم. تعرّف ابن سبيّل على تلاميذه

السابقين ونظر إليهم بامتعاض شديد، كما كان يعرف أيضاً عن الغاية السلفية التي يطمحون إلى الوصول إليها. لجأ ابن سبيّل إلى مكتبه لمهاتفة زملائه وإخبارهم. بعد ذلك، رمى ابن سبيّل عباءته الذهبية، وربط شماغه حول كتفه كما يفعل بعض الأجانب، ونجح في الهرب من المسجد بعد أن اندس في مجموعة من الحجاج القادمين من إندونيسيا. أبقى جهيمان المصلين العرب كمجندين إلزاميين في جيش المهدي، لكنه أعطى أوامره بإطلاق المصلين الذين لا يتحدثون العربية فهم لا يفهمون ما يقوله هو ولا ما يقوله المهدي.

احتاج الملك خالد مشورة المشايخ في هذا الأمر. ما الذي يمكن أن يقوم به جنوده؟ كل المسلمين يعرفون حرمة بيت الله ومنع استخدام العنف فيه- وهذا ما جعل فعلة هذه الزمرة صادمة ومروعة. هل كان جائزاً شرعاً للقوات السعودية الهجوم على الخاطفين بالأسلحة والقنابل داخل الحرم مع ما يعنيه ذلك من دمار للمسجد؟

كان العلماء والمشايخ، بمن فيهم ابن باز، يحاولون كسب الوقت. لم يعترف منذ ذلك الوقت وحتى الآن أي عالم ديني سعودي بأي نوع من المسؤولية تجاه ذلك الشيطان الذي تلبس جهيمان على طريقة وحش فرانكنشتاين[2]. لكن تأخرهم الزائد عن الحد في إدانة وشجب جهيمان وأتباعه من الإخوان ينبئ عن ارتباكهم الشديد. أصدر العلماء فتوى سريعة باتخاذ «كل التدابير الضرورية» من أجل «حماية أرواح المسلمين داخل المسجد». ثم جلسوا بعد ذلك لمدة ثلاثة أيام كاملة للتفكير في تفاصيل

2 - فرانكنشتاين هو شخصية خيالية مرعبة أبدعها خيال الكاتبة البريطانية ماري شيلي في روايتها التي تحمل نفس الاسم. (المترجم).

الإجراءات التي يمكن اتخاذها ضد هؤلاء الشباب الأتقياء الذين سبق وأن باركوا جهودهم الدعوية يوماً ما.

***

رأى مهدي الزواوي امرأتين تشقان طريقهما في صحن المسجد الحرام الخالي من المصلين وهما تحملان بنادقهما. لم يصدّق عينيه. كان الزواوي أحد طياري الهيليكوبتر الذين كانوا يحومون فوق الحرم لمتابعة حركة المتمرّدين من على بعد ألف قدم. كانت المرأتان متشحتين بالسواد ومحجبتين تماماً، وكانتا تلبسان أحزمة متقاطعة فوق ملابسهما وتحملان في أيديهما رشاشات أوتوماتيكية.

«كانتا طويلتين»، كما يتذكّرهما الزواوي، «وكانتا تعبران الساحة بفخر واضح. كان منظراً نادراً، امرأتان، وحيث لا أحد في ساحة المسجد، تمشيان حول الكعبة وتتحدثان مع بعضهما البعض وتحملان المسدسات في أحزمتهما! هاتان الزوجتان البدويتان».

كان الزواوي يطير على ارتفاع كبير يصعب فيه رؤية تفاصيل أخرى حول المشهد أو حتى سماع أصوات طلقات التاك- تاك- تاك النارية الصادرة من القناصين المتواجدين في منارات الحرم. عندما رجع إلى قاعدته في الطائف، في جبال فوق مكة، اكتشف أن رصاصة قد ثقبت جسم الطائرة في مكان يبعد نصف بوصة عن خزان الوقود.

***

كان الوضع هادئاً على الأرض، أو هكذا كان يبدو، وكانت الأحداث تسير بطريقة عشوائية مثيرة للفضول.

«ذهبت إلى هناك كمشاهد»، هكذا يتذكر خالد المعينا، الذي كان يعمل كمدير للمبيعات في الخطوط السعودية في جدة. «استطعت رؤية القنّاصين في منارات المسجد وهم يطلقون النار. كان بجانبي مجموعة من اليمنيين وصلوا للتو يرتدون إحراماتهم البيضاء لأداء العمرة ولا يعرفون شيئاً عما كان يحدث. لقد عتمت الحكومة على الخبر في أول 24 ساعة ولهذا فهؤلاء الشباب جاؤوا لأداء العمرة».

كانت هناك مجموعة من الفتيات يلعبن في الفناء العلوي لمدرسة قريبة على غير وعي منهن بأنهن كن على مقربة من منارات المسجد.

وصل معتوق جنّة إلى منزله في شارع قريب بعد رحلة عمل طويلة وهو لا يعرف شيئاً عن المشكلة حتى تلك اللحظة التي طرق فيها على باب أمه إذ لم يستقبله أحد بالأحضان بل بصرخة مرعبة - «احلق تلك اللحية فوراً» صرخت أمه - «سوف تتسبب في مقتلنا جميعاً». في الساعات القليلة أصبحت اللحية السلفية الكثيفة رمزاً للتمرد والمعارضة في مكة.

أدرك الصحفي علي شبكشي، بعد حلول الظلام، صعوبة الرؤية في الساحات المحيطة بالحرم وعرف أن هذه فرصة سانحة لكسب المال. مثل معظم السعوديين، كان لهذا الصحفي مشاريعه التجارية الحرة، وهي في هذه الحالة تأجير الأضواء الكاشفة – لذلك ذهب سريعاً إلى مقر القيادة

السعودية في فندق شبرا لعقد الاتفاقية. أصبحت الفتوى جاهزة في أيدي الأمراء وكانوا يخططون للهجوم واستعادة المسجد في تلك الليلة.

***

بدأ القصف في الساعة الثالثة والنصف صباحاً. وميض لا ينتهي وانفجارات مدوية عصفت بظلام تلك الليلة حيث سلاح المدفعية المتواجد فوق جبال مكة يطلق القنابل بحذر من أجل تقليل حجم الدمار الذي يمكن أن يحدث للمسجد. انطلقت مجموعة من قوات التدخل السريع، تحت غطاء المدفعية، نحو بوابات الحرم مستهدفين باب السلام على نحو خاص وفي وسط المسعى بين الصفا والمروة البالغ طوله 490 ياردة في الجهة الشرقية من المسجد. هذا هو المكان الذي يطوف فيه الحجاج جيئة وذهاباً مقتدين بالقصة القرآنية لزوجة إبراهيم، هاجر، التي كانت تجري على نحو يائس في ذلك المكان بحثاً عن الماء.

كان جهيمان ومراقبوه في المرصاد. أطلقوا الرصاص على المهاجمين حيث فتحوا باب السلام لفترة وجيزة من أجل السماح لتيار لا ينتهي من الرصاصات القاتلة نحو الضباط غير المحظوظين. فشل هجومهم فشلاً ذريعاً. قُتل العشرات من الجنود السعوديين. كان ذلك مخيّباً للآمال. وعند وصول كتيبة من المظليين من المنطقة الشمالية في تبوك بعد صلاة الفجر، أصرّ الأمراء على أن يشاركوا فور وصولهم.

لم يكن قائدهم الكولونيل ناصر الحميد متأكداً من ذلك واقترح عليهم الانتظار حتى المساء في جنح الظلام واستخدام الأضواء الكاشفة لتسليطها

على المدافعين وتضليلهم. لكن الأمراء رفضوا طلبه.

«أنت لست رجلاً» صرخ أحد الأمراء رافضاً تفكيره الاستراتيجي. وواصفاً إياه بالجبان. لم يعد للموت أي أهمية في مثل هذه المهمة، كما يراها الأمير، لأن أي جندي يقتل سيكون شهيداً وسيذهب مباشرة إلى الجنة.

لا أحد يعرف من كان ذلك الأمير. وقد أنكر، تركي الفيصل، الذي كان أميراً صغيراً في ذلك الوقت، صحة هذا الحوار. لكن في يوم الخميس، 22 نوفمبر، 1979م، قام شخص ما من العائلة المالكة بشن هجوم في وضح النهار على المسجد بشكل مشابه للهجوم السابق الذي شُنّ في جنح الظلام وانتهى بفشل ذريع.

كانت تلك أياماً عصيبة وكانت هناك أخبار موثقة حول بعض الأمراء الغاضبين الذين يزدرون بعض الأوامر- ابتداءً من الأمير فهد الذي كان يصرخ بإلحاح عبر الهاتف من تونس أول الأمر ثم من جدة لاحقاً عندما رجع الجمعة. هذه، للأسف، الطريقة السعودية وليست طريقة الأمراء فحسب. يتبنى العديد من المعلمين السعوديين وأساتذة الجامعات نفس الطريقة المستبدة الإقصائية مع طلابهم. التشجيع؟ التعزيز الإيجابي؟ هذه أفكار أجنبية عندما يتعلق الأمر بممارسة السلطة في المملكة العربية السعودية.

لهذا، لاحقاً في ذلك اليوم قاد الكولونيل الشجاع ضباطه المظليين إلى مسعى الصفا والمروة حيث كان هناك المهدي المزعوم محمد بن عبدالله القحطاني ينتظرهم بكمين مع أصحابه. وصف أحد الضباط المظليين

الملازم عبدالعزيز القضيبي في جريدة (الرياض) الطريقة الشجاعة التي مات بها زميلهم الضابط الذي كان يتولى زمام القيادة والعديد من زملائه الآخرين. وبسبب أن هؤلاء الضباط جاؤوا من الشمال إلى الجنوب فقد انتشر اعتقاد مرعب أن الجيش القادم من الشمال قد تم ابتلاعه ودحره- رغم أن ذلك لم يتم على أيدي الملائكة.

أصيب الملازم القضيبي الشاب وتم أسره. عالج الإخوان الجرح الذي أصاب يده بماء الحرم المقدس المأخوذ من بئر زمزم حيث أكدوا أن ذلك سيعجل شفاءه أكثر من المطهرات التي صنعها البشر. أبلغوه بخبر قدوم المهدي رغبة منهم في هداية الضابط الشاب إلى طريقهم ثم وضحوا له أن التلفزيون والمذياع وملابسه العسكرية والرواتب التي تدفعها له وزارة الدفاع، كل ذلك حرام. هذه الأشياء تثير غضب الرحمن.

***

في اليوم التالي، أصدر العلماء أخيراً بيانهم، بعد أن نفد صبر العالم الإسلامي على تأخرهم ابتداءً من القاهرة حيث أرسل شيخ الأزهر برقية يطالب فيها باتخاذ «قرار سريع وحاسم» – يقصد منه اجتماعاً عاجلاً لعلماء العالم الإسلامي «لحماية بيت الله الحرام».كان هذا الاقتراح لإبعاد القضية عن الأيدي السعودية بمثابة توبيخ لإدارة ابن باز وزملائه الذين سمحوا بمثل هذه المأساة أن تحدث.

يرى المدافعون عن التأخر الذي استمر ثلاثة أيام صعوبة الرجوع إلى المصادر الفقهية لمعرفة القرار الصحيح حول مسألة استخدام العنف في

الحرم. وقد رجع منتقدوهم إلى آية في القرآن، وهو المصدر الموثوق الأول، تبيّن هذا الأمر بوضوح شديد: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ (البقرة: 191).

هذه هي الآية التي اعتمد عليها العلماء في النهاية في إصدار فتواهم في يوم الجمعة، 23 نوفمبر من عام 1979 م. لكن بسبب أنهم يعرفون بشكل جيد أن أولئك الشباب الموجودين داخل المسجد ليسوا كفاراً، أصدروا بياناً توضيحاً آخر حول المشكلة التي أتعبتهم كثيراً: «على الرغم من أن هذه الآية نزلت في الكفار فإنها يمكن أن تشمل أولئك الذين يعملون كما يعمل الكفار. بعبارة أخرى، لم يكونوا مستعدين لوصف المتمردين بالكفر».

يختار المشايخ كلماتهم عادة بحذر شديد، فرغم أنهم يمتلكون معجماً لفظياً ضخماً في الشجب والاستنكار يستخدمونه عادة ضد من يثيرون غضبهم كالكفّار والفاسقين (أي أولئك الفاسدين الذين يعصون الله)، إلا أن أسوأ شيء وصفوا به جهيمان وأتباعه هو وصفهم بالجماعة المسلّحة. كما أنهم أصرّوا على منح هؤلاء الشباب فرصة أخرى في التوبة. طلب العلماء من السلطات قبل الهجوم أن يمنحوهم الخيار «في الاستسلام ورمي السلاح».

الآن اكتشفت السلطات العليا حقيقة العلاقة المثيرة للشبهة بين المشايخ وجهيمان.

«المشايخ يعرفونهم جيداً»، كما يقول الأمير تركي. «كان المهدي المزعوم طالباً عندهم».

كان الأمير نايف متلهّفاً للتصريح بأن رجال المباحث كانوا يعرفون محمد القحطاني وعدداً من الإخوان كمثيرين للشغب وقد كانوا فعلاً رهن الاعتقال قبل أشهر إلا أنه تم إطلاق سراحهم بطلب من الشيخ ابن باز. وكما قال فهد بأسى في مقابلة له في يناير 1980م: «كنّا فعلاً قد اتخذنا إجراءاتنا اللازمة ضدهم لكن تدخّل بعض الناس بحسن نيّة وطالبوا بإطلاق سراحهم... اعتقد الذين تدخّلوا أن عمل هؤلاء آنذاك مفيد في مجال الدعوة الإسلامية».

تلكم كانت الكلمات التي يمكن لآل سعود أن ينتقدوا بها ابن باز أو أي عضو من هيئة كبار العلماء حول مسؤولية هؤلاء العلماء تجاه المواجهة التي حدثت في المسجد الحرام. الأمراء براجماتيون على أي حال. الفتوى التي صدرت في يوم الجمعة 23 نوفمبر وثيقة ضعيفة إلا أنها كانت كل ما تحتاجه الحكومة من شرعية: «وافق العلماء بالإجماع أن القتال داخل المسجد الحرام أصبح الآن جائزاً... يمكن الأخذ بكل الإجراءات المتاحة».

وبمجرد هبوط الظلام في ذلك المساء جاءت الأضواء الكاشفة على ظهر إحدى السيارات العسكرية وهي تتهادى نحو الساحات الخارجية الكبيرة تحمل مكبرات الصوت.

«إلى كل من يتواجد في خلوة المسجد أو داخله»، هكذا تقول الرسالة التي طلبها العلماء، «نحن نحذّركم من أجل أن تنقذوا أرواحكم. استسلموا وإلا سنجبركم على الاستسلام. يجب أن تستسلموا».

لا أحد يتحرك. تروح السيارة وتجيء وهي تقرأ الإعلان. طافت السيارة الجيب حول جدران المسجد الحرام - لمدة ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات وهي تردّد نفس رسالة الاستسلام. كان الردّ هو الصمت المطبق. لسبب ما، لم يطلق القنّاصون من أوكارهم أي رصاصة.

كان يمكن أن يردّوا لو أنهم عرفوا ماذا سيحدث في اللحظة التالية. فجأة انتهت الهدنة عندما تم إطلاق صواريخ مضادة مخادعة وموجّهة بالألياف نحو منارات المسجد، واحدة بعد الأخرى، فأحدثت دويّاً هائلاً وهي تضرب الشرفات الرخامية فتتطاير منها الشظايا واللهب البرتقالي التي أدّت إلى تفحّم كل قنّاص في مكانه. الآن عاد الصمت الحقيقي للمنارات وأعمدة الدخان الكثيف تغادر عبر الحواجز.

كانت صفقة الصواريخ هذه جزءاً من صفقة ضخمة لشراء أسلحة عقدتها المملكة مع أمريكا، هذا بالإضافة إلى ناقلات الجند المدرّعة التي اصطفت حول المسجد بانتظار شقّ طريقها داخله. هذه الناقلة المدرعة الصغيرة والتي تشبه دبّابة صغيرة وتحتوي على سلاح أوتوماتيكي في مقدّمتها هي قصة نجاح أمريكية نادرة في حرب فيتنام. يمكن لهذه الناقلة أن تستوعب داخلها أحد عشر جندياً.

وبعد أن شقّت هذه المدرّعات طريقها بقوة مدمّرة عبر البوابات، قفز الجنود السعوديون لمطاردة المتمرّدين الذين انسحبوا متراجعين إلى داخل ممرات المسجد.

كانت معركة مريرة، فلا أحد من هؤلاء الجنود الشباب قد مرّ بمثل هذه المواجهة التي يطاردون بها أعداء قتلة يعيشون بينهم. سمع الملازم محمد السديري، المتخرّج قبل سنة من ساندهيرست، وهو يزحف بين أعمدة المسجد صوت رجل يحشو خزانة سلاحه بالذخيرة على مقربة منه.

«عرفت سريعاً أن هذا الرجل الذي سمعته ليس من زملائي. لقد فحصت كل خزانة قبل أن نبدأ وكانت جاهزة للاستخدام. لهذا أخذت أهبة الاستعداد وأنا أدور خلف عمود المسجد».

رأى هذا الضابط الشاب- ابن عم بعيد لحصّة، أم الأمراء السبعة، أحد المتمرّدين يقف على بعد ياردات قليلة منه وهو يحشو سلاحه.

«كان تفكيري أول الأمر في القبض عليه. لكنني تذكّرت كيف أنهم يتظاهرون بالاستسلام ثم فجأة يستخرجون مسدّساً أو خنجراً أو قنبلة ليقتلونا بدون تردد. عندما مات أحد رفقائهم سكبوا البنزين على وجهه وأحرقوه حتى لا نتعرّف على هويّته. يتركون هذا الأمر عادة للنساء. وعندما يسقط أحد رجالنا في أيديهن يقمن بقطع أعضائه الداخلية».

سمع الملازم، مثل كل زملائه من أفراد الجند، الفتوى التي تقول: «إذا قاتلوكم فاقتلوهم». هي منافسة حتى الموت إذاً. لهذا رفع بندقيته باتجاه رأس المتمرّد وضغط على الزناد.

***

ومن جانب الإخوان، كان محمد عبد الله القحطاني يستمتع بفكرة خلود المهدي عن طريق القتال المتهوّر في الصفا والمروة. في الوقت الذي كان الجنود السعوديون يتقدّمون من خلال غابة الأعمدة التي تنتشر بالمسجد وهم يرمون القنابل اليدوية، كان المهدي المزعوم يجري مسرعاً عندما يسمع صوت القنبلة على الرخام ليلتقطها ويعيد رميها قبل أن تنفجر في لمح البصر، وقد كان ناجحاً في ذلك المرّة بعد المرّة حتى جاءت اللحظة التي استنفد فيها حظّه. انحنى لالتقاط قنبلة يدوية أخرى فانفجرت فيه. وبمجرد أن تعرّفت الحكومة على برهان خلوده الملطّخ بالدم التُقِطت الصور لجثته ووجهه الذي ظهر وسيماً بشكل مثير للفضول- ونُشِرت صورته في الجريدة.

كانت الشائعات تنتشر كثيراً منذ بداية الحصار، وكان منها أن الملك خالد أرسل مبعوثاً إلى أم القحطاني ليتحقّق من حقيقة ابنها وقد عرفت أمه الحقيقة أكثر مما عرفها الملك عندما قالت: «إذا كان ابني هو المهدي فسيقتلكم، أما إذا كان غير ذلك فستقتلونه».

هذا تحليل جميل، لكن آل سعود أنكروا حدوث مثل هذه القصّة.

***

وبحلول صباح الأحد، كانت القوات السعودية تسيطر على الدور الأرضي للمسجد وما فوقه. دخل تركي الفيصل مع أخيه سعود، وزير الخارجية، عبر البوابات المحطّمة لمعاينة حجم الدمار الذي حلّ بالمسجد. الشيء الذي أدهشه،كما صرّح للمؤلف ياروسلاف تروفيموف، هو الصمت المطبق في أركان المسجد الذي كان يعجّ بالناس، ورائحة الشرّ التي يعرف أنها مرّت من هنا.

انتهت المشكلة على أية حال. عندما كانت القوات الحكومية تتقدّم وتتحرك بين أعمدة المسجد، أمر جهيمان بتغيير تكتيكه عن طريق التراجع الاستراتيجي إلى الخلوة تحت أرض المسجد. كان المكان مجهّزاً من قبل المتمردين بصناديق الغذاء والماء والسلاح الموضوعة في متاهة الغرف المخصّصة للصلاة إذ كانوا يخطّطون للبقاء هناك لأسابيع. رفضوا كل عروض الاستسلام فهم يدركون تماماً أنهم لن يعيشوا طويلاً ولن يستمتعوا بحياتهم إذا سلّموا أنفسهم. لذا قاموا بطلاء وجوههم باللون الأسود وتجمّعوا في السراديب الصغيرة مع فرشهم ونسائهم، وبعض الأطفال غير المحظوظين الذين جيء بهم، وبعض ما بقي من تمر وماء.

فتحت القوات السعودية المهاجمة خراطيم المياه وغمرت خلوة المسجد ثم ألقت بالأسلاك الكهربائية الحية في وسط المياه. حقّق الجنود نجاحاً أكبر عندما ثقبوا أرضية المسجد وأطلقوا الغازات المسيلة للدموع والتي جُلبت خصّيصاً من باريس بواسطة ضباط كوماندوس فرنسيين. هذا الغاز، والذي يُعرف علمياً باسم كلوروبينزليدين مالونونيتريل، مشابه للسلاح الكيميائي المميت الذي استخدمته القوات الروسية لتحرير المسرح في موسكو عام 2002م. يعيق هذا الغاز المهيّج عملية التنفس ويشلّ من يتنفّسه وقد يسبّب الوفاة عند التعرّض لكميات كافية منه. أدّى استخدام هذا الغاز في موسكو إلى قتل 170 شخصاً.

ادّعى أحد الضبّاط الفرنسيين بعد ذلك أنه قد تم تهريبه إلى المسجد الحرام قبل الهجوم، لكن قائده وزميليه اللذين ساعداه في تدريب السعوديين على استخدام الغاز نفوا جميعاً ذلك. أثبتت مصادر موثوقة أن الفرنسيين

الثلاثة لم يذهبوا إلى مكة إطلاقاً، بل بقوا ينتظرون في فنادقهم المترفة بالطائف خلال الهجوم الأخير عاجزين عن فعل أي شيء بعد أن انقطع الخط الهاتفي وهم يقدمون نصائح لطاقم طبي سعودي حول التعامل الصحيح مع الآثار القاتلة لهذا الغاز.

قام الجنود السعوديون بالمهمة الصعبة بعد أن ارتدوا الأقنعة الواقية من الغاز واندسّوا من خلال الظلام في خلوة المسجد وهم يطلقون قذائف الغاز ويتقدّمون إلى الأمام عبر الأدخنة.

يقول الأمير تركي: «المدافعون بالتأكيد يمتلكون فرصاً أفضل».

لم يستسلم أي متمرّد على الإطلاق، بل كانوا ينصبون الكمائن ويحاربون بشراسة حتى النهاية المرة. لكن، أخيراً، وفي يوم الثلاثاء، 4 ديسمبر، 1979م، أي بعد أسبوعين من يوم الحصار، اندفع المهاجمون بقوة من خلال باب حديدي ليجدوا أنفسهم أمام مجموعة محتشدة من الرجال اسودّت وجوههم من أثر السخام واختلط القيء بالدم على ثيابهم الممزقة. لقد فعل الغاز فعلته فيهم. كان بعضهم يرتجف على نحو لا إرادي. لكن كان أحدهم يجلس في الخفاء بين صناديق الذخيرة وأكوام المنشورات الملونة وهو يحمل نفس النظرة الشرّيرة، وخائف على نحو غير عادي، وبدت عيناه مثل حيوان مفترس ضار حُشِر في زاوية ضيقة.

«ما اسمك؟» سأله القائد العسكري السعودي وهو يوجّه سلاحه إلى رأسه.

«جهيمان»، جاء الردّ الخاضع على نحو غريب.

***

لم ينهِ القبض على جهيمان سيل الإشاعات، بل ازدادت حدّتها أكثر من أي وقت مضى- أحدها يصف عبد الله بن عبد العزيز، رئيس الحرس الوطني والرقم الثالث في الهرم الملكي بعد خالد وفهد، وهو ذاهب لرؤية المجرم الأشر بعد القبض عليه. كان جهيمان ملقى على الأرض، وعندما وقعت عينا الأمير ورئيس الحرس الوطني ذي اللحية السوداء على جندي الحرس الوطني السابق انتابته ثورة غضب شديدة. الأمير الذي كان يُشتهر بأنه رجل قليل الكلام لم يوفّر أي كلمة فيه.

ذهب الأمير تركي الفيصل ليلقي نظرة، هو الآخر، على قائد المتمرّدين في المستشفى وهو مستلق على سريره ومكبل بالأصفاد.

«سامحني»، صاح جهيمان بتضرّع وقد اختفى تبجّحه بالشجاعة على نحو مفاجئ. «سامحني، يا طويل العمر. أرجو أن تطلب من عمي خالد أن يعفو عني».

عندما قال جهيمان «عمي خالد» كان يستخدم مصطلحاً محبّباً يُستخدم عادة من قبل العبيد والخدم في قصور الأمراء السعوديين، لكن مدير المخابرات الشاب تجاهل طلبه بسبب غضبه من رفع الكلفة معه وبسبب الخسائر البشرية التي نتجت من ضلال هذا الرجل وتوهّمه بأنه يعرف حقيقة الإسلام. قُتل من القوات السعودية 127 وأصيب 461 جندياً، هذا بالإضافة إلى مقتل 117

من المتمرّدين وبضعة عشر من المصلّين الذين قُتلوا في الساعات الأولى من الاشتباكات التي بدأت صباحٍ ذلك اليوم. أشار الأمير بسخرية إلى لحية الأسير الكثّة وشعره المجعّد قائلاً: «هل هذا هو الإسلام؟!».

***

اقتاد الجنود إلى الخارج قبل الفجر مجموعة غير منتظمة من الرجال والأغلال في أيديهم وأرجلهم وهم يرتجفون قليلاً من البرد القارس. كان هناك مجموعة من الجنود في الميدان وفوق السطوح وحول السوق الشعبي القديم في قلب الرياض، كما كان يتواجد أيضاً حشد من الأمراء والوزراء في شرفة في الظلام وهم ينتظرون تطبيق العدالة. سيتم تنفيذ حكم الإعدام في 63 شخصاً ذلك الصباح في ثماني مدن في المملكة[3] ابتداءاً بجهيمان في مكة. هنا، في الرياض، كان أمير الرياض الطويل، الأمير القوي سلمان، والذي كان يشبه أباه عبد العزيز في تعبيرات وجهه كما تقول العائلة، يقرأ بعناية قائمة معه.

«كان يتفحّص أسماء القبائل التي يحملها الجنود»، هكذا قال أحد شهود العيان، «ليتأكّد من أن تنفيذ القتل سيتم بواسطتهم وأمامهم. هذه العائلة بارعة في عمل الأشياء بالطريقة القبلية».

كان أحد المحتجزين يصرخ ويتلوّى. كان أفغانياً وأحد الأجانب العشرين الذين جرفهم جهيمان معه في الأشهر السابقة أو في اليوم نفسه. ضمّت القائمة بعض اليمنيين والباكستانيين والسودانيين والمصريين.

---

3 - هي مكة، المدينة، الدمام، بريدة، حائل، أبها، تبوك، والرياض لتغطية كل جزء في المملكة.

«أنا بريء»، صرخ الأفغاني وهم يقودونه أمام السيّاف. كان يتحرك بعنف إلى الدرجة التي أخطأ فيها السيف رقبته فقطعت شفرته جزءاً من كتفه. ازدادت صرخاته حدة بينما حاول العسكريون ضبطه دون جدوى. تقدّم ضابط وأنهى حياته بطلقة مسدس على رأسه.

لكن الضحية الأولى هي التي شكّل موتها الطابع المشؤوم لذلك الصباح القارس. لا يمكن لمن رآه أن ينساه أبداً. كان أحد أصدقاء المهدي الذي ساعد في تنظيم إخوان الرياض والذي ظهر في لحظة الإعدام كقائد يرفع يديه المقيّدتين بتحدٍّ صارخ وهو يبتهل إلى الله.

«بسم الله الرحمن الرحيم»، رفع صوته بقوة وثقة من دون أدنى خوف «اللهم إنك تعلم ما اقترفوه،» أخذ يدعو وهو يرفع عينيه المعصوبتين إلى السماء. «اللهم إنهم طغوا وبغوا وغالوا في فسادهم. اللهم أرنا نهايتهم شرّ نهاية».

بكتفين منتصبتين وظهر صلب أومأ إلى السيّاف طالباً منه القيام بعمله: مدّ جسمه ورفع رقبته كما لو كان يستقبل السيف وهو يقع عليه. إنه أمر مثير للدهشة أن تجد رجلاً يتمتع بالإيمان المطلق الذي لا يساوره شك. كان مجاهداً في سبيل الله وملتزماً بأوامره وعلى يقين تام بأنه ذاهب الآن إلى الجنة.

الفصل الرابع



لا سنّة ولا شيعة

إذا كانت هناك شخصية من آل سعود تجسّد بجلاء واضح كل ما يرفضه جهيمان والإخوان فإن هذه الشخصية هي بالتأكيد ولي العهد فهد ابن عبد العزيز، أو سيّد الحداثة، الذي يعتبر الرئيس التنفيذي الفعال لشركة المملكة العربية السعودية غير المحدودة، بينما يشغل الملك خالد رئيس مجلس الإدارة. عُيّن الملك فهد كأول وزير للمعارف في عهد الملك سعود، ثم وزيراً للداخلية في عهد الملك فيصل. كسب الملك فهد، في عمليه السابقين، شهرة في نقل الحياة السعودية إلى الاتجاه الغربي. والآن، بعد ثورة النفط، دفع فهد الحياة بسرعة نحو ذلك الاتجاه.

الاغتيال المروّع للملك فيصل في عام 1975م كان له أثره على السعوديين التقدّميين، فقد أحدث موته تصدّعاً في الوحدة الوطنية. كان الملك السابق حذراً في الإنفاق عندما يتعلق الأمر بماله الخاص، وكان أكثر حذراً عندما يتعلق الأمر بمال الدولة العام. والرواية التي تقول إن أبناءه اعترفوا بهذا مشكوك في صحتها، لكنهم يرغبون بسرد قصته مع هنري كيسنجر الغاضب الذي هدّد فيصل خلال حظر النفط في عام 1973م باحتمال أن تتوقف أمريكا عن استهلاك النفط السعودي.

«في هذه الحالة»، يرد الملك فيصل، صاحب الوجه الشبيه بالصقر، «سوف نعود إلى خيامنا ونعيش على حليب الإبل. لكن ماذا ستفعلون أنتم يا سيد كيسنجر عندما لا تجدون وقوداً لسياراتكم؟».

تهدف سياسة فيصل التقشّفية إلى توفير أرباح النفط بما يعادل في السعودية بركات يوم ماطر، لكن أخاه غير الشقيق صاحب الاتجاهات الغربية لا يخاف من الإنفاق. يعتقد فهد أنه يجب استثمار العائد الوطني بأسرع وقت ممكن داخل المملكة وذلك لزيادة الثروة. بعد أشهر من موت فيصل، كان ولي العهد فهد يشكِّل اللجان ويرسم خطط الإنفاق حيث انتشرت في ذلك الوقت كلمات مثل البنية التحتية والانطلاق نحو التنمية: المستشفيات، المدارس، شبكات الطرق، المطارات؛ مدينتان صناعيتان جديدتان، واحدة في كل ساحل؛ طائرات أكثر للخطوط السعودية، الناقل الوطني في المملكة؛ أسلحة أكثر للقوات المسلحة؛ ومجموعة ضخمة من «المدن العسكرية» لحماية كل جزء من الدولة.

«كان يملك رؤية بعيدة النظر»، كما يتذكّر أحد العاملين في بلاطه، «لم يكن هناك أحد متحمس لمشروعه في المدينتين الصناعيتين. لكنه حفر الأرض بحثاً عن المال في إنجازهما وحارب من أجلهما. كان رجلاً جريئاً. الآن، الجبيل وينبع هما إحدى أعظم قصص النجاح في المملكة العربية السعودية».

كان فهد يطمح إلى استفادة السعودية من أفضل شيء في الغرب، كما أن حياته الخاصة أخذت نفس ذلك الاتجاه. في شبابه، كان الأمير مثالاً

كلاسيكياً لعربيّ في مونتي كارلو. اسم فهد بالعربية يعني «فهد الصحراء»، لكن مع مرور السنين –كان عمره 65 سنة في عام 1979م– بدأ يبتعد عن صورة الفهد الذي عرفته الصحراء.

يخدم فهد، أيضاً، نفسه بكرم عندما يتعلق الأمر بالتجارة. في الوقت الذي كان فيه ينفق العائد البترولي من الدولارات وبالتالي إفلاس المملكة النائمة، لا يجد ولي العهد سبباً لإخفاء الامتيازات المالية التي يغدقها على عائلته وأصدقائه.

قوة ولي العهد السعودي تكمن في المجموعة الجادة والفعّالة التي تحيط به من الإخوان الأشقاء، كما أن معظم أفراد العائلة تدعم توجّهه في برنامج التنمية الوطنية. ينظر الجميع باحترام إلى ثقة فهد في نجاح «الخطط الخمسية» المتتالية إلى الدرجة التي يمكن أن يحسده فيها أي مفوّض سوفياتي، كما أنه لا يخاف أبداً من التفكير في الأهداف الكبيرة. كان يداعب في أحد المرات أصدقاء أوروبيين حول بناء دار وطنية ضخمة للأوبرا في الرياض لتُعرض فيها «عايدة»، ليس مع فيل واحد بل عشرة. هذه نكتة لا يمكن أن يتبادلها مع الشيخ عبدالعزيز بن باز. كان العلماء والمشايخ ينظرون إلى فهد بعين الريبة والشك. وهذا ما يجعل الأمر محيراً بعض الشيء، ففي نوفمبر من العام 1979 م ؛ وفي الوقت الذي كان ولي العهد يصارع ثورة دينية مريرة في مكة في غرب المملكة، وجد نفسه أيضاً في مواجهة صراع آخر في الشرق.

***

في قرية الأوجام، شاهد علي المرزوق أبناء قريته وهم يضربون أنفسهم بالسلاسل – رجال يلبسون السواد يقفون متجهّمين في خط ثعباني طويل ويتمايلون من اليمين إلى اليسار مع حركة السلاسل المعدنية التي تتهاوى على أكتافهم بانسجام. تقع هذه القرية في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، حيث توجد أغنى مناطق العالم بحقول النفط.

بلايين الدولارات من «الذهب الأسود» توجد تحت هذه الأرض التي يمشي فوقها هؤلاء الشباب المتعصّبون. كل هؤلاء ينتمون إلى المذهب الشيعي (الشيعة كلمة تعني «التابع» أو «الزمرة» أو «أعضاء الحزب») وقد كانوا يحتفلون بمناسبة عاشوراء السنوية.

عاشوراء كلمة عربية تعني «العاشر» وتشير إلى التاريخ الذي يقيم فيه الشيعة طقوسهم السنوية، في العاشر من محرم – والذي صادف 30 نوفمبر من عام 1979 م. كان القرويون في الأوجام، بالإضافة إلى حوالي خمسمائة ألف شيعي يعيشون في المنطقة الشرقية، يحتفلون بذروة طقوسهم الدينية خلال العام، في الوقت الذي كان جهيمان وأتباعه يخوضون معاركهم مع قوات الأمن السعودية في المسجد الحرام في الجانب الآخر من الجزيرة العربية.

قرّر علي أن يذهب لمشاهدة هذه الطقوس في القطيف، معقل الشيعة في المنطقة. هذه المدينة المنبسطة والمغبرة والمحاطة بأشجار النخيل موطن أكثر من مائتي ألف مواطن أغلبهم من الشيعة. تُذكّر قلعة الأتراك الطينية المتهدمة الموجودة في المدينة بالأيام التي سبقت العهد السعودي عندما جعل مواطنوها الجادون بأنشطتهم التجارية وبساتين نخيلهم الأحساء التي

نعرفها (يعود اسم هذه المنطقة ككل إلى القرن التاسع عشر) الجزء الثمين في الإمبراطورية العثمانية. الآن، ما زالت هذه المنطقة غالية وثمينة بسبب حقول النفط الفعّالة والمنتجة، والتي اعتمدت كثيراً على إنتاجية العمالة المحلية و موثوقيتها، إذ يشكل الشيعة منهم 60 بالمئة، وهم السعوديون الوحيدون الذين يقبلون الأعمال اليدوية الصناعية الحديثة. اعتمدت أرامكو، شركة الزيت العربية الأمريكية، على الخبرة الأمريكية والأخلاقيات المهنية الصارمة للعمالة الشيعية – الشيعية، في المقابلات والمواعيد التجارية، هم من السعوديين القلائل الذين يذكرونك بأنهم متأخرون بمقدار عشر دقائق.

كانت القطيف تهتّز بحمّى عاشوراء عندما اتجه علي المرزوق الطالب البالغ من العمر ستة عشر عاماً نحو مسجد الفاتح في شارع عبدالعزيز، غير البعيد عن سوق ومحلات حراج السمك. اجتمع هناك مئات الشباب للاستماع إلى محاضرة دينية عبر مكبّرات الصوت فامتلأ بهم المكان وغصّ بهم الشارع والحواجز الخشبية المحيطة. كانوا مشحونين عاطفياً بالطبيعة الحزينة التقليدية لمحاضرات يوم عاشوراء، وبأحداث أخرى حدثت خارج المملكة العربية السعودية. كانت ثورة آيات الله الإيرانية تأكيداً مبهراً للهوية الشيعية، كما أضفت معنىً جديداً لأول عاشوراء في القرن الإسلامي الجديد. «لا سنّة ولا شيعة المسلمون أمة واحدة» هكذا كانت تغنّي الحشود خارج المسجد وهي تضرب الصدور وتبكي بعد أن أنهى الخطيب محاضرته. أحضر أحدهم صوراً كبيرة لآية الله الخميني ورفعها عالياً.

«شعرت بالراحة والأمان»، يقول علي المرزوق، «وأنا بين إخواني، كتفاً بكتف».

لكن الجنود البدو التابعين للحرس الوطني يقفون كتفاً بكتف في الجانب الآخر من الحواجز ولا يشعرون بأي نوع من الأمان. هم ليسوا من الشيعة. بل على العكس تماماً. هم فخورون بكونهم سنّة، مثل الأغلبية الساحقة للسعوديين- ومثل الأغلبية الساحقة للمسلمين في جميع أنحاء العالم- أي أنهم يأخذون تعليماتهم من السنّة، أقوال وأفعال الرسول، وبالنسبة لهم، الشيعة هم مجموعة من المهرطقين الذين ضلّوا الطريق على نحو مثير للشفقة، كما أنهم موالون «للفرس»، أو الشيعة في إيران.

لماذا الشيعة مختلفون؟

كان علي، الشاب الذكي وابن عم الرسول، من أوائل الذين دخلوا الإسلام، لأنه عاش في بيت النبي وسمع تعاليم الله في عمر مبكر. كان النبي محمد يسميه «الأخ». عندما تآمر عليه أهل مكة وأرسلوا إليه رجلاً من كل قبيلة منهم يريدون قتله، كان علي هو الذي مكث في فراش النبي بشجاعة معرّضاً حياته للخطر لإنقاذ محمد. وعندما عاد المسلمون إلى مكة منتصرين كان علي هو الرجل الذي ساعد محمد على فتح باب الكعبة لإخراج الأصنام منها وتحطيمها. وحيث إن النبي لايعرف القراءة والكتابة، كان علي هو من يكتب رسائله له. زوّج النبي محمد علياً أحب بناته إليه، فاطمة، وهناك حديث واحد على الأقل يحتوي على إشارة ضمنية غير مباشرة بأن علياً هو خليفة النبي، «من كنت مولاه»، هكذا سُمع الرسول وهو يصرّح بعد رجوعه من حجة الوداع، «فعليّ مولاه». وعندما مات الرسول بعد ذلك، في عام 632 م، كان لعلي فضل تغسيله وتجهيزه للدفن.

وعلى الرغم من أن علياً كان قد اضطلع بمثل هذه المهمات العائلية المقدسة إلا أنه تم تهميشه من قبل الصحابة المجتمعين على عجل حيث قرروا اختيار أبي بكر كخليفة أول للنبي محمد. كان محمد يحب أبا بكر كثيراً فهو الرجل الذي عُرف بالتقى والورع رغم أنه من بيت غير بيت النبي. يؤمن العديد من المسلمين بقوة بالرأي الذي لا يحصر قيادة المسلمين بقبيلة أو عشيرة معينة.

إذاً، خسر الشاب علي الخلافة، إذ كان في ذلك الوقت في بداية الثلاثينات من عمره، وقد قبل بذلك القرار. إحدى أهم الخصال التي يتمتع بها هذا الرجل الرائع هي القبول. لو كان هناك شخص يجسد القبول أو الخضوع، وهي أحد المعاني الحرفية لكلمة إسلام، فإن هذا الشخص سيكون بالتأكيد علي. أخلص لأبي بكر، كما فعل أيضاً نفس الشيء مع الخليفتين اللذين جاءا بعد أبي بكر، عمر وعثمان، على الرغم من أن مناصريه يرون أنه تم إقصاؤه من الخلافة على نحو متعمّد. بالنسبة للشيعة، أو شيعة علي، فإنهم يؤمنون بشكل قطعي بفكرة أن رسالة محمد يجب أن يحملها من بعده مَن هم مِن آل بيته.

عندما تم اختيار علي في النهاية كخليفة رابع للمسلمين في أوائل العام 36هـ (656 م)، أثبت أنه كان يتمتع ببعض صفات الجذب التي كان يتمتع بها الرسول. أثبت أنه قائد ملهم للأمة الإسلامية، كما أنه أظهر شجاعة في المعركة وهو يحمل سيفه الأسطوري الحاد الذي يُطلق عليه اسم «ذو الفقار».

«لا فتى إلا علي»، أصبح هذا هو شعار الشيعة، «ولا سيف إلا ذو الفقار».

لكن تقديس هذا البطل محفوف بالمخاطر. أدّت الانقسامات التي حدثت مبكراً للأمة الإسلامية إلى ظهور أولى الحركات الإسلامية المعارضة والتي يطلق عليها «الخوارج» والتي تعني حرفياً «أولئك الذين خرجوا وغادروا». كان ذلك بعد أقل من ثلاثين سنة من بعد موت الرسول، إذ يرى هؤلاء الخوارج أن الأمة قد تركت سنّته. المسلمون الحقيقيون، كما يرى هؤلاء – هم أولئك الذين يلتزمون بشكل صارم بسنّة محمد، أي أنهم يقدمون بذلك فكرة مميتة جديدة على الإسلام هي التكفير: أي أن الذين لا يتبعون كلام الله بشكل دقيق هم من الكفار أو المارقين الذين يستحقون القتل. وحيث إن علياً قد قُتل على يد خارجي كان قد نقع سيفه بالسم في رمضان سنة 40 هـ (661 م)، يكون بذلك أول ضحية للإرهاب في الإسلام.

«لا حكم إلا لله، يا علي»، صرخ ذلك القاتل، «وليس لك».

***

إذاً، في سنة أربعين بعد الهجرة، أصبح علي أول شهيد عند الشيعة الذين بدأوا به طريقهم العاطفي نحو الحزن والإيمان. هذا الأمر اختلط بشعورهم أن الحياة قد تكالبت عليهم وأنهم بطريقة أو بأخرى تعرّضوا للسلب- وقد وصل هذا إلى ذروته بعد عشرين سنة في معركة كربلاء في العراق، جنوب بغداد. هذه المعركة التي حدثت في عاشوراء، أي العاشر من محرم 61 هـ (680 م)، أصبحت الطقس الديني السنوي للشيعة، أي أنه أصبح بالنسبة لهم مثل يوم جمعة الآلام (عند المسيحيين) المليء بالدموع من دون أن يكون هناك عيد للقيامة أو البعث من جديد.

تشرّب أبناء الشيعة، منذ سنواتهم الأولى، كل تفاصيل حادثة كربلاء كما تشرّب أبناء المسيحيين قصة الصلبان الثلاثة على التل. إنها قصة الحسين بن علي، وهو ولد علي من زوجته فاطمة بنت محمد، أي أنه حفيد النبي الذي وقف مع قليل من أصحابه الشجعان، ضد الجيش الضخم للخليفة يزيد وكيف أن العدو منعهم من الماء، وكيف أن الحسين طلب منهم الرحمة وهو يحمل طفله الرضيع الذي يحتضر من العطش فقابلوه بالسهام التي قتلت الطفل، وكيف أنه في النهاية بعد إصابته البالغة وهو الناجي الوحيد امتطى صهوة جواده يحمل القرآن في يد والسيف في اليد الأخرى مخترقاً متاريس الموت التي لا ترحم وقد قتل العشرات قبل أن يسقط صريعاً في النهاية.

قصة كربلاء تمثل الشجاعة، والشهادة، واليأس، والظلم – وهذا كله ما يجعل الشيعة يعيشون بألم كل هذه الدروس عبر السنوات. إنهم أقلية دينية مضطهدة، وهم كذلك في كل جزء من العالم الإسلامي إلا أنهم مضطهدون بشكل خاص ومنظم من قبل أتباع محمد بن عبدالوهاب، الذي يجرّمهم على نحو خاص. بالنسبة له، عبادة الشيعة لعلي والحسين وما يتبعه ذلك من تقديس القبور والمقامات هو شرك محض يستوجب القتل أو التكفير.

***

في منتصف السبعينات، بدأ الداعية الشيعي المتمكّن الشاب، حسن الصفّار، بنشر الوعي في القطيف.كان شخصية متواضعة بعينين بريئتين مسبلتين، تماماً كما يفعل أي رجل دين، ويحمل لحية مرتبة ويلبس عمامة بيضاء، ويظهر في الوقت نفسه إرادة واضحة. أثنى الصفّار، مستلهماً الدروس من كربلاء، على شجاعة الحسين في مقاومته الشديدة للتمييز والتوزيع

الظالم للثروة. «أين»، يسأل الصفار بوضوح، «يجد الإنسان مثل ذلك الظلم اليوم؟». عندما يكون الشيخ على المنبر فإنه يكون حريصاً على عدم ذكر النظام السعودي مباشرة- لكنه يُبقي حديثه حول أيام الحسين، ومستمعوه يعرفون جيداً ماذا يقصد.

خلف الكواليس، يتحدث الصفار بشكل صريح مع الشباب الناشطين الشيعة أنه قام بتأسيس جماعة سرية للحوار اسمها منظمة الثورة الإسلامية التي رصدت منشوراتها شكاويهم بشكل قوي.

***

كان علي محظوظاً. بعد أيام قليلة من تلك الحادثة، لاحظ الدكتور جون بارسنن، وهو أستاذ أمريكي في «كلية البترول» التي تُعرف حالياً بجامعة البترول والثروة المعدنية، مقعدين خاليين في صفّه الذي يقع بالقرب من الجبل القريب من مقر أرامكو في الظهران. انتفض الصف بشكل غير عادي عندما سأل الأستاذ عن صاحبي هذين المقعدين.

«بعد انتهاء المحاضرة»، كما يتذكر بارسنن «أخذني أحد أصدقائهما جانباً وأخبرني بهدوء أنهما قد قُتِلا في القطيف. لا أحد ناقش ما حدث لهم. بقي مكانهما شاغراً بقية ذلك الفصل الدراسي. لقد كانا طالبين نجيبين. كان يمكن لهما أن يشغلا عملين مهمين في هندسة البترول. كان ذلك الأمر حزيناً لكن في تلك الأيام، لا تستطيع أن تتفوّه بأي شيء».

بحسب الإحصاءات الرسمية، قُتل سبعة عشر شخصاً في أعمال الشغب التي اندلعت في القطيف خلال الأيام الخمسة تلك وأصيب أكثر من مائة وقُبض على أكثر من مائتين. قام المتمردون بقلب الحافلات وإحراق مكاتب الخطوط الجوية العربية السعودية ونهب الفرع المحلي للبنك السعودي البريطاني.

«كانت القطيف معزولة تماماً لعدة أيام»، يقول كليف مورغان، مدير البنك في المنطقة الشرقية الذي ذهب لتقدير حجم الدمار. «كان علينا أن نأخذ طريقنا من خلال نقاط تفتيش عسكرية متعددة حتى وصلنا إلى مقر القيادة للحرس الوطني- الذي كان يشبه إلى حد كبير، كما أتذكر، المناظر التلفزيونية لحرب فيتنام».

تعرضت قوات الحرس الوطني إلى هجوم وأصيب بعض أفرادها حيث تمترس العديد من الجماعات الشيعية متحدية السلطات لعدة أيام. من الناحية الأخرى من الخليج، كان راديو طهران يحرّض أبناء الشيعة بمساعدة آيات الله ضد السعودية.

«تنازل عن السلطة يا خالد». هكذا تظاهر سكّان سيهات الشيعة والتي تقع إلى الجنوب من القطيف. «الشعب لا يريدك»، كانت تلك الحادثة إهانة كبيرة للعائلة المالكة التي كانت تتفاخر ببسط سيطرتها على الجميع.

الفصل الخامس



صوت الشعب من صوت الله

منذ بداية الستينات وآل سعود يبحثون عن المشاكل – التحقيق والقبض على الشيوعيين والاشتراكيين والملحدين من أي نوع. كان الجميع يتوقع أن تأتي المعارضة الجادّة من اليسار.

لكن هجمات العام 1979م جاءت من التيار المعاكس تماماً – من أولئك الذين كانوا من اليمين، ومن وقفوا مع العائلة المالكة أول الأمر. كان يمكن التوقع يوماً ما أن يثور الشيعة المضطهدون في المنطقة الشرقية، لكن جهيمان وزمرته المتعصبة تلقّوا تربيتهم في مساجد المنطقة الوهابية وتحت يد علمائها والتي يعتبرها آل سعود معقلهم الرئيسي. إذاً، قد يسبّب المحافظون الكثير من القلاقل والاضطرابات.

في الشكل الرسمي، لم يهتم ولي العهد فهد بالأمر ولم يبد أي خوف منه. «كانت ردة الفعل للوطن بمثابة استطلاع وطني للرأي»، هكذا صرّح ولي العهد، «جاء الجميع ليحارب ضد جهيمان».

لكن في دوائره الخاصة، كان ولي العهد أقل ثقة، حيث أقلقته على نحو خاص انتفاضة الشيعة في المنطقة الشرقية. «لقد كان يتحدث كثيراً عن إيران»، كما يقول صديقه عدنان خاشقجي «لم يستطع أن ينسى ما حدث للشاه».

تسبّب الثورات الكثير من القلاقل، لكن الثورة الإيرانية ضمّت الكثير من العناصر غير المتوقعة. في 1776م أظهرت الثورة الأمريكية أن الاستعمار لا يمكن له أن يستمر مدى الحياة؛ وبعد ثلاث عشرة سنة، أعلنت الثورة الفرنسية نهاية الملكية المطلقة، ثم جاءت ثورة 1917م الروسية لتؤكد هذا الأمر – المؤسسات القديمة في طريقها إلى الزوال.

لكن إيران لا تنتمي إلى هذه القائمة التي تتحرك بشكل مُرْض نحو الحداثة والعلمانية – بل على العكس تماماً. ذلك الحكم المطلق الغربي الذي كان يبدو منيعاً ويُنظر له بعين الرضا الأمريكية، ويملك جيشاً ضخماً، ومخابرات فعّالة، وواردات نفطية، كل ذلك تم إسقاطه من دون أن تُطلق رصاصة خطيرة واحدة –كل ما أحدثه الشاه من تطوير بقي عاجزاً أمام السلطة الدينية التي يفترض فيها الانقراض.

لا يعرف فهد القراءة بشكل جيد ولم يتلق تعليماً رسمياً. كانت تربيته في مدينة الرياض الطينية المعزولة في العشرينات والثلاثينات حينما كان ينتشر التعليم القرآني، بالإضافة إلى «حرفة الصحراء التقليدية»، الركوب والرمي والصيد والجلوس لساعات طويلة في مجلس والده. لكنه تعلم الكثير من خلال مشاهدة الأسلوب الحذر الذي تعامل فيه والده مع المشايخ ورجال

الدين. لقد أدرك فهد أن الشاه كان يقف في المكان الخاطئ من المسجد، وهو المكان الذي كان فهد، وهو المتحررّ السابق، يخاف أنه قد ذهب إليه فعلاً. لذا لم يجادل ولي العهد طويلاً عندما ردّ عليه أخوه الملك خالد بإجابة دينية متطرفة حول تحدي جهيمان غير المتوقع.

أخذ الملك التقليدي الطاعن في السن فكرته من اجتماعاته المنتظمة مع العلماء. يقول إن الحل يكمن، بلا أدنى شك، في منع ظهور صور النساء السعوديات في الجرائد. لطالما قالوا إن هذا ليس من الإسلام في شيء -كما أن ابن باز قد أصدر العديد من الفتاوى في هذا الموضوع- وقد كان انتهاك المسجد الحرام البرهان على هذا الأمر. كان مشهد المسجد الحرام في الأشهر التي أعقبت الحصار، والتي امتلأت جدرانه بآثار الأعيرة النارية والسواد والثقوب المفتوحة في أرضيته الرخامية، مثيراً للتساؤل والتفكير والتأمّل.

«كان اعتقاد كبار السن أن كارثة المسجد هي عقاب من الله علينا لأننا كنّا ننشر صور النساء في الجرائد»، كما تقول إحدى الأميرات وابنة أخ الملك خالد: «الشيء المقلق في الأمر أن الملك قد صدّق الأمر أيضاً».

وفي الواقع، كانت الصور عنصراً أساسياً في اتهامات جهيمان وأتباعه. وعندما مرّر الملك خالد فتوى المشايخ إلى مستشاريه لم يخض في تفاصيل شكاوى المتمردين، لكن تصميمه يبيّن أنه كان يصدّق أن الله قد تدخّل شخصياً في مكة في بداية محرم من عام 1400 هـ. الجميع يعرف، كما يقول الملك، أن صور النساء الكاشفات وجوههن غير إسلامي. إذاً، لماذا تسمح الحكومة بهذا الأمر؟

لم يُعجب هذا القرار الأعضاء الشباب في الحكومة، أو أولئك الوزراء التكنوقراط الذين استخدمهم فهد لتحويل العائد البترولي إلى بناء البنية التحتية الحديثة حيث ارتعبوا من سذاجة الفكرة التي ستؤثر حتماً على تقدم المرأة. لكن عندما يتعلق الأمر بالدين، فإن الملك يعتبر هذا الأمر شغله الشاغل إلى الدرجة التي لم يحل فيها هذه القضية إلى مجلس الوزراء. لقد كان رأي خالد موافقاً تماماً للمشايخ. التأثير الأجنبي والبدعة هما أساس المشكلة. كان الحل سهلاً لمواجهة القلاقل التي أحدثها المتدينون – الاتجاه نحو الدين بشكل أكبر.

كان ولي العهد فهد قد أعلن استراتيجيته التقدمية العلمانية ذات الطبيعة الغربية. لأكثر من عشرين سنة وآل سعود يعدون بتحقيق الإصلاح الدستوري – وهو تأسيس مجلس الشورى من مرشحين مؤهلين لمراقبة الجانب التشريعي. وقد يتطوّر الأمر في النهاية إلى وجود نوع من برلمان ممثّل ومنتخب. كان الملك فيصل هو أول من أعلن عن ذلك في عام 1964م كجزء من حزمة إصلاحات عرفت باسم «نظام الحكم الأساسي» (كلمة دستور من الكلمات المحرّمة وذلك بسبب أن المملكة تدّعي أنها تمتلك دستوراً كاملاً هو القرآن). وبعد خلافته لفيصل في عام 1975م، جدد خالد التزامه بمجلس الشورى ونظام الحكم الأساسي، وبعد حصار الحرم، أعلن فهد أن الخطة الإصلاحية تسير حسب ما خطّط لها.

«سوف يكون لدينا قريباً مجلس للشورى»، هكذا أعلن ولي العهد في إحدى المقابلات العاصفة بعد حادثة جهيمان في الأيام الأخيرة من عام 1979 م مبيّناً جديته في تعيين خمسين، أو ستين، أو حتى سبعين عضواً،

«سيتم تعيين الأعضاء أول الأمر. يجب أن تكون خطواتنا بشكل متدرج».

«كم ستكون سرعة هذا التدرج؟» كان هذا أحد الأسئلة التي وُجّهت إليه.

«خلال فترة وجيزة»، هكذا وعد، «لن تتجاوز شهرين، كما أعتقد».

لكن عندما انتهى الشهران لم يعلن ولي العهد المجلس الجديد أو النظام الأساسي. بدلاً من ذلك فقد استعان بالأسلوب السعودي في التأجيل وهو تشكيل لجنة تعيد فحص تفصيلات الاقتراح – في هذه الحالة، هي لجنة من المرشحين الإسلاميين والحكوميين تحت رئاسة أخيه الحذر نايف.

«عندما نبدأ في هذا الطريق»، قال ولي العهد فهد محذّراً اللجنة في حديث خاص معها، «فلن يكون هناك أي تراجع. في النهاية، يجب علينا مواجهة الانتخابات المباشرة – لكن لا أحد يقول إنه يجب علينا أن نقوم بها الآن».

كانت تلك هي الطريق التي حرّك بها اللجنة وحدّد معالم طريقها، هذا إذا أردنا أيضاً أن نغض الطرف عن الطبيعة الحذرة للمؤسسات السعودية. لهذا، لم يعد أحد يسمع شيئاً عن مجلس الشورى – فما بالك بدار الأوبرا التي تعرض «عايدة» بمجموعة كبيرة من الأفيال.

***

في يناير 1980، عادت للتو سمر فطاني بعد دراستها في القاهرة لتنضم إلى إذاعة اللغة الإنجليزية في راديو جدة. تنتسب فطاني إلى عائلة مكاوية حيث كان عمها قاضياً شرعياً يمارس التدريس في المسجد الحرام.

«كان هناك العديد من الخريجين العائدين من الخارج بأفكار وطموحات لكي يجعلوا بلدهم أفضل مما كان عليه»، هكذا تتذكر فطاني السنوات الأولى من الثمانينات. «كانت أياماً مثيرة ومليئة بالتحديات. كانت هناك الأسواق الخيرية والمسرحيات وعروض الأزياء - المناسبات الدولية حيث كان بإمكانك أن ترى النساء اللاتي ينتمين إلى دولٍ مختلفة ويلبسن أزياءهن الوطنية. كان هناك أربع دور للسينما على الأقل في جدة. حصلت على عمل في الإذاعة المحلية لقراءة الأخبار».

لكن جاء التراجع إلى الخلف بعد جهيمان. لا تريد قوات الأمن السعودية أن يفاجئها أحد مرة أخرى.

«كان عليك أن تأخذ إذناً في كل شيء، من المحافظ، من الوزارة، ويمكن أن يتم إلغاء كل شيء في اللحظة الأخيرة. لقد صعّبوا الأمر كثيراً إلى الدرجة التي وصل فيها الأمر في النهاية إلى اليأس».

هذه البيئة القمعية المتعصبة تضاعفت بعد تغييرات كانت تهدف إلى إرضاء العلماء. تم إغلاق دور السينما في جدة. أصبح الأمر، كما يقول كبار السن، مشابهاً لما حدث في العشرينات من القرن الماضي عندما سيطر الوهابيون على مملكة الحجاز في البحر الأحمر. تتذكر جَدّة سامي نوار،

وهو مدير مركز الحفاظ على تاريخ جدة، كيف كانوا يحشون القطن في بوق جهاز الجراموفون الخاص بالعائلة خوفاً من المشاكل التي يثيرها الإخوان الشرسون.

«إنه ذلك المناخ السائد في نجد»، تقول سمر موضحةً، «حيث تجد الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة. من ذلك المكان جاءت أفكارهم المتطرفة، أولئك المساكين».

«كانت أفراح عيد الميلاد متعة في المجمعات السكنية»، هكذا تتذكر إنعام غازي، أخصائية العلاج الطبيعي المصرية، «يضع الناس المصابيح في الشوارع. لا تستطيع رؤيتها فتضطر إلى ركوب الدراجة لكي تمر حولها للتمتع بها. كل ذلك توقّف بعد جهيمان. لم يعد هناك أعياد الهالووين وأعياد الحب».

ثم جاءت بعد حظر الملك خالد صور النساء في الجرائد حزمة تغييرات أخرى طلبها العلماء— وخاصة في التربية والتعليم.

«العلوم الحديثة، علم الأرض أو الجيولوجيا، تاريخ الحضارة، تاريخ أوروبا —كنت أتذكر أنني أدرس كل هذه المواد في المدرسة السعودية في السبعينات الميلادية»، يقول مهدي العصفور، مستشار التخطيط في أرامكو، «كل ذلك اختفى. الآن أصبحت المقررات في التاريخ الإسلامي وتاريخ آل سعود، مع ساعات إضافية في مواد الدراسات الإسلامية — وحتى مقررات العلوم والرياضيات أضافوا إليها محتوى إسلامياً. ذهب طفلي إلى المدرسة ورجع إلى المنزل باكياً لأن أحد معلميه أخبره أنه سيذهب إلى النار. لماذا؟

لأنه يستمع إلى الموسيقى ولم يقصّر ثوبه إلى الساق».

نعود مرة أخرى إلى الشرق حيث جامعة البترول والثروة المعدنية، إذ حُذِف مقرّر العلاقات الدولية، كما يقول جون بارسنن، من برنامج علم الاجتماع في كلية البترول - «غربي وعلماني بشكل زائد عن الحد»- بينما المقرر الموسوم «التغيّر الاجتماعي في الدول النامية» تم تسليمه إلى أيدٍ أمينة لعالِمَيْن إسلاميَيْن. أما علم النفس فقد ظل حياً طوال فترة تواجد العميد الذي كان يحميه، ثم اختفى في النهاية معه بعد أن حُكِم عليه بعدم مناسبته للمؤسسة الإسلامية. وجد بارسنن نفسه يقضي أوقاتاً مطوّلة مع العميد لتمزيق صفحات من مقرر دراسي.

«كنا نجلس سوياً ونتصفح الكتاب ونمر على صورة امرأة أفريقية كاشفة صدرها في كتاب جغرافي ثقافي أو موضوع يتناول اللواط في مقرر لعلم الاجتماع. «مزّق هذه الصفحات». كنّا نضع الكتاب تحت الركبة ونقوم بتمزيق صفحات مجتمعة. كانت جريمة قتل متسلسلة. إذا سألني الطلاب عن الصفحات المفقودة، أقوم بهدوء بترتيب لقاء خارج الصف لكي أعطيهم إياها».

كان أحد المعلمين يقوم بتدريس الإنجليزية بترديد الأناشيد مع طلابه - «شكراً على الموسيقى وعلى الأغاني التي تغنيها»، كل ذلك اختفى مبكراً.

كانت الكلمة السرية هنا هي الإسلام. قامت وزارة التعليم العالي التي يقودها أحد أحفاد محمد بن عبدالوهاب بأسلمَة مناهج الكليات والجامعات

ووسعت انتشار الكليات الدينية. كانت بداية الجامعات السعودية في الخمسينات دينية وهاهي الآن تعود إليها. في عام 1986 م بلغ عدد الطلاب الذين التحقوا في الدراسات الإسلامية أكثر من ستة عشر ألف طالب من أصل مائة ألف طالب يدرسون في جامعات المملكة. هؤلاء الطلاب يدرسون ساعات طويلة في مقررات خاصة بحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب.

وجد معلمو المواد الأخرى غير الدينية أنفسهم تحت ضغط شديد.

«في أحد أيام سبتمبر، وصلت اثنتان من أفضل أساتذتنا وهما سيدتان من كندا والولايات المتحدة إلى جدة لبداية العام الدراسي الجديد»، كما تتذكّر فتاة سعودية شابة لامعة كانت تدرس الأدب الإنجليزي في جامعة الملك عبدالعزيز في جدة عام 1983 م. «تمت إعادتهما إلى بلادهما. كانتا تدرّسان الرواية الإنجليزية الكلاسيكية – مثل توم جونز، ومول فلاندرز، وغيرها من قصص الحب الأخرى. اشتكت إحداهن للسلطات. لا بد أنها إحدى المحجّبات اللاتي كن يدرسن معنا في الفصل – أولئك المتعصّبات اللاتي كن نرى أعينهن فقط. كن يعتبرن أنفسهن حارسات للفضيلة».

لكن، مع ذلك، فقد راق لبعضهن جزءً من تلك القصص المسيحية.

«كنّا نقرأ قصائد لجون ميلتون»، كما تتذكر هذه الطالبة، «كنا نقرأ قصيدة الفردوس المفقود والفردوس الموعود والتي تصوِّر حوّاء كمصدر للإغواء والذي يُعتبر أساس الشر والذنوب لبني البشر. إذاً الشر بدأ منذ أن خلق الله المرأة الأولى- لقد أحبت المحجبات هذا الجزء من القصة. يعامل

القرآن حوّاء بعدل كبير. نحن لا نتكلم عنها بالسوء أبداً في ديننا. هي بالنسبة للمسلمين أم للبشرية، لكنها بالنسبة لميلتون مصدر الغواية والإغراء وهي سبب نزول الإنسان من الجنة إلى الجحيم». «أرأيتم؟» تقول لنا هؤلاء النسوة، «نحن النساء مذنبات. نحن سبب ضلال الرجال. لهذا السبب يجب أن نبقى في البيوت محجبات».

***

الجنة والنار –هذان الشيئان اللذان يصدّق بهما معظم الناس في السعودية الآن بشكل حرفي. أهل الخير من المسلمين سيذهبون إلى أحدهما، بينما أهل الشر من المسلمين سيذهبون إلى الطريق الآخر حيث إن الله القوي العزيز الذي يراقب كل شيء يسجّل كل صغيرة وكبيرة. كل فعل تقوم به في حياتك وكل قرار تتخذه– كل ذلك يؤدي إلى شيئين اثنين هما إما العيش في خلود دائم مع الحور العين العذارى، أو أنك ستكون وقوداً لنار تلظّى.

«نحن نحبكم كثيراً». هكذا يقول المسلمون لأصدقائهم من الغربيين «نحن نكره أن يكون مصيركم إلى النار».

ليست الجنة والنار، بالنسبة للسعوديين، فكرتين رمزيتين، وهو الاعتقاد الذي يجد فيه الليبراليون الغربيون شيئاً من الراحة في تصديقه. بالنسبة للسعوديين كما هو الحال بالنسبة لجميع المسلمين المخلصين، مصيرك في الآخرة يعتمد بشكل حرفي لا مفر منه على شيئين هما أولاً أن تكون مسلماً، وثانياً أن تلتزم بما أمرك الله به. الشيء الأهم هنا هو الدار الآخرة – والتي

تجعل الحياة في الدنيا تحت رحمة الخوف والعقاب.

هذا يعني أن الواجب الأساسي الذي يجب أن تضطلع به الدولة هو أن تأخذ بأيدي مواطنيها وتتأكد من أنهم سينتهون إلى الطريق الصحيح، كما يقول نظام الحكم الأساسي السعودي.

لا تهدف الدولة السعودية إلى تحقيق أهداف مؤقتة كالحرية الشخصية الدنيوية، بل إنها تهدف إلى أن تجعل من الناس مسلمين صالحين – أو الحسبة التي كان قد اقترحها الشيخ ابن باز لتكون الرسالة التي تحملها جماعته السلفية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تبدأ المدرسة عملها في تحقيق هذا الهدف مع الأطفال، وتكمل المساجد هذا الدور مع سن البلوغ – مع وجود المساندة والدعم من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- أو مجموعة العيون الساهرة التي تشرف عليها الدولة ويعرفها الغربيون تحت مسمى «الشرطة الدينية». في الثمانينات، كان أفراد هذه الجماعة المتعصبون هم الحلفاء الرئيسيون للحكومة في فترة الصحوة التي أعقبت أحداث جهيمان –كما كان هؤلاء أيضاً مصدراً للنفور والسخط الذي يتقيه الجميع.

بدأ الناس يلاحظون أن رجال الدين والأئمة يمتلكون مالاً أكثر من بداية الثمانينات. أصبح دولار النفط تقياً، ظهر أثر النعمة على رجال الدين حيث استفادت الشرطة الدينية (الهيئة) بشكل واضح من مساعدات الحكومة. بدأت صالونات الجمس الجديدة تجوب الشوارع وعلى ظهرها المتطوعون (المطاوعة) المتواضعون الذين يحملون هالة «الأخ الكبير» تحت المسمى

الأصلي الجماعي «الهيئة». لقد طوروا أنفسهم بشكل لا يضاهى. «في الأيام الخوالي»، كما يتذكر عبدالله مصري، العالم والإعلامي المعروف، «كنت ترى أصحاب المحلات يؤدون صلاتهم خارج محلاتهم في أوقات الصلاة. كان الناس يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم الدينية كما أمرهم الله أما الآن فالشرطة الدينية تأمر الناس بإغلاق المحلات والذهاب إلى المسجد».

في جدة، فتح الفندق الفرنسي الجديد، سوفوتيل، صالتين رياضيتين منفصلتين ذات مدخلين مستقلين للرجال والنساء، لكن بعد مضي أشهر قليلة تم إغلاق الصالة الرياضية النسائية التي كانت تزدحم بالسيدات «فتيات غير متزوجات يذهبن بمفردهن إلى الفنادق!» كما تتذكر إحدى العضوات بشكل ساخر، «هذا حرام!».

تطور هذا الفصل بين الجنسين إلى السماح بوجود أمكنة ذات مداخل منفصلة وتحمل لوحات ذات اسم «قسم العائلات» بحيث يمكن السماح للرجال بالدخول إذا كانوا يصطحبون امرأة ذات علاقة بهم، أخته، أو أمه، أو زوجته، أو ابنته البالغة. كان هذا الأمر بمثابة سلطة وميزة إضافية للنساء. الفصل بين الجنسين أسلوب حياة نجدي امتد بشكل صارم إلى كل أجزاء الدولة. أغلقت محلات بيع الموسيقى، وتم إيقاف العادة الجداوية القديمة التي يقوم بها بائعو الحلوى بالغناء والنشيد احتفالاً برمضان في شوارع المدينة.

كان من الصعب ألا ترتكب جرماً. كانت النساء الغربيات يرتدين اللباس الغربي البسيط بأكمام طويلة وفستان يصل إلى الرقبة على طريقة

موضات لورا آشلي. كانت المناسبات الاجتماعية للأجانب شبيهة بمسلسل البيت الصغير في الأرض الخضراء حيث تكثر الألوان البراقة الخضراء والزهرية. لكنه الآن أصبح إلزامياً على النساء الغربيات أن يغطين ملابسهن بالعباءة السوداء على الطريقة السعودية. بدأ الأجانب بالانزعاج وعدم الراحة، وقد لاحظت سمر فطاني أثر هذا الاختلاف على زملائها الأجانب.

«لم يستطيعوا الاختلاط مع السعوديين – أصبح الأمر هم ونحن. كان لدي أصدقاء مميزون في الإذاعة، وهما صديقتان من أُستراليا، لكنهما قررتا الرحيل. لم يكن الأمر مسلياً أبداً. في الواقع كان الأمر مقلقاً ويبعث على التوتر. ثم أوقِفتُ عن العمل في قراءة الأخبار».

بث التلفزيون السعودي في إحدى السنوات أغنية للمغنية اللبنانية فيروز وقد وُضع على صدرها علامة سوداء لتغطية صليبها. اختفت هي الآن، وجميع النساء غيرها، تماماً. طغت قوة الشرطة السرية يوماً بعد يوم وهم يضايقون الناس في الشوارع.

«لا تستطيعين المشي مع زوجك وهو لا يحمل بطاقته الشخصية». تقول سمر، «سوف يتهمونك بالزنا».

أحياناً قد لا تكون البطاقة الشخصية كافية. النساء المسلمات لا يغيّرن أسماءهن بعد الزواج – فهن يحتفظن بأسماء عائلاتهن إلى الأبد. لذا، عندما حضر كل من سمر فطاني وزوجها خالد المعينا إلى مؤتمر في بداية الثمانينات في الرياض، واجها مشكلة أثناء دخولهما إلى فندق راديسون ساس.

«كانوا مهذبين معنا»، يقول خالد المعينا، «لكنهم قالوا إنهم بحاجة إلى إبراز ما يثبت أننا متزوجان. كان من الصدفة أنني كنت قد نشرت وقتها مقالاً في جريدة «المسلمون» مما يعني أنني قدمت خدمة دينية جليلة. لكن هذا لم يشفع لي. كان علي أن أذهب إلى مخفر الشرطة مع صديق رجل كشاهد ليحلف بالله أن زوجتي كانت بالفعل زوجتي».

أعدم آل سعود جهيمان لكنهم جعلوا من أفكاره نهجاً للدولة.

الفصل السادس



كرة القدم السلفية

ترتفع بنايات جامعة الملك عبدالعزيز في الضواحي الشرقية لمدينة جدة مثل علب الكبريت البيضاء الضخمة – تلك البنايات المبتذلة الجاهزة التي تتناسب تماماً مع التعليمات الجاهزة وغير المثيرة للجدل التي سيتلقّاها الطلاب. في الجامعات السعودية يذهب الطلاب لاستقبال المعرفة من دون أي سؤال، ومن دون أن يتعلموا التفكير الناقد أو أي أنواع أخرى من التفكير، وغني عن القول اهتمامهم بإعادة ترتيب العالم من حولهم. في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات كانت قاعات الجامعة وردهاتها تمتلئ بأكثر الأفكار تطرفاً وتدميراً في الشرق الأوسط.

كانت الحكومة السعودية، لأكثر من عشرين سنة، ومنذ أيام الرئيس المصري الذي كان يطبّق الفلسفة السوفياتية جمال عبدالناصر، تقدّم اللجوء والملاذ للإسلاميين المعارضين لأنظمة العالم العربي العلمانية، وخاصة ممن كانوا ينتمون إلى الإخوان المسلمين، جنود الله على الأرض الذين كانوا معرّضين للتعذيب والموت في السجون السياسية لنظام عبدالناصر. كان ذلك جزءاً من سياسة واستراتيجية كان يطبّقها الملك فيصل لمواجهة الإلحاد محليّاً وخارجياً. وفّر الإخوان المسلمون المنفيّون، والذين كانوا

يتمتعون بالوقار ووضوح الأهداف والتقوى، للمملكة كوادر من الأطباء والمعلمين والإداريين في تلك المرحلة التأسيسية التي احتاجت فيها الدولة إلى البناء والتطور. وصل الآلاف منهم للمساهمة في بناء البنية التحتية السعودية وخاصة في الوزارات والجامعات والمدارس إذ لقّنوا الأطفال الدروس التي تجعلهم مؤمنين صالحين. أمّا النساء اللاتي كن ينتمين إلى الإخوان المسلمين، وأكثرهن من سوريا، فقد نجحن بشكل خاص في إقناع طالباتهن المراهقات بنبذ الثقافة الغربية المتفسخة وارتداء الحجاب الكامل، أو النقاب.

كان مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، حسن البنّا، نفسه معلّماً، ذلك المصري الذي أرجع ضعف العرب إلى فشلهم في اتباع «الطريق المستقيم» كما أمر الله في فاتحة الكتاب في القرآن الكريم. مفتاح القوة، كما يراه البنّا، ليس في النهج الغربي، بل يجب على المسلمين أن يأخذوا الطريق المعاكس تماماً، أي في البحث عن الحلول في الرسالة الصافية الأصلية التي بلّغها الله لنبيّه – هذا على الرغم من أن ذلك لم يمنع البنّا من تبنّي بعض الأساليب السياسية الغربية. درس البنّا نجاح الأحزاب الشيوعية والفاشية في الثلاثينات في قارة أوروبا ثم أسّس حركة الإخوان بالاعتماد على أسلوب الخلايا السرية (أو الأسر) ، هذا بالإضافة إلى استخدامه الرياضة واللياقة البدنية على الطريقة الهتلرية الشبابية لجذب المجندين الشباب. لقد طوّر أسلوبه الإسلامي الخاص في الكشّافة وتأكّد، كما يفعل حزب الله وحماس الآن، أن من يدعم الإخوان سيلقى الدعم من شبكة الخدمات الاجتماعية الأساسية، وهي هنا المدارس والعيادات الصحية. هذه الإمكانيات متاحة وأكثر فعالية من أي شيء آخر تقدّمه الدولة.

أسسّ البنّا حركة الإخوان في عام 1928م. كان المحرّك الأساسي للحركة المتمكن سيد قطب، وهو خريج نظام المدرسة المصرية أيضاً، ويعمل مفتشاً في المدارس وتم إرساله في دورة تدريبية إلى أمريكا في أواخر عام 1940م ثم رجع إلى بلده مصدوماً بالتفكك الأخلاقي للغرب. كان سيد قطب مصدوماً بشكل خاص بالتفسّخ الجنسي للنساء الغربيات حيث كتب وصفاً دقيقاً عنهن كما يلي: «عيون معبّرة وشفاه عطشى... أثداء مدورة، مؤخرات ممتلئة... فخوذ جميلة، وسيقان ملساء». لقد تأثّرت آراؤه ببعض التجارب غير السارّة في نيويورك وكولارادو بسبب سحنته العربية التي كانت مثار تحامل عنصري.

تم اغتيال حسن البنّا في عام 1949م. على يد الشرطة السرية للملك فاروق، كما يدّعي البعض، بعد أن تمّكن من بناء شبكته القوية وجماعته الدينية التي وصل عدد أعضائها إلى الملايين. سُجن سيد قطب ثم أُعدم على يد عبدالناصر في عام 1966م. لكنَّ أخاه محمداً هرب إلى جدة لتستقبله بحرارة جامعة أم القرى بمكة (سمّى الرسول مكة بأم القرى)، حيث ألقى المحاضرات هناك مروّجاً لأفكار سيد قطب التي ترفض الغرب:

«انظر إلى الرأسمالية وأقطابها التي تتحكّم بكل شيء ونظامها الربوي وعناصر الظلم الكثيرة التي تمتلئ بها.... انظر إلى «الحرية الفردية» الخالية من التعاطف الإنساني والمسؤولية تجاه الأقارب إلا في ما ينظمه القانون».

لقد صُدِم سيد قطب بالعادة الغربية التي تقضي بإرسال الوالدين إلى «بيوت» المسنين بنفس الطريقة التي انتقد بها أحد الإيرانيين هذه الحالة واصفاً إياها «بالتسمم الغربي»:

«(انظر) إلى هذا الاتجاه المادي الذي يميت الروح؛ هذا السلوك الحيواني الذي يسمّونه «الاختلاط الحر بين الجنسين»؛ هذا الفحش الذي يسمونه «تحرير المرأة» ...هذا الشر والتمييز العنصري البغيض».

لمواجهة التسمّم الغربي، اتجه سيد قطب إلى الدين. «الإسلام»، كما يقول، «هو الحل». وحيث إنه تعرّض للتعذيب في سجون عبدالناصر فلم يكن مسالماً. أولئك الذين ينكرون الجهاد وطبيعته الهجومية الفعّالة، كما كتب في أحد كتبه، «فإنهم ينقصون من عظمة الطريقة الإسلامية في الحياة».

كانت طموحات الإخوان المسلمين مشابهة لطموحات السلفيين والدعوة الوهّابية – وهي الالتزام بأمر الله وتأسيس الدولة الإسلامية الكاملة. لكن خطاب الإخوان المسلمين يهتم بترويج أفكار التغيير مثل العدالة الاجتماعية، ورفض الاستعمار والتوزيع العادل للثروة. كانوا مستعدين سياسياً، لتحدي المؤسسة الحاكمة بطريقة لا يعرفها الوهابيون كثيراً والذين عادوا إلى موالاة حكامهم آل سعود.

كان شيئاً مربكاً للطلاب في جدة أن يأخذوا القيم الوهابية التي تعلموها في طفولتهم لتُحدث لديهم نقلة دينية متطرفة وآمنة حتى تلك اللحظة. لقد تعلموا في المدرسة أن الجهاد فكرة رومانسية بعيدة وجزء من التاريخ. لكنهم الآن سمعوا بإمكانية تطبيقه اليوم، كما أنه يمكنهم أيضاً الاتصال شخصياً مع الجهاد ممثّلاً بصاحب الصدر الواسع عبدالله عزام الذي كان يُلقي المحاضرات في جدة ومكة أوائل الثمانينات. كان عزام الفلسطيني قد حارب الاحتلال الإسرائيلي لموطن عائلته جنين في الضفة الغربية بعد

حرب الأيام الستة في عام 1967، أو تلك الهزيمة المهينة التي يعرفها العالم العربي باسم «النكبة» أو الكارثة. لكن هذا الشيخ المحارب ذا اللحية الطويلة التي تمتد إلى صدره مثل شلال رمادي يتموّج، لا يملك الكثير من الوقت في انتظار جهود ياسر عرفات أو تابعيه في منظمة التحرير الفلسطينية الذين يراهم بعيدين عن الدين.

لقد رحّبت الحكومة السعودية بالأفكار الأيديولوجية لعزام ومحمد قطب[1] في المملكة واعتبرتها الرد الديني المناسب للأفكار الماركسية الملحدة التي انتشرت في الشرق الأوسط. لكنهم في الوقت نفسه كانوا يعرّضون القلوب والعقول السعودية الشابة لفيروس قوي اسمه الإسلام الراديكالي المتعصّب. ومع مرور الوقت في الثمانينات، تجد المئات من الشباب، العديد منهم من خارج الجامعة، يجتمعون أيام الجمعة للصلاة والاستماع إلى الخطب العاطفية المجلجلة لعبدالله عزام.

«ذهبت للاستماع إليه مرات عديدة»، كما يتذكر جمال خاشقجي، ابن عم من الدرجة الثانية لرجل الأعمال العملاق عدنان. كان جمال يدرس في أمريكا وقد وضع أقدامه للتو في عالم الصحافة. «كان اجتماعاً ضخماً. كان هناك العديد من المستمعين إلى الدرجة التي امتلأ بها المسجد. اضطر العديد من الناس إلى الجلوس والصلاة في عرض الشارع».

كان من بين الحشد الذين اجتمعوا ليتشربوا أفكار عزام ومحمد قطب

---

1 - سافر عزام لاحقاً إلى أفغانستان أما محمد قطب فما زال يعيش في مكة.

تحت ظل الأشجار المغبرة في حرم الجامعة بجدة طالب شاب يقظ، طويل ونحيف، ذو بشرة زيتونية ناعمة ووجه عريض وأنف كالصقر. كان الشاب، كعلامة لالتزامه الديني، يحاول إطلاق العنان للحيته بحيث تصبح في المستقبل طويلة وكثة.

***

كان أسامة بن لادن يلعب كرة قدم بشكل شيطاني في مركز الهجوم كرأس الحربة.

«كنّا نكوّن فرقاً ونخرج إلى الصحراء بالقرب من مصنع البيبسي». هكذا يتذكر خالد باطرفي، محبّ كرة القدم الذي كان يصغر أسامة بثلاث سنوات. الميزة التي يتمتع بها أسامة في الفريق، كما يقول باطرفي، هي طوله الفارع. كان يقترب طوله من ست أقدام وأربع بوصات الأمر الذي يساعده وهو النحيل أن يقفز بقوة فوق منافسيه ليضرب الكرة برأسه داخل المرمى. كان شبيهاً ببيتر كراوتش في مباريات حواري جدة.

الآن امتلأت منطقة مصنع البيبسي في جدة بالمحلات البراقة وأسواق شارع التحلية. في أواخر السبعينات الميلادية كانت منطقة التحلية تقع في الحدود الشمالية للمدينة، وكان باطرفي وبن لادن يشقان طريقهما عبر الأرض اليباب في الحر الشديد الذي بدأ يتناقص تدريجياً مع انسلاخ النهار بينما كان الأصدقاء مشغولين في سياراتهم بالحديث والثرثرة.

«بعد أن ننتهي من المباراة كنا نقف جميعاً لكي نؤدي صلاة المغرب».

«يقف الشباب جنباً إلى جنب في الظلام الدافئ وهم يتناولون الساندويتشات ويشربون العصير والمشروبات الغازية من الثلاجة».

«كان أسامة هادئاً جداً وخجولاً»، يقول باطرفي. «كان يتكلم بهدوء، لكنه كان يتمتع بسلطة غريبة. كان يحب كرة القدم، لكنه كان يرفض السراويل القصيرة التي كان يلبسها لاعبو كرة القدم في تلك الأيام. كان يلبس سروالاً يصل إلى ركبته وبدلة فضفاضة وكنا جميعاً نقلده. قسّمنا جميعاً إلى أربع مجموعات – أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، تيمّناً بأصحاب رسول الله الذين كانوا أول أربعة خلفاء لمحمد، ثم يسأل سؤالاً: «متى كانت معركة أحد؟» «في السنة الثالثة من الهجرة» يأتيه الجواب من أحدهم. «صحيح»، يردّ عليه أسامة، «خمس نقاط لفريق أبي بكر. كان الأمر شبيهاً بمسابقة تلفزيونية، لكن من دون تصفيق – لأنه كما يقول غير إسلامي. عندما يأتي شخص ما بالجواب الصحيح نصرخ جميعاً هاتفين الله أكبر!».

دين أسامة – وحبه لكرة القدم- كانا سيفرحان والده محمد الذي كان يعتبر أحد رجال الأعمال الأقوياء والمحترمين في المملكة العربية السعودية.

البنّاء

كان للملك عبدالعزيز وصديقه محمد بن لادن عينان صالحتان – واحدة لكل منهما. كانت هذه الإعاقة البصرية الرابط الشخصي بينهما. الشيء الآخر هو الزواج المتعدّد، فكلاهما يستمتعان بأبوة العشرات من الأولاد. فقد الملك عبدالعزيز عينه بسبب التراخوما، بينما تقول الرواية إن تفضيل الملك عبدالعزيز لـ بن لادن المولود في اليمن جاء بسبب إن هذا الأخير قد تبرّع بعين واحدة من عينيه للملك في عملية زراعة فاشلة.

هذه الأسطورة انتشرت في أروقة شركة بن لادن للبناء، لكن الحقيقة كانت أطول من ذلك. كان محمد بن لادن محباً شغوفاً لكرة القدم عندما كان شاباً إذ فقد عينه في مباراة عنيفة في الحواري عندما كان مجرد عامل بناء في السودان، أي قبل عشر سنوات من قدومه للمملكة التي بدأ فيها نشاطه التجاري في الأربعينات والخمسينات كعملاق في تجارة البناء والإعمار.

صنع رأس الحربة ذو العين الواحدة ثروته من خلال العمل الجاد الدؤوب وتجنّب خفض الإنفاق. كان محمد بن لادن يجزل العطاء لأهل بلده من اليمن، وكان لا يرفع من قيمة أسعاره. لا تعتمد ثروته فقط على جيوب عملائه بل على استثماره الحذر في صفقات العقار حول مشاريعه – وعندما يتعلق الأمر بالمشاريع الملكية فهو لا يطلب الدفع مقدماً حتى ينتهي القصر ويكتمل محققاً الرضا التام من الأمير. لقد خدم الملك عبدالعزيز كمدير للأعمال العامة ثم قام بهذا الدور بشكل غير رسمي، بعد عام 1953م. مع ابنه الملك سعود.

لم يترك محمد بن لادن أي عمل أو مشروع كان يجلب له الخسارة. كان بنّاءً حقيقياً —وكانت هذه رسالته. كان الجميع في المملكة معجباً بكفاءة عمله، كما أنه كان رجلاً تقياً. كان المقاول الأفضل في الخمسينات عندما قرر آل سعود توسعة الحرم الشريف، في كل من مكة والمدينة حيث أعاد بناء أماكن الصلاة القديمة على طريقة أقواس وممرات قصر الحمراء الأندلسي ووسّع المسجد بما لا يقل عن ستة أضعاف.

تضم المباني الجديدة القرميد المغربي الزاهي الذي تم تجهيزه مسبقاً من الخرسانة المسلحة والفولاذ بقوة غير عادية اكتشفها جنود الحرس الوطني في مكة عام 1979م. عندما حاولوا فتح ثقوب داخلها. «يجب أن نمنح عائلة بن لادن وساماً لبراعتهم في العمل». يقول الأمير، الشاب والمرح وقتها، بندر بن سلطان، «ثم بعد ذلك نضرب أعناقهم».

كان الشائع لدى المقاولين السعوديين العمل بإهمال والتقتير في مواد البناء، إلا أن حصار المسجد الحرام أثبت بشكل غير متوقع براعة البنّاء محمد بن لادن، الذي مات في حادث تحطم طائرة في عام 1967م.

لم يوافق ابن محمد أسامة على ما فعله جهيمان — أعتقد أن الرجل كان مجنوناً. «كيف يقوم بالاستيلاء على أقدس بقعة في الإسلام؟»، كان سيقول، «ثم يُحضر السلاح ويقتل الناس؟».

لكن في هذه المرحلة من حياته، كانت طريقته نحو الإيمان سلفية، والدليل تطويل لحيته. وبمجرد انخراطهم في حفظ القرآن بدأ أسامة وأصدقاؤه

بتقصير ثيابهم وارتداء الملابس من دون كيّها –لم يجدوا دليلاً على أن الرسول وزوجاته كانوا يستخدمون المكواة.

«يصوم أسامة أيام الاثنين والخميس»، يقول خالد باطرفي. «كان يتّبع سنّة محمد بوعي كامل. لكنه لم يكن يغلو في دينه، ولم يكن بالتأكيد عنيفاً –في ذلك الوقت على الأقل. كان يدعونا أحياناً إلى منزله لتسجيل بعض الأناشيد الإسلامية– فقط أناشيد، بالطبع، لأن الموسيقى حرام بالنسبة له».

إخوان وأخوات أسامة غير الأشقّاء كانوا بشكل عام يميلون إلى التمتع بلذائذ العيش. بعد سنوات الطفرة في السبعينات، تطوّرت الشركة الأصلية في المقاولات لـ بن لادن وتنوّعت، مثل أي شركة سعودية عائلية، إلى بيع المعدات الثقيلة، تحلية المياه وتخزينها ووكالات السيارات (أودي، بورش، وفوكسواجن) تجارة الاستيراد والتصدير، وشركات في التموين والأطعمة، والاتصالات. مقاولو المسجد الحرام كانوا أيضاً الموزعين السعوديين لشركة «سنابل»، لكن في الوقت الذي استفاد فيه أسامة، مثل كل أفراد العائلة، من الثروة الكبيرة، إلا أنه نشأ وتربّى بشكل منفصل عنهم عن طريق والدته. حدث الطلاق بين والديه بعد ولادته، ولم يكن له إخوة أشقاء أو أخوات شقيقات في العائلة ويبدو أنه كان يتعهّد عزلته بالرعاية.

قد تُفسّر هذه العزلة قبوله لأفكار أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين عندما كان في المدرسة. قام معلم سوري للتربية البدنية بتجنيد أسامة وأربعة من الطلاب الشباب بعد الساعات المخصصة للتدريب في كرة القدم حيث يقضي معهم جلسات تحت ضوء الشموع يسرد لهم القصص الإسلامي.

«كان ذلك السوري جذاباً في سرده للقصص بشكل غير عادي»، كما يتذكّر أحد أصدقاء أسامة. «كان قاصّاً موهوباً بالفطرة. لكن قصصه كانت تزداد كآبة يوماً بعد يوم. كانت من النوع الذي يحبّه أسامة ولم تكن تعجبني فقررت مغادرة الجماعة. سرد لنا المعلم قصة عن شاب في مثل عمرنا كان متجهاً إلى الله، لكن والده كان يقف دائماً في طريقه. لم يكن الأب مؤمناً حقيقياً –بل كان يسحب سجادة الصلاة من تحت ابنه، على سبيل المثال، كلما أراد ابنه أن يصلي. كان المعلم يسرد القصة بأسلوب تشويقي مثير: كيف قررّ هذا الفتى المؤمن الشجاع الدفاع عن حقّه في العبادة والصلاة؛ وكيف حصل على مسدس والده؛ وكيف عثر على الرصاص؛ وكيف تعلّم حشو المسدس؛ وكيف رسم خطة له. استغرق سرد القصة حوالي عشرين دقيقة وأضواء الشموع تملأ الغرفة المظلمة بينما كنا نحن جالسين نستمع وأفواهنا مفتوحة. ثم وصلت القصة إلى ذروتها– أطلق الابن النار على أبيه فأرداه قتيلاً. كانت قصة مروّعة إلى حد كبير، لأن الإسلام علّمنا أن نحب ونحترم آباءنا في كل موقف، حتى وإن كانوا كفاراً. لكن ذلك السوري قلب الأمر تماماً وتجاهل تعاليم الإسلام. «والله!» قال ذلك السوري: الحمد لله - بتلك الطلقة، لقد تحرّر الإسلام في ذلك المنزل».

الفصل السابع

الجهاد في أفغانستان

كان أحمد باديب، ذلك الإنسان السمين اللطيف، معلّماً لمادة العلوم في مدارس الثغر بجدة على طريق مكة. كان أحد تلاميذه أسامة بن لادن. لكن أحمد، والذي كان يحمل شهادة الماجستير في طرق التدريس من جامعة إنديانا، انتقل من التعليم لكي يعمل في الـ سي أي آي السعودية أو جهاز المخابرات العامة أو الاستخبارات. اتصل به في أحد صباحات ربيع 1980م رئيسه الأمير تركي الفيصل. سيصل جنرال باكستاني رفيع المستوى في اليوم التالي لمقابلة الملك وولي العهد، كما يخبره تركي، ويريد من أحمد أن يقوم بجميع الترتيبات اللازمة.

لم يحضر أحمد المقابلة مع ولي العهد، لكنه التحق برئيسه لاحقاً وحضر العشاء مع الجنرال الزائر، أختر عبدالرحمن، الذي يشغل منصب رئيس هيئة الاستخبارات الباكستانية القوية. كان جلّ الحديث الدائر هناك حول جارتها الشمالية الغربية، أفغانستان والتي تم غزوها قبل أشهر من قبل السوفيات. مقاتلو الحرية المسلمون، والمجاهدون، والمحاربون الأفغان كانوا يظهرون مقاومة عنيفة وكانت باكستان تدعمهم.

بعد ثلاثة أيام جاءت تعليمات جديدة لأحمد.

«لديك مهمة لتنجزها»، أخبره الأمير تركي مسلّماً إياه ظرفاً مغلقاً، «لقد وافق صاحب السمو الملكي ولي العهد على مساعدة إخواننا الأفغان. سوف نقوم بشراء أول دفعة أسلحة لهم، ويجب عليك أن تأخذ المال لهم إلى باكستان، نقداً».

«نقداً؟» سأل أحمد.

«نقداً»، كرّر عليه الأمير مسلّماً إياه رسالة ولي العهد، حيث قرأ أحمد هذه الكلمات: «ممنوع التعقّب».

«في البداية»، يبيّن الأمير تركي في العصر الحاضر، «كان من المهم أن لا يربط الروس بين المجاهدين وبين أي دولة أخرى، لا نحن ولا باكستان، كنا بحاجة إلى نكران الأمر. كانت الخطة أن نستخدم المال لشراء رشاشات الكلاشينكوف وقاذفات الصواريخ للأفغان، هذا بالإضافة إلى الأسلحة الروسية القديمة التي يلتقطها محاربو الحرية من أي مكان».

ذهب أحمد باديب إلى البنك وذكر لعامل البنك رقم الحساب. لم يفصح كم كان عدد أوراق المئة دولار التي طلبها لكنه أكّد أن المبلغ ملايين الدولارات، وأنه كان قادراً على رفعه وحمله في حقيبة واحدة. أهل الخبرة من حملة الدراهم يقولون إن مليون دولار هو أكبر رقم يمكن لشخص رياضي أن يمسكه بذراع واحدة من دون أن ينوء به حمل الأوراق (والتي تصل إلى 41 رطلاً).

«ما نوع العمل الذي تشغله يا سيدي؟»سأله موظف البنك بفضول بعد أن اطّلع على رصيده البنكي.

«رجل أعمال»، ردّ عليه أحمد.

بعد يومين، رجع أحمد إلى البنك حيث وجد بانتظاره صندوقين خشبيين في كل واحد منهما مليون دولار. استخرج أحمد الدراهم من الصندوقين وربط الحزمتين بورق فضي أخذه من مطبخه، ثم وضع الحقيبتين داخل صندوق بلاستيكي أسود حمله إلى كراتشي.

«هذه الحقيبة كبيرة جداً لدرجة أنه لا يمكن حملها في الطائرة»، هكذا أخبره موظف المطار في الرحلات الداخلية المتوجهة إلى إسلام أباد.

«أبداً». أصرّ أحمد وهو يحاول بذكاء أن يرفع الصندوق إلى أعلى وأسفل محاولاً إقناعهم أن ما بداخلها مجرد بالونات لحفلة ما.

عندما مرت الحقيبة بجهاز الأشعة السينية عكست أوراق المطبخ الفضية صورة بسيطة، وعندما طلب موظفو الأمن فتح الحقيبة، أخبرهم أن هناك فيلماً حساساً تحت البلاستيك الأسود. أخرج جوازه الدبلوماسي وقرَر أن الوقت قد حان للاتصال بالجنرال أختر.

«لقد وصلت سريعاً»، قال له الجنرال متفاجئاً - مَرّ أسبوع فقط منذ العشاء السابق.

كانت محطة الوصول لأحمد منزل الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق.

«كان مكاناً بسيطاً متواضعاً»، يتذكر أحمد. «فيلا صغيرة من ثلاث إلى أربع غرف. كان الرئيس يستعد وقتها لصلاة المغرب فصلينا سوياً».

كان أحمد قد قابل ضياء الحق قبل سنة عندما حمل رسالة من السعودية تطلب من باكستان عدم تنفيذ حكم الإعدام في الرئيس المخلوع ذو الفقار علي بوتو، الذي حكم عليه بالموت في قضايا فساد. لم يستجب لذلك الطلب، لكن مهمته الحالية أكثر نجاحاً. جلس السعودي مع الرئيس حتى وقت متأخر تلك الليلة لمناقشة مشكلات أفغانستان وباكستان بينما كان ابن ضياء الحق الصغير يلعب بدراجته حول الغرفة.

«لقد أحضرت المبلغ الذي طلبت من جلالة الملك»، قال أحمد باديب.

«بلّغه شكري»، ردّ ضياء الحق، «وأرجو أن تخبره أنني سآتي لأداء العمرة قريباً».

أثناء ذلك، وفي الغرفة المجاورة، كان اثنان من موظفي المخابرات يعدون كل ورقة من فئة المائة دولار بعد أن فتحوا الحقيبة التي أحضرها أحمد.

***

لم يستطع أسامة بن لادن الانتظار شوقاً إلى الذهاب لأفغانستان. خلال أسبوعين فقط من الغزو السوفياتي كان الشاب ذو الاثنين والعشرين ربيعاً

يزور بيشاور، المدينة الحدودية المرتفعة في الجانب الباكستاني حيث ترى المجاهدين يجوبون الشوارع وهم يحملون أسلحة الكلاشينكوف الرشاشة فوق أكتافهم. عاد أسامة إلى جدة مفعماً بالحماس وهو يضغط على أصدقائه الأثرياء والأقارب لجمع ما وصفه أحد معاونيه «مبلغاً ضخماً» لمساعدة ودعم المجاهدين.

لن تجد الكثير من المسلمين الشباب المخلصين الذين يتركون دراستهم من أجل السفر إلى باكستان تحت دافع قوي، هذا على الرغم من أن بعض المؤرخين قد شكك في سفر بن لادن إلى بيشاور في هذا الوقت المبكِّر. لكن لا يوجد ما ينقض هذه القصة. كان أسامة يملك بالتأكيد الثروة التي تساعده للذهاب إلى أي مكان في العالم، وإذا كانت ثروته الشخصية استثنائية فإن دافعيته لم تكن كذلك. أيقظت محنة الأفغانيين لديهم استجابة قوية وعاجلة في مجتمع كان انتهاك القانون فيه سائداً. هنا، في السعودية، كان ظلماً يستوجب السماح بالتظاهر والمعارضة، بل وحتى التشجيع من قبل الحكومة التي لا ترتبط بأي علاقات دبلوماسية مع السوفيات الملحدين منذ عام 1938 م[1] من الأفضل أن يتوجه ذلك الغضب والرغبة في الجهاد إلى الخارج بدل أن يكون ثورة داخلية على الطريقة الإيرانية.

قام منبر الجمعة بالدور اللازم بعد مباركة الحكومة، كما روت الصحف اليومية الجرائم الشيوعية ضد المسلمين الأبرياء، لكن كتّاب الأعمدة تجاهلوا

---

1 - كان الاتحاد السوفياتي أول دولة عظمى تعترف بابن سعود وبعلاقات دبلوماسية في 16 فبراير 1926م، قبل البريطانيين الذين اعترفوا به في 1 مارس 1926م. والولايات المتحدة في 1931م. لكن تم استدعاء الممثّل السوفياتي من جدة في عهد ستالين عام 1938م. ولم يتم استبداله منذ تلك اللحظة.

«الخطوط الحمراء» التي تضبط هجومهم على القضايا الأخرى. أُنشئت الجمعيات الخيرية وانتشرت صناديق التبرعات في المساجد والأسواق التجارية، كما شُجّع طلاب المدارس على جمع المال لمساعدة الفقراء الأفغان.

«كان الناس في منتهى الكرم بالتبرع بالمال»، كما يقول أحد وزراء الحكومة في ذلك الوقت. «كانت فكرة ملهمة ورومانسية أن يرغب الجميع بالتبرع والمساعدة لأولئك الشجعان القلائل في الجبال الذين يقاومون الاتحاد السوفياتي القوي».

كان الدين هو المحفّز. في بداية الثمانينات الميلادية، أدهش رفيق الحريري -والذي كان يشغل منصب الرئيس التنفيذي لشركة المقاولات سعودي أوجيه- الصحفي في جريدة الواشنطون بوست عندما هرّبه إلى المنطقة التي لا يدخلها إلا المسلمون في المدينة ليطلّع بفخر على مصنع طباعة القرآن التي كانت تنفذه شركته للحكومة. كان أكبر مصنع من نوعه في العالم حيث تقف مئات الآلات بانتظار طباعة عشرات الملايين من المصاحف وبلغات متعدّدة وتفاسير وافق عليها وصرّح بها ابن باز وهيئة كبار العلماء السعوديين. كان ذلك جزءاً من الحملة الدعوية العالمية التي قادتها المملكة لمواجهة المد الشيعي الإيراني الخميني، وخاصة في أفغانستان إذ كان يجب تحصين الأفغان الشباب أيضاً ضد الماركسية عن طريق «الإسلام الحقيقي». سوف يتم توزيع القرآن والكتب المساندة بالمجّان على المدارس في أفغانستان وعلى الحدود مع باكستان.

بعد أقل من ستة أشهر من الغزو السوفياتي، أعلن وزير الخارجية

السعودي والشقيق الأكبر لتركي الفيصل، الأمير سعود الفيصل أن حملة التبرعات للمواطنين السعوديين العاديين جمعت أكثر من 81،3 مليون ريال سعودي (22،1 مليون دولار). سلّم سعود الشيك، في مايو من عام 1980م، إلى الأمين العام للمؤتمر الإسلامي في إسلام آباد. كان المال من أجل مساعدة اللاجئين الأفغان. لكن في ذلك التاريخ أيضاً كان شقيقه تركي قائد الاستخبارات العامة قد وقّع اتفاقية سرية بمبلغ يفوق ذلك بكثير- لكنه لشراء الأسلحة.

***

منذ استلامه مسؤوليات المخابرات السعودية في عام 1977م. والأمير تركي يحوّل مبالغ ضخمة من المال لخوض حروب سرية. في منتصف السبعينات، كانت السعودية من الأعضاء المؤسسين لنادي سفاري، والذي كان فكرة الكسندر دي ميرنشيه الرئيس اللطيف للمخابرات الفرنسية التي زوّدت السعودية بالغاز الذي أنهى حصار مكة. كان الخوف الذي انتشر بسبب الأطماع السوفياتية والكوبية في أفريقيا بعد الاستعمار، والعجز الأمريكي بعد فضيحة ووترغيت في العمل السري، المحرك الرئيسي لعرض اقتراح من قبل المغامر ميرنشيه على والد الأمير تركي، الملك فيصل.

«كان اقتراحه»، كما يقول الأمير تركي، «أنه بسبب خروج الأصدقاء الأمريكان من اللعبة وعجزهم عن القيام بعمليات سرية في هذا الوقت الحرج فإنه يصبح لزاماً علينا نحن الدول التي تملك التوجه نفسه أن نُبعد الشيوعيين خارج أفريقيا بالمال والسلاح والجنود - وأي نوع من الحيل الأخرى». كانت تسميته بـ «نادي السفاري» نوعاً من النكتة لدى ميرنشيه لكن الهدف منه كان خطيراً جداً.

لقد أعد الجاسوس الفرنسي كل شيء. سوف تقوم الوكالة الفرنسية بتقديم الدعم الفني والمعدات والخبرة، بينما تزوّد المغرب ومصر بالسلاح، أما السعودية فستقوم بتقديم المال. طلب رئيس المخابرات الفرنسية من الشاه الانضمام – الأمر الذي كشف مبكراً عن نشاطات النادي عند هروب شاه إيران من طهران في عام 1979م. تاركاً وراءه الوثائق من دون تمزيق. حتى ذلك الوقت، كان أداء النادي مميزاً بالعديد من الإنجازات. في مارس 1977م قام الجنود المغاربة (بدعم وتسليح من السعودية) بصدّ هجمة كوبية أنغولية كانت تنوي الإطاحة بموبوتو سيسي سيكو في زائير؛ كما تمّت رشوة الرئيس الصومالي محمد زياد بري للابتعاد عن الترحيب بالسوفيات عن طريق تقديم سلاح مصري قيمته أكثر من 75 مليون دولار (دُفعت من قبل السعودية)؛ كما أن المال السعودي مكّن تشاد والسودان من الابتعاد قليلاً عن معمر القذافي.

«كنّا نقوم بذلك من أجل أمريكا»، يقول الأمير تركي، «لكننا كنّا نقوم به من أجل أنفسنا أيضاً. كانت السعودية منذ القدم ترى الماركسية فلسفة بغيضة ولعنة على البشر والدين. رأينا أن من واجبنا أن نحارب الاتحاد السوفياتي أينما وصل تهديده».

الآن الفكر الأيديولوجي الماركسي والأسلحة الروسية تهدد أفغانستان – ومعها كل منطقة الخليج. كان ضياء الحق يحمل مثلثاً دراماتيكاً أحمر ويضعه على خريطة أفغانستان لكي يبيّن كيف أن السوفيات كانوا يطمحون إلى دق إسفين في المنطقة والاندفاع جنوباً لتحقيق هدف بناء ميناء روسي تاريخي في المياه الدافئة. أخرج ضياء الحق مثلثه لكي يريه لوليام كيسي

الذي عيّنه رونالد ريجان رئيساً جديداً لوكالة الاستخبارات الأمريكية، عندما وصل إلى إسلام أباد في عام 1981م، لكن كيسي لايحتاج أن يتعلّم الدرس. لقد وضع الرئيس السابق جيمي كارتر السياسة الأمريكية قبل سنة من ذهابه في خطابه الاتحادي بعد أسابيع من تحرك الدبابات السوفياتية إلى أفغانستان. «ليكن موقفنا واضحاً. إن أي محاولة من قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج العربي فهي بمثابة الاعتداء على مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يتم صدّها بجميع الوسائل الضرورية، بما فيها القوة العسكرية».

قبل ذلك في فبراير من عام 1980م وافق كارتر على برنامج سري يضع أفكاره موضع التنفيذ - اتفاق سري بين السعودية والولايات المتحدة يقضي بالمشاركة المتساوية بينهما، دولاراً بدولار، لدعم المحاربين الأفغان وجرّ السوفيات إلى «فييتنامهم الخاص بهم». أنفقت الدولتان ما يزيد عن 3 بليون دولار لكل منهما، بحسب ما قاله راشيل برونسون، الذي يعتبر مرجعاً في العلاقات الأمريكية السعودية، في اتفاق تعاوني تبيّن أنه مغيّر للعالم. كانت شراكة لا يمكن تخيلها قبل نصف قرن، عندما قررت الدولتان، أمريكا والسعودية، وهما البعيدتان والمختلفتان عن بعضهما البعض، أن يتجها إلى التواصل فيما بينهما لأول مرة.

الفصل الثامن

العلاقات الخاصّة

ليس من قبيل الصدفة أن يأتي علماء الأرض أو الجيولوجيون الأمريكيون إلى السعودية في ذروة الكساد الكبير. كان عبدالعزيز بحاجة إلى المال. فمع حلول عام 1931، أدى الانكماش العالمي إلى خفض أعداد الحجاج الذين يأتون سنوياً، -وهو دخل يعتمد عليه الملك عبد العزيز كثيراً- من 130،000 إلى 40،000 حاج فقط. لم يوافق الملك السعودي أول الأمر على ما كان يفعله شيوخ البحرين وقطر في الخليج عندما باعوا حقوق الثروة المعدنية في بلادهم بأبخس الأثمان. لو كان الأمر بيده لما أعطى الكفّار الأجانب حق الاستطلاع والبحث في أراضيه. لكن بسبب ضيق ذات اليد وحاجته إلى الإنفاق على القبائل، اضطر مكرهاً إلى ابتلاع كبريائه. القوة القبلية هي مصدر قوته. أصبحت الظروف سيئة، كما أسرّ إلى أحد الدبلوماسيين البريطانيين بحيث يصعب عليه الآن إرضاء شيوخ القبائل كما هي العادة دائماً. كان عليه أن يحدد زياراتهم ويقتصرها على وقت العيدين (وهما العيدان الوحيدان في الإسلام، عيد الفطر وعيد الأضحى).

في ربيع عام 1933، رحّب عبدالعزيز بممثّلي شركة نفطية من كاليفورنيا (سوكال، والتي عُرفت فيما بعد بشركة شيفرون) في جدة. وبعد قضاء أسبوع

كامل في عرض المناقصة بينها وبين شركة نفط العراق البريطانية التي شكك خبراؤها في وجود البترول بكميات كبيرة في الجزيرة العربية، وقّع اتفاقية مع الشركة الأمريكية بقيمة 35000 جنيه استرليني. كانت تلك الاتفاقية أمراً غير مألوف، فلم يكن الدولار الأمريكي القوي ذلك الوقت يمثّل أهمية كبيرة في اقتصاد الجزيرة العربية آنذاك والذي يعتمد على أسلوب المقايضة بالذهب. أراد عبدالعزيز أن يُدفع له بالجنيهات الانكليزية الذهبية والتي تم شحنها في خزانة خشبية إلى جدّة، ثم بعد ذلك وضعها، كما تقول الرواية السعودية، في مكان آمن تحت سرير وزير المالية، عبدالله السليمان. بدأ علماء الأرض أو الجيولوجيون التابعون لشركة (سوكال)، لاحقاً في ذلك العام، العمل في المنطقة الشرقية حيث أوضح الملك أن هؤلاء الأجانب، غير المسلمين، هم في جواره بوصفهم ضيوفاً مرحّباً بهم.

لكنّ هناك من لا يرحّب بوجود النصارى في جزيرة العرب.

عبدالعزيز وابن النمر

في أحد أيام الراحة من عام 1933 كان عبدالعزيز يجلس في المسجد الطيني الذي يبتعد بضع خطوات من مقره الطيني أيضاً في قلب الرياض. كان الوقت ظهراً في يوم الجمعة حيث يجتمع الرجال في المسجد لأداء صلاة الجمعة. كان السجاد الفاخر الملوّن يملأ أرضية المسجد وكان الملك وأولاده يجلسون ويستمعون إلى خطبة الشيخ ابن نمر، وهو أحد الدعاة الوهابيين في عصره.

كان موضوع خطبة الشيخ حول آيات قرآنية من السورة رقم 11 ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون﴾ (هود: 113). كان الشيخ ناقماً على وجود غير المسلمين في المملكة – وقد قام بالتبرؤ من كل من يتعامل مع الكفّار- وفي الوقت الذي كان فيه الخطيب يقرأ خطبته ويطوّرها، كان الانزعاج والغضب يتزايد تدريجياً عند ابن سعود.

فجأة، قاطع الملك الخطبة وأمر ابن نمر بالنزول من على المنبر ثم نهض واقفاً وتلا مجموعة أخرى من الآيات القرآنية التي يحفظها عن ظهر قلب: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ (الكافرون: 1) قالها الملك بصوت جهوري منفعل وهو يخطب ليذكّر بآيات أخرى من القرآن أكثر تسامحاً من السورة رقم 109، ﴿لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم... لكم دينكم ولي دين﴾ (الكافرون: 2 - 3 - 4 - 6). «عش ودع غيرك يعيش». هذا كان موضوع خطبة عبدالعزيز ذلك اليوم.

***

كانت العلاقة السعودية الأمريكية مبنية أول الأمر على المال إلا أنها اتخذت بالنسبة لابن سعود بعداً عاطفياً وشخصياً آخر. كان من بين أوائل الأمريكيين الذين قابلهم، أفراد البعثة الطبية المسيحية التي اتخذت من البحرين مقراً لها منذ زمن. هؤلاء الأطباء والممرضون والممرضات والذين كانوا يتبعون الكنيسة الإصلاحية في أمريكا عالجوا جنود آل سعود في فترات متعددة بعد عام 1911م، وكانوا يأتون مباشرة إلى الجزيرة بانتظام – حيث سجّلت ملفات الأرشيف عندهم حوالى ثلاثمائة ألف مريض في عهد الملك عبد العزيز، احتاج 3500 منهم إلى عمليات جراحية، بمن فيهم الملك نفسه الذي استدعى الدكتور لويس ديم بشكل عاجل إلى الرياض عام 1923م ليجري عملية خطيرة ومؤلمة لمعالجة التهاب أنسجة في الوجه كان قد أثّر على إحدى عينيه فتورّمت إلى حجم كرة بيسبول.

عالج الدكتور ديم، الذي يتكلم العربية مثل كل أطباء البعثة، الالتهاب وبقي مع الملك يعالجه أسبوعاً كما عالج أيضاً بعض أفراد العائلة الملكية. اهتم الطبيب بشكل خاص بوالد الملك عبدالعزيز الطاعن بالسن عبدالرحمن. امتنّ الملك عبدالعزيز لجهود الطبيب وأُعجب به طالباً من شركة سوكال زيادة إمكانيات الخدمات الطبية للكنيسة الإصلاحية وتوسيعها بعد أن بدأت هذه الشركة أعمالها في المنطقة الشرقية، وفي عام 1936م بدأ بالفعل الدكتور ديم إنشاء وحدته الطبية هناك.

عبد العزيز الذي أسّس مملكته المستقلة وتحت شروطه الخاصة، هو من قام بدعوة الولايات المتحدة للقيام نوعاً ما بلعب دور في قوته الاستعمارية. لم يخش أي تهديد من الشخصيات المثالية الأمريكية مثل الدكتور ديم

رغم أنه كان مبشراً مسيحياً، أو من الحشود الكبيرة لشركة سوكال النفطية بطاقمها الملتحي الذي كان يلبس الأحذية السوداء الطويلة وهم يتابعون بإصرار أعمالهم في نصب الرافعات فوق الآبار البترولية. أما بالنسبة للأبعاد السياسية التي ترمي إليها بعض الحكومات لوجود مثل هؤلاء الطيبين فقد وجد الملك راحة كبيرة كما أسرّ بذلك إلى أحد الزائرين الأمريكان، «أنتم بعيدون جداً». يتذكر مترجمه محمد المانع السعادة الكبيرة التي سادت في بلاط الملك في عام 1933 عندما اتضح أن شركة سوكال هي التي فازت بالمناقصة ضد الشركة البريطانية في امتياز التنقيب عن النفط، «كان ذلك بسبب أننا كنا نشعر أن الاستعمار هو ما كان يحرّك البريطانيين. إذا جاؤوا هنا إلى النفط فلا يمكن لنا أن نتأكد عن مدى تأثيرهم على حكومتنا أيضاً». الأمريكان، من الناحية الأخرى، يجرون خلف المال، وهو دافع يقدّره ويوافق عليه العرب بحكم أنهم تجّار بالفطرة.

يتوافق هذا الرأي السعودي المتفائل في الولايات المتحدة كقوة منضبطة ومنفصلة وأكثر أخلاقاً من القوى الأخرى في العالم مع الصورة الاستثنائية التي تراها أمريكا في نفسها. لكن انعدام أو فقدان البراءة خلال السنوات اللاحقة من كلا الجانبين أفضى إلى العديد من التجارب المؤلمة والمؤثرة. كانت أولى هذه التجارب في فبراير من عام 1945، عندما سافر الملك عبدالعزيز إلى البحر الأحمر لمقابلة أول رئيس غربي هو الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت الذي جاء إلى مصر بعد حضوره مؤتمر يالطا. كانت رحلة قصيرة وواعدة للوفد السعودي على ظهر المدمرة الأمريكية ميرفي حيث قام طباخو الملك وخدمه بذبح الخراف على ظهرها بينما يستمتع أولاده بمشاهد مثيرة للآنسة لوسيل بول وهي تتقافز مرحة في أوضاع مختلفة

من العري، في قسم الملاّحين الخاص بعرض الأفلام السينمائية.

لكن روزفلت فجّر قنبلة من العيار الثقيل – لقد دعا الملك السعودي لكي يساعده في إقامة وطن لليهود في فلسطين. أوضح الرئيس له أن اليهود قد عانوا كثيراً في وسط أوروبا على يد هتلر وأنه يشعر بمسؤولية شخصية نحو مساعدتهم. لقد التزم فعلاً في البحث عن حل لمشكلاتهم. لكن هل لدى ملك الجزيرة العربية أي اقتراحات في هذا الأمر؟

نعم، كان هناك اقتراح من الملك بالتأكيد وقد وضعه حسب المبادئ البدوية البسيطة.

«أعطهم، هم وأحفادهم، أراضي وأوطان الألمان الذين اضطهدوهم»، قال له الملك. لم يكن هناك منطق يجعل عرب فلسطين يدفعون الثمن من المعاناة عن ذنب اقترفه الألمان. «ليدفع العدو والمضطهد الثمن». قال له الملك، «هذه هي الطريقة التي نشن فيها الحرب».

مثّلت هجرة اليهود إلى فلسطين مظلمة عربية رئيسية منذ العشرينات من القرن الماضي، وكان معظم اللوم موجّهاً لبريطانيا بسبب أن فلسطين كانت تحت الانتداب البريطاني وهي مهندسة وعد بلفور الذي عبّر صراحة عن «تفضيلاته» لفكرة إقامة «دولة قومية» لليهود في الشرق الأوسط. الآن، اتضح، أن الولايات المتحدة كانت موافقة على المشروع الصهيوني، هذا على الرغم من أن روزفلت أكّد، وهو يودّع الملك عبدالعزيز، ووعد أنه «لن يقوم بمساعدة اليهود ضد العرب، ولن يقدم على أي خطوة عدائية ضد الشعب العربي».

خالف هاري ترومان، خليفة روزفلت، هذا العهد كما يراه السعوديون عندما دعمت أمريكا دولة إسرائيل في الأمم المتحدة في عام 1948م. أما أيزنهاور فقد كان محايداً نوعاً ما؛ إذ بعد محاولة كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل السيطرة على قناة السويس في 1956م أجبر القوى الثلاث المعتدية على سحب قواتها. لكن هذا التوضيح المهين للقوة التي سيكون لها الاعتبار بعد الحرب كان له ما يقابله من التفكير العملي في القدس. بعد تسع سنوات، قاد التنظيم الهادف في واشنطن والذي يُعرف باللوبي اليهودي أو جماعات الضغط اليهودية الولايات المتحدة نحو الإذعان في تقديم المساعدة لإسرائيل في حرب 1967م. وسيطرتها على القدس، والضفة الغربية وغزة في حرب الأيام الستة. وعندما انتقمت مصر بعد ست سنوات وفاجأت القوات الإسرائيلية وهي تحتفل بعيد الغفران في عام 1973م، رهن ريتشارد نيكسون السلاح الأمريكي برمته للدفاع عن إسرائيل. أي بعد عشرين سنة من لقاء روزفلت وابن سعود، تحركت أمريكا من مجرد راع مؤقت للمشروع الصهيوني إلى ضامن له. أصبحت إسرائيل، كما يراها السعوديون، الولاية الواحدة والخمسين لأمريكا.

علنياً، تصرّف الملك فيصل بن عبدالعزيز بشكل غاضب عندما أعلن إيقاف العرب تصدير النفط عام 1973م. لكن، في الدوائر الخاصة، كان الأمر مختلفاً. كانت العلاقات السعودية الأمريكية موجودة في العديد من الأصعدة -كانت أرامكو أكبر شركة استثمار خاصة في العالم. أثناء فترة إيقاف النفط والاحتجاج القوي لفيصل ضد الدعم الأمريكي لإسرائيل، بقيت بعثتان عسكريتان أمريكيتان في المملكة تقومان بتدريب الجيش السعودي، والقوات الجوية والحرس الوطني، بينما يقوم الملك وحاشيته باستخدام عائد البلاد

النفطي الناتج من بيعه لدول غير الولايات المتحدة في تمويل نادي السفاري لخدمة المصالح الأمريكية في أفريقيا. عندما يتعلق الأمر بالنجاة عند الغرق فأين يمكن لآل سعود الحصول على مساعدة من غير أمريكا؟

«بعد الله». كما قال الملك فيصل للرئيس كينيدي، «نحن نثق بالولايات المتحدة».

هذا يلخّص التصرفات السعودية المتوازنة — لكن الوقوف برباطة جأش على الخيط الرفيع يعتمد على الصمت تجاه صداقات يعتبرها البعض من داخل الوطن مسيئة. قلّل الملوك السعوديون من أهمية هذا التحالف في نظر الإنسان السعودي البسيط الذي يقصد المساجد عادةً حيث تشتعل خطب الجمعة بالتحذيرات ضد الشيطان الغربي والجرعات الجريئة من الانتقادات المناهضة للسامية. كان الملك فيصل وحتى أيام وفاته مؤمناً بشكل غير ضمني بالمنشورات ضد اليهود والموسومة ببروتوكولات حكماء صهيون، كما أنفق على إعادة طباعتها بشكل حديث. وفي الوقت نفسه كانت الإدارة الأمريكية في واشنطن تغازل الناخب اليهودي وتستبعد أي ظهور لعربي يلبس الشماغ في البيت الأبيض وخاصة في أيام الانتخابات.

«هكذا هي ولاية نيويورك»، قال الرئيس كينيدي في يناير من عام 1962م، بعد نشر صور له وهو يزور الملك سعود في مرضه في بالم بيتش.

كلما ازدادت العلاقة ارتباطاً بين السعودية وأمريكا، أدّى ذلك إلى صعوبة التصريح بهذه العلاقة أو تسميتها.

***

كان صيف عام 1981م موعد وصول الأمير بندر بن سلطان إلى واشنطن، ذلك الشاب الواثق من نفسه وقائد السرب في القوات الجوية السعودية الذي تم إرساله لتسهيل مرور صفقات الأسلحة الضخمة من الكونغرس. استمر التعاون السعودي الأمريكي بشكل طبيعي وسلس في أفغانستان وفي الحملات السرية التي كان يقوم بها نادي السفاري، لكن أمن المملكة تعرّض للتهديد عندما حلّ الخطر بالقرب منه. رمى الدكتاتور العراقي الجديد أولى مفاجأته السياسية الخارجية عندما هاجم إيران في سبتمبر من ذلك العام. لو فشلت مغامرته هذه فستمتد سلطة آيات الله نحو الغرب، وتريد الرياض أن تعرف ما يدور في الأفق العراقي. الإجابة تنحصر بالحصول على الأواكس – نظام المراقبة والإنذار الذي تقوم به طائرة جوية طورتها الولايات المتحدة مؤخراً.

تأتي قدرة هذا النظام التجسسية من صحن رادار ضخم موجود فوق طائرة بوينج من طراز 707 بحيث يمكنه تحديد موقع 240 طائرة معادية في الوقت نفسه، ثم توجيه المقاتلات الجوية لاعتراضها. يمكن لطائرات الأواكس التي تشبه «الفطر الطائر» وتحلّق فوق حقول النفط بمقدار خمسة آلاف قدم أن تمنح القوة الجوية السعودية أفضلية عشرين دقيقة على العدو بحيث يمكن لطائرات أف 15 أن تقوم بطلعات استباقية حاسمة. تعرّضت السعودية للإهانة بسبب افتقارها لطائرات الأواكس في وقت وصول الأمير بندر إلى واشنطن عندما عبرت المقاتلات الإسرائيلية في يونيو مئات الأميال ذهاباً وإياباً لتدمير المفاعل النووي لصدام حسين بالقرب من بغداد. زادت هذه الحادثة من إصرار المملكة على الحصول على الأواكس – بينما ترى إسرائيل أن طائرات التجسس هذه ستمنح عدوّاً محتملاً أفضلية خطيرة. لقد

أخذ اللوبي اليهودي على عاتقه في مبنى الكابتول هيل أن يقف بكل قوته ضد كل خطوة من خطوات صفقة الشراء.

لقد تعرّف الأمير بندر بن سلطان من خلال بعض التجارب على الطريقة التي تُدار بها الأمور في واشنطن. قبل ثلاث سنوات، تم نقل خدماته من الطيران الجوي باقتراح من صهره تركي الفيصل لكي يكون ملحقاً عسكرياً في السفارة السعودية ليمارس الضغط من أجل الحصول على مقاتلات أف 15.

«سوف يكلفكم صوتي 10 ملايين دولار»، هكذا أخبره في ذلك الوقت عضو مجلس الشيوخ رسل بي لونج من لويزيانا الذي شرح بلا خجل النظام الذي يتّبعه أبوه هوي لونج الذي عُرف بالسيد غير المُنازَع والحاكم الأسطوري لولاية لويزيانا: «أريدك أن تؤكد لي أن حكومتك ستودع 10 ملايين دولار في بنك في مدينتي، وقبل أن تفعل ذلك، أخبرني حتى أقوم بإشعار مدير البنك... سوف يدفع هو لإعادة انتخابي... ثم بعد ذلك استرجع دراهمك في أي وقت تشاء عندما يُعاد انتخابي».

لم يكن هناك أي مشكلة بالنسبة لوزارة المالية السعودية في نقل 10 ملايين دولار من نيويورك إلى لويزيانا – فالسعودية لديها أكثر مما كان مُودعاً في بنك تشيس مانهاتن، الذي كان يرأسه ديفيد روكفيلر. يحرص هذا الأخير عادة على خدمة عملائه الأثرياء حيث وعد باستخدام نفوذه وتأثيره لجذب أصوات عدد من أعضاء مجلس الشيوخ. لكن مع مرور الأسابيع، اقتنع الأمير بندر أن وعود روكفيلر ذهبت أدراج الرياح.

«ماذا تقترح؟». سأله ولي العهد على الهاتف.

«تستطيع أن تأمر وزير المالية بتحريك 200 مليون دولار من بنك تشيس مانهاتن إلى بنك جي بي مورغان»، ردّ الأمير بندر.

«في اليوم التالي»، كما يتذكر الأمير بندر، «اتصل بي ديفيد روكفيلر في الساعة الثامنة صباحاً. كنت نائماً. عاود الاتصال الساعة التاسعة. كنت مشغولاً. اتصل مرة أخرى في الساعة العاشرة. كنت في الخارج. ثم في الساعة الرابعة بعد الظهر، اتصل بي موظف الاستقبال في الفندق ليخبرني أن السيد روكفيلر في ردهة (لوبي) الفندق».

كان يُقال دائماً إن رئاسة الولايات المتحدة تمثّل مرتبة أقل من التي لديفيد روكفيلر. أما الآن فمدير شبكة العلاقات الرئيسي يحاول إرضاء طيّار في الثانية والثلاثين من عمره. يتذكّر الأمير بندر أنه أبقى مدير البنك منتظراً حتى السادسة ليخبره بعد ذلك أنه كان مشغولاً جداً في اجتماع وأنه في طريقه إلى مبنى الكابتول هيل ليحاول جمع الأصوات التي كان قد وعد بها.

«أنا سوف أبقى هنا في واشنطن»، أكّد له روكفيلر، كما يتذكّر بندر، «حتى أجمع الأصوات التي تحتاجها».

«كل ليلة لمدة ثلاثة أيام»، بحسب ما يقوله بندر، «كان يتصل بي ليخبرني أنه حصل على صوت فلان». بعد ثلاثة أيام عندما تمكّن من جمع الأصوات التي وعد بها —واثنين إضافيين- أخبرت وزير المالية أن يعيد 200

مليون دولار مرة أخرى إلى تشيس مانهاتن».

الآن، يقول ديفيد روكفيلر «إن هناك مجموعة كبيرة من العناصر التي تفتقر إلى الدقة» في حديث الأمير بندر. يرى روكفيلر القصة على أنها «منافية للمنطق» إذ شكّك في الطريقة البسيطة التي حوّلت فيها وزارة المالية الدراهم بالشكل الذي أخبر به الأمير بندر. لكنه لم ينكر اجتماعه مع الأمير بندر ومع تركي الفيصل أيضاً والسفير السعودي في ذلك الوقت علي رضا في السفارة السعودية في مارس 1978م، أي قبل شهرين من موافقة الكونجرس على صفقة طائرات أف15.

الابتسامات، الهدايا، وأحياناً التهديدات المبطّنة الناعمة، هي الاستراتيجية الكلاسيكية التي يستخدمها آل سعود لأجيال متعاقبة. نجحت هذه الاستراتيجية مع البدو كما نجحت مع السياسيين الأمريكيين. كان الطيار الشاب، بحسب المصطلحات الأوروبية، ميكافيلياً في محاولته الدؤوبة السير قدماً نحو تحقيق أهدافه – وهذا ما أضاف بعداً إضافياً إلى اللقب الذي اكتسبه الأمير بندر في أروقة واشنطن القوية: «الأمير».

***

يسرد الأمير بندر بعض قصص رحلات طفولته قائلاً إنه عندما يتعلّق الأمر باختيار الصقور في رحلة صيد ما فإنه –كما يتذكّر هو– يحصل على الاختيار الأخير – طائر حقير ذي ريش أسود وبني يضحك منه الجميع.

لكن البطل الحقير الذي اختاره هذا الولد يتفوق دائماً على من يعتقدون

أنه الطائر الأصيل- هذا الأمر كان بمثابة تصوير مجازي لموقفه المتحدّي والمشاكس للحياة. بعد سماعه خبر أن ابنة الملك فيصل هيفاء لم تكن سعيدة باختيار والدها لها، زوجاً كبيراً في السن من الأمراء، تقدّم الأمير بندر لها ففاز بها. وتحت إصراره العنيد في أن يكون طيّاراً مقاتلاً، رغم عدم اهتمام والده الذي كان يعمل وزيراً للدفاع حيث كان قادراً على تحقيق ذلك بجرة قلم، قام الأمير بندر بترتيباته الخاصة بتزوير تاريخ ميلاده من أجل الحصول على قبول في كلية القوة الجوية الملكية في كرونويل.

تمتّع الأمير بندر بطاقة لا حدود لها وجاذبية غامرة ونشاط لا يمكن كبحه حيث تربّى في منزل عمته القوية لولوة بنت عبد العزيز، أخت سلطان الشقيقة، ثم في بيت حصة السديري نفسها. من خلال هؤلاء النسوة المؤثرات سنحت لبندر الفرصة في كسب إعجاب عمه ولي العهد فهد.

أحبّ فهد ابن أخيه المتمكن وجعله سفيراً في واشنطن في عام 1983م وأعطاه مسؤولية تعزيز العلاقات السعودية الأمريكية. كان فهد أكثر أبوة من سلطان لبندر في أمور كثيرة – وقام بندر بمعاملته بالمثل حيث كان قريباً من فهد أكثر مما كان بعض أولاده له. لا يتذكّر وولتر كتلر، الذي كان لمرتين سفيراً للولايات المتحدة في الرياض وهو يقابل بندر بانتظام في الثمانينات، أية مقابلة لم تقاطعها مكالمة من ولي العهد الذي أصبح ملكاً بعد عام 1982م.

استخدم بندر قدراته أيضاً عندما كان الرئيس ريجان في البيت الأبيض حيث حاز على رضا نانسي ريجان، وبعين فاحصة للمستقبل أصبح شريكاً

موسمياً في لعبة كرة الراح أو الروكيت مع العسكري الشاب الصاعد ذي الطموحات السياسية كولن باول. السياسة القوية المناهضة للشيوعية تتطابق تماماً مع تلك التي لدى السعودية – الأمر الذي جعل المملكة حليفاً له قيمته الخاصة عندما أوقف الكونجرس بشكل واضح الدعم المالي الأمريكي لقوات الكونترا في نيكاراجوا المعارضة للماركسية. بعد طلب شخصي من رونالد ريجان لفهد في وجبة إفطار في البيت الأبيض في عام 1985م، قام الأمير بندر بإعداد قنوات خاصة يمكن فيها إرسال الدعم المالي لقوات الكونترا الذي بلغ مليون دولار. ثم بعد ذلك 2 مليون دولار شهرياً باستخدام أرقام حساب مصرفي زوّده به مستشار الأمن القومي لريجان روبرت «بد» ماكفارلين. ثم فتح هذا الحساب البنكي في سويسرا عن طريق نائب مدير الشؤون السياسية العسكرية في مجلس الأمن القومي أوليفر نورث.

عندما انفجرت فضيحة «إيران كونترا»، كشف تقرير وولش أن السعودية دعمت قوات الكونترا بالنيابة عن ريجان بمبلغ يصل إلى 32 مليون دولار. لكن هذا المبلغ يُعتبر صغيراً بالمقارنة مع المبالغ التي تصرفها المملكة في مناطق أخرى. قام نادي السفاري بنشاطاته المناهضة للماركسية في أنجولا وأثيوبيا، والسودان وتشاد – بشكل كبير في غياب شاه إيران. ثم جاءت بعد ذلك أفغانستان.

«لستم وحدكم أيها المقاتلون الأحرار»، كما قال رونالد ريجان في عام 1986م في خطابه الاتحادي الذي وعد فيه أن أمريكا ستوفّر «المساعدة المادية والمعنوية» لأولئك الذين يحاربون الشيوعية في أفغانستان وأنجولا ونيكاراجوا.

قامت أمريكا بدورها، لكن الدور المادي خلال السنوات الثماني لعهد ريجان، 1981م - 1989م، كان من الواضح أن السعودية هي التي كانت تقوم به لمساعدة «محاربي الحرية» في العالم الذين يناضلون ضد الشيوعية، أكثر مما كانت تقوم به الولايات المتحدة، أي أنها ساهمت في الإنهاء السريع للحرب الباردة والمساعدة في سقوط «إمبراطورية الشر». كان هذا بالنسبة للأمريكيين عائداً جيداً للخمسة والثلاثين ألف جنيه استرليني والتي سلّموها للملك عبدالعزيز.

الفصل التاسع



زوّار الفجر

في بداية الثمانينات، أصبحت فوزية البكر أول امرأة سعودية تكتب في الصحف مستخدمةً اسمها الحقيقي.

«اعتادت النساء الكتابة بأسماء مستعارة في ذلك الوقت مثل بنت الصحراء» تتذكّر فوزية. «كنت أرى ذلك نوعاً من الغباء. ليس لدي ما أخفيه».

كانت السيدة الواضحة والتي تعمل معيدة في جامعة الرياض والبالغة من العمر إحدى وعشرين سنة تعبّر عن آرائها في عمود صحفي أسبوعي يأخذ مساحة صفحة كاملة في الجريدة اليومية المحافظة نوعاً ما (الجزيرة)[1].

«كتبت عن النساء والحرية وعن الأخطاء التي يرتكبها الرجال المعاصرون مثل الزواج بأكثر من زوجة واحدة. دافعت أيضاً عن الحاجة إلى مؤسسات مدنية في المملكة العربية السعودية للدفاع عن حقوق الإنسان».

---

1 - الاسم المختصر لشبه الجزيرة العربية -أو جزيرة العرب. جريدة (الجزيرة) تتخذ من الرياض مقراً لها وليس لها علاقة بشبكة الجزيرة الإخبارية التلفزيونية التي تحمل نفس الاسم ومقرها قطر.

لم تكن البكر تذهب إلى مقر الجريدة - إذ لم يكن هناك مكاتب نسائية يمكن للنساء أن يعملن فيها- ولم تقابل أبداً المحرر الرجالي للصفحة التي تكتب فيها.كانت تخطط للقيام بذلك لولا أنها في أحد صباحات يونيو من عام 1982م عندما كانت تنظم اختباراتها في الجامعة ذهبت إلى مكتب الإدارة بعد استدعاء لها. كان هناك رجلان بثيابهما العادية في انتظارها مع وجود امرأة حيث طلبا منها بكل أدب أن تصطحبهم جميعاً إلى منزلها. كان هذا أول اتصال لها مع رجال المباحث أو «المخبرين السرّيين» أو الشرطة السريّة في المملكة العربية السعودية.

تُعتبر دائرة المباحث جزءًا من وزارة الداخلية وهي قطاع واسع ومنتشر في مراقبته لكل شيء إلى الدرجة التي لا يُوصف فيها بالسريّة. لقد انتشر أفراده في نسيج المجتمع السعودي إلى الدرجة التي ترى فيها الفرد الواحد منهم يصلّي تقريباً في كل مسجد مهم وجاهزاً لرفع سمّاعة الهاتف عندما تُفرط خطبة الإمام في الحماسة والانتقاد. كما أن أي كلية جامعية لا تكون كاملة إلا بوجود مسترق للسمع في كل زاوية فيها. تمثّل الشارة التي تحملها قوات وزارة الداخلية الأمنية عيناً ضخمة وفاحصة لكل شيء - على الرغم من أنهم قد تفاجأوا فعلاً بانتفاضة الشرقية واحتجاز المسجد الحرام. لم يكن ذلك خطأهم — لقد قبضوا على «المهدي» قبل حادثة الحرم ثم طلب منهم إطلاق سراحه — لكن ذلك كله أدى إلى مضاعفة جهودهم الاستخبارية وبالتالي الحصول على نتائج عديدة. في الوقت الذي لم تقبض حملات مراقبة الحدود المكثّفة لوزارة الداخلية على أي مسلّح، إلا إنها ضبطت العديد من مهربي الكحول. ارتفع تبعاً لذلك سعر زجاجة الويسكي في جدة في السوق السوداء من مئة دولار إلى أربعمائة دولار.

عندما وصلت فوزية البكر إلى منزل عائلتها بصحبة هؤلاء المهذّبين الذين لا يبتسمون، حاولت أن تحذّر أخاها المراهق.

«وصلوا زوّار الفجر». همست في أذنه. فتح الأخ عينيه بشكل واسع من الرعب.

اصطحبها الرجلان بثيابهما العادية إلى غرفتها حيث فتّشوا طاولتها وأدراجها.

«صادروا كل دفاتري وملفاتي»، تقول فوزية، «أخبرت أمي أن الأمر يتعلق بأوراق امتحانات مفقودة».

لم تدرك فوزية خطورة موقفها إلاّ بعد أن وجدت نفسها في مكتب وزارة الداخلية.

«كان هناك حشد آخر لنساء أخريات تم إحضارهن مع وجود عدد كبير من رجال الشرطة يروحون ويجيئون. كنت أعتقد أنني أعيش كابوساً لم أستيقظ منه بعد. ثم بدأوا بقراءة الأسماء بصوت مرتفع – «السجينة فوزية البكر». كدت أسقط مغمياً عليّ. كان على إحدى النساء أن تمسك بي لأضبط وقفتي».

تم تسليم السجينة الجديدة بطانية ولحافاً قذراً وأُغلق عليها وحيدة في زنزانة داخل مبنى الوزارة.

«كان الطعام سيئاً جداً. قامت بإعداده مجموعة من البدويات اللاتي كن يعتنين بنا. لقد كان تعاملهن لطيفاً. كنّ من البسيطات اللاتي لا يعرفن القراءة والكتابة. أعتقد أنهن زوجات للعسكريين أو لرجال الحرس الوطني».

كانت الشرطة تستدعي البكر للاستجواب في الساعات الأولى من كل صباح، أي في حوالي الساعة الثانية فجراً حيث تصطحبها امرأة بدوية إلى غرفة التحقيق.

«كانوا مهذبين تماماً، ولم يكن هناك أي نوع من التعذيب أو التخويف، لكنهم كانوا يسألون نفس الأسئلة»: هل رأيت هذه المنشورات؟ «ما رأيك في الحكومة؟ هل تنتمين إلى الحركة الوطنية؟».

الحركة الوطنية هي مجموعة من الليبراليين الذين كانوا ينادون بالإصلاح في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات. كانوا معارضين بشكل خاص للاتجاه المحافظ للسياسة الاجتماعية منذ جهيمان، وبسبب أن التجمعات السياسية كانت محظورة في المملكة العربية السعودية فقد أصبحت هذه المجموعة تلقائياً تنظيماً «سرّياً». كانوا مجموعة من الأكاديميين والمفكرين الذين أكمل معظمهم دراساتهم العليا في الغرب، كما ضمّت الحركة بعض المفكّرين الأحرار والملحدين الذين يصفون أنفسهم «بالشيوعيين»، متحدين بذلك الجزاءات الرادعة والقوية للشريعة الإسلامية المطبّقة ضد كل من ينكر الدين. لكن برنامج عملهم لا يتعدّى الكلام.

«لقد رفضت دعوات للانضمام إلى مجموعات مختلفة –كان هناك

مجموعة تسمّي نفسها الإصلاحيين». لم أكن مهتمّة بالانضمام إلى أي مجموعة. كنت أريد فقط أن أكتب عمودي الصحفي. لكنني كنت في الوقت نفسه أدافع بشكل واضح عن قضايا مماثلة لما يطالب به الإصلاحيون والحركة الوطنية وغيرهما من التنظيمات. من هو الشخص الذي لا يطالب بمثل هذه الإصلاحات، خاصة في مثل تلك الظروف؟.

«بعد أسبوع، تم نقل النساء من سجن الوزارة إلى فلل في حي السليمانية في الرياض».

«يبدو أنهم قبضوا على أشخاص كثيرين فوق طاقة استيعابهم».

«أعتقد أن هناك نوعاً من الذعر قد انتشر بعد جهيمان والشغب الشيعي في أروقة الحكومة. لا بد أنهم استأجروا هذه الفلل التي كانت مجمّعات سكنية للأجانب. كانت مريحة إلى الدرجة التي أخذت كل واحدة منّا غرفة خاصة بها. لكن النوافذ كانت مغلقة ولم يكن بإمكاننا أن نقابل بعضنا البعض. كنّا نتخاطب عن طريق أنابيب دورات المياه. تعرّفت على رسّامة تشكيلية شيعية اسمها زهرة لم تكن تتحمّل البقاء لوحدها. كانت تصرخ طوال الوقت. وكانوا يأخذونني كل ليلة لنفس الاستجواب لساعتين أو أكثر».

كان الشيء الصعب بالنسبة لفوزية البكر هو انقطاع اتصالها مع عائلتها.

«لم يكن لديهم أدنى فكرة عن مكاني. وهل أنا حيّة أو ميتّة – وهل سأعود إليهم أم لا. كان والدي يذهب كل يوم إلى مكتب الأمير سلمان. لا

شيء – لا يخبرونهم بأي شيء. كان الأمر صعباً بالنسبة لهم».

كان إشراك العائلة في الشعور بالألم جزءًا من الأساليب التي تطبّقها المباحث.

«من الجيد والمفيد إشراك العائلة في الأمر»، يقول أحد ضباط المباحث المعاصرين. «هذا يعني أنهم يمارسون ضغطاً على مثيري المشاكل عندما يخرجون من الحجز. كما أننا اكتشفنا أن بعض المحتجزين لا يجدون غضاضة من العودة مجدداً إلى الحجز إلا أنهم يضطرون إلى التصرف بحكمة من أجل عائلاتهم، وخاصة أمهاتهم».

حافظت المعيدة على تماسك روحها المعنوية عن طريق محاولة حفظ القرآن الكريم، الكتاب الوحيد المسموح به.

«كان ذلك مفيداً في صقل مهارة اللغة العربية عندي. تستطيع أن تستفيد من أي تجربة لا تكسرك في تطوير نفسك. حاولت إحدى السيّدات الانتحار، ولهذا أزالوا جميع المرايا بعيداً. كان الأمر صعباً ألا نتمكن من رؤية أنفسنا؛ إذ بعد مرور الوقت بدأنا نتساءل عما إذا كنا موجودين أم لا».

في أحد الأيام، وبلا مقدّمات، وبعد ثلاثة أشهر من الاحتجاز، جاءت حارسة لتخبرها أن تحزم أغراضها استعداداً للمغادرة.

«خلاص!» قالت فوزية. «أستطيع أن أذهب إلى المنزل. اتصل أحد

المسؤولين بعائلتي ليخبرها أنني سأخرج تلك الليلة، وكان الجميع بانتظاري.
أقاربي من أعمامي وخالاتي.كان احتفالاً مدهشاً بخروجي».

أما في الجامعة فقد كان فرحاً صاخباً.

«رئيسي في العمل، والعميد في ذلك الوقت، منصور الحازمي، قدّم لي جائزة خاصة، لقب أفضل موظف في ذلك العام. وقد احتفل بهذه الجائزة وروّج لها كثيراً من أجل إيصال رسالة عامة في الجامعة عن الحرية. كما قام بجهد كبير في توفير منحة لي السنة التالية للدراسة في جامعة أوريجن.
أما جريدة الجزيرة فقد كانت داعمة لي حيث استمرت في إرسال مكافأتي الشهرية طوال وقت احتجازي».

لكن أمي وجدت صعوبة في الاحتفال بخروجي.

«كانت أمي مواطنة سعودية مخلصة، لكنها بقيت حتى هذا اليوم غاضبة على الأمير نايف».

من وجهة النظر التقليدية والعائلية، كان احتجاز فوزية في السجن لمدة ثلاثة أشهر كارثة اجتماعية.

«الشيء الذي أغضب أمي أن تلك التجربة أفسدت فرص زواجي. من هي العائلة التي ستسمح لابنها أن يتزوج امرأة خرجت لتوّها من السجن؟».

البحث عن غزال المها «الوضيحي»

يعتبر غزال المها من أجمل الحيوانات في الجزيرة العربية، وكما تقول الدعابة السعودية القديمة، أصبحت قضية الحفاظ على غزال المها من الانقراض من مهمات وزارة الداخلية. لذا فقد اتصلت الوزارة بأفضل المؤسسات الأمنية في العالم مثل مكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي والقوات البريطانية الخاصة لبحث مدى إمكانية العثور على غزال واحد منها وفي الوقت نفسه كلّفت الشرطة السريّة، الخاصة بها، أو المباحث بنفس هذه المهمة أيضاً.

بعد يوم واحد، اتصل مكتب التحقيقات الفيدرالي ليقول: «لقد عثرنا على حيوان واحد على بعد أميال منّا. هو الآن على مرأى منّا. أعطونا إشارة الموافقة وسوف نضغط على الزناد».

بعد يوم آخر، اتصلت القوات البريطانية الخاصة. «نحن الآن نحاصر واحدةً لكن يبدو أنها حامل. نقترح أن يتم الاقتراب منها بحذر شديد».

لكن لم يأت أي خبر من المباحث – لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي يليه. بعد أسبوع من الانتظار، تم إرسال فريق للبحث عنهم حيث عثروا على مجموعة من رجال المباحث السعوديين من النخبة حيث كانوا يهدّدون أرنباً خائفاً. أحدهم كان يمسك بالأرنب من مؤخرة عنقه بينما كان الأخر مشغولاً بتطبيق الأسلوب المعروف عن المباحث في التعذيب، ضرب السجين بقوة بعصا على أخمص قدميه. هذا الأسلوب تم أخذه من حديث

عن الرسول يبيّن فيه ألا يكون العقاب مبرحاً؛ لذا والمحققون السعوديون يجلدون قدمي الضحية يشعرون بنوع من الرضا الداخلي لأن طريقة تعذيبهم «إسلامية».

«هيا! اعترف. لا تضيّع وقتنا»، يصرخ المحقّق في وجه الأرنب المقبوض عليه. «نحن نعرف الحقيقة. اعترف أنك الغزال».

***

في الواقع، يُعتبر عمل المباحث حاذقاً وماكراً إلى أبعد الحدود. عمل الصحفي الأمريكي الشاب بيتر ثيروكس محرراً في الرياض لجريدة (سعودي جازيت) الناطقة بالإنجليزية ولاحظ كيف أن هاتفه يتوقف عن العمل تماماً في لحظات مهمة.

«بدا الأمر كما لو كانت بعض العبارات المعيّنة تؤدي إلى فصل الهاتف» يتذكّر بيتر. «اتصلت بي امرأة أمريكية ذات مرة تروي لي قصة إخبارية عن أشياء غريبة اكتشفها زوجها الذي كان يعمل في منشأة عسكرية. بمجرد أن تذكر المرأة اسم المنشأة ينقطع الهاتف. ثم تعاود الاتصال مرة أخرى لينقطع الهاتف عندما يأتي الحديث على ذكر اسم المنشأة أيضاً».

لم تكن تلك القصة من النوع الذي يصل إليه ثيروكس بسهولة. لقد تعلّم سريعاً ما اصطلح على تسميته بالخطوط الحمراء التي لا يحق للإعلام السعودي أن يتخطاها. كانت تلك مجموعة من القواعد غير المكتوبة لكنها مفهومة تماماً، مثل أن الفلسطينيين لا يخطئون أبداً، والإسرائيليين لا يصيبون

أبداً، وعدم وجود أي لفظة معارضة للملك أو المؤسسة الدينية، وعدم نشر أي «قصة سيئة» قد تثير سخط القرّاء. قد يبدو أحياناً أن نشر عدة فقرات عن النسب العالية جداً لحوادث الطرق في المملكة أمر مثير للفتنة.

ولمعرفة الأمور الملتبسة يجتمع رؤساء التحرير للجرائد المحلية في وزارة الإعلام شهرياً لتحديث الخطوط الحمراء في ضوء الظروف الجديدة، بل إن بعض الجرائد تنشر صوراً لرؤساء تحريرها مع الوزير «يناقشون مواضيع الساعة». يتذكر بيتر ثيروكس نتائج أحد الاجتماعات الذي عُقِد ربيع عام 1982م في أعقاب التدمير المروّع على طريقة مأساة جرنيكا لمدينة حماه على يد الحكومة السورية في فبراير من ذلك العام. خطّط نظام الأسد لهذه الجريمة البشعة حيث كان يهدف إلى إنهاء الإخوان المسلمين فقتل نحو عشرة آلاف من معارضيه، وكذلك العديد من المتفرّجين الأبرياء. بقيت حماه خاملة ومعزولة حتى يومنا هذا.

«كيف تتجاهلون أمراً مروّعاً وغير إنساني مثل هذا؟»، يتذكّر ثيروكس. «لم يكن هناك شك في أن تلك المذبحة قد حصلت فعلاً وسوف يبحث قراؤنا عن ردود الفعل والتعليقات في افتتاحيات الصحف. لم تكن سوريا صديقة خاصة للسعوديين. لكن جاءت التعليمات أن نغفل هذه الحادثة ونبتعد عن النقد. سوريا شقيقة عربية. عليكم ببيغن (مناحيم بيغن، رئيس الوزراء الإسرائيلي) بدلاً من ذلك».

وجد ثيروكس الدعابة أفضل طريقة للعيش هنا مفاجئاً الصحفيين الزائرين أن يسألوه عن الغرفة التي يمكثون بها في فندق الإنتركونتيننتال.

كان دائماً يجيبهم بشكل صحيح، الغرفة رقم 103. لقد تم تخصيص نفس هذه الغرفة له عندما جاء أول مرة للرياض. كانت الغرفة التي تحتوي على أجهزة تنصّت خفية.

***

كانت «المراقبة» هي الكلمة السرّية في الثمانينات في المملكة العربية السعودية – وخاصة في ما يتعلق بالنساء. بعد انتخابها في لجنة نسائية خيرية في جدّة، قررّت مها فتيحي تنظيم لقاء حول قضايا المرأة وعقبات التنمية – فوصل الخبر إلى أسماع وزارة الشؤون الاجتماعية، الجهة المسؤولة عن النشاطات الخيرية. طلبوا منها أن تغيّر الموضوع أو تلغي المناسبة. المرأة السعودية لا تعاني من أية عوائق أو عقبات تقف في طريق تقدّمها، كما قال لها أحد الموظّفين والذين كانوا كلهم من الرجال في الوزارة، كما أن أي مشكلة قد تواجهها المرأة فإن دينها سيجد الحل المناسب لها. كانت النتيجة نفسها لمحاضرة عامة حول مشكلات المرأة الصحية، والمخدرات والإيدز. «حالات قليلة ونادرة لا يمكن أن تشكّل ظاهرة أو قضية»، كما طلبوا منها، ثم جاءتها رسالة رسمية تخبرها بشكل صارم عدم تنظيم أي لقاءات توعوية أو تعليمية أخرى إلاّ إذا كانت حول قضايا «إسلامية».

وفي الرياض وجدت هتون الفاسي صعوبات أكبر عندما حاولت تنظيم حفلة تخرج لصفّها في جامعة الملك سعود. كانت مناسبة تضم نساء فقط –تذكرتان لكل أم– يتم تنظيمها في الصالة الرياضية التابعة للقسم الرجالي في حرم الجامعة. كانت هتون وزميلاتها المحبّات للرياضة يأتين خلال العام كل خميس إلى الصالة الرياضية لممارسة الكرة الطائرة وكرة اليد، وكانت

الخطة أن تكون هذه الألعاب الرياضية حفل اختتام الأنشطة في نهاية العام.

لكن التشدّد الديني الوهابي يعارض الرياضة النسائية. وكان ذلك واضحاً لأنه لم يتم إقامة أي نشاط رياضي للبنات في المدارس السعودية الرسمية التي سلّمها الملك فيصل للمؤسسة الدينية في أوائل الستينات. النشاط الجسماني العنيف ضار ولا يتناسب مع وظائف جسم المرأة، كما أن ذلك يصاحبه ارتداء ملابس رياضية فاضحة. كانت هتون وصديقاتها الأكاديميات والمحبات للرياضة واللاتي كن على وشك التخرج، يرتدين بدلات ببناطيل طويلة وأكمام ساترة. هذا النوع من اللباس الرياضي يجعل طقس ممارسة كرة الطائرة حاراً إلا أنه يبعث على الاحترام.

كان من برنامج احتفال التخرج ذاك المباريات النهائية للبطولات الرياضية بمصاحبة موسيقى ورقصات فلكلورية تمثّل جميع مناطق المملكة، هذا بالإضافة إلى عرض مدهش لرياضة التزلج بمشاركات (يرتدين الأكمام والبناطيل الطويلة) كن يتدرّبن لأشهر استعداداً لهذه المناسبة.

لكن، بمجرد أن بدأ برنامج الاحتفال، سمع الجميع صوت طرق قوي على أبواب المبنى. كان الطارق الشرطة الدينية (الهيئة) التي طالبت بإيقاف صوت الموسيقى. لم يدخل (المطاوعة) الصالة لكنهم كانوا يتابعون بشكل مزعج في الخارج، وكان وجودهم الذكوري الغاضب مرعباً للنساء المحتجزات داخل الصالة. حاولت هتون وصديقاتها رفع الحالة المعنوية للمحتفلات بالتصفيق الحار عند تسليم الجوائز، لكنهن وجدن أنفسهن يطلقن الصيحات في الظلام، بشكل حرفي امتدت يد ذكورية آثمة في الساعة العاشرة مساءً

إلى مفتاح الكهرباء وسحبته، فانطفأت أنوار الصالة تماماً.

لم يكن هناك، تبعاً لذلك، أي برنامج رياضي نسائي في جامعة الملك سعود السنة التالية، وليس هناك أي موسيقى أو رقص عندما تتسلم الخريجات شهاداتهن. كان هناك فقط تعليمات جديدة في الدخول. يجب على النساء أن يكن في الجامعة الساعة الثامنة صباحاً وسوف تُغلق البوابات حتى الظهيرة. لا تستطيع أي فتاة جامعية مغادرة الجامعة بين هذين الوقتين، إلا إذا كانت زوجة أو أماً تحمل أوراقاً تثبت ذلك، وهذه الأوراق يجب أن تكون موقّعة من ولي أمرها أو محرمها من الرجال.

***

خلال سنوات قليلة، أحرز المتشددون نصراً مكتملاً، وكان ذلك واضحاً من خلال ازدياد أعداد اللحى في الشارع السعودي. كان السعوديون، بعد انتهاء حصار المسجد الحرام مباشرة، يتجهون إلى حلق أو تهذيب لحاهم حتى لا يتم ربطهم باللحى الكثيفة التي كان يتمتع بها الثوار. لكن مع مرور السنوات في الثمانينات الميلادية، عاد إلى الظهور شعر الوجه الكثيف. عاد المحافظون إلى مجدهم التليد بهذه اللحى الإسلامية الكثيفة المترفة. أصبحت اللحية السلفية التي تنبت بتحدٍّ في كل تجويف في الوجه هي العلامة المميّزة للتقوى والعبادة والسموّ والقدرة العالية في زرع الخوف. تستطيع أن تميّز بسهولة الشرطة السريّة وهي تتقدم نحوك في عرض الشارع. هم أشبه ما يكونون بزمرة جهيمانية مرعبة.

أصبح الأمر كما لو كان كل وجه سلطوي يتآمر على المجتمع السعودي

في بداية الثمانينات. كان رجال المباحث، في واقع الأمر، والمطاوعة ينفّذون أوامر لمراجع مختلفة. رجال المباحث كانوا رجال دولة يأخذون أوامرهم من وزارة الداخلية، أما المطاوعة فلا يوجد لهم مرجعية تنظيمية: شبكتهم من اللجان المحلية، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أعطتهم سلطة تطوعية تأخذ مفاتيح تحرّكها من خطبة الجمعة. يستطيع أي ملك قوي أو أمير منطقة حازم أن يجبرهم على الركوع، لكن بعد حادثة المسجد الحرام، ليس هناك أي عضو في العائلة المالكة يرغب أن يقوم بذلك.

الفصل العاشر

بروج في السماء

في يونيو عام 1982 (وهذا هو الشهر الذي سُجنت فيه فوزية البكر) مات الملك خالد. كانت طائرته الخاصة، البوينج 747 ذات اللونين الأخضر والأبيض، تحتوي على غرفة عمليات مجهزة بأحدث أجهزة التنفس ومراقبة القلب مع وجود اتصال مع جراحيه الموجودين في عيادة كليفلاند. مع ذلك كل هذه الاحتياطات فشلت في إنقاذه. كان الملك خالد، ذلك الرجل المحبوب والمبجّل على نطاق واسع، شبيهاً لرونالد ريغان بين الملوك السعوديين.

الآن جاء دور نيكسون. يقدّر السعوديون قدرات الملك فهد، أو فهد الصحراء، لكنّ القليل كانوا مغرمين به، وقد تقرّب الملك الجديد منهم في خطابه الأول إلى شعبه. أصبح الآن مسؤولاً، كما قال في خطابه، للحكم «بشرع الله»، وكان عليه الاعتراف أنه قد وجد هذه المسؤولية الرّبانية واجبًا ضخمًا، كان قلبه «يرتجف»، كما قال، «خوفاً من الفشل والعقوبة». حذر فهد من المشكلات التي تنتظرهم، ومن تهديدات القوى العظمى التي تحيك المؤامرات «لتقسيم وتشتيت» العرب «الشيء الذي نخاف منه»، ويحذّر الملك فهد، «أنهم سيهجمون علينا من الداخل عن طريق زرع الفتنة ودفع

مواطنينا نحو التعصب». لم يبيّن الملك فهد أن بذور التطرف قد تأتي من داخل المملكة. الأعداء دائماً كانوا في الخارج. الشباب السعودي، على نحو خاص، «يجب ألا يقلّدوا الشباب الضائع في الغرب والانغماس في الملذات الفاسدة».

هذا الخطاب المعتذر والخائف كان خطوة افتتاحية لهذا الملك الليبرالي لاحتضان المحافظين الإسلاميين.

«لو كان هناك انتخابات غداً»، أسرّ الملك فهد لأحد أصحابه، «لهَزمَنا ابن باز من دون أن يغادر بيته».

انتقل هذا الوعي إلى عضوٍ من أعضاء عائلة آل سعود.

«من دون استثناء»، يقول وزير عمل مع العائلة لسنوات طويلة، «لقد تمت تربيتهم على احترام وإظهار الاحترام لعلماء الدين».

كان هذا الاحترام مناقضاً تماماً للازدراء الذي يبديه الشاه نحو ملالي إيران.

«ليس لدي أدنى شك أن فهداً سيذهب إلى الجنة»، يقول ذلك أحد معجبيه بعد موته. «هذا هو العدل .كانت حياته على الأرض جحيماً لا يطاق يُظهر فيها التهذيب الدائم مع المتشدّدين الدينيين».

عندما أصبح ملكاً، لم يذهب فهد إلى ماربيلا حيث قصره هناك إلا مرة واحدة، كانت عائلته تذهب وتستمتع هناك بدونه. حصر الملك إقامته في قصره في جزيرة صناعية خارج جدّة، وعندما يكون في الرياض يتحوّل إلى وهّابي بسيط يستقبل العلماء كل ثلاثاء كما كان يفعل سابقه، حيث الشيخ ابن باز يجلس بجانبه في منصة الشرف.

أما ابن باز، من جانبه، فكان يحاول الدخول إلى القرن العشرين؛ إذ أصبح الشيخ الأعمى مشهوراً بين الليبراليين بسبب فتوى أصدرها منذ سنوات عندما هبط روّاد الفضاء الأمريكيون على سطح القمر عنوانها «رسالة في إمكانية الصعود إلى القمر». شكّكت فتواه بالإنجاز الأمريكي وبالحقائق المثبتة في الهبوط على سطح القمر إلى الدرجة التي اتهمه الناس فيها بالتشكيك أيضاً في كروية الأرض. لم يكن من العدل التصديق بهذا الافتراء ضد ابن باز. هناك العديد من مواقع الإنترنت الغربية التي تؤكد حتى هذا اليوم أنه تم تصوير هبوط الأمريكان على سطح القمر في استديو تلفزيوني وكان رأي الشيخ الرئيسي هو التشكيك في الأمر: «لا نستطيع تصديق أي شخص يأتي إلينا قائلاً «كنت في القمر» من دون أن يقدّم الإثبات العلمي القوي». بل إن ابن باز كتب قائلاً: «لا نرى في القرآن شيئاً يعارض إمكانية أن يصل الإنسان إلى القمر. نحن نعرف أن هناك مسافة بين الأرض والسماء. لا يوجد شيء يقول إن الصورايخ لا تستطيع الطيران من خلالها».

كانت فتوى الشيخ رداً، كما قال، على أسئلة كثيرة جاءت إليه من «المسلمين» وقد جاءت مفصّلة ومفتوحة بحيث يمكن مقارنة الحقائق المجردة للعلم الحديث بالتعليمات الرمزية للقرآن الذي تكلّم عن الجنّ وحركته بين

الكواكب. لكن شك ابن باز في الأمريكيين كان واضحاً. «يجب أن نقوم بالفحص الدقيق عندما يخبرنا الكفّار أو الفاسقون بشيء ما: لا نستطيع أن نصدّقهم أو نكذّبهم حتى يأتونا بالدليل القاطع الذي يعتمد عليه المسلمون».

يبدو من القراءة السطحية المباشرة أنه من الممكن الافتراض أن ابن باز قد انتقل من مرحلة الشك في الهبوط على القمر إلى مرحلة إنكاره له، لكن مباشرة بعد هذه الفتوى أجرى الشيخ مقابلة استغرق فيها بالتفكير في ما نلاحظه ونعيشه يومياً والذي يبيّن أن الأرض مسطحة، على الرغم مما يؤكده العلم الحديث، الذي يناقض تجربتنا الحسّية، ويرى أنها كروية.

«كما أتذكّر عندما كنت مبصراً»، يقول الشيخ ابن باز، «تبدو لي مسطحة».

كان تعبيراً رمزياً صادقاً وعاطفياً من رجل كان أعمى معظم حياته، وقد قاده ذلك إلى هذا الاعتقاد الذي لا يخاف من التصريح به واشتهر عنه – يؤمن ابن باز أن الأرض مسطحة[1].

وقد عاتب أحد أعضاء هيئة كبار العلماء الشيخ ابن باز على تصريحاته المحرجة هذه التي انتهزها بعض المتطرّفين للسخرية من المؤسسة الوهابية ووصفها على أنها «أعضاء جمعية الأرض المسطحة». لكن الشيخ لم يبدِ أي

---

1 - انتشر عند الناس أن ابن باز أصدر فتوى يؤكد بها أن الأرض مسطحة. بعد بحث دقيق اكتشفت أن فتواه "في إمكانية الصعود إلى الكواكب" لم يذكر فيها هذا الاعتقاد، وأنه، كما يبدو لكاتب هذه السطور على الأقل، كان يفحص الدليل العلمي الموجود الذي يتناقض مع رأيه الشخصي بانفتاح كبير ومرونة قلّما تجدها عند العديد من "المبدعين" المعاصرين في الغرب.

ندم. إذا اختار المسلمون الاعتقاد بكروية الأرض فهذا شأنهم، كما يقول ابن باز، ولن أتشاجر معهم دينياً. لكنه كان يتجه إلى الوثوق بما يشعر به تحت أقدامه وليس تصديق عبارات العلماء الذين لا يعرفهم: سوف يستمر بالاعتقاد أن الأرض مسطحة حتى يتم تقديم الدليل المقنع له بأنها عكس ذلك.

في عام 1985م جاء الدليل مقدماً نفسه. اختارت «ناسا» الأمير سلطان بن سلمان، البالغ من العمر الثامنة والثلاثين وابن حاكم الرياض، لكي يكون مهندس حمولة ضمن طاقم مركبة الفضاء «ديسكفري»، وقد ذهب الأمير لابن باز لاستفتائه وذلك بسبب أن التدريب والأيام الأولى للرحلة تتصادف مع دخول شهر رمضان، وهو يحتاج أن يعرف الطريقة التي يتعامل بها مع الصوم.

«تستطيع أن تطبّق تعليمات الرسول في أحكام السفر»، ردّ عليه الشيخ بدون تردّد. هذه الأحكام تبيّن أن الرسول قد سمح للمسافر، إذا رغب في ذلك، تأجيل صومه حتى تنتهي رحلته؛ ثم يستطيع بعد ذلك قضاء أيامه التي أفطر فيها.

مع ذلك، فضّل الأمير سلطان الصوم. لقد مرّ بتجربة قضاء الصوم في الماضي ولم يستمتع بتلك الأوقات التي يصوم فيها بينما الآخرون يعودون إلى تناول طعامهم كالمعتاد. فضّل أن يصوم في رحلته، وقد وجدت ناسا ذلك مفرحاً لها إذ ستتمكّن من مراقبة أثر الامتناع عن الأكل والشرب في الفضاء على الشاب المسلم الأمير سلطان. اتضح بعد ذلك أن الأثر ضعيف.

كان الأمير يتصل بابن باز يومياً من مركز كينيدي للفضاء.

«اسمعني يا شيخ»، يتذكّر الأمير سلطان وهو يتحدث معه، «سوف نسافر بسرعة ثمانية عشر ألف ميل بالساعة. سوف أشاهد شروق الشمس ست عشرة مرة كل أربع وعشرين ساعة. هل هذا يعني أنني سأنهي شهر رمضان في يومين اثنين فقط؟». راق للشيخ ما قلته فضحك بصوت مرتفع.

بعد نقاش لم يطل، اتفق الاثنان أن يكون الصيام بالشكل الطبيعي، أي الوقت على الأرض، وقت ومكان انطلاق المركبة الفضائية وهو هنا (كيب كانافيرال). وهذا الكلام ينطبق أيضاً على أوقات الصلاة اليومية، والتي سيؤديها وهو مربوط في حزام مقعده ومرتدياً ملابسه الفضائية، وذلك بسبب انعدام الجاذبية.

«من الصعوبة الاتجاه نحو مكة»، يقول الأمير، «إذ في الوقت الذي أقضيه في الاتجاه نحوها، يتغير مكانها ليصبح خلفي».

الأمير سلطان بن سلمان هو أول مسلم يطير في الفضاء وكان ابن باز متحمساً لسماع تجربته المباشرة.

«ابق عينيك مفتوحتين» كان هذا كلامه له وهو يستعدّ للانطلاق، «أريد أن أسمع كل شيء تراه».

«لن أنسى ذلك أبداً»، يقول الأمير سلطان اليوم، «منظر الأرض، صغير

جداً وكروي ومضيء في قلب الظلام. كل شيء كان واضحاً وحادّاً. يقول القرآن الكريم، ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزينّاها للناظرين﴾ (الحجر: 16) هذه الآية لخّصت لي كل شيء. بعد عشرين سنة ما زال ذلك المنظر مؤثراً في كل الأشياء التي أؤمن بها».

في الطائف، استُقبل الأمير استقبال الأبطال. استقبله عمه فهد لحظة وصوله على الإسفلت وكان بجانبه أخوه الفخور سلمان والعديد من الإخوان وأبناء العمومة. لاحقاً في ذلك المساء، ذهب الأمير الشاب إلى منزل ابن باز الذي أعدّ لجنة استقبال مكوّنة من مجموعة من علماء الدين المميّزين ليستمعوا إلى حقائق مباشرة عن حقيقة مَنْ يدور حول مَنْ في هذا الكون.

«كان الشيخ في أقصى درجات الإثارة»، كما يتذكّر الأمير سلطان. «استقبلني عند الباب الأمامي واحتضنني وقادني لمقابلة بقية المشايخ وهو ممسك بيدي طوال ذلك الوقت.الله أكبر! كان الشيخ يردّد هذه العبارة. وكان يسألني أسئلة عديدة. كيف لم تسقطوا من السماء؟ كيف تستطيع المركبة الطيران بسرعة من دون أن تستخدم محركاتها؟».

«لا يجب أن تكون هذه هي المرة الأخيرة» قال الشيخ، «من سيذهب في المرة القادمة؟».

في ضوء الشهادة الواضحة للأمير التي بيّن فيها أن الأرض كروية، توقّف الشيخ ابن باز عن الاعتقاد بأنها كانت مسطحة. من المهم للمسلم -كان الشيخ ابن باز دائماً يقول- أن يكون مرناً في قبول الدليل الواضح

الذي وضعه الله أمامه. لكن الشيخ الأعمى عرف ما عرفه الآن ولن يتراجع أبداً عما قاله. لا أحد يعرف على وجه التحديد عما إذا كان الشيخ عبدالعزيز بن باز، من داخلِ قلبه، والذي يعتبر أكبر شخصية دينية في المملكة العربية السعودية، قد تخلّى عن إيمانه بالدليل الذي أخذه من خبرته المباشرة في ما يشعر به تحت أقدامه وما كان قد رآه فعلاً قبل أن يذهب بصره.

***

في حلول عام 1985م أصبح أهم مصدر للقوة في المملكة مشكلتها الرئيسية – بعد الانفجار الكبير، تراجع سعر النفط إلى مستويات كارثية. كان سعره مع بداية العقد أربعين دولاراً للبرميل لكن بدأ يتراجع في عام 1981م حيث انخفض الإنتاج بمقدار الثلث في السنة الأولى التي أصبح فيها فهد ملكاً. لقد تم غمر الاقتصاد العالمي بكميات جديدة من كندا وألاسكا ومنصات البترول المتزايدة في بحر الشمال، بينما كان الطلب ضعيفاً بسبب الانكماش الاقتصادي، وبسبب السيارات المصنّعة جيداً التي لا تستهلك الكثير من الوقود، وكذلك بسبب سياسة الاقتصاد في الإنفاق بعد الارتفاع الكبير في الأسعار في سنوات الطفرة. تحوّلت تقريباً الصناعة الأمريكية التي تعتمد على الطاقة في تلك السنوات إلى الفحم بدلاً من النفط. «بحار من النفط». هكذا تتحسّر مجلة تكساس الشهرية في عام 1984م في عددها الخاص الذي ناقش الوفرة الزائدة للطاقة في العالم. وقف الدخل السعودي من النفط في عام 1981م عند الرقم الصحي المقبول أو 328 بليون ريال سعودي في السنة. لكن خلال السنوات الأربع التالية تراجع إلى ربع القيمة الآنفة الذكر. أثّر هذا التراجع بشكل كارثي على خطط الإنفاق التي تنفّذها حكومة فهد، وقد صبّ جام إحباطه على وزيره المشهور عالمياً المسؤول عن

وزارة البترول الشيخ الأنيق ذي العين الداكنة أحمد زكي يماني.

«لماذا لا تكون حاضراً حولي هذه الأيام؟»، يخبره الملك فهد شاكياً عبر الهاتف.

استاء الملك من وزيره وسجلّه المرتفع عالمياً ومتجاهلاً الحقيقة التي تقول إن الفصيح يماني والذي يتحدث الإنجليزية بطلاقة، بعكس فهد، كان ينقل آراءه إلى الرأي العالمي ليس فقط في قضايا النفط، بل في الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي والعلاقات الأمريكية - السعودية أيضاً. قد لا يمر شهر في بداية الثمانينات من دون أن تكون هناك مقابلة أو محاضرة راقية للشيخ يماني يقدّمها للجمهور الغربي غالباً والذي يُعجب به دائماً. كانت صوره على أغلفة المجلات الاقتصادية والإخبارية.

العديد من أفراد العائلة المالكة يشاطرون فهداً عدم سعادته في أن يتولى شخص من العامّة مهمة التعبير عن صوت وصورة المملكة العربية السعودية. كان يماني يحظى برعاية وتقدير من الملك فيصل في الستينات، أما الملوك من بعده فكانوا يشعرون أن زكي قد كَبُر إلى الدرجة التي تجاوز فيها حجمه الطبيعي. كان آل سعود بشكل خاص يتضايقون من الطريقة التي يطلق فيها العالم عليه لفظة «شيخ».

«كان يماني مجرد أستاذ – السيد يماني». كما يقول مستشار في الديوان الملكي «لفظة «شيخ» تُطلق على سبيل التكريم على رئيس القبيلة ورجال الدين».

بدوره، يتضايق وزير البترول من إيقاظه الساعة الثانية صباحاً لحضور اجتماعات مرتجلة لمجلس الوزراء يطلبها فهد، ومن إلقاء اللوم عليه بسبب انخفاض أسعار النفط، وهذا في رأيه، من طبيعة السوق. لم تكن علاقة الملك فهد بيماني جيّدة، وقد ازدادت عدوانية مع مرور السنوات بشكل واضح للجميع. في أكتوبر من عام 1986م أرسل فهد برقية إلى يماني في اجتماع أوبك يطلب منه الضغط على سعر ثمانية عشر دولاراً للبرميل. وافق الملك على هذه الاستراتيجية بعد مناقشات طويلة مع حكّام الكويت ودول الخليج الأخرى، وقد شعر بالغضب الشديد، عندما أخبروه لاحقاً، أن يماني تعامل مع السياسة المتفق عليها بالامتعاض الواضح.

«لا أعرف كيف أستطيع العمل مع هذا الرجل»، صرّح يماني بذلك بعد نفاد صبره إلى وزير زميل اتّصل خلال ذلك الاجتماع نيابة عن فهد ليؤكد التعليمات التي وردت إليه من الملك. لاحقاً كانت هناك مواجهة ساخنة ومباشرة مع فهد عبر الهاتف.

لقد تجاوز وزير البترول حدّه ببضع خطوات، ويبدو أنه قد عرف نهاية الأمر. عند عودته من اجتماع أوبك سافر يماني إلى جدة بشكل سريع، ثم إلى الرياض حيث بقي منتظراً كما لو كان يعرف النهاية التي جاءته فعلاً خلال أيام. لم يذكر الخطاب الرسمي المختصر كلمة «استقالة» لكنه بيّن أنه تم الاستغناء عن وزير النفط. كان يماني يلعب الورق مع عائلته عندما تم إعلان الخبر في التلفزيون. كان يحب البلوت، لعبة الورق المفضلة لدى السعوديين، وهي لعبة مأخوذة عن لعبة البلوت الفرنسية. «ارفع صوت الجهاز»، قال يماني من دون أن يرفع عينيه عن الطاولة، ثم استمر في لعب الورق.

في السنوات اللاحقة، سمع الناس بعض الأساطير التي كان أحدها يقول إن الملك فهد قد تعمّد أن يُبقي سعر البترول السعودي منخفضاً في الثمانينات في خطة شريرة وضعها بالاتفاق مع رونالد ريجان لخفض العائد الروسي من النفط ومبيعات الغاز في محاولة لإفلاس الاتحاد السوفياتي، ثم في النهاية الانتصار في الحرب الباردة.

«كان ذلك مستحيلاً ببساطة»، كما يقول خبير الاقتصاد النفطي الدكتور إبراهيم المهنّا الذي يعمل في وزارة البترول السعودية. لا يوجد منتج للنفط، سابقاً وفي عصرنا الحالي، يستطيع أن «يتحكّم» في سعر النفط. أرسل رونالد ريجان، في عام 1986م، نائبه (لاحقاً الرئيس جورج بوش) إلى الرياض يتوسّل إليهم أن يضغطوا لرفع الأسعار، وكنا سنفعل ذلك لو كانت لدينا القدرة. كانت الميزانية العامة في حاجة ماسّة للإيرادات. لا أحد كان يريد أو يرغب بأسعار النفط المنخفضة في منتصف وأواخر الثمانينات.

***

انخفض إنتاج النفط في السعودية بين عامي 1981 و 1986 من عشرة ملايين برميل يومياً إلى أقل من أربعة، الأمر الذي خلق أثراً كارثياً على إيرادات الحكومة. كان على وزير المالية، أول الأمر، أن يسحب من احتياطاتها الاستثمارية التي وُضِعت جانباً للاستعداد لمثل هذا اليوم. كانت الحكومة السعودية لسنوات كثيرة تجمع بحذر فائضها المالي على شكل سندات وعملات أجنبية، وخاصة الدولار. لكن في عام 1985م، تحوّلت أرقام الميزانية من الفائض إلى العجز وبدأت الحكومة في الاستعارة والسحب من الفائض المتراكم منذ سِني الطفرة.

«تبخّرت النقود فجأة»، كما يتذكّر أحد المصاحبين لفهد. «لقد صعب الأمر إلى الدرجة التي تكافح فيها الوزارات لدفع رواتب موظفيها في نهاية كل شهر».

أصبحت المملكة التي كانت قوية في السابق في طريقها إلى أن تكون دولة مدينة، واقتصاد يعتمد فقط على الحكومة، وهذا يعني بطالة عامة وصعوبات كبيرة.

تضررّ الشباب أكثر من أي فئة عمرية أخرى. ارتفاع نسب المواليد الجدد وتميّز النظام الصحي الجديد، كل ذلك أدّى إلى وجود الآلاف من الشباب السعودي الذين لا يحظون بفرص الحصول على وظيفة دائمة ومناسبة. بفضل «الإصلاحات» في المنهج التعليمي بعد مرحلة جهيمان، لم تقدم التخصصات الإسلامية أي مساعدة في إعداد الجيل الجديد من الشباب لمواجهة واقع العالم الحديث، كما أن مخرجات الكليات الدينية التي تطبّق الحفظ والاستظهار أسلوباً لها تفتقد إلى المهارات العملية التي يحتاجها المجتمع. لقد تم تعليم الشباب السعودي احتقار ما يعطيه الغرب لهم وفي الوقت نفسه إلقاء اللوم على الغرب في أخطائهم التي يرتكبونها.

ما تعلّموا، كان وصفةً للمشكلات. أصبح هؤلاء الشباب المحبطون في بحثهم عن الدعم والعيش الكريم الذي يساعدهم على دفع المهر الباهظ للفتاة السعودية أهدافاً سهلة للتطرّف حيث تحوّلت إحباطاتهم الجنسية إلى التطرّف الديني. وكجزء من برنامج الانتقال إلى الدولة التقيّة الصالحة، تم إنشاء جمعيات تحفيظ القرآن في المساجد منذ بداية الثمانينات، وفي

داخل المدارس الحكومية وأوقات الإجازات، حيث تنشر الجرائد بانتظام عن مسابقات تحفيظ القرآن. تكافئ وزارة التربية الطلاب الذين يحفظون كل أو بعض أجزاء من القرآن بجوائز نقدية تتراوح بين ألف إلى ألفي ريال (150-300 دولار). هذه الجوائز النقدية تجذب الأطفال وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى دوائر فقيرة. يجد المتطرّفون الدينيون فرصتهم في مسابقات وفصول تحفيظ القرآن الكريم التي تبدو بريئة من أي اتهام. هذه المسابقات شبيهة بمسابقات التهجئة الإملائية التي تجري في أمريكا. أصبحت هذه الأماكن أرضاً خصبة للحملات المتطرّفة – التي أخذت تُعرف بمجموعات الصحوة.

لم تهدأ حالة عدم الرضا بسبب معرفة الناس الواسعة للمبالغ الضخمة العائدة من الإيرادات النفطية التي ذهبت إلى جيوب المحيطين بالملك. يستطيع الناس قبول هذا الأمر في أوقات الرخاء السابقة – أيٌّ عائلة سعودية تحترم نفسها يُتوقّع منها زيادة ثروتها بدءًا من العائلة المالكة. لكن بسبب أوقات الشدة، بدأ الجميع يشعر بالامتعاض خاصة وأن فهداً لم يبد أي محاولة واضحة لمراقبة الإنفاق الشخصي.

استمر التراجع وأخذ الجميع يعيش على الذكريات الجميلة وأيام الطفرة في عهد الملك خالد فأطلق مروّجو الخرافات أصعب الألقاب على فهد – الملك غير المحظوظ.

إذا لم تشعر بالجوع في عهد الملك عبد العزيز فلن تشعر به أبداً.
إذا لم تستمتع بوقتك في عهد الملك سعود فلن تستمتع به أبداً.
إذا لم تذهب إلى السجن في عهد الملك فيصل فلن تذهب إليه أبداً.
إذا لم تجمع المال في عهد الملك خالد فلن تتمكن من ذلك أبداً.
إذا لم تفلس في عهد الملك فهد...

***

ماذا عليك أن تفعل؟ بعض الأمراء الشباب تجرّأ واقترح أن الوقت قد حان لتفعيل نظام الحكم الأساسي الذي طال انتظاره ومجلس الشورى المصاحب له. هذه ستكون خطوة أولى على الأقلّ في طريق الإصلاح والتغيير. لكن فهداً كان يقابلهم بابتسامة عريضة.

«كنت أقول نفس الشيء لأخي فيصل».كان سيقول لهم، «كنت سأطلب منه الإسراع في توقيع نظام الحكم الأساسي وتفعيل مجلس الشورى. لكنني الآن أقف في نفس موقفه وأمامي الوثائق والأوراق اللازمة وأشعر بنفس الشكوك التي كان يشعر بها. كنت أتساءل، ما الذي كان يعرفه أخي، وجعله يتراجع عن التنفيذ؟».

لقد خطّط فهد فعلاً إلى بناء مبنى ذي قبة عظيمة يكون مقراً لمجلس الشورى في المستقبل. لكن أن يملأ ذاك المبنى بأعضاء يناقشون القضايا فهذه خطوة ما زالت بعيدة المنال. قررّ الإصلاحي المتردّد بدلاً من ذلك

الاتجاه نحو المؤسسة الدينية. في عام 1984م بدأت مطابع مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم في المدينة المنورة العمل إذ بلغت تكلفتها 130 مليون دولار. في تلك السنة، وكل سنة بعد ذلك، يتم إهداء نسخة مجانية من القرآن للحجاج الذين يبلغ عددهم نحو 2 مليون حاج تقريباً والذين يأتون إلى مكة لتأدية فريضة الحج كل عام. هذه الهدية دليل على الكرم الوهّابي الذي عاد مجدداً إلى الحياة ليصل إلى كل زاوية من العالم الإسلامي. تضم سفارات المملكة البالغ عددها نحو سبعين سفارة أقساماً ثقافية وتربوية وعسكرية، بالإضافة إلى موظفي القنصليات الذين يصدرون تأشيرات الحج. الآن انضم إلى هؤلاء موظف جديد يُعرف بالملحق الديني الذي يهتم ببناء المساجد الجديدة في الدول المختلفة وإقناع هذه المساجد بتبنّي الدعوة الوهابية والترويج لها.

«بلا حدود»، كما يقول الأمر الملكي، «يجب أن يكون الصرف والإنفاق على الدعوة إلى الإسلام». خصّصت الحكومة أكثر من 27 بليون دولار لهذا الصندوق الدعوي خلال سنوات، بينما خصّص الملك فهد ملايين أكثر من ماله الخاص لتحسين وتوسعة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة. قامت شركة بن لادن ببناء الأقواس الجميلة والردهات الرخامية البيضاء الواسعة على نفقة الملك الخاصة وذلك لزيادة المساحة المغطاة لتستوعب مئات الآلاف من المصلّين والحجاج.

ولكي يسجّل هذه الفترة ويصدر ختماً خاصاً بهذه الحملة، قرر فهد أن يكافئ نفسه بلقب جديد. كان الملك فيصل يحب أن يُطلق عليه بشكل غير رسمي خادم الحرمين الشريفين، أو المسجدين في مكة والمدينة. يعود

هذا اللقب المبجّل إلى أيام الخلفاء الراشدين، لكن في عام 1986م، وأثناء افتتاح المحطة التلفزيونية في المدينة، أعلن فهد عدم رغبته في لقب ملك، بل أعلن عن رغبته في أن يخاطبه الناس في المستقبل «بهذا اللقب العزيز على قلبي».

أدّى إعلانه المفاجئ هذا إلى ردود فعل غير مهذّبة. «صاحب الجلالة يقول: لا تنادوني بصاحب الجلالة»، كما في العنوان الرئيسي لجريدة سعودية خيالية، بينما الدعابة الأجنبية ركّزت على قرار وزارة الإعلام في تطوير ترجمة «خادم» إلى الانجليزية والتي تحمل إيحاءات متواضعة وبسيطة إلى كلمة رنّانة فخمة هي «القيّم على» أو «الأمين» أو Custodian. النتيجة كانت معاكسة تماماً بالنسبة للأذن الأمريكية والتي توحي لها هذه الكلمة وتستدعي صورة رجل رثّ يحمل مكنسة ودلواً. استخدم دبلوماسي أمريكي وقح هذه الإيحاءات السلبية في رسم كاريكاتير يتضمّن صورة ملك بائس يركع إلى الأرض وهو يلبس بنطلوناً ممزّقاً ومهترئاً يمسح وينظّف المكان بينما يقف على رأسه موظف بلحية كبيرة يشرف على عمله بشكل صارم.

«انتبه، يا فهد»، يقول له الإمام، «عليك أن تنظّف المكان بشكل جيّد».

كان الهدف أو المغزى من ذلك الكاريكاتير الذي بقي معلقاً في مكتب خاص في القنصلية الأمريكية بجدة لسنوات طويلة، أن يتساءل عن الجهة التي كانت تسيطر على الأمور في السعودية. التحدي الرئيسي والصعب والذي يتعلّق بنجاة السعودية، سابقاً وحديثاً، هو معرفة كيف استطاع الدين أن «يطرح إلى الأرض» مجتمعاً سريع التغيّر ثم محاولة الخروج به إلى الأمان

بالشكل الذي يحتاجه في عصر يتميز بالنزعات العلمانية السريعة. من السهل أن يضحك المرء على التناقضات القديمة والحديثة في شخصية الملك فهد، لكنها كانت في الواقع تمثّل الروح السعودية الحقيقية.

الفصل الحادي عشر



في المنفى

يبدأ الملك مقابلاته بمناجاة مطوّلة للنفس. يبدأ حديثه بمجموعة من الأفكار والتأملات والاستطرادات قد تستمر زهاء أربعين دقيقة ويلقي الأفكار ويلف ويدور بعبارات تعكس عقله الفطن. أذهلت الخطابات الملكية أحد السفراء البريطانيين الذي شبهها باستهجانات ركن الخطباء في حديقة هايد بارك، فيما عدا، بالطبع، حقيقة أنه لا يُسمح لأحد في السعودية أن يختار مكاناً ويقف متحدثاً في الشارع. كان الملك فهد هو المتحدث «الهايد باركي» الوحيد في المملكة.

كان لدى الملك حديث أكثر عملية، ويجب أن يتكلّم به مع أمراء المناطق التابعين له، لكن هذا الحديث عبارة عن مجموعة من التعليمات وليس مجرد استطرادات وتأمّلات. منذ أيام الملك عبد العزيز، كانت إدارة المملكة تتم عن طريق أمراء محليين يقومون بدور ملوك صغار في مناطقهم ويجلسون في ديوانياتهم ويستمعون إلى الشكاوى وينهون الخلافات ويمرّرون الأوامر والتنظيمات التي تصدر من الرياض. كان نوّاب الملك هؤلاء من رؤوس القبائل، لكن مع ازدياد أعداد آل سعود تم إرسال المزيد من الأمراء من الرياض إلى مناطق أخرى – وكانوا يحظون باستقبال حار بشكل عام. أحبّ الناس فكرة أن يعرضوا مشاكلهم على أمير يلتقط سمّاعة الهاتف ويتكلم

مباشرة مع الملك أو أحد إخوانه الكبار.

على هذا الأساس، أرسل الملك فهد ابنه محمداً ليحكم المنطقة الشرقية في عام 1984م. قبل سنوات مضت وبعد أحداث الشغب وسفك الدماء في عام 1979م أوكل هذه المهمة لأخيه الأصغر منه والمتعلّم في أمريكا الأمير أحمد، نائب وزير الداخلية، لكي يقوم ببرنامج إصلاحي سريع.

«لاحظنا الفرق خلال عام تقريباً». يقول كليف مورغان والذي يعمل في البنك السعودي البريطاني. «صرفت الحكومة المال هناك بشكل واضح. كانت المناطق الشيعية، بالنسبة لي، في القطيف وسيهات الحلقة الأضعف والفقيرة في المنطقة الشرقية. الآن بدأوا بالحصول على البنية التحتية الحديثة، الطرق الجديدة، والمستشفيات والمدارس».

عيّن فهد أكثر أبنائه حيوية وديناميكية لكي ينوب عن الأمير أحمد ويكمل طريقه. تعيين فرد من عائلته هناك دليل واضح على الأولوية التي تحظى بها المنطقة الشرقية للملك فهد. إحدى المميزات التي يتمتع بها فهد في كونه لا يرتبط بعلاقة دم مع الوهابية هي أنه لا يتحامل أو يظلم الشيعة.

«إذا رأيت رجلاً فقيراً يأتي إلى مجلسك فتكلّم معه قبل أن تكلّم الآخرين»، هكذا يخبر الملك فهد ابنه. «لا تصدر قرارك أبداً في لحظتها. قل إنك ستقرّر لاحقاً. لا توقّع أبداً ورقة ترسل بها شخصاً إلى السجن إلا إذا كنت متأكّداً مائة بالمائة. وعندما توقّع لا تغيّر قرارك. كن حازماً. سوف تكتشف أن الناس كانوا يختبرونك».

كان هذا مقرراً أساسياً في القيادة المحلّية قدّمه فهد – اسم هذا المقرر الحكم السعودي ورمزه 101.

«إذا كنت لا تعرف شيئاً عن الموضوع. اصمت حتى تعرف. استخدم بعض كبار السنّ الذين يستطيعون تقديم النصيحة والمشورة لك. وإذا جاء مواطن يحمل مظلمة ضد الحكومة، قف في صفّ المواطن أول الأمر وصعّب الأمر على الموظف الحكومي، لن تعاني الحكومة من نقص في موظفيها لكي تتكلم بالنيابة عنهم».

نصح فهد ابنه بحلّ الخلافات القبلية بشكل سريع.

«حاول أن تحل المشكلة في اجتماع خاص وليس أمام الناس. خذ الرجلين إلى مكتبك واجلس معهما بهدوء. احتضنهما بعطف، ولا تتركهما يغادران حتى يعانقا بعضهما البعض».

لعقود طويلة، فوّض آل سعود سلطتهم في الشرق إلى الفرع البدوي القوي من العائلة، آل جلوي، الذين عُرفوا بحل المشكلات المحلية بالجلد القوي أو بحدّ السيف. محمد بن فهد – والذي كانت أمه من عائلة ابن جلوي[1] – سيستخدم أسلوباً مختلفاً. الأمير محمد، الذي تعلّم في أمريكا

---

1 - استخدام محمد بن فهد وقرابته من ابن جلوي مثال آخر على الطريقة القبلية التي يتبعها آل سعود. العديد من أمراء المناطق يرتبطون بعائلات محلية أو قرابة من جهة الأم. سعود بن عبدالمحسن، أمير منطقة حائل الشمالية لسنوات كثيرة، له علاقة من جهة أمه بآل الرشيد الذين حكموا حائل قبل أن يتم الإطاحة بهم من قبل آل سعود.

ويتمتع بشخصية جذابة، يعتبر في ذلك الوقت من أنجح رجال الأعمال في العائلة المالكة. يقول منافسوه من عائلة التجار السعوديين أنه استفاد بشكل غير عادل من واسطته الملكية لكنهم بدورهم لا يرفضون استخدام الواسطة لتحقيق أهدافهم. الثروات السعودية، الملكية وغير الملكية، نتجت من العمولات التي تُفرض على الاستثمارات الأجنبية في سنوات الطفرة التي تم فيها بناء البنى التحتية. كان مسموحاً تماماً فرض عمولة ما – بل كانت إجبارية في الواقع. أي أجنبي يريد أن يستثمر في السعودية عليه أن يخصّص جزءًا من استثماراته لشريك سعودي، الأمر الذي جعل الواسطة المحلية معروضة للبيع.

الآن أخبر الملك محمداً أن يترك أعماله وامبراطوريته التجارية لأخيه وأولاده لكي يفرّغ نفسه لجلب المال الحكومي إلى الشرق. والتزاماً بنصائح عمه أحمد، ستستفيد المناطق الشيعية من هذا المال بشكل خاص. عندما وصل الأمير ذو الرابعة والثلاثين من العمر إلى الظهران، أحضر معه خبراً سعيداً من والده، عفواً عاماً لجميع النشطاء الشيعة الذين تم احتجازهم منذ أحداث شغب عام 1979م. تم إطلاق سراح المئات من المعتقلين.

***

علي المرزوق كان أحدهم. التجربة التي مرّ بها في أعمال الشغب حوّلته إلى السياسة، لذا فهو لم يضع وقته والتحق بمنظمة الشيخ حسن الصفّار، أو منظمة الثورة الإسلامية – على الرغم من أنه وجد بمجرد انضمامه لها أن كلمة الثورة في العنوان لها بعد روحي.

«دائماً ما يخبرنا الشيخ»، كما يقول علي، «أن هدفنا أن نتحدث عن السلام وأنه يجب علينا التعامل مع المواجهات، مع المجموعات الأخرى والأفراد، بطريقة بعيدة عن العنف. يجب أن نتعلّم الهدوء».

أصبح علي من الأنصار المخلصين للطريقة السلمية التي ينتهجها قائده. يشبّه بعض الغربيين هدوء الشيخ الصفّار وحياديته بغاندي الذي درس الشيخ فلسفته. يجلس الشيخ في حسينيته كما لو كان بوذا منتصباً ويضع ساقاً على الأخرى على وسائده المربّعة لابساً عمامته وهو يلقي دروسه على أتباعه. لكن طريقة الصفّار نتجت بالأساس من فلسفة الهدوء الشيعية المتمثّلة بالحسين في موقعة كربلاء. القبول المطلق لأي كارثة ترميها الحياة في وجهك.

«كنا دائماً نحاول الاقتداء بالحسين»، يقول علي، «أبو هادي»، وهو لقب حسن الصفّار، «يخبرنا أن القبول هو طريقتنا. لكننا نريد الحرية أيضاً. الحرية في مناقشة ونشر أفكارنا الجديدة عن الإسلام. بعد الانتفاضة في عام 1979م، تكلمنا كثيراً عن الحرية، وقد قرّرت أن أبحث عن الحرية بنفسي، تلك الحرية الحقيقية والشخصية الداخلية التي منحها الإسلام للعقل والروح. كنت سأكون رجلاً دينياً».

ترك علي المدرسة وهرب إلى الكويت التي كانت تقام فيها ندوات تدرّب الأئمة الشيعة الشباب.

«أحضرني وأعادني والدي»، كان علي واحداً من تسعة عشر أخاً وأختاً، وكلهم من أم واحدة، «قال إنه يريدني في البيت معه، ومثل كل أب في ذلك

الوقت، شعر بالخوف من أجلي ومن الأفكار الجديدة التي كانت تشغلني، كان وقتاً متوتراً جداً. في أحد الأيام صادر أبي الكتب والمجلات التي وجدها وأخرجها من المنزل ودفنها تحت الرمال» في عام 1982م، ذهب علي ذو التسعة عشر ربيعاً إلى حيث التل المرتفع ليعمل في أرامكو، والتي كانت مكاتبها الرئيسية تقبع فوق قبّة الدمام حول بئر النفط التي بدأت الشركة العمل به قبل نصف قرن. عمل في قسم النقل لعدة أشهر. لكن في رمضان من ذلك العام، ذهب في إجازة مسافراً مع أصدقاء الثورة الإسلامية إلى مدينة مشهد المقدّسة في شمال شرق إيران. كانوا يستمعون كل مساء إلى محاضرة من الصفّار الذي هرب من المملكة بعد الانتفاضة مباشرة، ومعه مجموعة من قادة حركة المقاومة. لقد كوّنوا مجموعة كبيرة وسعيدة من الشيعة السعوديين الذين يتحدثون عن الوطن ويؤدون الصلاة والصيام مع بعضهم كما هي طقوس رمضان.

«لم نخطط أو نتآمر بأي شيء»، كما يتذكّر علي، «لكن المباحث لا تريد لشيعي أن يغادر البلاد ويذهب ويتحدث مع أبي هادي. إنهم يفترضون أننا كنا نعمل كجواسيس لإيران. وبمجرد أن نزلت من الطائرة في البحرين عائداً إلى بلادي وإذا بهم يقبضون علي».

للمباحث السعودية وجود قوي على الجزيرة الصغيرة التي تبدو مستقلة نظرياً والتي كانت سترتبط بالأرض السعودية بجسر ذي ستة مسارات. كانت قوات المباحث تبحث عن الشباب السعوديين الذين قبضوا الدراهم الإيرانية ويحرّضون على تبني الاتجاه المعادي الواضح للمملكة من الآيات والملالي الإيرانيين.

«كان شعري طويلاً، فقام البحرينيون بقصّه ثم حشوه في بنطلوني. ضربوني على جبهتي. لكن هذا لا يعتبر شيئاً عندما نقارنه بما فعله السعوديون بي عندما قبضوا علي. لقد ضربوني واستمروا في ضربي على قدميّ إلى الدرجة التي لم أستطع فيها المشي لمدة أسبوع. عندما تتكسّر عصا يحضرون أخرى، وعندما ينتهي الجلد يبقونني واقفاً ومستيقظاً يوماً بعد آخر، وليلة بعد أخرى. لا يدعونني أنام. بعد عشرة أيام، استسلمت ووقّعت على ما طلبوه — اعتراف بأني عضو في منظمة الثورة الإسلامية. توقّف الجلد فوراً وتركوني أنام. كانت تلك هي النهاية. كل ما طلبوه كان تلك الورقة التي وقّعتها. كان علي أن أعترف في اليوم الأول».

تعرّف علي على مجموعة كبيرة من الأصدقاء الشيعة في فترة السنتين اللتين قضاهما في السجن.

«الكثير منهم لم يقترف أي خطأ. لم يقم أي واحد منّا بأي خطة في التفجير أو القتل. لم نكن نتدرّب أو نخطط للقيام بأي عنف. كان من الجنون احتجازنا. أتذكر وأنا في زنزانتي خلال الليل أنني سمعت أصوات صراخ الرجال الذين كانوا يتعرّضون للضرب والجلد. فقد ابن عمتي عقله تماماً. أخرجوه من السجن مبكراً إلا أنه لم يعد كما كان أبداً. كان الأمر فظيعاً. الشيعة عادة هادئون ومحافظون. لكن عندما خرجنا كان من الصعب علينا أن نشعر بأي نوع من التعاطف مع الملك فهد وابنه».

***

واجه محمد بن فهد مهمة صعبة عند استلامه مهام عمله في المنطقة الشرقية في عام 1984م بعد المرارة الشديدة التي بقيت في أعقاب

الانتفاضة التي حدثت في عام 1979م والتي أذكاها وأوقدها آية الله الخميني والحكومة الإيرانية عن طريق المنشورات والإعلام. لم يخفِ آية الله الخميني رغبته وأمانيه في إزعاج السلطات السعودية وكان يرى الشيعة في منطقة القطيف-حوالي ثلث سكان المنطقة[2]- حلفاء استراتيجيين لأهدافه. في تلك السنوات، كان راديو طهران يذيع مناشدات متواصلة للشيعة السعوديين للثورة ضد «مضطهديهم» من الأمراء.

كان الخميني يرفض بشكل خاص الادعاءات السعودية برعاية الأماكن المقدسة. منذ عام 1981م وحجاج الثورة الإيرانيون يستغلّون موسم الحج كل عام لترويج قضيتهم في مكة حيث يقومون بتهريب صور آية الله والتلويح بها خارج المسجد الحرام وهم يتلفّظون بشعارات معادية ساخرة. «فهد، الشاه الإسرائيلي» هو الشعار المفضّل لهم. هذه المظاهرات السياسية تثير الحساسية السعودية، وهي بالفعل، تؤذي العديد من المسلمين الآخرين الذين يعتقدون أن الحج ليس المكان المناسب لترويج عبادة الخميني وشخصيته.

وفي عام 1986م تمّ العثور على بضاعة شحن قادمة من طهران تحتوي على حقائب تم حشوها بمتفجرات بلاستيكية ولم يكن محمد بن فهد مستعداً لانتهاز هذه الفرصة. كيف يمكن له أن يحدّد الشيعي السعودي

---

2 - في عام 2007م، أظهرت التقديرات بالاعتماد على أرقام التعداد الأخير أن مجموع السكان في المنطقة الشرقية 3.400.175 نسمة مقسمين كما يلي: 1.541.379 من السنّة؛ 914.765 من الشيعة، 944.013 من الأجانب. أما في الأحساء فقد شكّل الشيعة 40 إلى 45 بالمئة من 908.366 شخصاً يسكنون فيها، وشكّلوا أيضاً 87 بالمئة من 474.573 شخصاً مسجّلاً يسكنون القطيف.

النائم مع العدوّ؟ شعر أتباع منظمة الثورة الإسلامية في المملكة بالخوف يدب فيهم مرة أخرى، خاصة وأن قائدهم الشيخ حسن وأتباعه كانوا يعيشون في إيران تحت بركات ودعم الحكومة الإيرانية.

«سمعت أنه تم القبض على أصدقائي للتحقيق معهم»، يقول علي المرزوق، «ولم أكن مستعداً للتضحية بسنتين أخريين – لقد ضاع الكثير من حياتي. عندما كنت في السجن، لم يسمحوا لنا بالقراءة. لم يكن هناك كتب. فقط كنت أجلس هناك وعقلي يدور في كل اتجاه. أبداً لن أكرّر ذلك، وفي عام 1981م كنت قد تزوجت. لهذا، ناقشت هذا الأمر مع زوجتي وقرّرنا الهجرة. حصلنا على جوازات سفر مزورة، وذهبنا بالسيارة إلى الكويت. ذهبنا من هناك إلى سوريا. عرف كلانا أن الأمر سيطول. كنا نبكي من قلوبنا ونحن نغادر، لكن عندما عبرنا الحدود قلت: حسناً. هذه حياة جديدة».

هذه ليست نهاية رحلات علي المرزوق. في أغسطس من عام 1987م ازدادت المظاهرات الإيرانية في الحج إلى درجة خطيرة. مشى الإيرانيون المتحمّسون في مكة وهم يصيحون «الله أكبر الخميني هو القائد». وقد أفسدوا الشعيرة الإسلامية عن طريق حمل السكاكين والعصي تحت إحراماتهم، كما يقول الحجاج المصريون الذين نجحوا في الهروب من المذبحة التي حصلت بعد ذلك. قُتِل أكثر من 275 إيرانياً، و85 سعودياً، و42 حاجاً من جنسيات مختلفة، والكثير منهم سقط تحت الأقدام بعد محاولة القوات الخاصة لوزارة الداخلية كبح المظاهرة التي دعا إليها مهدي كروبي، الممثّل الشخصي لآية الله الخميني في مكة. رفضت الحكومة السعودية شجب تصرفات جنودها لأنها ترى أن حفظ الأمن في أعظم مناسبة إسلامية هي

مسؤولية عظيمة تأخذها على محمل الجدّ. ليس لديهم أدنى شك أن الشيعة الإيرانيين هم من تسبّب بهذه المأساة، وقد ردّ خميني بغضب شديد. شجب آل سعود ووصفهم بالمجرمين القتلة وحرّضوا كل أبناء الشيعة المخلصين للنهوض والثورة للإطاحة بهم.

لم يكن لحسن الصفّار ومنظمة الثورة الإسلامية أي دور في مأساة مكة، وكذلك الشيعة في المنطقة الشرقية. لكن تحريض الخميني لهم بالثورة وضعهم في موقف حَرِج. كانوا مجبرين على اختيار طريق واحد.

«لم نكن مستعدين أن نكون أداة في يد حكومة أجنبية»، يقول الشيخ حسن اليوم، «كان هناك مجموعة في السلطة الإيرانية تريد تجنيدنا ضد الحكومة السعودية. جاؤوا إلينا، واقتربوا منّا في مناسبات متعددة. لكننا أخبرناهم برغبتنا أن نكون مستقلّين».

تولى مساعده جعفر الشايب الحديث السياسي نيابة عن الشيخ.

«استمعنا إلى ما قالوه»، يقول الشايب عن الإيرانيين، «لكننا أبداً غير راغبين أن نكون جزءاً من لعبتهم».

منذ لحظة وصوله إلى إيران، بيّن الصفار بشكل واضح اختلافه وعدم موافقته على أفكار آية الله الخميني المتطرفة – المذهب الذي كان يرى أن العلماء الدينيين مؤهلون ليس فقط في تقديم النصح والمشورة للحاكم بل في الحكم نفسه. هذه هي الفكرة الثورية – الخاصة بالخميني- أو «ولاية

الفقيه» الإيرانية. اختلفت السلطة التنفيذية لملالي إيران عن أي حكومة إسلامية على مرّ التاريخ، ويرى آل سعود أن هذا المذهب مدمّر تماماً ويتفق معهم في الرأي الشيخ حسن الصفّار.

«لا يوجد مثل هذا المذهب في القرآن ولا في أحاديث الرسول وتعليماته»، يقول الشيخ، «العالِم يقدّم النصيحة إلى الحاكم، لكنه لا يحكم بنفسه».

أعطى الصفّار أوامره لأتباعه بمغادرة إيران، وبذلك استأنف الشيعة السعوديون رحلاتهم. لم يستطيعوا البقاء في إيران، لكنهم لا يستطيعون العودة إلى وطنهم. في أواخر عام 1987م، حزم مجتمع المنفيين حقائبه واتجه إلى سوريا، قبرص، لندن، وواشنطون.

أُرسِل علي المرزوق إلى قبرص لتنسيق النشاطات الصحفية لمنظمة الثورة الإسلامية حيث عاش هو وزوجته على راتب ضئيل من المنظمة وعلى ما تستطيع عائلته إرساله لهما.

«تصل الفلوس أحياناً»، يقول علي، «وأحياناً لا تصل. عندما نكون محظوظين فإننا نحصل على دجاجة واحدة شهرياً. أصبحت زوجتي ماهرة في طبخ البرياني – مع الكثير من الأرز».

عودةً مرة أخرى إلى المملكة، حيث استمر محمد بن فهد ببرنامجه الخاص بإصلاح وبناء البنية التحتية للمنطقة الشرقية، على الرغم من أن

غياب الشخصيات الشيعية الكبيرة أثّر على محاولات رأب الصدع والإصلاح الذي كان يأمله أبوه. لم تكن السعودية تعمل في فراغ بل كانت تعيش في بيئة خطيرة يكون للناس والأحداث خارج الحدود تأثير لا يمكن التنبؤ به داخل أراضيها.

الفصل الثاني عشر

اليمامة والريح الشرقية

عندما كان الأمير خالد بن سلطان يدرس أساليب الدفاع الجوي في بداية الثمانينات في الكلية الحربية الجوية في ماكسويل، في ولاية ألاباما، كان يحب ممارسة الألعاب الحربية ويشارك فيها بانتظام. بعد سنوات قليلة وجد نفسه يمارس حرباً حقيقية. في 6 يونيو 1984م، كان الأمير يطير على ظهر طائرة هيلكوبتر فوق ميناء الجبيل في المنطقة الشرقية عندما التقط جهاز الراديو صوت طيّار حربي إيراني كان يتحدث بحماس إلى قاعدته. كان الإيراني يقود طائرته أف4- إلى الجهة الخاطئة في «خط فهد»، الحد الجوي الذي وضعه السعوديون في وسط الخليج عندما بدأت الحرب العراقية الإيرانية.

كان الهدف من خط فهد أن يوفّر للدفاعات الجوية السعودية الوقت الكافي لرد الفعلِ. الطائرات غير المرخّص لها والتي تعبر ذلك الخط يتم إسقاطها، كما حذّرت الرياض، وقد تم بالفعل تحذير هذا الطيار مرتين. بعد أن كشفته طائرات الأواكس التي يقودها في ذلك الوقت طاقم تابع للقوات الجوية الأمريكية، وضعت القوة الجوية السعودية طائرتين من طراز أف15- في الجوّ. عندما تجاهل الإيراني تحذيرهما وأبقى طائرته منخفضة باتجاه الساحل السعودي – وآبار النفط السعودية- كان رد الفعل حاسماً وسريعاً.

أطلقت إحدى طائرتي أف15- النار على المعتدي. انقطع جهاز الإرسال الإيراني وسقطت طائرته بشكل لولبي في عرض البحر.

كان ذلك نجاحاً باهراً وفعّالاً للقوات السعودية، لكنه في الوقت نفسه أثار قضايا مقلقة. كانت هذه المواجهة جزءاً مما كان يُعرف بـ «حرب الناقلات» حيث تقوم الطائرات الإيرانية بتهديد السفن التي تحمل النفط، ليس من العراق فقط، بل من الداعمين الرئيسيين والمتحالفين مع العراق وهما الكويت والسعودية. كان هذا تهديداً للاقتصاد العالمي برمّته – أي مشكلة في مضيق هرمز فإن ذلك سيقطع الإمداد النفطي لأسابيع – وقد أرسل الملك فهد استغاثة عاجلة للبيت الأبيض. استجابت إدارة ريجان سريعاً وأرسلت أربعمائة صاروخ من طراز ستينجر قصير المدى، هذا بالإضافة إلى حاملة للطائرات تزيد من مساحة المراقبة والانطلاق للطائرات المقاتلة السعودية.

لكن الرئيس باع هذه الأسلحة إلى المملكة العربية السعودية من دون أن يستشير مجلس الشيوخ، الأمر الذي أغضبهم بشدة. تُعتبر صواريخ ستينجر أسلحة فعّالة على نحو خاص. ماذا لو مرّر السعوديون هذه الأسلحة لأصدقائهم الفلسطينيين؟ عندما تقدّمت المملكة بطلب رسمي ذلك الصيف لشراء مجموعة من الأسلحة تتضمّن طائرات أف15- المتقدمة، وصواريخ لانس أرض-أرض، كانت ردة فعل إسرائيل عدائية. أوضحت أنها لا تريد أن ترى مثل هذه الأسلحة القوية في الأيدي السعودية. كان السعوديون معارضين لعملية كامب ديفيد، وكان هناك اعتقاد سائد بأن آل سعود، عاجلاً أم آجلاً، سيذهبون كما ذهب الشاه.

المجموعة المساندة لإسرائيل والتي تمكّن بندر بن سلطان من تجاوزها بصعوبة شديدة في تأمين طائرات الأواكس قبل أربع سنوات أعادت تكوين نفسها من جديد وبإصرار شديد. هذه المرة لم تنجح الصفقة السعودية. في عام 1985م، تضاءلت فرص رونالد ريجان في تحقيق سقوط «الإمبراطورية الشريرة» وبدا ذلك غير ممكن الحدوث حتى لأولئك الذين شاطروه طموحاته، والمساهمة السعودية في حروب أمريكا السريّة بقيت طي الكتمان للضرورة. لم يكشف الرئيس –على سبيل المثال– أن السعودية المناصرة للفلسطينيين قد اشترت بمباركته صواريخ ستينجر بالمئات ثم تمريرها إلى محاربي الحرية في أنجولا وأفغانستان. تم إيقاف صفقة السلاح في الكونجرس، وفي فبراير 1985م اعترف ريجان بالهزيمة. اتجه الأمير بندر وأبوه، من أجل الحصول على الطائرات، إلى السيدة تاتشر في بريطانيا، إذ خلال أشهر قليلة تم الاتفاق على صفقة وصلت إلى بلايين الجنيهات الإسترلينية – اتفاقية اليمامة - للحصول على طائرات التورنيدو المقاتلة وأسلحة أخرى، بالإضافة إلى بناء بعض القواعد العسكرية.

«تلك المرأة»، يقول الأمير بندر عن رئيسة الوزراء البريطانية. «كانت رجلاً قوياً».

قيل في ذلك الوقت إن اتفاقية مشروع اليمامة بلغت 5 بليون دولار. لكن مع حلول عام 2000م، ارتفعت إلى عشرات البلايين بعد توقيع اتفاقيات بناء قواعد عسكرية وعقود خدمية أخرى – أكثر مما أنفقته المملكة في أي عملية شراء أسلحة من أمريكا عبر تاريخها.

«أصدقائي الأعزاء، دعوني أخبركم. نحن لا نستعذب تعذيب الآخرين»، يقول الأمير بندر موضحاً لمجموعة من كبار موظفي ماكدونال دوجلاس السبب الذي حوّلت فيه السعودية بشكل دراماتيكي دراهمها النفطية إلى صناعة الدفاع الأمريكية. «لا نريد أن ننفق بلايين الدولارات ثم نتعرض للإهانة أثناء ذلك».

***

أصبح مشروع اليمامة سيء السمعة. ربما، بنظرة سريعة كانت هذه الاتفاقية تبحث عن المتاعب عندما سمّت أكبر صفقة عسكرية في التاريخ باسم طائر السلام (اليمامة). كان ضرباً من الجنون أن تقوم الشركة البريطانية للفضاء (التي أصبحت فيما بعد شركة بي آي إي سيستمز) ، المصنّعة لطائرات التورنيدو، أن تقوم بإنشاء صندوق للعب والاستمتاع لشخصيات سعودية عندما تأتي إلى لندن، ثم يقوم وكيل السفر بتسجيل كل التفاصيل في دفاتر خاصة لتصل بعد ذلك إلى أيدي الجرائد والصحف. ففي يوليو من عام 2004، تمكّن قرّاء جريدة الصنداي تايمز من قراءة كيف أنفق بيتر جاروز، مستشار السفر في سانت ألبانز، وخلال فترة ثلاث عشرة سنة، أكثر من 60 مليون جنيه إسترليني في تزويد بعض الشخصيات السعودية يخوتاً مؤجرة في كان، والإقامة في أدوار كاملة في أرقى الفنادق في العالم مثل فندق البلازا في نيويورك وجورج الخامس في باريس، وبعض السيارات الفارهة مثل هدية الرولز رايز البالغ ثمنها 170،000 جنيه استرليني.

انضمت إلى جوقة المتعة فتاة غلاف بريطانية أخبرت إحدى الصحف البريطانية أن مفتونها السعودي استأجر لها شقة في هولاند بارك بمبلغ زهيد

يصل إلى 130،000 جنيه إسترليني سنوياً، كما قدّم لها المساعدة في دفع أجور تعليمها. لم تكن الحياة على حساب اليمامة تتضمّن فقط كؤوس شامبانيا الكريستال والمعاطف الصوفية من ماركة دولتشي آند جابانا بمبالغ تصل إلى 12000 جنيه إسترليني، بل إنها توضّح: لقد دفعت لها شركة السلاح لتدخل مدرسة تعليم الدراما أو المسرح، وقامت بدفع أجرة الدراسة لمدة سنتين في معهد لي ستراسبيرغ الراقي، والذي كان متخصصاً في التمثيل الذي يعتمد على تقمّص الشخصية.

«نعم، وماذا في ذلك؟». كانت إجابة الأمير غير المعتذرة مع مذيع قابله وسأله حول مدى وجود فساد في المملكة العربية السعودية، وقد أسرع محاموه بإضافة أن الأمير لا يعتبر اتفاقية اليمامة فاسدة. جميع الهدايا والمبالغ الجانبية التي جاءت عبر الاتفاقية – قيل إنها تصل إلى بليون جنيه إسترليني يتم دفعها على أقساط يصل الواحد فيها إلى 30 مليون جنيه يتم دفعها كل أربعة شهور لأكثر من 10 سنوات إلى بنك ريجز في واشنطون – وافقت عليها وزارة الدفاع السعودية (التي يقودها الأمير سلطان). بندر هو المسؤول الشخصي عن حساب ريجز، لكن ذلك لم يكن «مالاً خاصاً» أبداً؛ بل كانت «دراهم الحكومة السعودية من البداية إلى النهاية»، كما أوضح الأمير بندر والذي أسهب في سرد دفاع قوي ومطوّل عن المبالغ التي استلمها وأنفقها في سيرة ذاتية مصرّح بها كتبها ويليام سيمبسون، وهو صديق قديم منذ أيام دراسته للطيران في كلية القوة الملكية الجوية.

لم تكن اليمامة فاسدة بل كانت «ترتيباً مثالياً»، كما يقول سيمبسون عن «مصادر قريبة من بندر لتوضيح التنوع الذكي لليمامة». الدفوعات والأموال

الجانبية التي يوفّرها هذا العقد تؤمن نقداً لا يمكن مراقبته. كانت السعودية تحتاجه للإنفاق على معاركها السريّة مع الشيوعية في تشاد وأفغانستان. جاءت اتفاقية اليمامة لتوفّر مبالغ ضخمة من المال بحيث لا يكون لها أي سجلّ حكومي عن طريق المقايضة بالنفط وحسابات بنكية خارجية. قد يسافر الأمير في طائرته الإيرباص إلى سانت لوسيا، هونولولو، وإلى منزله الضخم في أسبن، لكنه يستخدمها أيضاً في رحلاته الدبلوماسية المكوكية الرسمية إلى لندن، باريس، وموسكو نيابة عن المملكة. إحدى الرحلات التي يفخر بها الأمير بندر على نحو خاص كانت رحلته السرية إلى روما في عام 1983م التي قام فيها، كما يدّعي، بتسليم حقيبة تحتوي على 10 مليون دولار إلى قسّيس في بنك الفاتيكان. كان ذلك قبل أن تزيد اليمامة من تدفق النقد للأمير بندر، لكن ذلك يوضّح، في رأيه، الفائدة الكبيرة للمال عندما يكون غير موجود في سجلات الحكومة. في هذا المثال، حسب رواية بندر، العشرة ملايين دولار السعودية ذهبت إلى الحملة الانتخابية للحزب الديموقراطي المسيحي الذي كان فوزه مهماً في إبعاد الحزب الشيوعي الإيطالي القوي – على الرغم من أنه من المستحيل إثبات صحة ادعائه، خاصة وأن الفاتيكان قد نفى ذلك.

الأمير بندر يقول-رغم أن سيمبسون لم يوضّح ذلك صراحةً- إن الحكومة السعودية دفعت للشركة البريطانية مالاً أكثر مما تستحقه صفقات السلاح، ثم طلبت من الشركة أن تعيد المال الزائد لاستخدامه في أغراض تدمير الحكومات الشيوعية والاستمتاع واللهو في هولاند بارك. الحكومة السعودية كانت سعيدة بهذا الأمر، بحسب رأي بندر.

«وافقت وزارة الدفاع واعتمدت كل بنس فيها»، كما يقول أحد مساعديه.

كما يراها بندر، لم يكن لليمامة أي علاقة بأحد سوى المملكة العربية السعودية، ولا يعرف ما الذي كانت تبحث عنه الصحافة البريطانية أو تشكو منه عندما انفجر الخبر في 2004م. لم تخسر بريطانيا بنساً واحداً. كانت الهدايا والمنح جزءاً من الطريقة التقليدية في الشرق الأوسط في التعاملات التجارية. لماذا تشكو بريطانيا عندما تختار المملكة أن ترفع من قيمة الأسلحة البريطانية لتبعث الحياة من جديد لصناعة الأسلحة البريطانية التي كانت تحتضر؟ كانت صناعتها ستموت لولا مشروع اليمامة. لأكثر من عشرين سنة، أبقى هذا العقد على الآلاف من العمال الجائعين في لانكشاير حيث مصنع الشركة البريطانية والذي يقوم بالصناعة المربحة لطائرات «التورنيدو» المقاتلة والتدريب على طائرات «الهوك» في وارتون - بالقرب من بريستون- وهي المدينة الصناعية التي ستكون ثرواتها مختلفة لو لم تأت البلايين السعودية التي ضُخّت في اقتصادها المحلي.

يحب بندر أن يدافع عن الزاوية الضيّقة التي وُضِع فيها بالحديث عن الطائرات. لو نجحت المملكة في طلبها الأول لشراء طائرات أف15- من خلال الكونجرس، فإنها، كما يمكن أن يقول، ستكون تحت قيود معينة لإرضاء الإسرائيليين. وللسبب نفسه كان يمكن أن تكون لأغراض دفاعية فقط. لكن ضمن مشروع اليمامة، فثمان وأربعون طائرة من أصل اثنتين وسبعين اشترتها السعودية هي طائرات هجومية متطورة وبدون قيود أو اشتراطات دفاعية، كما أن طائرات «الهوك» لديها قدرات هجومية عالية. في سياق الدفاع عن دولته، يعتقد الأمير أنه قد أنجز عمله على أكمل وجه، وليس هناك حاجة للاعتذار

عن طائرة الإيرباص ذات اللونين الأزرق والفضي، ولا حتى عن الدروس التي تلقتها الآنسة أنوسكا بولتون - لي في مدرسة التمثيل التي تختص بتقمّص الشخصيات.

***

كانت الحرب العراقية الإيرانية من عام 1980م إلى عام 1988م حرباً وحشية ودموية إلى أبعد حد. مئات الآلاف من الشباب الذين تم تدريبهم بشكل سيء لقوا حتفهم في الخنادق على طريقة الحرب العالمية الأولى أو تلقّوا الطعنات على طريقة «الموجة البشرية» - وهي مأساة اشترك في جريمتها، بعد عام 1983م، كل من الولايات المتحدة والسعودية. عندما ردّت إيران بهجوم ناجح في ذلك العام ضد الغزو الفارغ الذي قام به صدام حسين في سبتمبر من عام 1980م، هبّ السعوديون لنجدة القائد العراقي كأخ عربي سنّي. كان صدام الجدار الأفضل الموجود لصد التأثيرات المحتملة للآيات والملالي لو تركوا لهم السيطرة على بغداد، بينما وقفت الولايات المتحدة خلف الدكتاتور العراقي كجزء من محاولات واشنطون لحفظ ماء الوجه بعد إهانة أزمة الرهائن في إيران لعامي 1979 و1981م.

تحول الصراع في عام 1985م إلى صراع صاروخي عندما بدأ البلدان بإطلاق صواريخ سكود السوفياتية الصنع إلى عاصمتي البلدين. عجلت حرب المدن هذه في رغبة المملكة العربية السعودية في الحصول على دفاعاتها الجوية بل وزيادتها، على اعتبار أن المملكة لا تملك الصواريخ التي تدافع بها عن نفسها أو تغيّر اتجاه ما يهجم به عليها. وفّرت اليمامة الطائرات المقاتلة والأسلحة التقليدية، لكن من أين للمملكة أن تعثر على الصاروخ المماثل

لصاروخ لانس الذي أوقف الكونجرس صفقة شرائه؟ الخبير بندر يملك الإجابة لكل الأسئلة – في الصين الشيوعية. كانت السعودية تموّل شراء الأسلحة الصينية لصالح العراق والتي كانت تمر عبر الأراضي السعودية بعد أن صرّحت لها بالدخول. لماذا لا تزيد الشحنة قليلاً لتشمل بعض صواريخ «الريح الشرقية» الصينية ذات الطراز سي أس أس2-؟ كان ذلك الاقتراح الذي قدّمه الأمير بندر إلى عمّه فهد. يمكن إنزال حمولة الصواريخ بشكل خفي لتكون في عناية السعودية قبل أن تصل الشحنة إلى الحدود العراقية. وكما قال الأمير لاحقاً في مرح واضح: «جئت وسألت أصدقائي الأمريكان أن يزوّدونا بالصواريخ، صواريخ أرض- أرض بمدى يصل إلى ثمانين ميلاً اسمها لانس. لكنهم رفضوا بعد أن أخبرونا أنها تشكّل تهديداً لجهة ما (إسرائيل). لذا ذهبنا واشترينا صاروخاً يبلغ مداه 1600 ميل».

لا يبدو ذلك ذكاءً من خلال ما تم سماعه. ألف وستمائة ميل تعني أنه لو تم إطلاق الصواريخ الصينية الصنع، من الرياض، فلن تضرب بغداد وطهران فقط، بل مصر وليبيا وتركيا وباكستان وغرب الهند وشرق ووسط أفريقيا، والأهم من ذلك كله أي مدينة أو مستوطنة في إسرائيل – والذي كان يماثل في منتصف الثمانينات تهديد الأرض الأمريكية. سوف يمثّل حصول السعودية على هذه الصواريخ التي تتفوق على سكود اختلالاً في ميزان القوى في الشرق الأوسط، خاصة وأن صواريخ سي أس أس2- مجهّزة لحمل رؤوس نووية – الأمر الذي جعل تحرّك بندر التالي ماكراً على نحو خاص. بعد أن سمع أن إيران كانت تبحث عن شراء أسلحة صينية ادّعى الأمير بندر أنه رتّب لقاءً مع وزير الخارجية الأمريكية جورج شولتز. يقول شولتز أنه لا يذكر ذلك اللقاء.

«هل توافقون - يقول بندر أنه سأل شولتز – على أن نذهب نحن إلى الصين ونقدّم لهم عرضاً لا يستطيعون رفضه، وهو أننا سنشتري كل الأسلحة التي كانوا سيبيعونها إلى إيران، ثم نعطيها إلى العراق؟».

في نقاشه لتفاصيل الحصول على الصواريخ الصينية، أعطى فهد أوامره الصارمة لابن أخيه: لا يجب أن يكذب على الأمريكيين بشكل مباشر، وقد شعر بندر أن اقتراحه ينطبق على هذا الشرط. سوف يشعر شولتز أن الأمر مختلف عندما يكتشف ما قام به بندر بالفعل. بعد الحصول على شبه موافقة أمريكية، سافر بندر إلى بكين لشراء صفقة سلاح صغيرة كما هو مقترح، لكنه أيضاً وضع الأساس لصفقة أخرى يحصل بموجبها على صواريخ الريح الشرقية ذات الألف وستمائة ميل والمجهزة بقدرات نووية، هذا بالإضافة إلى منصات الإطلاق والمدربين بقيمة تصل إلى 3 بليون دولار أمريكي.

***

أوكلت مهمة إكمال الصفقة وتركيب الصواريخ بشكل سرّي إلى أخيه غير الشقيق خالد، رئيس الدفاع الجوي السعودي الذي كان قد استمع في جهاز الراديو التابع لطائرته الهيليكوبتر إلى سقوط الطيار الإيراني في بداية حرب الناقلات. تخرّج خالد، الأمير الصلب ذو البنية الجسمانية القوية، من ساندهيرست التي كانت تتميّز بالتدريبات العسكرية المذلّة، ليعود إلى وطنه متخصّصاً في الدفاع الجوي. درس خالد في مدارس الصواريخ الأمريكية ويعرف الكثير عنها وهو الشخص المثالي للقيام بمهمة الريح الشرقية، كما أنه وجد متعة في سرية هذه المهمة —في إحدى زياراته لهونج كونج، وصل نظيره الصيني وهو يحمل شمسية من أوراق الألمنيوم خوفاً من وجود كاميرات

مخفية، حيث فتحوها ورفعوها فوق وثائقهم وهم يتفاوضون همساً.

في السعودية، يجب أن تصل الصواريخ ويتم تركيبها عندما لا يكون هناك مراقبة أمريكية جوية.

«نعرف تواقيت القمر الصناعي»، يتذكّر الأمير. «نحن نعرف الوقت الذي يمرّ فيه».

اختفى الجنود السعوديون الذين سيضطلعون بمهمة الريح الشرقية فجأة، فافترضت عائلاتهم أنه قد تم إرسالهم في مهمات سرّية لمساعدة المجاهدين الأفغان، وهي إشاعة شجعها الأمير خالد. وصل بعض الزوجات المتنفّذات إلى رقم تليفونه الخاص.

«نستحلفك بالله أن تخبرنا عن مصير أزواجنا»، قلن له.

«والله العظيم»، ردّ الأمير عليهن، «أحلف لكن أنهم أحياء – سوف أطلّق زوجتي لو كانوا غير أحياء – أنا أخبركم وزوجتي جالسة بجواري».

كقائد للقوات الجوية، اقترح الأمير أن يتم الكشف عن عملية تركيب الصواريخ عندما تكون جاهزة وعندما ينتهي تدريب العاملين عليها، أي في منتصف عام 1989م تقريباً – الهدف الرئيسي هنا هو أن يعرف الأعداء بجودتها وقوتها فيحجمون عن الهجوم. لكن الأخبار تسرّبت بعد نحو خمسة عشر شهراً عما خُطط له. وبحسب أحد التقارير، قُرِعت أجراس الإنذار

الأمريكية عندما لاحظ محلّل الأقمار الصناعية، بعد دراسته لصور بالغة الأهمية، عن قاعدة صينية للصواريخ مع وجود وفد من الرجال وقد أطلقوا لحاهم[1].

«أسلحة نووية، بحق السماء» انفجر مساعد وزير الخارجية الأمريكي ريتشارد ميرفي وهو يواجه الأمير بندر بن سلطان بصور الأقمار الصناعية. أما جورج شولتز فقد قطع جميع الاتصالات مع الأمير — لم يمض أبداً وقتاً طويلاً مع الأمير بندر في أي موضوع أو قضية. إذا أراد السفير السعودي أن يقول شيئاً فإن عليه أن يتحدث مع موظف استقبال عادي. بعد أن عرف حجم المسألة، رأى وزير الخارجية عدم وجود سبب يجعلهم يصدقون التأكيدات السعودية أنهم دفعوا مبلغاً زائداً من أجل تحوير الصواريخ إلى رؤوس غير نووية. كان الغضب يدور في أروقة البيت الأبيض وحتى الكونجرس.

«مبروك» قالها ريتشارد أرميتاج، مساعد وزير الدفاع، للأمير بندر. «لقد وضعتم أنفسكم هدفاً أولوياً لإسرائيل. لو انفجر بالون في أي مكان في الشرق الأوسط فسيتم ضربكم أولاً».

في العيون الأمريكية، إدخال الرياض لصواريخ الريح الشرقية التي يصل مداها إلى إسرائيل نسخة صغيرة مشابهة لأزمة الصواريخ الكوبية في عام 1962م — فيما عدا أن عملية التهريب قامت بها دولة تدّعي أنها صديق حليف. وحتى كولن باول تخلّى عن رباطة جأشه.

---

1 - ذكر موظف أمريكي يعيش في الرياض توضيحاً مبتذلاً عندما قال إنه تم العثور على القاعدة بالصدفة عندما أخذ دبلوماسي أمريكي شاب صديقته إلى معسكر صحراوي جنوب الرياض.

«لقد قمتم بعمل غبي»، يتذكّر أنه قال لبندر. «يجب أن تأملوا ألا يقوم الاسرائيليون بتفجيرها، لكنني لا أعتقد ذلك لأنكم اشتريتم نظاماً رديئاً».

كان نظام صواريخ الريح الشرقية بطيئاً في التزوّد بالوقود السائل، واشتُهر بعدم دقته؛ ولهذا كان يمثّل خطراً كبيراً عندما يحمل رؤوساً نووية. هذا الصاروخ يعتبر جيّداً لو سقط ميلاً واحداً بعيداً عن هدفه، كما أن هذا الصاروخ من طراز سي أس أس2- نادر الاستخدام مع الرؤوس التقليدية، وقد أظهرت إسرائيل استهزاءها به عندما أرسلت طائرة مهاجمة «لإثارة» المجال الجوي السعودي. طارت هذه الطائرة بشكل منخفض فوق الأرض وأطلقت خزانات وقود فارغة (مكتوب عليها باللغة العبرية) لكي تثبت أنهم يستطيعون إسقاط قنابل حقيقية في الوقت الذي يشاؤون.

أرسل الملك فهد لرونالد ريجان تطميناته الشخصية أن الصواريخ لا تحمل رؤوساً نووية وأنها لن تُستخدم في ضربة أولى ضد إسرائيل، مستخدماً لهجة متواضعة أكثر من تلك التي كان يستخدمها علنياً. لكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تهدأ. عندما ذهب فيليب حبيب، مبعوث ريجان إلى الشرق الأوسط، إلى مقابلة فهد في أبريل 1988 لمناقشة قضايا تخص إسرائيل وفلسطين ولبنان، اصطحب معه هوم هوران، السفير الأمريكي الجديد، الذي أصرّ على مناقشة أمر الصواريخ عندما ينتهي حبيب من مهمّته. يحمل هوران الماجستير في العربية وكان يستخدمها في توضيح رأيه المعارض لكن الملك انفجر غاضباً. رجع السفير إلى واشنطن خلال أسبوع واحد.

القصة المثيرة للفضول خلف طرد هوران هو أن الملك فهد» لم يستسغ

لغته العربية»، وكان ذلك صحيحاً نوعاً ما. لكن مع ذلك، مثل أي شيء يتعلق بصواريخ الريح الشرقية، يظل هذا جزءاً واحداً فقط من القصة الكاملة. كان الحصول على الأسلحة الصينية خيانة خطيرة للعلاقات القوية التي تربط المملكة بأمريكا – لكن بعد أن عاد الوضع إلى طبيعته، استمرت هذه العلاقة المكلومة كما كانت في السابق. أرضى كل شريك حاجات الآخر بشكل أكبر مما يهتم الاثنان بالتصريح به.

واستناداً لما هو معروف حتى اللحظة، بقيت صورايخ الريح الشرقية التي تملكها المملكة العربية السعودية في الخدمة وعلى أهبة الاستعداد حتى يومنا هذا. استمرت الحكومة السعودية في إنكار أن رؤوس الصواريخ كانت نووية.

الفصل الثالث عشر



الجهاديّ السائح

ذهب خالد باحاذق وزوجته إلى بيشاور أولاً، بالقرب من الحدود الأفغانية في إجازة عمل في منتصف الثمانينات. «أردنا أن نعمل مع اللاجئين لمدة أسبوع أو نحو ذلك»، يقول خالد. «عشنا الغزو الروسي كما لو كان شيئاً شخصياً. كان هجوماً على إخواننا المسلمين وأردنا أن نساعد. سهّلت حكومتنا علينا الأمر. كانوا يقدّمون تخفيضات كبيرة على تذاكر السفر. كنت تحتاج فقط إلى رسالة من منظمات الإغاثة حيث كان يوجد العديد من الأصدقاء الذين يعملون فيها».

كان من بين الأصدقاء أسامة بن لادن الذي فتح للتو بيتاً للضيافة في بيشاور سمّاه «بيت الأنصار». في التاريخ الإسلامي، الأنصار هم أولئك المؤيدون الذين استقبلوا محمداً في يثرب وآووه عندما هاجر من مكة. رحّب أسامة بالمتطوّعين الذين جاؤوا إلى باكستان من أجل أعمال الإغاثة لإخوانهم الأفغان. في هذه المرحلة، كان هناك القليل من العرب الذين جاءوا للقتال.

«عندما تكلّم أسامة عن الجهاد في تلك الأيام»، كما يتذكّر خالد باحاذق، «كان يهتم بالبناء أكثر من اهتمامه بالقتال. كان رقيقاً وهادئاً وذا صوت

هادئ بطيء يخرج من صدره. لا تتخيّله أبداً في ساحة المعركة. اعتقدت أنه كان رقيقاً وبعيداً كل البعد عن الحرب. في هذه المرحلة، كان في بداية إحضار معدات شركة المقاولات الخاصة به ليرسلها إلى الحدود لبناء الطرق للمجاهدين. كان شيئاً جميلاً أن تراه مرة أخرى بعد جدّة. تحادثنا طويلاً عن الجهاد وأهمية تطبيق القيم الإسلامية. وجدت ذلك مريحاً جداً أن أكون جزءاً من الجهاد، وقد كان له نفس ذلك الشعور أيضاً.

«لا تنس أن أسامة في تلك الأيام لم يكن شرّيراً، ولم يكن أيضاً معارضاً للسعودية. بل على العكس تماماً. كان بطلاً في مجتمعه يستخدم ثروته للمساعدة في الأعمال الخيرية التي تدعمها الحكومة السعودية – بل والحكومة الأمريكية أيضاً. رأى المسلمون القتال على أنه تقوية للإسلام. أما في الغرب فقد رأوه معركة لإسقاط الشيوعية. في تلك الأيام، الكل كان مشغولاً في إخراج الروس. لا أتذكر أن أحداً نظر إلى الأمام ووجد تعارضاً أو اختلافاً في هذا الأمر».

«أنا وأسامة نصلي جماعةً». كنا أصدقاء وأكثر من الأصدقاء – جاءت عائلتانا كلاهما من اليمن في الماضي. عندما كنا صغاراً كنا نمتطي الخيول ونمارس القفز في مكان مفتوح كنا نملكه. كان أسامة رياضياً دائماً. كان أول شخص على ما أذكر –مسلماً أو غير مسلم– يصرّ على الأكل والشرب الصحّي الطبيعي. بعد نهاية التدريب على ركوب الخيل، كنت أقدّم له عصير فواكه من الثلاجة في منزلنا لكنه كان يرفض ذلك. «هذا يحتوي على مواد حافظة»، كان يقول.

اجتمع بن لادن في بيشاور مع عبدالله عزّام، ذلك الجهادي الفلسطيني المؤثر والذي كان يعرفه في الحرم الجامعي في مكة وجدة. افتتح عزّام شبكته الإغاثية الخاصة به لنصرة أفغانستان لاستقبال المتطوّعين السعوديين وأموالهم تحت اسم مكتب الخدمات. كان يستقبل المتطوعين ويؤويهم بالقرب من البلدة الحدودية ثم يوجههم إلى معسكرات التدريب في أفغانستان وخيبرباس التي تبعد تسعة أميال نحو الغرب.

«كان عزام رجل مبادئ هو الآخر»، يقول باحاذق. «كان أنيقاً ذا لحية بيضاء كثيفة. أحببت اللحظات التي كنت أقضيها معه. كان دائماً مبتسماً — هادئاً، غير متجهّم. قابلته مرة عندما جاء يحاضر في أمريكا في السبعينات. الآن يضع أفكاره موضع التطبيق. كان يساعد المجاهدين على الأرض». يقوم مكتب الخدمات التابع لعزّام بإصدار المنشورات والكتيّبات ومقالات الجرائد لزيادة الدعم العالمي للحرب الأفغانية، وقد كان خالد باحاذق أحد أولئك الذين استجابوا. خلال الثمانينات الميلادية قام باحاذق بما لا يقل عن عشر رحلات من جدة إلى بيشاور — مثل العديد من السعوديين، جهاديون في إجازة.

«أشتري سلاحي عندما أصل إلى الحدود. كان هناك سوق ضخمة للأسلحة خارج بيشاور— البنادق معلّقة في صفوف. كان هناك المئات منها. تستطيع شراء أي سلاح تحلم به، ثم تذهب في طريقك. كنت دائماً أشتري الكلاشينكوف الذي كان ثمنه ألف ريال (أي مائة وخمسون جنيهاً). كنت أستخدمه عندما أكون هناك، ثم أعطيه كهدية لأحد الإخوان من الأفغان عندما

أغادر. بالقرب من الحدود، كان هناك الكثير من الأكشاك التي تبيع الحشيش وأزهار الأفيون – تبدو جميلة من الخارج. لكن هذه ليست للمجاهدين الحقيقيين بأي حال. كنت استأجر سيارة أو أشتريها أحياناً، ثم أبيعها في النهاية عندما أعود إلى وطني. إذا كنت متجهاً نحو المناطق الشمالية الشرقية التي لا تكون فيها الطرق معبّدة، فإنني أحصل على سيارة ذات دفع رباعي، تويوتا أو سيارة جيب».

اشتغل باحاذق كمحاضر في جدة، هذا بالإضافة إلى اشتراكه مع أحد أصهاره في عمل تجاري في مجال التجهيزات الطبية. أخوه كان متفرغاً تماماً للجهاد وهو أحد أعضاء المجموعة الصغيرة المسمّاة «الأفغان العرب» الذين كانوا يحاربون في معركتهم الخاصة مع الروس.

«عندما ذهبت إلى الجبهة، أحسست بسعادة غامرة. كنت أشعر بالهدوء والسلام. الجهاد عمل إلهي وشعرت بقربي من الله. كان إحساسي دائماً – وكان أخي يقول ذلك– أننا كنا ندافع عن أنفسنا. لسنا هناك للقتل، بل للدفاع. كنّا قريبين من بعضنا البعض، نمزح كثيراً كأخوين. كنت أقوم بصناعة دمية بحجم إنسان حقيقي ثم أضع له عمامة لكي تبدو شبيهة بشخص أفغاني، ثم أضعها فوق خندق ليقوم الروس بإطلاق النار عليها. كنا نضحك على ذلك ونسخر كثيراً من بعضنا. كنا نشعر بنوع من السهولة والرصاصات تتطاير فوق رؤوسنا. لو قبضوا علينا كنا نعرف أنهم سيأخذوننا إلى الجنة. أتذكّر إحدى الرحلات في الجبال حيث لم نكن نستقل سيارة جيب، بل كنا نضع الأسلحة على ظهور الحمير ثم حلّ الظلام وشعر الجميع بالبرد القارس. قرّر أحد الشباب أن يسمّي حماره باسم نادية. أرجوك يا نادية. يقول لها: تعالي

إلى الكهف معي من أجل الدفء فقط. أنا لست متزوجاً، وأريد أن أشعر بالدفء في وجودي مع امرأة».

أحضر باحاذق زوجته معه لقضاء الإجازة في مناسبات عدّة، بل إنه أخذها معه إلى منطقة الحرب وإطلاق النار.

«تستطيع أن تقول إذاً إن زوجتي كانت إرهابية أيضاً. كنت أعلمّها في أحد الأيام كيف تستطيع أن ترمي القنابل اليدوية. كنت أمسك بيدي واحدة وأسحب قمعها إلى الخارج بقوّة حتى لا تنفجر. «من ملكك؟» كنت أسألها. هل أنا سيدك على الأرض؟ لو أطلقت هذه، فما سيحدث بعد ثلاث ثوان شيء مريع – أسوأ من الموت. «أرجوك يا خالد»، تقول وهي تتوّسل، «أرجوك، أبعدها عني. نعم أنت سيدي». ثم أرميها بعيداً لتنفجر هناك. «حسناً»، تقول وهي تأخذ قنبلة يدوية بنفسها، ثم تسحب قمعها. لتقول: الآن دعني أخبرك من تكون».

كان يروح ويجيء في إجازات رمضان، وأحياناً يأتي بأطفاله ليتركهم في إحدى الاستراحات في بيشاور، فهذا الجهادي السائح يعرف بشكل واضح من هم المحاربون الجادّون في المعركة ضد الروس.

«كان الأفغان مثل قطيع الماعز في تسلقهم للجبال برشاقة عالية. كانوا بطريقة ما يجدون أنفسهم في مكان عال ليطلقوا النار نحو الأسفل على الروس وهم في دباباتهم. كانوا أقوياء جداً فلا يشعرون بالألم أبداً. أتذكّر أحدهم وقد قُطع أحد أصابعه، كنت أضمّد تلك اليد المجروحة وأضع رباطاً عليها. في

الوقت نفسه، كان ذلك الأفغاني ممسكاً بجهازه اللاسلكي في اليد الأخرى وهو يعطي التعليمات والأوامر. وفي موقف آخر، كنت مع عربي وأفغاني تعرّضا لإطلاق نار. بدأ العربي يتدحرج على الأرض بينما كان الأفغاني ينظر إليه فقط».

***

لعدة سنوات، كان أسامة بن لادن محارباً على ظهر كرسي يتنقّل من وإلى بيشاور للإمداد بالمال والسلاح ومساعدة المجاهدين بأعمال الطرق والإنشاءات من دون أن يشارك الأفغان فعلياً في ساحة المعركة. اعترف لاحقاً بخجله من عدم كونه أكثر شجاعة من هذا- «أطلب العفو من الله»، هكذا كتب في تقاريره التي كانت معدّة لعبدالله عزّام، «أشعر بالذنب».

لكن في عام 1986م بدأ عمله في بناء قاعدة عسكرية، أو معسكر لإيواء العديد من المحاربين العرب بالقرب من قرية جاجي الأفغانية، التي تبعد عشرة أميال من الحدود الباكستانية. كانت تلك نقلة نوعية في حياته، أبقته على اتصال بالحرب الحقيقية. هاجمت الطائرات السوفياتية المعسكر عدة مرات في الصيف التالي وهي تهدر. انبطح الشاب السعودي الطويل هرباً من القصف الذي أمطرته الطائرات الروسية.

«اهتزت الجبال بسبب القصف». كما يصفها هو بنفسه في وقت لاحق. «كانت أصوات الصواريخ التي هبطت خارج المعسكر مدوّية إلى الدرجة التي أسكتت فيها أصوات مدافع المجاهدين كما لو كانت غير موجودة. تذكّر أنك لو استمعت إلى هذه الأصوات لوحدك فقد تقول إنه لا يوجد

هناك صوت أكبر دوياً من هذا الصوت. أما بالنسبة للصواريخ التي نزلت في المعسكر فالحمد لله أنها لم تنفجر، وإنما هبطت إلى الأرض كقطع حديدية مكوّمة. شعرت بالقرب من الله أكثر من أي وقت مضى».

بحسب تقرير بن لادن الدراماتيكي، أسقطت مدافع المجاهدين أربع طائرات سوفياتية.

«رأيت بعينيَّ هاتين بقايا أحد الطيّارين- ثلاثة أصابع، جزء من عضلة، جلد خدّ واحد، رقبته وأجزاء من ظهره. جاء بعض الإخوان من الأفغان لأخذ صورته كما لو كان خروفاً مذبوحاً. احتفلنا بذلك».

وصف أسامة معركة جاجي في حديث له مع الصحفي الشاب جمال خاشقجي الذي كتب عن الأفغان العرب في مجلة «المجلة».

«كان فخوراً جداً». كما يتذكّر خاشقجي، «لقد أطلعني على الكيفية التي استطاع من خلالها الدفاع عن الوادي برمّته من خلال استغلال فرص معيّنة. لا يفكّر الأفغانيون، كما يقول، بهذه الطريقة الاستراتيجية».

مثل خالد باحاذق، كان بن لادن معجباً بشجاعة المحاربين الأفغان. بعكس العرب – وبن لادن نفسه – لا يلتجئ الأفغان إلى الخنادق. كانوا يأخذون مواقعهم على الأرض ويطلقون النار على الملحدين مطمئنين بإيمانهم، ويقبلون الحياة والموت كما هو مقدّر لهم.

«التوكّل على الله هو مصدر قوتنا»، كما يقول بن لادن لخاشقجي. «هذه الخنادق والأنفاق من الأساليب العسكرية التي أمرنا الله أن نستخدمها، لكننا نعتمد كليةً على الله في جميع أمورنا».

شعر أسامة أن حياته وموته في يد الله.

«أصبحت مقتنعاً بحقيقة»، كما كتب لاحقاً، «أنه لن يصيبك أي أذى إلا بإرادة الله».

عندما سقطت قذيفة هاون الروسية تحت أقدامه انتظر قضاء الله وقدره في أن تنفجر وتقتله.

«شعرت بالسكينة»، يقول بن لادن في حديث له مع روبرت فيسك — السكينة في المفهوم الإسلامي هي تلك الحالة العقلية التي تشعر فيها بالبعد عن الجوانب المادية في هذا العالم، وتكون علاقتك فيها مع الله فتشعر بالرضا والراحة والطمأنينة، وغير مهتم بالحياة أو الموت. إنها نفس حالة السموّ التي يصبو إليها الانتحاريون.

«كان حديثاً واضحاً تماماً بالنسبة له»، كما يقول فيسك، «كلحظة مهمة جداً في حياته، لقد سيطر على الخوف، والخوف من الموت. وعندما تصل إلى هذه الحالة، تبدأ باكتشاف أنك ربما كنت تحب الموت...».

***

كانت الهجمات السوفياتية على جاجي تحريراً لأسامة من النار حيث بدأ حياته كمحارب مقدّس أو مجاهد حقيقي. كتبت الصحافة السعودية مشيدةً بأبي عبدالله (الاسم الجهادي لأسامة) وبإخوانه السعوديين الشباب الذين قاتلوا معه، والذين يصل عددهم إلى عشرات الآلاف بحسب إحصائيات وزارة الداخلية للمغادرين إلى مناطق الحرب هناك في الثمانينات. هذا العدد لا يُقارن بالطبع مع 175،000 إلى 250،000 أفغاني يحاربون السوفيات، لكن السعوديين قدّموا دعماً كبيراً (مع أمريكا) في الحرب، وقد وصل هذا الدعم إلى الافتداء بالأرواح. كانت الجثامين العربية تُرسل إلى الوطن في مخازن باردة ومعطّرة بسائل ذي رائحة عطرة، الأمر الذي طمأن الآباء والأمهات وأقنعهم أن أبناءهم قد ماتوا وهم شهداء.

كان إحساساً جديداً وشعوراً بالغاً بالسعادة للعرب الذين يرون أنفسهم وقد أدّوا واجبهم في هذا النصر العسكري. لقد زجّ القادة العرب «التقدّميون» مثل ناصر والسادات الجيوش العربية في حروب ضد إسرائيل ولم يحصلوا إلا على الهزيمة والإهانة. لم يكن للدين أي اعتبار في استراتيجياتهم، لكن النصر الآن قد كُتب لأولئك المخلصين في إسلامهم. استطاعت جماعات صغيرة وبسيطة من المجاهدين إذلال إحدى القوتين العظميين في العالم. لقد رعى الله المؤمنين المقاتلين في الجبال كما كان يرعى الجهاد الداخلي الذي كان يعيد المجتمع السعودي إلى حظيرة العبادة والإيمان.

***

كانت الصحوة تسير بشكل جيد. ازدادت حدة أصوات الدعاة السعوديين في منابر الجمعة في الثمانينات الميلادية. انتشرت الخطب من

خلال وسيلة إعلامية جديدة - التسجيلات الصوتية. أصبحت الشرائط السمعية المستهجنة قديماً بسبب الأغاني الغربية الماجنة رائجة ومرحّباً بها كطريقة لنشر كلمة الله. تُباع الخطب المشهورة بكميات تصل إلى الآلاف من خلال المحلات المنتشرة في الأسواق العامة، جنباً إلى جنب مع قصص السيرة النبوية والإسلام في عهده الأول. كان الشباب المتحمّسون يجمعون هذه الأشرطة ويتبادلونها في ما بينهم كما كان يفعل مماثلوهم من الغربيين الذين كانوا يتبادلون أشرطة مايكل جاكسون. كانت لحظات مثيرة ومليئة بالزخم خاصة وأن هؤلاء الدعاة من فئة الشباب.

***

كان منصور النقيدان، ذو الثمانية عشرة من العمر، من الدعاة الشباب الذين ينتمون إلى مدينة بريدة في منطقة القصيم، معقل الوهابية والتي تبعد أكثر من مئتي ميل شمال الرياض. يرى مشايخ القصيم أنفسهم الدعاة الحقيقيين للدعوة الوهابية حيث يُطلعون الزائرين بفخر على مسجد صغير مخروطي الشكل يشبه خلية نحل كبيرة الحجم مصنوعة من الطين، يقولون إن عبدالوهاب قد مكث فيه مرة واحدة على الأقل عندما جاء إلى القصيم لتنفيذ مهمّته. يعتقدون أنهم الوحيدون في الجزيرة العربية، الذين بقوا مخلصين لدعوة التوحيد الإصلاحية الوهابية.

وليس من الغريب أن ينضم عدد كبير من منطقة القصيم إلى حركة جهيمان في عام 1979م. يتذكر منصور النقيدان زملاءه في المدرسة وهم يتغيبون عن المدرسة في الأيام الأولى من عام 1980 لمشاهدة إعدام جماعة جهيمان، لكنه لم ينضم إليهم بسبب الخوف إذ كان عمره إحدى عشرة سنة.

«تبتعد ساحة الإعدام عن مدرستنا نحو أربعمائة ياردة»، يقول منصور، «لكن لم تستطع أقدامي مساعدتي على الذهاب إلى هناك».

لقد تم تفسير ظاهرة جهيمان لمنصور وأصدقائه بنوع من الشعوذة والسحر.

«كانت يداه مربوطتين خلف ظهره، كما يقول معلمونا، بسبب أنه لو لم تكن كذلك فقد يطير في الفضاء». أصبح جهيمان عند العامة شخصية أسطورية تتمتع بقدرات خارقة إلى الدرجة التي تهدد فيها الأمهات أطفالها أن جهيمان سيأتي ويأخذهم إذا لم يتصرّفوا بشكل جيّد أو لم يخلدوا إلى النوم.

منذ أيام مراهقته كان منصور يفتخر بكونه سلفياً يحفظ القرآن الكريم ويحضر المحاضرات في المسجد وتحوّل إلى فلك الدعاة المتطرفين المحليين الذين ينادون بتكسير التلفزيون لأنه جهاز الشيطان. تأثر منصور بهذه الأفكار إلى الدرجة التي يقوم فيها بسكب الماء خلال ثقوب جهاز التلفزيون العائلي، الطبيعة السلفية المتواضعة وغير الهرمية جذبت بشكل كبير الشباب المراهقين الذين كانوا يبحثون عن قضية ما.

لعبت الفلسفة السلفية أيضاً على وتر الخوف الذي يشعر به الطفل إذ المعلمون في المراكز الصيفية الدينية التي حضرها منصور يزرعون فيهم التصورات الخيالية عن الجنة والنار.

«بعد سماعي لتلك الدروس، كان رأسي يمتلئ بالعقارب والعناكب

الموجودة في النار، وبالملكين اللذين سيأتيان إليّ في قبري لكي يأخذاني إلى النار. كنت أذهب إلى فراشي وأنا أبكي من الخوف».

يتذكر عبدالله ثابت، أحد المجندين السلفيين في عسير في تلك الأيام أنه قد تم أخذه إلى قبره فعلاً.

«كان لدي أحد المرشدين – فكل قادم جديد لديه مرشد واحد. كان يأخذني الناصحون بعد الظلام إلى المقبرة ويأمرونني أن أستلقي في أحد القبور المحفورة للتوّ. كنت أرتجف هناك في الظلام وأنظر إلى النجوم مستمعاً إلى القصص المرعبة عن النار والتعذيب الذي سألقاه إذا لم أجد الطريق الصحيح إلى الله».

كما قدّم هذا المرشد إلى هذا الشاب الحماية الشخصية ضد المخاوف الكبيرة – وهو أسلوب مهم من أساليب التجنيد الإسلامي. في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يكرهون الغرب إلا إن المرشدين يتبنّون أساليب الرعاية الغربية والاهتمام بالصغار ورعايتهم بشكل فردي وتقديم الدعم الذي يحتاجونه والذي يختلف بشكل كبير عن الطريقة السلطوية للأب السعودي الذي يوّزع عاطفته الشخصية بين زوجاته المتعددة وأطفاله الكثر. عرف منصور النقيدان طريقه نحو الله عندما خطت أقدامه نحو المسجد الذي استقبله فيه بحرارة وربت على أكتافه شيخ جليل.

«كان يملك وجهاً أبيض»، يقول منصور، «وهذا تعبير نستخدمه لوصف شخص عندما نعتقد أن إيمانه يضيء وجهه وتعابيره».

هذا الرجل، محمد الصقعبي، مشهور جداً في بريدة باتباعه سنّة الرسول بالمعنى الحرفي حيث كان يعيش في كوخ طيني من دون كهرباء ويرفض ركوب السيارات مستخدماً بدلاً من ذلك الخيل والعربات الخفيفة.

«انظر يابني»، كان يقول لي، «أنا متأكد أنك تذهب إلى المدرسة الحكومية، وأنا هنا لأخبرك أن هذا أسوأ شيء يحدث لك الآن. يجب أن تترك المدرسة وتحضر الكثير من المحاضرات في المسجد. سوف تغضب عائلتك منك. لكنك مخلوق هنا في هذه الأرض لعبادة الله».

كانت عائلة منصور غاضبة جداً كما توقّع الشيخ. بكت أمه وهدّده إخوانه بالضرب وسحبه من ذلك الرجل المجنون الذي وقع في براثنه. لم ينضم الكثير من السعوديين العاديين إلى تيار الصحوة المتطرّف لكن هذا التيار وجد الرضا والدعم من المؤسسة الدينية مثل الجهاد في أفغانستان، حظيت منظماته وجمعياته على الدعم المادي السهل من الأغنياء والأتقياء. لم يكن هناك نقص مادي لطباعة المنشورات والأشرطة السمعية. لم تبد الحكومة أية علامة على عدم تشجيعها لهذا الاتجاه الغامض والقوي للحياة الاجتماعية في المملكة. بل على العكس تماماً، لقد استهجن الملك فهد وجود الشباب «الضائع» في الغرب؛ أي أنه كان يقبل فقط أن يكون الشباب السعودي تقياً، وفي الوقت نفسه كانت التأكيدات الواثقة للأصولية تقدم حلولاً مريحة لهؤلاء الشباب وتزودهم بالطريق الواضح الذي يساعدهم على تجاوز لحظات الارتباك والتشوش التي يعيشونها في المراهقة.

«يبدو الأمر بالنسبة لي»، كما يقول منصور، «أنني قد وقّعت عهداً مع الله

- في أن يبعد عني المخاوف الشخصية والقلق إذا تركت كل شيء ووهبت نفسي له باتباع الطريقة السلفية. تلك كانت الصفقة؛ إذا عشت مثل الرسول سأجد راحة البال. وفي الوقت نفسه بعد عدة سنوات، قد أكون أنا ذلك «الشيخ».

ترك منصور منزله وذهب للعيش مع شيوخ السلفيين، أو «إخوان بريدة»، وهم مجموعة من الأصوليين الذين يعيشون في منطقة خاصة في المدينة - ثلاثمائة عائلة أو يزيدون بمدارسهم ومساجدهم الخاصة. وقد حذّره والده أمام عائلته بشكل صارم أنه سيحمّل تبعات نفسه لو غادر المنزل. لكنه كان يتعاطف بشكل واضح مع اتجاهات ابنه الدينية: اشترى لابنه بشكل سري بعض الكتب وقدم له المساعدة المالية لمدة سنة، حتى توفي. تمكن منصور من العيش في بيت قديم بجانب الإخوان بأجرة ألف وخمسمائة ريال (250دولار) في السنة. «كان بيتاً طينياً»، كما يقول. أطلق لحيته وقصّر من ثوبه. تلقّى العلم ودرس على يد السلفيين المحليين ومرشديه الذين شجعوه على بداية التدريس والدعوة بنفسه — وبعد سنة أو نحو ذلك بدأ في إصدار الفتاوى.

أصدر منصور فتواه الأولى عندما كان في سن الثامنة عشرة والتي قال فيها بعدم جواز الاحتفال وتهنئة الشباب الذين أكملوا حفظ القرآن أو بعض أجزائه. لم يرد في القرآن أو السنّة مايدل على أن الرسول كان يقوم بذلك، كما يقول منصور.

بعد اطلاعهم على جرأة الشاب منصور، قام مشايخ الحكومة بالتبليغ

عن منصور في الديوان الملكي بالرياض، وخلال أيام قبض رجال المباحث عليه وأخذوه إلى سجن الحائر جنوب الرياض.

«بكيت – كنت خائفاً»، كما يقول. «اعتقدت أنهم سوف يعدمونني».

لكن بعد أن وجد الشاب ذو الثمانية عشر ربيعاً نفسه وقد أُخلي سبيله بعد أسبوعين، استمر في حملته ضد ما أسماه نفاق المؤسسة الوهابية. بعد سنة، أي في عام 1989م أصدر فتوى يدين فيها كأس العالم للشباب لكرة القدم، الذي أقيم في السعودية. كرة القدم حرام، في رأيه، كما هو الحال في العديد من الرياضات الأخرى، كما أنه لا يجوز أن يكون هناك مجموعة من الكفار يتنافسون على الأرض المقدّسة. رجع منصور مرة أخرى إلى خلف القضبان، لكنه هذه المرة في سجن عليشة بالرياض. بعد خمسة وخمسين يوماً وقّع الورقة النموذجية التي أعدّتها المباحث والتي يتعهد فيها أن يكون مواطناً سعودياً صالحاً وعدم إزعاج ولي الأمر – أي قيادة البلاد المسؤولة. عندما رجع إلى بريدة اكتشف أن أتباعه ومريديه قد زاد عددهم أكثر من أي وقت مضى.

***

ومع اقتراب نهاية الثمانينات، كانت الصحوة الإسلامية السعودية تزداد قوة إلى قوتها حيث استغلّت حالة عدم الرضا المنتشرة في المجتمع، وفي الوقت نفسه استطاعت استقطاب الشباب العاطلين الذين كانوا يبحثون عن هدف. هذا بالإضافة إلى النصر الكبير الذي أحرزه جناح الصحوة العسكري في أفغانستان. في عام 1988م بدأ الروس بالانسحاب، وفي فبراير 1989م أعلن الاتحاد السوفياتي أن آخر جندي من جنوده قد غادر البلاد.

كانت هزيمة غير عادية – فيتنام روسيا المهينة، كما تمنّاها التحالف السعودي الأمريكي. لكن المنتصرين فسّروا جذورها وأسبابها بطرق مختلفة. خلال أشهر بعد تلك الهزيمة احتفل الغرب بالانهيار غير المتوقع للامبراطورية السوفياتية برمّتها. رقص الأوروبيون على جدار برلين، أما التفاصيل الدقيقة حول كيف وبواسطة مَنْ تم إنجاز هذا النصر الأفغاني فقد اختفت تماماً في انتصار الحرب الباردة وأسبابها المعروفة لهم – الأعمال الحرّة، الرأسمالية، وقوة الردع.

لكن السعوديين يتذكّرون دائماً دعواتهم في الاجتماعات المدرسية، وحرّكوا كثيراً من صناديق التبرّعات، وأرسلوا الأبطال الشباب من ذوي اللحى إلى الجهاد. كانت الصور واللقطات التلفزيونية للمحاربين وهم يحملون أحزمتهم الممتلئة بالرصاص فوق الجبال رائعة جداً وجذّابة. أفغانستان هي معركتهم المنتصرة – وكان ذلك كلّه يعود إلى الدعم المادي الكبير الذي أغدقته الحكومة السعودية عليهم عن طريق باكستان، بالإضافة إلى المال الذي توّفر لهم عن طريق الدعم الخيري أو الخاص.

يتذكّر خالد باطرفي الاجتماعات الاحتفالية التي أقيمت في أفخم بيوت جدة حيث البوفيهات الفاخرة وصواني العصير الطازج وضيف الشرف الكبير أسامة بن لادن الذي كان يطوف على محتضنيه ومقبّليه، كان الشاب، والذي كان في الثانية والثلاثين من عمره في مارس 1989م، مازال يحتفظ بالهدوء والرقة التي كانت من خصاله الدائمة، لكنه كان في الواقع يجمع نفسه باتجاه هدفه المقدّر له. بعد وجبة الطعام، أطبق الصمت على المكان للاستماع إلى المجاهد المنتصر وهو يسرد قصص الكهوف والجبال والمعارك المنتصرة

والأصحاب الشجعان الذين لم يرجعوا. لكنهم الآن بالطبع في رعاية الله مع الشهداء في الجنة – «الحمدلله»، كانت هذه الكلمة التي يتردد صداها في المكان.

طُلب من المحارب الحديث قليلاً عن المستقبل فجاء بقراءة غير عادية، وتنبؤ كان ثمرة لقراءته لنتائج الحرب العراقية الإيرانية التي انتهت للتو. قاتل الطرفان طويلاً دون أن ترجح كفة على الأخرى. لكن الآن، كما يحذّر أسامة، يملك صدام جيشاً ضخماً، مئات الآلاف من الشباب حيث لا عمل لهم في أوقات السلم. شعر الديكتاتور العراقي بالإهانة عند انحدار أسعار النفط وتبخّر المال بين يديه. لم يعترف بالجميل تجاه الدول التي قدّمت له الدعم والمساندة بل كان غاضباً وممتلئاً باللوم لهم. بعد انتهائه من إيران، كان لا بد له من البحث عن هدف جديد.

الباب الثاني

المملكة في ساحة الحرب

1990 – 2000م (1411 – 1422هـ)



العلاقة بين العرش والكنيسة وطيدة جداً إلى الدرجة التي يندر فيها أن تقف الكنيسة في صف الشعب.

إدوارد جيبون، تاريخ نهاية وسقوط الإمبراطورية الرومانية

الفصل الرابع عشر



عاصفة الصحراء

«كان الوقت ليلة الأربعاء، والساعات تتجه نحو صباح الخميس»، كما يتذكر أحمد باديب الذي تلقى اتصالاً في تلك الساعات من مدير مكتب الاستخبارات السعودي في الكويت. «أخبرني أنه كان على سطح مكتبه مع منظاره التلسكوبي- لقد عبر العراقيون الحدود وهو يشاهدهم. كانوا متوجهين إلى المدينة بسياراتهم المصفحة والدبابات».

أنزلت طائرات الهيلكوبتر قواتٍ خاصة في المدينة يقوم بتوجيهها رجال على الأرض يلوّحون بالمصابيح- وقد كان هؤلاء مجموعة من المراقبين الجويين العراقيين، كما اكتُشف لاحقاً، والذين جاؤوا إلى الكويت متظاهرين بأنهم فريق لكرة القدم.

اتصل باديب بالملك فهد والذي كان على ظهر يخته في البحر الأحمر.

«هراء، يا أحمد»، سخر الملك، «أنت تؤلف ذلك. كنت قبل خمس دقائق مع أمير الكويت على الهاتف».

لكن فهد اتصل بالسفير السعودي، وكان باديب على الخط والسفير يصعد إلى الدرج ليخبر الملك من فوق سطحه.

«لا يوجد شيء، طال عمرك. لا أرى شيئاً. انتظر لحظة - والله! أنا مخطىء! أستطيع سماع الرصاص!».

«اهرب حالاً!»، سمع باديب الملك وهو يصرخ، «جهّز السيارات. اخرج فوراً من هناك».

***

«أبناء الخليج العربي» جاء بيان حزين بلا مصدر عبر موجات إذاعة الكويت التي التقطتها هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) ذلك الصباح: «رجال درع الصحراء... دولة خليجية تطلب مساعدتكم. كيف يقوم عربيّ باحتلال أرض أخيه العربي؟... كويت العروبة التي لم تتخلّ أبداً عن واجبها العربي، اليوم تستنجد الضمير العربي في كل مكان. الله فوق المعتدي...».

وعند تلك اللحظة التي انتهت بالأمل، لم يستطع مراقبو هيئة الإذاعة البريطانية التقاط أي شيء آخر.

***

بعد ساعات قليلة، تم إيقاظ الأمير محمد بن فهد في الخبر عن طريق مكالمة من قائد النقطة الحدودية في الخفجي بين السعودية والكويت- أمير الكويت استقلّ سيارته نحو هذا المكان ويريد الحديث معه.

في الواقع، كان أمير الكويت يريد التحدث مع والد محمد، الملك، لكن لا أحد يعرف رقمه في جدة. لمدة ساعتين والملك فهد وابنه يحاولان إقناع الأمير جابر، ذلك الرجل الخائف الحزين، بعدم الانتظار على الحدود والتوجّه فوراً إلى الظهران. في النهاية طلب فهد من ابنه أن يتجه إلى هناك لكي يأخذه.

«لم يرغب أمير الكويت في مغادرة الحدود»، كما يتذكّر. ظل ينظر إلى الخلف نحو دولته وهو يحاول الاتصال بمدينة الكويت لمعرفة ما يجري هناك.

كان فهد يتصل بابنه كل نصف ساعة.

«يجب أن تأخذه إلى الجنوب»، أخبر ابنه، «ليس الوضع آمناً. يجب أن تتحرك الآن».

. أقنع الأمير محمد بن فهد جابر بمغادرة الحدود. اتجه الأمير بسيارته مصطحباً الأمير الذي أصبح بلا دولة الآن وأوصله إلى الدمام بعد الظهر.

***

إذا كان صدام قد فاجأ السعوديين، فإن المفاجأة الأخرى هي ردود الفعل التي أظهرتها الدول التي تُعتبر صديقة، وخاصة زبونهم الكبير الذي يقف على هرم دعمهم المالي، ياسر عرفات، الذي اتجه نحو العراق. بحسب أحد التقارير، قدمت الحكومة السعودية ما مقداره بليون دولار أو أكثر لمنظمة التحرير الفلسطينية خلال عقد الثمانينات فقط. ثم، وحتى الآن ما زالت

المملكة العربية السعودية أكبر داعم مالي للفلسطينيين.

«رأينا الفلسطينيين يردّدون الشعارات ضدّنا في التلفزيون»، كما تتذكّر الأميرة لطيفة بنت مساعد. «لم أستطع تصديق ما كانوا يردّدونه، يجب أن تقتلهم بالسلاح الكيميائي يا صدام. كنت غاضبةً جداً. كنت أتبرع بالمال لدعم الفلسطينيين المضطهدين كل شهر. وكذلك فعل أصدقائي. كانت مساعدة الفلسطينيين من الأشياء الجيّدة التي قام بها السعوديون».

أيضاً، اتخذ الملك حسين، ملك الأردن، موقفاً مسانداً للغزو العراقي قائلاً لشبكة (سي أن أن) إنه يمكن غض الطرف والسماح لصدام بالتهام الكويت لأن الإمارة الصغيرة كما يقول، كانت «قصة استعمارية بريطانية». كان ذلك أمراً مضحكاً من رجل اخترع البريطانيون له ولعائلته قبل جيلين مملكة ما وراء الأردن، لكن يبدو أن حسيناً قد نسي ذلك الجزء من التاريخ الهاشمي.

«حتى لو لم أكن ملكاً، فسأظل الشريف (من نسل الرسول)»، كما قال لحشد من البرلمانيين ورؤساء القبائل الأردنيين، وهو هنا يشير إلى اللقب الذي حمله أجداده الذين حكموا مكة قبل سبعة قرون من الحكم السعودي، «الآن تستطيعون أن تنادوني بالشريف».

ولتأكيد ادعائه بحكم الأرض السعودية، أطلق الملك في هذا الوقت لحيته لكي يبدو تماماً مثل والد جده الشريف حسين ابن علي آخر الأشراف الذين حكموا الحجاز، الذي جمع ذهبه وهرب من جدة في عام 1924

عندما اقتربت الجيوش السعودية منها. بعد ست وستين سنة، يبدو أن الحفيد مستعد للعودة إلى هناك.

أعاد التلفزيون اليمني رسم خريطة النشرة الجوية متقدّماً مئات الأميال نحو الشمال وذلك بتكوين مناطق شاسعة تابعة للسعودية بالألوان اليمنية. عبرت الحواجز الإلكترونية الجزيرة العربية حتى وصلت جنوب الرياض. وعندما أزالت الحكومة السعودية المميّزات العديدة للعمّال اليمنيين في المملكة خرج اليمنيون منها وهم يتغنّون طرباً.

«سنعود»، قالتها مجموعة من العمّال اليمنيين وهم يضحكون في وجوه السعوديين الذين وظفوهم، «وعندما نعود، سوف نحتّل بيوتكم».

«كانت تلك ثورة المعدمين الذين كانوا يحتقرون ثروة السعوديين وتميّزهم. الآن، أظهروا عواطفهم الحقيقية. فقط الآن، نأت ليبيا، تونس، السودان، الجزائر، موريتانيا، وحتى الحكومة الأفغانية، التي تم تنصيبها مؤخراً في كابول بمساعدة المال السعودي، نأت بنفسها بعيداً عن المملكة العربية السعودية. وقد أظهر شريط مسجّل تم تسريبه من القمة العربية الطارئة لمناقشة الأزمة، أظهر القادة العرب وهم يتبادلون الشتائم عبر الطاولة[1]. لم

---

1 - في القمة الطارئة للجامعة العربية التي عقدت في 9 أغسطس 1990، وجد القرار الذي يشجب صدام ويأمر بإرسال قوات عربية لتحرير الكويت الرفض من العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية، وقد امتنع عن التصويت كل من الجزائر واليمن وأعلنت الأردن والسودان وموريتانيا تحفظاتها، بينما لم تحضر تونس القمّة. أما الدول الاثنتا عشرة التي صوّتت لصالح القرار فهي البحرين، وجيبوتي، ومصر، والكويت، ولبنان، والمغرب، وعمان، وقطر، والسعودية، والصومال، وسوريا، والإمارات العربية المتحدة.

يكشف صدّام عن الاتجاه الذي سيأخذه بعد أن ابتلع الكويت، لكن لا يبدو أن أصدقاءه الجدد سيعترضون أبداً لو جازف وادّعى امتلاكه وتقدّم نحو حقول النفط في المملكة.

***

لم يصّرح فهد أبداً بشيء للرأي العام- كان الملك خلف الكواليس على الهاتف بشكل مستمر مع حلفائه، وخاصة الرئيس المصري حسني مبارك الذي استلم، مثل الملك فهد، تأكيدات صدام الشخصية بأنه لن يغزو الكويت. شعر الرئيس المصري، مثل الملك فهد، بأنه تعرّض للخداع المرّ. لكن الملك فهد أخفى رأيه عن الآخرين. وبعد مرور الأيام، بدا ممكناً لبعض المراقبين أن السعودية كانت تخطط لقبول الاحتلال العراقي في صفقة غامضة يمكن تغطيتها بالمحبة والأخوّة العربية. «فهد الصحراء خائف»، كانوا يتغامزون.

«مطلقاً». كما يقول أحد مستشاريه، «لم يرغب أن يُظهر يده مبكراً جداً. كان هذا تكتيكاً استلهمه من لعبة البوكر. لم يُصدر فهد أي قرار من دون أن يحصل على إجماع حوله- جميع إخوانه، الوزراء الرئيسيين، العسكريين، القبائل، والعلماء».

العلماء في الدرجة الأولى. تحدّث بالطبع مع العسكريين بحكم أن حدوده تواجه تهديداً عسكرياً، لكن مكالماته المهمّة كانت مع المؤسسة الدينية، ومع عبد العزيز بن باز على وجه خاص. هل سيدعمه العلماء- سأل الملك- إذا طلب من أمريكا المساعدة العسكرية؟ الإجابة العاجلة والمجمع

عليها هي «لا». التقليد الوهابي الذي كان يحمله في الماضي «ابن نمر» وابن باز نفسه عندما كان قاضياً في الخرج هو البعد تماماً عن الكفّار: «لا يجتمع دينان في الجزيرة العربية». كان هذا الحديث المعروف أهم ما يستشهد به المتطرفون في منع الكفار من التواجد في المملكة. هناك العديد من المؤمنين الحقيقيين في بريدة وعنيزة سيسلكون طريقاً آخر لو رأوا أجنبياً في طريقهم. هؤلاء القوم المخدّرون والخائفون يمثّلون الجذور الأساسية للمجتمع السعودي المتديّن، وكانوا يرون أنه قد حان للمشايخ العلماء أن يتكلموا.

استمر فهد في محاولاته مجنّداً أخويه سلمان ونايف، اللذين يتمتعان بسمعة جيدة بين العلماء. يتمتع جميع الأمراء الكبار بعلاقات قوية مع العلماء، وخاصة ابن باز، إذ البعض منهم يزوره في بيته طلباً لإرشاده الروحي. يستمتع بعض الأمراء بالجلوس في مجلس ابن باز لمشاهدة الشيخ الأعمى وهو يلقي دروسه عندما يقرأ طلابه مقاطع من القرآن الكريم أو الكتب الإسلامية ثم يقومون بكتابة الحكمة التي ينطق بها الرجل العظيم في نهاية كل فقرة.

كان منزل العالم هذا عبارة عن مجموعة من العمارات الحديثة ذات طابقين يعيش بها مع زوجاته في حي البديعة بالرياض. كانت هذه المنطقة حياً ملكياً إذ إن طلال بن عبد العزيز وأمراء آخرين يملكون قصوراً بالقرب منه. وفي الواقع، كان هذا المجمّع هدية لابن باز من العائلة المالكة. هذا لا يعني أن في الأمر رشوة ما، إذ إن جميع العلماء السعوديين الكبار كانوا يعيشون في بيوت جاءت كهدايا من المحسنين الأغنياء. كما أن ذلك يذكّرنا أيضاً بحقيقة التحالف الوهابي الملكي. يحتاج آل سعود للعلماء الوهابيين لإضفاء الشرعية على حكمهم لكن العلماء بدورهم، يعتمدون في الوقت نفسه على

آل سعود. لا تتمتع الشخصيات الدينية الكبيرة في الدول العربية والإسلامية الأخرى بنفس المراكز والقرب من مراكز السلطة في الحكومة كما يتمتع بها العلماء في السعودية. لن تكون هناك سيارات كثيرة ومنازل مترفة للعلماء لو أن صدّام واصل سيره نحو الرياض. استمر النقاش الساخن عدة أيام، لكن فهد كان واثقاً بمجرد بداية النقاش أن كلمة «لا» لن تستمر طويلاً.

«الحمد لله رب العالمين»، جاء الإعلان المنتظر في النهاية في 13 أغسطس 1990. اطّلع مجلس هيئة كبار العلماء على الحشود الضخمة على حدود المملكة وعلى الاعتداء الغاشم من العراق على دولة جارة... أدّى هذا الأمر بقادة المملكة... لطلب المساعدة من الدول العربية وغير العربية في درء هذا الخطر المتوقع. «كان من واجب ولي أمر المسلمين»، كما يقول البيان، «أن يتخذ جميع الوسائل التي تحول دون هذا الاعتداء الغاشم الشرير.. لهذا فإن المجلس يدعم جميع التدابير والإجراءات التي يتخذها ولي الأمر».

كان بالكاد تصريحاً بالموافقة، لكنه كان كافياً. في الوقت ذاته، كان الملك السعودي يتحدث مع واشنطن. في يوم السبت، 4 أغسطس، تلقّى الجنرال نورمان شوارزكوف مكالمة هاتفية من رئيسه كولن باول، رئيس الأركان.

«يريد الملك فهد أن نقدّم له تقريراً عن التهديد الذي تتعرّض له مملكته»، يقول باول. «عندما تصل إلى هناك، يجب أن يكون ذلك في أذنه».

«هل قالت الحكومة الأمريكية إننا مستعدون لإرسال القوات؟»، سأله شوارزكوف.

«نعم»، ردّ عليه باول، «إذا سمح لنا الملك فهد».

***

كان الملك السعودي بجسمه الضخم ينتظر الأمريكيين في الزاوية اليسرى لمجلسه في قصر جدة بجانب البحر الأحمر، وبجانبه في الغرفة الفاخرة الذهبية والخضراء يجلس الأمراء - عبدالله، سعود الفيصل وزير الخارجية، بندر بن سلطان الذي جاء بنفسه من واشنطن، عبدالرحمن، نائب وزير الدفاع سلطان وأخوه الشقيق من أمهم السديرية، وكلهم كانوا يلبسون الثياب والغتر بلحى وشوارب سوداء. وفي الجانب الآخر كان يجلس الموظفون الأمريكيون الذين كانوا يلبسون القمصان وربطات العنق والبدلات الغربية وكانوا جميعاً حليقي اللحى- وزير الدفاع ديك تشيني، مسؤول التخطيط الاستراتيجي في البنتاغون بول وولفوفتز، نائب مستشار الأمن القومي روبرت جيتس (الذي أصبح لاحقاً وزير الدفاع في عهدي جورج بوش الابن وباراك أوباما) ، والسفير تشاس فريمان، هذا بالإضافة إلى الوفد العسكري الذي كان يلبس الزي المزيّن بالأنواط والأوسمة العسكرية.

تقدّم شوارزكوف إلى الأمام وهو يحمل الجداول والصور الجويّة، وحيث إنه لم يكن هناك أي مقعد خال، جلس على ركبة واحدة أمام الملك لكي يبدأ تقريره.

نادى فهد للخادم مُحرجاً لإحضار كرسي، فجلس الجنرال ذو الأربعة نجوم ومواد عرضه في حضنه، بينما كان الملك فهد ينظر فوق أحد كتفيه وولي العهد الأمير عبد الله ينظر فوق الكتف الآخر.

«اعتقدت»، يقول شوارزكوف، «أنهم سيستمعون إلى تقريري بشكل مهذّب، ثم يذهبون بعيداً عنّا لمناقشة الأمر بينهم».

في الواقع، وجد نفسه في منتصف نقاش حي باللغة العربية، تُرجم منه أشياء قليلة إلى الإنجليزية بواسطة الأمير بندر. أظهرت الصور الأمريكية، التي التُقطت قبل أيام عن طريق طائرات الاستطلاع والأقمار الصناعية، أن السيارات المصفّحة والجيش العراقي قد عبروا الصحراء على طول الحدود السعودية وقد دخلت فعلاً مجموعة من الدبابات - ليس أكثر من خمس- المناطق السعودية. ظن شوارزكوف أن هذا الدخول لم يكن متعمّداً. لم تكن الحدود السعودية الكويتية مرسومة على الأرض في ذلك الوقت. لكن فهداً أخذها على محمل الجّد.

«حتى ولو كانت واحدة!» قال الملك بغضب، «ما دام أنها دخلت الأراضي السعودية».

قال شوارزكوف بلا اهتمام إن أمريكا لا تملك استخبارات داخلية يمكنها الكشف عن نوايا العراق- وهو الآن يجيب على نظرية المؤامرة لدى العرب في أن الولايات المتحدة قامت بتلفيق الصور الجوية لتوضيح أن التهديد كان أكبر مما كان في الواقع.

«كانت صوراً اعتيادية مباشرة، واضحة وصافية، ومأخوذة في وضح النهار، لكنها لا تعطي صورة مؤكدة. لو أننا قمنا بتلفيقها لكانت أفضل بكثير مما هي عليه في الواقع. أوضحت أننا نستطيع أن نقوم باستنتاج منطقي من الحقائق

على الأرض: هذه كما تبدو أفضل الوحدات في الجيش العراقي. كانت واقفة تستعد للتسليح، وتعبئة الوقود، والتجهيز على الطريقة التي تعلموها من معلميهم السوفيات. لقد رأيناها تعيد تجميع نفسها خلال الحرب العراقية الإيرانية. قد تكون مستعدّة للهجوم أو قد لا تكون. لكنها أبداً لم تكن في وضع دفاعي. كانت الدبابات باتجاه الجنوب».

أنهى شوارزكوف عرضه قائلاً إن القوات الأمريكية قادرة على حماية المملكة. ثم أعطى المجال لتشيني لكي يقول الكلمة الأخيرة. الرئيس بوش مستعد للقيام بهذه المهمّة العسكرية فوراً. قال وزير الدفاع، «إذا طلبت منا المجيء فسنأتي. وعندما تطلب منّا المغادرة إلى بلادنا فسنرحل، لن نطلب قواعد دائمة».

هنا جاءت اللحظة التي توقّع فيها شوارزكوف أن يقوم السعوديون بمداولاتهم الخاصة بعيداً عنهم. لكن الأمراء استمروا بالمناقشة في ما بينهم بشكل مختصر أمام زوارهم – وجاءت اللحظة الحاسمة عند تبادل الحديث بين فهد وعبد الله.

«يجب أن نكون حذرين في عدم الاستعجال باتخاذ القرار»، قال ولي العهد.

«مثل الكويتيين» ردّ عليه فهد بشكل ساخر، «لم يستعجلوا في اتخاذ القرار والآن لم يعد هناك شيء اسمه الكويت».

«ما زال هناك كويت»، أصر عبد الله.

«ومناطقها»، ردّ عليه فهد، «تتألف من غرف فنادق في لندن والقاهرة وغيرها من الأماكن».

استسلم هنا الأمير عبد الله، وأعطى الأمراء الموجودون للملك موافقتهم، ثم التفت الملك إلى تشيني وتكلم بكلمته الأولى والوحيدة باللغة الإنجليزية، «أوكي» قال الملك.

***

خلال أيام قلائل، بدأت الطائرات الأمريكية والجنود بالوصول إلى مطارات وقواعد المملكة العربية السعودية في كل زاوية من زوايا المملكة. قاعدة شوارزكوف ببساطة هي خمسة جنود أمريكيين على الأرض مقابل جندي عراقي واحد، وفي نهاية سبتمبر وجد الآلاف من الأمريكيين الشباب أنفسهم يقودون سيارات الجيب في شوارع وطرقات الشرقية. المشكلة أن عدداً لا بأس به من هؤلاء كنّ من النساء - مجموعة من العسكريات الشابات الفاتنات وهن يقدن عرباتهن كما لو كن في شمال كارولينا. أطلق هذا المنظر جرس الإنذار في وزارة الدفاع السعودية التي طلبت بعد محادثات مع شوارزكوف أن تحصر تنقّلات هؤلاء السيدات الأمريكيات داخل المعسكرات الأمريكية، أو مجمعات أرامكو، أو في الصحراء (حيث البدويات يحق لهن قيادة السيارات هناك أيضاً).

لكن هذا الأمر لا ينطبق على آلاف النساء الكويتيات اللاتي وصلن موخراً إلى المملكة وأخذن بالتنقّل بسياراتهن إلى الأسواق- إذ يمكن رؤيتهن كل يوم في الخبر وباقي المدن النفطية الأخرى وهن يحملن

أغراضهن التموينية من وإلى الشواطئ الساحلية. لم يكن هناك قانون يحظر قيادة السيارات بالنسبة للسيدات. ولا يوجد حتى هذه اللحظة - إذ إن قانون حظر قيادة السيارات بالنسبة للسيدات هو اتجاه اجتماعي شجّعته الضغوط الدينية الشديدة لذا، فإن بعض النساء السعوديات بدأن يتساءلن كثيراً بتفكير عميق عندما شاهدن أخواتهن الكويتيات.

تنحدر الدكتورة عائشة المانع من عائلة دينية محافظة من جهة أمها - «كلهم أئمة وذوو لحى كثيفة»، كما تقول. أبوها هو محمد المانع، الأخ المصاحب لعبد العزيز والمتعلم والمترجم له والذي رصد في مذكراته، «الجزيرة العربية موحّدة»، أجواء الرياض الجميلة قبل مجيء الثروة النفطية.

«والدي»، تقول عائشة، «دائماً ما يحذّرني من الانضمام إلى أحزاب أو فصائل، سواءً إلى اليمين أو اليسار. كوني نفسك، كما يقول لي دائماً».

تمثّلت عائشة بكلمات والدها وطبّقتها من كل قلبها. عندما كانت طالبة وناشطة سياسية في أمريكا خسرت معركة ضد مرشحين إسلاميين للظفر بقيادة الاتحادات العربية الطلابية في السبعينات.

«في تلك الأيام، كانت الحكومة الأمريكية تشجّع المتشدّدين الإسلاميين كأحزاب معارضة للقوميين العرب»، تقول عائشة، «مازلت أتذكّر الدعم المادي الذي قدّمته وزارة الخارجية للطلاّب المتشدّدين - العرب والإيرانيين. كانوا يقدّمون لهم تذاكر سفر لحضور المؤتمرات وتنظيم نشاطاتهم. رأيت ذلك بنفسي. كانوا يعتقدون أنهم يحاربون الشيوعية- ثم انتبهوا بعد ذلك

إلى الخميني. كل ذلك انتهى إلى الإسلاموية. لا علاقة لهم بالدين: إنما هي السياسة، وكان الأمريكيون هم من خلق هؤلاء المتعصّبين. كانوا يستخدمون الدين مطية. هؤلاء الذين ولدوا من جديد، سواء في إيران أو في المملكة العربية السعودية، بل وحتى في الولايات الجنوبية من أمريكا: كانوا كلهم يجرون خلف أهدافهم الذاتية».

وجدت الدكتورة المانع المشاكل مع وزارة الداخلية عندما عبّرت عن هذه الأفكار بصراحة. عملها كمديرة مدرسة وكمحاضرة وناشطة في حقوق المرأة في الرياض والمنطقة الشرقية جلب لها الدعوات للمشاركة في مؤتمرات خارجية – لكن المباحث كان لها رأي آخر.

«يستدعونك إليهم ويطلبون منك أن توقّع تعهدّاً تلتزم فيه بعدم تكرار ما قلته من كلام لا يعجبهم. لكنك تعاود الحديث مرة أخرى. أو تكتب مقالاً ثم تذهب للمطار لتكتشف شيئاً في جهاز الكومبيوتر يمنعك من المغادرة. وأنت هناك بالمطار مع حقائب سفرك تضطر إلى العودة إلى المنزل من جديد. ثم بعد سنة تقريباً، تسمع من صديق قد تم منعه من السفر أنه قد سُمِح له بالذهاب. لذا، تحاول أنت مجدداً لتجد أنك هذه المرة تستطيع أن تعبر الحاجز. لا يخبرونك بشيء رسمي. يذوب الحظر من السفر تلقائياً – ليعود مرة أخرى عندما تزعجهم تصرفاتك».

تم حظر عائشة المانع، هذه السيدة الزوجة والأم ومديرة المدرسة والناشطة، من السفر بمثل هذه الطريقة في أربع مناسبات، وقد وجدت هذه المعركة مرهقةً تماماً لها.

«كنت أطالب بحقوق المرأة منذ أن وعيت الأمر. كنت أرفض لبس العباءة. اعتقدت أنني أستطيع تغيير العالم بمفردي».

أشعلت الحرب نيران عائشة. كان ذلك يوم الجمعة، 19 أكتوبر 1990، عندما كانت مسافرة داخلياً من الخبر ومتجهة بالسيارة إلى الرياض، بينما كانت السيارات المصفحة الأمريكية وناقلات الجنود الصحراوية تسير في كل اتجاه حول سيارتها.

«أعرف أن هذه الحرب قد بدأت بواسطة الحكّام، وليس بواسطة الشعب - فقط الشعب هو من يعاني- لذا عندما رأيت المواكب الأمريكية الضخمة تسير في كل اتجاه أدركت أنهم لم يأتوا إلى هنا من أجلي، أو من أجل شعبي، أو من أجل حكومتي. كم هو سخيف أن يصدّق أن هؤلاء قد عبروا نصف الكرة الأرضية لحمايتي! جاؤوا لحماية مصالحهم- لأنهم لا يريدون أن يتحكمّ صدام بنفطهم. جعلني ذلك أشعر بالأسى. يتخذ أناس بعيدون في مكان ما القرارات التي تخصني. ثم فكّرت للحظة، لماذا لا يكون لي رأي في هذا الأمر؟ هناك شيء أستطيع القيام به».

طلبت عائشة من سائقها أن يتوقّف، وأن ينزل من السيارة ويجلس في المقعد الخلفي. ثم ذهبت إلى مقدمة السيارة، وجلست خلف مقود السيارة وقادت سيارتها باتجاه الرياض - أي مسافة مائتي ميل تقريباً. تعلّمت عائشة قيادة السيارة عندما كانت طالبة في أمريكا، مثل العديد من النساء السعوديات، وكانت معتادة على القيادة عندما تكون في الخارج.

«كان إحساساً مدهشاً. شعرت كما لو كنت أطير في الفضاء. وعندما أتيت نقطة تفتيش في الطريق، سأل الجنود، «ما الذي يجري؟» أخبرتهم، «الذي يجري الآن هو ما ترونه». ضحكت وأعطيتهم بطاقتي الشخصية، ثم ضحكوا. «هذا كل ما نريده»، قال أحدهم. كانوا من البدو فلم يُصدموا كثيراً لأنه سبق لهم رؤية النساء يقدن السيارات. قد تكون إحدى زوجاتهم تقود سيارة النقل بالعائلة في مكان ما في الهضاب والتلال في تلك اللحظة، كلنا يعرف ذلك. ابتسمت لهم وابتسموا لي وسمحوا لي بالمرور. كنا جميعاً سعداء».

***

عندما وصلت عائشة المانع إلى الرياض، أخبرت قصتها المدهشة لمجموعة من النساء اللاتي اجتمعن لمناقشة ما يمكن عمله لمساعدة الوطن في هذه الظروف الطارئة.

«طلبوا مني الانضمام لهن. كلنا كنا نريد تقديم المساعدة - الإسعافات الأولية - ربما، لو كان هناك قنابل وصواريخ. كنّا نريد أن نفعل شيئاً. لكن الكثير منّا كان عاجزاً عن تقديم أي شيء. ذهب سائقونا في إجازات لبلادهم. كيف يمكن لنا الذهاب للمستشفيات والمدارس، أو أي جهة نتطوّع لها؟ إذاً، أصبح لدينا سبب وجيه في طلب السماح لنا بقيادة السيارات - كان ذلك في حدود الدين. الإسلام دين مرن. عندما تكون مسافراً فإنه يحق لك أن تصلي جمع تأخير أو جمع تقديم. إذا لم يكن لديك شيء تأكله فإنه يحق لك عندها أن تأكل لحم الخنزير. لذا، قلنا: دعونا نبدأ بهذا. دعونا نتصل بأحد المسؤولين لنخبره أننا نريد تقديم المساعدة في الدفاع عن بلدنا، وهذا يتطلّب منا أن نكون قادرات على قيادة السيارات بأنفسنا - مثل النساء

الكويتيات اللاتي يقدن بحرية».

في الأيام التالية، تكلّمت عائشة مع بعض الوزراء الذين تعرفهم، بينما المجموعة الأخرى تكلّمت مع المسؤولين والأفراد الذين قد يقفون في صفّ هذا الاتجاه. اجتمعت النساء مرة أخرى.

كنا نُقابل بنفس الإجابة. «شكراً جزيلاً لكنّ، هذا عمل جميل وفكرة عظيمة- لكن ليس هذا هو الوقت المناسب. هذه هي الإجابة الجاهزة التي تسمعها عندما تقترح التغيير في المملكة العربية السعودية - أنا أتفق معك، طبعاً، إن التغيير قادم. لكن عليك الانتظار قليلاً. اصبر. الآن جاء الوقت المناسب». «لقد شبعنا من هذا الكلام. قررنا أن تلك اللحظة هي اللحظة المناسبة».

اتفقت النساء أن يلتقين الاثنين التالي.

«وصلت متأخرة، وفي الوقت الذي وصلت فيه إليهن، كن قد اتخذن القرار. لقد حددّن الموقع والطريق. قرّرنا أن نلبس بشكل محتشم العباءة والحجاب (غطاء الرأس، من دون أن يكون هناك نقاب كامل) ، وأن نرسل رسالة إلى الأمير سلمان (أمير الرياض) لإخباره بما سنفعل، ولماذا اعتقدنا أن هذا هو الوقت المناسب. سلّمت الرسالة لمكتبه في اليوم التالي».

لم تصل الرّسالة إلى الأمير الذي استمر في عمله اليومي في تجاهل تام للمظاهرة المخطّط لها- حتى تم إيقاظه من قيلولة الظهيرة.

لقد اختارت النساء طريقاً دائرياً يمر عبر أكثر الشوارع ازدحاماً وأحدثها تجارياً في الرياض، عبر طريق الملك عبدالعزيز، ثم إلى شارع التحلية، ثم إلى منطقة العليا، والرجوع بعد ذلك. كان هناك سبع وأربعون امرأة يقود أربع عشرة منهن السيارات.

«كان باستطاعتنا أن نفعل أكثر من ذلك. كان باستطاعتنا جلب مئات السيارات. لكننا قرّرنا الأمر ذلك المساء فقط - في أقل من أربع وعشرين ساعة. ولم نكن نرغب أن يكون الحدث كبيراً، بل أردناه أن يكون رمزياً فقط».

«اسمع»، توضّح عائشة المانع، «أنا لا أحب القيادة أبداً لكنها ضرورية جداً للسيدات اللاتي يعملن ويساعدن عائلاتهن. يكلّف السائق الأجنبي سبعمائة ريال إلى ألف ريال (120 ـ 160 دولار) في الشهر، بالإضافة إلى طعامه وصحّته وسكنه- والذي قد يكون بالاشتراك مع سائقين آخرين عازبين، الأمر الذي يخلق مشاكل أخرى. هناك أكثر من مليون سائق أجنبي في المملكة العربية السعودية، لا يفعلون شيئاً سوى قيادة السيارات للنساء».

«لو افترضنا أن سيدة ما تكسب من عملها أربعة آلاف ريال (650 دولار) في الشهر. ثلث هذا المبلغ يذهب لسائقها- وهو مال يذهب إلى خارج المملكة. ثم فكّر في الأم التي تبقى في المنزل بلا عمل- كيف لزوجها أن يتحمّل نفقات سائق لها إذا كان يعمل معلّماً أو موّظفاً مدنيّاً؟ يجب أن يقوم بمهمة السائق بنفسه، يأخذها إلى الأسواق ويأخذ الأطفال من وإلى المدرسة. فكر في إنتاجية هؤلاء الموظفين إذا كانوا لا يقتطعون أوقاتاً من عملهم كل يوم للقيام بمهمة السائق».

تبدو هذه الحجج الاقتصادية حول قيادة النساء للسيارات مقنعة في المنطق الغربي، ومن منظور إسلامي عام، أي أن نتيجة حظر قيادة السيارات هي إبقاء المرأة السعودية المحترمة، عادة لوحدها ولأوقات طويلة، في مكان خاص مع رجل أعزب ليس بزوجها ولا محرم لها. قد يقول شخص ما إن هذا الرأي ما هو إلا رأي قد يتبنّاه أحد رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«هذا يدل على أن الحظر لا علاقة له بالدين»، كما تقول عائشة. «إنه مسألة اجتماعية فقط. هؤلاء الرجال يريدون فقط التحكّم بالنساء. إنها مسألة كرامة فقط. وكجزء من هذه الكرامة فهم لا يعتقدون أن المرأة السعودية المحترمة يمكن لها أن تسيء التصرف مع رجل غير سعودي».

***

قام موكب السيارات بتطبيق الخطة والاستدارة مرتين قبل أن تتمكّن إحدى دوريات المرور من الانتباه له. رأت ريم الجربوع، والتي كانت وقتها مراهقة تجلس متحمّسة بجانب أمها وفاء المنيف، وهي سيدة أعمال و تشتغل في الأعمال الخيرية بالرياض، أحد رجال المرور وهو ينظر إليهما في الطريق العام، ثم أعاد النظر إليهما من جديد والنساء يقدن سياراتهن عبر شارع التحلية.

«لم يكن يعرف كيف يتصرّف. رأيته يأخذ جهاز الإرسال ويبدو أن مكالمته قد وصلت إلى الشرطة الدينية (الهيئة) ، لأنه بشكل فجائي وسريع وصلت مجموعة كبيرة منهم وأحاطوا بنا - يقفزون من سياراتهم الضخمة وينطلقون نحونا بأشمغتهم وثيابهم ولحاهم الطويلة. ثم وصل بعد ذلك أفراد

الشرطة بلباسهم الرسمي. بقي كل طرف في مكانه. ها نحن، مجموعة من النساء واقفات في سياراتهن خائفات من مصيرهن وفخورات بما قمن به، بينما الرجال كانوا واقفين حولنا في عرض الشارع يتناقشون. مسؤولية من هذا الموقف؟ من سيكون له شرف القبض علينا؟ لحسن الحظ، استجابت الشرطة الدينية (الهيئة) والنظامية إلى الأمير سلمان الذي لم يتركنا في أيدي المتعصبين الذين كانوا غاضبين جداً - بين أنفسهم. ركب أحدهم بجانب الشرطي الذي أخذنا إلى قسم الشرطة وكان يتميّز من الغضب. ذلك الرجل الضخم الذي تحوّل إلى كتلة ساخطة في المقعد الأمامي: كان يكيل اللعنات والشتائم في الطريق. قال إنه يريد أن يقتلنا، وكنت أعتقد أنه يقصد ذلك فعلاً».

***

من بين المقبوض عليهن السعيدة فوزية البكر والتي كانت حبلى في ذلك الوقت. لم تؤثّر الفترة التي قضتها بالسجن قبل ثماني سنوات على فرص زواجها - بل على العكس تماماً. جذبت شهرتها انتباه فهد اليحيا، طالب الطب الشاب الذي أصبح أبرز الأطباء النفسيين في المملكة. تزوج الاثنان في عام 1985 - «أعتقد أنه أحبّ كتابتي»، تقول الدكتورة البكر التي حصلت على شهادة الدكتوراه في التربية المقارنة من معهد التربية في جامعة لندن في عام 1990م.

استعارت فوزية سيارة أخيها للمشاركة في المظاهرة وبينما كانت واقفة بجانبها تعرّفت على أحد رجال الشرطة الذي جاء نحوها مبتعداً عن مكان الشجار.

«دكتورة فوزية»، قال لي، «هل تذكرينني؟». كان أحد رجال المباحث الذين حققوا معي في تلك السنوات عندما كنت محتجزة في تلك الفلل. «أنت لا تتوقفين أبداً عن المشاغبة!» قال لي مبتسماً.

«لاحقاً، عندما وصلنا إلى مخفر الشرطة، جاء إليّ وأخبرني ماذا أكتب في ورقة التحقيق التي كنت أكتبها». لا قال لي: لا تقولي إن أخاك يعرف أنك استعرت سيارته. سوف يتورّط معك. اكتبي أنك أخذت السيارة دون موافقته».

بعكس رجال المباحث، لا يجد أفراد الشرطة الدينية (الهيئة) أي جانب فكاهي في هذا الأمر. وبحلول الليل، بدأ الأزواج والإخوان بالوصول إلى المخفر لأخذ حريمهم حيث تعرضوا لوابل من التوبيخ من قبل أصحاب اللحى.

«أيها الجبناء»، سخروا منهم بأصوات منخفضة، «ألا تستطيعون التحكم بحريمكم؟».

وصلت هذه الإهانة إلى لب الموضوع، ضبط الحريم هو أساس المجتمع القبلي، تركها تغادر لتتزوّج أي رجل يختارونه وعندها تنتهي مهمة سلطة الرجل القبلي- أو سلطة القبيلة نفسها. مهما كانت نتيجة الحرب العسكرية التي يخوضها فهد فقد أثبتت المظاهرة النسائية المطالبة بقيادة المرأة أن العواقب الاجتماعية ستكون ضخمة.

***

في الوقت الذي كان فيه الأمير سلمان يواجه مشكلات المظاهرة في الرياض، كان ابن أخيه بندر يسعى إلى تشجيع مظاهرة أخرى في واشنطن. طلب السفير اجتماعاً للطلاّب السعوديين في واشنطن للمساعدة في تجييش الرأي العام الأمريكي خلف الحرب.

أرسلت السفارة تذاكر سفر لجلب رؤساء الأندية الطلابية من الجامعات الأمريكية من كافة أرجاء أمريكا.

«هذه لحظة حاسمة وحرجة في تاريخ دولتنا»، أخبرهم الأمير وهم يجتمعون معه في فندق راديسون ساس في شارع سميناري في الأسكندرية بولاية فرجينيا. «الآن جاء وقتكم للخروج والتظاهر. أظهروا للأمريكيين حقيقة شعوركم. ارفعوا أصواتكم، واصنعوا اللوحات والدعايات، ألّفوا الشعارات الحماسية. أخرجوا في الحرم الجامعي في الشوارع وأطلعوا الناس على ماتحسون به». تبع ذلك صمت غريب.

«شكراً سمو الأمير»، قال أحد الطلاب، «لكن كيف سنقوم بذلك؟ لم نتعلّم مطلقاً القيام بمثل هذه الأمور- لقد تم إخبارنا أن التظاهر شيء غير سعودي. كيف تتوّقع منا أن نقوم به الآن؟».

***

أما في الرياض مرة أخرى، فالمتظاهرات اللاتي أظهرن مشاعرهن يواجهن العواقب الآن. جميع المحاضرات اللاتي يشتغلن في جامعة الملك سعود تم إيقافهن عن العمل وحُرمن من دخول الحرم الجامعي. لقد تعرّضن

للشجب والاستنكار الشديد من قبل المحافظين المتشدّدين في الجرائد وقد وجد هذا الانتقاد الدعم الشعبي من الجمهور. جلجلت منابر الجُمعة بالغضب الشديد. أصدر عبد العزيز بن باز فتواه ضد قيادة المرأة للسيارة.

«ما قمن به»، كما يقول أحد الأشرطة الصوتية القوية والمنتشرة، «هو سبب الويلات التي نعيشها الآن تباعاً».

كان ذلك تكراراً للنقاشات والحوارات التي أعقبت انتفاضة جهيمان قبل عشر سنوات- لكنها هذه المرة أكثر حدّة. وُزّعت المنشورات التي تفضح أسماء النساء وأزواجهن. طُلب من المسلمين والسعوديين المخلصين أن يتخذوا موقفاً ضد هؤلاء «الفاجرات الشيوعيات». جاءت ردة الفعل القاسية من الطالبات المحافظات اللاتي كن يدرسن عند أولئك المحاضرات- لقد بصقن على معلماتهن.

«انصدم الملك تجاه تصرفهن»، كما يقول أحد أعضاء العائلة المالكة. بعد الحرب، طلب الملك فهد منهن الحضور إلى مجلسه ليخبرهن أنه يشعر بمعاناتهن. «أنتن بناتنا»، أخبرهن. لم تحضر عائشة المانع ذلك اللقاء.

«كما أذكر» تقول عائشة، «لم يكن اللقاء فكرة الملك. طلبت بعض النساء المقابلة للاعتذار- لقد قلقن على وظائفهن. شعرن أنهن بحاجة إلى الاعتذار، وهذا حقهن. لكنني لست آسفة على ما قمت به. في رأيي، أننا لم نقم بشيء يستحق الاعتذار منه. أن نقود السيارة- هذا هو حقّنا».

الفصل الخامس عشر



معركة الخفجي

كانت مدينة الخفجي الصغيرة في منتصف يناير 1991م على الحدود السعودية الكويتية مدينة أشباح. الحياة في الركن الشمالي الشرقي للمملكة العربية السعودية أصبحت تعج بالحركة مع زيادة الاستعدادات للحملة العسكرية السعودية الأمريكية لاستعادة الكويت. لكن الخفجي بدت مهجورة نوعًا ما. بنايات مربعة خالية وأعمدة كهرباء بائسة تمتد إلى الشقق المالحة عبر ساحل الخليج. ترك الحرّاس السعوديون هذه النقطة الحدودية الشمالية التي كان أمير الكويت قد وصل إليها في صباح الثاني من أغسطس 1990م. البلدة غير محصّنة، كما قرّر قائد القوّات العربية المشتركة في التحالف السعودي - الأمريكي خالد بن سلطان، الذي اتخذ خطّه الدفاعي في منطقة تبعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الجنوب.

كان الجزء المهم من الحرب يحدث في الجو إذ أقلعت الطائرات المقاتلة في الساعات الأولى من السابع عشر من يناير 1991م من مجموعة من القواعد العسكرية ومدرجات الهبوط الصحراوية التي أقيمت على عجل مسقطة القنابل والصواريخ الموجّهة بدقّة لمدة زادت عن ثمانية وثلاثين يومًا بهدف شلّ وتدمير القوات المسلحة العراقية متى كان ذلك ممكنًا.

كما اتضح لاحقًا، أثمرت أسابيع القصف الجوّي الوحشي واستراتيجيات الالتفاف حول العدو التي نفّذها نورمان شوارزكوف لاستعادة الكويت عن نصر رائع للائتلاف السعودي الأمريكي وقوّات التحالف. استسلم جيش صدّام بعد أقل من مائة ساعة من الهجوم البرّي.

لكن هذا النجاح لم يكن مضموناً مع اقتراب شهر يناير 1991م على النهاية. كان الجيش العراقي ضخمًا ومهدّدًا ذا قدرات مجرّبة في استخدام الأسلحة الكيميائية. أطلق صدّام في 18 يناير 1991 سبعة صواريخ سكود نحو تل أبيب وحيفا، ثم وجّه عشرين من صواريخه نحو الرياض والظهران في هجمات ليليّة متتالية. كان هناك اختلافات في الرؤى داخل التحالف، إذ كان شوارزكوف والأمير خالد في خلاف مستمر فهما متشابهان بطريقة مختلفة وعنيدان ويتمتعان بكبرياء متشابهة. ما حجم القصف الذي يجب أن يُوجّه إلى بغداد؟ ألا يجب أولاً الاهتمام أكثر بتدمير الحرس الجمهوري لصدّام؟. اتضح الخوف من الوقوع في أيّ خطأ بقيام قوات التحالف بارتداء الملابس الواقية من الهجوم الكيميائي وبتجهيز أكثر من ثمانية عشر ألف سرير مستشفى في مسرح العمليات. في تلك اللحظة، وفي ليلة 29 – 30 يناير 1991م اتجهت الدبابات العراقية التابعة للكتيبة الآلية الخامسة، وإحدى وحدات صدّام المهاجمة نحو الحدود السعودية غير المحصّنة مصحوبة بناقلات الجند واحتلّت مدينة الخفجي.

***

للمرة الثانية في أقل من ستة أشهر، نجح صدّام حسين في غزو دولة عربية أخرى ولم يفوّت الفرصة في الترويج والدعاية لانتصاره. أما في الرياض فقد كان الملك فهد غاضبًا جدًا

«كنت محظوظًا»، اعترف خالد بن سلطان لاحقًا، «في أنه لم يعزلني من منصبي تلك الليلة!».

اتصل الملك بابن أخيه بشكل متواصل مصرًّا على التصرف السريع بإخراج العراقيين وعلى معرفة ما الذي حصل من أخطاء بالضبط. بنى الأمير استراتيجيته في التخلّي عن الخفجي والتي كانت تحت وابل النيران العراقية على الحدود الكويتية على فرضية أن القوة الجوية لقوّات التحالف ستتعامل مع أي هجوم برّي عراقي. لكن الغطاء الجوي لهذه الأرض الخالية من السكان كان مسؤولية قوات المارينز الأمريكية التي تتخذ من الحدود السعودية الكويتية مكانًا لها، أي حوالي 30 ميلاً إلى الغرب، لكنهم كانوا مشغولين طوال الليل في صدّ هجوم عراقي على مواقعهم.

شعر القائد العسكري السعودي بالخذلان مع حلفائه ثم اتصل بأحمد السديري المدير السعودي للعمليات الجوية.

«انس أمر القوّات المشتركة!» كان يتذكر نفسه وهو يصرخ «إذا لم تأتِ القوة الجوّية الأمريكية و قوّات المارينز فورًا، فأنا أريد فصل قواتنا الجوّية عن التحالف، وأن ترسلها لي فورًا. أحتاج إلى طائرات التورنيدو وطائرات أف 15، وكل شيء معك!».

أثمر موعده النهائي بنتائج عملية، نقلت إدارة العمليات الجوية الأمريكية طائرات بي 52 و آي سي 130 و السفن الحربية إلى طريق الساحل حيث بدأت أعمالها في مساء الثلاثين من يناير في صدّ المحاولات العراقية ومنعها

من إرسال التعزيزات. لقد تم عزل نحو ألف جندي عراقي كانوا يحتلّون الخفجي.

لكن في الوقت الذي كان الأمير يغيّر خططه لاستعادة الخفجي كان عليه أن يتعامل مع قضية استخباراتية مهمة. فريقان تابعان لأنجليكو (كتيبة القوة البحرية الجوية) - يتألف أحدهما من خمسة، بينما الآخر يضم ستة أفراد من قوّات المارينز — كانا يقومان بشكل سرّي في منازل الخفجي المهجورة وفي مواقعهم السريّة المتطورة بإرشاد وتوجيه المدفعية والقصف الجوّي على الحدود. لم يكن لديهم وقت للهرب حيث وجدوا أنفسهم محاطين بالجنود العراقيين الذين لا يعلمون شيئًا عن وجودهم. أدرك خالد سريعًا أن هذا الأمر غيّر كل ما خُطّط له.

«أولوياتنا الآن»، - أخبر الأمير جنراله المسؤول عن الهجوم سلطان المطيري - «هي إخراج قوّات المارينز وليس تحرير الخفجي».

بعد أربع سنوات كان الأمير صادقًا في الاعتراف بنواياه «كنت قلقًا جدًا»، كتب في مذكراته، «أن يستخدم شوارزكوف القوّات الأمريكية. إما باستخدام قوّات المارينز في هجوم برمائي أو إنزال جوي لأفراد الجيش الأمريكي لتحرير مدينتي في المكان المخصص لي. سوف يكون من الصعب أن أتحمل هذا العار».

لم يخيّب الجنرال المطيري ظنّه. مع حلول الظلام، اقتربت سيارات مدرّعة تابعة للحرس الوطني السعودي من الطريق الساحلي متجهة نحو

المنطقة التي كان يختبئ فيها فريق إنجليكو. قام القناصة العراقيون بإعطاب إطارات عشر عربات منها لكن دبابات الجيش السعودي المدرّعة كانت في الخلف. مع حلول منتصف الليل تم تحرير الأحد عشر أمريكيًا المحتجزين من دون أي أذى — لو عرف العراقيّون بمكانهم لقاتلوا بضراوة أشد. الآن أصبح أمام القوّات السعودية المهمة الشاقة في التحرير الكامل للخفجي.

«كنّا خائفين»، يعترف سليمان الخليفة الذي كان وقتها شابًا تحت إمرة سلطان المطيري «لم نخض حربًا حقيقة أبداً».

كان المطيري قائدًا ملهمًا.

«خرج مرّتين في مهمتين استطلاعيتين بنفسه للخفجي»، كما يتذكر الخليفة، «يقود حول مشارف المدينة حيث تعرّض لإطلاق نارٍ من قبل العراقيين. لا يفعل قادتنا عادة مثلما يفعله المطيري».

عرف المطيري أنه يجب عليه إبقاء قواته بعيدًا عن الشقق الملحية عبر الساحل الذي علقت فيه العديد من الدبابات العراقية والسعودية على حدٍ سواء. سوف يعتمد على الدبابات في هجومه - دباباته من طراز أم 60 أي 3 أس الأمريكية الصنع يفوق مداها بمقدار الضعف مدى نظيراتها العراقية السوفياتية الصنع. لكن المهمة الرئيسية ستنتهي بالجنود المشاة الذين سيتقدمون تحت ستار هذه الدبابات و القتال بأسلوب حرب الشوارع من منزل إلى منزل.

«كان الهجوم ذا اتجاهين»، كما يتذكّر الخليفة، وهو أحد جنود المشاة الذين حاربوا حتى وصلوا إلى شارع مكة بين الممرات الملحية من جهة وورش تغيير الزيوت من الجهة الأخرى. «دافع العراقيون بشراسة. كانوا يطلقون النار حتى اللحظة الأخيرة. كان هناك ضابط، كما أتذكّر، في الفندق الساحلي ورَفَض الاستسلام مطلقًا. كان متعصبًا لصدّام. ثم كان هناك مجموعة أخرى من العراقيين كانوا يحملون أجهزة الفيديو و ملابس النساء، كانوا مهتمّين في النهب والسرقة أكثر من القتال».

بدأ الهجوم في الساعة الثامنة من صباح الخميس 31 من يناير عن طريق قوّات الحرس الوطني والقوّات البريّة السعودية وكتيبتين قطريتين آليتين كانتا جزءاً من قوات التحالف. قُتل ثمانية عشر جنديًا سعوديًا و أصيب اثنان وثلاثون. ومع حلول ظهر ذلك اليوم كانت قوّات الجنرال المطيري في وسط مدينة الخفجي بعد أن قتلت اثنين وثلاثين جنديًا عراقيًا وأسرت أكثر من أربعمائة جندي. اتصل الجنرال برئيسه ليخبره بهذه الأنباء السعيدة الذي قام بدوره بإخبار الملك مباشرة. اغتبط الملك بهذه الأخبار و أمر ابن أخيه أن يذهب للمدينة بنفسه بأسرع وقت ممكن ويأخذ معه الصحفيين ليري العالم أنه تم طرد و إخراج جنود صدّام من المملكة العربية السعودية.

وصل خالد بن سلطان إلى الخفجي مع غروب الشمس. أوقفته نقطة تفتيش للقوّات السعودية يديرها الكولونيل عمّار القحطاني الذي كان يعرف الأمير منذ طفولته و طلب منه عدم الدخول إلى المدينة أكثر من ذلك بسبب وجود بعض القنّاصة، كما يقول، وعدم انتهاء عمليات التمشيط للمدينة. في تلك اللحظة انفجرت قذيفة عراقية بالقرب من المكان.

«حاكمني عسكريًا إذا رغبت»، قال له القحطاني بهستيرية واضحة، «لكني لن أدعك تذهب!».

وقف أمام سيارة الأمير العسكرية رافعًا سلاحه نحو الهواء ثم استسلم فجأة ليدخل رأسه داخل سيارة الجيب ليقبّل جبين رئيسه العسكري بشكل عاطفي.

اتضحت صحة تحذيرات الكولونيل في اليوم التالي عندما استسلم عشرون جنديًا عراقيًا على بعد ثلاثمائة ياردة من المكان الذي اختاره خالد لمؤتمره الصحفي. يقول الجنود العراقيون إن القائد السعودي، من موقعهم، كان في متناول أسلحتهم مباشرة. كانوا قادرين بسهولة على قتل الأمير وهو يقف مزهوًا تحت أضواء الفريق التلفزيوني، لكنهم لم يكونوا متحمسين لصدّام كثيرًا، كما أنهم أدركوا أن مجرد فتح النار سيؤدي حتمًا إلى موتهم أيضًا. طلبوا أن يتم التعامل معهم كلاجئين عسكريين، وليسوا كأسرى حرب كمكافأة على عدم ضغطهم على الزناد.

رفع انتصار الخفجي من الروح المعنوية في المملكة العربية السعودية. كانت أكبر معركة تخوضها القوّات السعودية على أرضها في العصر الحديث. أنهى تدمير الكتيبة الآلية الخامسة للعراق إحدى أفضل الوحدات العسكرية المتحركة لصدّام. وكان ذلك اختبارًا حقيقيًا للقوات السعودية (والقطرية). خاطر السعوديون بحياتهم –بل فقدوها– لاستعادة جزء من وطنهم. لم تضيّع الحكومة وقتها بالإعلام عن أن هؤلاء الثمانية عشر جنديًا الذين قتلوا في المعركة هم من الشهداء.

كانت الخفجي، المعركة البريّة الوحيدة في حرب الخليج برمتها. ما عدا تلك المعركة، كما يقول خالد بن سلطان لاحقًا، كان مجرد تحرّك للقوّات، وبمجرد انتهاء القصف الجوي لقوّات التحالف و دخول القوّات البريّة في 24 فبراير 1991م، هربت القوّات العراقية أو استسلمت، وهذا أبرز فجأة تساؤلاً يبعث على التفكير حول التعريف الحقيقي لمعنى «النصر».

***

قبل شهر تقريبًا، في 10 يناير 1991م كان جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكية يتحدث بصراحة في الرياض مع السفير الأمريكي تشاس فريمان.

«ماذا تعتقد؟» سأل فجأة «أن تكون أهدافنا في هذه الحرب؟».

ستبدأ الحرب بعد سبعة أيام فقط من الآن. و قد كان رد الفعل الأولي للسفير أنه وجد ذلك السؤال «صادمًا»، ولكن بعد التفكير فيه مليًا اتضح أن سؤال رئيسه لم يكن ساذجًا كما يبدو. لقد خاض بيكر معارك صعبة من أجل خلق مثل هذا التحالف الذي لم ير له العالم نظيرًا من قبل. عرب منقسمون، أوروبيون مرتابون، و روس شيوعيون يساعدون الغرب فجأة لأول مرة. ودعم صامت من إسرائيل. اعتمد تجييش كل هذه العناصر اليائسة على غموض مثل هذه العملية. اقتنع الجميع بالحاجة إلى إخراج صدّام من الكويت. وما وراء ذلك لم تتفق قوات التحالف على أي أهدافٍ أخرى.

بعد خمسة أسابيع من القصف الجوّي المريع استسلم الجيش العراقي في أربعة أيام فقط لكن في الوقت الذي ذهب فيه نورمان شوارزكوف وخالد

بن سلطان إلى صفوان في 3 مارس 1991 م للتفاوض حول تفاصيل وقف إطلاق النار مع نظرائهم العراقيين، تم إخبار كل منهما أن يقتصرا على مناقشة القضايا الفنية – خط السيطرة بين الجانبين، تسليم أسرى الحرب و الحظر الجوي في جنوب العراق واقتصار الحركة الجوّية في جنوب العراق على الطائرات العراقية فقط. لم يتفق الطرفان على تحديد وقت لاستسلام العراق ولم يتم تعريف الطبيعة الكارثية لهزيمة صدّام حسين.

«الجنرالات العراقيون»، كما يتذكر تشاس فريمان. «وجدوا صعوبة كبيرة في الاحتفاظ بابتسامة وهم يغادرون خيمة التفاوض».

لم تجبر قوّات التحالف -التي تفتقد إلى تعريف للانتصار النهائي– صدّام على الاعتراف بأنه خسر وأنهم قد ربحوا حرب الخليج 1991م. بقي الديكتاتور في قصره. وبمرور الزمن صار الفشل في حقيقته سلسلة من العواقب الوخيمة.

«من وجهة نظري الشخصية»، يقول خالد بن سلطان، «الطريقة التي انتهت إليها حرب الخليج لا تتناسب مع الطريقة التي بدأت فيها». وكان رأي الأمريكان والبريطانيين: «دعونا نتوقف هنا و ننهي مهامنا ونخرج سريعًا».

رأت الحكمة الغربية لاحقًا أنه كان من الخطأ لقوّات التحالف أن تتوقف عند حدود الكويت. و أنه كان يجب على قوّات التحالف المنتصرة أن تواصل التقدم نحو بغداد. لكن هذا لم يكن أبدًا هدف قوّات التحالف، ومثل أي دولة عربية بما فيها الكويت فسترفض المملكة العربية السعودية مثل هذه

الخطة. بغضّ النظر عن رغبته في إصلاح السياج الحدودي، كان الملك فهد وإخوانه على وعي كامل بأن إسقاط صدّام سوف يسلّم العراق إلى الأغلبية الشيعية وبالتالي زيادة القوة الشريرة لإيران.

كان نورمان شوارزكوف معارضًا للهجوم البرّي «لو أننا سيطرنا على كل العراق»، كما كَتَب في عام 1992م. «سنصبح كالديناصور الذي دخل الفخ برجليه».

لاحقًا في تلك السنة ذكر الرئيس بوش نفس الشيء تقريبًا كما كتب مع مستشاره الأمن القومي سكوكروفت في جريدة ميدل وست ريبورت «سوف يؤدي إلى خسائر سياسية وبشرية لا يمكن حصرها.. سوف نكون مضطرين إلى احتلال بغداد، وفي النهاية حكم العراق.. لو مشينا في طريق الغزو فسوف تكون الولايات المتحدة قوة محتلة في أرض عدائية إلى أبعد حد».

لكن أحد أكثر وجهات النظر إقناعًا التي عارضت الغزو جاءت من وزير الدفاع في حكومة بوش ديك تشيني.

«هل تعتقد»، سئل في عام 1994 م «أنه كان يجب على أمريكا أو قوات الأمم المتحدة أن تتقدم نحو بغداد؟».

«لا»، أجاب بدون تردد في مقابلة مع شبكة CNN تم مشاهدتها من قبل الملايين في موقع اليوتيوب. «لو كنّا قد ذهبنا إلى بغداد فسيكون هناك احتلال أمريكي للعراق.. لو أنك ذهبت إلى العراق وسيطرت عليه، و أطحت

بحكومة صدّام، فمن ستضع مكانه؟ تلك منطقة مضطربة من العالم وإذا أقصيت الحكومة المركزية في العراق سوف ينتهي بك الأمر أن ترى أجزاء العراق تتطاير في الهواء».

الذهاب أبعد من ذلك ومحاولة السيطرة على العراق ستكون ورطة كبيرة.. السؤال الذي واجه الرئيس في ما يتعلق بالذهاب إلى العراق من عدمه والتضحية بخسائر إضافية للإطاحة بصدّام حسين هو، هل يساوي صدّام حسين التضحية بجنود أمريكيين إضافيين؟ كان تقديرنا أنه لا يساوي الكثير، وقد كان رأينا صائبًا.

بعد عشر سنوات وأثناء عمله كنائب رئيس حكومة جورج دبليو بوش اتخذ ديكي تشيني رأيًا مضادًا لما سبق أن تبناه. في ذلك العقد أصبح رأي وزير الدفاع السابق مؤيداً رئيسيًا للرأي الذي يقول إن على أمريكا أن ترسل قواتها إلى بغداد للإطاحة بحكومة صدّام و تنظيف قصره. هذا بسبب الأحداث داخل العراق عقب النتيجة غير المرضية لحرب الخليج. لكن هذا بشكل رئيسي كان بسبب ما حدث في المملكة العربية السعودية لاحقًا.

الفصل السادس عشر



الصحوة

عندما جاءت أخبار غزو صدّام في أغسطس من عام 1990م. عرف أسامة بن لادن بشكل واضح كيف يقدم المساعدة. اتصل بأصحابه الذين حاربوا معه في بغداد من العرب و الأفغان وجاء بخطة جديدة – سوف يعيدون تشكيل التحالف السعودي الأفغاني القديم. هزم هو وإخوانه المجاهدون القوّات السوفياتية في الجبال. الآن سيطاردون صدّام وجنوده العراقيين في شوارع الكويت ثم إلى بغداد. سوف يجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم، كما كان متأكدًا من ذلك، لإبعاد هذا العدوان غير الإسلامي.

ألهم الانتصار في أفغانستان أسامة أن يرى الجهاد كعملية يمكن أن يقوم بها في كل مكان بنفسه بصفته أحد قادة الجهاد. قبل أن يغادر أفغانستان عمل أسامة على تجديد جماعته بإعطائها اسمًا جديدًا هو القاعدة.

«اتصل بي لتوضيح الأمر»، كما يقول جمال خاشقجي، الصحفي الشاب الذي أجرى أول مقابلة مع بن لادن في أفغانستان في الثمانينات. «قال إن القاعدة هي منظمة لتسجيل أسماء المجاهدين وعناوين الاتصال بهم كقاعدة بيانات، و هي أحد معاني هذه الكلمة في اللغة العربية. أي أنه عندما

يتطلب الأمر القيام بالجهاد سواء في الفلبين أو آسيا الوسطى أو أي مكان في العالم، فإنه يمكنك الاتصال بشكل سريع مع المقاتلين».

كانت خطة أسامة قبل الغزو العراقي للكويت هي إقامة معسكرات تدريب على الطريقة الأفغانية في جبال اليمن و التي تتمتع بتضاريس تنفع أن تكون مقرًا نموذجيًا للمقاتلين. كان الإسلاميون على الحدود السعودية يطمعون في فرض قوتهم ضد الشيوعيين في الجنوب وهي فرصة مناسبة لأسامة في نقل المدرسة السلفية لتصل إلى موطن والده.

«لقد نمّا عنده هذا الحب الجارف للثورة والقتال»، كما يقول الأمير تركي الفيصل، «أصبحت المعركة هي الحل السريع لكل شيء بعد أن رأى مجاهديه يحاربون في كل مكان من العالم من نصر إلى نصر من أجل الإسلام. لم يكن مسروراً عندما أخبرته بالابتعاد عن اليمن. الحكومة السعودية لا تتدخّل في تلك المنطقة، كما قلت له عندما حدث غزو الكويت في ذلك الصيف. لكنه اعتقد أن الأمر يستحق أن يقدّم لنا محاولة أخيرة».

خطّط أسامة لاستراتيجية محدّدة بشكل واضح في عبور الحدود السعودية و الدخول للكويت، ثم شنّ حملة حرب شوارع من منزل إلى منزل حتى يطرد العراقيين. لا يمكن القبول بمثل هذه الاستراتيجية لكنّه قدم هذه الاستراتيجية إلى أحد الأمراء المؤثّرين الذي كان يرتبط بعلاقة قوية مع عائلته، الأمير أحمد بن عبد العزيز، نائب وزير الداخلية.

يعتبر أحمد بن عبدالعزيز البالغ من العمر أربعين سنة في عام 1990م،

الأخ الأصغر من بين الإخوان السديريين والابن الأول من أبناء عبدالعزيز الذي تلقى تعليمه في أمريكا في العلوم السياسية في جامعة ريدلاند التابعة لولاية كاليفورنيا. اشتهر هذا الأمير في عائلته بالهدوء الجادّ. اختاره أخوه الكبير فهد في عام 1980 م للتحقيق في مطالب الشيعة بعد انتفاضة القطيف في ديسمبر، كما أنه صاحب اقتراح برنامج بناء البنية التحتية في المنطقة الشرقية الذي أكمله محمد بن فهد. لأكثر من اثنتي عشرة سنة كان الأمير أحمد يعمل كمساعد مخلص لأخيه الأمير نايف في وزارة الداخلية مركّزًا عمله في القضايا الأمنية. عمل قبل ذلك كنائب لأمير مكة الأمر الذي أبقاه قريبًا من عائلة بن لادن، لذا فهو الشخص المثالي لأسامة لكي يعرض عليه خطة تحرير الكويت.

«كان بن لادن حريصًا على الأمن»، كما يتذكّر الأمير أحمد، «قال إن على الملك فهد أن يبتعد عن قصره في جدة لأنه يعتقد أنه قريب من البحر، أي يمكن الهجوم عليه بسهولة. أحضر معه أخوه الأكبر بكر» رئيس شركة بن لادن لكي يثبت أنه كان جادًّا أن العائلة تدعمه. كان حريصًا على أن يظهر كمواطن سعودي مخلص، وقد كان فخورًا بهذه الخطة التي جاء بها لجلب المتطوعين من أجل الدفاع عن أمن دولته.

لم يقتنع أحمد بهذه الخطة.

«لا تبدو فكرته عملية بالنسبة لي. لم تكن منظّمة أو احترافية كما أنها لم تعطِ تقييمًا واضحًا لحجم المشكلة».

مثل تركي الفيصل، كان أحمد مقتنعًا بأن بن لادن كان مهووسًا بفكرة القتال، تقريبًا من أجل القتال نفسه.

«استخدم كلمة الجهاد مرات عديدة، و أعلم أنه كان يتحدث كثيرًا في المساجد. كان من الواضح أنه تعوّد على القتال و كان من الصعب عليه أن يتركه فجأة. لكن الجهاد يعني أن تذهب إلى الحرب، ثم تتوقف».

«شكرته كثيرًا. أخبرته أننا ممتنون لعرضه في المساعدة عن طريق جلب المتطوعين و أخبرته أن لدينا محترفين يضعون الاستراتيجية المناسبة و أننا نأمل ألا يصل الموقف إلى هذا السوء. أخبرته أيضًا أن عائلة بن لادن كانت دائمًا مخلصة و وفيّة مع عائلتنا، و نأمل أن تستمر هذه الصداقة لسنوات طويلة قادمة. أخبرته أيضًا أننا سنبقى على اتصال عندما يقتضي الأمر».

لا يمكن أن يكون رفض خطة بن لادن أكثر تهذيبًا واختصارًا مما قام به الأمير أحمد. بحسب بعض المصادر، حاول أسامة أن يقدم اقتراحاته لأمراء آخرين في العائلة المالكة لكنه كان يواجه بنفس الرد «شكرًا، لكن لا. شكرًا». وبحسب ما قاله شخص كان حاضرًا لاجتماع آخر قدّم فيه أسامة وثيقة من خمس صفحات تحدد استراتيجيته، تحوّل وجه بن لادن إلى اللون الأسود من الغضب بعد أن رُفضت خطته.

***

«لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» كما يقول الأثر الإسلامي الذي يتردد صداه في خطب مساجد جزيرة العرب بعد وصول الجنود الأمريكيين

إليها، في تحدٍّ واضحٍ لفتوى العلماء الذين دعموا الحكومة.

«دعونا أعداءنا الحقيقيين لمساعدتنا في الدفاع عن أنفسنا»، كما يوضح د. سفر الحوالي. رجل الدين الشاب الذي لا يخاف من الحديث مباشرة عن المؤسسة، «الشيء الواضح هو أننا بحاجة إلى التغيير من الداخل. ينبغي أن تُشنّ الحرب على الكفار في الداخل ثم سنكون بعدها أكثر قوة لمواجهة الأعداء في الخارج».

يعمل الحوالي رئيساً لقسم العقيدة في جامعة أم القرى، الجامعة الإسلامية في مكة التي صنعت له شهرة داخلها عندما قدّم رسالته الموسومة «العلمانية». يقول الحوالي إن العلمانية فكرة غربية تهدف إلى تقويض الإسلام من الداخلِ وإن وصول الأمريكان برهان واضح على ذلك. تهدف حرب الخليج المخطّط لها بعناية- كما يراها الحوالي- إلى السيطرة أولاً، ثم في النهاية تدمير الإسلام وسوف ينتج عنها إقامة القواعد العسكرية الغربية في الخليج. كان السماح للجنود «الصليبيين» - النصارى واليهود والنساء - بدخول أرض الحرمين الشريفين ذنباً كبيراً.

ناقش عبد العزيز بن باز – الذي لعب دورًا كبيرًا في حشد العلماء لدعم الحكومة — الحوالي وعلماء الصحوة الآخرين. يقع الحرمان الشريفان في الجانب الآخر من المملكة - بحسب مقابلاته الصحفية — أي على بعد 621 ميلاً عن الجنود الأمريكيين الذين يتواجدون في الكويت و الحدود العراقية.

«الأمريكيون»، يقول ابن باز، «جاؤوا للحماية، وليس لاحتلال الحرمين. جاؤوا لدحر العدوان ورفع الظلم».

ثم بعد ذلك خاض في شرح لسورة المائدة التي بيّن الله فيها الأطعمة الممنوعة من المسلمين ﴿ حُرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكّيتم وما ذبح على النصب ﴾ (المائدة: 3)، ثم تختم الآية بإخبار المسلمين أنه على الرغم من أن هذه الأطعمة محرّمة إلا أنه يمكن للشخص أن يأكلها إذا كان في موقف مجاعة. إذاً بالقياس على هذه الآية -كما يقول ابن باز- «اضطرت الدولة إلى استخدام الدول الكافرة لإيقاف هذا العدو الوحشي».

قد يبدو مفرحًا لمستمعي الشيخ الأعمى مقارنة الجنود الأمريكيين بالخنازير، لكن مشايخ الصحوة لم يعجبهم هذا الكلام.

***

تشتهر المنطقة الخصبة في القصيم، شمال غرب الرياض بالتمور، كما تشتهر أيضاً باتباعها لمذهب الوهابية. في الإجازات، يعمد مزارعو النخيل إلى اختيار الشباب المسلم المتحمس للعمل في تجارة التمر. لذا و خلال موسمي تمور حرب الخليج في 1990 م، 1991 م، كانت أشجار النخيل في القصيم مكانًا لمناقشة موضوع حماسي حول الإسلام. كان المتحدث المؤثر للصحوة في القصيم الشيخ سلمان العودة، الشيخ الذي كان يتمتع بلحية سوداء وكان يلقي دروس الصحوة بشكلٍ هادئ في بريدة قبل الحرب. الآن

أصبح مشهورًا إلى درجة أن خطبه انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية على شكل أشرطة صوتية حققت مبيعات ضخمة.

«هذه البلاد مختلفة»، يقول الشيخ سلمان، «تم توحيدها تحت شعار الإسلام، و ليس بسبب هذا أو ذاك...».

كانت تلك الرسالة الصوتية التي التقطها مستمعوه. كان الشيخ يقترح شخصية دينية غير سعودية للمملكة العربية السعودية. في شريطه ذائع الصيت الموسوم «لماذا تسقط الدول؟». تحدّث العودة بشكل ساخر عن الفراعنة المصريين الذي سلّموا المال لشعوبهم لكنهم حصلوا على الكراهية في المقابل. وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ يصف احتقار الفراعنة لعقول شعبهم وتدخلهم في دينهم وتقييد حرياتهم الفكرية، لم يكن من الصعب تحديد هوية هدفه الحقيقي القادم.

تذيع المساجد السعودية خطب الجمعة ليسمعها كل أفراد الحي عن طريق مكبرات الصوت الموجودة في منارات المسجد، لهذا أصبح من الأعمال اليومية في نهاية الأسبوع لبعض الدبلوماسيين الصغار في الرياض أن يذهبوا ويجلسوا في سياراتهم خارج المساجد المتشددة في العاصمة لتسجيل ما يقوله أئمتها من نقد وهجوم.

داخل السفارة الأمريكية أمضى ديفيد رانديل ساعات طويلة في الاستماع لهذه الأشرطة.

«تسعون بالمئة منها يتحدث عن: لا تضرب زوجتك، و كن جارًا طيبًا»، يقول «ديفيد لكن العشرة بالمائة الباقية عدائية جدًا. أحد تلك الانتقادات التي تحمل عنصراً فكاهياً جاءت من سفر الحوالي الذي رسم صورة غير جذابة لأمريكي سمين يلبس قميصًا مفتوحًا من الوسط وسلسلة ذهبية على رقبته ويمشي مع كلبه وهو ممسك بذراع زوجته، انتبهي، -يقول لها- وإلا ستعمل ابنتك في محل بيع للأحذية».

الكلاب والنعال من القذارات التي يبتعد عنها المسلمون - ولهذا السبب انتشر الفرح عند العرب عندما قام محتج عراقي برمي حذائه على جورج دبليو بوش في 2008م – بينما يتخذ الوهابيون رأياً سوداوياً في لبس الذهب و إمساك الأيدي في مكان عام، أو لبس القميص المفتوح من الوسط الذي يبرز شعر الصدر.

***

بالنسبة للداعية المتطرف والمفتي الشاب منصور النقيدان، يمثل «الاحتلال» العسكري الأمريكي لبلاده في أغسطس وسبتمبر من عام 1990م الخطوة الأولى في طريقه الشخصي نحو الثورة. بعد أقل من شهرين جاءت الخطوة الثانية – مظاهرة قيادة السيارات للنساء في الرياض. يرى النقيدان من دون أدنى شك أن الحادثتين لهما علاقة ببعضهما البعض.

«جاءني اتصال في ذلك اليوم»، يتذكر منصور، «من صديق لي في الرياض. النساء يقدن السيارات، أخبرني هذا الصديق بهلع شديد، الحمد لله أن المطاوعة تمكنوا من إيقافهن. قلت الحمد لله. لكن اكتشفنا لاحقًا أن الأمير سلمان يدعمهن».

كان النقيدان في العشرين من عمره إلا أن رأيه يؤخذ به بغض النظر عن عمره ويلقى تقديرًا في مجتمعه السلفي. لكنه كان مغتاظًا من سلبية إخوان بريدة.

«كنّا مسرورين جداً في الاستماع إلى أخبار أفغانستان»، يتذكر منصور، كنا فرحين جداً بنجاح إخواننا المسلمين. لكننا كنا نُبقي هذا بيننا فقط، لم نكن ملتزمين جداً بالجهاد.. ولا حتى بقضية ازدهار وتطور الصحوة.

أقلقه هذا التحفظ من قبل إخوان بريدة. كان سلمان العودة يُلقي دروسه في مسجد لا يبتعد كثيرًا عن الحي الذي يسكنه منصور في بريدة، لكن الإخوان حذّروه و طلبوا منه الابتعاد «مشايخ الصحوة هؤلاء يتهمون الحكومة بالكفر»، قالوا له «انتبه لنفسك!».

الإخوان تقليديون في النهاية، ووهّابيون مخلصون للأمير وتحت كنف ابن باز، وكان منصور يتجه إلى رفض هذه الطاعة العمياء التي تسيطر على الرسالة الوهّابية التقليدية، «عندما أستمع إلى أشرطة العودة التقط الرسالة بشكل سريع. كانت هذه الرسالة واضحة في كل جملة كان يقولها وقد كانت لاذعة جدًا».

كان منصور في طور إنشاء صداقات مع المجاهدين العائدين من أفغانستان الذين أثاروه بطريقتهم الحذرة و أسلوبهم المحترس.

«كانوا يضحكون ومتحمسين جدًا. كانوا ببساطة مختلفين عن سلبية الإخوان الذين كانوا دائمًا يقولون»: يجب أن نقبل عقاب الله. «لكن المجاهدين

تدربوا على كيفية صناعة الفارق. حاربوا لتغيير الواقع في أفغانستان، والآن هم يستعدون لتغيير الواقع في وطنهم».

بدأ منصور بالذهاب إلى الرياض ليمكث مع أصدقائه المتطرفين الجدد في حي الربوة حيث يجتمع السلفيّون الشباب في الاستراحات على الطريقة الأفغانية. كانت الرياض إحدى أهم محطات جهيمان لتجنيد مناصري المهدي. و الآن، و بعد أكثر من اثنتي عشرة سنة، حان الوقت –كما يبدو– إلى إعادة أسلوبه إلى الحياة من جديد. يقتني بعض المجاهدين الشباب الرسائل المشهورة لجهيمان ويقرأونها لبعضهم البعض ويناقشونها. خلال حرب الخليج كانوا يجلسون في الليل على السطح لمشاهدة صواريخ سكود التي يطلقها صدّام. يقوم أولئك الموسرون الذين يمتلكون سيارة بأخذ إخوانهم إلى حلقات الذكر أو لأداء صلاة الفجر.

«كانت أشبه بالمعسكرات أو بالطقوس الدينية» كما يتذكر أحد الجهاديّين في تلك الأيام. «كنا نقوم بالحراسة والمراقبة بشكل جماعي. تشعر كما لو كنت ضد كل العالم. لا أحد مهم خارج جماعتك الضيّقة».

كان الحيّ تقياً نقيًّا إلى الدرجة التي لا يُباع فيها الدخان في المحلات التجارية.

«شاهدنا العديد من الأفلام التسجيلية عن المجاهدين –موت ودفن عبدالله عزّام–».

يقول منصور النقيدان: «أعجبت بهؤلاء المحاربين في أفغانستان وكنت أريد أن أذهب بنفسي. لكن عندما ذهبت للحصول على جواز سفر أخبروني أنني ممنوع من السفر. لماذا؟ سألتهم. إذا أردت أن تعرف، -أخبروني- فاذهب إلى وزارة الداخليّة».

لكن منصور الآن أمضى ثلاث فترات في السجن —ستة عشر يومًا بسبب انتقاده لحفلات تخريج حفظة القرآن الكريم في 1987م، وخمسة وخمسين يومًا في عام 1989م. بسبب احتجاجه على كأس العالم للشباب وسبعة و أربعين يومًا في 1990م. بسبب محاضرة ألقاها في بريدة يتهجّم فيها على النظام التعليمي السعودي بسبب بعده عن الدين ويدعو الشباب فيها إلى ترك المدرسة كما فعل هو. كان يعدّ نفسه لكي يكون بطلًا يحمل هدفًا إسلاميًّا. وفي منتصف عام 1991م. بعد أشهر فقط من انتهاء حرب الكويت تلقّى دعوة كانت بمثابة تتويج لجهوده. كان الشيخ أسامة يبحث عن رجل يتمتّع بمعرفة دينية تمكنه من جمع الشباب المجتهدين في الرياض وعقد دروس ترفع من ثقافتهم الشرعية، وسيوفّر سكناً له وراتباً شهرياً.

طار منصور إلى جدة بأسرع ما يستطيع ذاهبًا إلى منزل بن لادن في شارع المكرونة. لكن بمجرد وصوله إلى هناك كان أسامة قد غادر.

***

في ظرف أشهر تحوّل أسامة بن لادن من زميل محتفى به و شريك لآل سعود إلى عدوّ لدود. لعدّة سنوات كان ولاؤه المرن لراعي عائلته نكتة سمجة يتناقلها الأفراد المؤمنون. عندما قام الملك فهد بزيارة رسمية لبريطانيا في عام

1987م قلّدته الملكة بالقلادة الفيكتورية الملكية.

«بالله عليكم»، نهاهم أسامة، «لا تناقشوا هذا الموضوع. ركّزوا في مهمتكم. لا أسمح لأحد بمناقشة هذه القضية هنا».

لكن بعد ثمانية عشر شهراً قضاها في المملكة، تغيّر موقف واتجاه بن لادن، لم يستسغ رفض الحكومة السعودية لعرضه في المساعدة. لقد تجاهل فعلاً طلب الأمير تركي و بدأ في تنظيم معسكرات القاعدة في اليمن.

«قدّمني ذات مساء إلى بعض أصدقائه الذين كانوا يساعدونه في الجهاد في اليمن»، يتذكر جمال خاشقجي، «كان فخورًا بذلك. أخبرته قائلاً: لا تستطيع أن تقوم بذلك من دون أن تسمح لك الحكومة. لكنه فقط نظر إليّ وابتسم».

ظهر فجأة بعد ذلك سلك شائك فوق الجدار الطويل أو السور المحيط بمنزل أسامة في شارع المكرونة.

«ربما كان خائفًا من انتقام ما يقوم به بعض المخبرين اليمنيين»، يقول خاشقجي، «طلبت منه الحكومة إنزال السلك و التوّقف عن إلقاء المحاضرات. ثم صودر جوازه».

قابل الناشط الليبرالي والمحامي محمد سعيد طيب بن لادن في تلك الأشهر.

«كان اجتماعًا أسبوعيًا في مكة». يقول طيب، «رأيت هذا الرجل الطويل والجميل يجلس في نهاية المجلس. كان يحمل مسدّسًا خارج ثوبه – يبدو ذلك طبيعيًا في تلك الأشهر التي حدثت فيها الحرب مع العراق، على الرغم من أنه لا يوجد أحد في ذلك الاجتماع يحمل مسدّسًا. تلك كانت المرة الوحيدة في حياتي التي أرى فيها بن لادن، وقد تفاجأت بهدوئه و تهذيبه. إذا بدأ أحد الحديث في المجلس فإنه يتوقف عن الكلام فورًا».

كان محمد سعيد طيب من المطالبين الملتزمين بتغييرات دستورية في مناقشات مطوّلة مع آل سعود. بحلول عام 1991م، كان طيّب قد دخل وخرج من السجن ثلاث مرات، حتى ذلك التاريخ بما مجموعه سبع سنوات خلف القضبان (كان يبحث عن المزيد). لذا، عندما توقف بن لادن عن الحديث حول الحاجة إلى محاربة الفساد والوجه المزّيف للشيوعية في أفغانستان، ناقش معه سعيد طيّب الحاجة إلى معركة هنا قريبة من الوطن «السيّد بن لادن لماذا تنفق حياتك ومالك تقاتل في أرض أجنبية؟» سأله طيّب، «الفساد الحقيقي الوجه المزيّف موجود هنا – عن يميننا ويسارنا، فوق رؤوسنا وأقدامنا».

كان محمد سعيد طيب، القومي العربي على الطريقة القديمة (سمّى ابنه الأول عبد الناصر تيمّنًا بالقائد المصري المشهور) مناهضًا للمغامرة الأفغانية. كان يشعر أنه تم التغرير بـ بن لادن و زملائه الإسلاميين و الإيقاع بهم في مشروع أمريكي لهزيمة السوفيات. لكن بن لادن رفض هذا الرأي. «أفغانستان»، ردّ عليه، «كان المكان الذي دربنا فيه شبابنا على القتال واستخدام السلاح».

رفض أسامة الانجرار مع طيّب في كيل النقد لآل سعود ولم يفصح عن أحاسيسه ومشاعره الحقيقية. كان قد تلقى تحذيرًا رسميًا. وتنحصر أولوياته في الوقت الراهن باستعادة جوازه المصادر.

تمكن من استعادة جوازه بعد أن استعان بسلطة علاقاته العائلية، في صيف 1991م، وفوراً غادر البلاد إلى أفغانستان. تختلف المصادر في الفترة التي قضاها هناك -ربما أكثر من ستة أشهر- ثم طار مع أتباعه إلى أفريقيا. تلقّى بن لادن دعوة من حسن الترابي مهندس الانقلاب الإسلامي في السودان في ذلك الوقت، لنقل مقرّاته إلى الخرطوم، وقرّر أسامة قبول تلك الدعوة. كانت تلك فرصة مدهشة لإقامة «قاعدته» في دولة يتلقّى فيها الدعم من حكومة إسلامية أصلية تختلف كليّة عن المملكة العربية السعودية التي -كما ستنكشف الأحداث لاحقًا- لن تطأها قدمه أبدًا مرة أخرى.

الفصل السابع عشر

إيقاف المنكرات

«إذا لم تتحرك الحكومة لإيقاف هذه المنكرات، ماذا علينا أن نفعل لإيقافها؟».

بحلول نوفمبر 1991م، أي بعد أشهر قليلة من رحلته غير المثمرة لمقابلة أسامة بن لادن في جدة، هذا السؤال كان على قمة أولويات منصور النقيدان.

«تعليم الناس وتوجيههم ليس كافيًا بالنسبة لي»، يقول منصور، «أصبح العالم ملوّثًا. بدأت أشعر أنني أريد تغيير الواقع نفسه».

قدّم له أصدقاؤه الجهاديّون إجابة شافية وهم جالسون يتحدثون في أحد الليالي في ضاحية السويدي بالرياض.

«لدينا مهمّة هذه الليلة»، أخبروه «سوف نحرق فيديو البلجون، ونريدك أن تشارك معنا».

فيديو البلجون هو أحد أكبر محلات الفيديو في الرياض.

«لا أملك الشجاعة للقيام بهذا»، أخبرهم منصور على استحياء، «وليس هذا عملاً صائبا».

نظر أصدقاؤه إلى بعضهم البعض، ثم نظروا إليه مرة أخرى. أوضحوا أنهم ذهبوا إلى محل الفيديو قبل أيام وحاولوا الحديث مع صاحب المحل وإرشاده إلى عظم الذنب الذي يقترفه. لكن الرجل لم يُبدِ أي استجابة، وحيث إن طلبهم المهذَّب قوبل بالرفض، فإن من واجبهم الأمر بالمعروف بالقوة. لا يمكن أن يكون ذلك خطأً. وفي خضم نقاشهم كانوا يحاولون تطبيق بروتوكولات القانون الإسلامي في الهجمات العسكرية، أي الحاجة إلى تقديم إنذار مبكر. والحصافة في اختيار الأهداف، والحرص على أن يكون العقاب المُخطَّط له مناسباً للجرم المقترف من دون مغالاة. كانوا بطريقة أخرى يدعون منصور إلى الجهاد، وليس مجرد العنف غير المُخطَّط له — ومعروف أن الجهاد مهمّة مقدّسة.

جلس منصور يفكّر. صلّى ركعتين صلاة الاستخارة، هو بالتأكيد لا يحتاج لأحدٍ أن يذكّره أن أشرطة الفيديو وسيلة منحلّة يتم استخدامها لنقل السموم العلمانية وغير الإسلامية وتغريب عقول الشباب السعوديين — وقد اشتكى منها العلماء و المشايخ التابعون للحكومة من دون أن يتحرك أحد لإيقافها. أصدقاؤه — من ناحية أخرى — كانوا جادّين في الأمر وكمسلمين ملتزمين يملكون الجاهزية لوضع أفكارهم ومبادئهم موضع التطبيق، قاموا بالفعل بإحراق محلات الفيديو في عنيزة و بريدة. وقد عملوا جاهدين أثناء الإعداد لإيقاف المنكر هذه الليلة على تقليل الخسائر البشرية ما أمكنهم ذلك عن طريق التأكد بأنه لا يوجد أحد داخل البلجون عندما يكون مغلقًا.

هذا المحل يقع في بناية مستقلة لوحده وهذا يعني أنه لن يتأثر أحد غيره.

اقتنع منصور بعد أن ربطوا بين المهمّة الدينية و الجانب الإنساني في هذه العملية.

«بعد ساعتين»، يقول منصور، «وافقت، سوف أقوم بهذه العملية كنوع من التشريف. دعوة أصدقائي لي لتنفيذ ذلك كان نوعًا من التكريم».

تم شراء الوقود من تسعة أمكنة مختلفة، بالإضافة إلى قارورة غاز طبيعي لاستخدامها في تفجير الباب و فتحه. وصل أصدقاؤه إلى محل الفيديو في الهزيع الأخير من الليل بسرعة احترافية، قاموا - بعد أن درسوا مخطّط المحل- بسكب الوقود على سطحه و خلال فتحات تكييف الهواء. عندما تأكدوا أن الوقود قد تسرّب إلى كل جزء من أجزاء المحل لإحداث التأثير المرغوب، قاموا بالخطوة الأخيرة و هي سكب تيار صغير من الوقود عبر الباب الأمامي إلى داخل المحل. رمى منصور عود الثقاب و هرب مسرعًا تاركًا خلفه النار تجري بدفء هادئ نحو المحل.

بعد ساعات -أي بعد صلاة الفجر- قاد المجرمون سياراتهم حول مكان الجريمة ولم يتمالكوا أنفسهم من فرط السعادة. احترق محل البلجون بما فيه من محتويات عن آخره و سُوِّي بالأرض. لقد تم بالفعل إيقاف المنكر. «الحمد لله!» -صاحوا جميعًا- «والشكر له!».

***

الهدف الثاني في بريدة –جمعية خيرية نسائية للأرامل والفقراء– يرى أفراد هذه الجماعة أنها مجرد مكان لتعليم النساء في المجتمع بعض الأشياء والعادات السيئة.

«لقد تأكدوا فعلاً»، كما يقول منصور، «أن هذه الجمعية كانت معقلاً لتحرير المرأة و تغريبها، أي تعليمها كيف تنزع الحجاب و كيف تكون حرّة طليقة تفعل ما تشاء. لم أكن متأكدًا من الأمر و سألتهم عن الدليل. صليت صلاة الاستخارة لمدة ساعتين قبل أن أقرّر الذهاب، لكن هذا لم يساعدني على الشعور بالسعادة».

كان مقرّ الجمعية فيلا ذات أسوار عالية، الأمر الذي أخفى منصور وأصدقاءه عن الأنظار عندما دخلوا فيها وبدأوا في تفتيش الغرف.

«لم يكن هناك أي فتوى ضد الجمعية»، يقول منصور، «لذا بحثنا عن دليل يثبت ارتكابها للمحرمات. كنا نتوقع وجود أشرطة فيديو جنسية، لكن كل ما وجدناه هو صالون لقصّ و تصفيف الشعر. وجدنا غرفة واحدة مجهّزة بأجهزة تمارين خاصة بالمعاقين، ولهذا قررنا أن نترك هذه. ثم وجدنا رفًا لكتب دينية، كيف يمكننا إحراق هذا؟ قررنا أن نستخرج من الرفّ القرآن الكريم. في مكتب المديرة، وجدت ملفًا يحتوي على أسماء ثلاثمائة عائلة فقيرة. اندهشت لرؤية أسماء ثلاث عائلات أعرفها، كانت قريبة مني، وكانت تستلم المساعدات. جعلني هذا الأمر حزينًا، لكن أحد الأصدقاء وجد كتابًا مثيرًا للجدل للعالم المتشدّد محمد ناصر الدين الألباني يقول إنه يجوز للنساء أن يبدين وجوههن.

«هذا ما كنّا نشكُّ فيه»، انفجر الصديق منتصرًا، «يؤكد التهم والظنون حول نشاط الجمعية» وافق الجميع دون نقاش. لهذا بدأنا في سكب الوقود والغاز داخل الغرف».

يتم تقسيم العمل في هذه المجموعة بالتساوي. الشخص الذي سكب الوقود لا يقوم بإشعال النار. يتركون أمر قدح شرارة عود الثقاب إلى قادم جديد. كانت النتيجة، كما في محل الفيديو، مدمّرة.

«احترق المبنى بالكامل»، يقول منصور، «لكن هذه المرة لم أشعر بالسعادة كما شعرت بها في المرة السابقة».

***

لم يكن لدى منصور الوقت الكافي للتفكير في ندمه. في أقل من عشرة أسابيع – يناير 1992م – تمكنت المباحث من تعقّبه هو وأصدقائه ومَثَلوا أمام سليمان المهّنا، الشيخ المهيب الذي كان يعمل رئيساً لمحاكم منطقة الرياض.

«يا بني»، بدأ الشيخ حديثه بتعاطف واضح لم يتوقعه منصور، «هل تشعر بالندم إزاء ما قمت به؟!».

«لم أفعل شيئًا خاطئًا»، ردّ عليه منصور بتحدٍّ، «ولو قلت لك إنني لن أقوم بهذا العمل مجددًا فأنا أكذب».

ثم بدأ منصور بذكر الأحاديث و المصادر التي تبرّر ما قام به لإيقاف المنكرات حتى أوقفه القاضي.

«أنا لست هنا للنقاش معك»، قال له الشيخ الذي تحوّل فجأة إلى الشدة، «أنا هنا لأصدر حكمًا عليك».

أصدر القاضي حكمًا على منصور و أصدقائه بالسجن ست عشرة سنة.

كان منصور النقيدان و زملاؤه من مشعلي الحرائق في سبيل الله أبرز المحتجّين ضمن قائمة طويلة و سلسلة من الاحتجاجات التي أظهرت ردّة الفعل في المملكة تجاه حرب الخليج. بعد عقد من الهدوء المحلي، أدى ترحيب الملك فهد بالقوّات الأمريكية إلى خلق هذه الموجه. قامت النساء بالمطالبة بحقهن في قيادة السيارات، بينما قدّم الإصلاحيون الليبراليون الثلاثة والأربعون من جدة والرياض والمنطقة الشرقية ومن بينهم محمد سعيد طيّب الذي أمضى الكثير من السنوات في السجن، أفكارهم في الإصلاح الديمقراطي الشامل بالطريقة التي قدموها للملك. رفض آل سعود هذا الالتماس بحجة أنه غربي نخبوي، «ماذا تتوقع من جدة؟» كما يقول السؤال الإقصائي الصادر من مفكّر نجدي، لكن الهجوم الثنائي يصدر من قلب الوهابيّة وهو خطاب المطالب الذي وقّعه اثنتان وخمسون شخصية دينية معظمهم من دعاة الصحوة، ثم الوثيقة الأكثر قوة والتي جاءت في مايو 1992م، والموسومة بمذكرة النصيحة. هذه الالتماسات لا تطالب بالديمقراطية على الطريقة الغربية والتي لا تمثّل أولوية لأولئك الذين يبحثون عن الحكمة في القرآن، بل كانت تدور حول مطالب دنيوية تهم الشعب، «النصح أو المشورة»

كانت العبارة المشهورة التي يطالبون بها، و ما يقتضي ذلك من الإصلاح الإداري و القضائي –و خاصة مواجهة الفساد الحكومي– المسؤولية، إحياء القيم الإسلامية، و تقليل العمالة الأجنبية.

قدّم هذه المذكّرة وأعدّها الدكتور أحمد التويجري، وهو أحد أفراد العائلة التي صنعت اسمها من خلال خدمة العمل الحكومي. كان أبوه يدير المكتب الملكي للبرقيات للملك عبدالعزيز لفترة من الزمن، ثم جاء بعده أخوه الكبير سعود، حيث كانا يتعاملان مع جهاز مورس لفكّ شفرات الرسائل التي كان يتصل بها الملك مع العالم الخارجي.

«في ليالي الصيف، كنّا ننام على السطوح»، يقول التويجري الذي أمضى معظم طفولته في الطائف. «يحتفظ أبي بجهاز المذياع بجانبه للاستماع إلى راديو هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، وأحيانًا يغيّر الموجه. لنستمع إلى أم كلثوم، أو إلى أي قصيدة أو موسيقى مصرية».

قاد التويجري أثناء دراسته في جامعة الملك سعود حملة ناجحة لتشكيل وإنشاء إتحاد طلابي ورسّخ لاحقًا الاعتقاد الراسخ بحبه للمشاكل عندما رجع من أمريكا في منتصف الثمانينات حيث ألقى محاضرة ينتقد فيها صلافة المؤسسة الدينية وبعدها عن التسامح ويطالب بإنشاء مجلس الشورى لتمثيل رأي المجتمع بشكل عام.

كان مجلس الشورى أحد المطالب الرئيسية في مذكّرة النصيحة التي عمل عليها التويجري، الذي كان آنذاك عميدًا لكلية التربية في جامعة الملك

سعود، بمعاونة مجموعة من الأكاديميين والإسلاميين في الأشهر التي أعقبت حرب الخليج. نظّم العديد من أصدقائه جلسات أسبوعية في منازلهم يرتشفون الشاي والقهوة ويتناولون العشاء الخفيف وفي الوقت نفسه يناقشون قضايا الساعة.

«وافق الجميع»، كما يقول التويجري، «على أن الأمور كانت تسير بشكل خاطئ، وأنه يجب اتخاذ خطوة ما».

كان التويجري، في خضم مناقشات الخطط الإصلاحية، حريصًا على إحداث توازن بين الاقتراحات المحافظة والمعتدلة. كان ذلك دليلاً على الإحساس بالأزمة وأن مجلس الشورى الذي كان يعتبره البعض فكرة علمانية أو غربية، هو مطلب الجميع الآن بضمانات معيّنة. يرى الجميع أن المجلس هو السبيل الوحيد نحو العمل مع الحكومة. بعد نقاشات مطوّلة في جلسات خارج الرياض، و خاصة في معقل الوهّابية في عنيزة و بريدة، قدّم التويجري أفكاره الجديدة على شكل بيان رسمي في ثلاث صفحات. ساعده زملاؤه في الجامعة باختصاره إلى صفحة واحدة ذات نقاط محدّدة. و بعد أن أخذ التوقيعات من المشايخ والعلماء من كبار القوم، أخذ هذا البيان إلى مرشده الديني عبدالعزيز ابن باز.

«الشيخ ابن باز هو أحد أكثر الأشخاص انفتاحًا من الذين عرفتهم في حياتي»، يقول التويجري، «على العكس تمامًا مما هي سمعته المنتشرة التي تروّجها عنه الصحف اليوميّة. لقد عانى اسمه كثيرًا بسبب الضغوط التي تفرضها عليه الحكومة والمشايخ من أجل إصدار فتاوى غريبة أحيانًا. يقوم

أحيانًا بمحاولة التوفيق بين الأشياء المستحيلة. لكنّي أستطيع أن أخبرك أنه عالم عظيم – بقلب رحيم جدًا. ما زلت أتذكّر سحابة الحزن التي غطّت وجهه عندما أخبرته أن سيدتين محاضرتين في كلّيتي تم فصلهما بعد مظاهرة السيارات. تغيّر لونه. كان هو الشخص الذي تدّخل عند الملك و أعادهن إلى أعمالهن».

الآن ذهب التويجري إلى منزل ابن باز في الشميسي ليقرأ عليه مطالب الإصلاح.

«استمع الشيخ بحرص شديد، ثم تنهّد فجأة. احتوت الوثيقة على نقد، لكنه نقد مخلص. إنه عمل من خلال النظام بهدف التغيير، لهذا فهو يتوافق مع مبادئه. كان يريد أن يكون وطنيًا».

تسليم المذكرة كان أكثر صعوبة.

«قررنا أن يقوم بذلك وفد بأعضاء قليلين: الشيخ عبد المحسن العبيكان (شيخ ديني محافظ)، الشيخ سعيد بن زعير (شيخ متشدد آخر أودت به أفكاره المتطرفة إلى السجن)، ومحسن العواجي (متشدد آخر). ذهبوا جميعاً في سيارة واحدة إلى القصور الملكية. طُلب منهم أن يتركوا الوثيقة في قصري فهد وسلطان. أما نايف وسلمان فقد قابلا المطالبين واستلموا الوثيقة شخصيًا».

ثم تبع ذلك فترة صمت.

«المذكّرة»، يقول التويجري، «فاجأتهم. كانوا مندهشين جدًا. جاءت الأفكار من كل حدب و صوب، من الشمال والجنوب والشرق والغرب، ومن شخصيات لها ثقلها في المجتمع، ومن رجال دين ومحافظين. كانوا قضاة مشهورين وأكاديميين، ورجال أعمال ناجحين، وعلماء على رأسهم ابن باز. كان إجماعاً شعبياً على قدر كبير من الأهمية. عملنا بسرعة وهدوء حتى لا تشمّ المباحث أي خبر، أو ربما لم يتخيلوا أننا في الواقع سنقدّم هذه الوثيقة».

بعد يومين، تلقّى الوفد الذي سلّم الوثيقة اتصالاً من مكتب الأمير سلمان يحدّد موعدًا بعد يومين. لكن، في تلك الأثناء، تسرّب خبر الوثيقة وتفاصيلها. قرأ فقراتها قطاع عريض من الناس، الأمر الذي ألغى موعد الاجتماع مع الأمير.

«أغضبهم بشدة تسرّب تفاصيل الوثيقة»، يقول التويجري، «وكشف محتوياتها وأسماء من تقدموا بها. رأوا أن معرفة الناس بها خيانة لهم. بمجرد أن وصلت مجموعة منّا إلى مكتب الإمارة، كان سلمان غاضبًا جدًا حيث بدأ الصراع فورًا».

«لحسن الحظ أدرك الجانبان أنهما أمام مشكلة يجب العمل على حلها وليس لإحداث مشكلة أخرى. في النهاية لم يكن هناك في المذكّرة أي شيء ضد العائلة المالكة. كانت محاولة لمساعدتهم وتقديم النصيحة والمشورة لهم. هذا ما أكّدناه له. استمر الاجتماع نحو ساعة و انتهى بنهاية معقولة».

تم اختيار الأمير سلمان، أمير الرياض، من قبل الإخوان الكبار في آل

سعود للتفاوض في حل وسط يحفظ ماء الوجه الملكي. لم يكن المطالبون مستعدين للتنازل عن كلمة واحدة، لكنهم أبدوا استعدادًا في الاعتذار عن الطريقة التي تسربت فيها الوثيقة من غير قصد. ومن جهتهم، وافقت الحكومة على تشكيل لجنة يمكن من خلالها قبول الاقتراحات والشكاوى المقدّمة، وكبداية لهذا الأمر أعلن الملك سريعًا تأسيس مجلس الشورى. كان الملك فهد يحتفظ بهذه الخطط في أدراجه لسنواتٍ عديدة. مجلس يضم ستة وستين مقعدًا من الأعضاء الذكور يتم تعيينهم بسلطات محدودة في المراقبة. بمقر اكتمل بناؤه للتو، وعد الملك في عام 1980م بتأسيس مجلس الشورى بعد حصار المسجد الحرام. الآن، الجنود «الصليبيون» وبعض الحراك المحلي أدّوا إلى تمرير ما عجز عنه جهيمان.

حمار اليمن

بعد نهاية حربِ الخليج، أرسلت الحكومة اليمنية عرض سلام إلى الملك فهد - حماراً يحمل سلّتين ثقيلتين، واحدة في كل جانب من ظهره. احتوت سلة واحدة منهما على امرأة جميلة ممشوقة بينما الأخرى على قطع ذهبية... (.............................).

***

بدأت عمليات القبض بعد شهر من موافقة الأمير سلمان على السلام.

«وصلت مجموعة من ضباط المباحث إلى منزلي»، يتذكر التويجري. «كانوا يلبسون الثياب. كانوا مهذبين ومحترمين إلى أقصى حد. لكن، في

السعودية لا نملك أي حقوق. قالوا إن لديهم أمرًا بتفتيش المنزل وأخذي إلى السلطات. هذا ما حدث. كنّا سبعة أو ثمانية ممن قُبض عليهم و أُخذوا إلى سجن الحائر (السجن التابع للمباحث في جنوب الرياض).

في كل ليلة يقوم ثلاثة ضباط من المباحث باستجواب التويجري.

«كانوا يريدون أن يعرفوا عمّا إذا كان هناك خطة أو مؤامرة. هذا هو الغرض من كل هذا الاستجواب. لقد تفاجأوا فعلاً بالمذكرة. و الآن يريدون أن يتأكدوا ممّا إذا كنّا نريد الإطاحة بالحكومة».

«لو كنت أريد الإطاحة بأحد لكنت قمت بذلك بالسر» أخبرتهم بذلك. «لم أكن سأذهب للحكومة لأعطيها نصيحتي».

بررت الحكومة القبض على التويجري وأصدقائه بأنهم قد خرجوا عن أصول وبروتوكولات الشورى. لم تكن تلك الطريقة السعودية في نشر النقد بطريقة تثير الانشقاق والقلق.

«آمل أن تقتصر الجهود على تقديم النصيحة الخالصة لله»، صرّح الملك فهد «وإذا كان هناك بعض الأشياء التي يمكن أن تقال، فإن الشخص المعني يمكنه أن يأتي للمسؤولين ويتحدث معهم في كل منطقة وفي أي مكان. الجميع يحرص ويرغب في سماع النصيحة».

«كونوا على ثقة بأمراء المناطق»، بعبارة أخرى، بعد أسبوع، نُقل

التويجري ليلتحق بزملاء الالتماس والإقامة معهم في مكان يضمهم جميعًا ويحوي مجموعة من الزنازين.

«تطوعت للطبخ لهم حيث كان الجو عائليًا هادئًا. يأتي الضبّاط أحيانًا للدردشة و مشاهدة المباريات الرياضية في التلفزيون معنا. سُمح لنا بأخذ الكتب من مكتبة السجن أو إرسال شخص ما لشرائها. كان الأمر شبيهًا بالذهاب إلى نادٍ أو نحو ذلك. كان محزنًا نوعًا ما عندما أفرجوا عنّا بعد أربعين يومًا. كنّا نسمع قصصًا مرعبة في سجون مصر، ليبيا وسوريا وفي سجون كل بلد عربي. لكن، من واقع خبرتي، أستطيع أن أقول إننا في المملكة العربية السعودية نملك سجونًا أفضل بكثير».

***

عكست فترة الأربعين يومًا التي قضاها التويجري في السجن الغضب والإحباط الذي سيطر على الملك فهد. لقد اتخذ الملك فهد قرارات صعبة وبسرعة كبيرة من أجل إنقاذ وطنه لكي يُقابل بالانتقاد من جزء في وطنه. الجميع يتفهّم موقفه وغضبه، إذ بالإضافة إلى منتقديه المحليين، ظهرت مجموعة من المنشقّين وأحدثت الكثير من المشكلات في المنفى. بعد الفشل الذريع لخطاب المطالب ومذكّرة النصيحة، قام اثنان من الأكاديميين المتشددين في جامعة الملك سعود: سعد الفقيه أستاذ الجراحة، ومحمد المسعري، رئيس قسم الفيزياء، بتشكيل تحالف في لندن استخدما فيه ببراعة هيئة الإذاعة البريطانية البي بي سي، والوسائل الإعلامية الدولية الأخرى في شن هجوم وانتقادات لاذعة على النظام السعودي.

لم يهتم الملك فهد بمطالعة الكتب لكنه يفهم قوة التلفزيون. بدأت لاقطات الأقمار الصناعية التلفزيونية بالظهور فوق أسطح المنازل السعودية أوائل التسعينات الميلادية. الأمر الذي فتح قناة أخرى للناشطين الصحويين للتعبير عن غضبهم. الدش الفضائي –كما يراه المشايخ– وسيلة ينتقل من خلالها الانحطاط الغربي إلى البيوت السعودية مفسداً عقول الشباب –والنساء على وجه خاص– بأساليب حياة طائشة غير إسلامية. بدأ المتعصبون، بمن فيهم أعضاء الشرطة الدينية (الهيئة)، باستخدام بنادق الصيد وتصويبها على هذه اللاقطات الغربية التي تقع عليها عيونهم، بينما لم تقم الشرطة المدنية بأي خطوات جادة لملاحقتهم.

جاء الشيخ ابن باز لرؤية الملك وتوضيح الغضب الذي يشعر به المسلمون الأتقياء حيال هذه الدشوش الفضائية، وفهد –الذي يحتوي كل قصرٍ له على دش ضخم منها– كان يمتلئ بالتعاطف مع الشيخ وأصحابه. يجب منع الدشوش أو اللاقطات الفضائية، وافق الملك. صدر أمر ملكي في عام 1994م بحظر تصنيع واستيراد وتركيب اللاقطات الفضائية، وبمجرد صدور هذا الأمر اتجه العديد من الأمراء إلى تجارة الدشوش المربحة الجديدة. أصبح الأمر بالنسبة للمواطن العادي أن شراء دش أميري يعني شراء حصانة في الوقت نفسه.

الاستثمار الكبير كان في إنتاج البرامج التلفزيونية ونشرها وإذاعتها عبر شبكات التلفزيون الفضائية. تتحكم الحكومة بالقنوات التلفزيونية السعودية من خلال وزارة الإعلام، حيث تقع الاستديوهات الرئيسية في مقر الوزارة بمجمّع الرياض، حيث ترى البرج الطويل الشبيه بالبصل والخاص بالتلفزيون

يرتفع عالياً، والذي أصبح رمزاً وشعاراً للوزارة تطبعه في أوراقها الرسمية. سوف يحدث التلفزيون الفضائي نقلة تنقل فيها التقارير و الأخبار عن المملكة والتي لا تصل إليها الرقابة الملكية، إلا إذا كانت العائلة المالكة تمتلك المحطة التلفزيونية الفضائية. لهذا، في بداية التسعينات، بدأ الملك فهد بالاستثمار في قطاع التلفزيون عن طريق عبدالعزيز وخالد الابراهيم، الأخوين العزيزين لزوجته (أي بالتالي خالا ابنه عبد العزيز).

«أدرك الملك»، يقول أحد رجال مطبخه السياسي، «أن التلفزيون، وهذه القنوات الفضائية على وجه الخصوص، سيكون لها تأثير كبير على تفكير السعوديين. سوف تكون نافذتهم على العالم وتفتح عيونهم نحو كل شيء. ولا يمكن إيقافها أبدًا في المستقبل، كان حظر الأطباق الفضائية مجرد خطوة رمزية. إذاً، لم لا يكون هناك نوع من السيطرة والتأثير؟».

اتجه الملك فهد بعد أن فكّر بالتأثير و السيطرة في نظره نحو الشرق. كان لديه مجموعة ضيّقة لأشخاص يتصل بهم عند الحاجة في الهزيع الأخير من الليل لاختبار أفكار جديدة أو طلب كتابة سياسة عاجلة. كانت هذه المجموعة التي يتصل بها عبر الهاتف مصدر أفكاره، وفي الأشهر التي أعقبت حرب الخليج بدأ فهد بالاتصال التليفوني في ساعات الصباح الأولى للحصول على الخبرات و الأفكار التي يحتاجها في التعامل مع مشكلته الأزليّة مع الشيعة.

الفصل الثامن عشر

العودة من المنفى

بمجرد أن غزا صدام حسين الكويت، في صيف 1990م، بدأ مخبرو صدام بالظهور عند مقام السيدة زينب في دمشق. يزور الشيعة هذا المكان لقرون عديدة لتكريم السيدة زينب، الأخت الروحية للشهيد الحسين. منذ أن غادر إيران، جعل الشيخ حسن الصفّار، قائد الشيعة في المنفى، مقر إقامته هناك، وقد جاء العراقيون إليه في رسالة يحملونها من رئيسهم.

كان لدى صدّام مكانٌ خاصٌ في قلبه لمصالح الشيعة السعوديين، كما يقول مبعوثوه، وتبعاً لذلك فقد قرّر الرئيس أن يقدِّم للشيخ حسن محطة إذاعية له في العراق. هذا يساعد الشيخ على بعث رسائله الروحية مباشرة إلى أتباعه المضطهدين داخل المملكة، وفي الوقت نفسه تشجيعهم للثورة ضد ديكتاتورية آل سعود. بالإضافة إلى المحطة الإذاعية سيحصل الشيخ وأتباعه على الدعم المالي لتغطية نفقاتهم ونفقات حركته - وأيضاً ربما إمكانية استخدام طائرة خاصة. هذه دعوة للشيخ حسن وأتباعه من الشيعة لتجنيدهم والانضمام له في حربه ضد السعودية.

«لم تكن الدعوة تستحق مجرّد الرد عليها» يقول الشيخ بهزءٍ شديد اليوم «وخاصة فكرة أن صدام حسين حريص على حقوق الشيعة».

«لقد رفضنا هذه الطريقة تماماً»، يقول توفيق السيف، الذي كان نائباً للشيخ. «لقد غادرنا إيران من أجل أن نثبت استقلاليتنا. لم يكن ولاؤنا للعراق، بل للمملكة العربية السعودية بعد تغييرات إصلاحية».

كان الشيخ حسن، في صيف 1990م، يقود أشرس معارضة واجهها آل سعود حتى ذلك التاريخ، وذلك بفضل التغييرات التي أحدثتها الحركة في أعقاب مغادرتها لإيران. ترك الصفّار وأتباعه فكرة الثورة الإسلامية التي ترتبط بحركة الخميني. أصبحوا الآن يقدّمون أنفسهم بمصطلحات عالمية، أي اللجنة الدولية لحقوق الإنسان في الخليج والجزيرة العربية — وهو وتر حساس يمكن عزفه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.

«جذب مصطلحنا (حقوق الإنسان) الإعلام الأمريكي مثل المغناطيس»، يقول فؤاد الإبراهيم، مؤرخ الحركة الشيعية المنسقّة. «جاء الباحثون إلينا يسألون عن المعلومات جماعات. وصلتنا استفسارات من الأمم المتحدة. بدأنا العمل مع منظمة العفو الدولية، ومنظمة حقوق الإنسان، واستخدمنا أساليبنا الخاصة بالاتصال داخل المملكة لتسليم القصص الإخبارية عن الفضائح السعودية وأخبار الاعتقالات فيها إلى جميع أنحاء العالم».

فتح جعفر الشايب، أحد مستشاري الشيخ السياسيين الذي يكمل دراسته في الولايات المتحدة، مكتباً سعودياً لحقوق الإنسان في واشنطون

حيث نظم جدولاً لمتحدثين بارعين من الشيعة السعوديين الشباب لتقديم قضيتهم للتلفزيون والإذاعة. قامت تبعاً لذلك لجنة حقوق الإنسان التابعة للمحامين في مينيسوتا بإصدار ملف عشوائي يتضمّن الاتهامات لآل سعود، بعضها حقيقي، وبعضها مبالغ فيه، ويبيّن بالتفصيل انتهاكات المملكة لحقوق الشيعة، والنساء، والعمالة الأجنبية. لكن النجاح الحقيقي للحركة كان في الشهور الأولى من عام 1990م عندما قامت الحكومة بتنظيم معرض دعائي لها بعنوان «المملكة العربية السعودية، بين الأمس واليوم»في واشنطن، ونيويورك ومجموعة أخرى من المدن. في أكثر من افتتاح لهذا المعرض، قام متظاهرون شيعة يغطّون وجوههم بالشماغ السعودي بدعوة زوار المعرض توقيع التماس ضد السعودية وردّدوا شعارات عدائية باستخدام مكبرات الصوت، مستفيدين بذلك من فرصة لا يمكن الحصول عليها في الوطن لمواجهة شخصيات سعودية مؤثرة كالأمير سلمان، حاكم الرياض، الذي كان ضمن وفد المعرض المتنقّل.

«سلمان يا سلمان» يصرخ الشيعة السعوديون بغضب، «فين حقوق الإنسان؟ أين حقوق الإنسان؟».

كان ذلك مثيراً ومخيفاً في نفس الوقت، تقول فايزة أمبا، إحدى الصحفيات السعوديات التي غطّت جولة المعرض الرسمية وشاهدت المتظاهرين. «كان ذلك يحدث لأول مرة. عرفنا أنهم سعوديون يختفون خلف أشمغتهم. لم نر سعوديين يتظاهرون من قبل».

طلب التلفزيون المحلي إجراء المقابلات لكن الوفد السعودي الرسمي

بدا متعالياً وهو يرفض التعليق، وبالتالي أصبح هذا المعرض الذي كلّف الملايين نشاطاً في العلاقات العامة لكنه بأثر سلبي معكوس لما خُطّط له.

«ثم نقفز في حافلتنا»، يتذكر أحد المتظاهرين بسعادة، «لنذهب وننتظرهم في المدينة التالية. أصبحوا محاصرين. لا يستطيعون إلغاء المعرض أو عدم الظهور فيه، وهم يعرفون ما ينتظرهم عندما يصلون إلى المدينة. كنّا كابوساً مرعباً لهم».

***

أوقفت حرب الخليج، في ذلك الصيف، نشاطات الحركة. واجه المنفيون الشيعة، مثل كل السعوديين الآخرين، قضية تهديد الجنود العراقيين لوطنهم، وعند فحص خياراتهم قرّر الشيخ حسن وأتباعه أن يكونوا وطنيين مثل غيرهم.

«نحن مستعدّون للدفاع عن أمتنا واستقلاليتها»، صرّح بذلك متحدث للحركة ردّا على دعوة صدام لها، وأضاف أن الشيخ وقيادة الحركة «يطلبون من المواطنين الشيعة الالتحاق بالخدمة العسكرية لغرض الدفاع عن الوطن».

كان هناك إيذاء قليل في التعليق الأخير السابق خاصة إذا عرفنا أنه لا يوجد شيعي واحد في الخدمة العسكرية السعودية، بسبب أن الحكومة السعودية ترفض دائماً تجنيدهم. داخل وخارج الجيش، توجد فرص عمل أكثر من كافية، لكن الثمانمائة ألف تقريباً من الشيعة الذين يقطنون المنطقة الشرقية ينتقدون هذا الأمر بشكل كبير. وضعوا أنفسهم تحت تهديد صواريخ

سكود والغاز السام وعملوا بلا كلل لتزويد أكثر من نصف مليون مقاتل أجنبي بالطعام والمأوى. وفي الوقت نفسه أوقفت لجنة حقوق الإنسان نقدها خارج المملكة مؤقتاً ودعمت تحالف الرياض المثير للجدل مع أمريكا. يرجع بعض الانتصار، عندما جاء في النهاية، إلى صمود الشيعة في الداخل وتعقّلهم في الخارج.

***

من وجهة نظر الملك فهد، خلق دعم الشيعة له مفارقة واضحة إذ بعد أكثر من عقد من الزمان مراهناً على السنّة ومغدقاً بالمال على الوهابيين وتوفير كل ما يحتاجونه، وجد نفسه أمام نكران الجميل من مشايخ الصحوة الذين وقّعوا الالتماسات والمطالب وأعربوا عن نقدهم الشديد للوجود الأمريكي. لقد كان في الحقيقة يقدّم الدعم لمعارضيه. لكن في المقابل، قدّم الشيعة، الذين يُفترض فيهم عدم الثقة، الدعم بلا تحفّظ للدفاع عن المملكة؛ إذ كانوا يقطنون الجزء المعرّض للتهديد من الوطن إلا أنهم رغم ذلك لم يظهروا أي نوع من الارتباك أو التشويش.

كان الملك وابنه محمد يحاولون الحديث، من دون أن يتم تدوين هذا، مع الشيخ حسن وقيادة الشيعة لعدة سنوات. أرسلوا مبعوثين لهم إلى إيران، سوريا، وواشنطن رغم أنهم لم يبدوا أي نوع من الاعتذار.

«دائماً ما ينتهي الأمر»، كما يقول أحد المشتركين في الحوار من الشيعة، إلى فكرة أن المشكلة تعود إلى تطرّفنا نحن. أما بالنسبة لكلمة «آسف» فلا تتوقع أن تسمع هذه الكلمة من الأمراء السعوديين.

لكن بعد حرب الخليج حدث نوع من التغيير في المواقف: «أصبحوا أكثر جاهزية»، كما يقول توفيق السيف، «في الاعتراف بالخطأ». كما تغيرت أيضاً المواقف الشيعية.

«لم نكن نريد أن نكون أمراء أو محافظين»، يقول الشيخ حسن، «لم يكن هدفنا إزالة العائلة المالكة. لكننا نريد إزالة التعصّب والعنصرية والتمييز من أجل إخواننا الشيعة وكل إنسان في المملكة العربية السعودية. نرى حركتنا مماثلة لحملة مناهضة العنصرية في جنوب أفريقيا. شعرنا أن الوقت قد حان للتعبير والحديث».

«أدركوا»، يقول أحد مستشاري الحكومة، «أنهم الآن مثل العديد من الأقليات في المملكة سيحصلون على اتفاق جيّد مع الملك السعودي أفضل مما يتوقعون الحصول عليه من أي حكومة غير ملكية. ليس لديهم خيار أفضل من آل سعود. ماذا يتوقع الشيعة غير الاضطهاد من الوهابيين؟ آخر شيء يتمنوّنه هو دولة إسلامية تحت حكم سنّي على يد مشايخ الصحوة».

جرى الحوار في لندن حيث مثّل الشيعة السيف وحمزة الحسن، الناشط الدائم في المنفى، ومثّل الحكومة عبدالعزيز التويجري، كبير مستشاري عبدالله ولي العهد، ذلك الرجل الحكيم الذكي الذي يملك شغفاً نحو التاريخ، وكان الدبلوماسيون الغربيون يطلقون عليه لقب «تي- ون» لتمييزه عن باقي أفراد عائلته الموهوبين. كان أحمد التويجري، الناشط والمعدّ لمذكّرة النصيحة، أحد أبناء إخوانه.

«كان شخصاً ملمّاً وذكياً جداً عندما تحدّثنا إليه»، يقول السيف، «وكنّا مسرورين بمقابلة شخص مؤثّر خلف الكواليس. بدأ الحديث بموافقته على أن لدينا مشكلة، لكنه كان لا يريد أن يرفع من طموحاتنا أو توقعاتنا. لم يكن متأكداً من إيصال رسالتنا: كنا بحاجة إلى أن ندرك في تلك اللحظة أن هناك الكثير الذي يمكن تقديمه من قبل الحكومة».

جرت المقابلة الأولى في عام 1992م في فندق الهوليدي إن في نايستبريدج حيث جلس الثلاثة في مقهى الفندق يناقشون الأمر كما لو كانوا يتسامرون في مجلس داخل الوطن. عندما يشعرون بحاجتهم للهواء الطلق فإنهم ينطلقون نحو الهايد بارك لإكمال مناقشاتهم تحت أشجارها الوارفة.

«تحدّثنا من الساعة الثانية عشرة وحتى السابعة»، يقول السيف، «ولم يكتب التويجري أي ملاحظة. كان اللقاء الأول ضمن سلسلة لقاءات كانت كلها ممتعة. كانت لديه ذاكرة ممتازة —كل التفاصيل المهمة التي اتفقنا عليها كانت موجودة في الرسائل التي أرسلها لنا لاحقاً، بعد أن أشعر ولي العهد بها والذي بدوره ذهب إلى الملك لإخباره».

وبدورهما، قام المتحدثان من الشيعة بإخبار لجانهم في المنفى، متحدّثين بشكل خاص مع الصفّار في دمشق وجعفر الشايب في الولايات المتحدة. كان هناك العديد من النقاشات المريرة حول الوصول إلى صيغة مشتركة وحلول وسط مع آل سعود، لكن القيادة تريد اتفاقاً.

«لقد وصلنا إلى الايمان»، يقول السيف، «بأن وجودنا داخل المملكة

أفضل بكثير من وجودنا خارجها. شعرنا بأن العودة إلى الوطن ستمكّننا من إحداث التغيير».

تقدّمت المفاوضات خطوة أخرى إلى الأمام في عام 1993 عندما تم استبدال التويجري بمحاور آخر هو عثمان العمير، رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط اللندنية. رئيس التحرير الأنيق، والذي يتمتّع بسمعة الشخص اللعوب، كان أقل قوّة ونفوذاً من التويجري، لكنه جاء إلى الشيعة كممثل شخصي عن الملك فهد. كانت مهمّته هنا هي أن ينقل السيف وزملاءه إلى جدة من أجل حديث مباشر وجهاً لوجه مع الملك.

***

«كان لدينا ثلاثة شروط أولية قبل الذهاب»، يقول صادق الجبران، أحد أربعة مفاوضين ضمن الفريق. «إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، إعادة جوازات السفر المصادرة والملغاة، وعفو عامّ لجميع المنفيين الشيعة وعودتهم للوطن من دون أي استجواب أو ملاحقات. لم نصدّق ذلك، ولم يناقشوا كثيراً معنا. وافقوا على كل الشروط».

في العاشر من أغسطس من عام 1993م وصلت برقية إلى كل السفارات السعودية حول العالم تخبر موظفي الخدمات القنصلية أن «أوامر ملكية كريمة صدرت لوزارة الداخلية بالعفو عن جميع أبناء الطائفة الشيعية الذين قاموا بأعمال معارضة من أي نوع، والسماح لمن هم خارج المملكة منهم بالعودة إليها إذا رغبوا في ذلك».

«اجتمعنا في دمشق»، يقول جعفر الشايب، «كنا جميعاً خائفين قليلاً. تأكدّنا أن تنشر صحيفة النيويورك تايمز خبر العفو كنوع من الحماية. لكن لا أحد منا لديه جواز سفر سعودي ساري المفعول. قرّرنا أن يكون أول شيء نقوم به عندما نهبط إلى أرض المملكة العربية السعودية هو تأدية العمرة، فخرجنا من الطائرة بإحراماتنا. سمحوا لنا بالدخول- فقد كانوا يتوقعوننا- إذ قضينا الأيام الأولى في مكة، ثم المدينة».

«كيف كانت المدينة؟» كان هذا هو السؤال الأول الذي وجّهه لنا الملك فهد وهو يرّحب بوفدنا في قصره على البحر الأحمر في جدة في يوم الأربعاء، 22 سبتمبر، من عام 1993م – وهو سؤال يبيّن أنه لا يشارك امتعاض الوهابيين من ذهاب الشيعة للمدينة لتقديس قبر الرسول. كان الملك يريد إراحة زوّاره والتخفيف عنهم. نزع مشلحه الأسود المطرّز بالألوان الذهبية كما يفعل الأمراء السعوديون عندما يكونون في صحبة أفراد العائلة أو الأصدقاء القريبين جداً. رحّب بزوّاره وهو يلبس ثوبه الأبيض البسيط.

«أهلاً بكم يا أبنائي»، قال لهم مرحّباً.

كان اللقاء أنموذجاً في الأداء الراقي والفاتن المعروف عن الملك فهد حيث امتلأ حديثه بالدعابة والأسرار الشخصية والاستطرادات التي يتميز بها. جلس ابنه محمد، أمير المنطقة الشرقية، بجانبه باحترام من دون أن يقول شيئاً. بندر بن سلطان، الذي جاء بزيارة من واشنطون، كان موجوداً هناك، لكنه كان صامتاً على نحو غير عادي.

تحدّث الملك عن ساقه المصابة. بحلول عام 1993، بلغ الملك التاسعة والستين من العمر وكان يتحرك بصعوبة. سخر كثيراً من موقف ياسر عرفات والملك حسين اللذين كانا صديقين سابقين في الابتعاد عن المملكة عندما تعرّضت للتهديد من قبل صدام حسين. الآن، أراد أن يشعرنا، أنه كان يتحدث إلى أصدقاء حقيقيين- «نحتاج إلى جميع أبنائنا»، قال الملك.

«أتذكّر عندما كنت وزيراً للمعارف ووزيراً للداخلية»، يقول الملك وهو يحاول الاقتراب من الموضوع، «أنني طلبت معلومات جيدة عن السكان الشيعة عندنا. الشيعة مواطنون مثل أي مواطن آخر. يعملون بجد وإخلاص. كل دولة في العالم لديها مشاكل، لكن يمكن حلّها إذا رغب الناس في الحديث والاستماع».

تم تعيين توفيق السيف كمتحدث رسمي للوفد الذي بيّن أن العديد من أبناء الشيعة، في السنوات الطويلة التي قضوها في الخارج، قد تزوّجوا بأجنبيات.

«سوف يكون لديهن خيار الجنسية السعودية إذ أردنها»، قال الملك فهد من دون جلبة.

سأل توفيق عن الموظف الحكومي الذي سيراجعونه ويتحدثون إليه إذا أرادوا إنهاء التفاصيل والإجراءات المطلوبة.

«أنا مسؤول عن هذا الأمر كله شخصياً»، قال الملك وهو يبتسم، «إنه عزيز على نفسي».

شعر فهد بالثقة إلى الدرجة التي استخدم فيها النكتة أثناء الحديث معهم. اشتكى أحد أعضاء الفريق الشيعي قائلاً إنه عندما يكتشف موظف الجمارك كتاباً شيعياً في حقيبة فإنه يُصادر ويتعرّض بعد ذلك المسافر الشيعي إلى التحقيق – بعكس المسافرين الذين يحاولون تهريب مجلة بلاي بوي، حيث تُصادر المجلة فقط ويتركون المسافرين وشأنهم.

«ما هي مجلة بلاي بوي؟» سأل فهد متظاهراً بالجهل.

أكّد لهم الملك فهد، بعد أن أجبر زوّاره على الحديث لوصف هذه المجلة بشيء من الإحراج، أنه لا توجد أي مشكلة فسوف يتم التعامل مع قرّاء الكتاب الشيعي في المستقبل بنفس الطريقة التي يتم التعامل بها مع قرّاء المجلات الفاضحة.

انتهى اللقاء بعد ساعة ونصف ووجد الشيعة الأربعة أنفسهم خارج القصر محاطين بالمتنزّهين ليلاً في كورنيش جدة كما لو كان الأمر حلماً. لأول مرة – وآخر مرة في حياتهم، كانوا يتحدثون وجهاً لوجه مع الملك. لقد صنعوا بالفعل تاريخاً سعودياً. كانت المرة الأولى التي جلس فيها فهد مع المعارضة وجهاً لوجه. وفوق ذلك كله، عادوا جميعاً إلى الوطن!

ومع مرور الأيام والأشهر والسنوات، أخذت تفاصيل المصالحة الشيعية وقتاً طويلاً لوضعها حيّز التنفيذ؛ بعد مرور عقد من الزمان، لم تزل العديد من العناصر قيد البحث. وعود الملك في الاهتمام شخصياً تعني، في الواقع، أن لا أحد سيهتم بالأمر، وتعالت الأصوات في المجتمع الشيعي وهي تشتكي

أن الشيخ الصفار قد ضحّى بجهود المتظاهرين الملثّمين في واشنطن بشكل سريع وبثمن بخس.

«ما دام أن الملك أعطاكم وعداً»، قال الأمير نايف مبتسماً عندما نجح قادة الشيعة بالوصول إليه، «فسوف نبحث عن الطريق الأفضل لتنفيذ هذا الأمر».

رأى نايف التقارير الاستخباراتية للمساعدة الإيرانية للحركات الشيعية داخل المملكة العربية السعودية، وكان يرى مسعى الملك بشيء من التحفظ.

«في النهاية»، يقول عليٍ المرزوق، «كل ما حصلنا عليه هو استعادة جوازات السفر. كان هذا شيئاً طيباً يمكن الابتداء به نحو مطالب أخرى».

الفصل التاسع عشر



رِدَّة

أتاح العفو عن الشيعة ورجوعهم فرصة سعيدة وغير متوقعة لمنصور النقيدان وزملائه مفجّري محل الفيديو – إطلاق سراح مبكِّر من السجن. العفو الصريح الذي أمر به الملك فهد للرافضة الشيعة أغضب العديد من مشايخ المملكة المتشدّدين. ولهذا أمر الملك بعفو مماثل للسجناء السلفيين، وهذه هي طريقة آل سعود الكلاسيكية في الأداء المتوازن. وجد منصور نفسه في نهاية سبتمبر من عام 1993م حرّاً طليقاً بعد أن قضى سنتين فقط من حكمه البالغ ست عشرة سنة.

بدأ السلفي الشاب البالغ من العمر الثانية والعشرين، والذي كان يطيل التأمل والتفكير، بتغيير آرائه داخل السجن – على الرغم من أن هذا لم يحصل بسبب جهود السلطات في السجن «بإعادة تربية» المسجونين.

في أحد الأيام، جمعونا للاستماع لمحاضرة يلقيها فالح الحربي، رجل الأمير نايف. ضحكنا عليه أمام جميع الضباط. لا يرضى الواحد منا أن يقبل بأي أفكار صادرة من الحكومة. قبل أن يأخذونا إلى المحكمة أمضينا وقتاً طويلاً لإعداد دفاعنا لأن العديد من المتشددين يرفضون السلطات القضائية.

عرف منصور أنه من الصعب الآن الاعتراف بتغيّر موقفه لزملائه المتشددين في السجن الذين لديهم ولع شديد كما هي تقاليدهم الإسلامية بتقديم «النصيحة» حيث كانوا مشغولين بالحث على الأعمال الصالحة والنهي عن الأعمال المنكرة. أخذوا على عاتقهم مراقبة الجرائد التي يقرأها زملاؤهم من المسجونين.

«كانوا يمزّقون كل صورة من أي نوع، فلم يعد هناك ما يمكن أن تقرأه. كانوا يعتقدون أن صور الجرائد ستطرد الملائكة الذين كانوا يعتنون بالمؤمنين الأتقياء في زنزاناتهم».

تعرّف منصور بشكل متدرّج على صديقين يشاركانه الاعتدال على الرغم من أن هؤلاء الثلاثة لم يصرّحوا بشكّهم حول حقيقة وجود ملائكة معهم في الزنزانة. كان «المفكّرون الأحرار» الثلاثة يمشون في ساحة السجن ويقرأون الجرائد غير المراقبة ويتبادلون الآراء التي قرأوها في كتب غير سلفية.

«كنّا نعرف أننا نتحرّك خارج الحدود الحمراء، لكننا لم نرغب في مغامرة الاعتراف بذلك».

استمرت عملية التغيير عندما خرج منصور من السجن.

«ذهبت في زيارة لأخي غير الشقيق في بريدة والذي كان مفكّراً نوعاً ما، «لدي كتاب لك»، قال لي. كان لمحمد عابد الجابري وعنوانه «بنية العقل العربي»، وهو كتاب فلسفي لا يمكن أن ألمسه في الظروف العادية. لكن

أخي أخبرني أن الجابري كان عالماً في الأزهر (الجامعة الدينية القديمة) في مصر، ولهذا قررّت أن أكتشف ما يقول».

هذا عمل لا يمكن أن تقبله بسهولة إذ إن الفلسفة لا تقبل السلطة المطلقة لله ولا قانونه، كما أن عملية الاستنتاج الفلسفي المفتوح النهايات حرام بالنسبة للمسلمين الأتقياء.

«عار عليك»، قال له أحد أصدقائه عندما ضبطه يقرأ الجابري، «ذلك الرجل أساس العلمانية».

لكن هذه المرة، وجد منصور نفسه منجذباً إلى رؤية الجابري الشاملة ومقارناته بين القرآن والأفكار الكبيرة في الثقافات الإغريقية والمسيحية والفارسية.

«آخذ ما أريد»، ردّ على صديقه، «وأرفض الباقي».

كل كتاب أفضى إلى كتاب آخر، ووجد منصور نفسه يقرأ الفلسفة بشكل أكبر، بعضها في التفكير الأوروبي والآخر في الروايات المصرية. في أوائل عام 1995م حضر جلسة نقاش في مكة وعبّر عن آرائه الجديدة – ووجد ردة فعل غاضبة. ضغط أحد أصدقائه على يده بقوة يطلب منه أن يتوقف. كان التعصب للرأي الواحد هو السائد آنذاك. قبل عدة أشهر، تم القبض على مشايخ الصحوة المؤثّرين مثل سلمان العودة وسفر الحوالي بعد أن رفضا التوقيع على تعهدات بتخفيف حدّة خطبهم، بينما كان سعد الفقيه

ومحمد المسعري، المعارضين المنشقّين في المنفى بلندن، يزيدان من حملتهما المنتقدة لآل سعود.

في نوفمبر من عام 1995م، دمّرت قنبلة ضخمة مركز التدريب التابع للحرس الوطني في الرياض وأسقطت خمسة قتلى أمريكيين وقتيلين هنديين. أسرعت المباحث في القبض على المتهمين المعروفين- ومنصور النقيدان كان أحدهم. لقد تمت إدانته في عمل سابق.

«لقد غيّرت آرائي»، أخبر منصور الضابط الذي كان يحقّق معه.

«لدينا الدليل»، جاء الردّ له، «وهو أنك في اجتماع في الرياض ذكرت أن على الناس أن يقفوا في وجه الحكومة وينتقدوها عندما تخطئ».

«ربما أكون قلت ذلك»، ردّ منصور، «هذا ما أؤمن به. لكنني بالتأكيد لم أخبر الناس أن يغيّروا الأشياء بالقنابل».

لم يدرك المحققون الفرق بين الحالتين وأودعوه السجن مرة أخرى – هذه المرة لأكثر من سنتين.

***

كان تفجير مركز الحرس الوطني في الرياض عام 1995م أول حدث إرهابي في المملكة العربية السعودية منذ حصار جهيمان للحرم الشريف، وقد أثنى عليه كثيراً أسامة بن لادن من مكان قاعدته في السودان. «كان ذلك

دليلاً على وجود حركة ستُنهي آل سعود من الجزيرة العربية»، قال أسامة في مقابلة مع مذيع باكستاني. كما صادق أيضاً على تفجير أضخم من ذلك عندما انفجرت شاحنة في المنطقة السكنية لأبراج الخبر بالقرب من الظهران بعد ثمانية أشهر. دُمِّر المبنى الأمامي برمّته بعد انفجار ضخم شعر بهزّته من كان في البحرين على بعد عشرين ميلاً عبر البحر. قُتل خلالها تسعة عشر أمريكياً ووقع أكثر من 372 جريحاً.

لم يكن بن لادن على علاقة مباشرة بالتفجيرين السابقين. الأربعة السعوديون الذين حوكموا وأعدموا في تفجير الرياض كانوا من الجهاديين العائدين من أفغانستان، لكنهم ذكروا بن لادن بوصفه إحدى الشخصيات المعارضة التي أثّرت فيهم. أما هجوم أبراج الخبر فقد حمل العلامة المسجّلة الإيرانية إذ بعد خمس سنوات من التحقيق، وجّه مكتب التحقيقات الفيدرالي اتهامه ضد ثلاثة عشر رجلاً ينتمون إلى منظمة مؤيدة لإيران تطلق على نفسها اسم حزب الله السعودي. لم يكن أسامة إرهابياً جادّاً بعد، لكن دعمه الصارخ أوضح أن تحرّكه عبر البحر الأحمر إلى السودان ساعد في بناء دور جديد له. لقد عيّن نفسه المزعج الرئيسي والمعارض الكبير لآل سعود.

***

وصل بن لادن إلى الخرطوم في أوائل عام 1992م. وبدأ فوراً بخطوة سريعة حيث اشترى العديد من المزارع الصغيرة على شاطئ النيل الأزرق ليخلق لنفسه دولة صغيرة. يذهب في نهايات الأسبوع عبر النهر يمارس هواية ركوب الخيل مثل أي رجل أعمال ناجح يسترخي في مزرعته الريفية. أعدّ لنفسه، بعد أن نقل أغراضه وموجوداته من السعودية وأفغانستان، مكتباً بتسع

غرف في العاصمة السودانية وأدار شركة نقل ومصنعاً للجلد، ومخابز، وشركة لإنتاج العسل والحلويات، ومصانع للأثاث، وتجارة الاستيراد والتصدير. وجد المحققون الأمريكيون أن العديد من هذه المؤسسات التجارية قد سُجِّلت في لوكسمبورغ وسويسرا. كان أسامة يعمل على طريقة إخوانه في الجانب الآخر من البحر الأحمر- حيث يدير في مملكته الصغيرة شركة مقاولات للبناء والنقل.

قابل الصحفي البريطاني روبرت فيسك أسامة في أواخر السنة التالية في منطقة نائية حيث كانت آليات ومعدات شركته تربط الطريق الرئيسي بين الخرطوم وبورسودان. كان بن لادن ينظر إلى العالم مثل شيخ سعودي محب للإحسان حيث كان يلبس الثوب الأبيض والعباءة الذهبية محاطاً بالأطفال المحليين الذين كانوا يرقصون أمامه، والقرويين الشاكرين الذين ذبحوا الدجاج والخراف والماعز.

«كنا ننتظر هذا الطريق في جميع الثورات السودانية»، قال أحد الكبار الموجودين هناك. «لقد انتظرنا حتى يئسنا من كل شيء – ثم جاء أسامة بن لادن!».

يجد أسامة متعة كبيرة في لعب دور المحسن الخيّر في الأرض التي جاءها أبوه عاملاً يمنياً معدماً في العشرينات الميلادية. كانت السودان هي المكان الذي فقد فيه البنّاء محمد عينه وهو يلعب كرة القدم. الآن يقوم ابنه بنفس الدور الذي كان يلعبه أبوه مع ابن سعود، وهو مقاول بناء مقيم في ساحة حسن الترابي. بنى أسامة الطرق وطوّر مشاريع تجارية لم يُكتب

لبعضها النجاح، وفي الوقت نفسه كان يساهم بشكل سرّي ويساعد على إنجاح خطط الترابي في الجهاد العالمي. كان أسامة يحاول تحقيق ما عجز عن تحقيقه في الجزيرة العربية الإسلامية.

وفي أبريل من عام 1994م، سحبت الحكومة السعودية الجنسية السعودية من أسامة بشكل علني، وقامت بتجميد مدخراته السعودية وحساباته البنكية ومارس الملك فهد ضغطاً كبيراً على عائلته. لا يمكن لشركات ابن لادن القيام بمشاريع البناء الحكومية إذا كان من ضمنهم- أو يقدّمون المأوى- للمنتقد الأول للحكومة. عليهم اتخاذ القرار المناسب. بعد أيام من إعلان الحكومة، اجتمع الإخوة في مقرهم بجدّة لإصدار بيان يعبرون فيه عن «ندمهم وإنكارهم وشجبهم للأعمال التي يقوم بها أسامة بن لادن». لقد تبرأوا منه كأحد أفراد العائلة وصادروا الجزء الخاص به من ثروة العائلة وأبقوه تحت أيدٍ أمينة من أجل أطفاله.

أشار أسامة في سرده اللاحق لسيرة حياته، إلى أن عام 1994م كان نقطة تحوّل بعد الاعتقالات التي قامت بها السعودية في سبتمبر لمشايخ الصحوة سفر الحوالي وسلمان العودة. لم يعلّق إعلامياً على سحب الجنسية السعودية ولا على البيان الذي أصدره إخوانه، لكن ذلك بالتأكيد قد جرحه كثيراً لأنه أثر على مصدر دخله. اضطرّ أسامة إلى تقليل حجم أعماله التجارية عن طريق الاستغناء عن عشرات العمّال الشبان المخلصين.

بدأت أفكاره تتجه نحو الوطن بعد زيارات متعاقبة له من أفراد العائلة –بمن فيهم أمه- والصحفي الشاب المخلص جمال خاشقجي الذي أرسله

إخوانه لمعرفة مدى إمكانية رجوعه إليهم.

«اتصل بي أحد أبناء عمومته»، يقول خاشقجي، «أخبرني أن أسامة قد تغيّر ويريد العودة».

كانت مهمة خاشقجي أن يتودّد لـ بن لادن ويجري معه مقابلة يعبّر فيها عن ندمه ورجوعه عن أعمال العنف. ثم تقوم العائلة بعد ذلك بإبرازها للحكومة على أمل أن يمهّد ذلك لمصالحة.

«في الليلة الأولى، تحدث عن المدينة»، يقول خاشقجي، «إن لديه رغبة كبيرة في الذهاب إلى هناك والإقامة فيها. كانت لديه زوجة من المدينة».

كان السعوديان الاثنان يجلسان حول سفرة بلاستيكية على الأرض يمدّان أيديهما لأخذ قطع من لحم الضأن المكوّم فوق الأرز ويستمتعان بالكبسة، الوجبة السعودية الشهيرة.

«دخلنا في موضوع التفجيرات الأخيرة»، يقول خاشقجي، «هذه المرة، قال أسامة إنه يعارضها. أحضرت آلة التسجيل على الفور. «هل أبدأ التسجيل الآن؟» سألته. «لا»، قال لي. «دعنا نتحدث غداً».

في اليوم التالي كان أسامة في مزاج التفاوض.

«ما الذي سأحصل عليه في المقابل؟»، سأل أسامة خاشقجي، «إذا

وافقت على إعطاء مقابلة؟».

«أنا لست هنا لأُمثّل الحكومة»، ردّ عليه خاشقجي، «أنا هنا لكسر الجليد».

عرف خاشقجي، في الوقت الذي قضاه معه، أن أسامة أصبح غريب الأطوار. منع زوجاته من كي الملابس.

«كي الملابس يستهلك الكهرباء»، أخبرني، «ويجب أن ندرّب أنفسنا على عدم الاعتماد على الكهرباء. لو جاء الإسرائيليون إلى هنا وفجّروا محطة الطاقة، سوف نكون بلا ماء ولا كهرباء».

تذكّر خاشقجي بعد هذا الموقف الغريب منزل أسامة الجهاديّ في شارع المكرونة عندما أراد أسامة ربط غرفتين بالكهرباء.

«فتح ثقباً كبيراً في الجدار عن طريق استخدام مطرقة ثقيلة». كما يتذكّر خاشقجي، «واستخرج الحطام، لكنه ترك الثقب مفتوحاً من دون أن يكمل مهمّته».

حاول خاشقجي في الليلة السابقة لموعد مغادرته أن يساعد أسامة على التركيز في مهمّته.

«رحلتي غداً في الساعة الثامنة صباحاً»، أخبرته. «وسوف أغادر إلى المطار الساعة السادسة. تستطيع أن تتصل بي في أي وقت غداً وسوف آتي

على الفور- حتى الساعة السادسة. إذا وافقت على المقابلة، سوف أنسى موضوع السفر وسأقضي معك الوقت الذي تريد».

انتظر خاشقجي اليوم التالي في الفندق من دون أن يأتي أي اتصال.

الفصل العشرون



ولي العهد يتقدّم

في 19 نوفمبر من عام 1995م، وبعد أيام قليلة من التفجير الإرهابي لمركز التدريب التابع للحرس الوطني في الرياض، تعرّض الملك فهد لجلطة قلبية. كان في الرابعة والسبعين من عمره وكان وزنه زائداً مثل أي سعودي، ويدخّن السجائر. تقدّم نائبه وولي العهد الأمير عبدالله لينوب عنه في إدارة الشؤون اليومية للحكومة السعودية وحيث إن عمره في العائلة يقتضي القبول به، إلا أن العديد من المراقبين الخارجيين أبدوا تخوّفهم.

تكون الفجوة بين النـية والأداء محرجة دائماً وهو الأمر الذي جعل البعـض ممن قابل الأمير عبدالله يصفه بالرجل البسيط، وقد زرع بالفعل صورة البساطة حوله. يلتقي الأمير كل أحد في مجلسه مع مئات البدو- «الذين جاؤوا مباشرة من الصحراء»، كما يقول وولتر كتلر، الذي كان سفيراً للولايات المتحدة في الرياض لفترتين في الثمانينات. «يجلس ولي العهد على كرسي مزركش يستمع إلى الطلبات التي تُقدّم له لأكثر من ساعة. ثم يتربّع على الأرض ليصلّي مع ضيوفه، ويصطحبهم بعد ذلك إلى صالة طعام ليتناول معهم العشاء الجماعي الضخم».

كان ذلك شبيهاً بالمجالس التي يقوم بها أفراد عائلة آل سعود كل ليلة في كل أرجاء البلاد —لكن مع فارق مهم. مع مرور السنين، تبنّى هؤلاء المطالبون بحقوقهم والزائرون أشكالاً مبالغاً فيها عند المثول أمام الأمراء مثل تقبيل اليد، أو البكاء، أو الدعاء بصوت عال. لا يسمح عبدالله بمثل هذا. لاحظ نيك كوكينج، رئيس البعثة العسكرية البريطانية إلى الحرس الوطني والمستشار العسكري لعبدالله خلال الثمانينات الميلادية، أنه خلال وقوف هؤلاء الأشخاص أمامه، كان ولي العهد يحمل عصا من الخيزران. عندما يلاحظ أحداً يحاول تقبيل اليد أو الركوع فإنه يستخدمها ليضربه برفق على رأسه أو يده أو أي جزء من جسمه.

«أنت رجل» يقولها عبدالله وهو يبدي تذمره في وجه المذنب الذي كان في الواقع لبنانياً، وليس سعودياً. «ماذا تفعل وأنت تنبطح على الأرض؟».

في التقاليد البدوية، كان عبدالله قريباً من الناس ومساوياً لهم ويعتبر عند العارفين أميناً وباحثاً عن الإصلاح. ومن المدهش حقّاً أن حملات المعارضة الشرسة في التسعينات الميلادية قد استثنته من هجومها الحاد. روى بن لادن نفسه حلماً عن الملك عبدالله لأبي رضا السوري، وهو أحد أصحابه المجاهدين الذين بقوا معه فترة طويلة. كان أسامة يمشي في حلمه حول مدينة الرسول وسمع فجأة أصوات احتفال في الخارج، فحاول أسامة أن ينظر فوق جدار طيني ليرى أمامه وصول ولي العهد السعودي للحشد الذي يستقبله بالفرح والاحتفال والغناء. «تفسير هذا أن عبدالله سيصبح ملكاً»، يقول بن لادن. .«هذا سوف يريح الناس ويجعلهم سعداء. إذا أصبح عبدالله ملكاً، فسأعود عندها».

ثمرة المصالحة

وُلِد ولي العهد من أمٍّ كانت عائلتها تعتبر «عدوّة» لآل سعود. عندما استولى والده عبد العزيز على المدينة الشمالية حائل في عام 1921م، وهي معقل خصمه اللدود آل رشيد، أمر بإعطاء الطعام للسكان ومنع السرقة والقتل. لكن قائد آل رشيد، محمد بن طلال الرشيد، لم يتوقّع أي رحمة ورفض الاستسلام كما فعل مواطنوه. انسحب إلى قلعة حائل لمواصلة القتال وكان قد سمع عن قوة وبأس ابن سعود في الانتقام عند مواجهته.

لذا، وبعد القبض عليه، أخبره الخدم أن يغتسل ويستحمَّ من أجل مناسبة عظيمة، فخاف قائد آل رشيد أن يكون هذا هو موعد إعدامه. لبس أفضل ثيابه استعداداً للموت بكرامة، لكنه وجد نفسه في مجلس ابن سعود يجلس في منصة الشرف معه.

«اجلس بجانبي»، قال له عبدالعزيز وهو واقف يحتضن ويقبّل عدوّه السابق. «انتهى وقت الموت والقتل. نحن كلنا إخوة الآن. أنت وعائلتك ستأتون إلى الرياض للعيش معي كأحد أفراد عائلتي».

إذاً، جاء أمراء آل رشيد للعيش في الرياض التي حكموها سابقاً وطُرِدوا منها في عام 1902 على يد عبدالعزيز. المصالحة أسلوب للسيطرة برع فيه آل سعود كثيراً.

«دعونا نعامل أعداءنا برحمة»، يقول الملك عبد العزيز، «عندما نعاقبهم

فإننا ندفعهم إلى الانتقام».

يبدو معقولاً أن تُبقي أعداءك قريبين منك تحت المراقبة.

فقدت ثلاث نساء من آل رشيد أزواجهن بسبب الحرب، وقد لقين عناية خاصة من عبدالعزيز حيث أعطى إحداهن لأخيه الأصغر سعد، وأعطى الثانية لابنه الكبير سعود بن عبدالعزيز، وأخذ هو بنفسه الثالثة وهي فهدة بنت العاصي الشريم، من قبيلة شمّر، زوجةً له. جاءت فهدة للعيش معه في الرياض، وبعد سنتين في عام 1923م أنجبت ابناً أعطاه أبوه الفخور اسم «عبدالله». كان الابن نفسه ثمرة المصالحة.

***

كان الدور الإصلاحي الذي قام به عبدالله العلامة الأولى التي عرفتها العائلة عنه. عندما تعددت وجهات النظر بين آل سعود في نهاية الخمسينات الميلادية بسبب تحديات القومية العربية وجمال عبدالناصر، سافرت مجموعة من الأمراء الشباب المتحمسين إلى القاهرة وطالبوا بملكية دستورية.

«في بلادنا»، يقول قائدهم طلال بن عبدالعزيز، «لايوجدقانون يحدّد حرية وحقوق المواطن».

كان طلال ليبرالياً ومثالياً فانشق عن العائلة —كان أشبه ما يكون برالف نادر العائلة السعودية. شغل طلال منصب وزير الاتصالات في الخمسينات الميلادية، ثم لاحقاً منصب وزير المالية في حقبة الملك سعود المثيرة

للجدل. عمل أخيراً مبعوثاً خاصاً لليونسكو. كان عبدالله قريباً من طلال في العمر والأفكار وقد مثّل عبدالله، وهو الأخ الكبير غير الشقيق، الناصح الأمين «للأمراء الأحرار»[1] الثائرين. لديه اقتناع متشدد، رغم بساطته، بسياساته، ودينياً، يمكن اعتباره وهّابياً حقيقياً (إحدى نقاط قوته كإصلاحي هو استحالة أن يصفه أحد بالعلماني)، ويطلق أفكاره القوية التي جاءت كما يقول بلسانه هو، «من جفاف الصحراء».

لم يكن عبدالله مستعداً لكسر قوانين العائلة. ابتعد عن النزاعات حيث نفى نفسه إلى بيروت في الخمسينات الميلادية والتي تعلّم فيها خلال تلك السنوات لعبة الورق ولعبة الكرة الحديدية (البولو) وكان يمارسها مع أي فرنسي عابر. لذا فعندما ينشب شجار ما ويصل إلى ذروته كانت العائلة تتجه إلى عبدالله. أقنعه فيصل وفهد باستخدام حياديته وقربه من طلال في إحلال السلام والصلح.

«كم تمنّيت أن يبقى طلال ولا يغادر»، يقول عبدالله في بيروت عام 1962م، «وأتمنّى منه أن يعود الآن».

تعاطف كثيراً مع العديد من شكاوى إخوانه غير الأشقاء، لكنّه كان يقدّم وحدة العائلة وتماسكها فوق أي شيء آخر.

«يعرف طلال جيداً»، يقول عبدالله، «أن دستور المملكة العربية السعودية

1 - الأمراء الأحرار هم طلال، فواز، وبدر بن عبدالعزيز، بالإضافة إلى ابن العم سعد بن فهد. أما عبدالمحسن بن عبدالعزيز فقد عبّر عن دعمه ومساندته لمطالبهم، إلا أنه لم يذهب للمنفى.

يعتمد على القرآن، وليس قانوناً وضعياً.. الاشتراكية الحقيقية هي الاشتراكية العربية التي وضعها القرآن».

كانت الستينات الميلادية سنوات عصيبة على آل سعود. بعد عشر سنوات من موت عبدالعزيز، نشبت مجموعة من النزاعات العائلية فأحدثت تهديداً بنسف كل إنجازاته التاريخية. قبل قرن مضى، سقطت الدولة السعودية الثانية بسبب النزاعات العائلية التي أفسحت المجال لآل رشيد في التقدم نحو السلطة. والآن جاء دور الشخص الذي كان نفسه ثمرة المصالحة مع آل رشيد، في أن يفعل مابوسعه والتأكد من عدم حدوث مثل هذا الأمر مرة ثانية. الصلابة التي يتمتع بها عبدالله لعبت دوراً مهماً في تماسك العائلة. قَبِل عبدالله، في عام 1959م، دعوة فيصل، والذي كان يشغل منصب ولي العهد، أن يعود إلى الوطن لقيادة الحرس الوطني، الجيش القبلي الذي يتكون من جنود ينتمون إلى قبائل الجزيرة العربية. نجح عبدالله في فرض ولاء الحرس الوطني في الوقت العصيب عندما حل فيصل بديلاً لسعود في الملك عام 1964م، كما استخدم علاقته القوية بطلال في التفاوض لإنجاح العودة الآمنة للأمراء الأحرار.

***

أصبحت رئاسة الحرس الوطني المصدر الرئيسي لقوته ونفوذه. وكان الحرس الوطني بمثابة العائلة التي توفر قوة عسكرية ومناصرة وطنية منحته نوعاً من الاحترام والهيبة.

أثناء كتابة هذه السطور كان قد مضى على عبدالله بن عبدالعزيز -أصبح ملكاً منذ عام 2005م- رئيساً للحرس الوطني أكثر من سبع وأربعين

سنة حيث عكست شخصيته القوية العامة القوة القبلية التي لا يستهان بها. كان الهدف الرئيسي من الحرس الوطني هو تجنيد القبائل لحماية العائلة المالكة ضد أي تهديد بما فيها تهديد القوات المسلحة الأخرى للدولة. تم إنشاء الحرس الوطني في أوقات الانقلابات العسكرية، ولهذا فإن مقراته الأولى تقع بالقرب من الرياض والمدن الرئيسية. الهدف منه هو إيقاف أي قوات عدائية تأتي من قواعد الجيش والقوات الجوية البعيدة على الحدود، وتستطيع أسلحة الحرس المضادة للطائرات إسقاط المقاتلات، كما تستطيع صواريخه المضادة للدبابات إيقاف زحف أي جيش.

حاول نيك كوكنج أن يذكر هذه الأهداف ليس بغرض الحساسية السياسية عندما أراد الكتابة عن رؤية ورسالة الحرس الوطني عند وصوله إلى الرياض في عام 1984م. لكنه وجد نفسه أمام التوبيخ الوحيد خلال ثماني سنوات من التعاون المثمر مع ولي العهد. «أرجو أن تخبر العميد كوكنج»، تقول الرسالة التي وصلته، «ألا يكتب عن أشياء لا علاقة له بها».

يعرف عبدالله الرؤية والرسالة «لجيشه الأبيض» من دون أن يكتبها على الورق. ما قام به ولي العهد في سنوات عمله الطويلة مع الحرس الوطني يكشف عن شخصية أكثر تعقيداً مما هي عليه في الظاهر.

«كان يرى في الحرس الوطني وسيلة أخرى لتطوير وتعليم السعوديين»، يقول عبدالرحمن أبوحيمد، المشرف على الأعمال المدنية للحرس الوطني برتبة نائب الرئيس لأكثر من أربع وعشرين سنة. «مستشفياتنا، مدارسنا، مجمعاتنا السكنية، مراكز تدريبنا – كلها تعتبر الأفضل من حيث المستوى.

كان يصرّ على اختبار وتجريب مختلف الوحدات السكنية ليتأكد من أن العائلات ستجد الراحة والسعادة فيها».

أصبح الحرس الوطني تحت قيادة عبدالله قوة مقاتلة لا يستهان بها، لكن الجانب العسكري يعتبر أقل أهمية بالنسبة له من بناء البنية التحتية والنمو الاجتماعي – حيث أنشأ دولته الصغيرة الخاصة بمعايير لم يتمكّن في ذلك الوقت من نشرها في كل أجزاء الدولة. يعتمد تنظيم الجنود في الحرس الوطني على الأساس القبلي إلا أن عبدالله أصرّ على أن تختلط القبائل داخل مقرات أفواج الحرس الوطني، كما أن هناك فصولاً لتعليم الكبار تقام في كل قاعدة. وتعتبر مستشفيات الحرس الوطني من أحدث وأنظف وأفضل المراكز الطبية وبعيدة كل البعد عن الإيحاءات القبلية. أحد هذه المراكز يقع في الرياض ويعتبر أفضل مركز متخصص في العالم في فصل وتأهيل التوائم المتلاصقة. وجد عبدالله عادة لا يبحث من خلالها عن الشهرة في زيارة المركز لقضاء بعض الوقت مع التوائم المفصولة وعائلاتهم الذين جاؤوا إلى الرياض على نفقته الخاصة من جميع دول العالم.

كوّن عبدالله شخصية مزدوجة كما فعل فهد – وفي الحقيقة هي سمة لدى جميع الأمراء السعوديين – عن طريق تقديم نفسه لشعبه على أنه رجل سلطة تقليدي جاء من الصحراء بينما يمارس دوراً مختلفاً تماماً في حياته الخاصة. كانت شخصية فهد الخاصة تدور في فلك يخوت البحر المتوسط، أما حياة عبدالله الخفية فهي قضاء ساعات طويلة في بركة السباحة مع أطفاله، سألت آنّا، زوجة نيك كوكنج، ابنة عبدالله ريما عن اسم مدرّبها في السباحة بعد أن أعجبت بسباحتها الحرة. أجابت الفتاة الصغيرة بلهجة بليغة وهي

تبتسم: «والدي بالطبع». كان عبدالله حريصاً على أن يتعلّم جميع أطفاله اللغة الإنجليزية.

يحبّ عبدالله قضاء فترات يومية في بركة السباحة كجزء من نظام تطوير الذات.

«أتذكّر خطاباً ألقاه (بالعربية) في لندن في المانشن هاوس»، يقول نيك كوكنج. «هذا المكان مخيف جداً. كان خطاباً تحدّث فيه بطلاقة وبطريقة خالية من أي خطأ».

نال عبدالله نصيبه من منح الأراضي والأموال التي وزّعها أسلافه: عبدالعزيز، سعود، فيصل -والملك خالد بشكل خاص- على العائلة المالكة. لكنه لم يشق طريقه نحو الثراء والمكاسب المادية كما فعل العديد من إخوانه غير الأشقاء.

«لم يضع في جيبه أي عمولة ناتجة عن مشروع حكومي»، يقول أحد العارفين بشأنه. «أنا متأكد من ذلك. هو ليس مفلساً بالتأكيد بل يعيش كأمير. لكنه بالتأكيد الأقل ثراءً من بين أبناء عبدالعزيز الكبار – أي الإخوة الذين تتجاوز أعمارهم السبعين».

لم يكن ولي العهد بريئاً، لكنه كان يفهم إغراءات السلطة ويحاول جاهداً أن يحوّلها إلى طرق بناءة ومفيدة.

«كان يدرس جميع عقود الحرس الوطني بعناية شديدة»، يقول عبدالرحمن أبو حيمد، «كان يصرّ دائماً مع الحكومات الأجنبية بالضغط عليها لتقديم خدمات إضافية على حسابها — مثل التدريب والتعليم لنقل المهارات للسعوديين. كان حريصاً على إغلاق النوافذ والأبواب في وجه الفساد. هل تعتقد»، يسأل دائماً، «أن شخصاً ما نعرفه له علاقة بهذا الأمر؟».

ملاحقة الفساد والغلاء هي السمة الأساسية لعبدالله. «مكلف!» «غال جداً!» كان يقول مستخدماً فرنسيته اللبنانية وهو يتفحّص أي عقد، حيث تُعاد الأوراق لكي يتم التفاوض فيها من جديد. تقول الرواية إن ولي العهد يسمح لزوجاته الأربع بسيارة جديدة كل سنتين، وأنه يجلس مع أولاده مرّة في الأسبوع لمراجعة حساباتهم المصرفية. أولاده ينكرون هذا الأمر لكن لا يغلب على معظمهم الإنفاق الباذخ والرغبة في الثراء.

«كنت راكباً في الدرجة الأولى من الرياض إلى جدة»، يقول رئيس تحرير إحدى الصحف السعودية، «عندما رأيت أحد أبناء عبدالله يمشي خلال الطائرة متجهاً إلى الخلف في درجة رجال الأعمال. عرضت عليه مقعدي فرفض. تخيّل أحد أبناء عبدالله لا يسافر في مقدّمة الطائرة بحاشية لا تزيد عن عشرة أشخاص. القليل من الناس يعرفون أبناء عبدالله —وهو يوصيهم أن يظلّوا كذلك». (ونفس الشيء يحدث مع بناته).

حاول عبدالله —بنجاحات متفاوتة— أن يطبّق هذا المبدأ على كل أفراد العائلة المالكة، وبالتأكيد اليوم يدين له بالفضل العديد من الموظفين البريطانيين في الخطوط السعودية في مطار هيثرو. ذهبت تلك الأيام التي

يظهر فيها الأمراء أو أصدقاء الأمراء في اللحظة الأخيرة للطائرة من دون أي حجز مسبق ليبعدوا المواطنين العاديين عن ركوب الطائرة. أنهى عبدالله هذه الامتيازات الخاصة عند معظم أفراد العائلة بعد استلامه زمام السلطة.

***

استغرق استلام السلطة بعض الوقت والجهد. حتى عام 1995م أصبحت المشكلة اللفظية البسيطة لولي العهد رمزاً لتأثيره القليل على العائلة. كان فهد وإخوانه من عائلة السديري يتصرفون بالدولة كيفما شاءوا. لم يكن عبدالله جزءاً من دائرتهم الداخلية ووجد الإخوان صعوبة في تغيير نهجهم بعد إصابة الملك فهد بالجلطة.

«كانوا يستطيعون تعقيد الأمور بالنسبة لعبدالله»، كما يقول أحد المستشارين في البلاط الملكي، «قد ينسون إخباره ويذهبون في التصرف على طريقتهم المعهودة كيفما أرادوا».

تعافى الملك فهد قليلاً ثم عندما أصيب بجلطة أخرى أشدّ حدّة في عام 1997م، قللّوا من أهميتها، لكن كان من الصعوبة تجاهل الحقيقة المرّة لمرض فهد. كان الملك يتكلّم بصعوبة وكان الأمر مربكاً نوعاً ما أن تنقله على العربة لترؤس عشاء العائلة.

«وا أسفاه!» تقول إحدى قريباته، «كان يعطيك تلك الابتسامة. إنه أمر محزن حقاً. كان مجرد شبح موجود في الفراغ».

اعتمدت صحة الملك على الأدوية التي صُرفت له تلك الفترة. يتذكّر سفير أوروبي أنه كان يصطحب وزيراً زائراً من دولته لزيارة الملك. عند دخولهم القصر الملكي سمعوا صوتاً غريباً غير مفهوم ينطلق من حنجرة فهد.

«جلالته سعيد جداً بمقدمكم من دياركم لزيارته»، قال المترجم بذكاء.

صوت غريب آخر.

«جلالته يرحب بكم وبفرص تقوية العلاقات التي تربط بين البلدين».

كان الملك يجلس على كرسي متحرك في العرض التلفزيوني بحيث يكون الكرسي مخفياً عندما تبدأ الكاميرات بالتصوير. هو حضور رمزي لكنه كان يعكس الطبيعة الملكية والاحترام والتبجيل الذي يتمتع به أفراد آل سعود. كم كان يود عبدالله أن يتصرّف، لكنه كما فعل في أزمة الأمراء الأحرار في عام 1962م، بقي مخلصاً وداعماً لوحدة العائلة.

«إذا كنت جالساً في منزل أخيك»، يقول لسان حال عبدالله، «فلا تقم بتغيير الستائر».

طوّر عبدالله خلال السنوات التي قضاها ولياً للعهد أفكاره التي يحتاجها لتصحيح مسار الدولة حيث كانت مختلفة جداً عن بعض أفكار فهد.

«لو اطلعت على الرسائل التي بعثها بشكل سري إلى الملك من أخ

لأخيه»، يقول عبدالعزيز التويجري، مستشار عبدالله الخاص متحدثاً عن السنوات التي سبقت مرض الملك فهد، «لاعتقدت أن ولي العهد قائد للمعارضة».

لكن لا أحد يعرف مثل هذا الأمر في العلن، بل على العكس. في خريف 1998م، قام عبدالله بتعيين عبدالعزيز بن فهد ذي الخمسة والعشرين عاماً في مجلس الوزراء «كوزير بلا وزارة». بحسب نبوءة العرّاف، كان عبدالعزيز يتحكم في الوصول إلى أبيه المريض، وأصبح بذلك القناة المباشرة لولي العهد مع الملك التي من خلالها يستطيع الحصول على توقيع فهد على الوثائق المهمة. عندما يقتضي الأمر تقديم الميداليات وحضور الاستقبالات الرسمية لرؤساء الدول، كان عبدالله ينأى بنفسه بعيداً عن كل هذا فهو لم يصل بعد إلى السلطة العليا النهائية. هذا شرف يخص أخاه الحبيب الأكبر منه، الملك فهد.

في غياب الآباء والأمهات، ينتقل الاحترام والتبجيل للإخوان الكبار في المجتمع السعودي إذ إن مسألة العمر والسن هي أحد أعمدة المجتمع القبلي.

«بعد أن أصبح سعود ملكاً في عام 1953م»، يتذكّر صديق للعائلة المالكة، «كان فيصل يعدو سريعاً لتقديم الحذاء لأخيه الكبير، على الرغم من تحفظّه على الكثير مما كان يفعله أخوه».

أحد المناظر التي تجلب المتعة وأنت تشاهدها عندما يجتمع الأمراء

السعوديون هي تلك الطريقة التي ينتقلون فيها من مكان إلى آخر ويرتّبون أنفسهم بشكل غريزي حسب الأقدمية: الكل يعرف رتبته في الهرم ويلتزم بها، حتى لو أن الفرق في العمر هو بضعة أيام معدودة. لم يكن مقبولاً أبداً من عبدالله أن يغيّر مجلس الوزراء الذي اختاره أخوه وهو على قيد الحياة، وهذا ينطبق بالطبع على أهم حقيبتين وزاريتين في المملكة وهما الدفاع والداخلية اللتان تعتبران الآن من الحق الشخصي لإخوة فهد الأشقاء، سلطان ونايف، كما هو الحال أيضاً مع السيطرة المطلقة لعبدالله على الحرس الوطني.

في هذا الشأن، أصبح عبدالله مُحاصراً بحلول مرّة، إذ مع اقتراب عقد التسعينات من النهاية، كان الملك وولي عهده عاجزين عن التصرف بطرق مختلفة. لا يستطيع الاثنان إبراز أفضل ما عندهما — وكانت الستائر السعودية بحاجة ماسة إلى التغيير. بعد ارتفاع طفيف لأسعار النفط وصل إلى عشرين دولاراً للبرميل في حرب الخليج، تراجعت الأسعار مرة أخرى بقية ذلك العقد- في عام 1998م، وصل سعر البرميل إلى تسعة دولارات فقط.

«يجب أن نتعوّد الآن على طريقة مختلفة للحياة»، صرّح بذلك عبدالله في عام 1999م معلناً أن أيام المال النفطي أصبحت من التاريخ الآن. أعلن عن ميزانية مالية متقشّفة مقللاً الإنفاق الحكومي بنسبة 16 بالمئة، وحثّ السعوديين على المضي قدماً في الحياة «من دون الاعتماد الكامل على الدولة».

«كانت هذه المرة الأولى والوحيدة التي أرى فيها عملية انتحار»، يقول الدكتور أحمد قباني، الذي يعمل مديراً للموارد البشرية في جدة. «كان ذلك

في طريق المدينة وكان هناك جسر خشبي فوق الطريق. رأيت رجلاً مسكيناً يضع حبلاً حول رقبته ويقفز. رأيت جسمه يتدلّى هناك. وصفه الناس بالجنون لأن الإسلام يعتبر إنهاء المرء لحياته ذنباً كبيراً. اتضح أن الرجل لم يتمكن من الحصول على عمل لكي يقوم برعاية عائلته».

رفضت وزارة المالية دفع مبالغ العقود الضخمة التي انتهت بلا مخالفات. كان رجال الأعمال السعوديون يراجعون الوزارات شهراً بعد شهر بشكل مهين في محاولة يائسة للحصول على حقوقهم وحقوق شركائهم الأجانب.

«لقد كسبتم الكثير من الثروات في السابق»، كانت الإجابة التي تنتظرهم دائماً.

***

في خضم هذا الانكماش، حاول اقتصادي صغير مضحك إصلاح الهاتف السعودي. صدر أمر بتعيين الدكتور علي الجهني وزيراً للبريد والاتصالات قبل ثلاثة أشهر من الجلطة التي أصابت فهد، وانتهى به الأمر إلى أن الطريق الوحيدة لتحسين الخدمة هي في خصخصة هذا القطاع.

«كانت هذه الوزارة مجرد سوق خيرية»، يقول الجهني متذكراً، «الكل معروض للبيع. لم تكن هناك خطوط كافية. يمّر كل خط جديد وكل رقم جديد عبر طاولة شخص ما في الوزارة وكل واحد منهم يضع السعر الذي يريد».

كشف الجهني عن اثني عشر موظفاً كبيراً عليهم مغادرة الوزارة فوراً. قبل ستة منهم التوديع بمصافحة من الوزير، أما الستة الآخرون فقد رفضوا التزحزح قيد أنملة. أخذ الوزير أسماءهم إلى ولي العهد طالباً منه فصلهم.

اندهش عبدالله.

«ستة؟» سأل عبدالله، «فقط ستة؟ سوف أوقّع لفصل ستمائة موظف».

يتضايق عبدالله كثيراً من تدني مستوى الموظفين الحكوميين، وأكثر ما يغضبه التزامهم بالبيروقراطية. كان ولي العهد يتضايق كثيراً عندما يتم اقتراح تشكيل لجان ما. «الملك عبدالله»، يقول الجهني، «يستطيع أن يشمّ الإصلاح من مسافات بعيدة. قد لا يكون على دراية كاملة وقتها بتفاصيل الفوائد الاقتصادية للخصخصة، لكنه كان يعرف أن ذلك يعني حرية كبيرة للمواطن السعودي، كما أن هذا سيعطيني حرية أكبر في تغيير الظروف نحو الأفضل. كان ذلك كافياً بالنسبة له. اشتكى بعض الوزراء من غير الأمراء حول أنه من الأفضل للحكومة عدم التخلّي عن قطاع مهم كالاتصال والمعلومات، لكن ذلك لم يكن مهماً بالنسبة له، وكذلك أيضاً بالنسبة للأمير سلطان. في كل معركة أخوضها، كان هذان الاثنان الداعمين الرئيسين لي».

اكتشف الوزير الجديد سريعاً أنه كان فعلاً بحاجة إلى ذلك الدعم.

«فُتحت أبواب الجحيم. في بداية الأمر، كان الجميع يريد أن أكون صديقه المفضل. لكن بعد رفضي إعطاءهم ما يريدون أصبحوا ألدّ أعدائي،

القبائل، التجّار، العائلات. اتهموني بالفساد، بالطبع، لكن دعني أخبرك أن هناك ثلاثمائة ألف من قبيلة الجهني لم يحصل أحد منهم على وظيفة أو خط هاتفي بسببي».

«وهذا جعل من بعضهم أعداءً لي، من نفس قبيلتي. قالوا إنني خائن، وإنني لا أهتم بأهلي. شعرت أنه لا يوجد أحد يمكن أن أثق به. عندما يكون لزاماً علي أن آخذ وثيقة مهمة لمجلس الوزراء فإنه يجب عليّ أن آخذها بنفسي من الدور الأرضي في مبنى الوزارة. يوجد هناك كاتب أعرفه ويمكن الوثوق به في طباعة الوثيقة من دون أن يكلّم أحداً بالهاتف أو يحصل على صورة منها».

كان الوزير الجديد يعقد مجلسين أسبوعياً، على الطريقة الأميرية، للاستماع لمطالب وشكاوى العملاء. بعد أن اكتشف الوزير أن الوزارة كانت تحتفظ بمجموعة ضخمة من الأرقام لاستخدامها لأغراض خاصة، تخلّى عنها كلها ما عدا خمسة عشر منها. أعلن الوزير أيضاً نظام أولويات لتوفير الخدمة الهاتفية مبتدئاً بالأطباء، وموظفي الإسعاف، والأطفال المرضى. والأكثر من ذلك كله، وجد الوزير الدعم الكامل من ولي العهد في إيقاف خدمة الهاتف الجوّال عن الأمراء والأميرات الذين لا يدفعون فواتيرهم.

«لم يصدّقوا ذلك وذهبوا للشكوى عند ولي العهد. أخبرهم أن عليهم أن يدفعوا مثل أي شخص آخر».

كان تغييراً جذرياً. كان السعوديون من النخبة —الأمراء وغير الأمراء- يحصلون على عشرات الأرقام من الهواتف الجوّالة إلى لندن لكي تستخدمها

عائلاتهم وحاشيتهم للتحدّث مجاناً ليل نهار إلى كل مكان في العالم في أوقات إجازاتهم.

«كان علينا نحن، في وزارة الاتصالات، أن ندفع عشرات الملايين من الدولارات قيمة للخدمة الأجنبية»، يقول الجهني، «كان من المستحيل أن نتجه إلى التخصيص من دون تلك الإصلاحات».

قام فريق من المستشارين الأجانب بإخبار الجهني أن عملية خصخصة الخدمة الهاتفية تستغرق اثنتي عشرة سنة.

«كيف ذلك؟»، سألتهم. «السيدة تاتشر عملت ذلك في سنتين».

«تقوم بمقابلة هؤلاء الشركاء الكبار الذين ينتمون لشركات استشارية أجنبية»، يضيف الوزير الشرس السابق، «ثم يمطرونك بالحكمة التي تبدو نوعاً من الموسيقى الجميلة لأذنيك. توقّع عقداً معهم للاستفادة من خبراتهم، ثم يغيبون عن عينيك إلى الأبد. يقومون بإرسال مجموعة من المبتدئين الذين لا يتحدّثون الإنجليزية بشكل جيّد ويقدّمون لك معلومات منتهية الصلاحية من الإنترنت».

بدأ الجهني، في خضم هذه الظروف، بالشعور بالغضب، ثم أصيب باللوكيميا – سرطان الدم. سافر إلى سياتل لإجراء علاج كيميائي تاركاً وزارة الاتصالات في أيدي حفنة متعاقبة من الوزراء الذين لا يملكون الوقت والدافع لإكمال ما قام به الجهني.

«في الحقيقة»، يتذكّر الجهني بنوع من الحسرة، «كان أحدهم يريد وظيفتي». عند عودته، استأنف معركته وهو يرسل عينات النخاع إلى سياتل كل أسبوع تقريباً.

«أثر العلاج الكيميائي والدواء بشكل سيء على مزاجي. لم يكن من السهل أن يعمل أحد معي. أصبحت لا أحتمل الحمقى وأكره أن يقاطعني أحد – علي أن أعترف بهذا. كانت هناك طريقة واحدة لعمل الأشياء وكنت الوحيد الذي يعرف هذه الطريقة».

في النهاية، قال الأكاديميون والإداريون الذين شكّلوا مجلس شركة الاتصالات السعودية المخصخصة حديثاً إنهم لا يستطيعون العمل مع الجهني أكثر من ذلك. كان يتعامل معهم على أنهم مجموعة من البيروقراطيين التافهين الصغار فلم يعد بإمكانهم تقبّل مثل هذا الأمر. قدّموا استقالاتهم الجماعية لولي العهد فاستدعى تبعاً لذلك الجهني. انتهت المعركة، يقول الجهني، بالنصر.

عيّن الأمير الجهني وزير دولة في مجلس الوزراء لمدة ثلاث سنوات، بينما قدّم له الأمير سلطان هدية ثمينة وأنيقة وهي عبارة عن جمل أبيض.

تم إنقاذ وتحرير خطوط الهاتف السعودية فاتحةً الطريق للحكومة السعودية المحافظة التي تتجنّب مغامرة الأشياء الجديدة نحو عهد اقتصادي جديد. بدأ وزير المالية في حكومة فهد، محمد أبا الخيل والذي خدم طويلاً في وزارته، مفاوضات بطيئة لانضمام المملكة العربية السعودية إلى منظمة

التجارة العالمية، لكن الفريق الاقتصادي الذي جنّده عبدالله ساهم في دفع عجلة المفاوضات وتسريعها.

«رأينا الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وسيلةً للإصلاح الداخلي»، كما يتذكّر أحد أفراد الفريق، نستطيع استخدام التنظيمات والقوانين الجديدة للدفاع عن أهدافنا الخفية في الإصلاح، خاصة وأن المجتمع الاقتصادي أو التجاري أصبح على وعي بهذه التغييرات. نستطيع أن نقول لهم ببساطة «اسمعوا يا شباب! هذه هي القوانين. هي ليست قوانيننا، بل جاءت من الخارج». كانت ببساطة فلسفة جديدة.

أعلن عبدالله إنشاء مجلس اقتصادي أعلى للمساعدة في اتخاذ القرارات الاقتصادية. لكن هذا لم يوفر أي مساعدة عاجلة للأعداد المتزايدة من السعوديين الشباب الذين لم يحصلوا على عمل في نهاية التسعينات الميلادية. مثّلت بطالة الشباب مأساة حقيقية. الدخول العشوائي للعمالة الوافدة الرخيصة غمر سوق العمل السعودية بملايين العمال الذين كانوا مستعدّين أن يعيشوا في سكن بدائي براتب زهيد لا يتجاوز سبعمائة ريال (120 دولار) في الشهر. هذا المبلغ يمثل ثلث المبلغ الذي يستطيع فيه السعودي البقاء حيّاً، والحل المنطقي، تم إجهاضه بنقص التأهيل المحرج للجيل الجديد، وخاصة في ما يتعلّق بالمهارات العملية والتفكير الناقد المستقل. انخفضت الساعات المخصصة لتدريس الرياضيات والعلوم واللغة الإنجليزية في المدارس السعودية في بداية الثمانينات الميلادية لحساب الساعات المخصصة للدروس الدينية ذات الفكر الأحادي – وهي فترة الصحوة التي أعقبت جهيمان وضمنت إنتاج جهيمانيين عديدين.

بدت أيام الطفرة النفطية بعيدة المنال. أدرك الشاب الذي أنهى الدراسة أو تخرّج من الجامعة أن السنتين أو الثلاث سنوات المقبلة من حياته المقبلة ستذهب «هباءً» بلا أمل في الحصول على عمل. أصبح الشباب يقضون حياتهم في التسكع في الأسواق، وقيادة السيارات في شوارع جدة والرياض بلا هدف ومن دون أن يكون هناك أي موارد مالية لشراء ثياب جديدة، فضلاً عن الإنفاق على مشروع الزواج. هي ببساطة حياة مليئة بالاكتئاب واليأس. لا غرابة إذاً أن تجد فكرة الجهاد في أراضٍ أجنبية جاذبيةً وتصبح هدفاً واضحاً يسعى إلى بلوغه العديد من «الوجوه الغاضبة» المحبطة.

الفصل الحادي و العشرون



طالبان

لم يجلب الانتصار الإسلامي في إخراج روسيا الشيوعية من أفغانستان في عام 1989م. السلام إلى الشعب الأفغاني. بل على العكس تمامًا إذ تحولّت مقاومة العدو الأجنبي إلى حرب أهلية دموية مريرة.

«بعد مغادرة الروس، تحولوا إلى مقاتلة أنفسهم» يقول أحمد باديب، رئيس موظفي الاستخبارات العامة التي يديرها تركي الفيصل. «لا يبدو أن بإمكاننا إيقاف القتال بينهم. كانوا جميعًا سيئين بالقدر نفسه. قطعنا الإمدادات المالية التي كنا نبعثها لهم، لكنّهم استمروا في غيّهم. أتذكر أننا قمنا بخطوة حقيقية كبيرة. وضعنا كل قياداتهم في طائرة واحدة وأرسلناها إلى مكة لعقد مؤتمر سلام. قمنا بالفعل بفتح الكعبة و أخذناهم إلى داخلها لكي يحلفوا أنهم يسعون إلى الصلح في معقل الإسلام والمسلمين. كان خروجهم ونزولهم عبر الدرج، وقبل أن تلمس أقدامهم أرض المسجد، وصلني اتصال يخبرني أن أحدهم أمر بقصف كابول بسبب أن محطة الكهرباء تعرضت لهجوم. «واعيباه!» قلت لهم و أنا أقتادهم إلى المطار. «أنتم تدمرون وطنكم بأيديكم».

بعد عقد من النزاع المسلّح، أصبح الصراع طريقة حياة للمجاهدين الأفغان. امتلأت أفغانستان بالسلاح، و تقاتلت الأطراف القبلية والإقليمية قتالاً شرسًا من أجل السيطرة.

«ورثوا مشكلات كبيرة، ولكنهم يواصلون خلق مشكلات جديدة»، يقول باديب، «طلبت من رجالي ترك هؤلاء الأوغاد وشأنهم. ابتعدنا عن السياسة وقدّمنا المساعدة قدر ما نستطيع لعامة الشعب».

باديب كان يدير مشروعًا خاصًا بدأه في الثمانينات الميلادية، وهي مدرسة خاصة لتدريب الأطفال الأفغان المعاقين والأيتام.

«كان هناك الكثير من الأطفال»، يتذكّر باديب، «الذين فقدوا ذراعًا أو ساقًا بسبب الألغام الأرضية. أردت مساعدتهم، فقمت بفتح هذه المدرسة بمساعدة بعض الأصدقاء السعوديين كعمل خيري، كانت على الحدود الباكستانية. جمعنا مالاً ضخماً من مكة ووظّفنا معلمين محليين و علّمناهم صناعة النسيج، الخياطة، الكهرباء والسباكة، مهارات عملية مسالمة بعيدة عن الحرب والقتال».

أي أن باديب أسّس مدرسته، لكن ليس على الطريقة الدينية ولا على الطريقة العسكرية المخجلة التي كانت الطابع السائد هناك.

«كان هناك العديد من المدارس التي تركّز على الدين على طول الحدود الأفغانية الباكستانية»، كما يقول أحمد باديب «البعض من هذه المدارس

يتلقى الدعم من مؤسسات خيريّة في الرياض، ولم يكن الأمير تركي سعيدًا بذلك، إذ إنه يرى أن يتجه المال إلى أغراض تربوية عملية أكثر فائدة. لكن كيف يمكنك إيقاف أناس يريدون إنفاق مالهم في خدمة دينهم؟».

«دعونا نعترف بذلك. نحن جميعًا ارتكبنا الكثير من الأخطاء. عادت أمريكا أدراجها وغادرت أفغانستان سريعًا. بعد رحيل الروس، ذهبت إلى الولايات المتحدة وأوروبا وأوروبا الشرقية في محاولة لتنظيم جهود حول إعادة البناء. ذهبت إلى تركمانستان وإيران أيضًا ولم أحصل على أي رد. الشخص الوحيد الذي كان جادًا هو الملك فهد، و الذي خصّص 300 مليون دولار من خلال مختلف الوزارات السعودية، لصرفها على الكهرباء والطاقة والإرشاد الديني، وكذلك أيضًا في المشاريع الإنسانية و السلميّة التي تخدم الشعب».

«أوقفنا الدعم المادي بشكل متعمّد لكي نظهر عدم موافقتنا، وفي الوقت نفسه لتحفيزهم»، يقول الأمير تركي، «أخبرناهم بشكل متواصل أننا جاهزون لتقديم الدعم إذا كانوا راغبين في تحقيق السلام، إذا وجدوا طريقة للخروج من مأزقهم».

جاءت الطريقة من مصدر غير متوقع و تحديدًا من جنوب البلاد، أي في منطقة قبائل البشتون التي لديها خريجون من المدارس الدينية. لم يجد طلاب البشتون الشباب مخرجًا للنفق المظلم الذي وقعت به دولتهم إلا باتباع القوانين الواضحة كالشمس للإسلام المتشدّد، حيث كانت تتركز دراستهم على القرآن وصورته عن المجتمع المثالي العادل الذي أنجزه النبي محمد بعد سلسلة حروب خاضها قبل أربعة عشر قرناً مضت.

«سوف نناقش المحنة الكبيرة لشعبنا الذي يعيش تحت سلطة هؤلاء اللصوص..» يقول وزير خارجية طالبان ذو العين الواحدة في حديث لاحق مع الكاتب الباكستاني أحمد رشيد «لم تكن الصورة واضحة بالنسبة لما يمكن أن نقوم به وكنّا نتوقع الفشل. لكن كنّا مؤمنين بأن الله معنا وأننا طلابه».

تعني كلمة طالب باللغة العربية ذلك الفتى الذي يذهب إلى المدرسة، أما بلغة البشتون فإن كلمة طالبان تعني مجموعة من الطلاب، وفي منتصف التسعينات بدأ الطلاب المتحمسون في قندهار بأخذ مصيرهم بأيديهم، حمل رجال القبائل الملتحون أصحاب العمائم القرآن في يد والكلاشينكوف في اليد الأخرى و هم يتنقلون بين قرية و أخرى.

«ضعوا أسلحتكم أرضًا من أجل هذا القرآن»، قالوا ذلك لرؤساء العصابات وتجار الحرب وهم يلوّحون بالقرآن أمام وجوههم. إذا قاومهم أحد فإن هؤلاء الشباب الطلاب يطلقون النار عليه فورًا وفي نفس المكان. كانت عدالة بشتونية قاسية وتقليدية تحوّلت إلى جهاد مقدّس بفضل التعاليم السلفية التي تلقوها و تشرّبوها في مدارسهم.

«نريد أن نعيش الحياة التي عاشها النبيّ قبل ألف و أربعمائة سنة»، يقول أحد قادة طالبان موضحًا الأمر لأحمد رشيد، «والجهاد هو طريقنا وحقنا. نريد أن نبعث من جديد الحياة التي عاشها محمد، ونحن فقط ننفذ ما كان يريده الشعب الأفغاني خلال الأربع عشرة سنة الماضية».

رحبت الجماهير الأفغانية التي أرهقتها الحرب بالطرق المباشرة

والبسيطة لهؤلاء الطلاب الشباب. قد يبدو عليهم العنف مثل أي حزب أفغاني آخر، لكنهم كانوا من المواطنين المحليين وبعيدين عن الفساد. خلال أشهر قليلة، كان الجنوب البشتوني بما فيه قندهار، المدينة الثانية في أفغانستان والتي يقطنها أكثر من أربعمائة ألف نسمة، تحت سلطة طالبان. تم إيقاف أحمد رشيد خلال سيره من قندهار السنة الماضية من خلال ممر خوجاك، أكثر من عشرين مرة على يد لصوص مسلحين وضعوا حواجز على الطريق يطلبون عندها رسمًا ماليًا للعبور الآمن. مع نهاية 1994 م كان هذا الطريق الذي يصل طوله إلى 130 ميلاً خالياً من أي عوائق أو حواجز. قامت شركات النقل المحلية – بما فيها تجار الهيروويين الذين كانوا ينقلون مواسم حصاد الأفيون – بدفع رسومهم بشكل طوعي لطالبان.

***

تم تقديم هؤلاء المجاهدين الجدد للأمير تركي في أوائل عام 1995م أثناء زيارة له لباكستان، ولم يكن ذلك صدفة على اعتبار أن التقدم المدهش لطالبان كان برعاية الله –كما تعتقد طالبان– بالإضافة إلى جهود جهات أخرى. حصل الطلاب على الدعم المالي والتسليح –خاصة في عمليات السيطرة على الطريق المؤدي إلى قندهار– من رجال المخابرات الباكستانية الذين خططوا جيدًا لمقاومة السوفيات و قد أصابهم الإحباط من الصراعات اللاحقة بين قياداتهم.

«هؤلاء أبنائي»، صرّح بذلك الجنرال نصير الله بابر، وزير الداخلية الباكستاني، بفخر شديد وهو يرحب في إسلام أباد برئيس المخابرات السعودية ويقدم له مجموعة من طالبان كان يقودهم الملاّ الشاب محمد رباني.

«نحن ملتزمون تمامًا بفرض السلم في وطننا»، قال رباني (ليس له علاقة بالرئيس الأفغاني رباني)، الذي أبدى تواضعًا شديدًا أمام الأمير، «أي شيء سيأتي من المملكة العربية السعودية سنقبل به».

كان الشاب صادقًا مع تركي، لكنه بدا ساذجًا.

«لم يكن متعلمًا بشكل جيد»، يقول الأمير تركي عن ربّاني، «كان ريفياً، لا أعتقد أنه كان يفهم ما يجري، و نفس الانطباع كان مع الرجل الثاني في الهرم أيضًا».

وبعد فترة، قابل أحمد باديب الرجل الأول في طالبان بمساعدة أخرى من الباكستانيين.

«أفغانستان، باكستان، هما تقريبًا دولة واحدة»، يقول باديب موضحًا لماذا كانت المخابرات السعودية - التي كانت تعمل جنبًا إلى جنب مع نظيرتها الباكستانية خلال حرب الثمانينات الميلادية — أصبحت الآن تستمع إلى ما كان يقوله الباكستانيون، «كانوا دائمًا ما يخبروننا عن هؤلاء الشباب الذين كانوا درعًا حصينًا لمناطقهم الجنوبية حيث حافظوا عليها وجعلوها أكثر أمنًا ولهذا فقد نسّقوا اجتماعًا مع قائدهم. لا أنسى ذلك أبداً. ظهر شابّان قويان بلحيتين كبيرتين من طالبان و هما يحملان ثالثًا، «صاحبنا يعاني الكثير الآن». قالا لهم، فقد عينًا واحدة و ساقًا واحدة».

قدّموا لباديب قائد طالبان الغامض والمنعزل، الملاّ عمر، البالغ من العمر 44 سنة في عام 1995م، كان الملا عمر قد دخل الأسطورة قبل هذا التاريخ عندما انفجرت شظية في وجهه قبل خمس سنوات فأخذ سكينًا –كما تقول الأسطورة وفقأ عينه اليمنى بنفسه. كان يتكلم العربية بشكل معقول بصوت خفيض ومتواضع، ولم يصرح للإعلام إلا ما ندر. جماعته -كما يقول - «هم مجموعة من الشباب المخلصين هدفهم إقامة شرع الله على الأرض... سوف تقاتل طالبان حتى النهاية عندما لا يبقى في أفغانستان أي دم يمكن أن يسفك، ويصبح الإسلام طريقة الحياة لشعبنا».

أُعجب مبعوث المخابرات السعودية بكلامهم.

***

بعد أشهر لاحقة، جاء باديب على متن طائرة صغيرة، تابعة للمخابرات السعودية يريد الهبوط في مطار قندهار وقد لمح بقرة تتمشى في منتصف المدرج. رفع الطيار طائرته نحو الأعلى و أخذ يدور مرة بعد الأخرى حتى تمكنت لجنة طالبان التي تستقبله من إبعاد البقرة عن المدرج، أُعجب الملك فهد بما سمعه عن طلاب قندهار المقاتلين إذ يبدون الأمل الوحيد في إعادة النظام إلى الفوضى الأفغانية، و قد تم إرسال رئيس موظفي الأمير بندر لتقصّي حقيقتهم واكتشاف المزيد.

«ألا تذكرنا؟» سأله بعض المحاربين الشباب من ذوي اللحى الكثيفة وهم يحيطون بباديب على الإسفلت، «كنّا طلابًا في مدرستك!».

كان لقاءً وديًا و لطيفًا. استقبل الملا عمر باديب بالأحضان إذ هذا هو اللقاء الثاني معه. ردّ عليه باديب التحية بأفضل منها عندما أهدى الرجل ذا العين الواحدة نسخة من القرآن الكريم.

«أي شيء تطلبه المملكة العربية السعودية منّي»، مردّدًا نفس الالتزام الذي سبق وأن أعلنه نائبه في لقائه مع الأمير تركي، «سوف أنفّذه».

وضعت طالبان نفسها تحت إشراف القيادة السعودية حيث طلبت المعونة المادية والعينية، وبحسب ما قاله أحمد رشيد فقد حصلوا عليها، «زوّدهم السعوديون بالوقود، والمال، ومئات سيارات النقل الجديدة»، كتب ذلك رشيد في كتابه الموسوم «طالبان» والذي نشر في عام 2000م، وهو أول كتاب تاريخي عن الحركة. جاءت هذه المساعدات السعودية إلى قندهار عن طريق دبي.

أنكر الأمير تركي الفيصل كل هذا.

«لم تقدّم الحكومة السعودية أيّ مساعدة تذكر إلى طالبان»، يقول الأمير تركي، «ولا سنتًا واحدًا. أستطيع أن أقول ذلك بشكل مطلق. عندما قرأت لاحقًا عن سيارات النقل الصغيرة التي جاءت عن طريق دبي حقّقت في الأمر. لم تحمل القصة أيّ صحة على الإطلاق. صحيح أننا قمنا بتوفير بعض الوقود الرخيص لحكومة ربّاني في كابول لأغراض إنسانية. كان ذلك الوقود موجودًا في المخازن الباكستانية. وكنّا أيضًا قد شجعنا مشروع خط أنابيب لنقل الوقود إلى الشمال. هذا كل شيء. وصلنا طلبات كثيرة للمساعدة

وكنّا نرد عليهم دائمًا «لا، ليس قبل أن تتوقف الحرب». حصلت طالبان على المساعدة من المخابرات الباكستانية ومن رجال أعمال خارجيين ومن محبي الخير لهم. بعض هؤلاء كانوا من الخليج – من الكويت و الإمارات – و قد يكون البعض منهم من السعودية».

هذه هي نقطة الضعف، بمجرد وصول الأخبار الطيبة عن طالبان إلى المملكة العربية السعودية – استقبلها الجميع بسعادة بالغة – الجهاد الأفغاني يعود إلى الحياة مجددًا بمحاربين سلفيين مخلصين. ظهرت صناديق التبرعات من جديد في المساجد والأسواق، مكررة بذلك جولة الصدقات والإنفاق الخيري التي كانت في الثمانينات الميلادية، مع اختلاف بسيط وهو الزيادة الكثيفة في التبرعات، أصبح لدى خطباء الجمعة موضوع عاطفي يعزفون على وتره، فضلاً عن دعم شخصية مهمة و متحمسة لهذا الأمر وهو عبدالعزيز بن باز مفتي المملكة من عام 1992م. ابن باز، وهو الرجل الذي قدّم لجهيمان وأتباعه المشورة والحماية، يقوم الآن بحثّ الناس على دعم الطلاب الأفغان عن طريق العلماء و الأمراء المهمّين الذين يتصلون به. لا أحد يعرف – ولن يكون ذلك ممكنًا معرفته – أي من عائلة عبدالعزيز خصّص مالا يستخدمه الشيخ في أي سبيل يريد، لكن الشيء الأكيد هو أن المال الذي قُدّم لهم على أنه مصروف شخصي كان كافيًا لشراء أسطول من سيارات النقل الصغيرة لطالبان.

«أنا أعرف»، يقول أحمد رشيد، «إنه كلما رأيت سيارة نقل صغيرة – وخاصة النظيفة منها– أسأل طالبان عن مصدرها، وكان الرد الذي أحصل عليه دائمًا هو من السعوديين أو الإماراتيين. كان الأمر واضحًا بالنسبة لهم

حول مصدر الدولة التي أعطتهم إياه، لأنهم كانوا يريدون أن يثبتوا أنهم يتلقون دعمًا دوليًا، على الرغم من أنهم كانوا لا يفرقون بين المساعدة الحكومية والشخصية والخيرية. في مكتب وزارة الخارجية (البريطاني)، أخبرني أحدهم عن مساعدة معيّنة من السعودية. بعضها كان من قبل الحكومة –كان هناك تعاطف رسمي ودعم لطالبان في الأيام الأولى– بينما كان البعض الآخر بالتأكيد من أفرادٍ مستقلين وجمعيات خيرية».

أصبح للجمعيات الخيرية في السعودية قيمة كبيرة في أفغانستان، إذ بحلول نهاية عام 1995م كان الطلاب المقاتلون يحاربون بمصادر مالية وافرة لم يكونوا يحلمون بها وأكثر مما كانوا يستلمون من أنصارهم الباكستانيين الفقراء نسبيًا، و قد استخدموا بفعالية سيارات الداتسون ذات الدفع الرباعي إذ وضعوا أسلحتهم الرشاشة فوق ظهورها لتصبح سيارات مدرّعة آلية وذكية – أو نسخًا معدلة لسيارات الجمس المدرّعة التي ذبح بها عبدالعزيز الإخوان في معركة السبلة. مع اقتراب الشتاء من نهايته سيطرت طالبان على الجزء الجنوبي برمته والأوسط والغربي، ووجدت الحركة نفسها أمام بوابات كابول. في ربيع 1996م جمع الملا عمر في قندهار أكثر من ألف قائد ديني في المناطق التي سيطر عليها لمبايعته أميرًا للمؤمنين.

يوجد في أفضل مكان للعبادة في قندهار صندوق ذهبي يحتوي على كنز نادر، رداء قديم يقال إنه العباءة التي كان يرتديها الرسول. لا أحد يحرّك هذه العباءة إلا في الأوقات العصيبة –كانت المرة الأخيرة قبل ستين سنة خلال وباء الكوليرا–، الآن، وفي الرابع من أبريل في عام 1996 م طلب الملا عمر إحضار عباءة الرسول إلى سطح المسجد في وسط المدينة، وأدخل

يديه في أكمامها، ثم تقدم مستعرضًا فوق السطح وهو يلّف نفسه بهذا الرداء المقدّس ثم يفتحه مرة أخرى لمدة وصلت لأكثر من نصف ساعة بينما رمى الملالي الموجودون في ساحة المسجد عماماتهم في الهواء وهم يصرخون ببيعتهم و إخلاصهم له.

حسب المعايير الوهّابية، ما قام به الملا عمر غير إسلامي من جهتين: تقديس العباءة من جهة، والاستعراض المسرحي من جهة أخرى، لكن المحسنين السعوديين تبنّوا موقفًا متسامحًا مع طالبان هذه المرة، هذه مبالغات طبيعية لحركة شابّة. إنها بالتأكيد سوف تكبر عن مثل هذه التصرفات، هذا بالإضافة إلا أن الملا عمر قد أثار بدورانه السريع هذا حماس هؤلاء الشباب المتخرّجين من المدارس. مع نهاية سبتمبر من عام 1996 م استولت حركة طالبان على مدينة كابول فامتدت سلطتها إلى اثنتين و عشرين منطقة من أصل إحدى وثلاثين في أفغانستان. أعلنوا أن حركتهم المؤمنة سيطلق عليها الإمارة الإسلامية في أفغانستان، وبينما تراجع العالم منتظرًا تقدّمت ثلاث دول لمنح هذه الحركة غير العادية الاعتراف الرسمي، باكستان، والإمارات العربية المتحدة، والسعودية.

***

كان هناك – مع ذلك – جانب مظلم في انتصار الطلاب السريع والمفاجئ. في الليلة التي احتلوا فيها كابول سخرت طالبان من الحصانة الدبلوماسية لمبنى الأمم المتحدة و اختطفت محمد نجيب الله، آخر رئيس شيوعي في أفغانستان كان يعيش في حماية الأمم المتحدة منذ أربع سنوات. قامت الحركة –في ما أصبح بعد ذلك نموذجًا وحشيًا لها– بضرب نجيب

الله وأخيه حتى فقدا الوعي، ثم خَصَوْهما، وسحبوا جثتيهما خلف سيارة جيب ثم شنقوهما بأسلاك كهربائية على أعمدة الإنارة في الشارع.

أصدرت طالبان في اليوم التالي قائمة بالممنوعات التي عرفت بها الحركة بعد ذلك: ممنوع استخدام الطيارات الورقية، ولعب البلياردو، والموسيقى، وطلاء الأظافر، ومعجون الأسنان، والتلفزيون، وحلق اللحى، وقصات الشعر الأمريكية والبريطانية، وتربية الحمام، واللعب بالطيور. الأقل إضحاكًا من ذلك هو أن طالبان فرضت لبس الحجاب الكامل من الرأس إلى القدمين، والبرقع، و أغلقت مدارس وكليّات البنات، ومنعت النساء من العمل، وهي خطوة همجية أضرّت بعشرات الآلاف من أرامل الحرب الأفغانية اللاتي كان لزامًا عليهن العمل حتى يبقين أطفالهن على قيد الحياة.

«على النساء أن يبقين داخل بيوتهن» يقول أمر طالباني صدر في نوفمبر 1996م، «إذا خرجت النساء من بيوتهن بملابس فاتنة و ضيقة مبديات زينتهن فإنهن ملعونات من قبل الشريعة الإسلامية و لن يدخلن الجنة».

يقوم بفرض تطبيق هذه التنظيمات الوحشية أفراد الشرطة الدينية (الهيئة) ، وهم لجان محليّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تم إنشاؤها على الطريقة السعودية الأصوليّة المتشددة وتجد الدعم من الجمعيات الدينية الخيرية السعودية. لم يكن هناك الدعم المتحمس من ابن باز فقط بل إن ذلك امتدّ إلى علماء آخرين أيضًا.

«أتذكّر» يقول أحمد رشيد، «أن أعضاء طالبان الذين عملوا أو أدّوا فريضة

الحج في مكة كانوا متحمسين جدًا ومغتبطين بالشرطة الدينية (الهيئة) هناك، وكانوا يحاولون تقليد تلك الطريقة حرفيًا. جاء المال اللازم للتدريب والرواتب من السعودية نفسها».

تكفّل أحمد رشيد مشقة جمع وتوثيق عقوبات جلد القرون الوسطى التي كانت تطبقها طالبان، إذ بعد أشهر قليلة وقعت قدماه على عرض سينظمونه كنوع من التسلية. قرّر أحمد - بعد أن تساءل عن السر الذي يجعل أكثر من عشرة آلاف من الرجال و الأطفال يجتمعون في أستاد قندهار لكرة القدم في أحد أيام الخميس — أن يذهب إلى هناك ليكتشف أن قاتلاً يتم اقتياده في وسط الملعب بين المرميين لكي يقوم بإعدامه أحد أعضاء عائلة الضحية.

لم تكن جذور ممارسات طالبان وهّابية أبدًا، بل كانوا يستمدون أفكارهم من مذهب الديوبندية المحلي، رغم أن المدرستين الأصوليتين متشابهتان. ليست المرة الأولى أو الأخيرة التي يؤدي التعاطف السعودي مع التشدد الإسلامي إلى ولادة ماردٍ كبير- وكما لو كان يريد تأكيد هذا الكلام — اتجه أسامة بن لادن في التاسع عشر من مايو من عام 1996 م إلى أفغانستان قادمًا من السودان.

***

لم يعرف بن لادن أي شيء عن طالبان. كانوا ظاهرة التسعينات الميلادية. لكنه كان يرى بوضوح ما كانوا يفعلونه تجاه أصدقائه من المجاهدين المتجَاهلين تمامًا. بمجرد وصوله إلى جلال أباد كان همّه —بحسب رواية حذيفة بن عبدالله عزام— هو الوصول إلى الملا عمر و طلب حمايته. «أهلاً

وسهلاً» كان هو الرد الحار والإيجابي الذي لقيه بن لادن كما يقول حذيفة في تفصيل رواه لاحقًا، «على الرحب والسعة، لن نسلمك أبدًا لأي شخص يطلبك».

يبدو هذا الأمر في غاية البساطة. الشخص الذي كان يوفر الحماية لـ بن لادن في جلال أباد هو يونس خالص، صديق مجاهد في الأيام الخوالي. لكن خالص سيلتحق مع قواته بطالبان وبحسب تسلسل الأحداث فقد أصبح الوعد الذي قدمه الملا عمر في حيّز التنفيذ. هناك أسباب عديدة على الطريقة الغربية، تتراوح بين التنافس الشخصي والسياسة الواقعية تجعل من القائد الطالباني حذرًا من أسامة الذي جاء بدون دعوة — كلا الرجلين كان يمتلك رؤية متكلفة عن هدفه في الحياة، لكن الرؤيتين أبقتهما محجوزين داخل الرسالة الإسلامية التي يحملانها. يحتاج المحاربان أن يتعاونا مع بعضهما البعض وقد وجدا طريقة لذلك.. توقف الملا عمر عن خطبته في يوم ما وأثنى بشكل مباشر على ابن لادن أمام المصلين واصفًا إياه بأنه أحد أهم القادة الروحيين في الإسلام. وقد ردّ بن لادن عليه بالمثل مخبرًا العالم أن فتاواه الآن تصدر من خراسان، الإمبراطورية العظيمة التي اتخذت من أفغانستان مقرًّا لها في زمن الرسول والتي بحسب بعض الأحاديث ستظهر فيها جيوش الإسلام وهي تلبس العمائم وتكشف عن أعلامها السوداء، مثل علم طالبان الأسود، لهزيمة الكفار ثم العبور للنصر المنتظر في القدس.

من حسن الحظ لكلا الرجلين الشريكين في هذا التحالف المقدّس أن السعودية لا تجد طريقة للتفريق بينهما. انزعج آل سعود كثيرًا في عام 1996م من بن لادن. لكنهم لا يملكون أي وسيلة للتعبير عن استيائهم.

لو أحضروا أسامة إلى المملكة فسيكون مصدر مشكلات لهم سواءً أكان حرًّا طليقًا أم كان خلف القضبان. كانت جرائمه آنذاك تنحصر في الكلمات الفضائحية، أي مجرد أخطاء غير مثبّتة يمكن معاقبته عليها بسهولة. ولم يكن أسامة قد أنجز شيئًا في ذلك الوقت يمكن أن يؤدي به إلى تحويل كلماته إلى أفعال في المستقبل. كما يبدو، كما يقول بندر بن سلطان لاحقًا، «مجرد طفل صغير مغرّر به»، «يمتلك فمًا كبيرًا ومالاً كثيرًا». «ولا يمثل تهديدًا للنظام، ولا تهديدًا لأي أحد». تعمّدت الحكومة رفض فرص استعادة بن لادن من السودان في بداية التسعينات، أما في أفغانستان فقد أصبح بعيدًا و أكثر أمانًا.

سيطرت طالبان في عام 1996م على ممر خيبر الذي كان يقاتل فيه يونس خالص وأرسلت رسالة إلى الأمير تركي الفيصل.

«لقد سيطرنا على جلال أباد»، أخبروه، «وبن لادن موجود هنا، لقد قدمنا له الحماية، ونستطيع أن نضمن تصرفاته».

ذكر الأمير في ردّه على هذه الرسالة في مقابلة له مع برنامج تلفزيوني أمريكي اسمه نايتلاين في ديسمبر 2001 م قائلاً: «حسنًا، إذا أنتم وفرتم له الحماية فاعملوا على منعه من التصرف بشيء ضد المملكة أو أن يقول شيئًا ضد المملكة». كان تركي واثقًا في ذلك الوقت أن طالبان ستكون مسؤولة عن «إغلاق فمه».

لكن بالنظر إلى الجانب الآخر من أحداث الحادي عشر من سبتمبر كان هذا إهمالاً واضحًا و اتجاهًا خاطئًا في التعامل مع رجل أصبح أكبر إرهابي

في العالم. لكن هذا لم يكن المنصب الذي وصل إليه بن لادن في نهاية 1996م. جمع بيتر بيرغن - الخبير في عالم الإرهاب– مذكرات الصحافيين الذين ذهبوا إلى أفغانستان لمقابلة أسامة في ذلك الوقت فكانت جميع قصصهم تتمحور حول التجربة الشخصية التي عاشها بين المغامرة والخطر لكن أيًّا منها لم يقدّم الرجل السعودي المنفي الوحيد على أنه كان قادرًا على نسف مانهاتن. وصفه البعض منهم على أنه شخص مجنون على نحو ما.

أخذ بن لادن صورة دون كيشوت وهو يتذمر و يشكو من العالم متنقلاً بين الخيام وكهوف هندوكوش.

«يا ويليام» أعلن بن لادن في أغسطس مخاطبًا ويليام بيري وزير الدفاع الأمريكي في ذلك الوقت «غدًا ستعرف أي نوع من الرجال كان يواجه إخوانك المغرر بهم... لن يطلب منك هؤلاء الشباب أي نوع من التوضيح. سوف يصرخون بصوت عال أنه لا يوجد بيننا أي شيء يحتاج إلى التوضيح أو التبرير. هناك قتل وكسر للرقاب».

وضع أسامة بن لادن لخطابه اللاذع البالغ ثمانية آلاف كلمة العنوان التالي: «إعلان الحرب ضد الأمريكان الذين يحتلون أرض الحرمين الشريفين». يبدو ذلك سخيفًا. في خلال رحلته إلى السودان وخروجه سالمًا من أفغانستان، تظهر اللغة القديمة التي يستخدمها بن لادن مليئة بالتهديد والوعيد – و خاصة للأمير تركي الذي يعرف أن «أبا عبد الله» لم يجرّب القتال الحقيقي في الثمانينات وهو الآن يحاول أن ينسبه لنفسه. في السودان، أرعد بن لادن و أزبد بشكل ساخط لمدة أربع سنوات وحاول تنظيم معسكرات

تدريبية لكنه لم يحقق أي شيء، والآن ها هو يعود إلى ركام أفغانستان. لن يكون هناك أي فرق حتى لو زاد شجبه واستنكاره، وحتى أيضًا لو فتح معسكراته التدريبية مرة أخرى.

الفصل الثاني والعشرون



الذراع الطويلة

مع حلول ربيع عام 1997م، كان أسامة بن لادن قد قضى في أفغانستان سنة كاملة تقريباً. كان يشتغل مع طالبان في إنشاء جيل جديد من المعسكرات التدريبية الجهاديّة متعدّدة الجنسيات، أما المجنّدون فقد بدأوا فعلاً بالوصول — بمن فيهم المهندس الكهربائي الشاب الذي يعيش في جدة، خالد الحبيشي.

«اذهب إلى أفغانستان»، كانت هذه هي النصيحة التي سمعها من المقاتلين السابقين بعد أن استشارهم. «ذلك هو المكان الطبيعي الذي يمكن أن تتعلّم فيه الجهاد الحقيقي». لقد جرّب هذا الشاب ذو العشرين ربيعاً الفيليبين من قبل. في عام 1996م باع سيارته لكي يتمكّن من الصرف على رحلة إلى جزيرة مندناو الجنوبية حيث قضى هناك أشهراً عديدة مع المسلمين الانفصاليين الذين كانوا يتدربون في «معسكر فيتنام».

لكن الثوار الفلبينيين كانوا غير منتظمين، في رأي خالد. لا يتدرّبون على الذخيرة الحيّة. وحيث إنه قد درس الكهرباء فهو يريد أن يطوّر نفسه في مجال القنابل والمتفجّرات — وقد وجد ما يصبو إليه عندما سافر في السنة

اللاحقة إلى خوست في جنوب أفغانستان، بالقرب من الحدود مع باكستان. كان ذلك في مايو 1997م.

كان بن لادن شخصية البطل المفضّلة عند خالد بعد أن قرأ عن بطولاته في الصحف السعودية في نهاية الثمانينات الأمر الذي أثار لدى هذا الشاب الرغبة في تقليد خطوات هذا الرجل العظيم. أثناء دراسته في الكلية التقنية. غضب خالد لحال المسلمين ومعاناتهم على يد الجيش الصربي في البوسنة حيث سمع عن ذلك في الأشرطة الإسلامية الصوتية المنتشرة.

«اغتُصِبت النساء وقُتِّل الأطفال فقط لأنهم مسلمون»، يتذكّر خالد. «كان عليَّ، كشاب مسلم متعاطف، أن أعمل شيئاً. كانت تلك إبادة جماعية. لم أستطع النوم بسبب التفكير في هذا الأمر. يخبرنا ديننا أن يساعد المسلم أخاه، وكانت فكرة الجهاد المهرب الوحيد للخروج من هذا اليأس. عندما وصلت إلى المعسكر وبدأت بالتدريب استطعت أن أحصل على النوم العميق لأول مرة منذ أشهر».

تبيّن صفحة التحقيق الخاصة بخالد الحبيشي في معتقل غوانتانامو القائمة المرعبة للمهارات الإرهابية التي أتقنها منذ عام 1997م. وما بعده في معسكرات القاعدة وطالبان: «حضر السجين ثلاث دورات تدريبية في معسكر كالدان هي أساسيات القتال، فنون القتال والمدفعية، واستراتيجيات الحرب... تدرّب السجين في دورة أساسيات القتال على بنادق الكلاشينكوف ذات المقاس 7،62 مم من طراز أي كي 47، وبنادق سيمينوف النصف أتوماتيكية، 7،62مم من طراز إس كي إس/ نوع56-، ومدافع أوتوماتيكية

رشّاشة خفيفة من نوع آر بي جي 7،62مم، وبنادق رشّاشة متوسطة من طراز بي كي 7،62مم، و مدافع رشّاشة ثقيلة من طراز دوشكا 38 مقاس 12،7مم وقاذفة صواريخ مضادة للدبابات آر بي جي7، وكذلك أيضاً آر بي جي18 من نوع جرينوف.

هذا التنوّع المرعب للأسلحة الروسية يذكّرنا بحقيقة أن حرب القاعدة ضد الغرب كانت في الأساس حرب الغرب السرية ضد السوفيات قبل عشر سنوات. ويبيّن لنا أيضاً التقدّم الكبير لمجاهدي أواخر القرن العشرين في تدريباتهم العسكرية.

«نستيقظ قبل شروق الشمس لصلاة الفجر»، يقول خالد. «ثم نقف جميعنا في طابور ذي تقسيمات وخطوط – كنّا تقريباً في حدود 150 مجاهداً في كالدان. نقوم بالتسخين أولاً، ثم بعض التدريبات الرياضية قبل أن ننطلق نحو الركض في الجبال لمدة ساعتين ونحن نحمل أسلحتنا. نقف بين فترة وأخرى للاسترخاء. أصبحنا رشيقين جداً. اكتشفت أنك تفقد وزنك إذا كنت تتدرّب مع القاعدة!».

يبتسم الحبيشي بسخرية لاذعة عندما يتذكّر تلك الأيام خاصّة وقد أصبح اليوم ممتلئاً بعض الشيء بعد عودته للحياة المدنية العادية.

«فطورنا يتألف من البيض والخبز والفول المدمس. الطعام في معسكرات القاعدة صحي ولذيذ. ثم خلال النهار نحضر دروسنا المتنوّعة. كان هناك الكثير من الأشياء التي نتعلّمها: قراءة الخرائط، التمويه، حرب الشوارع

الأسلحة، المتفجّرات – كيف تنسف بناية أو تفجّر شجرة أو شخصاً. كل مادة لها أستاذها الخاص. أتذكّر معلّمنا في مادة المتفجّرات على وجه الخصوص. كان مصرياً ذا شعر أشقر اسمه أحمد عبد الله».

لا أحد من الجهاديين يستخدم اسمه الحقيقي بل عادة يتبنّون الكنية عوضاً عن ذلك على طريقة بن لادن في استخدامه لكنية «أبي عبد الله». لم يكن لخالد أي أطفال فسمى نفسه «أبا سليمان» تيمّنا باسم والده حيث سيطلق هذا الاسم على ابنه عندما يرزقه الله بطفل في المستقبل.

«ننظر للقادمين الجدد من المحاربين بنوع من الشك والريبة»، يقول خالد. نحن نعرف أن الحكومة السعودية والمصرية واليمنية تقوم بإرسال الجواسيس. لذا كان على القادمين الجدد إثبات حقيقة إخلاصهم.

كان هناك نوع من الهرمية بين المجاهدين.

«يحتل اليمنيون ذيل القائمة»، يقول خالد. كانوا فقراء جداً ومعزولين تماماً. بل إنهم في أفغانستان أغنى وأفضل مما كانوا عليه في بلدهم، ولم يكونوا قادرين على السفر إلى أي مكان وفي أي ظرف. لم يكن بمقدورهم الحصول على تأشيرة الدخول. وكذلك المصريون أيضاً فهم غير قادرين على التنقّل ولا على السفر والعودة إلى ديارهم. كانوا مطلوبين من قبل حكوماتهم ولم يكن لديهم الكثير من المال. أما السعوديون فكانوا يقفون على قمة الهرم بسبب أنهم يمتلكون المال. لا يحتاج السعودي إلى 150 دولار لكي يعيش لأن عائلته تستطيع إرسال 500 دولار في أي وقت. لديه سيارة في وطنه.

يستطيع الذهاب لوطنه متى شاء. إذا كان هنا فمعنى ذلك أنه جاء ليموت. يستطيع القيام بالعمل الضخم الكبير.

يقال إن أسامة بن لادن تعمد اختيار السعوديين لقيادة طيارات الحادي عشر من سبتمبر لضرب إسفين العلاقة بين السعودية وداعميها الأمريكان، وهذا يبدو مقنعا إلى حدّ ما. لكن هناك سبباً عملياً آخر. قبل الحادي عشر من سبتمبر، كان السعوديون بعكس المصريين واليمنيين ومعظم أبناء الدول العربية، يسافرون ذهاباً وإياباً إلى أمريكا بسهولة نسبيا، وذلك على افتراض أنهم عاجلاً أو آجلاً سيعودون إلى وطنهم.

«تشتري التذكرة» يقول أحد المسافرين الدائمين لأمريكا في تلك الأيام، ويقوم وكيل سفرك بالحصول على تأشيرة الدخول تلقائياً. لا تحتاج الذهاب إلى السفارة.

في التسعينات الميلادية، لم تكن الحكومة السعودية تسمح للسعوديين من فئة الشباب بالسفر مباشرة إلى أفغانستان، لكنها لم تفعل شيئاً لإيقاف الذين يسافرون إلى المعسكرات عن طريق باكستان. موظفو الجمعيات الخيرية الإسلامية يروحون ويجيئون بسهولة. قطع خالد الحبيشي تدريباته مستخدما جواز سفر مزيف واستأنف عمله في جدة لفترة ثم عاد إلى أحد معسكرات القاعدة في أفغانستان.

«كل معسكر»، يقول خالد، «له رعاته الخاصون وداعموه. يتم الصرف على الكثير من المعسكرات عن طريق مال الجمعيات الخيرية والصدقات.

أما معسكرات القاعدة فقد كانت للنخبة: لديهم أفضل التدريبات».

أما المعسكرات التي تدعمها باكستان فتعرفها عن طريق الشباب الذين يتم إرسالهم للقتال في كشمير ضد الهند، بينما يقوم بن لادن بإرسال خريجيه لتقوية محاولات طالبان العسكرية ضد تحالف الشمال الأفغاني. كان هذا ردّا للكرم الذي استقبله به الملا عمر. لكن لم يكن هناك الكثير من المودة بين الزائرين السعوديين والأفغان المحليين.

«نسافر مصطحبين دائما معنا قنابل يدوية»، يقول خالد، «هي أفضل من حمل المسدّس. لو واجهنا أي مشكلة مع أحد الأفغان فقط عليك إزالة قمعها والتلويح بها أمامهم»، «جئت هنا لكي أموت» تقول لهم. تستطيع أن ترى الخوف في أعينهم بعد ذلك. لا يترددون في قتلك من أجل مئة دولار لذا يجب عليك إخافتهم عن طريق التصرف بجنون».

كان خالد مؤمناً مخلصاً، لكنه لا يحترم كثيرا تديّن طالبان. «كان مجرد غطاء لهم»، يقول خالد اليوم «وفي رأيي، هو غطاء للعنصرية. هم يعتقدون أن قبائلهم، أي البشتون، هي من يجب أن يحكم أفغانستان، لذلك فهم يستغلون الدين من أجل أن يسيطروا على الناس. أتذكر مرةً أحد سائقي الأجرة الذي كان يستمع إلى الموسيقى في سيارته. ضربته طالبان وصادرت سيارته لمدة أسبوع. هذا هو أسلوبهم – تخويف الناس، لكي يلتزم الجميع بالأوامر ويصمتوا. ينجح هذا الأسلوب في معظم الأوقات. لا أحد يثير المشاكل والإزعاج».

لهذا كان الأمر صعباً عندما يتعلق الأمر باستخدام الفيديو في معسكر خالد.

«كناً نستخدم جهاز الفيديو في دروسنا عن الجهاد والاستراتيجيات العسكرية. لم يكن هذا مسموحاً، لكن عندما جاء المهندس ليصلح الجهاز كان يزحف خلسة مع أدواته وهو ينظر إلى اليمين واليسار حوله كما لو كان في مهمة سرية».

ارتقى خالد في سلم المراتب العسكرية وتخرج كنخبوي مؤهل في برامج تدريبية خاصة. مع عام 1998م كان هناك أكثر من ثمانية آلاف مجاهد غير أفغاني مرابط في وحول معسكرات المجاهدين، بحسب إحصائية المخابرات السعودية. لا أحد يعرف على وجه الدقة عدد المقاتلين المدرّبين التابعين مباشرة لـ بن لادن، لكن العدد كان كافياً بالنسبة له لوضع أحلامه النبيلة حيّز التنفيذ – كلامه المنمق لم يعد فارغاً اليوم. نادى المسلمين حول العالم في فبراير من تلك السنة لدعم «الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين». تعكس العريضة البيان الرسمي الذي وقّعه قادة المقاتلين من بنجلاديش، مصر، كشمير وباكستان، تحالف المتطرفين متعددي الجنسيات والذين اجتمعوا في أفغانستان بعد انتصار طالبان حيث أكدّوا على إعلان بن لادن السابق للحرب ضد أمريكا ليشمل المدنيين أيضاً.

«نحن نعتقد أن أسوأ اللصوص في العالم وأسوأ الإرهابيين هم الأمريكان» قال ذلك بن لادن في مقابلة معه في برنامج فرونتلاين على قناة بي بي أس الأمريكية. «لاشيء يوقفكم إلا إذا كان هناك انتقام بنفس الطريقة. لسنا

مضطرين للتفريق بين الأهداف العسكرية والمدنية. كلها أهداف بالنسبة لنا».

يوضّح البيان أن مشكلة بن لادن تكمن في الدور الذي تلعبه أمريكا في بلاده. انتهت حرب الخليج في 1990م لكن طائرات القوات الجوية الأمريكية ما تزال رابضة في القواعد السعودية والمدن العسكرية، وخلفها جيش ضخم من الموظفين الأمريكان. كان من الصعب إنكار هذه التهم التي أصدرها بن لادن بلغته المقدسة الجذابة، «خلق الله الجزيرة العربية وبسطها وجعل الصحراء في وسطها والبحار في أطرافها»، ثم يقول، «لكن لم يسبق أن اجتاحتها أي قوات مثلما تفعل الآن الجيوش الصليبية التي تنتشر فيها مثل الجراد». لا يحتاج أن يضيف أن هؤلاء الكفار جاءوا إلى الجزيرة العربية «لسرقة مصادرها وإملاء الأوامر على قادتها، (و) إهانة شعبها».

«تخلّصوا من هذا!».

أصدر ولي العهد عبد الله الأمر بقوته المعهودة. إعلان أسامة بن لادن المهين والمتحدّي سيئ بما فيه الكفاية، لكن بعد مرور شهر قبضت المباحث على بعض أتباع بن لادن وهم ينقلون صواريخ لاستخدامها داخل المملكة. لقد خطّطوا للهجوم على القنصلية الأمريكية في جدة.

«اشتكينا طويلاً لطالبان»، يقول الأمير تركي الفيصل، «إن هناك دليلاً قوياً على أن بن لادن يخطط لعمليات داخل السعودية، لقد بلغ السيل الزبى».

لم تستطع السعودية الآن السماح لـ بن لادن بالتحرك بحرية في أفغانستان، وفي يونيو من عام 1998م طار الأمير تركي إلى قندهار. ومع اقتراب الطائرة فوق المطار كان رئيس المخابرات السعودية قادراً على رؤية مزارع تارنك، مجموعة البنايات الطينية التي ذكرها مخبروه وعاش فيها أسامة لبعض الوقت – وهي الآن المقر الجديد لحملة الجهاد العالمي التي يقودها.

كان قادة طالبان ينتظرون واقفين حول الملاّ عمر – وهو منظر بديع يضم مجموعة من الأعين والأيدي والسيقان المفقودة. هم ببساطة حكومة الفئات الخاصة الوحيدة في العالم.

«لا أستطيع أن أعطيك إياه لتضعه في الطائرة»، كان ردّ عمر على حديث تركي الذي كان تذكيراً موبخاً للالتزام السابق الذي أخذه الملاّ عمر على عاتقه بأن يمنع بن لادن مِن العمل أو الكلام ضد المملكة وهو في أفغانستان. لم يتوقف بن لادن عن الكلام والتصريح والمقابلات منذ وصوله وهذا خرق واضح لوعود طالبان.

«قدّمنا له المأوى»، ردّ القائد الطالباني وهو يشرح مطولاً العادة البشتونية في كرم الضيافة والقواعد الصارمة التي تشدّد على عدم خيانة الضيف.

كان الأمير مستعداً لمثل هذا الأسلوب. أحضر معه من الرياض لمساعدته في مثل هذا الحوار الشيخ عبدالله التركي، العالم المشهور إسلامياً وأحد العلماء السعوديين الذي أوضح لطالبان أن الضيف الذي ينكث عن وعده مثل بن لادن الذي أعطى تصريحات هجومية لاذعة مثيرة

للفتن والمشكلات للصحافة العالمية، فإنه يكون بذلك قد خرق حق ضيافته وحمايته. وكوزير سابق للأوقاف الدينية، ذكر الشيخ التركي بأسلوب ذكي مساعدة الجمعيات الخيرية السعودية للأفغان التي ساهمت في الإنفاق على ثورتهم بكرم زائد – لكن هذا الإنفاق انتهى به الأمر إلى أن يكون على طريقة خذ وهات.

لم يجد هذا الكلام آذاناً صاغية عند الملاّ عمر. قدّم الأمير اقتراحاً يحفظ ماء الوجه وهو تشكيل لجنة سعودية طالبانية مشتركة للتفاوض حول طريقة إسلامية يمكن بها تسليم هذا الجهاديّ، وتركهم مع سؤال نهائي: «هل أنتم موافقون من حيث المبدأ على تسليم بن لادن؟».

كان الأمير تركي متأكداً أن إجابة الملاّ عمر ستكون «نعم» –ولا يمكن للمال أو المساعدة أن تغيّر المواقف. يرى المراقبون أن وصول المئات من السيارات ذات الدفع الرباعي لقندهار ذلك الصيف كان دفعة أولى سعودية في الاتفاقية، لكن الأمير تركي نفى هذا الأمر.

«السيارات»، يقول أحمد رشيد موافقاً، «قد تكون من أي داعم خليجي لطالبان».

مع نهاية يوليو، بدأت طالبان في استخدام هذه السيارات الجديدة، لكن مع أسلحة رشاشة فوقها، للاستيلاء على مدينة مزار الشريف الشمالية. قاومت هذه المدينة التاريخية الشيعية، وها هي الآن تعاقب بانتقام مروّع. قدر أحمد رشيد أن أكثر من ستة إلى ثمانية آلاف شيعي، رجال ونساء وأطفال، قد

لقوا حتفهم في ثورة هيجان وحشية بين قتل واغتصاب يشمل ذبح الضحايا على الطريقة الإسلامية الحلال، ونقل المئات منهم في حاويات بدون ماء وتركهم يموتون أحياءً تحت لهيب الشمس الحارقة.

تعتبر مذبحة مزار الشريف أحد أبشع الأعمال الوحشية التي ارتكبتها طالبان. لكنها لم تلق الاهتمام الإعلامي في العالم بسبب الأخبار التي جاءت من أفريقيا قي السابع من أغسطس في العام 1998م المصادف للذكرى الثامنة لوصول القوات الأمريكية للمملكة العربية السعودية. قام فريقان انتحاريان تابعان للقاعدة بشن هجومين على سفارات أمريكا في نيروبي، كينيا، و دار السلام في تنزانيا ذهب ضحيتها مائتان وأربعة وعشرون قتيلاً وأكثر من أربعة آلاف جريح. حدث هذان الهجومان في وقت متزامن مع وجود ثماني دقائق فقط بينهما. الإعداد لهذين الهجومين على الأرض عن طريق أحمد عبدالله، معلم خالد الحبيشي المصري ذي الشعر الأشقر، إذ كانت لمسته الأخيرة هي الضغط على زر التفجير المربوط بسلك في لوحة جهاز القياس الخاصة بالشاحنة التي قادها نحو موقف السيارات في السفارة الأمريكية في دار السلام.

كان هذا العمل باكورة إنتاج القاعدة على المستوى الدولي، وتوضيحاً دراماتيكياً لقدرة هذه الجماعة على تنظيم هجمات تاريخية تبتعد مئات الأميال عن مقر إقامتها. لم تعد سلسلة التهديدات التي توعد بها أسامة بن لادن كلاماً في الهواء أو مجرد خطبة رنانة جوفاء.

تتطلب هذه الجريمة ردًا من الحكومة الأمريكية التي كانت مشلولة

ذلك الصيف باكتشاف فضيحة العلاقة بين الرئيس بيل كلينتون وموظفة البيت الأبيض مونيكا لوينسكي. عندما ذهب ولي العهد عبدالله إلى واشنطن في عام 1998م في زيارته الأولى كحاكم فعلي للمملكة شعر بالامتعاض لأن معظم محادثاته مع الرئيس ذهبت سدى في الحديث عن الفضيحة. لا يجد عبدالله تفسيراً لظاهرة رئيس يعتبر قائداً للقوة العظمى الوحيدة في العالم يقع في ضائقة شديدة حول علاقة حب خارج الزواج.

«أنت صخرة»، يقول عبدالله باهتمام وهو يودّعه، «الجبل لا تهزه الريح».

يرى السعوديون أهمية هذه القصة في كون لوينسكي يهودية. قصة علاقة متدربة البيت الأبيض بالرئيس تتمحور حول إقامة علاقة فاضحة قام فيها كلينتون بنزع بنطلونه ليستقبل منها مداعبة جنسية، وهذا كاف بدوره لمعظم السعوديين في التشبيه الرمزي للتأثير اليهودي على مراكز القوة في أمريكا.

في العشرين من أغسطس 1998م أطلقت عملية الذراع الطويلة ثلاثة عشر صاروخاً من طراز توماهوك ضد مصنع كيميائي مشتبه به في السودان، اتضح بعد ذلك أنه مجرد مصنع بريء للدواء، وفي الوقت نفسه أطلقت السفن الأمريكية في المحيط الهادي خمسة وسبعين صاروخاً من طراز كروز باتجاه معسكرات تدريبية إرهابية في أفغانستان والمشيدة حديثاً. أثبت الخطأ الاستخباراتي المتعلّق بالمصنع والفشل الذريع للصواريخ في الوصول إلى عضو واحد من القيادة الإرهابية المستهدفة أن الاستعدادات والتجهيزات الأمريكية لمواجهة العصر الجديد من الإرهاب ضعيفة جداً. منح هذا الأمر بن لادن المكانة العالمية التي كان يطمح لها.

«بحمد الله، أنا مازلت حياً!» ابتهج بن لادن في رسالة لاسلكية.

وفي الوقت الذي شكر الله فيه وأثنى عليه بعد سلامته، قرأ أسامة اسم شاب سعودي لم يحالفه الحظ بالسلامة – صالح مطبقاني، شاب من عائلة محترمة في جدة كان يقوم بتدريب المقاتلين في أحد هذه المعسكرات. كان صالح السعودي الوحيد بين الضحايا، وقد أعلنه بن لادن شهيداً في الإسلام.

«أتذكّر مقابلتي مع صالح عندما كان عائداً من الحرب ضد السوفيات». يقول ابن عمّه مصطفى. «كان شاباً لطيفاً ومسالماً. كان يبدو رقيقاً، ومؤمناً حقاً. أقول له النكات التي أحب أن أقولها في تلك الأيام لكنه كان لا يستجيب كما لو كان في عالم آخر. عرفنا لاحقاً أنه كان رئيساً للجماعة، وأنه يصنع القنابل، وأنه يستطيع فك سلاحه الرشاش وإعادة تركيبه في الظلام –وأنه يقوم بأشياء لا يمكن لك أن تخمّنها. كان العديد من الناس يتكلمون حول القتال في سبيل الله. لقد نجح صالح فعلاً. صادرت الحكومة جواز سفره في ذلك الوقت، لكنه رجع إلى هناك بطريقة ما».

«كانت مفاجأة صادمة لنا عندما أعلن بن لادن اسم صالح على شبكة السي أن أن كشهيد. جاءت الصحف إلينا بأسئلة كثيرة. لكن العائلة قالت إن هناك خطأ ما في تهجئة اسمه –قالوا إنهم لا يعرفون من يكون».

في منتصف سبتمبر من عام 1998م، كان تركي الفيصل مرة أخرى يحلق فوق مطار قندهار. كان قبل ثلاثة أشهر قد أحضر شيخاً دينياً لمساعدته في مهمته. هذه المرة أحضر معه رجلاً دنيوياً «مفتول العضلات» – الجنرال

نسيم راما، رئيس المخابرات الباكستانية. لو تصرّف الملاّ عمر بشكل غير لائق فسيكون أمامه رئيسه الشخصي وداعمه الرسمي.

«كنا ننتظرك»، قال الأمير وهو يلتقط قدح الشاي في نفس بيت الضيافة في قندهار الذي زاره في يونيو. «أعطيتنا كلمتك بأنك ستسلّم أسامة بن لادن إلينا».

في الوقت الذي يكون فيها بمنتهى الرقّة، يستطيع الأمير تركي الفيصل أن يوجّه نظراته بنوع من التركيز إلى الدرجة التي يبدو بها مخيفاً. يحتفظ هذا الأمير بنفس ملامح الصقر والعيون الحادّة التي يحملها أبوه، الملك فيصل – لقد أربك الملا عمر بشكل واضح إلى الدرجة التي لم يستطع فيها قائد طالبان أن يردّ بشيء. بدلاً من ذلك وقف على نحو مفاجئ ثم غادر الغرفة.

«لا بد أن ذلك كان خطأً في الترجمة»، قال الملا عمر ذو العين الواحدة بشكل غير معتذر وهو يدخل إلى المكان، «لم أقل لك أبداً إننا سنسلم بن لادن».

الآن جاء دور الأمير تركي في الارتباك.

«لكن يا ملا عمر»، قال الأمير معترضاً، «لم تقل ذلك مرة واحدة!».

قبل ستة أسابيع من هذا الموقف، أوضح الأمير تركي، في شهر يوليو، سافر مستشار الملا عمر، الملا وكيل أحمد متوكل، إلى السعودية من أجل

الاتفاق على الخطوات الإسلامية لعودة بن لادن إلى الحكومة السعودية وللتفاوض حول شروط تسليمه.

بعد أسبوعين من ذلك، في 7 أغسطس 1998م شنّ بن لادن هجماته المميتة على سفارات أمريكا في شرق أفريقيا، وقد غيّرت تلك الهجمات الموقف على الأرض. بحسب تقارير عديدة، كان الملا عمر غاضباً من ضيفه لاتخاذ تلك الخطوة المتطرفة من دون إشعاره ولو على نحو أدبي. لكن رئيس طالبان كان مُحرَجاً بسبب الحماس والإثارة التي استقبل بها المجتمع المسلم المتطرّف في جميع أنحاء العالم، وخاصة في قندهار، الهجمات على السفارتين. كيف لقائد الثورة الإسلامية في أفغانستان أن يتخلّى عن أفضل مجاهد على ظهر الأرض؟

«لماذا أنتم تفعلون هذا؟» قال بغضب للأمير تركي. «لماذا أنتم تطاردون وتضايقون هذا المسلم الشجاع؟».

كان قائد طالبان يحاول كسب الوقت وهو يرى عدم قدرته على المناورة في قضية تسليم بن لادن – خاصة بعد أن وضعته الهجمات الأمريكية على الأهداف الأفغانية في مكان أكثر ضيقاً من قبل. قُتِل في تلك الهجمات عشرون أفغانياً على الأقل بصواريخ توماهوك. لا يستطيع عمر الآن عقد اتفاقية مع قاتليهم، ولا يستطيع أيضاً الرضوخ وتسليم المجاهد البطل للأمير تركي وهو وكيل أمريكا، خاصة بعد أن فشل الأميركيون في اغتياله.

تساءل الأمير تركي عن حالة القائد الأفغاني وهل كان تحت تأثير المخدرات إذ بدأ يتصبّب عرقاً وتغيّرت حدة صوته.

«بَدَا مريضاً»، يقول الأمير، «كان ذلك بالتأكيد بسبب ضغوط تلك اللحظة. لقد طُلب منه أن يبيّن حجّته وأمام راعيه الدائم في المخابرات الباكستانية. فكّرت كثيراً في ذلك الموقف، وأنا متأكد أن الخطوة الأمريكية هي التي دفعته للنكوص عن كلمته».

بن لادن، كما يقول عمر، «رجل شرف، ورجل مميّز». يوجد دائماً عنصر الخوف من الملاّ نحو المحارب السعودي الغني الذي لفّ أنحاء العالم — هو العرفان بالجميل أن يختار هذا البطل الإسلامي أفغانستان قاعدة له. «التقيّ»، هو الاسم الحركي الذي أطلقته طالبان لاحقاً على بن لادن والذي يعني الخائف من الله.

«بدل أن تضايقوه». اقترح القائد الأفغاني، «ضعوا أيديكم في أيدينا وفي يديه، لنقاتل الكفّار!» أمريكا، يقول عمر، هي عدو الإسلام والمسلمين.

وصل الأمر إلى منطقة وعرة، وبالتأكيد تجاوز الملاّ الحدود. كرم الضيافة الذي منحته السعودية للقوات الأمريكية، صرّح عمر، يعني أن السعودية هي في الواقع «دولة محتلّة». لم يتجرأ بن لادن أن يقول مثل هذه الجملة المهينة، وبمجرد سماعها منه أدرك الأمير تركي أن بن لادن نفسه هو من نقل هذا التفكير مباشرة إلى عمر.

«لا أريد أن أسمع أكثر من ذلك»، قال الأمير غاضباً وهو يقف متجهاً نحو الباب، «لكن يجب أن تتذكّر، يا ملا عمر، أن ما تقوم به الآن سيجلب الكثير من الضرر للشعب الأفغاني».

خلال أيام معدودة، سُحِب القائم بالأعمال السعودية من كابول - وكانت هذه نهاية العلاقة السعودية الرسمية مع طالبان. لكنها كانت أيضاً نهاية أفضل وآخر الفرص العملية في حماية العالم من الغضب والطموح المدمِّرَيْن لأسامة بن لادن.

الفصل الثالث والعشرون

القرن الجديد

لفترات طويلة في التسعينات، وبحسب الأمير بندر بن سلطان، شهدت العلاقات بين الولايات المتحدة والسعودية فترة ركود. وحتى قبل حالة الشلل التي أصابت العلاقة بسبب فضيحة لوينسكي، كان البلدان يتجاهلان بعضهما البعض، كما صرّح بذلك الأمير بندر لديفيد أوتاوي من صحيفة «الواشنطن بوست». فقط غضّت الدولتان الطرف عن بعضهما وذهب «كل في طريقه وشأنه».

حمّل السفير السعودي مسؤولية هذه المشكلة إلى الشخصية السياسية الماكرة لبيل كلينتون. التعامل مع الرئيس الأمريكي مثل التعامل مع ياسر عرفات الذي لا تعرف ما إذا كان يقول نعم أو لا. اشتق السعوديون كلمة «لعم» لوصف الطبيعة المتقلّبة للقائد الفلسطيني – والتي تضم الكلمتين العربيتين «لا» و«نعم» لأن عرفات كان يقولهما في نفس الوقت. نفس الشيء يحدث مع الرئيس كلينتون، من وجهة نظر الأمير- الذي كان يتحدث في منتصف التسعينات الميلادية كأول سفير أجنبي يخدم طويلاً في واشنطن، فأصبح يُعرف بعميد السلك الدبلوماسي.

برع كلينتون أيضاً، مثل عرفات، في خدعة سحب مبالغ مالية ضخمة من السعوديين من دون أن يقدّم شيئاً في المقابل. في عام 1989م، كحاكم في ولاية أركانساس، وقبل مدة طويلة من عزمه خوض غمار الترشّح للرئاسة، اقترب كلينتون من الأمير بندر لأخذ مبلغ غير مسبوق بلغ 23 مليون دولار لمساعدة جامعة أركانساس في تأسيس مركز للشرق الأوسط فيها. اندهش الأمير بندر، الذي تبرّع بمبلغ مليون دولار لحملة نانسي ريجان «لا للمخدرات»وهو أكبر مبلغ تبرّع به حتى ذلك التاريخ، عندما وافق الملك فهد على دفع المبلغ واستلمه كلينتون في النهاية. لكن كان على المملكة أن تنتظر سنتين بعد مغادرة السفير الأمريكي تشاس فريمان في أغسطس من عام 1992م قبل أن يعين كلينتون بديلاً له (الحاكم السابق لولاية ميسيسيبي، ري مابوس) – ولم يغفل الرئيس الأمريكي عن المال السعودي لحظة واحدة. عندما حضر مدير التحقيقات الفيدرالي لو فري اجتماعاً مهماً مع الأمير عبد الله في واشنطن في عام 1998م للضغط على السعوديين في تقديم المساعدة لهم في تفجيرات أبراج الخبر، اندهش بسبب ما أثاره الرئيس عن «موضوعات التحقيقات» قائلاً إنه يتفهّم تردد السعوديين في التعاون... ثم صدم عبد الله بطلب المساهمة في مكتبة كلينتون الرئاسية[1].

ذكر ويتش فاولر، السيناتور الأمريكي السابق من جورجيا والذي أصبح

---

1 - في ديسمبر من عام 2007 أوردت صحيفة «الواشنطن بوست» خبراً عن اشتراك العائلة المالكة السعودية في تمويل مكتبة كلينتون الرئاسية بمبلغ عشرة ملايين دولار- وهو نفس المبلغ الذي تبرعت به للمكتبة الرئاسية لجورج بوش بحسب أناس قريبين من هذه المساهمة. يبدو أن آل سعود تعوّدوا على التبرع لمكتبات الرؤساء الأمريكيين المتقاعدين ابتداءاً من جيمي كارتر ومن بعده، إن لم يكن أبكر من ذلك. مع ذلك تبقى كل التبرعات طي الكتمان بسبب وضع المكتبات كمؤسسات خيرية.

سفيراً للرياض في 1996م. والذي كان حاضراً ذلك الاجتماع، قصة أخرى مناقضة: «قام لو فري بعمل عظيم في ربط العمل الاستخباراتي مع السعوديين»، يقول فاولر، «لكن في رأيي أن رواية فري تفتقد إلى الدقة. لم يطلب الرئيس كلينتون مثل هذا الشيء من ولي العهد في حضورنا».

أما بالنسبة للأمريكيين فالموضوع مختلف تماماً. تراجع مستوى أداء الأمير بندر، وبرغبته الشخصية، بعد تأثره بفشل صديقه جورج بوش في إعادة انتخابه إلى البيت الأبيض في عام 1992م. هذا بحد ذاته كان كافياً في خلق نوع من العزلة بين بندر والرئيس الجديد. لا يُتوقع من الدبلوماسيين الأجانب وخاصة الكبار منهم أن ينحازوا إلى طرف ما في الانتخابات الأمريكية – فما بالك بشدّ الرحال والسفر، كما فعل بندر في نوفمبر 1992م، لقضاء ليلة الانتخابات في هيوستن بالقرب من صديقه جورج متعمداً إظهار دعمه الشخصي له.

لم يبدِ بندر أي نوع من الاعتذار.

«لا يوجد هناك رابط قوي مثل الذهاب سوياً إلى ساحة الحرب»، يقول بندر بحماس عن أيام عاصفة الصحراء مع بوش وبيكر وسكوكروفت وتشيني. «فعلاً، لقد كنت أحتفظ بعلاقة خاصة جداً مع الرئيس بوش».

يعاني بندر أيضاً من مشكلات صحية. تهشّمت فقرتان له في حادثة هبوط طائرته منذ أيام تدريباته القتالية، الأمر الذي أدى إلى تشوّه عصبي أفقده استخدام ساقه اليمنى. كان عليه أن يستخدم العصا إذا أراد المشي

وبقي كذلك لفترة. وعلى الرغم من مظهره المتحمّس إلا أن الأمير يعاني أحياناً من كآبة تبقيه بعيداً عن واشنطن لفترات طويلة تصل إلى شهور أحيانا. أصبح السفير يُعرف في نهاية التسعينات «بالعميد الخفي» لفشله في الظهور في مناسبات دبلوماسية تتطلّب حضوره. بل إنه أحياناً لا يظهر في سفارته في مناسبات مهمة كاليوم الوطني السعودي.

إذاً، خلال السنوات الأخيرة الحرجة من القرن العشرين والتي كان فيها مهندس الإرهاب السعودي يجمع طاقته ورجاله لشنّ هجومه على أمريكا في مطلع القرن الحادي والعشرين، كانت القناة الرئيسية للاتصالات السعودية الأمريكية معطّلة تماماً – أو على الأقل تمارس واجباتها على نحو متقطّع.

انتهت قصة هذا الفشل بنجاح جورج دبليو بوش الابن في انتخابات نوفمبر من عام 2000م. «ما رأيكم في إعادة الكرّة مرة أخرى؟» يقول الأمير بندر المبتهج وهو يجلس مرة أخرى مع ديفيد أوتاوي وهو يذكر أسماء الأصدقاء القدامى العائدين من إدارات سابقة – نائب الرئيس ديك تشيني، ووزير الخارجية كولن باول، ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، وبول ولفوفتز، صاحب الجهود في وزارة الدفاع أثناء حرب الخليج التي جعلته «سعودياً أكثر منّا». بعد سنوات مهدورة تماماً وضائعة، عاد العمل إلى طبيعته لخط «بندر بوش» وفي الوقت الذي احتفل فيه السفير بهذه العودة، إلا أن لديه إحساس مزعج بأن هذا الأمر «جيد إلى درجة يصعب تصديقه».

1945: الارتباط الصهيوني

في خريف عام 1945م، وبعد أشهر قليلة من وصوله للرئاسة، اجتمع هاري ترومان في واشنطن مع ويليام إيدي، رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية في السعودية، وعدد من سفراء أمريكا في الدول العربية الرئيسية. كان هناك في ذلك الوقت غضب عارم في العالم العربي ضد التعاطف الأمريكي الذي أبدته مع المحاولات الصهيونية في إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وقد اجتمع هؤلاء الدبلوماسيون لتوضيح أسباب المعارضة العربية.

لكن ما سمعه منهم لم يغيّر شيئاً في رأس ترومان.

«أنا متأسف أيها السادة». قال الرئيس ملخّصاً موقفه بصراحة، «لكن عليّ أن أستجيب لمئات الآلاف الذين كانوا حريصين على نجاح الصهيونية. ليس هناك مئات الآلاف من العرب الذين انتخبوني».

***

لم يكن ترومان مصيباً. بيّن التعداد السكّاني للولايات المتحدة الأمريكية في عام 1940م أن 107420 نسمة تم تصنيفهم «من البيض» ولغتهم الأم هي العربية، إذ قدّر محللو التعداد السكاني أن العدد الحقيقي للعرب الأمريكان بثلاثة أضعاف ذلك الرقم. لكن الرئيس محقّ من وجهة النظر السياسية. كان اليهود منظّمين سياسياً في أمريكا في الأربعينات بطريقة لا يمكن للعرب أن يحققوا مثلها أو يختاروها. اليوم هناك 3،5 مليون عربي أمريكي (معظمهم من المسيحيين) ، وقدراتهم السياسية لا تضاهي تلك

التي يمتلكها أكثر من 6،4 مليون يهودي أمريكي. وبعد المعركة الصعبة في إنشاء إسرائيل في عام 1948م تزايد الشعور الداعم لإسرائيل داخل أمريكا مع كل أزمة تمر في الشرق الأوسط – ثم برز إلى السطح ما يُطلق عليه اسم الصهيونية المسيحية في الثمانينات الميلادية. ظهر المبشرون الإنجيليون من أمثال جيري فلول وبات روبيرتسون الذين بشّروا وروّجوا لفكرة عودة اليهود إلى الأرض المقدّسة على أنها نبوءة إنجيلية – «أي أن الوقوف ضد إسرائيل هو وقوف ضد الرب» كما ادّعى فلول في عام 1981م.

هذه التعليمات الصادرة من الصهيونية المسيحية هي في الواقع السياسة الخارجية التي تحدد «الحق في الحياة»– الاختبار الذي وضع من خلاله المبشرون المسيحيون الأمريكيون قراراتهم حيّز التنفيذ في صندوق الانتخابات – وقد أثبت الدعم الذي قدّمه فلول وغيره من المتشدّدين المسيحيين أهميته في انتخاب جورج دبليو بوش المثير للجدل في 2001م. لم يكن بوش الصغير صهيونياً مسيحياً لكن مع وصوله للسلطة في 2001م تصرف كما لوكان يصدّق أنه كذلك. كان من أوائل الشخصيات التي استقبلها بوش بحرارة شديدة في البيت الأبيض أرييل شارون، رئيس الوزراء الإسرائيلي المتعصّب الذي كان وراء المذبحة الفلسطينية عندما كان قائداً للجيش الإسرائيلي في حرب لبنان 1982م. كما أن زيارة شارون العدائية للمسجد الأقصى في القدس في سبتمبر 2000م أثارت الفلسطينيين نحو انتفاضتهم العنيفة الجديدة، ويبدو أن إدارة بوش موافقة على أساليب شارون الدموية. وعند سؤال نائب الرئيس ديك تشيني حول المحاولات الإسرائيلية في اغتيال القيادات الفلسطينية قال إنه يرى «بعض التبرير في حماية أنفسهم عن طريق هذه المحاولات الاستباقية».

لم يتوقع السعوديون هذا التعاطف الصارخ من أي إدارة أمريكية – وبالتأكيد من ابن الرجل الذي جاء لإنقاذهم في حرب الخليج. في لندن، كتب غازي القصيبي سفير المملكة اللاذع، مقالة صحفية في جريدة الحياة يحلل فيها العقد النفسية التي يشعر بها «بوش الصغير» في مقابل «بوش الكبير». جعلت هذه العقد النفسية من الرئيس الجديد خطراً على العالم في وقت قياسي، كما يقول السفير في مقاله الذي تصدر أخبار الفوكس نيوز: «جورج الصغير» استحق ميدالية خاصة – «جائزة تحويل الأصدقاء إلى أعداء دون جهد كبير».

يتنصّل المسؤولون الكبار في الماضي من مثل هذا الكلام القوي الذي جاء على لسان القصيبي، لكن ليس هذه المرة.

«لم أصنع منه كاتباً، بل وجدته كذلك»، هكذا كان ردّ عبد الله على البيت الأبيض عندما سلّم الأخير احتجاجاً رسمياً رفيع المستوى ضد تعليقات السفير.

كان الملك قد فقد صبره مع أمريكا.

***

كانت الصورة على شاشة التلفزيون مؤلمة جداً. جندي إسرائيلي يضع قدمه على رأس امرأة فلسطينية مثبّتاً إياها على الأرض. عندما رآها ولي العهد في ليلة 23 أغسطس من عام 2001م فقد صوابه غاضباً.

«امرأة تتعرّض للضرب من قبل رجل؟» قال أحد الموظفين السعوديين الكبار. «شعر ولي العهد أن هذه إهانة كبيرة».

كان عبد الله يجلس في مكتبه الأنيق بمنزله الكائن على ضفاف البحر الأحمر في جدة. توجد صورة لوالده على الجدار مع آيات قرآنية وبعض اللوحات الشرقية التي يفضّلها. لا يوجد أي أثر للذهب أو الثريا وهو أمر غريب لا تجده في أي قصر أميري سعودي آخر. اشتد غضب ولي العهد.

«هل دم الطفل الإسرائيلي أغلى من دم الطفل الفلسطيني؟» سأل ولي العهد.

كان يشاهد التلفزيون مع مرؤوسيه وهو يغطّي الانتفاضة الفلسطينية، وكان غاضباً جداً من صور الدبابات والدموع والمعاناة وهي تُبثّ على مدار الساعة.سمّى البعض هذا الأمر «أثر الجزيرة» أو «أثر السي أن أن»، لكنه يمكن أن يسمّى أيضاً «أثر ولي العهد». عبّر الرئيس الأمريكي الجديد عن أمله أن يقوم ولي العهد بزيارته في أقرب فرصة، لكن عبد الله رفض هذه الفكرة. كان ولي العهد غاضباً وناقماً بشكل شخصي ولم يكن متأكداً من رأي المواطن السعودي العادي لو ذهب إلى هناك في ظل هذه الظروف المحبطة.

دعاه بوش إلى البيت الأبيض، إلى كامب ديفيد، إلى كينتاكي ديربي، والأكثر من ذلك، إلى مزرعته في كراوفورد في تكساس، لكن عبد الله استخف بالفكرة. بعد يأس شديد، اقترحت واشنطن مكتبة فرانكلين روزفلت في هايدبارك في نيويورك – في إشارة مهمة إلى اللقاء التاريخي الذي جمع

بين روزفلت وأبيه في عام 1945م وأسسا من خلاله العلاقة «الخاصة»بين البلدين. لم يتاثر عبد الله بكل ذلك. بل إن موقفه لم يتغيّر حتى بعد أن كلّمه بشكل شخصي جورج بوش الأب مؤكداً له أن «قلب ابنه في المكان الصحيح».

كان الملك يحتفظ بذلك الغضب الذي شعر به منذ الربيع الماضي.

«ألا يرون»، سأل ولي العهد في زيارة إلى المغرب في شهر يونيو، «ما يحدث للأطفال الفلسطينيين والنساء والشيوخ؟».

رسالته واضحة الآن، وحان الوقت لإيصالها لهم. «أنا أرفض الذين يقولون إنهم يدافعون عن أنفسهم عندما يقتلون فلسطينياً؛ وعندما يقتل فلسطيني إسرائيلياً يقولون إن هذا عمل إرهابي».

التقط الأمير سماعة الهاتف وطلب إيصاله إلى سفيره في الولايات المتحدة.

***

صادف أن كان بندر بن سلطان بعيداً عن الهاتف تلك الليل الحارة من أغسطس –كان في إجازة قصيرة في منزله في أسبن– وبعد أن وصلت الرسالة إليه كان الوقت متأخراً لمهاتفة الرياض. عندما تكلم العم مع ولد أخيه في اليوم التالي كان جورج بوش على شاشات التلفزيون يجيب على أسئلة تخص الشرق الأوسط في مؤتمر صحفي. شاهد الأميران السعوديان،

أحدهما في الرياض والآخر في كولارادو، الرئيس يتحدث في تكساس وقد استشاط عبد الله غضباً أكثر من السابق بعد سماعه القبول المطلق الأمريكي لوجهة النظر الإسرائيلية.

«إذا كان الفلسطينيون مهتمين في الحوار»، قال الرئيس بلهجة يحتفظ بها لتصريحاته المثيرة للجدل، «فأنا أدعو السيد عرفات أن يركّز مائة في المائة من جهوده لحل مشكلة الأعمال الإرهابية وإيقافها. وأعتقد أنه يستطيع أن يقوم بعمل أفضل في هذا المجال».

الاستخدامِ الفجّ لكلمة «الأعمال الإرهابية» لوصف المعركة التي يراها العرب قتالاً من أجل العدالة جعل عبد الله ينفجر غضباً للمرة الثانية خلال أربع وعشرين ساعة — لقد تعامل مع هذه العبارة بنفس الطريقة التي تعامل بها مع عبارة «حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها»— تبسيط ماكر شرير للموقف.

يجب على بندر الآن أن يرى بوش فوراً، أمره ولي العهد، وخلال ساعات نجح السفير في إيصال الرسالة إلى وزير الخارجية كولن باول، ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس.

«نحن نعتقد»، تقول الرسالة، «أن هناك قراراً استراتيجياً للولايات المتحدة بأن مصلحة أمريكا في الشرق الأوسط تعتمد الآن مائة بالمائة على (رئيس الوزراء الإسرائيلي) شارون».

«إذا كان هذا هو قرار أمريكا، فإن هذا حقها السيادي. لكن من حق السعودية أيضاً»، يقول ولي العهد، «أن تأخذ طريقها الخاص التي تراه كرد على ذلك».

«من الآن فصاعداً، أنتم الأوروغواي كما يقولون». هذه الجملة صدرت من بندر، وقد اشتقها من نكتة خاصة به تنتهي بعبارة، «اذهب أنت إلى الأوروغواي، وأنا سأذهب إلى ما أريد». كان يسجّل الملاحظات وهو يتحدث على الهاتف مع عبد الله، ثم يترجم أفكار عمّه، كما كان يفعل مع فهد، إلى رسالة تستطيع، في رأيه، أن تحقّق الاستجابة التي ينشدها من مستمعيه.

«الحكومة التي لا تستجيب لنبض الناس ولما يشعرون به لا تستحق البقاء»، تقول الرسالة التي حوت أكثر من خمس وعشرين صفحة من ملاحظات بندر. «أنظروا إلى ما حدث للشاه. أحياناً نصل إلى مفترق حيث يجب علينا الاختيار، ونحن غير خائفين من إحداث تغيير استراتيجي تمليه علينا مصالحنا الوطنية».

كان تحذيراً قوياً مطولاً، ولتأكيده التقط عبد الله سماعة الهاتف مرة أخرى. أمر الجنرال صالح ابن علي المحيا، رئيس الأركان السعودي الذي وصل إلى واشنطون في اليوم السابق للمراجعة السنوية للتعاون العسكري السعودي الأمريكي المشترك، بالعودة إلى الرياض فوراً. صدرت الأوامر للجنرال بعدم مقابلة أي أمريكي. كما أمِر الوفد السعودي المكون من أربعين ضابطاً رفيع المستوى والذي كان من المقرر أن يلتحق بالمحيا بالنزول من الطائرة. لقد تم إلغاء المراجعة السنوية.

«في تلك اللحظة عرف الأمريكيون أنهم أمام مشكلة». يقول أحد السعوديين المشتركين في ذلك الموقف.

«لقد أخفتمونا». قال باول لبندر.

«لتذهبوا إلى الجحيم أنتم»، رد الأمير، «لقد أخفنا أنفسنا».

***

توقّع السعوديون أن يستغرق الأمر أربعة إلى خمسة أيام حتى يرد عليهم البيت الأبيض. وصلت رسالة جورج دبليو بوش الشخصية التي تسترضي السعوديين من صفحتين في غضون ست وثلاثين ساعة — وقد كانت بالفعل بوحاً شخصياً.

«ما جاء في الرسالة»، يقول أحد السعوديين معلّقاً، «هو الجانب الإنساني لجورج بوش. كان إيجابياً جداً».

قبل الرئيس بوش في رسالته العاطفية وجهة نظر عبد الله حول دم الأبرياء «الفلسطينيين، الإسرائيليين، اليهود، المسيحيين، والمسلمين» وأخبر ولي العهد أنه يرفض إهانة الأفراد، حيث اعتبر القائد السعودي ذلك رداً على الشكوى من ذلك المنظر البغيض الذي وضع فيه الجندي الإسرائيلي قدمه على المرأة الفلسطينية. والأهم من ذلك كله، أن الرئيس صرّح بشكل معلن قبوله بحل «الدولتين»— أي إنشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

هذا شيء جديد - «ومثير» بالنسبة للسعوديين. لم يعطِ أي رئيس أمريكي سابق من قبل هذا الالتزام القوي وقد بيّن ذلك موقفاً أمريكياً مختلفاً تماماً عن شارون. رسالة بوش تتضمن «أشياء مهمة»، بحسب من رآها، «لم يسبق أن بيّنها تحريرياً. تكلم بشكل بنّاء عن وضع القدس والمستوطنات وقضية اللاجئين. لقد قال في نهايتها، «أنا مع حل الدولتين».

قدّمت الرسالة فكرة الحل السلمي الذي يمكن أن يقبله السعوديون، وقد حملها بندر معه إلى الرياض لمناقشة محتواها مع عبد الله بنفسه. كما عبّر الرئيس الأمريكي عن رغبته في لعب دور مهم في عملية السلام بنفسه.

في الأيام اللاحقة لهذا، اتصل عبد الله بالقادة العرب الآخرين - الرئيس المصري والسوري وملك الأردن - يبَلغّهم بالأخبار السارة. أبلغهم برسالته وبالرد الشخصي الذي أثاره ذلك الاحتجاج. استدعى ياسر عرفات من زيارة له إلى جنوب افريقيا لكي يقرأ الوثيقتين: إذا تحرك عبد الله فلن يقف أحد في طريقه. طلب من عرفات أن يكتب التزاماً بتنفيذ شروط بوش لإعادة محادثات السلام.

«هذه فرصتك الأخيرة»، قلنا له، بحسب ما قاله بندر، «لا تفسد ذلك كما فعلت مع كلينتون».

أُرسل التزام عرفات إلى واشنطن مع ردّ عبد الله على رسالة بوش، ومع حلول سبتمبر كان بندر في واشنطن مرة أخرى يناقش التفاصيل. في يوم الجمعة 7 سبتمبر بَدَا الأمريكيون جاهزين للتحرّك في مبادرة للسلام، وخلال

نهاية الأسبوع ناقش بندر الخطوات بالتفصيل – خطاباً يلقيه كولن باول، أو بوش بنفسه (وهذا ما فضّله السعوديون)، أو كلاهما معاً. سوف يأتي ياسر عرفات إلى الأمم المتحدة نهاية الشهر. هل سيوافق الرئيس على مقابلته؟ لم يستسغ بوش هذه الفكرة.

«عرفات هو مجرد كذّاب»، قال بوش.

«نحن نعرف أنه كذّاب»، ردّ عليه السعوديون. لا أحد في الرياض يحب عرفات. يعرف أعضاء مجلس الوزراء أنهم تحت العقاب عندما يعيّنهم الملك لاصطحاب القائد الفلسطيني في أحد حملاته الاعتيادية لجمع المال، «بقيت معه مرة لمدة اسبوع»، يقول أحد الوزراء مرتعداً. «كل تلك القبل وتلك الأحضان!».

أصرّ السعوديون على أن يسمع بوش ما يقوله القائد الفلسطيني، ثم بإمكانه أن يلزمه بما يقول أو يعد به.

«إذا نكص على عقبيه»، يقول بندر، «فلن نزعجك مرة أخرى بشأنه».

«فجأة»، يتذكر السفير السعودي، «شعرت أننا بصدد مبادرة تاريخية ستحمينا من أنفسنا – أولاً- ثم بين بعضنا البعض... أسعد رجل في العالم في ليلة الإثنين تلك هو الأمير بندر بن سلطان. كنت في بركة السباحة (في قصره الفخم في ماكلين بفيرجينيا) أدخّن سيجارة. سمحت لنفسي بيوم إجازة بعد أن اشتغلت لأسبوع كامل. ذهبت إلى السعودية... مع ردّ بوش، ثم

العودة مرة أخرى بردّنا. عملت في نهاية الأسبوع حتى الساعة الثالثة، الرابعة صباحاً. عملت طوال يوم الإثنين. وقلت في نفسي: اليوم، الثلاثاء، سأعطي نفسي إجازة».

كان ذلك اليوم الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر 2001م.

الباب الثالث

القاعدة تعود إلى الوطن

2001 – 2009م. (1422 – 1430هـ)



إذا أردنا أن تبقى الأشياء على قيد الحياة، فإن عليها أن تتغيّر.

جيسيبي دي لامبيدوسا، الفهد

الفصل الرابع والعشرون

خمسة عشر خاطفاً سعودياً

رأى الأمير خالد الفيصل الدخان من الضربة الأولى يتصاعد من البرج في التلفزيون.

«كنت في اجتماع في الرياض مع ثلاثة أشخاص»، يقول الأمير، «كان ذلك على شاشة السي أن أن، وعندما رأيت الدخان يتصاعد رفعت مستوى الصوت. يقول المذيع إن طائرة صغيرة اصطدمت بالبرجين. كنت أفكّر أن هذا الدخان الكثير لا يمكن أن يكون بسبب طائرة صغيرة، وفجأة – يا إلهي، ماهذا؟ – رأيت الطائرة الثانية، طائرة ضخمة جداً، تطير في زاوية أخرى من الشاشة. رأيت فعلاً الطائرة الثانية وهي تطير باتجاه البرج لتصطدم به وتنفجر».

تغيّر صوت المذيع.

«كان الأمر واضحاً بالنسبة لي»، يقول الأمير الذي كان أميراً لمنطقة عسير الجنوبية (1971-2007م) – اتضح بعد ذلك أن أربعة خاطفين كانوا من نفس المنطقة – «لا يمكن أن يكون ذلك مجرد حادث. كان هجوماً متعمّداً. اتجهت إلى أصحابي قائلاً: انظروا إلى ساعاتكم. كم الساعة؟ كل

شيء سيتغيّر. نحن نعيش الآن في عالم مختلف عن الذي كنّا نسكن فيه قبل ساعة».

ثم أضاف، «أدعو الله ألا يكون هؤلاء من السعوديين».

***

تمنّى خالد الحبيشي العكس تماماً. في الحادي عشر من سبتمبر 2001م، كان هذا الجهاديّ الجدّاوي الشاب يمكث في بيت القاعدة للضيافة في كابول وهو يمسك بجهاز المذياع من ماركة سوني قريباً من أذنه. ومثل المئات من المتطرّفين الشباب الذين كانوا يتدرّبون في أفغانستان، كان يستمع إلى الأخبار العاجلة التي جاءت مع الضربة الأولى. قيل لهم جميعاً إن «شيئاً ما» كان على وشك الحدوث.

«أخبرنا رئيس بيت الضيافة أن نستمع إلى أجهزة الراديو قبل ساعتين من وقوع الحدث»، يتذكر خالد. كان يعرف أن شيئاً ما سيحدث، لكنّه لم يطلعنا على طبيعته. قد لا يكون على اطلاع بالأمر. سمعت لاحقاً أن الشباب الذين ركبوا طائرة بوسطن (محمد عطا ورفاقه) أرسلوا رسالة يقولون فيها إنهم تمكنوا من عبور أمن المطار وهم في طريقهم إلى الطائرة. أي أن بن لادن عرف أن العملية قد بدأت. ومع ورود الأخبار المتتابعة وجدنا صعوبة في تصديق ذلك. التفّ الجميع حول أجهزة الراديو وهم يحتفلون. لم نكن نتخيّل أننا نملك القوة لضرب أمريكا بهذه الطريقة.

«لكن بعد مرور الوقت، وأنا أسمع الأخبار حول أناس يقفزون من فوق

البرجين، بدأت أتساءل. كل هؤلاء الآلاف من المدنيين قُتلوا. ما علاقة هذا بالدفاع عن المسلمين؟ ثم بدأت أفكّر في نجاتي – هل سأبقى؟ هل سأقاتل؟».

مثل الأمير خالد في الرياض، أدرك الحبيشي أن الحياة لم تعد كما كانت في السابق.

«بمجرد سماعنا عن الهجمات في نيويورك عرفنا بالتأكيد أن الأمريكيين لن يدعوا ذلك يمرّ مرور الكرام. سوف يأتون خلفنا للانتقام».

«اللعنة! ماذا سيحدث بعد ذلك؟».

***

لم يشكّ فؤاد الفرحان، الطالب الشاب من جدة، أن الخاطفين كانوا سعوديين، وعندما كُشِف عن أسمائهم حاول أن يعرف المزيد عنهم – وخاصة أبناء الغامدي، أحمد وحمزة وسعيد، من منطقة الباحة شمال عسير.

«سمعت أشياء غريبة عنهم»، يقول فؤاد، «أحدهم نام في غرفة تطلّ نافذتها على مقبرة – لماذا يرتضي مثل هذا المنظر؟ ليس الأمر طبيعياً. أما الآخر فقد اشتهر عنه بعد خروجه من صلاة العشاء أن يشير إلى السماء قائلاً: هل ترى تلك النجمة؟ أستطيع أن أقول لك إنها ليست نجمة. إنها قمر تجسس أمريكي يراقبنا. إنهم يصوّروننا الآن في هذه اللحظة».

«إذاً حسب ما اكتشفت، تفسيري للحادي عشر من سبتمبر هو اختلال بشري – مجموعة من الحمقى. هؤلاء الحمقى موجودون في كل مجتمع. لكن يجب أن نقبل أن معظمهم كان من الحمقى السعوديين. خمسة عشر من أصل تسعة عشر. لا نستطيع أن نتهرب من اللوم. إذا تعرض مجتمع إلى كل أصناف الضغوط – الثقافة، المتزمتون، القبيلة، القانون، العادات، العائلة، الشرطة – سوف ينتهي الأمر بك إلى أن تكون مع الحمقى. وإذا قدمت لهم بعد ذلك مذهب التكفير، وفكرة أن مشكلاتهم تلك هي بسبب الآخرين وليس بسببهم، وأن عليك أن تدمّر كل من يختلف عن رأيك في الله، فإنك في النهاية ستحصل على مجموعة من الأشخاص يشكّلون خطراً حقيقياً بالفعل».

***

يعرف منصور النقيدان، وهو شخص اقترف أعمالاً إرهابية، أخطار التكفير. لقد نذر نفسه للحديث شهوراً طويلة ضد هذا الفكر. بعد خروجه من السجن، اختار أصدقاؤه له مسجداً في الرياض لكي يصلّي فيه ويبقى تحت العناية. لكن لدى منصور تفكير جديد يروّج له. فكر طويلاً عندما كان في السجن في تزمّت المؤسسة الدينية الوهابية وأصبح يتضايق من رفضهم لأي نوع من الأسئلة – ولم تكن تلك الأسئلة من النقد الذي يقبله القوم المتدينون. طردوه في نهاية الأمر. اتجه الإمام السابق إلى الصحافة ليفضح كل شيء. لم يكتف بالقراءة خارج الخطوط الحمراء، بل تعدّاها إلى الكتابة أيضاً خلفها فصنع لنفسه اسماً ككاتب عمود صحفي جريء.

عند انفجار أحداث الحادي عشر من سبتمبر اضطر منصور إلى الاعتراف

بالحيرة والارتباك. كان وقتها يزور عائلته في بريدة عندما رأى ضربة البرج الثاني على الهواء في التلفزيون. وجد نفسه غير قادر على الكلام. كان فقط يحدّق في الشاشة التي امتلأت بالرعب مشدوهاً وصامتاً إزاء الدخان الديني والدمار الذي ينبعث منها.

«صُعِقت من كل قلبي. لم أعرف ما كنت أفكّر فيه لثلاثة أيام. من أين جاء هذا؟ إنه أمر فوق طاقة التفكير البشري».

***

سجّل مهاجم رأس الحربة الشيطاني هدفاً لا يمكن للحشود أن تنساه. مثل جهيمان العتيبي، لقد أدهش أسامة بن لادن أعداءه بانقلاب لم يكن أحد مستعداً له. غيّر غضب جهيمان المملكة قبل عشرين سنة. والآن، الهجوم الفجائي الذي قام به أسامة بن لادن على وجه الخصوص.

«عندما أتيت إلى هنا، كان العالم في وضع خطير»، يقول جورج بوش إلى المصوّتين في أيويا السنة الفائتة. «كنا نحن في مقابلهم، وكان من الواضح تحديد هوية «هم» هذه. اليوم، لم نكن متأكدين من تحديد هوية «هم»...».

اتضح الأمر بعد الحادي عشر من سبتمبر. مرة أخرى وجدت أمريكا، وهي القوة العظمى في تاريخ العالم، نفسها أمام شيء تخافه. وكما قال جور فيدال، «كنا بحاجة ماسّة إلى عدوّ خطير وكبير».

هاجم بن لادن أمريكا بسبب ازدواجية الدور الذي تقوم به في التفريق

بين الحلفاء. قامت أمريكا بدعم التطرف الإسلامي في أفغانستان في الثمانينات، وتحالفت مع بعض العرب في الوقت الذي تدعم فيه إسرائيل على حسابهم. أدّى هذا الأمر إلى وجود أدوارٍ متناقضة للسياسة الأمريكية الخارجية فكانت النتيجة مزيداً من الدمار والقتل داخل الولايات المتحدة أكثر مما سببته الحرب الباردة خلال خمس وأربعين سنة. تمثّل أمريكا «الشيطان البعيد» بالنسبة لـ بن لادن. عرف الأمريكيون الغاضبون وهم يتفحّصون الدمار في مانهاتن أن اختيار أصدقاء متناقضين من قبل الحكومات المتتابعة جلب لهم هذا العدو المميت.

***

اكتشف روبرت جوردن، محامي جورج دبليو بوش في تكساس الذي جاء بعد أسابيع قليلة من هجمات الحادي عشر من سبتمبر ليستلم مهام عمله كسفير أمريكي في المملكة، أن الرياض كانت تعاني رفضاً من نوع مختلف.

يعتقد الكثير من الأمراء المهمين أنها مؤامرة يهودية. قال نايف وزير الداخلية، في تصريح رسمي، إنها مؤامرة صهيونية. وحتى عبدالله كان مشكّكاً. لقد تمسّكوا بذلك التقرير الذي يقول إن أكثر من ثلاثة آلاف موظف يهودي تغيّبوا عن العمل ذلك اليوم. كانت مجرد خرافة تم تكذيبها لكنها كانت الطريقة الوحيدة التي يمكن الالتجاء لها.

«أنا ما طلبتها لكن الله جابها» — كان هذا هو الشعور السائد كما يقولون بالعاميّة السعودية، أي بعبارة أخرى «أنا لم أبحث عنها، لكنها جاءت من الله».

«القبول بأن السعوديين كان لهم الدور الرئيسي في أحداث الحادي عشر من سبتمبر»، يقول خالد المعينا رئيس تحرير جريدة عرب نيوز، «هو مثل القبول بأن ابنك هو قاتل تسلسلي. أنت مضطر إلى رفض تصديق مثل هذا الأمر».

المفارقة في نظريات المؤامرة اليهودية هو أن مجموعة من العرب –والعرب وحدهم فقط– قد تمكّنوا من ضرب العدو بطريقة غير مسبوقة واستثنائية. عند النظر إلى عنصر المفاجأة والجرأة والتنظيم فقد كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر قاتلة وتمت بذكاء شديد. لماذا إذاً، إذا كنت عربياً فخوراً، تريد أن تتنازل عن هذا الشرف وتسلّمه إلى الصهاينة.

«هذا هو الحديث الانهزامي العربي المعتاد»، تقول الصحفية سمية جبرتي من جدة. «عندما نتحدّث عن نظريات المؤامرة فإننا في الوقت نفسه نسلب أنفسنا من أي أهمية أو تأثير. نحن نعاني من التفكير السلبي الذي يرمي المسؤولية على الآخرين».

«بن لادن شرّير وقاتل»، يقول الأمير عمرو الفيصل، «أنا كمسلم أشجب بقوة ما قام به». سقوط البرجين بالنسبة للمسلمين كان درساً للغرور والغطرسة الأمريكية. لقد ذاقوا ولو بنحو قليل ماكان يعانيه المسلمون طويلاً.

***

وافق معظم الناس في قلب السعودية على هذا الرأي. عندما ذهب محمد الحربي، مدرّس الكيمياء الذي كان يبلغ من العمر الخامسة والعشرين، إلى

المدرسة في بريدة في اليوم الذي أعقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر. كان هناك فرح عارم في غرفة المعلّمين.

«لقد بدأ الجهاد»، كانوا يقولون. «وهناك الكثير في الطريق». كانوا جميعاً مؤيدين للهجمات على نيويورك، وكانوا سعداء بشكل خاص حول حقيقة أن الأيدي السعودية كانت خلف هذه الهجمات – أو هكذا افترضوا. كان الأمر كما لو كان فوزاً لفريق كرة القدم المفضّل لديهم.

كان محمد، ذو اللحية الأنيقة، يستمتع كثيراً بمناقشة زملائه وإثارتهم بالمناقشة والحوار حول قضايا دينية.

«كانوا يقولون لي إنني غير مؤهل للحديث في الدين، «لا تحمل سمات الشخص المتديّن»، كانوا يخبرونني دائماً – ويقصدون بذلك أنني كنت أهذّب لحيتي بدل أن أطلقها على الطريقة السلفية. كانوا مهذّبين في ذلك الوقت. كانوا يعطونني كتباً وأشرطة لتثقيفي دينياً».

لكن الآن ازداد الحوار والنقاش حدّة.

«دعونا ندع الدين جانباً للحظة»، كان محمد يقول لهم مناقشاً ومحاوراً لهم. «دعونا نتفق أن أمة متعلمة كأمريكا تستحق الاحترام. فكروا في المال الذي صرفوه على بناء البرجين. حرام أن نتسبب بمثل هذا التدمير».

رفع زملاؤه أكتافهم باندهاش كبير.

«هذه أموال كفّار»، يردّون عليه.

«ألا تمثّل حياة أكثر من ثلاثة آلاف شخص أي أهمية؟» سألهم محمد.

«ليسوا مسلمين».

«ألا تشعرون بأي أسف لكل هؤلاء الناس؟» ردّ عليهم مدرس الكيمياء بإصرار، «أنا أشعر بالأسف لهم».

«لماذا لم تعبّر أبداً عن أسفك على الفلسطينيين»، جاءه الردّ.

«لأن الفلسطينيين يملكون خيارات مصيرهم»، ردّ عليهم مدرّس الكيمياء. «أما أولئك الناس الذين كانوا موجودين في البرجين فلا يملكون أي خيار. هم عاجزون تماماً».

عندما دخل محمد صفّه. أكمل النقاش مع طلابه ووجدهم يتقبّلون آراءه. لكن في الأسابيع اللاحقة، اكتشف أن زملاءه كانوا يستجوبون طلابه من دون علمه ويدوّنون ما قاله لهم.

«ماذا قال لكم؟» كانوا يسألون طلابي، «لا تستمعوا إليه. إنه ليس على الطريق المستقيم».

بعد أقل من شهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، غزت القوات

الأمريكية والبريطانية أفغانستان. فجأة توترت أجواء غرفة المعلمين في بريدة. ومع توالي التقارير الإخبارية، عبّر محمد عن سروره بهزيمة طالبان لأنه كان يمتعض من تشدّدها المتزمّت.

«أنا قلق عليك»، قال له أحد زملائه الملتحين. «أنا قلق جداً على الأفكار العلمانية الموجودة في رأسك».

فهم محمد الرسالة المبطنّة.

«كان يحاول أن يبدو مهتماً وناصحاً. لكنني كنت أعرف أنه كان يصدر تحذيراً لي –تحذيراً خطيراً جداً. لو وجدت محكمة إسلامية أن أفكارك «علمانية» فإنها تأخذ ذلك على أنك مسلم قد ارتدّ عن دينه – أي «مرتدّ». وعقوبة الردّة هي القتل».

***

في ذات التوقيت، كان روبرت جوردن يحاولِ أن يقدّم نفسه كسفير أمريكي إلى الرياض–وهذا يتضمّن تقديم أوراق اعتماده في طقوس غريبة في قصر الملك فهد بجانب البحر الأحمر.

«كان أمامي ثلاث ساعات فقط لكي أجمع أوراقي وأذهب للمطار فوراً. عندما وصلت إلى هناك اكتشفت وجود ستين أو سبعين سفيراً، أي معظم أعضاء السلك الدبلوماسي؛ لم يتم اعتمادهم كسفراء بعد. سافرنا جميعاً إلى جدة في نفس الطائرة – يا له من هدف نادر للقاعدة».

«جاء الملك فهد على عربة في موكب عظيم. كان شتاءً بارداً ذلك المساء. كنا في الخارج وكان على كل واحد منا أن يقابله لتقديم أوراقنا. كان الأمر محزناً أن تتجه السعودية في تلك اللحظات الحرجة إلى شخص مريض كملك لها».

شهر مارس 2002 هو الذكرى العشرون لتولّي فهد العرش السعودي. وكان على طلاب وطالبات المدارس السعوديين أن يكتبوا رسالة شكر له. جلس أحمد صبري، البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، في مدرسته بجدة مصمّماً على رفضه أن يكون مجرد دمية. فجأة عرف ماذا يكتب: «شكراً يا ملكنا العظيم فهد على الأشياء المدهشة التي قمت بها في المملكة وطوّرت من مستوى حياتنا فيها – على الطرق الجميلة الخالية من الحفر والشقوق، وعلى المدارس الجميلة، وعلى الطائرات التي دائماً ما تصل في وقتها المحدّد...».

التقط المدّرس الورقة وتفحّص القائمة الساخرة التي كتبها طالبه الشاب النجيب.

«أحمد»، سأله المدّرس، «هل أنت تبحث عن المشاكل؟».

سحب أحمد ورقته وأسرع في كتابة عبارات الشكر والنفاق المطلوبة.

***

من أسوأ اللحظات أن يكون لديك قائد دولة لا يستطيع إدارة شؤونها.

لكن من أفضل الأشياء التي نتجت عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر للسعودية على الأقل هو أن عبدالله بن عبدالعزيز أصبح أخيراً القائد الفعلي كولي للعهد.

«يكفي أن ترى عدداً من أعضاء الكونجرس يلبسون القلنسوات اليهودية»، يقول النائب الثاني الأمير سلطان في يونيو 2002م، «لكي تفهم الاتهامات التي وجّهوها لنا».

«ما زلنا نسأل أنفسنا»، يقول الأمير نايف بعد أشهر قليلة من وقوع الحادث، «من الذي استفاد من هجمات الحادي عشر من سبتمبر؟ أعتقد أنهم (أي اليهود) منفّذو مثل هذه الهجمات».

لم يتجنّب ولي العهد عبدالله إلقاء اللوم على الصهاينة، لكنه كان أول الأمراء من أبناء عبدالعزيز –الأمراء الكبار والمهتمين– الذين قبلوا الدور السعودي في هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

«أريناه الملفات»، يقول روبرت جوردن، «مع تفاصيل من كانوا في الطائرات، وتحرّكات هؤلاء الشباب السعوديين، وصورهم، وصور كاميرات أمن المطار. أعتقد أنك إما أن ترفض كل هذه الدلائل على أنها خدعة غير قابلة للتصديق، أو أن تأخذ الأمور على محمل الجد».

أخذها عبدالله على محمل الجدّ. وكرئيس للحرس الوطني فقد عرف أهمية وجود أسماء قبلية وعائلية في قائمة الحادي عشر من سبتمبر: الغامدي،

الحازمي، الحزنوي، المحضار، النعمي، العمري، الشهري، السقمي، هاني حنجور، وماجد المقيد[1]. يعرف عبدالله رؤساء العديد من هذه القبائل والعائلات. قام باتصالات هاتفية ليتفحّص الأمر. أخذ هذا الأمر على نحو شخصي. بطريقته العاطفية البسيطة، كان ينظر إلى هؤلاء الشباب على أنهم أبناؤه، وقد دمعت عيناه وهو ينظر إلى صورهم.

اقتنع ولي العهد أن هناك مشكلة. ومع تطور الأزمة تلك كان هناك حاجة ماسة إلى قرارات سريعة تزيد من صلابة سلطته. في يومٍ هجمات سبتمبر اجتمع مع علي النعيمي، وزير النفط الذي خدم طويلاً، وقرّرا زيادة إنتاج النفط بالطاقة القصوى لتجنّب أي أزمة في الطاقة – وهو أهم قرار يمكن أن تتخذه المملكة في ذلك اليوم، وهو في حد ذاته علامة واضحة تدل على ندمها. في مصادماته مع بوش قبل الحادي عشر من سبتمبر اتخذ عبدالله قرارات حاسمة في السياسة الخارجية السعودية وها هو الآن يتخذ قرارات أكثر صعوبة على الصعيد المحلّي.

أثار ذلك إعجاب روبرت جوردن الذي لم يكن مثل أي سفير آخر بل بحكم أنه سفير لأمريكا التي تعرّضت للهجمات كان عليه أن يجلس مع قائد المملكة بانتظام لمناقشة العلاقة الشاملة التي تهم البلدين في ضوء هذه الأحداث بوجود مترجمين وكاميرات تلفزيونية تسجل كل كلمة تقال.

«وجدت عبدالله صارماً وبطيئاً في الكلام»، يقول جوردن. «لكنه كان

---

1 - كان هناك ثلاثة أشخاص من عائلة الغامدي (ليس بينهم أي قرابة)، وثلاثة من عائلة الشهري (أخَوان وشخص آخر غير قريب لهما)، واثنان من عائلة الحازمي (ليس بينهما قرابة).

يستمع دائماً. كان يتعلّم. كان يبحث بشكل واضح للوصول إلى خيارات صحيحة وحكيمة. وكان في الوقت نفسه شخصاً عاطفياً. يبدو كما لو كان يعتمد في حكمه على الأشخاص على مدى قربه وانجذابه مع الشخص الذي يتعامل معه. كما أنه كان محاصراً بشكل واضح بالنصائح المتضاربة والمتناقضة التي تأتيه من شرائح مختلفة في عائلته».

قضى جوردن الكثير من وقته في الإشراف على سلسلة متوالية من الموظفين القلقين الذين أرسلوا من واشنطن لتحديد نقاط الضعف التي تعتقد الولايات المتحدة أن حليفها الرئيسي قد خذلها فيها.

«كانت أياماً عصيبة»، يقول جوردن، «مؤلمة جداً. كانوا غاضبين جداً إلى الدرجة التي غضبنا فيها لغضبهم. أتذكّر جورج تينيت (مدير الاستخبارات المركزية الأمريكية) الذي جاء إلى الرياض. كان غاضباً وعدوانياً. أتذكّر اجتماعاً له مع الأمير محمد بن نايف عندما استشاط غضباً في وجه الأمير الشاب».

كان محمد بن نايف، الابن المتحمس لوزير الداخلية، مسؤولاً عن ملف مواجهة الإرهاب.

«في الماضي»، يقول جوردن، «لم يتعاون السعوديون معنا فلم يطلعونا على التفاصيل – مثل الآثار الموجودة في جيوب المتّهمين، أرقام الاتصال الصادرة، ورسائل الهاتف الجوال وأشياء من هذا القبيل. كان ذلك في تفجيرات الخبر. لكن في النهاية أصبحوا مرنين إلى درجة أنهم سمحوا لنا

بالاستماع للتحقيقات من خلال وقوف رجالنا خلف مرايا ذات اتجاه واحد وتمرير الأسئلة التي كنا نبحث فيها عن إجابات».

المشكلة أن مكتب التحقيقات الفيدرالي المسؤول عن قيادة التحقيق لم يكن في وضع يمكّنه من إدارة التحقيق بشكل مباشر.

«في يوم الهجمات»، يقول جوردن، «لم يكن لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي إلا خمسة متحدّثين بالعربية، جميعهم من المحامين». الملحق القانوني «هو اللقب الذي يحمله الشخص التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي في أي سفارة أمريكية. لكن وجود هؤلاء يقتصر على التحقيق والإعداد لإقامة الدعوى بعد الحادث. لا علاقة لهم بالإجراءات الوقائية أو جمع دلائل استخباراتية – باختصار، هم ليسوا مخبرين سريين. شعرت أن هناك حاجة ماسة لتغيير هذه الثقافة».

اكتشف جوردن أن هناك مجالات كثيرة بحاجة إلى تطوير. لا يتحدث كثيراً موظفو الاستخبارات المركزية وموظفو مكتب التحقيقات الفيدرالي فيما بينهم في سفارة الرياض المطلية بلون الرمال في حي السفارات.

«تطلب مني الاستخبارات المركزية ملاحقة السعوديين لمعرفة سجلّ المكالمات لهواتف جوّالة لبعض المتّهمين السعوديين. كانوا يشتكون من عدم حصولهم على أية معلومات من وزارة الداخلية. لذلك أذهب أنا إلى الوزارة مسرعاً وأحدث الكثير من الجلبة والفوضى ليتم إخباري بعد ذلك أن السجلات الهاتفية قد تم تسليمها لشخص ما في السفارة منذ أشهر مضت

– أي أنهم سلّموها إلى مسؤول مكتب التحقيقات الفيدرالي في السفارة الذي احتفظ بالأوراق لنفسه فقط! كان هذا يحدث بعد اثني عشر شهراً من أحداث الحادي عشر من سبتمبر».

عندما رجع إلى واشنطن، ناقش السفير هذه المشكلة مع مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينييت ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالي روبرت مولر. وعد الرجلان بتعاون أكبر بين وكالتيهما، لكن عندما ننزل هرمياً نحو الأسفل نجد أنه من الاستحالة تجاوز بعض السلطات الهرمية.

«لم يكن مكتب التحقيقات الفيدرالي مستعداً لإرسال أفضل وأذكى عملائه إلى الخارج»، يقول جوردن. «هؤلاء يبقون داخل الوطن. يريدون أن يصنعوا اسمهم في الدعاوى المحلّية. كان ذلك جزءاً من الثقافة السائدة. وفي الوقت الذي كنت أستعد لمغادرة الرياض في نهاية 2003م، عُوقب واحد كان يعمل ملحقاً قانونياً تابعاً لمكتب التحقيق الفيدرالي بسبب نقص أدائه، ولم يستمر البديل عنه في عمله سوى شهرين فقط».

اتّهم رجل آخر تابع لمكتب التحقيق الفيدرالي اسمه جمال حافظ، مصري الولادة الذي كان يشغل نائب الملحق القانوني في السفارة، بمناصرة المسلمين عندما رفض الذهاب إلى المسجد وهو يحمل جهاز تنصّت. استقال من منصبه وأقام دعوى على المكتب.

«بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أحدثنا الكثير من الجلبة»، يقول جوردن، « لكن يمكنك أن تقول إن السعوديين قاموا بعمل أفضل في

المسائل المهمة. في النهاية أعتقد أنهم كانوا أسرع منّا في معالجة الأولويات في قضية مواجهة الإرهاب. بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة قدّم الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية اقتراحاً على واشنطن في إنشاء لجنة سعودية أمريكية مشتركة تتعاون في مواجهة الإرهاب – ولم يلتفت أحد إلى طلبه من البيت الأبيض. آذان صمّاء. أمر خارق للعادة. لم يتحقق ذلك إلا في مايو 2004 عندما عيّن الرئيس أخيراً فرانسيس تاونسند بعد إلحاح وإصرار من الأمير سعود».

***

في ذات الوقت، أخذ ولي العهد القضايا التي تمخّضت عنها أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى الوطن – أو إلى النخبة من أبناء الوطن.

«يجب أن نكون حذرين جداً»، صرّح عبدالله في سلسلة اجتماعات متلفزة مع علماء الدين، ورؤساء القبائل، ورجال المال والإعلام في المجتمع. «هناك شيء خطير خاطئ قد حدث ويجب أن نصحّحه سريعاً. يحتاج ولي الأمر إلى عمل خطة استراتيجية لما يمكن القيام به».

وافقت كل جهة على ما طرحه ولي العهد وقدّم كل منها اقتراحات تحذيرية ومضى الجميع يفكر في الحلول. لكن أحد المشايخ الدينيين جاء بفكرة غير عادية. تمسّك الدكتور عبدالله التركي، عضو هيئة كبار العلماء الذي اصطحبه الأمير تركي إلى أفغانستان لإقناع طالبان تسليم بن لادن، بعبارة ولي الأمر الذي استخدمها عبدالله.

أوضح التركي أن ولي الأمر لا يعني فقط الملك والحكومة بل يمتد أيضاً إلى العلماء الكبار. منذ أيامها الأولى، اعتمدت الدولة السعودية على شراكة قوية بين السياسة والدين وقد اقترح الدكتور التركي أن يكون للمشايخ في هذه اللحظة الحرجة كلمة قوية في كيفية إدارة شؤون الدولة.

كانت دعوة مثيرة للجدل، لكنها تعتمد على أساس تاريخي. في الأيام الأولى المبكرة للدولة السعودية، وبحسب المؤرخ النجدي ابن بشر، كانت السلطة النهائية تعود إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب، القائد الديني، وليس إلى محمد بن سعود، القائد السياسي. «لا أحد يمتطي الجمال ولا أحد يعبّر عن رأيه»، كتب ذلك مؤرخ الخمسينات والستينات من القرن الثامن عشر، «من دون موافقة الشيخ». أي محمد بن عبدالوهاب.

في 2001م، لايرى آل سعود الأمر على هذا النحو.

«كنت أشاهد اللقاء في التلفزيون» يتذكّر الأمير تركي الفيصل ذلك وعندما سمعته كدت أصرخ في الشاشة التي أمامي. «أنت مخطئ تماماً. ليقف شخص ما ويخبره ذلك!».

لم يتكلم أحد، ولهذا جلس الأمير فوراً لكتابة آرائه في مقال نُشر بعد أيام قليلة لاحقة.

«أردت أن أبيّن»، يقول الأمير، «أنه منذ الخلفاء الأوائل، كان الولاة السياسيون هم الحكّام الحقيقيون في التاريخ الإسلامي — السلطة النهائية.

عملهم الحقيقي هو ممارسة السلطة بينما كان عمل رجال الدين – المشايخ والمفتي – هو تقديم النصيحة. لا علاقة لهم بالحكم. في هذه النقطة بالذات خرج الخميني وآيات الله الإيرانيون من دائرة الإسلام الحقيقي. وضعوا أنفسهم في سلطة الحكومة العليا – وهو أمر جديد تماماً - غير إسلامي وغير تاريخي».

بعد أيام أخرى ظهر مقال آخر يحمل نفس الرسالة والمضمون، كتبه الأمير طلال بن عبدالعزيز. يتمتّع الأمير الحرّ السابق بفكر ليبرالي ويحتل مرتبة مهمّة في التسلسل الهرمي العائلي إذ هو أصغر من الأمير سلطان وأكبر من الأميرين نايف وسلمان، كما أنه كان قريباً من عبدالله ويشترك مع ولي العهد في رأيه الذي يقول إن الجرعات الكبيرة من الدين أدّت إلى التفكير الذي يدفع الشباب السعوديين إلى الانتحار وقتل الناس جماعياً تحت اسم الله. يملك العلماء والمشايخ شيئاً مهماً يمكن أن يقدّموه وهي النصيحة، يقول الأمير في مقاله، لكن الأمر لم يتعدّ – النصيحة فقط. يجب أن لا يعتبروا أنفسهم «ضمن أولئك الذين يحكمون». إذاً تم رفض اقتراح الدكتور التركي بدور ديني مباشر في الحكومة السعودية، ولم يحاول الدكتور المحترم الردّ على ذلك لاحقاً.

إذاً، بيّنت أحداث سبتمبر حقيقة «مَنْ يحكم مَنْ» في السعودية. بعد جهيمان، كانت فترة الثمانينات الميلادية ذهبية لرجال الدين الذين كانوا يملون توجيهاتهم كيفما يشاؤون على الطريقة الإيرانية، وكان آل سعود يجدون حرجاً في إسكاتهم –لم يتجرأ أمير ليقف في تلك الأيام لمخالفة ما يقوله أي عالم ديني. طالب علماء الصحوة في التسعينات الميلادية بحقهم في

نصح الحكومة عن طريق إحداث تغييرات تتناسب مع معتقداتهم الدينية، الأمر الذي أودى ببعضهم إلى زيارة السجن. الآن، انتهى الحوار – بالنسبة لولي العهد عبدالله. بيّنت أحداث سبتمبر ماذا حدث عندما يخرج الدين عن السيطرة. يجب على الحكّام أن يحكموا وعلى علماء الدين أن يدركوا ذلك. انتهى ذلك الزمان الذي يقول أن لا أحد يمتطي الجمال، ولا أحد يعبّر عن رأيه إلا بإذن الشيخ أو أحد خلفائه.

الفصل الخامس والعشرون

الحريق

شبّ حريق في مدرسة للبنات بمكة في مارس من عام 2002م، وعند انتشار اللهب هربت الفتيات ومعلماتهن في الشارع. الفتيات كن يلبسن اللباس المدرسي، لكن بسبب خوفهن من النار لم يكن لديهن الوقت الكافي لأخذ عباءاتهن معهن.

كان يحرس مدخل المدرسة بعض أعضاء الشرطة الدينية (الهيئة) من ذوي اللحى الكثّة. عندما بدأ تعليم الفتاة في أوائل الستينات الميلادية، سلّم الملك فيصل الإشراف على مدارس الفتيات إلى علماء الدين — كان ذلك جزءاً من الصفقة لكي يقبلوا هذا التجديد. لذا، فإن مدارس المملكة تتبع ما يُعرف بالرئاسة العامة لتعليم البنات التي تضم موّظفين من رجال الدين، وهم في صباح الإثنين هذا كانوا غير مستعدين للسماح للبنات بالخروج من المدرسة من دون عباءاتهن وحجابهن. الثياب الساترة ذات الأكمام الطويلة للزي المدرسي السعودي والذي يشبه زي النساء في العصر الفيكتوري القديم لم تكن كافية لحرّاس الفضيلة من الرجال. لقد أبقوا الأبواب موصدة —وهو عرف الرئاسة في إغلاق الأبواب تماماً طوال ساعات الدراسة— وبحسب شهود العيان، قام ثلاثة أشخاص من هؤلاء المتدينين بضرب بعض

الفتيات اللاتي كن يحاولن الهروب من النار.

وعند عودة الطالبات المذعورات إلى فصولهن الممتلئة بالدخان لاستعادة عباءاتهن اعترضن طريق الفتيات الأخريات اللاتي كن يحاولن الهرب في الاتجاه المعاكس. انتشر الذعر والهلع والارتباك خلف الأبواب الموصدة. وبشكل لم يكن يصدّقه رجال الدفاع المدني في مكة الذين وصلوا إلى المدرسة، الفتيات اللاتي تمكنّ من الخروج من المدرسة عن طريق أحد الأبواب تمت إعادتهن إلى المدرسة مرة أخرى من باب آخر من قبل هؤلاء المطاوعة. بل إنهم منعوا رجال الدفاع المدني من الدخول إلى المبنى.

«أخبرناهم أن الموقف خطير جداً وليس هذا هو الوقت المناسب لمناقشة القضايا الدينية»، قال لهم أحد ضباط الدفاع المدني، «لكنهم رفضوا وبدأوا بالصراخ في وجوهنا. بدل أن يقدّموا المساعدة في الإنقاذ، كانوا يستخدمون أيديهم لضربنا».

لم يكتفوا بذلك بل طردوا أيضاً أولياء الأمور الذين كانوا قلقين على بناتهم. في الوقت نفسه، وتحت الحصار في المبنى المحترق، مات أكثر من خمس عشرة فتاة وأصيب أكثر من خمسين.

***

للصحافة السعودية تاريخ طويل في تجنب القضايا والحقائق المرة، ولكي نكون منصفين، هو تجنّب إجباري بسبب تعليمات السلطات. لكن فضيحة حريق مكة كانت مدوّية إلى الدرجة التي لا يمكن السكوت عنها.

خصصت جريدة الوطن فريقاً خاصاً لتغطية مثل هذه الظروف الطارئة: خمسة صحافيين للحديث مع المسؤولين خلف أسوار مبانيهم الحجرية، وخمسة صحافيين آخرين يجمعون موادهم من الناجين وشهود العيان.

«قدّموا لنا المعلومات بالتفصيل»، يقول قينان الغامدي، رئيس تحرير الوطن وأحد أعضائها المؤسسين. «وقبل نهاية اليوم اتضح أن موت الخمس عشرة فتاة كان خطأً اقترفته الرئاسة العامة لتعليم البنات وحدها، وهذا ما كتبناه».

أوردت الصحف والقنوات التلفزيونية الأخرى نفس الأخبار والتي صبّ فيها الجميع جام غضبهم ورفضهم للفضول القاتل الذي استمر عقوداً للشرطة الدينية. هنا نحن أمام مثال صارخ حول اختلال الأولويات عند المطاوعة.

«كانت فرصة لأخذ الثأر»، يقول الدكتور سعيد السريحي، محررّ في عكاظ.

بالنسبة لولي العهد فقد كانت فرصة للتغيير والإصلاح. كان أخوه أمير مكة عبدالمجيد بن عبدالعزيز (1999-2007م) أحد الأمراء البارزين في العائلة. زار المدرسة المحترقة وقابل رجال الدفاع المدني بنفسه وأكدّ صحة القصة. خلال أسبوع، نقل عبدالله مسؤولية الإشراف على مدارس البنات بعيداً عن السلطات الدينية. أصبحت مدارس البنات، مثل مدارس البنين، تابعة لوزارة التربية - وفي وقت إصدار هذا الكتاب في ربيع 2009م عيّن عبدالله امرأة هي نورة الفايز، التي عملت مدة طويلة كمعلمة ومديرة تربوية،

كنائبة للوزير لشؤون تعليم البنات. هي أول امرأة سعودية تعمل في مرتبة وزير.

***

مع مأساة مكة التي جاءت بعد ستة أشهر من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، سيطر ولي العهد الأمير عبدالله على زمام الحكم في السعودية حيث كانت إزاحة مدارس البنات بعيداً عن أيدي علماء الدين دليلاً واضحاً على اتجاه جديد في الأفق. لم يسبق أن تحدّى إخوانه الآخرون ومنافسوه المشايخ بشكل مباشر. لكن عبدالله يتمتّع بسمعة دينية وقبلية مرموقة تجعل من الصعب أن يشكك أحد في صدق نواياه وإخلاصه.

علامة أخرى لقوته المتزايدة هي ظهور الدكتور غازي القصيبي في مجلس الوزراء، السفير الصريح الذي سخر من «جورج الصغير» و«جورج الكبير» السنة الفائتة. لم يخش القصيبي ذو البنية الجسمانية الممتلئة والشخصية المرحة والشاعر والروائي الذي مُنعت كتبه بسبب اتجاهاتها «العلمانية» الصادمة أن ينتقد المؤسسة الدينية. وجد علماء الدين والمشايخ سعادة كبيرة عندما أرسل فهد الوزير الليبرالي التقدّمي إلى السلك الدبلوماسي، أولاً إلى البحرين ثم إلى لندن، بعد فترة قصيرة قضاها كوزير للصحة. أغضب القصيبي في لندن المشاعر اليهودية عندما نشر قصيدة مؤثرة ينعي فيها استشهادية فلسطينية. كما أثارت عودة القصيبي في عام 2002م كرئيس لوزارة المياه الجديدة غضب وحنق المواقع الإلكترونية المتشددّة.

تحرّك العلماء مرة أخرى لشنّ هجمة مضادّة. كانوا يشتكون طوال الوقت من وزير التربية محمد الرشيد الذي قدّم التقنية للمدارس وأعطى

مساحة أكبر في المنهج للعلوم والرياضيات، الذي يعني أيضاً مساحة أقل للدروس الدينية. أثار الرشيد الجدل أيضاً في الماضي عندما اقترح أن يكون لمدارس البنات ساحات يمارسن فيها الرياضة والتربية البدنية. البنات، مثل الأولاد، في حاجة إلى «عقل سليم في جسم سليم». اعتُبر هذا الدليل النهائي على فساد الوزير وتفسّخه، فبدأت حملة لإبعاده عن وظيفته. كيف «لملحد» خطير أن يتولّى تربية الفتيات السعوديات؟

حاول الرشيد أن يبيّن عبر التلفزيون ويؤكد للناس أن التقاليد الإسلامية لن تتغيّر دون جدوى، رغم أنه بدأ دراسته في مدرسة دينية في مدينة المجمعة المحافظة. وعندما اكتُشِف أمر سفره إلى مؤتمر في بيروت حضره وفد نسائي من المملكة العربية السعودية، صوّرته المواقع الإلكترونية المتطرّفة كزير نساء أغرى النساء السعوديات البريئات وأخذهن في طائرة إلى خارج المملكة — «عليه لعنة الله» بحسب أحد العناوين الرئيسية. تم إرسال آلاف البرقيات إلى ولي العهد الأمير عبدالله، الديوان الملكي في الرياض محتجّين على تسليم الرئاسة العامة لتعليم البنات إلى شخص «بلا أخلاق».

استسلم ولي العهد.

«حان الوقت أن تسترخي وتستريح»، قال للرشيد في اجتماع قامت به العائلة المالكة لإظهار التعاطف معه ودعمه، بل وأيضاً لإبراز عجزهم في مواجهة الجهود المنظّمة للمتشدّدين. سلّم عبدالله حقيبة التربية ومسؤوليتها الجديدة في تعليم البنات أيضاً إلى الدكتور عبدالله العبيد، المدير السابق للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

لا يتضمن سجل العبيد أي خطوات «تقدّمية» حسب المواصفات السعودية مثل تلك التي حقّقها سابقه على الرغم من أنه بدأ حياته التربوية في الستينات الميلادية في فتح مدارس البنات التي أمر بها الملك فيصل مع وجود الحماية المسلّحة لها. يتذكّر العبيد إشرافه على مدرسة كانت تضّم طالبتين فقط طوال العام الدراسي — ابنة المديرة وابنة حارس المدرسة. «ثم فجأة»، يقول العبيد، «أصبح الجميع يريد أن يعلّم بناته». كما أن العبيد مؤهل تماماً للإشراف على تحديث المناهج إذ أنه حصل على درجة الدكتوراه في هذا التخصص من جامعة أوكلاهوما.

بعكس سابقه، كان العبيد يتمتع بلحية طويلة ولا يلبس العقال، تلك الحلقة الصوفية المزدوجة لراعي الإبل. عدم لبس العقال علامة سلفية على اعتبار أن الرسول لم يضع حلقات الإبل الصوفية تلك، التي يلبسها البدو، على رأسه. إنها علامة التقوى والوهابيّة. ولهذا فقد اعتبرت الأوساط الدينية العبيد واحداً منها، أي أصبحت مهمة تعليم البنات السعوديات، على الأقل في الوقت الراهن، في أيد أمينة. أحدث العبيد الذي بقي وزيراً للتربية لمدة سبع سنوات عدداً من المبادرات التعليمية الجديدة قبل أن يتم استبداله في التغييرات الوزارية التي حدثت في فبراير من عام 2009م. خلفه فيصل بن عبدالله بن محمد، الأمير المتحمس الذي أسّس مجموعة الأغر للفكر الاستراتيجي التي تبحث في سبل تحويل السعودية إلى مجتمع معرفي. الأمير أيضاً ابن أخت الملك وزوج ابنته، وهذه علامة واضحة على اهتمام الملك السعودي بتحديث النظام التربوي في السعودية.

***

اكتشف منصور النقيدان بعد أشهر من أحداث الحادي عشر من سبتمبر الضرر الذي يمكن أن تُحدِثه المؤسسة الدينية على الشخص الذي يغضبها. كان النقيدان بعد أن غيّر مهنته السلفية إلى الصحافة يهاجم مرشديه السابقين بكل ما أوتي من شراسة وحنق تعلّمهما عندما كان واحداً منهم -والآن هم يردّون الدين. نشر موقع سلفي رقم هاتفه الجوال الذي استقبل اللعنات والتهديدات من كل حدب وصوب والتي تتراوح بين الضرب والقتل. جاءت الرسائل السامة تتوالى ليل نهار ويوماً بعد يوم تتطاير في شاشة جواله حتى تعطّل.

«كانت رسالة سيئة في يوم سيء»، يقول منصور، «لا أستطيع أن أتذكّر محتواها، ياعدوّ الله. أيها اللوطي الشاذ، وأشياء من هذا القبيل، فشعرت أن الأمر زاد عن حدّه. اذهب إلى الجحيم! فكرت في نفسي وأنا أقرأ رسالته. لهذا رددت عليه برسالة قائلاً له: يا ابن الزانية».

بعد ثلاثة أيام، وجدت نفسي استلم استدعاءً لحضور في المحكمة المستعجلة. قذف شخص ما جريمة في القانون الإسلامي، حيث قام الشخص الذي أرسل إليه وهو مدرس للدين لا يعرفه أبداً برفع شكوى تمكّن القاضي الديني المحلّي من تفعيل جميع العقوبات التي وعد بها الموقع الإلكتروني الغاضب.

«أنت ملحد»، قال له القاضي بغضب وهو يشير إلى ملف كتابات منصور الصحفية.

«وصلتني رسالة سيئة»، ردّ منصور، «وأنا رددت عليها».

يتم تدريب القضاة السعوديين لكي يكونوا علماء دين، ويعرف منصور جيداً الحرية التي يتمتعون بها في تفسير الأحكام الشرعية. تهمة «القذف» كانت مجرد مدخل يمكن لعلماء الدين أن يصلوا إليه من خلاله. لكنه لم يتوقع ما سيحدث لاحقاً.

«خمس وسبعون جلدة»، قال القاضي.

«أسديت لك خدمة»، قال القاضي لمنصور، «أنا أحكم عادة بثمانين».

في الأسابيع التالية، كتب منصور رسائل إلى عدد من الأمراء الكبار. تطوّع أحد الإخوة الأقوياء للتدخّل لإلغاء الحكم إذا تقدم منصور بطلب استرحام، بحسب ما تم إبلاغ منصور. لكن الرجل المحكوم عليه لا يشعر برغبة في التوسّل. كان أعداؤه الدينيون يستخدمون استراتيجية معيّنة للانتقام من نقده لهم، وإذا كانوا يستخدمون قوتهم، فإنه أيضاً قادر على استخدام قوته. بعد أن سمعت جريدة النيويورك تايمز بمحنته قدّمت له منبراً في صفحة الرأي حيث كتب في نوفمبر 2003م مقالاً، بالعربية، ترجمته الجريدة ونشرته تحت عنوان «قوْل الحقيقة، مواجهة الجلْد»:

قبل أسبوع من أمس، كان من المفترض أن أذهب إلى مخفر شرطة حي الصحافة (في الرياض) لاستلام 75 جلدة على ظهري... في اللحظة الأخيرة قرّرت عدم الذهاب إلى الشرطة لاستلام هذه العقوبة المهينة. وبسبب فترة

التوقف لإجازة عيد الفطر، أصبح الحكم معلّقاً. سوف أترك هذا الأمر للقدر.

في الفقرات اللاحقة، ضرب منصور على الوتر الحسّاس عندما تكلّم عن «موظفونا وحكماؤنا» الذين يواصلون ادعاءاتهم بأن المجتمع السعودي يحب الأمم الأخرى ويتمنّى لها السلام. «كيف يكون هذا صحيحاً؟» سأل منصور، «عندما يقوم الدعاة الذين ترعاهم الدولة باستخدام بعض مساجدنا الكبيرة في كيل الشتائم واللعنات والدعوة إلى تدمير غير المسلمين جميعهم يجب أن تغيّر المملكة من طريقتها. لتجنّب الكارثة يجب أن ندفع الثمن الباهظ للإصلاح».

لم يتلقّ منصور أي شيء لمدة يومين، ثم بعد ذلك تلقّى اتصالاً من موظّف. وليِ الأمر، كما تم إخباره، لديه رسالة يريد أن يخبرها إياه. لقد ارتكب خطأً جسيماً عندما تكلم بشكل علني وفي جريدة أجنبية. هذه ليست الطريقة السعودية. لقد ضخّم منصور الأمر، وأضرّ بسمعة الدولة.

«أنا لدي رسالة أيضاً أريد أن أخبرها لوليّ الأمر»، ردّ عليه الإصلاحي المتحمس، «إذا تركوا المساجد والمحاكم في هذه البلاد في يد هؤلاء المتشدّدين فإن الدولة وسمعتها كلاهما ستتأثر».

لم يطبّق حكم الخمس والسبعين جلدة على منصور النقيدان. بعد سلسلة من الاجتماعات —التي اتهمه فيها أحد الموظفين بغضب بالكتابة «في جريدة العدوّ»، تمكّن منصور من الاجتماع وجهاً لوجه مع صاحبه الذي اتهمه بوجود شهود.

«هل تقبل حقيقة الدين»، سُئِل منصور.

«نعم»، ردّ منصور – وقبل أن يتلفّظ الجهاديّ السابق بكلمة قد تعقّد إجابته، تم إغلاق القضية. حرص ولاة الأمر على عدم تنفيذ حكم الجلد. ومع نهاية عام 2003م، أصبح كلام منصور حول أن «التطرّف الإسلامي المتجذّر» حوّل السعودية إلى «أمة تنتج الإرهابيين» صحيحاً بشكل مأساوي. يمكن رؤية الدليل على ذلك في الشوارع.

الفصل السادس والعشرون

القاعدة في الجزيرة العربية

كانت ليلة حارة في الرياض في 12 مايو 2003، وكان مدخّنو العاصمة ينفثون دخان النرجيلة في المنتزهات الموجودة في الهواء الطلق خارج المدينة بالقرب من سوق الإبل وهم يتمددّون على الأرائك الشعبية. لا يبدو أن هناك شيئاً غير طبيعي في هذه السيارات الأربع —سيارتان صغيرتان، سيارة نقل، وسيارة صالون— والتي اتجهت في جنح الظلام من خارج المدينة إلى المجمع السكني في الحمراء: سائقو هذه السيارات كانوا سعوديين ملتحين، وشباباً عاديين. لكنهم كانوا مسلّحين وسياراتهم مليئة بالأسلحة والمتفجّرات. هدفهم ثلاثة مجّمعات سكنية يقطنها غربيّون – وأمريكيون على وجه الخصوص.

حاولت إحدى السيارات قبيل منتصف الليل الدخول عبر البوّابة الخلفية لمجمع «جداول» السكني. وعند اقتراب حرّاس أمن المجمّع من السيارة أطلق الإرهابيون النّار فقتلوا جندياً ومدنياً سعودياً غير مسلّح. فتح المهاجمون النار بشكل عشوائي وهم في طريقهم عبر البوّابة الداخلية.

«أيها الكفّار»، كانوا يصرخون، «جئنا لنقتلكم».

في الوقت الذي كانوا يشقون طريقهم داخل المجمّع السكني، انفجرت شحنة المتفجّرات الضخمة فقتلتهم جميعا.

وعلى بعد أميال قليلة من قرية الواحة ومجمّع شركة «فينيل» قتل فريق الهجوم الإرهابي حرّاس الأمن بنفس الطريقة من خارج الحواجز الأمنية، ثم فتحوا البوّابات لمجموعة أخرى قادمة. أخذ الإرهابيون يصرخون «الله أكبر» وهم يفتحون النار بوحشية. ثم فجّروا قنابلهم لتصل حصيلة القتلى في تلك الليلة الحارة إلى اثني عشر إرهابياً وسبعة وعشرين أجنبياً –تسعة منهم من الأمريكيين. ولاحقاً خلال السنة نفسها– قتل الإرهابيون في مجمّع سكني يقطنه العرب ثمانية عشر شخصاً. كما قام إرهابيو مايو أيضاً بقتل خمسة عمال في مصنع بيتروكيميائي بينبع، ثم قاموا بربط جثثهم في مؤخرة سيارتهم وسحبها في الشوارع. اعتاد الأجانب النظر تحت سياراتهم كل صباح خوفاً من المتفجرات وفحص لوحات سياراتهم للبحث عن كتابة فيها، وهي علامة تدل على أنه تم التعرّف عليهم وأصبحوا هدفاً منتظراً.

***

وهذه الهجمات من صنع المجاهدين السعوديين الذين أُبعدوا من أفغانستان بسبب الغزو الأمريكي – البريطاني في الأشهر التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أجبر تدمير معسكرات التدريب في أفغانستان المئات من المتطرّفين على العودة إلى المملكة حيث أعادوا تنظيم أنفسهم تحت اسم «القاعدة في جزيرة العرب» ويتلقّون الأوامر عبر رسائل هاتفية مشفّرة من قادتهم الذين اختبأوا في المناطق القبلية على الحدود الأفغانية. تراجع دور أسامة بن لادن كثيراً لكنه رأى العودة الإجبارية

لمجاهديه السعوديين إلى الوطن فرصة مؤاتية. أمرهم أن ينقلوا المعركة إلى آل سعود في مقر مُلكهم فاستأنف بذلك المتطرفون الشباب تدريباتهم في الصحراء على الرماية والتصويب. كان من السهل عليهم الحصول على الأسلحة محلياً وأكثرها يأتي من اليمن والبعض الآخر مما تبقى من حرب الخليج عام 1991م. بعد انسحاب صدام من الكويت، لم يفوّت البدو فرصة سرقة بنادق الكلاشينكوف من فوق جثث العراقيين وعرضها لاحقاً للبيع في السوق السوداء في الرياض. قام جيش صغير من المتطرفين، بعد التجهيز بالسلاح، بالهجوم على مجمع الواحة السكني في المنطقة الشرقية وقتل أكثر من اثنين وعشرين شخصاً أغلبهم من العمالة الأجنبية.

في يونيو من عام 2004م، سافر فرانك جاردنر، الكاتب المتخصص في الإرهاب في (بي بي سي) والذي يتحدث العربية، إلى السعودية لتغطية هذه الأحداث الدراماتيكية. جلس جاردنر في الطائرة بجانب مصوّره الإيرلندي سيمون كمبرز يراجع أوراقه وملاحظاته عن عبد العزيز المقرن، قائد القاعدة البالغ من العمر الثانية والثلاثين الذي ترك المدرسة في السابعة عشرة من عمره ليقاتل في أفغانستان، الجزائر، البوسنة، والصومال. هذا الجهاديّ الجاف، الذي قُبض عليه مرة وتم ترحيله إلى الرياض، دخل السجن أربع مرات، لكنه استفاد من تنظيمات السجن في السعودية والتي تقضي بقضاء نصف المدة فقط عندما يحفظ السجين القرآن الكريم.

«يا إلهي!» فكّر جاردنر وهو يراجع الأماكن الدموية التي ذهب إليها المقرن في الوقت الذي كانت طائرته تستعد للهبوط. «أدعو الله ألا أقابله يوماً».

بعد أيام قليلة لاحقة، كان جاردنر يختتم حديثاً إلى الكاميرا في حي السويدي، الحي المتطرّف في الرياض والذي خطّط فيه النقيدان لعمليات إرهابية في أيامه السلفية. كان الصحفي البريطاني يعرف أنه قريب من منطقة خطرة. أخذ الصحفي يتمشى في أرض صغيرة وهو يشير إلى المكان الذي تبادلت فيه الشرطة إطلاق النار مع مسلّحين قبل أشهر. سمح له المرافقون السعوديون التابعون للوزارة بتصوير الموقع، وكان من المفترض أن يقدّموا له الحماية لولا أنهم اختفوا خلال ثوان عندما وقفت سيارة وخرج منها شاب سعودي.

«السلام عليكم»، قال الشاب بابتسامة، ثم فجأة وبسرعة كبيرة، أدخل يده في جيب ثوبه الأبيض واستخرج مسدّساً.

«لا! لا تفعل ذلك!» صرخ جاردنر بالعربية وهو يتراجع إلى الخلف ويركض بأقصى سرعة في الشارع. شعر جاردنر بضربة رصاصة في كتفه لكن هذا لم يوقفه عن الركض، وكان يعتقد أنه قد تجاوز مهاجمه إلاّ أنه سمع ضربة عنيفة فسقط على الأسفلت متأثراً برصاصة في ساقه. تم اعتراض طريق هروبه بسيارة صالون صغيرة انزلق بابها الأوسط ليكشف عن مجموعة شريرة من المسلّحين الملتحين يحمل كل واحد منهم مسدّساً في يده. أصبح مراسل (بي بي سي) المتخصص بالإرهاب وجهاً لوجه مع موضوعه الذي تخصّص فيه – ملامح شاحبة ونحيفة اختلطت بما لا يمكن أن ينساه جاردنر «بالكُره الحقيقي والتعصّب».

كان من سوء حظ فرانك جاردنر وسيمون كمبرز أن يعثر عليهما عبد العزيز

المقرن بنفسه وهو يقود موكباً مع مجموعة من أتباعه. رأى قائد القاعدة الكاميرا منصوبة على ثلاثة قوائم فتوقف فوراً وأعطى أوامره بالهجوم من ناحيتين. في الوقت الذي أغلقوا فيه منافذ الهرب أمام جاردنر كان مصوّره كمبرز قد قُتِل.

توسّل إليهم جاردنر أن يتركوه وشأنه وهم يتبادلون الحديث حول ما يمكن أن يفعلوا به. ثمّ قاطعوا توسّلاته بإطلاق وابل من النيران عليه.

«يا للجحيم!» فكّر جاردنر وهو يتمدّد ملقىً على الأرض في عرض الشارع يتحسّس الرصاص في بطنه. «لقد تعرّضت لإطلاق نار جماعي».

في الواقع، كان إطلاق النار غريباً إلى درجة أن ست طلقات فقط اخترقت جسمه. لكنها هشّمت العظام وقطعت الأعصاب بشكل خطير إلى الدرجة التي تركت مراسل (بي بي سي) يعاني من أحد عشر جرحاً شلّت الجزء السفلي من جسمه مدى الحياة. كانت معجزة — وغامضة في نفس الوقت — ألا يتمكن المقرن ورفاقه من قتل جاردنر مباشرة. رصاصة واحدة في رأسه كانت كفيلة بإنهائه. لكن في الوقت الذي كان فيه الصحفي ممدّداً على الأرض توقف إطلاق النار وسمع صوت أقدام تتجه نحوه. نزل أحد الإرهابيين من السيارة ليفتش في الجيوب الخلفية لبنطلونه. وجد في واحدة مايكروفون لاسلكي، وفي الأخرى قرآن صغير. يحتفظ جاردنر بمجموعة من المصاحف الصغيرة مكتوبة بخط جذّاب يقدّمها هدايا للآخرين.

هل أنقذ ذلك القرآن الصغير حياته؟ سحبت القاعدة، في هجومها الأخير قبل هذا، جثث الضحايا خلف سياراتها. وبعد أسبوع من هذا الحادث

حزّ المقرن رأس بول جونسون، الفنّي المتخصّص بطائرات الهيلوكوبتر، وصوّروا مقتله ووضعوا رأسه في الثلاجة كنصب تذكاري. مهما كان الأمر، سمع جاردنر صوت سيارتهم وهم يقودونها بعيداً.

بعد سنة من هذا الحادث، وبعد شهور من المعاناة والألم والعمليات الجراحية والتجميلية في بريطانيا، تم استدعاء جاردنر من قبل الشرطة البريطانية لكي يقابل ضباطاً كبار من المباحث السعودية الذين جاؤوا إلى لندن ليقدّموا الدليل له. لقد قبضوا على أحد المهاجمين والذي يُعتقد أنه الشخص الذي قتل سيمون كمبرز. أما بالنسبة للخمسة الآخرين، فقد سلّموا جاردنر مجموعة من الصور الضخمة البشعة لوجوه امتلأت بالدم وأعين مشوّهة مغلقة في حالة الموت.

كشفت تحليلات عينات الحمض النووي (دي أن إيه) شخصيات الجثث بما فيها شخصية عبد العزيز المقرن، والذي قُتِل في مواجهة دموية بعد أسبوع واحد فقط من مواجهته في السويدي مع ضحيتيه «الكافرتين» في عرض الشارع.

كانت مواساة صغيرة لفرانك جاردنر – وهي أقل من ذلك للويس كمبرز، أرملة سيمون – لكن السعوديين فخورون بإنجازهم حيث نشروا في ديسمبر من عام 2003م أسماء ستة وعشرين إرهابياً مطلوباً، وخلال سنة تمكنوا من قتل أو أسر ثلاثة وعشرين منهم.

***

كشفت التقارير الاستخباراتية أن عبد العزيز المقرن والقادة الآخرين للقاعدة في الجزيرة العربية لم يرغبوا في الهجوم على الرياض في مايو 2003م. لم تكن الخلايا المحلية للقاعدة جاهزة، كما قالوا في محادثاتهم الهاتفية التي تم اعتراضها. لم يكن رجالهم مُدرّبين بشكل جيد، ولم تكن أعدادهم كافية. لكن من ملجأه في وزير ستان، أصّر أسامة على الهجوم.

كان خطأً شنيعاً، لأن هجمات مايو 2003م حوّلت العملاق المسالم إلى عدوّ عنيد لا يهدأ. أقسم الأمير عبد الله بالله غاضباً، كما لو كان الأمر معركةً حديثةً للسبلة، أن كل«متوحش» سيمثل أمام العدالة، وكل من يقاوم سيلقى القتل. قد يكون الأمير نايف قد لام الصهاينة على أحداث سبتمبر لكن وزارة الداخلية الآن تتعقب الإرهابيين بلا رحمة. بعد تعقبها وإنهائها الناجح لقائمة المطلوبين لديها، ها هي الآن تحيط بأكثر من ستمائة مشتبه إرهابي مع أجهزة التفجير والأحزمة الناسفة وآلاف الأسلحة التي تم تجميعها لتنفيذ عملية إرهابية ضخمة في مناطق المملكة.

نفس الشيء حدث على المستوى الشعبي. قبل مايو 2003، كان الناس ينظرون بعين الاحترام والتأييد إلى أولئك الشباب قصيري الثياب ذوي اللحى الكثيفة الذين يرتادون المساجد ويصلّون فيها بخشوع. وكان جهادهم في أفغانستان محل التقدير. لكن تفجيراتهم الإرهابية داخل الوطن غيّرت ذلك كلّه. كان مايو 2003 الحادي عشر من سبتمبر بالنسبة للمملكة. ينظر الإنسان السعودي العادي إلى راتبه الشهري، وإلى سكنه وأطفاله في المدرسة، ولا يجد صعوبة في تحديد الجهة التي تتوافق مع مصالحه. ازدادت حالة الامتعاض بعد هجمات نوفمبر 2003 خاصة وأن العديد من الضحايا هم

من العرب. كانت الدماء المسلمة التي لطخت العباءات السوداء المسمار الأخير في نعش حملة القاعدة في الجزيرة العربية.

«كان ذلك عندما تحوّل السعوديون إلى الدين الحقيقي»، يقول الدبلوماسي الأمريكي ديفيد رانديل.

قبل الهجمات التي شنتها القاعدة داخل المملكة، كان اتجاه الشارع السعودي نحو القاعدة شبيهاً باتجاه الأمريكيين الذين تركوا منظمة الجيش الجمهوري الإيرلندي تجمع التبرعات في بوسطن قائلين «إن هذا ليس مشكلتنا».

«هم ليسوا على قناعة بما تقوم به القاعدة في العالم أجمع»، يقول رانديل «لكن لو كان هناك ثلاثة شباب بلحى كثيفة تحرّكوا في الشارع جيئة وذهاباً في أوقات غير مناسبة فلا أحد يفكّر في إبلاغ الشرطة. هذا الأمر تغيّر في ليلة وضحاها. هناك أولياء أمور يأخذون أبناءهم إلى أمراء يمكن الوثوق بهم عندما يعتقدون أن هذا الابن قد ضلّ الطريق. يعملون هذا الأمر من أجل حماية الابن من جهة ومن أجل حماية سمعة العائلة من جهة أخرى. السمعة العائلية تعني الشيء الكثير هنا. شنّ الهجمات داخل المملكة كان «هدف بن لادن وحده».

عزّزت الهجمات الإرهابية اتجاه الحكومة على مواجهة المتطرفين بشدّة. أي أن هذا هو أسوأ ضرر يمكن أن تحدثه القاعدة. هناك اتجاه قوي وصارم في الإعلانات الرسمية. انتهى زمن التهدئة – وهذا الأمر أيضاً أعطى

قوة إضافية لمن كان يريد الإصلاح والتحديث. لم يعد يخاف الناس من التعبير عن حريتهم وبدأوا فعلاً بالرد بقوة على كل من أراد أن يضطهدهم.

«إذهبوا إلى الجحيم أيها الإرهابيون»، صرخت امرأة غاضبة في وجه أحد رجال الهيئة الذي حاول أن يصحّح طريقة لبسها.

***

في بريدة، شَعَرَ محمد الحربي، مدرس الكيمياء ذو اللحية القصيرة، أنه بحاجة إلى الكلام مرة أخرى. عندما بدأت الدراسة في يوم السبت الذي أعقب التفجيرات الأولى في حمراء الرياض، استلم محمد المايكروفون لقراءة بيان الحكومة، «تم التعرّف على ثلاثة إرهابيين، بحسب وزارة الداخلية، وهم مرتبطون بأسامة بن لادن، الشرّير الذي ينتشر أتباعه كالخلايا السرطانية في جسم المجتمع».

في اليوم التالي، استلم المايكروفون مدرس آخر، هذه المرة بلحية كثيفة وثوب قصير ليخاطب الطلاّب المجتمعين. لا ينبغي عليهم أن يضيّعوا وقتهم سدى في الاستماع إلى الأخبار هذه الأيام، هكذا كانت رسالته. ولا أن يستمعوا إلى الأشخاص الذين يخلطون آراءهم مع الأخبار. الأشخاص الذين يحكمون على الآخرين ويصفونهم بالشرّ هم الشرّيرون فعلاً. نحن هنا أمام نفاق جاء من مخلص لمدرسة التكفير، لكن بالنسبة للمدرسين من أصحاب اللحى الكثيفة فقد أومأوا برؤوسهم موافقين على هذه الحكمة.

في الأيام اللاحقة، أرسلت وزارة التربية تعميماً لجميع المدارس يبين

أهمية توعية الطلاب بأخطار الإرهاب: يجب أن يتعلم الطالب ويفهم الحاجة إلى التسامح وقبول الآخرين. لذا واستجابة لهذا التعميم وضع محمد مقالاً في لوحة إعلان المدرسة «رجال الكهف ذاهبون إلى الجحيم» بقلم كاتب العمود الصحفي المتحرّر حمّاد السالمي. يقصد السالمي برجال الكهف أعضاء القاعدة في أفغانستان الذين يرسلون أتباعهم من الشباب السذّج إلى حتفهم داخل المملكة.

لكن محمد وجد المقال ممزّقاً على الأرض في اليوم التالي، وقد واجهه المعلم الذي فعل ذلك بهجوم عنيف. كاتب المقال السالمي، «علماني»، يقول المعلم – لا أحد باستثناء الله يستطيع أن يحكم على أحد بالنار. عندما بدأ جوّال محمد بالرنين طوال الوقت، ليل نهار، برسائل مهدّدة كان يعتقد أنها نوبة غضب – حتى جاء مرة إلى المدرسة صباحاً ليجد أثر رصاصة اخترقت نافذة مكتبه.

هنا جاءت اللحظة التي قرّر فيها المدرّس الشاب أن يذهب فيها إلى المدير لطلب السماح بإحضار الشرطة لكنه اكتشف أن منافسيه المحافظين قد فعلوا ذلك قبله: لقد أعدّوا له عريضة يتهمونه فيها «بالسخرية من الدين»، وهي الخطوة الأولى نحو اتهامه بالردّة – والتي ينتهي حكمها بالقتل.

لقد جمع أعداؤه في غرفة المدرسين أكثر من اثني عشر اتهاماً له، مثل تناول الكحول في مختبره للكيمياء، وتناول المخدرات أيضاً. قيل عنه إنه تحدّث بشكل إيجابي عن الكفّار، كما أنه تكلم بشكل غير لائق عن الدين. كما أغلق نافذة الصف عند سماعه للأذان، كما رفض السماح لطلابه بمغادرة

الصف لتأدية الوضوء، وطلب من طلابه أيضا أن يحلقوا لحاهم.

«كيف أقوم بهذا؟» قال محمد معترضاً على محاكمته في المحكمة الشرعية، «أنا نفسي لدي لحية».

«هل تسمّي تلك لحية؟» سخر منه القاضي الملتحي، وهو ينظر إلى لحيته المشذّبة والمهذّبة بامتعاض.

لم يدافع محمد عن اتهامه بتسفيه آراء ابن باز. «كيف له أن يعرف أن الأرض مسطحة وهو أعمى لا يرى شيئاً؟»، اتُّهم أنه قال ذلك ولم يُنكر ذلك. ولم ينكر أيضاً أنه أثنى على صفات أحد الشيعة الطيبين الذي توقف لمساعدته في إصلاح عجلة سيارته المثقوبة في طريقه نحو المدرسة. نجح في رد التهمة التي تقول إنه تعلّم السحر – عقوبتها الإعدام على اعتبار أن السحر حرام في الإسلام، لكن عقوبته في النهاية كانت شديدة بسبب جريمة «الاستهزاء بالدين»: أربعين شهراً بالسجن و750 جلدة في مكان عام وسط بريدة.

جاءت الصحافة الحرة لإنقاذه. سخرت جريدة الرياض من الدعوى وسفّهت الحكم. خلال أيام، أمر الأمير نايف أمير المنطقة بإغلاق ملف القضية – الأمر الذي أغضب القاضي كثيراً.

«كان من المفترض أن تُقْتَل»، قال لمحمد بغضب وهو يطلق سراحه على مضض.

***

في الوقت الذي انطلقت فيها التفجيرات بالعاصمة السعودية، كان الكاتب الصحفي حسين شبكشي يكتب عن أحلامه في مكان أفضل حول كيف أن هذه التفجيرات، بعد عشرين سنة من الآن، أصبحت في الذاكرة البعيدة. تخيّل نفسه مسافراً إلى جدة من الرياض على الخطوط السعودية (فقد وصلت الطائرة في وقتها المحدّد بعد خصخصتها بنجاح) لتستقبله ابنته التي سيكون عمرها سبعة وعشرين عاماً والتي تعمل كمحامية قوية مؤهّلة (المحاميات لا يستطعن الظهور، فما بالك بالكلام في محاكم السعودية).

«كيف كانت رحلتك يا أبي؟»، سألته ابنته وهي تقود سيارتها بانسياب عبر شوارع جدة.

«عظيمة»، ردّ عليها حسين. «حضرت مؤتمر حقوق الإنسان في الرياض وحازت المملكة على جائزة خاصة على عدالة وفعالية أنظمتها القضائية».

في هذه اللحظة فقط أدرك قرّاء شبكشي، إن لم يكن ذلك قبلاً، أن هذا الحالم يمزح. حسين شبكشي شخصية مرموقة في منتصف الأربعينات، واسع الأفق مثل طوله، وبملامح جذّابة زينتها لحية خفيفة لا تكاد ترى شعرها. كان والده عليّ الصحفي الذي أجّر الأضواء الكاشفة للحكومة للمساعدة على استعادة الحرم الشريف في عام 1979م. أصبح شبكشي في يوليو 2003 يقدّم برنامجاً تلفزيونياً شهيراً، هذا بالإضافة إلى كتابة عمود صحفي يماثله بالشهرة والجذب.

«ذهبت لتهنئة جارنا فؤاد طرشلو على زواجه من ابنة الشيخ فيحان العتيبي»، هكذا يتخيل حسين نفسه وهو يتحدث في مقعد الراكب. «ثم ذهبت إلى بريدة لمقابلة رئيس البلدية رضا باقر».

تتمحور المفارقة أو السخرية بأسماء العائلات. قد يبدو مستحيلاً أن تتخيل حجازياً (طرشلو) يمكن أن تقبل به عائلة شيخ نجدي «العتيبي»؛ كما أنه لا يمكن للشيعي (باقر) أن يحلم بالعمل كمنظّف لشوارع بريدة، فما بالك برئيس بلدية لها.

«تناولت العشاء»، كتب شبكشي حالماً، «في مطعم جديد نظيف في حي الشميسي». هذا الحي المتزمّت قريب من حي السويدي الذي يسكنه منصور النقيدان، والذي وقعت فيه حادثة إطلاق النار على جاردنر.

«أسرعي»، أخبر حسين ابنته. «أريد أن أصل إلى البيت لمشاهدة التلفزيون. أريد أن أرى وزير المالية الليلة وهو يُستجوب عن تفاصيل الميزانية على الهواء».

ربما يكون هذا الجزء الأخير من الحلم الذي يصعب تحقيقه. عندما تُنشر الميزانية السعودية كل سنة، هناك بند لا يقل عن 40 بالمئة (166.9 بليون ريال في ميزانية عام 2008 م) تحت مسمّى «قطاعات أخرى» يتضمّن وزارة الدفاع، الأمن الوطني، المخابرات، الاستثمار المباشر خارج الوطن.

وكما توقّع حسين شبكشي، أحلامه الدينية هي التي أوقعته في المشاكل.

في نهاية «حلمه» عبّر عن نيته للذهاب إلى المسجد الحرام في مكة للاستماع إلى درس عضو هيئة كبار العلماء الشيخ طه المالكي. لا يمكن لشيخ يحمل هذا الاسم إلا أن يكون صوفياً.

جاءت المكالمة خلال ساعات – من رئيس تحرير جريدة حسين.

«استقبلت عشر مكالمات للتو»، قال له، «من وزارة الإعلام».

مُنع شبكشي من الكتابة بقرار فوري وعندما وصل إلى استديو القناة التلفزيونية اكتشف رسالة تلغي برنامجه التلفزيوني – بالإضافة إلى بريدٍ امتلأ برسائل إلكترونية غاضبة.

«اعرف حدودك وإلا سيعاقبك الله وعباده على الأرض» قالت له رسالة مهدِّدة. البعض الآخر وصفه بالماعز والبقرة – وتمنّى له أحدهم الإصابة بالسرطان. كان هذا بالتأكيد الوقت غير المناسب في الاستعجال بمعالجة الاختلافات الاجتماعية والدينية في المملكة. ما زالت القنابل تنفجر في الشوارع السعودية، كما أن عادة القبض على إرهابيين شباب ما زالت سائدة، وهو الجيل الضائع الذي يجب على أمريكا والمملكة التعامل معه جيداً.

الفصل السابع والعشرون

أبناء مسرفون

بحلول خريف 2003م ، كان قد مضى على خالد الحبيشي في الأقفاص الكهربائية لسجن غوانتانامو في كوبا عشرون شهراً. وكما توقّع قبل سنتين وهو يستمع إلى هجمات الحادي عشر من سبتمبر من خلال راديو سوني المحمول التابع له في كابول ، ها هم الأمريكيون يردّون بانتقام.

«طرد الأفغان المجاهدون الأجانب خارج المدينة على الفور»، يتذكّر خالد. «عرفوا ماذا سيأتي – في الواقع ، لقد أنقذوا حياتنا. كنا بالقرب من النهر نشاهد القنابل وهي تسقط على المدينة. كانت الانفجارات مثل الألعاب النارية ، لكنها مدوّية إلى درجة لا تُصدّق. كانت ساحقة. كانت هناك الصواريخ الضاربة بالإضافة إلى القنابل. يعرف الأمريكيون جيداً الأهداف التي يضربونها. عندما استيقظنا الصباح التالي وذهبنا إلى المدينة وجدنا بيت الضيافة التابع لنا قد اختفى تماماً. كل ما وجدناه فوهة عميقة من آثار القصف. يجعلك هذا الأمر تُصاب بالدهشة وتستغرب إذا كانوا يعرفون هذه الأشياء بكل هذه الدقة فلماذا لم يرسلوا قواتٍ خاصة بهدوء للقبض على بن لادن واقتلاع المعسكر بعد ذلك ؟ لكن ما حصل هو أنهم شنّوا هذا الهجوم الشامل وأخطأوه».

التحق الحبيشي بالمئات من أتباع القاعدة المخلصين الذي انسحبوا إلى تورا بورا ، المجمّع السكني الكهفي المحصّن لأسامة بن لادن في الجبال التي تقع جنوب شرق كابول. كان الافتراض العام هو أن يذهب هؤلاء المجاهدون ليعدّوا أسلحتهم ويلتفوا حول قائدهم ويدافعوا عن هذا المقر حتى الموت. لكن في 7 ديسمبر 2001م، أعلن أسامة أنه سيغادر المكان.

«هجرنا وتركنا وحدنا»، يقول الحبيشي بمرارة، بعد خمسة أسابيع، جاء إلينا رجاله ليخبرونا أن نجد طريقنا نحو باكستان بأسرع وقت ممكن وأن نسلّم أنفسنا لسفارات دولنا هناك. كنّا مستعدّين أن نضحي بحياتنا من أجله، وهو لم يحاول حتى الحديث معنا بشكل شخصي. اليوم أعتقد أن بن لادن قد استغلني – واستخدمني كما استخدم جميع الأطفال الذين ذهبوا إلى الجهاد. ما الذي يهمّه عندما يرسلنا نحو الأفق لنموت؟ هو سيء كالمشايخ الدينيين في السعودية الذين يدعون إلى الجهاد في خطبهم كل جمعة. كم عدد هؤلاء المشايخ الذين أرسلوا أبناءهم إلى أفغانستان؟

قضى هذا السعودي الشاب مع ثلاثين من رفقائه – سعوديين وجزائريين ومغاربة – ستة أيام هائمين في الجبال المقفرة المهجورة لهندوكوش يعيشون فيها على القليل من التمر والجليد المذاب.

بقي لدي ثلاثمائة دولار نقداً وبندقية الكلاشينكوف. ثم رميت بعد ذلك سلاحي. عرفت أننا ضعنا. كان الأمريكيون يرمون الأوراق التي تقدم جوائز مالية لكل من يساعد على القبض على عربي ، وهذا ما حدث. باعنا بعض القرويين الأفغان إلى الباكستانيين الذين مرّرونا إلى قوات المارينز.

قيّدوا أيدينا وعصبوا عيوننا ثم رفسونا وأخذونا إلى قندهار. وكانت هذه هي نهاية خالد جيمس بوند.

بعد عدة أسابيع، نظر خالد حوله وهو مقيّد اليدين بعد أن أزاح الأمريكي عصابة عينيه في نهاية رحلة طويلة بالطائرة خلال الليل. كان ذلك في 16 يناير 2002م.

«كان الجو رطباً وكانت الشمس في كبد السماء»، يتذكّر خالد، «وكلّنا يسأل السؤال نفسه»، أين هذا المكان ؟ هل هو في تركيا؟ أو المغرب؟ هل كنّا في مكان ما بالخليج؟ عرفنا أن الطائرة هبطت مرة واحدة على الأرض ثم عاودت الإقلاع مرة أخرى. تلقّت قوات المارينز الأوامر. أخبرونا فوراً اتجاه القبلة (اتجاه مكة) فعرفنا الاتجاه الذي سنصلي إليه – وبالتالي استطعنا تحديد الشمال والجنوب والشرق والغرب من خلال رؤية الشمس. لكنهم لم يخبرونا أين كنّا. بحثنا عن مفاتيح تساعدنا في كل مكان. رأينا تلك الطيور البيضاء ذات الأقدام الغريبة، ولاحظنا أنه تم طلاء سيارات الهامر بلون الرمال. سألنا الصليب الأحمر عندما جاءوا بعد شهر، لكنهم قالوا إنه لا يُسمح لهم بإعطاء معلومات كهذه».

في النهاية أفصح محقق المخابرات البريطانية عن السرّ لخالد.

«عندما سألته عن المكان أشار إلى مقدمة قبعته ورأيت مكتوباً عليها كوبا».

«تستطيع أن تحصل على هذه من أي مكان».

«كما تريد»، ردّ عليه وهو يهز كتفه.

«كوبا ؟» قلت له، «فيدل كاسترو ؟ أحضر لي بعض السيجار !».

كان خالد الحبيشي واحداً من أصل 137 سعودياً محتجزين في معتقل غوانتانامو ابتداءاً من يناير 2002م ، وقد احتاج إلى كل موهبته في المرح لينجو بحياته[1].

«كان التحدّي هو كل ما لدينا في البداية»، يقول خالد ، «عداء مستحكم مائة في المائة طوال الوقت». كانوا يصرخون ويضربوننا على رؤوسنا. أضربنا عن الطعام ورمينا لهم اللعنات من كل جانب. لكن بعد شهر تقريباً رجعنا إلى الهدوء. حاولت أن أفكّر في المدّة التي سأقضيها هنا في هذا المكان. توقعت أربع إلى خمس سنوات – خمسين ، ستين ، سبعين شهراً. ليس من صالحي أن أتمنّى فترة قصيرة.

«لذا كان علي أن أتخذ قراراً. هل سأخوض هذه المعارك كل يوم؟ لست مضطراً أن تقع في حب سجّانك، لكن لماذا لا أتصرّف كإنسان؟ عندما تتعرّف على بعض الأمريكان بشكل جيد فإنهم يتحولون إلى أناس

---

1 - أظهرت الأرقام الأمريكية وجود 759 سجيناً. محتجزاً في غوانتانامو من يناير 2002م إلى مايو 2006م. الدول التي يمثل محتجزوها العدد الأكثر هي كما يلي : أفغانستان 219، السعودية 139، اليمن 109، باكستان 70، الجزائر 25، الصين 22، المغرب 15.

مهذّبين. ما زلت أحتفظ بعناوين بريدهم الإلكتروني. أخبرنا الكثير منهم أن الحرب في العراق كانت غلطة كبيرة. أما بالنسبة للحرّاس من بورتو ريكو فهم يكرهون الأمريكيين. يعتبرون أنفسهم عبيداً لهم. في الذكرى الثانية لأحداث سبتمبر رفعوا إبهاماتهم تشجيعاً لنا. كانوا يعطوننا في أوقات الوجبات طعاماً خاصاً يحتوي على التوابل الحارة. «أنتم جنود»، يقولون لنا، «حاربتم من أجل قضيتكم مثل أي شخص آخر».

يتغيّر الحرّاس هناك في ورديات منتظمة كل ستة شهور.

«في الأسبوع الأول تقريباً يجد القادمون الجدد صعوبة في التكيف فيصبحون متوتّرين ومتضايقين، وقد يكون ذلك بسبب خوفهم. لكن مع مرور الوقت يتكيفون ويعاودهم الهدوء. في النهاية، أنا تقريباً ممتن للوقت الذي قضيته في غوانتانامو. لقد تبنّيت هذا الشعار: ستجد الصخور والأحجار في طريقك. تستطيع أن تتعثّر فوقها لو أردت ذلك. أو تستطيع أن تستخدمها لبناء جدار النجاح».

بالإضافة إلى هذا الشعار الخاص الذي ساعده في بناء نفسه، ما زال الحبيشي يتذكّر موقفين لا ينساهما من أيام غوانتانامو.

«طوال النهار كنّا نسمع الصياح والعويل من المجانين في القسم د، أو قسم الصحة العقلية. كانت الطريقة الوحيدة التي يبقون فيها على قيد الحياة، أولئك المساكين الذين يتظاهرون بأنهم أبقار أو حمير أو أي شيء آخر. يعاودهم الهدوء في الساعة التاسعة تماماً. أي عندما يأتي الممرّضون

وهم يصطحبون الإبر. والشيء الآخر الذي أتذكره أيضاً هو ذلك اليوم الذي زارنا فيه دونالد رامسفيلد. مشى أمامنا مباشرة أمام الأقفاص ، لكن لم يحرّك رأسه باتجاهنا أبداً ولو لمرة واحدة. لم يجرؤ على النظر إلينا مباشرة. رأيت ذلك بوضوح. كان مُحرَجاً. أتوقع أن يكون مدير الحرب الأمريكية خجلاً مما قامت به أمريكا.

إذا كانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر قد أنهت الاتجاهات الأمريكية الرسمية نحو حقوق الإنسان فإن العكس تماماً حدث عند الحكومة السعودية.

«سمعت قصصاً مرعبة حول سجن الحاير»، يقول خالد الحبيشي وهو يشير هنا إلى سجن وزارة الداخلية جنوب الرياض، «لكن عندما دخلت إلى هناك اندهشت تماماً. كان فندقاً ذا خمس نجوم بالمقارنة مع غوانتانامو».

بعد ثلاث سنوات ونصف في كوبا ، كان الحبيشي ضمن الدفعات الأولى من السعوديين الذين عادوا إلى الرياض إذ وصل في يوليو 2005م توجّه مباشرة من المطار إلى زنزانة في الحاير.

«أبقانا الأمريكيون مقيدين ومعصوبي العيون حتى الدقيقة التي نزلنا فيها من سلم الطائرة، وكنّا خائفين مما كان ينتظرنا. لكن تعامل السعوديين كان لطيفاً ورقيقاً. لقد شعرنا أنهم يرحّبون بنا. أتذكّر وجبتي الأولى في الحاير: ساقي دجاجة كاملين ! في غوانتانامو لم يعطونا أبداً لحماً مع عظم. كانوا يخافون من تحويل العظام إلى أسلحة.

«سمحوا لنا في الحاير بالاتصال بعائلاتنا، وجاءت عائلتي لرؤيتي بعد أيام قليلة. كان هناك الكثير من الدموع. نادراً ما كنت أفكّر في عائلتي عندما غادرت إلى أفغانستان. لكن من يقف معك في وقت الشدة ؟ في النهاية تتعلّم الشيء المهم فقط. أحضرت لي وزارة الداخلية ثوباً لمقابلة أمي، ودفعوا لعائلتي تكاليف المكوث في الفندق قدر ما يشاؤون».

كان خالد من أول المستفيدين لما عُرِف لاحقاً ببرنامج الحكومة السعودية لإصلاح العائدين.

«كان عليّ أن أخضع للمحاكمة»، يقول خالد. «حُكِم عليّ بالسجن خمسة عشر شهراً بسبب جواز سفر مزوَّر، والخروج من الدولة بدون إذن. لكن ذلك انتهى الآن، أصبحت حُراً».

«سوف نساعدك»، قالوا لي، «بعد شهر، أعطتني الحكومة سيارة تويوتا كامري وأعادوني إلى عملي السابق كمهندس كهربائي. أصبحت أعيش في العالم من جديد».

مهندس هذا البرنامج التقدّمي الإصلاحي هو ابن وزير الداخلية الأمير الجادّ محمد بن نايف الذي يلبس النظارات دائماً. يشبه هذا الأمير، البالغ من العمر الثامنة والأربعين، مزيجاً من صورة أستاذ الرياضيات وصورة رجل دين إنجليزي. لا يبدو عليه أنه مدير أمني، لكنه أصبح رائداً في وسائل إصلاح ومعالجة الإرهابيين.

يتّجه خريجو غوانتانامو الملتحون بفرح إلى مجلس الأمير يوم الأحد تماماً كما تفعل وفود حقوق الإنسان التي تأتي من جميع أنحاء العالم لتستفيد من البرنامج التأهيلي الذي يحمل اسمه.

«هناك جانب طيّب وخيّر في كل واحد فينا»، يقول الأمير. «هؤلاء الشباب مرضى. نرى مشكلتهم كفيروس يصيب الدماغ».

ليس هذا تساهلاً من قبل الأمير.

«الأمن خط أحمر»، يقول الأمير ، «لا نسمح لأحد بتجاوزه. إذا فعلت فعليك أن تتحمل العقاب. كل متطرّف في برنامجنا خضع للمحاكمة وصدر عليه الحكم ونفّذه. من بين محتجزينا، هناك عشرون بالمئة ممن رفضوا التغيير. رؤوسهم مغلقة يصعب كسرها. يجب أن يبقوا خلف القضبان حتى يثبت للمحكمة أنهم صحّحوا فعلاً اعتقاداتهم الفاسدة. لكننا نساعد من يحتاج المساعدة ويبحث عنها: نستعين أحيانا بأطباء نفسيين، ونجلب لهم علماء دين يوضّحون لهم المواضع التي قرأوا فيها القرآن بشكل مختلف. نقيم لهم دروساً دينية كثيرة. نستعين أيضاً بأفراد أسرهم – الأب ، الأم، الزوجة، الإخوان، والأخوات. نحاول قدر استطاعتنا أن نحوّل تفكير المحتجز من شاب يريد الموت إلى شاب يريد الحياة».

عندما يُقتل شاب سعودي في عملية إرهابية أو يفجّر نفسه يستلم الأمير تحليل الـ (دي أن إي) ويأخذ سمّاعة الهاتف ليتصل بأسرته قبل نشر الأسماء.

أقدّم لهم التعازي أصالة عن نفسي ونيابة عن الحكومة. أحاول أن أبيّن لهم أن ابنهم هو مجرّد ضحية تم استغلاله من قبل متطرّفين شاذين. لا نريد أن يعتبروه بطلاً ، أو أن يكون قدوة حسنة لعائلته وقبيلته. البعض منهم يغلق سماعة الهاتف. والبعض الآخر يعاود الاتصال. نحن نعتني بكل هؤلاء العائلات. نحن نهتم بهم لأننا نعتقد أن الآباء والأمهات هم ضحايا أيضاً، ونحن نعرف أننا إذا لم نهتم فإن هناك آخرين سيحاولون فعل ذلك.

العائلة هي محور اهتمام برنامج الأمير محمد.

«هذه هي الطريقة التي يفهمها مجتمعنا وثقافتنا»، يقول الأمير، «في الغرب، يستقل الشاب عن عائلته عندما يصل إلى سن الثامنة عشرة. هنا يلتزم الرجل في الثلاثين من عمره بما يقوله أبوه أو أمه ، خاصة عندما يوافق جميع أفراد العائلة. يرى بعض الناس أن برنامجنا غير قاس— وأنه يجب أن يكون لنا غوانتانامو سعودية لعقابهم. لكن هذا ما تريده القاعدة. عندما يقول الناس إننا نفسد هؤلاء الشباب فإني أطرب لمثل هذه الموسيقى. لو طبقّنا الطريقة القديمة القاسية فإن الجميع سيتعاطف معهم وسيستفيد الإرهابيون من هذه النقطة لتجنيد الكثير من الشباب في الإرهاب».

عبّر الأمير عن حزنه ، وليس إحباطه ، عندما سمع في فبراير 2009م عن اثنين من خريجي التأهيل السعودي قد غادرا إلى اليمن بعد إطلاق سراحهما للالتحاق بخلايا القاعدة في الجزيرة العربية هناك. نشرت وزارة الداخلية قائمة «مطلوبين» لا تقل عن خمسة وثمانين متطرّفاً سعودياً يُعتقد أنهم خارج المملكة.

«وجود القاعدة في اليمن شيء خطير جداً»، يقول الأمير محمد، «هذا الأمر أشبه ما يكون بوجود أفغانستان على الحدود. هناك أربعمائة ميل من الجبال يستطيع أن ينسلّ منها الإرهابيون إلى جدة أو الرياض أو ابقيق (مقر مصانع تكرير البترول الرئيسي لأرامكو) خلال ساعات. إنه تهديد أمني كبير. لكننا مستعدون لهم. هذا هو عملنا. السبب الذي دفعهم إلى الذهاب للخارج هو الكفاءة الأمنية داخل الوطن. الآن يعرفون أننا نحن، وليس هم، من يعتمد على دعم ومساندة المجتمع – وهذه هي المعركة المهمّة فعلاً. أصبح لدينا إجماع وطني على أن الإرهاب شيء خاطئ. في الأشهر القليلة الماضية سلّم تسعة شباب أنفسهم لأن عائلاتهم أحضروهم إلينا. من يكسب المجتمع سيكسب هذه الحرب».

اعتمدت وزارة الداخلية، في شنّها لهذه الحرب على أسلوب جديد، الزواج. لا يعترف أي موظف سعودي بأن مشكلة الإرهاب في المملكة تعود إلى الإحباط الجنسي، لكن إذا منع النظام الاجتماعي الشباب في ثورة طاقتهم من الاتصال بالجنس الآخر في سنوات الشباب فليس غريباً أن يتحول احباطهم إلى الاتجاه نحو العنف. أحد أهم الأركان الأساسية في برنامج تأهيل المتطرّفين هو أن يتزوج «المستفيدون» من هذا البرنامج بأسرع وقت ممكن. تدفع وزارة الداخلية لكل مستفيد غير متزوّج مبلغ ستين ألف ريال (ستة عشر ألف دولار) كمهر، أو سعر يتم دفعه للعروس. ترتب العائلة هذا الزواج الذي قد يحضره الأمير محمد كل ما كان في استطاعته أن يقوم بذلك.

عندما أطلق سراح خالد الحبيشي من سجن الحاير في أوائل عام

2007م، لم يضيّع وقته سدى في البحث عن زوجة على نفقة الحكومة.

«كانت الحكومة طيبة معي»، يقول خالد. «فلماذا لا أكون طيباً معها؟».

يعيش خالد اليوم في جدّة في شقة جميلة بأثاث راق، وتلفزيون بشاشة مسطحة، وجهاز لصنع القهوة تقوم زوجته باستخدامه في إعداد الكابوتشينو له كل صباح. أما أفغانستان وغوانتانامو فقد أصبحا في ذاكرته البعيدة. هو الآن يستقل سيارة كامري التي اشترتها الحكومة له ليذهب إلى شركة الكهرباء كما يفعل أي مواطن سعودي عادي نشيط يعيش في حالة استقرار.

لكن ليس كل شاب سعودي ذهب إلى غوانتانامو وصل إلى مثل هذه النهاية السعيدة.

نشأ ياسر الزهراني في مزرعة جميلة في الطائف مطلة على مكة. كان هناك الكثير من الأغنام والماعز. تعلّم هناك ركوب الخيل ، وكان يحب ممارسة كرة القدم على ملعب الانجيلة الصناعية ذي الأرضية الخضراء الشاحبة أمام منزله. اشتُقَّ اسمه من الكلمة العربية «يسر» لأنه لم يصعّب الأمر على أمه لحظة ولادته ، وهي الزوجة الأكبر سناً لوالده طلال والذي كان على ذمته اثنتان.

«كان شاباً مضحكاً»، يقول أحد أبناء عمه. «كان لديه الكثير من الأصدقاء. لديه قدرة عجيبة على الإضحاك».

كان ياسر طالباً جيداً ولهذا لم يتوقع والده أن يتلقّى اتصالاً في 2001، بعد أسابيع من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. اتصل ياسر من كراتشي موضّحا أنه كسر جهاز الكومبيوتر التابع له وترك دراسة اللغة الإنجليزية في دبي لأنه يريد مساعدة المسلمين. رأى ياسر ، مثل الكثير من الشباب السعودي الملتزم ، أن أحداث سبتمبر بداية للجهاد الجديد. كان في طريقه إلى أفغانستان.

«أصابتني الدهشة»، يتذكّر طلال ضابط المخابرات في المباحث ذا اللحية السوداء، «لكني قبلت ذلك. أخبرني ياسر أن هذا واجبه تجاه الله. عرف ياسر أن عليه أن يذهب».

ثم بعد أشهر لاحقة ، رنّ جرس الهاتف مرة أخرى.كان موظف سعودي يتصل ليخبر طلال أنه قد تم إرسال ابنه إلى غوانتانامو — أحد عشرات السعوديين الذين سُلّموا للسلطات الأمريكية عن طريق قوات تحالف الشمال بعد المعركة الملحمية في جانجي.

«استيقظ أيها الحقير !»، «إذهب إلى الجحيم !»، «إخرس !»، «تعلّمنا هذه الألفاظ بالإنجليزية من الأمريكيين»، يقول أبو فوّاز ، وهو صديق تم القبض عليه مع ياسر بعد جانجي، «وجد الأمريكيون متعة في إيقاظنا في منتصف الليالي ، أو قطع صلواتنا. يبدو أنهم كانوا ينتقمون لأحداث سبتمبر يجعلوننا نقف في خط واحد لساعة — لمنعنا من دخول دورة المياه. يبول البعض منّا وهو واقف. حاولوا تخويفنا بالكلاب. قبل أن يأخذونا إلى غوانتانامو حلقوا رؤوسنا ولحانا. تلك كانت العلامة التي تخبرنا أننا سنسافر — عندما جاء الجنود وهم يحملون ماكينات الحلاقة».

وصل ياسر وأبو فواز إلى كوبا في نفس الأسابيع الأولى التي وصل فيها خالد الحبيشي. كشفت تسجيلات التحقيق التي أخذتها الحكومة الأمريكية أن ياسر ضلّل محتجزيه – لم يخبرهم أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ألهمته في الذهاب إلى الجهاد. أخبرهم أنه وصل إلى أفغانستان قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

«بعد أربع سنوات من التحقيق، لم يخبر ياسر الأمريكيين أي شيء»، يقول والده بإعجاب. «هذا ما أخبرني به أصدقاؤه». رفض الحديث إلاّ بوجود محام. «ولم يتمكن الأمريكيون من اتهامه بأي شيء. كان امرءاً ذا إرادة قوية وهذا ربما ما أدّى إلى نهايته».

في مايو 2006م. قرأ طلال تقريراً عن مشكلات في سجن غوانتانامو. وقعت مواجهة بين الحرس والسجناء الأمر الذي أدّى إلى إصابة ثلاثة سجناء. بعد أسبوعين، جاءه اتصال من الرياض ليخبره أن ابنه ياسر كان أحد الثلاثة – سعوديين ويمني – الذين «انتحروا».

«لم أصدّق ذلك. كان الربط بين الثلاثة المصابين والثلاثة «المنتحرين» سخيفاً. أخبرني أصدقاؤه أن ياسر كان هادئاً ومتفائلاً. كان هناك برنامج لإطلاق السجناء السعوديين. وقد غادر بالفعل العديد منهم وكان يأمل أن يكون في الدفعة القادمة. لماذا لم ينتظر أن يكون في تلك الدفعة؟ أعرف شخصية ابني – لن يقترف ذنب الانتحار. أخبرني في رسائله أنه كان يحفظ القرآن. «أنت تعرفني»، كتب لوالده: أنا مؤمن بالله».

«ادّعى الأمريكيون أن الثلاثة قد شنقوا أنفسهم في أماكن مختلفة من المعسكر في نفس الوقت – لكن كيف يمكن حدوث مثل هذا مع وجود كاميرات المراقبة في كل مكان أربعاً وعشرين ساعة يومياً؟ نحن نعرف أن الحرّاس يراقبون الأقفاص كل ثلاث إلى خمس دقائق».

وافق أبو فوّاز علي هذا الرأي على الرغم من أنه كان أحد السعوديين الذين أطلق سراحهم وأرسلوا إلى الرياض قبل موت ياسر.

«لا يوجد حبال في تلك الأقفاص: لا يمكن أن تجد طريقة يمكن أن تشنق نفسك فيها. علاوة على أن ياسر ذهب إلى أفغانستان بحثاً عن الجنة. الانتحار يؤدي إلى النار. هو يعرف ذلك».

عندما وصل طلال إلى الرياض ليستلم جثّة ابنه، قابله ثلاثة موظفين كبار من وزارة الداخلية (وكان طلال قد حصل على التقاعد المبكر في 2002م للاتجاه للتجارة).

«أخبروني بالقصة الأمريكية أنها عملية انتحار، ويبدو أنهم يريدون مني الاقتناع بهذا الرأي، أوضحوا لي أنهم لا يريدون أي إثارة خلف هذا الموضوع. كانت الحكومة تحاول بشدة، كما أخبروني، استعادة الشباب السعودي الموجود هناك من دون أي جلبة. لا ألومهم على هذا لكني أخبرتهم أنني لا أريد التعليق على هذا الأمر. احتجت أن أرى جثة ابني».

ذهب طلال إلى ثلاجة الجثث لإلقاء نظرة الوداع على جثة ابنه، وما رآه

هناك جعله يتأكد من الأمر.

«قبّلت ابني على جبينه. كانت لدي شكوكي قبل أن أرى الجثة. أما الآن فأنا متأكد تماماً. قلت: لا أقبل هذا الأمر. أنا أتّهم الأمريكيين».

لقد أُزيلت حنجرة ياسر.

«سيخبرك الطبيب الجنائي أنك إذا شنقت نفسك فلن تكسر حنجرتك. يتجه الحبل إلى أعلى الرقبة. لكن حنجرتك قد تنكسر إذا خنقك أحد».

وجدت لجنة من خمسة أطباء سعوديين بعد تشريح للجثة آثاراً على جسم ياسر تدل على وجود تعذيب، وكذلك جرحاً على الصدر قد يكون نتيجة لقتال أو شجار. كانت هناك آثار إبر على كتفه الأيمن تم حقنه بها وهو حيّ، لكن لم يكن ممكناً معرفة المواد التي تم حقن جسمه بها.

«نحن نعرف طريقة الأمريكان في استفزاز وإهانة السجناء العرب في أبو غريب. نفس الشيء حدث في غوانتانامو. أخبرني أصدقاء ياسر أن الحرس كانوا يدوسون على مصاحفهم القرآنية ويمزّقون أوراقها. لا غرابة أن يغضب المسلمون. أصبحت أمريكا ظالمة لنا. هم وحشيون ومسيطرون مثل السوفيات».

مُزّقت لحية ياسر من الجانب الأيسر، كما لو كان ذلك في شجار من نوع ما، كما أن هناك علامات حمراء داكنة على جلده. طلب الأطباء السعوديون من السلطات الأمريكية إرسال تقرير حالة التسمّم الذي يتم إجراؤه عادة

في وقت الوفاة: أرادوا تحديد كمية السّم في الجسم ، كما أنهم طلبوا أيضاً الدليل من كاميرات المراقبة.

بالنسبة لطلال وعائلته فقد كان هناك دليل دامغ على أن ياسر لم يمت بطريقة الانتحار غير المقبولة إسلامياً.

«عندما رأيت جثمانه في الرياض»، يقول طلال، «كان قد مضى على وفاته خمسة عشر يوماً ، لكنه كان يبدو كما لو كان نائماً. تفوح من جسمه رائحة عطرة. ثم، في تشييع جنازته بعد أسبوعٍ، ذكر أصدقاؤه والعائلة أيضاً نفس الشيء عندما ذهبوا ليقّبلوه. لم يتغير أبداً. حتى ذلك الوقت تم تبريد جسمه وتسخينه لإجراء عمليتي تشريح. عادة ، الجثة التي تبقى كل هذا الوقت تتغير رائحتها. لم ينتحر ابني. لقد كان شهيداً».

سَخِر طلال من فكرة أن الرائحة الزكية هي عبارة عن سائل تحنيط وُضِع على جسمه — كما رفض تقرير وفاة ياسر الذي أعدّته خدمة التحقيق الجنائي للبحرية الأمريكية الذي صدر في أغسطس 2008م.

«يتألف التقرير من ثلاثة آلاف صفحة»، يقول طلال، «وهذا يعني أنه ثلاثة آلاف كذبة».

يصف أولئك المحققون الأمريكيون أنهم وجدوا أوراقاً في كيفية الانتحار مشابهة للطريقة التي ماتوا بها في جيب ياسر ، وفي جيوب الرجلين الآخرين اللذين ماتا أيضاً ، وهو ما وجدوه كذلك في جيوب عدد من السجناء

الذين لم يقدموا على الانتحار – وهذا دليل – من وجهة النظر الأمريكية، على «اتفاقية انتحار جماعي منسّق».

«رفضوا إبراز هذه الأوراق التي يقولون إنهم وجدوها مع ياسر لنا»، يقول طلال، «إذا لم أر اعتراف ابني بخط يده فلن أصدّق أنه انتحر. تعرف عائلتي أنه مات وهو يقاتل – كان شهيداً».

تقدّم الصورة التي تحتفظ بها أم ياسر في هاتفها الجوال دعماً غريباً لما يؤمن به طلال. لا يبدو ياسر الزهراني أنه مجرد جثة وهو مستلق على النقّالة بجانب المسجد النبوي في المدينة بعد ثلاثة أسابيع من موته ووصول رحلته من الجانب الآخر من العالم. يبدو في الشاشة الصغير نائماً فقط. تقبّله أمه كلما فتحت صورته الرقمية.

«صلّينا عليه»، يقول ابن عمّه محمد، «ثم دفنّاه في المقبرة المشهورة بجانب المسجد التي دُفِن فيها أصحاب الرسول. دُفِن هناك جميع زوجات الرسول ما عدا خديجة، كما دفن أيضا هناك جميع بناته. كانت جنازة متميزة تبعها مئات المشيّعين».

يجلس الرجال صامتين على الكراسي المصفوفة وعلى السجاد في مجلس العائلة وهم يمرّرون بهدوء الرسائل التي كتبها ياسر من غوانتانامو – أوراق مسطّرة أرسلت إلى الوطن عبر الصليب الأحمر في جنيف مطبوعاً عليها عبارة «تم التصريح لها من قبل القوات الأمريكية» من الخلف.

«أعرف أنني لا أستطيع أن أعيده إلى الحياة»، يقول طلال، «لكن سيكون تخليداً لذكراه أن نرى إغلاق معسكر غونتانامو. إذا كان القانون غائباً هناك، كما يقول الأمريكان، فلماذا وضعوا ذلك المكان في دولة أجنبية؟».

بعد أن ذهب ياسر إلى غوانتانامو أرسل إلى أبيه رسالة، فقام أبوه بالردّ عيها.

«أخبرته: يا إبني عليك بالصبر والانتظار. حاول أن تساعد المحققين والحرّاس وكل شخص على معرفة الله. أخبرني أصدقاؤه أنه كان يقوم بذلك حتى النهاية. كان إماماً يقود الصلاة في مجموعته. مهما قال له الأمريكان ومهما عملوا به، كان لياسر إجابة واحدة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

الفصل الثامن والعشرون



الملك عبد الله

في الأول من أغسطس 2005م، وبعد سنوات من العجز والمرض وشهور في العناية المركزة ، توفي الملك فهد (1930-2005م). انتهت الحياة التي بدأها أمير تقدّمي لامع نهاية حزينة قضى فيها عقداً من الزمن في حالة ركود هو ودولته. تعمل شراكة الإخوة الذين حكموا السعودية منذ عام 1953م بشكل أفضل عندما يكون هناك قائد قوي يحشد الإجماع حوله ويمضي قدماً في الطريق.

«لم يكن ملك الموت رحيماً مع جلالته»، يقول أحد الأعضاء القريبين منه، «ولا رحيماً معنا. كان عليه أن يأتي قبل عشر سنوات».

وُضِع جثمان فهد على النعش مربوطاً بقماش وحُمِل إلى المقبرة ، ودُفِن هناك بحسب العادة الوهابية في قبر غير مُعلَّم. أصبح عبد الله بن عبد العزيز ملكاً أخيراً فابتهج الناس بهذا التغيير في الأسلوب والطريقة.

شهد الديوان الملكي ذلك الصيف مسرحية هزلية عندما كان الأمراء يستعدون لقضاء إجازاتهم في الخارج.

«سوف نسافر قريباً»، كانوا سيقولون لعبد الله مخبرين إياه عن وجهتهم التي سيسافرون إليها فيرد عبد الله عليهم بإيماءة رشيقة وتمنيات لهم بقضاء أوقات جميلة. يعرف تماماً ماذا يريدون. كان من عادة فهد أن يسلّم أقاربه ظروفاً تحتوي على ملايين الدولارات لإنفاقها على إجازاتهم، وبعد موت الملك قرّر أحد أعضاء العائلة الجريئين أن يذكّر الملك الجديد بهذه العادة.

رمقه عبد الله بنظرة ذابلة ولم يقل شيئاً. لكن بعد أيام قليلة أرسل رسالة إلى العائلة معلناً فيها نهاية عصر ظروف الإجازات ومشجعاً على فضيلة أن يعيش المرء على حسب طاقته. تناقص أسطول الطائرات الملكية من أربع عشرة طائرة إلى خمس فقط، كما أوقف أيضاً التذاكر المجانية على الخطوط السعودية. لم يستجب الملك عبد الله لطلبات اختيار طائرة خاصة له وإنما اكتفى بالطائرة التي كان يستعملها كولي للعهد.

يجد الصحفيون انجذاباً إلى مثل هذا التوفير والتقشف الاقتصادي عندما يكتشفونه –لكن مثل هذه القصص الإخبارية لا تجد طريقها إلى الصحف السعودية– أعلنت وزارة الإعلام، كما في السابق، أنه يمكن لرؤساء التحرير والمراسلين والمصورين مرافقة الحكومة على الطائرات الملكية الرسمية، لكن ليس بالمجّان. رؤساء التحرير ضيوف على الملك –لكن على الإعلاميين الآخرين دفع ثمن أجرة طائرة في الدرجة الأولى– مقدّماً.

الإمام ومُزارع النخيل

كان هناك مزارع ورث بستاناً من النخيل المريض المتكسّر فحاول جاهداً أن يعيد إلى النخيل حيويته. قام بتكريبه وتهذيبه ورعايته ووضع سماد الإبل في أحواضه وأغدق عليه الماء — فكان نتاجه بعد سنة محصولاً وفيراً من التمر الحلو اللذيذ.

«ما أروع محصول هذا العام!» قال إمام القرية الملتحي وهو يومئ برأسه بسعادة بالغة وهو يمشي بجانب البستان في أحد الأيام، «الحمد لله!».

«فعلاً — الحمد لله»، ردّ عليه المزارع، «كان ينبغي عليك رؤية المحصول عندما كان الله وحده هو الذي يقوم بالعمل!».

بعكس سلفه الذي كان «يختفي» أحياناً لأسابيع ، يعمل عبد الله بجد ونشاط بجدول منظم يمكن التنبؤ به رغم غرابته أحياناً.

«جميعنا يعمل في نفس الجدول»، يقول أحد مستشاريه الشباب وهو يهز رأسه بحزن.

ينام الملك الجديد مرتين يومياً. المرة الأولى بين العاشرة تقريباً في المساء والواحدة صباحاً حيث يستيقظ لفترة عمل نشيط في الساعات الأولى من الصباح. ثم بعد صلاة الفجر يخلد إلى النوم مرة أخرى ليستيقظ حوالي الساعة التاسعة. كان يقضي في سنوات الشباب جزءاً من وقت

الصباح في بركة السباحة يجدّف يميناً ويساراً وطولاً وعرضاً بحسب تعليمات الأطباء للحفاظ على صحته، وكان يجد الوقت الكافي للقيام بالعمل الرسمي المطلوب منه في ذلك الوقت. يقوم المساعدون بإحضار الأوراق فيقوم ولي العهد على جانب البركة لدراستها واتخاذ القرارات بشأنها والماء يتقاطر بنعومة في ضبابٍ من بخار الماء الكلوري. لكن مع ازدياد مسؤولياته توقفت هذه الطقوس. تعلّم عبد الله أهمية فصل العمل عن الاسترخاء. لكن الأوقات التي كان في السابق يقضيها الأمير في بركة السباحة لا تنبئ عن نفاد صبره الوراثي: بدون تأخير ، شكراً ، دعونا ننجز أعمالنا.

كان محور اهتمام عبد الله القديم هو تنمية الشعور الوطني ، تحت تأثير من مستشاره الذي يفهم التاريخ عبد العزيز التويجري أو «تي — ون». استطاع عبد الله والتويجري تأسيس مهرجان فلكلوري في السبعينات والثمانينات بالقرب من سباق الهجن السنوي في الجنادرية شمال شرق الرياض وهم بذلك يردون بهدوء على الادعاءات الوهابية بأنهم محور الحكومة السعودية. يمتلك عبد الله مزرعة بالقرب من ميدان السباق وكان رجال القبائل وملّاك الإبل يجتمعون في شهر فبراير لحضور سباق الإبل الذي كان يضاهي سباق كينتاكي ديربي للخيول، فكان يدعوهم لزيارة عروض الرقص التقليدية ومعارض الحرف اليدوية والطبخ الشعبي. نجح مثل هذا الاجتماع السنوي إذ كان من الصعوبة أن تجد في السعودية بعد جهيمان طرقاً عامة مشروعة للاستمتاع والاستجمام. فجاءت الأفواج والحشود من جميع أجزاء المملكة. تطوّر المهرجان كثيراً وبسرعة وعندما بدأ التويجري بدعوة المفكرين المشهورين لتقديم أفكارهم ، أصبح المهرجان فكرياً بالدرجة الأولى.

من وجهة النظر الوهابية ، هذا المهرجان مدمّر على نحو خطير. جاء الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري (1936-2010م) الذي غيرت أعماله تفكير منصور النقيدان، لمناقشة تمكين العقل إذا أرادت الثقافة العربية النجاة في العالم الحديث. تمت دعوة الجزائري محمد أركون لتعزيز دفاعه عن الإسلام الإنساني المتسامح – وهو فيلسوف آخر يلعب بالكلمات بطريقة تحرمها المؤسسة الوهابية. بدأ ولي العهد منطلقاً من فكرة بسيطة حول سباق الهجن، في توفير فضاء حرّ يتوازن مع السيطرة المدمرة للدين على الثقافة السعودية، وكان من الصعب على علماء الدين أن يردّوا على شيء يقوم هو برعايته. يعتبر المهرجان المكان الوحيد في المملكة الذي يرقص فيه الرجال والنساء جميعاً في مكان عام، لكنهم كانوا يرتدون اللباس الوطني، وبيّن التويجري عملياً أن الموسيقى والرقص جزء من التقليد القبلي القديم. عُرِض الفن المحلي والحرف اليدوية للقطيف في الجنادرية من قبل ما يُعرف وهابياً بالرافضة. لكن هذا غير مهم بالنسبة لقيم المهرجان التي تؤكد على التنوع بما فيه التنوع الديني وهو أمر وجد الترحيب من قبل الأوساط الوطنية. من يختلف مع هذا الاتجاه المتنوع؟

المجال الوحيد الذي وجد فيه رجال الدين تشجيع عبد الله للأفكار العلمانية هو الاحتفال باليوم الوطني في 23 سبتمبر، وهو اليوم الذي أعلن فيه الملك عبد العزيز قيام الدولة السعودية في عام 1923م. فقط الله هو الذي يمنح الإجازات للمسلمين، حسب ما تقوله وجهة نظر العلماء. يوضح حديث معروف كيف أن الرسول وبّخ أتباعه عندما وصل إلى المدينة ووجدهم يحتفلون في عيدين دنيويين محليين كانوا يحتفلون بهما «أيام الجاهلية».

«لقد أبدلكم الله بهما خيراً منهما »، يقول الرسول، «عيد الأضحى (يوم الأضحية في نهاية موسم الحج) وعيد الفطر (الإفطار بعد صوم رمضان)».

هذان العيدان الدينيان هما الوحيدان المعترف بهما في السعودية، ولعدة أجيال قاوم المشايخ بنجاح محاولات إضافة الثالث والعشرين من سبتمبر إلى القائمة غير الطويلة من العطل الرسمية. لكن مع وجود عبد الله تغيرت المعركة. إذا أراد الملك إجازة فإن الملك يستطيع منحها ومهما تذمّر علماء الدين فإن الشعب سيوافق. منذ 2006م أصبحت ليلة الثالث والعشرين من سبتمبر مناسبة للاحتفال الوطني في السعودية حيث تمتلئ الشوارع بالسيارات التي تحمل الأعلام الخضراء، بل إن البعض منها رُشّ بالطلاء الأخضر.

الشعب هو صوت عبد الله. هو أول حاكم سعودي يصدر أوامره بالانتخابات. التصويت الذي جرى في ربيع 2005م كان للمجالس البلدية المحلية التي تفتقر إلى قوة السلطة —وكان فقط لنصف المقاعد— أما النساء فلا يحق لهن الترشح أو التصويت. لكن الناخبين الذكور استفادوا من هذه الفرصة في تناول كميات كبيرة من اللحم لمدة ثلاثة أسابيع ، وذلك بسبب أن العملية الانتخابية أثبتت أنها تدور فقط حول اللحم والخيام. ومع اقتراب موعد التصويت تحولت المواقف الشاغرة والساحات الخالية من العمران إلى مخيمات مطرزة بالأعلام استخدمها المرشحون كمقار لهم يدعون المصوّتين ويقدمون لهم جبالاً من الأرز واللحوم.

«كان وقتاً ممتعاً»، يتذكر أحد المرشحين الليبراليين الذي خسر

الانتخابات، «لمدة ثلاثة أسابيع كانت الجرائد تحمل الكثير من الصور والأخبار عن السعوديين من غير العائلة المالكة –نحن المرشحين– أكثر مما تحمل عن الأمراء والوزراء. أحسست ولو لفترة قصيرة أنني أمتلك وطني».

أثبتت نتائج التصويت صحة ما توقعه فهد عند الانتخابات –الإسلاميون هم من كسب الانتخابات[1]. خسر المرشحون الذين يميلون إلى الأفكار الغربية أو تدور حولهم شبهات العلمانية وأفسحوا المجال للمحافظين المتشددين الذين حصلوا على موافقة المؤسسة الدينية المحلية. اختار الأئمة والمشايخ «قائمة ذهبية» تضم مرشحين متوافقين دينياً معهم وتم إرسال هذه القائمة للمصوتين على هواتفهم الجوالة – لا تكون رسائل الجوال من البدعة إذا كانت في سبيل الله. كما مثل التصويت دعماً إحصائياً للرأي الذي كان يقول به المراقبون طويلاً وهو أن آل سعود، يدعون إلى تغيير علماني غربي في مملكة متوجسة حذرة.

«كم عمر الديمقراطية في بلدكم؟» سأل عبد الله صحفيا فرنسيا شكك في هوس التصويت السعودي الذي استمر فترة قصيرة، «وكم استغرقت من الوقت حتى وصلت ديمقراطيتكم إلى وضعها الحالي؟ نحن أيضا سنصل بإذن الله».

عملية التصويت التي حارب من أجلها عبد الله طويلاً كانت داخل عائلته حيث بحث طويلاً عن إيجاد الشفافية في الطريقة التي يصل فيها الملوك

---

1 - في القطيف ، فاز الشيعة بسهولة بسبب الحملة المنظمة التي قادها جعفر الشايب وزملاء المنفى مع الشيخ حسن الصفّار.

السعوديون وأولياء العهد إلى السلطة. منذ القدم وكما في العائلات الأميرية في الخليج، يختار آل سعود قادتهم بالطريقة البدوية: اجتماع سرّي لكبار العائلة يقررون فيه الشخص المناسب للسلطة. لا يوجد انتقال تلقائي للسلطة بحسب وراثة الدم. هذا الأمر مشابه لما كان يحدث لملوك الأنجلو ساكسون في بريطانيا حيث يقرر مجلس العائلة مجموعة من الأمراء —المرتبطين بالعائلة عن طريق قرابة الدم ومؤهلين لبلوغ العرش— ثم يقررون بعد ذلك الشخص الأكثر تأهيلا للعرش من بينهم. ولهذا فإن ألفرد العظيم الذي أنقذ ديسكس وانجلترا من الفايكنجز في نهاية القرن التاسع الميلادي تم اختياره على حساب ابن أخيه الأكبر منه سناً اثرلاند، لأنه كان يتمتع بخصائص قيادية أفضل.

بنفس الطريقة، تجاوزت مجالس آل سعود العائلية بعض المرشحين مثل محمد، وهو الأخ الأكبر العنيف لخالد، وأبعدت الملك سعود عن السلطة في عام 1964م. القانون الثابت الوحيد هو ما وضعه فهد في قانون الحكم الأساسي الذي أسس منه مجلس الشورى في عام 1992م. وهو أن الحكم يجب أن يمر عبر أبناء الملك عبد العزيز البالغ عددهم خمسة وثلاثين وتكون أحقيتهم حسب العمر ويتم الحكم على كفاءتهم عن طريق نظرائهم. وهذا هو مربط الفرس.

عمل عبد الله على تطوير مجلس انتخابي عائلي عرف بنظام «مجلس البيعة». وجاء هذا الاسم ليعني العملية التي يبايع فيها الأفراد والمواطنون والسعوديون الملك الجديد. يمتلك كل ابن من أبناء الملك عبد العزيز صوتاً واحداً يستخدمه الابن بنفسه خلال حياته، أو أحد أبنائه أو أحفاده بعد وفاته أو في حالة تقلّده منصب الملك أو ولي العهد. هذا يعني أن مجلس

البيعة يضم خمسة وثلاثين عضواً في وقت تشكيله ، وقد نقص إلى أربعة وثلاثين بعد وفاة فوّاز بن عبد العزيز ، على اعتبار أنه لا يوجد أي أبناء لفواز. عمل المجلس هو الاجتماع بعد وفاة الملك أو ولي العهد لتحديد الخليفة والحكم على حالات العجز الطبي التي قد يعاني منها من كان في السلطة إذا مات عبد الله قبل سلطان فإن سلطان يصبح ملكاً وسيطلب من مجلس البيعة الموافقة على اختيار ولي للعهد. إذا مات سلطان قبل عبد الله فإن عبد الله سيطلب من مجلس البيعة الاجتماع أيضا. في كلا الحالين سيقدم الملك ترشيحه الشخصي لولي العهد، لكن أعضاء المجلس يملكون سلطة رفض ترشيحه واختيار مَن يتفقون عليه.

أرضت هذه الوظائف الروتينية للمجلس الملك عبد الله، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لعدد من الأمراء التقليديين –الذين تحفّظوا على فكرة إطلاع الناس على مناقشات واختلافات العائلة الداخلية. اجتمع الإخوان في إحدى ليالي رمضان لمناقشة هذا المشروع، ومع اقتراب صلاة الفجر وصل النقاش إلى طريق مسدود؛ ثم تكلم الأمير نايف. يعتقد الكثير أن وزير الداخلية من المحافظين كما أنه في مخيلة الجميع معارض لعبد الله– لكن ليس في هذه المناسبة.

«يبدو لي هذا الأمر معقولاً تماماً»، قال نايف وهو يوافق على ما قاله الملك ورافضاً فكرة مواصلة النقاش في مناسبة أخرى، «يجب أن نقوم بذلك الآن».

ومع بداية أذان الفجر ، أرسلت العائلة الملكية أخبار إنشاء المجلس إلى وكالة الأنباء السعودية الرسمية التي نشرته في الرابعة صباحاً. استمع

مشاهدو التلفزيون السهارى إلى طرق تصويت المجلس يشرحها مراسل اخباري بشكل موجز بينما كان الصبح يتنفس خلف ظهره.

بعد سنة، وفي التاسع من ديسمبر 2007م، اجتمع مجلس البيعة في جلسته التأسيسية في دائرة تعبق برائحة البخور وتتزين بالعباءات الذهبية المطرّزة. كان هناك الكثير من تقبيل الأنوف والأكتاف – عندما يجتمع أفراد العائلة يعبّر الجميع عن احترامهم لبعضهم البعض بحرارة كبيرة. كان هناك ثمانية عشر ابناً حياً لعبد العزيز[2]، وقد شاهدوا أبناء التسعة عشر أخاً يتقدمون إلى الأمام، مجموعة تلو أخرى، ليعلنوا الاسم الذي اختاروه ليمثلهم في تنفيذ صوت والدهم المتوفّى. كانت مناسبة مثيرة. اختار أبناء فيصل أخاهم خالد، المتحدّث الجيد والأمير الإصلاحي لمكة، واختار أبناء سلطان أخاهم خالد، بطل حرب الخليج ؛ بينما مثّل محمد بن فهد أبناء الملك الراحل.

---

2 - يتقدم أبناء عبد العزيز الثمانية عشر الملك عبد الله (ولد عام 1923م) وولي العهد سلطان (ولد عام 1924م) وهما ليسا من أعضاء مجلس البيعة (لكن أبناءهما يمثلانهما – أنظر أسفل الصفحة). رئيس المجلس مشعل بن عبد العزيز ، بالإضافة إلى خمسة عشر عضواً من الأبناء هم على الترتيب: عبد الرحمن، متعب ، طلال، بدر، تركي (يعيش في مصر) ، نايف ، فواز، سلمان، ممدوح، عبد الإله، سطام، أحمد، مشهور، هذلول، ومقرن بن عبد العزيز. لم يحضر ثلاثة أمراء بسبب المرض هم بندر، مساعد، ونواف بن عبد العزيز – الذين فوضوا أماكنهم وأصواتهم لأبنائهم. مات فواز في عام 2008 من دون أي أبناء، أي أن أعضاء المجلس قد تناقصوا إلى أربعة وثلاثين عضوا. أما الأحفاد التسعة عشر فهم: محمد بن سعود، خالد بن فيصل ، محمد بن سعد، تركي بن فيصل بن تركي الأول (لعبد العزيز ولدان اسم كل واحد منهما تركي، إذ مات الكبير منهما في 1919م) ، محمد بن ناصر، فيصل بن بندر، سعود بن عبد المحسن، محمد بن فهد، خالد بن سلطان، طلال بن منصور، خالد بن عبد الله، محمد بن مشاري، فيصل بن خالد، بدر بن محمد، فيصل بن ثامر، مشعل بن ماجد، عبد الله بن مساعد، فيصل بن عبد المجيد، وعبد العزيز بن نواف. أعلن في فبراير 2009م وفاة الأمير تركي بن فيصل بن تركي الأول. وحتى موعد ذهاب هذا الكتاب للمطبعة في أغسطس 2009، لم يتم الإعلان عن بديل له.

هنا نحن أمام ملوك وأولياء عهد المستقبل الذين لم يتم اختيارهم بعد – وهو دليل واضح على أن آل سعود، بشروطهم الخاصة، قادرون على الالتفاف سوياً والاجتماع لتأدية الدور الذي قاموا ويقومون به دوماً.

السؤال هو هل ستنجح السعودية في ذلك؟ لقد نجت المملكة من السنوات العجاف التي فرضتها طبيعة الظروف في عهد فهد –لكن الهجمات الإرهابية المتطرفة في عام 2003م علّقت جرس الأخطاء– مئات الشباب الذي يعبّرون عن اختلافهم مع الآخرين عن طريق تفجيرهم ويقف خلفهم عدد لا بأس به من أشخاص أكبر منهم يتحدّثون نيابة عن الله في إصدار فتاوى القتل والتهديد. تسبّب الدين بالكثير من المشاكل. وكما قال الملك عبد الله: «لم يكن الإرهاب والإجرام ليظهرا لولا اختفاء مبدأ التسامح». لقد شلّت السعودية نفسها بسبب انتشار ثقافة اتهام الآخر.

حاول عبد الله تغيير هذه الثقافة عن طريق افتتاح اللقاء الأول للحوار الوطني في يونيو 2003م. أخذ الحوار الوطني طابعاً رسمياً بوجود أمانة عامة ونظام عمل كامل، وقد كان إحدى ثمار هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وعُقِد أول اجتماع له بعد عدة أسابيع من بداية هجمات القاعدة في الرياض. وجّه الملك عبد الله في خطاب للجلسة الافتتاحية المجتمعين والمشاركين ونصحهم بالحديث بشكل مهذب وحضاري مع الآخر «واحترام آراء الآخرين». ومن أجل إرضاء العلماء الذين كانوا يخشون أي منتدى منافس لهم، خُصّص الاجتماع الأول لعلماء الدين. لكن لم يكن جلّهم من الوهابيين. دُعِي إلى هذا الاجتماع علماء الدين من الشيعة، والصوفية،

والاسماعيلية، والمالكية[3] -الأمر الذي أدى بسفر الحوالي ، وهو أحد علماء الصحوة، إلى رفض الدعوة. لقد شجب مشاركة هؤلاء «الضالين» فأرضى بذلك المواقع الإلكترونية المتشددة. ومع ذلك فقد شارك نظيره الصحوي الآخر سلمان العودة بحماس في الحوار واستمع باحترام كبير للوفود الأخرى – بل إنه عرض على القائد الشيعي الشيخ حسن الصفار أن يوصله بسيارته بعد الاجتماع. ولقد عبّرت صورة اجتماع الشيخين الملتحيين يتحدثان مع بعضهما ، أحدهما بشماغ من دون عقال، والآخر بعمامته، عن الرسالة التي كان يبحث عنها الملك عبد الله.

تحدث مساعدو الملك عن رغبة رئيسهم في بناء «مؤسسات المجتمع المدني». لكن لا يمكن صناعة الديمقراطية في الهواء. حدّد الملك عبد الله عشرين سنة كوقت يمكن فيه تحقيق حرية راشدة للجنسين في المملكة بحيث يستطيع الناس بشكل تدريجي ممارسة حقوقهم الديمقراطية باحترام. رد عليه الساخرون بالقول إن عشرين سنة قد تتحول إلى مائتي سنة، لكن عبد الله يحتفظ بالكثير. في عام 2005م أنشأ عبد الله لجنتين، وليس واحدة، لحقوق الإنسان، إحداهما رسمية حكومية، والأخرى مستقلة –وقد شكك البعض في ذلك خاصة وأن دعمها المالي يأتي من الحكومة– وقد أدّى ذلك بمنظمة العفو الدولية وهيئة حقوق الإنسان أن يرسلا مفتشيهما إلى الرياض.

3 - لتبسيط الأمر، المسلمون الصوفية روحانيون، والاسماعيلية يرجعون إلى آغا خان، والمالكية هم إحدى المدارس المذهبية الأربع في الإسلام والتي تتميز بطريقتها الخاصة بالصلاة حيث يسبلون الذراعين وينظرون إلى الأمام أثناء أداء الصلاة، بينما ينظر المسلمون الآخرون إلى موضع سجودهم.

الإصلاح المهم الذي يسعى الملك إلى تحقيقه هو إكمال العملية التي بدأها فهد قبل إصابته بالجلطة في الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية. هذا يعني في السياق التجاري إزالة التعرفة الجمركية التمييزية، وخاصة التخفيضات على شركاء النفط الأمريكيين الذين أسسوا أرامكو. والأكثر من ذلك الالتزام أو فرض تنفيذ اثنين وأربعين قانوناً لازماً لتطبيق المعايير الدولية في التحكيم، والشفافية المالية، والعمليات القانونية، وحماية الحقوق الفكرية في غابة الممارسات التجارية السعودية. وكنتيجة لهذه الإصلاحات قفزت الفعالية التجارية السعودية، بحسب دراسة الشركة المالية الدولية التابعة للبنك الدولي، بسرعة الصاروخ من المركز الخامس والثلاثين في العالم إلى المركز السادس عشر، وهو أعلى مرتبة في الشرق الأوسط. تعجّب رجال الأعمال الأجانب الذين يصارعون التأجيل والبيروقراطية على الأرض من المعايير التي وضعت السعودية في مركز أفضل من ألمانيا (الخامس والعشرين) وفرنسا (الحادي والثلاثين) كأماكن مفضلة في ممارسة التجارة، لكن التحسن كان ملموساً وواضحاً من وجهة النظر السعودية.

النتيجة الأخرى للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية (قبل روسيا وإيران، لكن خلف دول الخليج العربية) هي انفتاح المملكة العربية السعودية للاستثمار الأجنبي. هذا الأمر أدّى إلى بروز خطة مستقبلية لبناء ست «مدن اقتصادية» في المملكة ببنايات ضخمة من الفولاذ والزجاج تطل على العالم مثل دبي وأبو ظبي وتكلّف مئات ملايين الدولارات. عبّر بعض السعوديين عن قلقهم إزاء مثل هذه المشاريع المقلّدة غير السعودية كأساس للتنمية الوطنية. في الوقت الذي عجز فيه نموذج «دبي» الذي يعتمد على الانفاق الضخم والقروض الكبيرة عن الصمود أمام المشكلات الاقتصادية لعامي

2008 – 2009 تماسك النظام المالي السعودي المحافظ ولم يتأثر بتلك الأزمة. بلغ الدَّين العام المحلي (لا يوجد ديْن أجنبي) 13 بالمئة من ناتج الدخل العام، بـ 513 بليون دولار كأصول أجنبية، الأمر الذي وضع المملكة العربية السعودية في المركز الثالث عالمياً بعد الصين واليابان.

لكن المدن المستقبلية، لو تم بناؤها ، ستظل تقليدية في جانب واحد على الأقل – وهو أن الأرض للمدينة الأولى، وهي مدينة الملك عبد الله الاقتصادية، على ضفاف البحر الأحمر وتبعد مسافة ساعتين شمال جدة، تعود إلى ملكية أفراد العائلة المالكة من بينهم عبد العزيز بن فهد والأمير بندر، اللذين سيصبحان شريكين أساسيين في المشروع.

هناك الكثير الذي يستطيع أن ينجزه ملك إصلاحي واحد، في دولة تحيط بها العادات المقيِّدة ويسكنها أكثر من ثمانية عشر مليون مواطن وعشرة ملايين أجنبي (خمسة أو ستة ملايين نظاميين والبقية غير شرعيين)، لكن الملك عبد الله ما يزال يحاول. قلق كثيراً أحد المفكرين والكتّاب الجريئين –عضوٍ في مجلس الشورى– عندما تم استدعاؤه لمقابلة الملك بعد أن نشر مقالاً انتقد فيه بطء عملية الإصلاح. هناك الكثير من العقبات أمام عملية التحديث، يقول الكاتب – البيروقراطيون الكسالى، الواسطة (تأثيرات النخبة أي فساد الأمراء والتجّار) وكذلك المؤسسة الدينية: المشايخ الذين يقفون في وسط الطريق.

«مقال جيد»، قال عبد الله مشجّعاً، «يجب أن تكتب الكثير مثل هذا».

«شكراً يا طويل العمر»، ردّ عليه الكاتب وهو يشعر براحة شديدة بعد أن ذهب عنه الخوف من التوبيخ، «لكن يجب أن أخبركم أنني تعرّضت للتهديد بسبب ما قلته».

منصور النقيدان وأي شخص يُعتقد أنه يحاول التقليل من شأن المؤسسة الدينية، استقبل هذا الكاتب الصحفي عشرات الرسائل العدائية، بل وحتى التهديد بالقتل على هاتفه الجوال خلال ثمان وأربعين ساعة من نشر مقاله.

«أنا مستعد لكتابة مقالات أخرى مثل هذا»، قال بتردد، «لكن لو كتبتها فمن سيقوم بحمايتي؟».

كانت هناك فترة صمت قصيرة، ثم نظر إليه عبد الله في وجهه ولحيته السوداء مرفوعة لأعلى.

«أنا»، قال له وهو يضع يده اليمنى بصوت مرتفع على صدره أحدث صدىً في المكان. «أنا – عبد الله بن عبد العزيز».

بعد ذلك نادى عبد الله على سكرتيره الخاص ليأخذ اسمه ويسلّمه الرقم الهاتفي الملكي لقصره الخاص يكلّمه متى شاء.

الفصل التاسع والعشرون



بنات السعودية

تعمل سوزان المشهدي في أحد المراكز المتقدمة في إعادة تأهيل مدمني الكحول والمخدرات في جدة. في الوقت الذي يحظر القانون السعودي المخدرات والكحول بشدة — يتم إعدام تجار المخدرات بشكل روتيني — تقوم الحكومة السعودية أيضا بتبني اتجاه علاجي داعم للمدمنين الذين يرغبون في التحرر من قيد إدمانهم. سوزان أحد أعضاء فريق الخدمة الاجتماعية حيث تقوم بالاتصال مع النساء اللواتي يرتبطن بصلة قرابة مع المرضى الذكور.

«لايحلمن أبداً في التعبير عن مشاكلهن مع رجل»، تقول سوزان، «كما أن ما يساعدني في عملي أن لهجتي تبدو مصرية».

سوزان هي ابنة رجل سعودي وأم مصرية وقد أخذت بعض مصطلحاتها من أمها. على سبيل المثال، يقول السعودي «ما أعرف» بينما المصري يقول: «ما عرفش».

«عندما يستمعن إليّ أتحدث مثل الأجانب، تجد النساء راحة في ذلك

فيفتحن لي كل شيء. يخبرنني بأسرار لا يجرؤن على إخبارها لأي زميل سعودي. يذهب الخجل منهن بعيداً، وأحياناً نستمع إلى الحقيقة للموقف الذي نحن بصدده».

شكّل التعامل مع الخجل والنفاق في حياة سوزان المشهدي العملية فهمها للمعركة السعودية الأساسية - معركة التعامل مع الجنسين. كتبت عموداً صحفياً في بداية 2007م، في جريدة (الحياة)[1] بعنوان «أنا أسود وأنت أبيض». وقد اشتقّت عنوانها من الثياب البيضاء الأنيقة التي يلبسها الذكور السعوديون وتساعدهم على تحمّل حرارة الشمس بينما النساء السعوديات يبقين تحت حرارة الشمس بثيابهن السوداء الخرقاء التي يلبسنها - كما لو كنّ في حداد على فقدان شخصياتهن واستقلاليتهن.

«أنت الحلم الأول لكل أب حتى يتباهى بك»، كتبت سوزان وهي تخاطب مستمعاً متخيَّلاً من الذكور، «أنت حبّ الأم الأول لأن تشريفك قد يلغي زواج والدك الثاني بحثاً عنك. أنت تسمع اسمك كل يوم في زهو حين يكنّون والديك «أبو فلان» و «أم فلان» وأنا محرومة من سماع اسمي وكأنني غير موجودة أصلاً».

هذا التمييز بين الأسود والأبيض، تكتب سوزان، يستمر من لحظة الولادة ومروراً بحقوق الطلاق التي يمتلكها الرجل ورعاية الأطفال وحتى الموت نفسه.

1 - أصبحت جريدة الحياة منذ عام 1990م في ملكية الأمير خالد بن سلطان.

«أنت تستطيع أن تتزوج بعد وفاتي مباشرة وبترغيب من المجتمع جدّد الله فراشك. أما أنا فسوف أتّهم بقلّة الأصل لو فكّرت مجرّد تفكير في الزواج – هذا غير احتقار وكره الأولاد لاعتقادهم أن هذا الزواج خيانة لذكرى والدهم».

توقعت سوزان النقد على ما كتبته، لكنها اندهشت من مصدر هذا النقد.

«معظم الرسائل البذيئة والمريرة جاءت من النساء – من نساء أخريات يشتمنني حتى الجحيم «أنت ليبرالية»، «أنت علمانية»، أنت لا تمثّليننا. تساءلت عما إذا كانت هذه الكتابات جاءت من رجال تحت أسماء نساء. لكن الرسائل الإلكترونية المشجّعة جاءت من الرجال. متى أصبح الرجال السعوديون ليبراليين أحراراً؟ تساءلت – لم ألحظ أبداً هذا التغيير. هذه هي المشكلة الكبيرة في المجتمع السعودي. هي المشكلة الوحيدة – الرجال والنساء».

***

وصل خالد باحاذق، الجهادي السائح، إلى نفس النتيجة. بعد الغبار الذي أثاره التطرّف في السنوات التي أعقبت حرب الخليج، بدأ المجاهد الذي ذهب إلى أفغانستان عشر مرات في فهم حدود الجهاد.

«المسلمون بارعون في جاهزيتهم للموت»، يقول خالد، «لكنهم ليسوا كذلك في الإقبال على الحياة بسلام – ولا يعرفون كيف يتقبّلون ويتسامحون مع اختلافاتهم».

سافر خالد إلى البوسنة في بداية التسعينات الميلادية تعاطفاً مع المسلمين المضطهدين، لكنّه لم يشارك في القتال.

«هناك أناس آخرون مُدرَّبون ومستعدون للقتال. بدأت في ذلك الوقت بالتفكير في الكيفية التي يتعلم فيها الناس أن يعيشوا في انسجام فيما بينهم – وعلاقات الرجال بالنساء هي أساس كل هذا».

تطوّع خالد في جدة بالعمل في جمعية خيرية إسلامية أثناء وقت فراغه وهو مكتب الدعوة التعاوني للإرشاد وتوعية الجاليات يقوم فيها بحضور جلسات المحكمة لتقديم الدعم والمساعدة لضحايا الطلاق والرعاية، وكان معظم الضحايا من النساء.

كنت أبكي وأنا أشاهد بعض الحالات. العديد من النساء كنّ يطلبن حقوقهن من أزواجهن ودائماً ما تكون الاستجابة عنيفة. تعرّضن للكثير من الضرب. فقدت امرأة إحدى عينيها، ولم تأمر المحكمة بأي تعويض. كل شيء في العملية القضائية، كما أراه الآن وحتى هذه اللحظة، يكون في صالح الرجال، وذلك بسبب تحامل القضاة الرجال. لا يجد أي تبرير لهذا الأمر عندما يراجع الإسلام.

«لا يوجد شيء في القرآن يقول إن المرأة يجب أن تخدم الرجل. بل على العكس تماماً. هكذا فعل الرسول. الكلّ يعرف أنه كان يقوم بالكثير من الأعمال لزوجاته».

كان خالد متأكداً أنه كان يتعامل مع مشكلة اجتماعية وليس مشكلة دينية ولهذا بدأ في أخذ دروس في الاستشارة الاجتماعية.

«أردت أن أوقف ثقافة المعاملة السيئة للنساء. يتحدث الرجال السعوديون بكلام لطيف وجميل مع زوجاتهم عندما يريدون الجنس فقط. لهذا فالعديد من مشاكلنا تأتي من قبل الرجال المسيطرين على نسائهم وشعورهم بأنهم يملكونهن. ومن الطبيعي أنك لا تستطيع أن تتحكم بشخص آخر – في قلبه – إلا عن طريق الحب. الحب غير المشروط».

جاءه الكثير من المرضى بعد انتشار سمعته كمستشار اجتماعي جيد وأغلبهم من النساء.

«لا أخبر الناس بما ينبغي عليهم عمله. لا أقدم حلاً سحرياً. فقط أساعدهم على أن يفتحوا عيونهم. أسألهم، على سبيل المثال، عن النصيحة التي يمكن أن يقدّموها هم لأنفسهم. أطلب دائماً رؤية الزوج، لكنه لا يأتي إلا نادراً – لا أجد فرصة كبيرة في الحديث مع الكثير من الرجال».

وجد المستشار الفرصة نوعاً ما عندما عُرِض عليه تقديم برنامج تليفزيوني على قناة تليفزيونية – اذهب إلى حيث السعادة. نصائحه الجادة أصبحت ببرامج إضافية يتم عرضها في رمضان. أصبح الجهادي في أفغانستان مستشاراً للزواج في المملكة.

«في التليفزيون»، يوضّح خالد، «يكون التركيز على تعليم السلوك الجيّد

– للرجال. النساء لا يحتجن ذلك. لديهن السلوك الذي يحتجنه. فقط الرجل السعودي هو من يحتاج إلى أن يتعلّم كيف يتعامل مع المرأة بشكل جيّد. أقول لهم دائماً إنهم لو نجحوا في فعل ذلك فسوف تكون المكافأة أضعاف ما يقومون به. عندما نكون كريمين مع نسائنا فإنهن بدورهن يصبحن أكثر كرماً معنا. إذا كان الرجل طيباً ورحيماً مع امرأته فإنها تكون مستعدة للتضحية بحياتها من أجله. إذا لم يفعل فإنه لن يتذوّق الحياة بشكل جيد ولا حتى روحه أيضاً».

***

تزوّجت مشاعل (ليس اسمها الحقيقي) عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها.

«كنت أقابل زوجي بشكل سرّي لمدة سنة ونصف»، تقول مشاعل. «أخته كانت صديقة لي، وكانت تساعدنا لنجتمع سوياً بعيداً عن العالم نقضي ساعات طويلة على الهاتف. كنت مجنونةً به. أجبرت عائلتي على الموافقة عليه. كانت قصة رومانسية».

لكن هذه القصة الرومانسية ذابت خلال أشهر قليلة بعد الزواج.

«لم أصدّق كيف حصل هذا بسرعة. في اليوم الثاني بعد الزواج فكّرت في نفسي وقلت: هذا الرجل غريب. كان يحب السيطرة بشكل غريب لم أعد أمتلك نفسي. توقّع مني أن أبني كل تفاصيل حياتي حوله، بينما كان له الحق أن يفعل ما يشاء. كان يختار لي ما ألبس، وكيف أقصّ شعري – بل كيف أفكّر وأشعر. هذا حقّه. كنت قطعة جديدة أضيفت إلى ممتلكاته».

العالم مليء بالأزواج المسيطرين الذي يحبّون التملّك، لكن في السعودية القانون يؤكّد على مبدأ أنّ الرجل يعرف أكثر من المرأة. لا تستطيع المرأة أن تلتحق بالجامعة، أو تفتح حساباً بنكياً، أو تحصل على وظيفة، أو تسافر خارج الوطن بدون إذن مكتوب من محرمها والذي يجب أن يكون قريباً لها من الذكور – أبوها، جدّها، أخوها، زوجها، أو في حالة الأرملة أو المطلّقة ابنها البالغ.

«كان يجب عليّ أن أوافق على كل آرائه، وماذا يشعر تجاه عائلتي وأصدقائي. إذا اختلفت معه فإن مزاجه ينقلب إلى كلمات بغيضة ومهدّدة. أدركت أنني اقترفت خطأً جسيماً. أردت العودة إلى عائلتي، لكن كبريائي لم يسمح لي. أدركت أنهم سيلومونني».

لم تكن مشاعل من النوع الذي يرضى التقليد القديم في الزواج الذي ترتّبه العائلة بأسلوبه المتواضع والتوقّعات المتشائمة للسعادة الشخصية. مثل الكثير من الشباب السعوديين، تأثّرت مشاعل بطريقة الإشباع الغريبة من خلال «الحب»، والتي يروّج لها التلفزيون السعودي والثقافة العامة بحماس شديد مثل أي فيلم سينمائي تنتجه هوليوود. لكن المحظورات السعودية تمنع طقوس الغزل والتجارب الجنسية التي يقترفها شباب الغرب بشكل خاطئ. الغزل العلني غير مسموح به فما بالك بالعيش سوياً في مجتمع تحكمه العادات والتقاليد التي تهتم العائلات بها في الحفاظ على عذرية بناتها.

«ببساطة أنا وزوجي لم نكن نعرف بعضنا البعض»، تقول مشاعل اليوم كامرأة لبقة تهتم بمظهرها وفي نهاية الثلاثينات من عمرها وشعرها الأسود

ينسدل فوق عباءتها الحريرية السوداء، «أنا لا ألوم إلاّ نفسي. تزوّجنا ونحن صغار».

بعد أن وقعت ضحية لمشكلة سعودية شائعة، تبنّت مشاعل ما اتضح أنه حلّ سعودي شائع.

وجدت الحب مع امرأة أخرى. قبل أن أتزوّج، لم أكن أعرف أبداً عن إمكانية وجود علاقة بين امرأة وامرأة. لم أحلم أبداً بأن هذا ممكن. لكنّي ذهبت إلى الجامعة، وأقمت علاقة حب مع امرأة. كانت علاقة ناعمة و دافئة. كان الأمر شبيهاً بمسكّن للآلام.

«كنت أبحث عن السلوى»، تقول مشاعل، «ووجدتها فعلاً. دخلت هذه المجموعات. يكون الأمر حب استطلاع في البداية، ثم بعد ذلك يجرفك التيار. إنه حولك في كل مكان. تمسك فتاة بيديك ثم تعرف أنها تحاول إغراءك، لكن في نفس الوقت أنت ترغب في ذلك. تقول في نفسك لم لا؟ الجنس كارثة بين رجل سعودي وامرأة سعودية، والجميع يعرف أن الرجال يمارسون اللهو واللعب على النساء. مستوى الخداع في العلاقة مع الرجل عال جداً. لذا، تتساءل في نفسك لم لا يكون ذلك مع امرأة؟ إنها طريقة عظيمة في الانتقام، وهي أيضاً طريقة آمنة.

«في هذا المجتمع، المرأة مجنونة لو فكرت بإقامة علاقة مع رجل. لكن مع المرأة الوضع آمن. لا أحد يمكنه أن يسأل عن سبب قضائها فترة المساء مع امرأة. تستطيع المرأة أن تذهب للتسوق أو إلى المطعم مع امرأة.

تستطيع أن تتحدث معها وأن تقيم علاقة صداقة. أنتما صديقتان متشابهتان في الحقوق والشخصيات. لست هنا شيئاً مملوكاً من قبل شخص آخر. لا يعني ذلك بالضرورة أن تكون علاقة جنسية في كل مرة. يمكنك الاكتفاء باللمس والاحتضان فقط. وعندما يكون هناك جنس فهي عملية رومانسية بطيئة. حتى القبلة مختلفة بين المرأة والمرأة. أكثر نعومة. كلاكما يحاول إرضاء شريكه، ولا تأخذها فقط بشكل سريع، بل هي مشاركة في الإحساس والشعور. تكون صريحاً حول مشاكلك ومعاناتك. هو حب كريم. يستطيع كل شريك أن يقدّم لشريكه وقتاً ممتعاً- لأن الرجال في السعودية يقضون وقتاً قصيراً مع زوجاتهم. هذا البعد هو ما يسبّب الآلام».

تقضي المرأة السعودية الكثير من الأوقات مع نظيراتها من النساء وأطفالهن أكثر مما تقضيه مع زوجها. يخرج الرجال عادة في المساء للعشاء وشرب القهوة والانهماك في القيل والقال والحديث عن السياسة مع نظرائهم من الرجال كما يفعل رجال العهد الإدواردي في أنديتهم في بريطانيا. يذهب الزوج خارج البيت ولو لم يكن له غرض سوى مشاهدة التلفزيون وتناول الطعام في القسم الرجالي لبيت صديق ما، بينما النساء يجتمعن في مقارّهن الخاصة – ويتلقّى كلا الجنسين الخدمة، حتى في البيوت المتواضعة، من قبل الخدم الآسيويين والطبّاخين والخادمات.

«في نهاية المساء»، تقول امرأة سعودية، «يأتي الزوج إلى البيت وهو يتوقع شيئاً واحداً. كان يتحدث ويتسامر طوال الليل، ولا يريد حديثاً إضافياً أكثر من ذلك».

«أكره أن أكون أميرة»، تقول سيدة لها صديقات أميرات، «لأنه ليس من السهل عليها أن تتزوج شخصاً خارج العائلة. العديد منهن متعلمات بشكل جيد ولا يردن الزواج من أمير أحمق منغمس في ملذاته. البعض منهن تزوّج لفترة قصيرة. ولهذا يوجد خلف هذه الجدران العديد من النساء الجميلات الذكيات في الثلاثينات من أعمارهن، لكنهن غير متزوجات ولا يوجد في الأفق أي رجل متوقّع سيتقدم لخطبتهن».

تتحكم القبيلة أيضاً في شخصيات النساء وتسيطر عليهن، وهذا يحدث أيضاً مع أكبر عائلة في المملكة. من النادر أن ترى أميرة تتزوّج بسعودي آخر ليس بأمير، وإذا أرادت أن تتزوج أجنبياً، بحسب نكتة في الرياض، فينبغي عليها أن تكون فوق الأربعين، أو أن تكون معاقة، أو أنها تحمل شهادة الدكتوراه - والأفضل أن تجتمع هذه الشروط. ربما لا تكون هذه مجرد نكتة، لأن هناك العديد من الأميرات اللواتي أكملن دراستهن ويرغبن أن يُنَادَيْن: «الأميرة الدكتورة».

«ترتدي النخبة قناعاً في هذه البلاد»، تقول مشاعل، «يتظاهرون بأنهم لا يشعرون بالألم رغم أنهم يعانون من الفراغ الداخلي والإحساس بعدم الرضا في حياتهم. كُتِب على الرجال والنساء في هذا المجتمع أن يعيشوا حياة منفصلة ولهذا فهم مستمرّون في العيش بشكل منفصل. لا أحد يحاول أن يغيّر ذلك. إذا كنت امرأة وأردت السعادة التي تأتي مع وجود شريك فيجب أن تحصلي عليها، كما في تجربتي، من امرأة أخرى. ولأنكما تبحثان عن سعادتكما معاً فإن ذلك يساعد أيضا عندما يكون لك زوج. تساعدني صديقتي غالباً في إصلاح بعض الأخطاء مع زوجي. عندما يكون الوقت عصيباً في المنزل التقط السمّاعة

لأكلّمها لدقيقة أو دقيقتين فأشعر براحة بعد ذلك».

مشاعل الآن، مثل العديد من نساء الطبقة المتوسطة، متزوّجة من نفس الزوج ولها العديد من الأطفال آخرهم ما زال في الطريق وتمتلك مشروعاً تجارياً صغيراً ناجحاً. لا تعتبر مشاعل نفسها سحاقية.

«لو كنت في مجتمع آخر فلم أكن لأقيم أي علاقة مع امرأة أو التفكير بذلك أو حتى يمكن أن أواجهها في طريقي، وبالتأكيد فلم أكن لأرغب في العيش مع امرأة. أعرف أن هذا ليس هو الحل. لدي زواج ناجح بنسبة 60 بالمائة. اليوم أحصل على قوتي من عملي وأطفالي، وفوق ذلك كلّه من نفسي – وليس من علاقتي مع امرأة أخرى. وفي نهاية اليوم تجد نفس الألم والكرب».

رصدت مشاعل الإيجابيات التي حصلت عليها من صداقتها الحميمة مع النساء، «الرّقة، الثقة، الأمانة، الدعم، العواطف النظيفة والقوية، والأهم من ذلك كله الاحترام. إذا أردت هذه الأشياء الجميلة في حياتك في السعودية فإنك ستجدها من امرأة. لن تجدها إلا فيما ندر عند الرجل السعودي، على الأقل الرجل السعودي الذي قابلت، وخاصة الاحترام. هناك القليل جداً من الرجال السعوديين الذين يتعاملون بصدق مع زوجاتهم كشركاء متساوين في الحياة».

تعتقد مشاعل أن المشكلة تنحصر في جوّ المملكة المشحون بالعادات والذي يركّز على المظاهر والوجه فقط.

«أمر مدهش حقاً»، تقول مشاعل، «كيف يصبح زوجي رجلاً مختلفاً عندما نذهب في الإجازة ونهرب من هذه البلاد. حتى لو ذهبنا إلى البحرين، نقوم بالتصرف كشريكين، نتسوّق سوياً، نلعب سوياً، في بركة السباحة. يصبح الأطفال أكثر قرباً لنا. تستفيد كل العائلة. أنا بدون عباءتي وهو بدون شماغه. بعد خلعنا لعاداتنا السعودية أصبحنا بشراً عاديين نتصرف بشكل طبيعي ودافئ، ولا نقوم بأي تمثيل أو مظاهر. أخبرني زوجي أنه يشعر بعاطفتي الدافئة».

«ثم عندما نواجه بعض الأصدقاء من الوطن فإنه يتجمّد تماماً. في إحدى المرات كنا نمشي سوياً في شارع ما خارج المملكة. ورأينا سعوديين يمشون في الاتجاه المقابل لنا. فجأة انحرف باتجاه آخر كما لو كان شخصاً لا تربطه أي علاقة بي».

مشكلة «الوجه» ما زالت قائمة في العقلية السعودية. «هل المرأة فضيحة؟» هو عنوان مقال في جريدة الوطن كتبه ياسر حارب في أكتوبر 2008م، يتحدث فيه عن منظر شائع لزوج سعودي يمشي وحيداً في مركز تجاري وخلفه بأمتار كثيرة زوجته وهي تجر أذيالها مع أطفالها. «قد تفترض أنه لا علاقة لها بالرجل حتى تراهما عندما يخرجان من المركز ويتجهان إلى نفس السيارة».

ويقول حارب إن الرجل «إذا رأى مجموعة من الرجال جالسين في أحد المقاهي فإنه يهرول سريعاً حتى لا يعرفوا أن له علاقة بالمرأة التي تمشي خلفه». وكيف أن هذا العار ينتقل إلى اللغة. يستخدم الرجل السعودي

التقليدي مصطلحات مثل «أهلي» أو «أهل بيتي» عندما يتحدث عن زوجته كما لو كانت شيئاً غامضاً أو مخجلاً لا يريد لأحد أن يعرف عنه شيئاً.

في 2009م، يقال إنه من الممكن أن ترى زوجين سعوديين يمشيان جنباً إلى جنب وهما ممسكان بأيدي بعضهما في المراكز التجارية — وتكون المرأة محجَّبة تماماً بالغطاء المعروف. لكن مثل هذا التعبير العاطفي العام استثناء فقط، ولا يرى التقليديون أي مشكلة في مثل هذا المشهد. مذهب المحافظة على التقاليد، اجتماعيا على الأقل، هو السر في تماسك المملكة بينما لا تجد ذلك في المجتمعات العربية الأخرى التي فقدت هويتها وتفكّكت.

«انظر إلى جيراننا في الشرق الأوسط»، يقول أحد التقليديين السعوديين. «أنظر إلى اللبنانيين الذين يعتبرون أنهم المتحضّرون» أو «أوروبيو» المنطقة. أذكياء وأحرار ومرنون بالمقارنة معنا نحن التقليديين القبليين المتحجرين القدماء. يشربون الخمر ويمسكون بأيدي بعضهم البعض. لكن انظر إلى الفوضى التي أحدثها اللبنانيون في حكومتهم. لديهم مطبخ جيد وسياسة رديئة، حيث تجد المسلّحين يجوبون الشوارع بأسلحتهم دون رقيب. ما الضرر من وجود قوة قبلية قديمة واحترام للسلطة وتأدية الفروض الدينية اليومية واتباع القوانين؟

إذاً هل هو مقدَّر للرجل السعودي التقليدي ألا يكون عضواً عادياً في الجنس البشري؟

«أنا لا ألوم الإسلام بالتأكيد»، تقول مشاعل، «أتمنى من رجالنا السعوديين أن يدرسوا حياة الرسول بشكل جيد وهذا مثال آخر على أن دين هذه البلاد قد اختلط مع العادات القبلية. كلنا نعرف أن الرسول كان رحيماً مع نسائه. كان يدلّل زوجاته ويتعامل معهن برفق واحترام. هناك حديث عن الرسول يُخبر الرجال أن يهتموا بنسائهم كما لو كن قوارير من زجاج».

في صيف 2008 م، بثّ التلفزيون مسلسلاً تركياً مثيراً حول زوج يهتم بزوجته كثيراً. كانت الشوارع إلى حدّ ما خالية كل مساء، إذ يقول تلفزيون الشرق الأوسط أم بي سي، وهي القناة التي يملكها السعوديون، إن ما بين ثلاثة وأربعة ملايين مشاهد كانوا يتابعون مسلسل نور كل مساء – الذي يتألف من 141 حلقة يعامل فيها بطله الرومانسي مهنّد زوجته نور مصمّمة الأزياء برقة واحترام كإنسانة محبوبة ومتساوية معه في الحقوق. أصبح المسلسل محور اهتمام الرأي العام ومصدر غضب المجتمع إذ أوردت الصحف اليومية أخباراً عن حالات طلاق بعد أن وجد الرجال صوراً لمهنّد في جوالات زوجاتهم. كما صوّر بعض رسامي الكاريكاتير أزواجاً يحاولون تغيير وجوههم بعمليات تجميل تجعلهم يشبهون الممثل التركي الذي يبلغ الرابعة والعشرين من العمر. أما النساء فقد نظرن بعين الإعجاب إلى البطل ذي العيون الزرقاء والشعر الأشقر الذي لم يكن متردداً في إظهار جانبه الرقيق، في حين أن الرجال السعوديين وصفوا ذلك الرجل «بالشاذ جنسياً».

أبدى عبد العزيز آل الشيخ، خليفة ابن باز كمفتٍ للمملكة (وهو ضرير، مثل ابن باز) قلقه من هذا المسلسل الذي يقدّم شخصيات تقيم علاقات حب ينتهي بحالات حمل خارج نطاق الزواج. أصدر فتوى يشجب هذا

المسلسل ويعتبره «إعلان حرب ضد الله ورسوله»، بينما بالغ رئيس مجلس القضاء الأعلى صالح اللحيدان عندما شجب مالك هذه القنوات الفضائية المتغرّبة قائلاً «إنه مذنب مثل من يشاهده... وإنه جائز شرعاً»، كما يقول، «أن تقتل كل من ينادي بالفساد إذا لم تنجح عمليات إزالة هذا الفساد بعقوبات أخرى».

يعرف رئيس مجلس القضاء الأعلى تماماً أن المالك الرئيسي لـ إم بي سي هي عائلة الإبراهيم، أنساب الملك الراحل فهد، وقد أصدر اعتذاراً باهتاً يبيّن فيه بشكل متحدّ أن لديه خبرة أربعين سنة في القضاء الشرعي وهو أقدم عالم إسلامي في البلاد. إذاً عاودت المؤسسة الدينية أخيراً انتقاد آل سعود في تحايلها على تقديم القنوات التلفزيونية الفضائية.

في الوقت نفسه، أعلنت السفارة التركية ذلك الصيف زيادة أعداد المسافرين إلى تركيا بنحو مائة ألف سائح سعودي – بعد أن كان العدد أربعين ألف سائح السنة الفائتة.

«هذا كلّه بسبب»، تقول مشاعل، «الطريقة التي تتعامل فيها الأمهات السعوديات مع أبنائهن من الرجال السعوديين على أنهم مجرد أطفال. كلنا يعرف أن الأمهات العربيات يدلّلن هذا الرجل الطفل بطريقة تملأه كبراً وتشجعه على الاستبداد وبالتالي هضم حقوق الأخوات والنساء الأخريات. ولهذا فإذا أرادت النساء أن يغيّرن شخصيات الرجال فإن الإجابة بسيطة – الحلّ بأيديهن. يجب أن تتوقف أمهات الجزيرة العربية عن إفساد أبنائهن. يجب أن يتعاملن معهم كأفراد متساوين مع بناتهن».

الفصل الثلاثون

الاحتلال غير الشرعي

في المرة الأولى التي قابل فيها جورج دبليو، ابن بوش، عبد الله ابن سعود، وجهاً لوجه، لم يتوقع الاثنان أن تكون بهذا المستوى من القرب والحميمية. كان ذلك في أبريل 2002م حيث لم يتوقع الأمريكيون أن يقدّم الرئيس كل هذا الترحيب لقائد الدولة التي أرّخت لهم الحادي عشر من سبتمبر، وليس هذا فقط بل تحيّته باحترام في البدلة وربطة العنق — وهي المرة الأولى والوحيدة التي تأنّق فيها بوش بشكل رسمي في مزرعته في كراوفورد، تكساس. كانت فكرة ربطة العنق نابعة من أمّه.

«سوف تقابل شخصاً ملكيّاً يا جورج»، قالت باربَرا بوش. «يجب أن تلبس بشكل جيّد».

بعد غداء جماعي استمر ساعة كاملة، انسحب الرجلان للتحدث لوحدهما، مع مترجميهما فقط. استغرق ذلك أربع ساعات قبل أن يظهرا من جديد. أصرّ عبد الله أن يشاهد الرئيس مشهد فيديو مدته عشر دقائق أحضره معه ويتضّمن تقارير إخبارية عربية عن فلسطين. هذا ما يشاهده شعبه كل ليلة على التليفزيون. أخبره عبد الله أن هذه الصور تدخل مباشرة إلى بيوتهم. اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول لبوش: «يجب أن تصلح هذا».

خرج بوش من الاجتماع مصدوماً نوعاً ما، لكنه أُعجب بصراحة عبد الله.

«هذا رجل يمكن الوثوق به»، قال بوش لمساعديه، «هو يخبرني بالأمر كما هو. أما الآخرون فيقولون لي شيئاً عندما يأتون إليّ، ثم يعودون إلى أوطانهم ليقولوا شيئاً آخر مختلفاً». ذهبا معاً في نزهة بالسيارة حول المزرعة – القائدان لوحدهما مرة أخرى، مع مترجميْهما.

«أعتقد أن ما ساعد الاثنين هو كونهما ملتزميْن دينياً»، يقول أحد مساعدي عبد الله، «كانا رجليْ دين رغم أن دين كل واحد منهما مختلف عن الآخر».

***

على الرغم من جراحات الحادي عشر من سبتمبر بقي عبد الله مشغولاً بفلسطين. ولهذا السبب رفض عبد الله مقابلة بوش الصيف الفائت، الأمر الذي دفع بوش إلى إطلاق مبادرة جديدة أوقفتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر. الآن، في عام 2002م واجه ولي العهد ضغوطاً كبيرة. الانتفاضة في أزمة، وياسر عرفات سجين افتراضي في رام الله تحيط القوات الإسرائيلية بمقر إقامته. امتلأت قناة الجزيرة بمشاهد العنف في الضفة الغربية، وكان السعوديون يتابعون هذه الدراما على شاشات التلفزيون. تعرّض عبد الله للانتقاد الشديد من المواقع الإلكترونية الليبرالية والإسلامية على حد سواء بسبب ذهابه للولايات المتحدة في هذه اللحظة العصيبة، واضطرت وزارته للإعلام لحشد جهودها في الدفاع عنه. أعلن متحدث رسمي أن ولي العهد ملأ طائرته البوينج ببضعة آلاف نسخة مترجمة للقرآن الكريم من أجل توزيعها لتعليم الأمريكيين الإسلام.

استعدّ عبد الله كثيراً لهذه المقابلة. في مجالسه بعد الحادي عشر من سبتمبر، والتي دعا فيها رجال الأعمال والأكاديميين وأعضاء مجلس الشورى والعلماء. استمع الجميع إلى مراسلاته وهي تُقْرأ أمامهم والتي تبادلها مع بوش وكونداليزا رايس. لاحظ موظفوه ردّة الفعل الإيجابية من الجمع المحتشد. فاجأ وليّ العهد كاتب هذه السطور والكاتب الصحفي في جريدة النيويورك تايمز توماس فريدمان عندما فتح درج مكتبه واستخرج مبادرة سلام مكتملة يعترف فيها العرب بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها في مقابل إعادة الأراضي العربية إلى ما قبل عام 1967م. بعد أسابيع قليلة ذهب عبد الله إلى بيروت لتمرير مبادرته السلمية في قمة الدول العربية والتي تتألف من اثنتين وعشرين دولة – وهي تمثّل غصن الزيتون العربي الوحيد الشامل والمكتمل.

«نفّذنا استطلاعاً سرّياً داخل إسرائيل»، يقول أحد مساعدي ولي العهد، «تعاقدنا مع شركة محلية لتنفيذ ذلك ولم نخبرهم أبداً أنها لصالح المملكة العربية السعودية». وجدنا أن سبعين بالمائة من الإسرائيليين يرون أن مبادرة عبد الله السلمية اتفاقية عادلة. ولسوء الحظ فإن سبعين بالمئة منهم يدعمون أرييل شارون أيضاً – لكن هذا يثبت أن العيّنة التي اخترناها صادقة تماماً.

طلب عبد الله من موظفيه إعداد كتاب يحتوي على صور إخبارية مصاحبة لعرض الفيديو المأساوي والذي أخذه إلى كراوفورد. سهر مساعدوه حتى الصباح في الليلة التي سبقت لقاء هيوستن وهم يستعرضون مئات الصور التي أخذوها من وكالات الأنباء العالمية لأخذ نسخ منها في محلات كينكو.

«أنا لا أطلب ذلك لنفسي أو للمملكة»، يقول عبد الله، «أنا أطلب ذلك من أجل الفلسطينيين».

أثّرت الصور كثيراً على ولي العهد أكثر مما أحدثت لدى جمهوره.

«إنها رابطة الدم»، قال عبد الله لبوش وهو يعود إلى نفس الفكرة العاطفية التي أثرت عليه السنة الفائتة، «يبدو أنك تهتم بحياة الإسرائيليين أكثر مما تهتم للعرب».

اعترض بوش لكن رغم ذلك لم يوقف عبد الله الكلام.

«قلت إنك ستفعل شيئاً»، سأله عبد الله، «لكن ماذا فعلت؟ لم أكن أرغب في القدوم إلى هنا. لكنك ألححت عليّ بذلك. وأنت الآن لا تعطيني أي شيء. لا أستطيع أن أعود صفر اليدين».

في هذه اللحظة، جمع عبد الله عباءته حول جسمه وهو يقف منتصباً على قدميه. سوف يعود هو ومرافقوه إلى الوطن فوراً. جلس بوش في شرفته مع كونداليزا رايس مندهشيْن.

«هل هم جادُّون فعلاً؟» سأل بوش.

في مكان آخر من المزرعة دخل بندر بن سلطان وكولن باول في مباراة صراخ، وهما الصديقان (والشريكان الدائمان في لعبتهما المفضّلة).

ارتفعت أصواتهما إلى الدرجة التي دفعت ببوش إلى التحقّق من الأمر.

شك باول في أن هذه مجرد خدعة خطّط لها السعوديون مقدّماً، لكن مرافقي عبد الله أنكروا ذلك. ما قام به رئيسهم الصريح جاء من قلبه، أخبروهم – وقد أدى هذا الغضب إلى نتائج. وافق بوش على الظهور علنياً للحديث عن خطة أمريكية جديدة حول فلسطين، وهو نفس ما قاله بشكل سرّي قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

«رؤيتي»، صرّح الرئيس في حديقة البيت الأبيض في 24 يوليو 2002م وإلى جانبه وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ووزير خارجيته كولن باول، «هي دولتان تعيشان جنباً إلى جنب في سلام وأمن».

لم يصرّح أي رئيس أمريكي سابق بشكل واضح وحازم ويلتزم بإنشاء دولة فلسطينية، وهي رؤية تعارض رؤية اليهود المتطرفين والصهاينة المسيحيين. تضمّن وعد بوش العديد من التحذيرات من أجل أن يطمئن الإسرائيليين. رفض التعامل مع ياسر عرفات، وقد أثبت بوش خلال السنوات التالية أنه أقل إصراراً في تنفيذ وعوده مما كان عليه عندما صرّح به في حديقة البيت الأبيض. لكن الكلمات قد صدرت بالفعل وأصبح إنشاء دولة فلسطينية الآن ولأول مرة هدفاً مصرّحاً به للسياسة الأمريكية، والفضل كلّه يعود إلى عبد الله بن عبد العزيز.

***

لم يدم النصر والانسجام طويلاً. لاحظ العديد من المراقبين للقاء

كراوفورد كيف كان الملك والرئيس يتحدثان «متجاوزين بعضهما البعض» لأنه في الوقت الذي كان يركّز فيه السعودي على حالة الطوارئ الصعبة في فلسطين، كان الأمريكي يذهب في اتجاه آخر. قبل ستة أشهر من هذا اللقاء، اقترح وزير الدفاع دونالد رامسفيلد خطة جديدة مروّعة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. «تخيّلوا كيف يكون وضع الشرق الأوسط»، يقول رامسفيلد في اجتماع لمجلس الأمن القومي، «من دون صدّام، ووجود نظام يتوافق مع مصالح أمريكا. سوف يغيّر ذلك كل شيء في المنطقة وما وراءها».

بعد أسابيع لاحقة، قدّم كاتب خطابات بوش ديفيد فرم نسخة أكثر صراحة في استراتيجية تتركز على العراق إلى مجلة النيويورك تايمز: «حملة تقودها أمريكا للإطاحة بصدام حسين، واستبدال الدكتاتورية البعثية المتطرّفة بحكومة جديدة موالية للولايات المتحدة ستجعل أمريكا مسيطرة على ومسؤولة بشكل كامل عن المنطقة أكثر من أي قوة أخرى منذ العثمانيين أو حتى الرومان».

ساهمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في عام 2001م في وضع هذه الرؤية موضع التنفيذ. احتاجت أمريكا بشكل واضح أن تنتقم من شخصية عربية شرّيرة. قدّم دونالد رامسفيلد شهادته للجنة الحادي عشر من سبتمبر الرسمية قائلاً إنه بعد الهجمات مباشرة في مساء الحادي عشر من سبتمبر «كان حدسه يتّجه إلى ضرب صدّام حسين». وفي اليوم التالي أمر الرئيس بوش ريتشارد كلارك، قيصر مواجهة الإرهاب في إدارته، بدراسة أي علاقة محتملة للعراق بالهجمات. خلال ساعات، العاقبة الرئيسية للهجوم السعودي على مانهاتن وواشنطن هي فتح الطريق الأمريكي للحرب في العراق.

كان ردّ الفعل السعودي لمثل هذه الاستجابة هو مزيج من الشك وعدم التصديق. يعرف السعوديون، كمسلمين سنّة، بغريزتهم ما أكدّته التقارير الاستخباراتية لاحقاً أن العراق لا علاقة له بأحداث الحادي عشر من سبتمبر. بن لادن، السلفي الورع، لن يتعامل أبداً مع نظام صدام العلماني. المحاولات الأمريكية لإثبات تحالف القاعدة وصدام مضحكة جداً. في الوقت نفسه، وقع العديد من السعوديين ضحية لنظريات المؤامرة التي أنتجوها بأنفسهم. تؤكد حقيقة استغلال الولايات المتحدة لأحداث سبتمبر كوسيلة لتوجيه قوتها العسكرية نحو العراق شك السعوديون في التورط الصهيوني بهجمات سبتمبر 2001م. يقول الاستنتاج السعودي إن رغبة أمريكا في «السيطرة تماماً» على الشرق الأوسط يهدف إلى حماية إضافية لعميلتها إسرائيل.

أمر عبد الله متحدّثه الشخصي عادل الجبير، صغير بندر والمساعد المتغرّب، أن يصرّح للإعلام موضحاً معارضته للغزو الأمريكي للعراق.

«لا توجد دولة في العالم تدعمه»، صرّح عادل الجبير في أغسطس 2002م «ولا يوجد أساس شرعي له. ولا توجد موافقة دولية له. ولا يوجد تحالف من أجله».

مرّ الجبير على جميع القنوات التلفزيونية الإخبارية في أمريكا يردّ بالحجة على خطاب ألقاه نائب الرئيس ديك تشيني يطالب فيه بالغزو. حتى الآن وكما حذّر السعوديون، نفس الاستنتاج الذي تم التوصّل إليه قبل عشر سنوات عندما نادى المتحالفون المنتصرون في حرب الخليج أن يتقدموا

لبغداد للإطاحة بصدّام، ينفع تطبيقه هنا أيضاً في عام 2002م: الشيطان أفضل... قد يكون صدام شرّيراً، لكنّه سنّي شرير وقوته تطرد الشيعة بعيداً – وتعزل آيات الله في إيران. الإطاحة بالدكتاتور العراقي تعني مجد إيران – وليس أمريكا – روما الجديدة في الشرق الأوسط.

يعارض السعوديون أيضاً مبدأ المحافظين الجدد الذي يعطي أمريكا الحق بالتدخل متى شاءت في تغيير شكل المنطقة. في يوليو من تلك السنة، قدّم المحلل الفرنسي في مؤسسة البحث والتنمية (راند) لورنت موررويك عرضاً من اثنتين وأربعين شريحة إلى مكتب سياسة الدفاع، وهو أحد أذرعة وزارة الدفاع البنتاجون، يقترح فيه أن تقوم الولايات المتحدة «بطرد السعوديين من الجزيرة العربية» عن طريق السيطرة بالقوة على حقول النفط وإعادة الحجاز إلى الهاشميين وتسليم الأماكن المقدّسة إلى لجنة متعدّدة الجنسيات من أعضاء مسلمين معتدلين غير وهابيين، أما آل سعود فسيتم إرسالهم إلى الرياض.

«تدعم السعودية أعداءنا وتهاجم حلفاءنا»، يقول المحرّر الفرنسي، صاحب ريتشارد بيرل المدافع عن الحرب على العراق وأحد المحافظين الجدد الذي يدير مكتب سياسة الدفاع. «السعوديون نشطاء في كل مستويات السلسة الإرهابية، من مخططين إلى داعمين ماليين، من كوادر إدارية إلى محاربين مشاة، ومن متطرّفين إلى مشجّعين». إنهم «أساس الشرّ، والمتحرّك الأساسي وأخطر المنافسين» في الشرق الأوسط.

سارع البنتاجون إلى التنصّل من المسؤولية، «لا يمثّل العرض ولا

تعليقات أعضاء مجلس سياسة الدفاع الرأي الرسمي لوزارة الدفاع»، صرّحت متحدثة رسمية في بيان مكتوب، «المملكة العربية السعودية صديقة دائمة وحليفة للولايات المتحدة. يتعاون السعوديون بشكل كامل في الحرب العالمية ضد الإرهاب وتحظون بتقدير الوزارة والإدارة العميق».

لكن لم يكن من الصعب إيجاد أصوات في واشنطن رحّبت ببث آراء المحلّل الفرنسي المعادية والتي صدرت لاحقاً في كتاب بعنوان «أمراء الظلام» أثنى عليه بيرل واصفاً إياه «بالرائع» و «القوي».

«تعوّد الناس على قبول السلوك السعودي وتبريره»، يقول أحد موظفي الإدارة الأمريكية لجريدة الواشنطن بوست، «أصبح ذلك شيئاً من الماضي. ليس هناك شك أن الناس أدركوا حقيقة أن السعودية تمثّل مشكلة الآن».

حدّد الموظف الذي لم يعلن اسمه استراتيجية المحافظين الجدد التي تحمل في طياتها لدغة خطيرة للمملكة: «الطريق إلى الشرق الأوسط يمرّ عبر بغداد. عندما يكون لديك نظام ديمقراطي في العراق، مثل الأنظمة التي ساعدت على تأسيس ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية فإن ذلك يعني الكثير من الاحتمالات».

«أعتقد أن هذا الرأي يتحدّى الواقع»، يردّ عليه عادل الجبير وهو يتحدث نيابة عن عبدالله في نفس التقرير الإخباري الذي نشرته نفس الجريدة، «الدولتان صديقتان وحليفتان لأكثر من ستين سنة. وقد شهدت علاقتهما الكثير من العواصف في المنطقة، لكنها تزداد قوة إلى قوة».

ويُعتقد في الأوساط الصحفية في واشنطن أن هذه التصريحات المضادّة للسعودية جاءت بتشجيع من مكتب المشاكس ديك تشيني - كما ألمح إلى ذلك نائب الرئيس، لكن بالرغم من معارضتهم المعلنة إلا أن السعوديين كانوا في السرّ مع هجمة تطيح بصدّام. أوضح الجبير أن ولي العهد اعترض شخصياً على هذا الاقتراح وجهاً لوجه عندما قابل تشيني أوائل تلك السنة.

«لا»، قال عبد الله، «الإجابة هي «لا». قلت «لا» في السعودية. أقول «لا» الآن، وسوف أقول «لا» غداً».

المشكلة هي أن تشيني يملك أدلة قوية على شكوكه، على اعتبار أن الادعاءات التي تقول إن معظم القادة العرب - بمن فيهم عبد الله - يريدون من أمريكا بشكل سريّ أن تطيح بصدام حسين، جاءت من سفير عبد الله نفسه، الأمير بندر بن سلطان.

***

يبدو أن تلك كانت حالة تصرّف بها بندر الواثق على «نحو فردي». بحسب العديد من المراقبين، لدى السفير السعودي حقد دفين ضد صدام حسين. في صيف عام 1990 م وقبل ساعات من دخول الجنود العراقيين الكويت، خدع الدكتاتور بندر في نقل تأكيداته الشخصية لمارغريت تاتشر وجورج بوش الأب بعدم وجود نية له في غزو الكويت. ويعتقد بندر أنه منذ ذلك الحين وصدّام يحاول اغتياله الأمر الذي أدّى بالأمير إلى زيادة جهازه الأمني الذي يحميه.

أحد الزملاء المقربين للأمير نفى هذه الفكرة واصفاً إياها بـ «محض هراء».

«الأمير بندر لا يأخذ الأشياء على نحو شخصي»، يقول زميله، «وليس صحيحاً أن الأمير بندر قد انحرف عن السياسة السعودية الرسمية».

لكن هذا ليس ما رآه المراقبون في الأمير الذي كان يعمل في واشنطن في خريف 2002م. بينما كان ولي العهد يحاول قدر استطاعته في الرياض معارضة ومنع الهجمة الأمريكية على العراق، كان ابن أخيه وسفيره يقوم بالعكس تماماً – أي كما قال ديفيد أوتاوي في جريدة الواشنطن بوست «عضو حقيقي غير معيَّن في حزب الحرب للمحافظين الجدد في الولايات المتحدة». في عرض متكرّر لحرب الخليج 1990-1991م، أصبح ديك تشيني ودونالد رامسفيلد صديقا بندر المفضّليْن – إذ في 11 يناير من عام 2003م وبحسب الصحفي بوب وودورد، أخبر الرجلان بندر عن نية بوش في الذهاب إلى الحرب قبل أن يخبرا وزير الخارجية باول. عادت الحيوية والنشاط إلى السفير السعودي بعد سماع أخبار صراع جديد فأخذ يروح ويجيء بين الرياض وواشنطن. وعند سؤاله في أرض الوطن قدّم رأيه من دون أي اعتذار – سوف تهاجم الولايات المتحدة العراق بغض النظر عما يقوله الآخرون – فلماذا لا نستفيد من هذه الخطوة؟

وصل عبد الله إلى الاستنتاج من هذه الحقيقة المرّة أن مصلحة السعودية تقتضي الابتعاد عن أمريكا التي يحكمها بوش. اعتبر ولي العهد أن وجود أمريكا في العراق هو سيء للعراق، سيء لأمريكا، وسيء للسعودية، «احتلال

غير مشروع»، كما قال هو عن ذلك في خطاب للجامعة العربية. تفاجأ عبد الله أن بوش ومستشاريه لم يستمعوا، ولو شكلياً إلى الخبرة المباشرة التي يعرفها الخبراء عن هذه المنطقة. بالنسبة لعبد الله فسوف يقدّم لهم تجربة قبيلة أمه، شمّر، ورؤساء هذه القبيلة الأقوياء القريبين منه شخصياً والذين يستطيعون بسلطاتهم القبلية الوصول إلى صحاري العراق. اثنتان من زوجات ولي العهد من قبيلة شمّر.

«يعلّمنا التاريخ سجل أمريكا في مغامرات من مثل هذا النوع»، يقول أحد الدبلوماسيين السعوديين، «يخوضون الحرب من دون تفكير، يقتلون ويهربون تاركين الفوضى للآخرين».

لكن هناك الكثير من الالتزامات التي يجب أخذها بعين الاعتبار. منذ منتصف التسعينات، بنت القوات الجوية الأمريكية قاعدة الأمير سلطان الجوية في الخرج، جنوب الرياض، لكي تكون مقراً لقيادتها الجوية في الشرق الأوسط. انطلق تطبيق مرحلة الحظر الجوي فوق العراق من هنا، كما هو الحال في هجمات 2001م على أفغانستان. كانت أمريكا تعتمد على الخرج كمركز قيادة لها في هجماتها على العراق.

اتفق عبد الله مع الأمريكيين من خلال سفيره على أن تستخدم أمريكا قاعدة الخرج. وبعض القواعد الأخرى طيلة مدة الحرب، لكن على أساس سرّي صارم، ثم بعد ذلك تجمع أمريكا أغراضها وتغادر. اعتمدت حملة أمريكا المسمّاة «الصدمة والترويع» التي غمرت العراق في الأسابيع القصيرة الأولى بعد 20 مارس 2003م على قاعدة الخرج وبعض المطارات السعودية

الشمالية لعرعر وتبوك. أقلعت طائرات القوات الجوية الأمريكية من هذين المطارين القريبين من الحدود العراقية لعملياتها الداخلية في بغداد والمدن الأخرى.

لكن مع نهاية الغزو، جاءت طائرات الشحن الأمريكية لنقل أغراض وأصول القوات الجوية الأمريكية قطعةً قطعةً نحو الشرق – وتحديداً إلى قاعدة «العديد» التي بناها الفرنسيون في دولة قطر الخليجية. مع نهاية سبتمبر 2003م، لم يعد هناك على الأرض السعودية أي جندي أمريكي أو دبابة أو طائرة، ما عدا بعض المدرّبين العسكريين. استطاع عبد الله أخيراً أن ينأى بنفسه والمملكة بعيداً عن أمريكا بوش كما كان يأمل دائماً – وهو أحد مطالب أسامة بن لادن الرئيسية عندما هاجم البرجين قبل سنتين. لقد ساعدت السعودية على إعداد السمّ الناتج من أحداث سبتمبر، وعلى العراق الآن أن يشرب منه.

الفصل الحادي والثلاثون

نهاية العلاقة

يحب الأمير بندر بن سلطان أن يقارن العلاقة الطويلة بين أمريكا والسعودية بالزواج الكاثوليكي. «قد يكون هناك بعض الاختلافات والنزاعات»، يقول الأمير بعينين لامعتين، «لكن الزواج يستمر إلى الأبد». ثم في ربيع 2004م، أعطى الأمير سعود الفيصل، رئيسه المباشر ووزير الخارجية الجادّ دائماً والخبير الذي قضى وقتاً طويلاً في منصبه، تعريفاً جديداً لهذه العلاقة.

«هو ليس زواجاً كاثوليكياً»، قال الأمير سعود لديفيد أوتاوي من صحيفة (الواشنطن بوست)، «إنه زواج إسلامي». يُسمح للزوج المسلم بأربع زوجات، بشرط أن يتعامل معهن بعدل – وهذا هو الطريق السعودي الجديد في الأيام الصعبة التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر. لم تبحث السعودية عن الطلاق من أمريكا، لكنها تريد فقط البحث عن شركاء جدد.

أول هؤلاء هي الصين، الدولة التي لم يكن للمملكة معها علاقات دبلوماسية وقت ذهاب الأمير بندر إلى بكين لشراء صفقة صواريخ سي أس أس 2 في عام 1985م. بعد سنوات قليلة من ذلك التاريخ وصل أول سفير شيوعي صيني إلى الرياض – كجزء من تحالف دولي تم حشده ضد صدّام

في 1990-1991م – وقد تطورّت العلاقة في التسعينات الميلادية بعد أن زادت السعودية صادراتها النفطية إلى اليابان وكوريا الجنوبية ودول أخرى في آسيا. أصبحت المملكة في السنوات الأولى من القرن الجديد المزوّد الأساسي للبترول في الصين. كان من قبيل الصدفة تواجد علي النعيمي، وزير النفط السعودي، في شنغهاي في الحادي عشر من سبتمبر 2001م، لكن ما قاله هناك لم يكن صدفة بالتأكيد. صرّح هناك أن السعودية ترغب في بناء «علاقة استراتيجية وشراكة» مع الصين «على جميع المستويات والأصعدة».

جعل عبد الله في عام 1998م الصين إحدى محطاته الأولى عندما تسلّم منصب ولي العهد. وعندما أصبح ملكاً وضع بكين، وليس واشنطن، أول محطة له في زياراته الخارجية. حطت طائرة الملك في يناير 2006م بوفد يضم رجالاً ونساءً –وهي أول مرة أيضاً– وانخرط الوفد بالعمل فوراً واضعاً الأساس لمشروع مصفاة ضخمة تكلف 3.5 بليون دولار لمعالجة خام الكبريت السعودي، ومناقشة استخدام النفط السعودي لمخزن استراتيجي صيني جديد بسعة مئة مليون برميل.

بعد أسابيع قليلة ردّ هو جينتاو، الرئيس الصيني، الزيارة.

كان جينتاو عائداً من زيارة له لواشنطن حيث رحّب به البيت الأبيض باستخدام اللقب الخاطئ، فقد رحبّوا به باللغة الصينية كرئيس الصين الوطنية (تايوان)، وبعدها تعرّض لإهانة ومضايقة بالأسئلة في مؤتمره الصحفي. في الرياض، لم يكن هناك أي أخطاء بروتوكولية – وبالتأكيد لم يكن هناك

أية مضايقات صحفية. كان هناك دفء حقيقي نابع من ثقافتين فخورتين غير غربيتين ترحّبان ببعضهما. كلا الثقافتين تتطوّر تدريجياً وتبحث عن التحديث. كلاهما سلطوي وسرّي، وكلاهما تتعرّضان بسبب ذلك إلى المحاضرات التعليمية من الغرب الذي يفهم كل شيء. أوضح جينتاو في خطابه لمجلس الشورى كيف أن علاقة الصين بالجزيرة العربية تعود إلى أوقات طويلة أكثر مما هي عليه العلاقة بين السعودية وأمريكا. قبل ألفي سنة، وقبل وقت الرسول، ربط طريق الحرير بين الصين والشرق الأوسط.

«بالنظر إلى التاريخ كمرآة»، قال الرئيس مقتبساً مثلاً صينياً قديماً، «نستطيع أن نفهم الدول التي ستنهض والدول التي ستسقط».

هذه الإشارة الملتوية لتغيّر ميزان القوى في العالم هي عنوان بقية خطاب جينتاو. بدلاً من غزو الدول لبعضها، يقول جينتاو، عليها أن تتابع الحوار وترفض «استخدام القوة أو تهديد بعضها البعض بشكل عشوائي». للدول المستقلّة السيادية الحق في اختيار نظامها السياسي والاجتماعي الذي تريد، وعلى كل دولة أن تحترم هذا الاختيار. من دون أن يذكر كلمة أمريكا وضع جينتاو رؤية جديدة للعالم تختلف عن رؤية بوش الذي عبّر مؤخراً عن طموحه لإنهاء ما أسماه «إدمان» دولته على استيراد النفط، وخاصة من عرب الشرق الأوسط. أما الصين فلن تتأخر: هي متلهّفة على النفط السعودي.

النفط مقابل الأمن هو أساس «العلاقة الخاصة» بين السعودية والولايات المتحدة. هذا ما تردّد صداه في الزواج الصيني —السعودي الجديد، مع إمكانية تحوّل شرّيرة. أوردت التقارير الرسمية توقيع «عقد في النظم الدفاعية»

التي افترض المحللون أنها تشير إلى ما تمتلكه المملكة من خمسين إلى ستين صاروخاً صينياً من طراز سي أس أس 2 العتيقة التي اشتراها بندر وخالد بن سلطان قبل عقدين من الزمن. هذه الأسلحة متوسطة المدى مصمّمة أساساً لاستخدام رؤوس نووية، وقد شهدت تلك السنوات منذ عام 1985م بزوغ باكستان كقوة نووية وهي الحليف المسلم القريب من السعودية، والتي قيل إنها تعمل بشكل سري مع الصين على اعتبار أن باكستان والصين قلقتان من قدرة الهند النووية. أما السعودية فهي بدورها قلقة من تطوير إيران لتقنيتها النووية. إذاً، يبدو أن هذه الدول الثلاث تبحث في أساليب التعاون المتبادل، وهي في مجال التسليح على الأرجح.

عندما عُرضت فكرة القوة النووية على سعود الفيصل، استخدم كل سلطته كوزير خارجية - وهو الأطول خدمة في العالم - لكي يرفض فكرة أن تحصل المملكة على القنبلة النووية.

«نعتقد أن هذا محض غباء لأن هذه الأسلحة لا توفّر الأمن»، قال الفيصل في مارس 2004م، «لا توجد أي «صحة مطلقاً» للتقارير التي تقول إن السعودية تتجه نحو الخيار النووي».

لكن المملكة تعمّدت خداع العالم وأقرب حلفائها عندما حصلت على الصواريخ الصينية ونصبتها. والدفاع، في نهاية المطاف، هو أمر حياة أو موت. من الغباء عدم وضع مخزون المملكة من صواريخ الرياح الشرقية سي أس أس2- في موضع التشغيل، ولن يكون صعباً على باكستان الحصول على عدد مماثل من الصواريخ ذات الرؤوس النووية نيابة عن حليفها المسلم

الغني، وبالتالي منح المملكة – وباكستان والصين أيضاً – القدرة على الإنكار والنفي. تستمر دولة إسرائيل في إنكار القوة النووية. إذاً لماذا ينبغي على السعوديين فقط أن يقولوا الحقيقة؟

***

أما الزوجة الثالثة فقد تم اختيارها من بين أهم أعداء أمريكا. كان الاتحاد السوفياتي أول دولة في العالم تعترف بسيطرة عبد العزيز على الجزيرة العربية في عام 1962م، كما أنها الدولة الوحيدة التي كان لها امتياز تقديم النفط للملكة العربية السعودية: في أيام الكساد الكبير سلّمت ناقلة نفط روسية إلى جدة ما قيمته 30.000 جنيه استرليني من البترول والذي لم تستطع فيه السعودية الفقيرة ذلك الوقت من جمع دراهمه. أما في الحرب الباردة فقد أصبح السوفيات الملحدون أحد الشياطين التي ترْجُمُها السياسة الخارجية السعودية (كما يفعل المسلمون في رمي الجمرات) ولم تتحسّن العلاقات كثيراً بعد سقوط الشيوعية. كانت الدولتان متنافستين لسنوات على مقعد الصدارة كأكبر منتج للنفط في العالم. استاء السعوديون كثيراً من عدم انضمام روسيا إلى منظمة أوبك، لكنهم وجدوا الفائدة من أسعار النفط المرتفعة بسبب الالتزام بالقيود المفروضة من أوبك على الإنتاج.

ثم غزت أمريكا العراق، فأصبحت موسكو بذلك وجهة أخرى لزيارات الأمير عبد الله الأجنبية. اكتشف المتنافسان أنهما متعاونان إذ هما يشتركان في السيطرة على 26 بالمئة من الاحتياط النفطي و31 بالمئة من الغاز في العالم. منذ تسلّمه قرار السلطة في نهاية التسعينات والأمير عبد الله يتابع تنفيذ مشروعه المفضّل والطموح وهو مبادرة النفط والغاز والذي يهدف إلى

تشجيع الاستثمار الأجنبي في تطوير مصادر الطاقة السعودية، بما فيها مصانع البتروكيماويات والتحلية. لم تتحسّن المفاوضات مع اتحاد الشركات الذي تقوده أمريكا وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وقد توقّفت تماماً في الأسابيع التي أعقبت الغزو الأمريكي للعراق، والذي يعتبره العرب بمثابة وضع اليد الأمريكية بالقوة على النفط العربي. أعلن في يناير من عام 2004م أن لوكويل، شركة روسية خاصة للطاقة، مع بعض شركات النفط الصينية والأوروبية (سينوبك، راني، ربسول، واي بي اف، شركة شل الهولندية وتوتال فينا إلف) ستملأ الفراغ الذي تركته إكسون موبيل، فيليبس، ماراثون كونوكو، وأوكسيدينتال.

خلال أشهر بدأت لوكسار، وهو المشروع المشترك بين أرامكو السعودية ولوكويل، العمل مع وصول فلاديمير بوتن إلى الرياض في أوائل عام 2007م. حدّد الرئيس الروسي ملامح زيارته بخطاب ألقاه في مؤتمر ميونيخ للسياسة الأمنية وهو في طريقه من موسكو. لا تريد روسيا، كما يقول، عالم «القطب الواحد» الذي خلقه «الاستخدام الزائد للقوة» من جانب أمريكا... والاشتراك في عمليات عسكرية لفرض سياساتها على الدول الأخرى. «من سيفرح بذلك؟» سأل بوتن.

بعد يومين فقط، رحّب عبد الله بالرئيس الروسي في الرياض واصفاً إياه «برجل دولة، ورجل سلام، ورجل عدالة». وحيث إن بوتن رجل سلام فقد قدّم للسعودية قائمة تسوّق للتقنية العسكرية الروسية — دبابات مقاتلة من طراز 150 تي — 90، طائرات هيلكوبتر هجومية ناقلة، و 20 نظاماً دفاعياً متنقّلاً، وعدداً كبيراً من ناقلات الجند، هذا بالإضافة إلى اقتراح في المساعدة على

تطوير التقنية النووية. ولكي يختم زيارته الدافئة والناجحة بالمسك والعنبر، وحيث إن روسيا تدعم دائماً القضية الفلسطينية، فقد قدّم عبد الله إلى بوتن أرفع وسام في المملكة وهو ميدالية الملك عبد العزيز. حتى ذلك الوقت، لم يحصل على هذه الميدالية سوى رئيسين أجنبيين فقط هما الرئيس الصيني جينتاو، والرئيس الفرنسي جاك شيراك الذي قاد حملة الأمم المتحدة لإيقاف غزو بوش للعراق. كان من الصعب التفكير في مثلّث للعداء الأمريكي كهذا الذي اختاره عبد الله[1].

***

سواء كان زواجاً إسلامياً أو كاثوليكياً فإن العلاقة الخاصة بين أمريكا والسعودية قد أصبحت من التاريخ، وقد أكّدت ذلك مجموعة من المتغيّرات السعودية. في يوليو 2005م استقال الأمير بندر بن سلطان من منصبه كسفير سعودي في واشنطن، بعد استهلاك كبير لجهوده وإحباطه حول ما يمكن اعتباره مهمّة مستحيلة. ألغى الأمير بندر حفل وداع له بعد أن دعي إليه المئات من الأصدقاء والزملاء، واختفى بشكل غير متوقّع كما كان يفعل دائماً في منصبه – وقد تم استبداله بابن عمه وصهره الأمير تركي الفيصل القائد السابق للمخابرات والذي خدم أيضاً كسفير في لندن خلفاً لغازي القصيبي. كان الأمير تركي، قبل أكثر من ربع قرن، من اقترح أن يكون الأمير بندر، الذي كان طياراً شاباً في القوات الجوية وزوج أخته هيفاء، سفيراً في واشنطن يمثّل الشأن السعودي هناك بشكل جيد.

---

1 - سلّم عبد الله لاحقاً هذا الوسام إلى جورج دبليو بوش وملك إسبانيا خوان كارلوس.

عندما وصل تركي إلى السفارة السعودية الشبيهة بالقلعة في مبناها المستقّل بجانب مجمّع ووترجيت في سبتمبر، كان أمامه استراتيجية لإصلاح العلاقة المتضرّرة بين المملكة وأمريكا –«حوار استراتيجي» أمريكي سعودي– لمناقشة العديد من المشكلات العملية التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر. تتراوح هذه المشكلات بين قضايا مواجهة الإرهاب وتوقف المشاريع التجارية، وقضايا تعطيل الحصول على تأشيرات السفر التي قام بها قسم الأمن الوطني حديث الإنشاء. عطلّت القيود الأمنية الصعبة تدفّق الطلاب السعوديين إلى الجامعات الأمريكية، كما تحوّل الدخول إلى أمريكا إلى تجربة مهينة وصعبة للكثير من السعوديين. تم تحديد ست مجموعات عمل تتضمّن موظفين كباراً من السعودية وأمريكا للالتقاء وجهاً لوجه مرتين سنوياً في واشنطن والرياض وإبقاء الاتصال فيما بين اللقاءين في محاولة لإعادة بناء علاقات العمل الروتينية التي أُهملت في سنوات بندر.

«الآن نعرف الشخص الذي نتصل به»، يقول أحد الدبلوماسيين السعوديين الذين شاركوا في عملية إعادة بناء العلاقات.

في الجانب الإعلامي، قبل الأمير تركي كل دعوات الظهور في البرامج التليفزيونية والإذاعية الأمريكية، مثل فوكس نيوز والإذاعة الوطنية الأمريكية أن بي آر، يجيب فيها بهدوء على الأسئلة العدوانية بما فيها دوره الشخصي في الأحداث – على اعتبار أنه الشخص السعودي المسؤول، في نهاية المطاف، الذي حاول وفشل في احتواء، ثم فشل في القبض على أسامة بن لادن. بالإضافة إلى هذه الحملة الدعائية الكبيرة والتي استعان فيها أيضاً بالسلفي السابق والصحفي المتمرّس جمال خاشقجي، قام الأمير تركي

بزيارات مجدْوَلة لمخاطبة الشارع الأمريكي، حيث قبل الدعوات للحديث في الجامعات الأمريكية وأندية الروتاري وتجمّعات الكيوانيز، وقد كانت تلك محاولة دبلوماسية باهتة لتغيير آراء المواطن الأمريكي العادي.

المشكلة هي أن الأمير بندر لا يستطيع الابتعاد عن الكعكة السياسية أبداً. يبدو أن هذا الأمير المتفاخر يكون سعيداً فقط عندما يكون شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه. عندما رجع إلى الرياض، استلم بندر مسؤولية مجلس الأمن الوطني الذي كُشِف عنه حديثاً وخُطِّط له سابقاً على طريقة النموذج الأمريكي والذي كان من مهماته - كما ظهر - لاحقاً هو إبقاء السفير السابق في مركز الأحداث، وتزويده بأسباب مهمة للتنقّل بين لندن وبكين وموسكو يحمل رسائل من الملك – والسفر كما كان وبشكل روتيني في مهمّات عالية المستوى لواشنطن.

لأكثر من ربع قرن كان الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية يتحمل التدخلات الكثيرة للأمير بندر في مجال عمله، إلا أن أخاه تركي لم يكن يقبل بذلك. لقد استلم مهام عمله في واشنطن ليكتشف أن صهره يتجه إلى هناك بانتظام ليعيش من جديد الأيام الخوالي في إدارة بوش.

لم يكن الأمر إحراجاً شخصياً للأمير تركي – والذي نفاه بشكل رسمي وغير رسمي. ليس لديه مشكلة مع بندر، كما يقول، أو أي شخص آخر يحمل رسائل خاصة من الملك. هو يعرف جيداً كيف يسير العمل في النظام السعودي وقد كُلِّف هو أيضاً بحمل رسائل ملكية خاصة عندما كان مديراً للمخابرات. لكن الأمر محرج لباقي الموظفين السعوديين الذين يذهبون

لمقابلة مسؤولين كبار في الإدارة الأمريكية ليواجهوا هذا السؤال: «هل أنت مع تركي أم بندر؟»، لقد تعرّضت السياسة الخارجية للخطر هنا.

في الوقت الذي كانت فيه إدارة بوش تزيد من حملتها الهجومية ضد إيران في خريف 2006م كان الأمير تركي يطالب بالهدوء مؤمّلاً أن يتم تجنّب الحرب.

«إنه خطأ كبير ألا تتحدّث الولايات المتحدة مع إيران»، يقول الأمير تركي.

كان تركي في هذا الأمر يكرّر نفس السياسة الرسمية التي وضعها أخوه سعود، الذي طلب من أمريكا السنة الفائتة أن تعقد محادثات مع إيران بدلاً من تهديدها. أوضح وزير الخارجية السعودي أنه بعد إدراك الولايات المتحدة الخطر المتزايد للتأثير الإقليمي لإيران فإنها هي من يتحمل اللوم على «تسليم العراق على طبق من ذهب».

لكن بندر بن سلطان يقول أشياء تعجب أصدقاءه في البيت الأبيض، وخاصة ديك تشيني الذي يشترك مع بندر في الكثير من الصفات، وهو الآن يشجّع الولايات المتحدة على اتخاذ موقف صلب مع إيران — وهي رسالة تفضّل الإدارة الأمريكية سماعها بشكل علني من أبناء الفيصل. يعرف جورج بوش ما يريد أن يسمعه، وإذا كان هذا الشيء صادراً مباشرة من الرياض على ظهر طائرة بواسطة صديق قديم عائد للتوّ من عند الملك، فإنه بالتأكيد يحمل أهمية كبيرة أكثر من التعليقات الرافضة التي تصدر من سفير محلي لا يعرفه جيّداً.

صاحب كل هذا التباين في الآراء أزمة مالية تعصف بالسفارة ناتجة من سوء التفريق السعودي بين المال العالم والخاص، بالإضافة إلى ضعف قدرات المملكة في المهارات الإدارية. العدد الضخم لموظفي السفارة خلال سنوات عديدة أرهق الميزانية، وقد أمر عبد الله بالاقتصاد في النفقة في محاولة منه لفرض نظام مالي جيد في الشؤون الحكومية. لكن بندر تجاهل هذا الأمر— أو على الأصح قَبل الاقتصاد في النفقة – ثم أحدث الفارق عن طريق تحويل الموارد المالية الضخمة التي تتدفّق شهرياً على حساب بنك ريجز المحلّي من مشروع اليمامة. دعم الأمير الذي يكلّف بلايين الدولارات لخدمة مصالح دولته الدولية هو أحد الأسباب التي جعلته واثقاً في نفي اتهامات الفساد ضدّه.

لكن تركي الفيصل لا يملك أي مورد مالي ضخم مثل مشروع اليمامة. لقد أبلى جيداً فور وصوله إلى واشنطن اقتصادياً – إذ لم يكن من الصعب العمل بطريقة أقل بذخاً مما كان عليه سلفه – لكن كان هناك الكثير من الالتزامات التي لم يستطع الاستجابة لها مالياً. تراكمت المطالب المالية الكبيرة لأشهر كثيرة من شركة كورفيس للاتصالات، مستشار السفارة في العلاقات العامة، بالإضافة إلى شركات أخرى أيضاً. وجدت النداءات المتكررة من تركي للرياض آذاناً صمّاء. بعد نقص الميزانية في المخابرات وسفارة لندن أثناء فترات إدارة تركي لهما، كوّن الأمير عبد الله رأياً متواضعاً في قدرات ابن أخيه المالية. الأهم من ذلك أن عبد الله اختار عدم دعم تركي في حربه مع بندر.

لا يحمل الملك أي معاملة خاصة لمستشاره في الأمن الوطني. بل إنه لا يجد غضاضة في إسكات بندر عندما يشعر أنه قد تجاوز حدّه. لكن عبد الله

وقف الآن بجانب بندر رافضاً أن يقدّم المساعدة لتركي وهو الموظف النشيط وممثله الذي عينه بنفسه. ربما كان الملك موافقاً على رأي بندر في أن تضغط الولايات المتحدة على إيران، وربما كان سعيداً في وصول رسائل متناقضة لأمريكا. ربما، وهذا أفضل تفسير، اختار عبد الله عدم اتخاذ قرار بين شخصين قريبين وشعر أن على تركي أن «يتجاوز هذا الأمر».

لا يرى ابن الفيصل الأمر بهذه الطريقة. يعتبر أبناء الفيصل أنفسهم أرستقراطيين داخل فئة ارستقراطية. وصل خبر استقالة تركي إلى الرأي العام في ديسمبر 2006 م، بعد أقل من سنة من بداية عمله. رفض السفير المتقاعد، بلباقة كما هي عادته، أن يخوض في التفاصيل. أصرّ على أنه ذاهب من أجل أعماله الخاصة، وليس لأسباب سياسية، وبموافقة الملك الكاملة. لكن الشيء الأكيد أنه خلال ثمانية عشر شهراً ترك أميران مهمّان وموهوبان – من أفضل المؤهلين في العائلة – العمل الصعب في تمثيل المملكة العربية السعودية في أمريكا.

***

إذا كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد أضرّت كثيراً «بالعلاقة الخاصة» بين السعودية وأمريكا فإن الغزو الأمريكي للعراق قد أصابها في مقتل – في الوقت الراهن على الأقل. كان النفط مقابل الأمن هو أساس هذه العلاقة، لكن العراق أثبت عدم صحة هذه الفكرة. أثبت جورج دبليو بوش أنه، بدلاً من ضمان الأمن قد قام بخلق الفوضى والخطر هناك.

إذا أردنا الحديث نفطياً هنا فإن السعودية أوقفت في عام 2002م

تخفيضات الشحن التي كانت تمنحها لعقود طويلة لشركات مثل سوكال، تكساكو، إيسو، وموبيل وهي شركات النفط الأمريكية الأربع التي كوّنت شركة أرامكو الأصلية قبل سعودتها. على الشركات الأمريكية أن تدفع نفس الأجر الذي يدفعه الآخرون، كما أن المملكة لم تعد أكبر مزوّد للنفط للولايات المتحدة. ذهب هذا الشرف إلى كندا بمعدل 2.3 مليون برميل يومياً، ثم المكسيك بمعدل 1.7 مليون. نافست السعودية بمعدل 1.4 مليون برميل على المركز الثالث مع الصديق الطيب الآخر للولايات المتحدة الأمريكية: فنزويلا!

كان النفط هو محور اجتماع عبد الله مع بوش في كراوفورد بتكساس للمرة الثانية في 25 أبريل 2005 م. بعد الحادي عشر من سبتمبر بدأ سعر النفط بالارتفاع تدريجياً، وقد زاد من ارتفاعه أيضاً الغزو والفوضى في العراق، حيث إن سعر 55 دولاراً للبرميل يعني أن الجالون الواحد يكلف 2.42 دولاراً في الولايات المتحدة، أي أن السعر في طريقه إلى أن يكون ضعف مستوى 1.41 دولاراً الذي كان عليه عندما التقيا قبل ثلاث سنوات.

أصبح اللقاء الثاني مشهوراً بسبب الصورة التي بثتها وكالات الأنباء عن القائدين وهما يمشيان يداً بيداً حيث كان بوش يساعد عبد الله خلال حديقة مزرعته التي التقيا فيها – وهي علاقة حميمة غريبة تتناقض بشكل واضح مع تضارب المصالح لكليهما، وهذا ما يفسر عدم وضوح أهداف بوش. كان بوش يريد من السعودية استخدام مضخاتها في غمر السوق العالمية بالنفط لخفض سعر البرميل، لكن عادل الجبير، المتحدث بلسان عبد الله، أوضح عدم صحة هذا الأمر. «تستطيع المملكة أن ترسل مليوناً أو أكثر من البراميل النفطية

لأمريكا»، يقول الجبير، «لكن أمريكا لا تملك المصافي الكافية لمعالجتها».
كانت السعودية تبحث في استثمار إنتاج جديد لها لكن الغرب – وخاصة أمريكا – لم يبنِ المصافي الكافية اللازمة لاستيعاب هذا الإنتاج.

إذاً، النصف الآخر من المعادلة لم يتحقق. لا تستطيع أمريكا أن تضمن الأمن، كما أن السعودية لا تستطيع أن تضمن النفط الرخيص. كان من غير المتوقع أن تتجاهل المملكة الثورة الإعلامية ضد مشروع اليمامة وتتّجه نحو بريطانيا في 2007م لتزويدها بطائراتها الجديدة المقاتلة ذات التقنية العالية في عقد طويل الأمد تصل قيمته إلى 40 بليون دولار، الأمر الذي يعني إقفال الطريق أمام المصنعين الأمريكيين في المستقبل المنظور. «اذهب إلى الأوروغواي» هي فلسفة تعود من جديد على شكل انتقام – على الرغم من أن العلاقة الخاصة تمتلك حليفاً لا يمكن التنبؤ بما يفعل.

«لماذا لا أستطيع أن أرسل أبنائي لأمريكا؟» سأل الملك عبد الله مايكل تشيرتوف، سكرتير الأمن الوطني الأمريكي وهو يرحّب به في مزرعته بالجنادرية في ربيع عام 2008 م. يقصد الملك بكلمة «أبنائي» آلاف السعوديين الشباب الذين مُنعوا من الحصول على تأشيرات الدخول للدراسة في الولايات المتحدة بعد أحداث سبتمبر.

تحرك إمبراطور الأمن الأمريكي بشكل غير مريح محاولاً توضيح وجهة نظر حكومته إزاء المخاوف المتصاعدة من أخطار السعوديين الشباب، لكن الملك أوقف حديثه.

«شكراً جزيلاً يا سعادة الأمين». قال الملك، «لكن فكّر في هذا الأمر. هل تعتقد أن أمريكا ستكون أكثر قلقاً حول تطرّف أبنائي مني؟».

كان تشيرتوف أحد الزائرين الكثر من أمريكا ذلك الصيف، بمن فيهم جورج بوش الذي جاء إلى المملكة بعد حضوره في القدس احتفالات إسرائيل بمرور ستين سنة على إنشائها في عام 1948م. في الرياض، كان هناك احتفال آخر – الذكرى الخامسة والسبعون للعلاقات الدبلوماسية السعودية الأمريكية التي بدأت بتوقيع عقد التنقيب عن النفط في عام 1933م. سُمّي هذا الاجتماع بقمة المها العربي لأن اثنين منها تم إرسالهما إلى الحديقة الوطنية في واشنطن.

وجد الملك عبد الله سروراً في المقارنة بين الاحتفالين وطولهما الزمني باسطاً قبضتي يديه أمام الرئيس كما لو كان يزن ستين أو خمساً وسبعين سنة من الصداقة ويضعهما في كفّتين. حرّك يديه في الهواء نحو الأعلى ونحو الأسفل – ستون، خمس وسبعون – ثم نظر إلى الوفد الأمريكي وهو يعرف الإجابة. لم تنته حالة الفرقة بين السعودية وأمريكا التي سعى بن لادن لتحقيقها. ثم بعد أشهر قليلة جاءت الانتخابات الرئاسية في نوفمبر 2008م، وانتصار القائد الأمريكي الأفريقي الجديد باسمه الغريب.

استقبل فريق باراك حسين أوباما اتصالاً من المملكة العربية السعودية بعد ساعات من انتصار هذا المرشح. سوف يصل عبد الله خلال ثلاثة أيام لدورة خاصة للأمم المتحدة لعقد حوار الأديان الذي اقترحه الملك أوائل تلك السنة في مدريد. أراد جلالة الملك أن يتصل ويهنّئ الرئيس المنتخب

الجديد.

«لا تتصلوا بنا، سوف نتصل نحن بكم»، جاءت الإجابة المتحمسة. كانت عادة بروتوكولية. إذا جاء الملك ضيفاً على الأرض الأمريكية فإن هذا يعني أن على أوباما أن يتصل مرحباً به — وبهذه الطريقة يستعد الرئيس المنتخب للزيارة ويُحضر بجانبه المترجم وهو يتكلم.

جاءت المكالمة بعد دقائق من هبوط عبد الله في مطار كينيدي في 7 نوفمبر. ركب الملك وفريقه سيارات الليموزين متجهين نحو مانهاتن.

«سمعت كثيراً يا جلالة الملك عن تفضيلك للحديث الصريح والمباشر»، قال له أوباما الذي درس جيداً الملاحظات التي معه، «هذا هو الأسلوب الذي أفضّله وأنتظر فرصة أن نتحدث سوياً».

تمنّى الرئيس المنتخب التوفيق للملك في اجتماع حوار الأديان وفي مشاركته في اجتماع الدول الصناعية العشرين في واشنطن (احتلت السعودية المرتبة السابعة عشرة في قائمة الدول القوية اقتصادياً في العالم، خلف تركيا ومتقدّمة بسهولة على باقي الدول العربية). استمرت المكالمة زهاء سبع دقائق وانتهت بتمنيات عبد الله أن يلتقيا وجهاً لوجه في القريب العاجل — «إن شاء الله».

«إن شاء الله»، ردّ عليه أوباما على الطريقة الإسلامية التي يعرفها جيداً.

سرد الملك عبد الله في وقت لاحق تفاصيل محادثته مع أوباما لمجموعة من السعوديين الذين جاؤوا للترحيب به في مانهاتن.

«سمعته يقول: إن شاء الله، ضحك الملك للحشد القليل أمامه».

«بإذن الله»، أضاف الملك مداعباً، «سوف نجعل منه مسلماً حقيقياً في القريب العاجل».

الفصل الثاني والثلاثون



فتاة القطيف

يحب الملك عبد الله لعبة البولو الفرنسية التي سبق أن تعلّمها في المناطق الرملية بلبنان، وكان يلعبها لساعات طويلة. هزم فيها الأمير تشارلز عند زيارته للمملكة في فبراير 2004، لكن بحسب قانونه للعبة فإن الملك يفوز دائماً.

تُمارس هذه اللعبة في الصحراء حيث يأخذ اللاعبون راحتهم على الوسائد في الخيمة الكبيرة ذات السجّاد الفاخر. يوجد خارج الخيمة مربع صغير من الأرض الخضراء معلّمة بسهام سوداء، حيث تُرمى الكرة من على بعد ثلاثين قدماً تقريباً في الصحراء.

يترك اللاعب مكانه في الخيمة ليتجه إلى مكانه في الأرض الخضراء لأخذ كرة البولينج المكتوب اسمه على شريط فيها. مثل قوانين لعبة البولينج، ترمى الكرة بالقرب من الهدف، ومن المسموح به – بل ويفضّل إبعاد منافسيك عن الطريق.

عندما ينتهي اللاعبون من الرمي، يتقدّم الملك فيتَغَيّر ميزان القوى، لأن عبد الله يحتفظ بالضربة القاضية. كان دائماً يمتلك الرمية الأخيرة — بل إنه في إحدى المناسبات كان لديه كرتان من البولو ليرميهما. لهذا فالملك هو من يحرز دائماً بطولة البولو الملكية في السعودية، وبعد فوزه يمسك بحفنة من الذهب ويسلّمها لصاحب المركز الثاني — لأنه في مثل هذه اللعبة الملكية العادية، يكون هذا الشخص هو الفائز بطريقة ما.

***

يقضي عبد الله الكثير من الوقت مخيّماً في الصحراء مع صقوره. لكنه الآن يفضّل البقاء في مزرعته شمال الرياض حيث يحتفظ هناك بالخيول العربية الأصيلة في اصطبلاتها البيضاء الأنيقة. تم تصميم نافذة ضخمة في غرفة جلوسه لكي تطّل على منظر الحيوانات وهي ترعى بالقرب من البحيرة المائية. يحب الملك مشاهدتها في صباحات الخميس، أي بداية الإجازة الأسبوعية السعودية. إنه الوقت المفضّل لديه للاسترخاء — على الرغم من أن رجاله يسعدون كثيراً عندما يظهر لهم لكي يمارس التدريبات بأحذيته الرياضية السميكة الملونة. يساعد المشي والسباحة يومياً على إبقاء ملك الموت بعيداً.

كما حدث في الأيام الأخيرة لفهد، كان هناك تلك القوة المحيطة بالملك والتي تهتم كثيراً ببقاء راعيها على قيد الحياة — لكن في حالة عبد الله كان يشترك الشعب كله مشاركاً في هذا الموقف.

«هو معاويتنا»، تقول هالة الحوطي، مديرة تنفيذية من جدة والبالغة من العمر الرابعة والثلاثين وإحدى النساء السعوديات العاملات من الجيل الجديد، «وندعو الله ألا نفقد شعرة معاوية».

نُقِل عن الخليفة معاوية -كاتب وحي الرسول- قوله: «لا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا شدّوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها». كان أسلوب معاوية في الحكم يعتمد على الإحساس الزائد بالاحترام المتبادل، وقد أحسن نظام التعليم في المدارس السعودية بغرس مثل هذا التعلّم الكلاسيكي رغم أنه فشل في تعليم أطفالنا التفكير باستقلالية.

يتصل معاوية المعاصر مع شعبه من خلال مكتبه في الرياض، حيث يوجد في أعلى مكتبه آيات قرآنية مكتوبة باللون الذهبي والأسود، إذ يفضّل هذه الآية من سورة الرعد: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم». هذا هو أساس ما يؤمن به عبد الله في محاولاته إحداث التغيير في المجتمع السعودي. هناك أيضاً جدار كامل مليء بشاشات التلفزيون — شاشة مسطحة ضخمة محاطة بعشرين شاشة تلفزيونية لجميع القنوات التلفزيونية الفضائية التي يشاهدها الشعب السعودي في تلك اللحظة. كل شاشة تحمل رقماً، فإذا لفت شيء انتباه العين الملكية يقوم عبدالله بالضغط على ذلك الرقم في لوحة التحكم عن بعد الموجودة بجانبه. فجأة يظهر الصوت وتنتقل الصورة إلى الشاشة الضخمة. يجلس هذا العربي ذو السادسة والثمانين عاماً، بانتباه أمام هذه الشاشة التلفزيونية التي قد يتابع من خلالها سفينة إنتربرايز الفضائية الخيالية. ينفث أحياناً سيجارته من نوع ميريت وهو يحاول فهم ما يفكّر به شعبه.

ومن أجل دعم ما يفكّر به الملك، يقوم فريق من الباحثين بمشاهدة هذه القنوات الفضائية بانتظام وكتابة تقارير يومية تُقْرَأ على عبد الله كل ليلة. فريق آخر مشابه يراقب الصحافة والإذاعة وخاصة تلك البرامج المباشرة التي يقدّم فيها الناس مظالمهم، بينما يقوم فريق خبير رابع بزيارة المدونات والمواقع العدائية المتطرّفة. كل هؤلاء يشكّلون فريقاً رباعياً بتجهيزات معلوماتية تضاهي فرق مرشحي الرئاسة الأمريكية. في أوائل عام 2008 م، على سبيل المثال، حذّر هذا الفريق الرباعي عبد الله من الغضب الشعبي بسبب البطالة المنتشرة. ظهر الدكتور محمد القنيبط، أحد أعضاء مجلس الشورى والكاتب الصحفي، في التلفزيون للتعبير عن إحباطه الشديد تجاه كل جوانب سياسات عبد الله المحلية.

«مستشارو الملك»، يقول القنيبط، «يخلقون غمامة من الفوضى حوله».

كان الدكتور القنيبط يقول ما يشعر به الناس، وقد اتضحت صحّة كلامه عندما تعرّض هاشم يماني، وزير التجارة، لسؤال عن سبب ارتفاع سعر الأرز. أصبح الأرز (وخاصة نوع بسمتي) والذي كان طعاماً أجنبياً، عنصراً أساسياً في الوجبة السعودية، لكن وزير التجارة ردّ على السؤال على طريقة ماري أنطوانيت.

«هناك تسعة عشر نوعاً من الأرز»، ردّ الوزير، «وليس إجبارياً أن يأكل الناس من النوع الأغلى».

النظام السعودي ليس ديمقراطياً، لكنه عادة يستجيب لما يطلبه الناس.

سارع عبد الله في التصرف عن طريق زيادة الإعانة المالية الحكومية لهذه السلعة وزيادة رواتب الموظفين ثم أقال وزير التجارة، لكن الملك أيضاً حذّر المتحدّث الناقد الذي لعب دور جريدة الشعب من التمادي في الكتابة والنقد مبيّناً أن الملك وحده هو من يرمي الكرة الأخيرة في السعودية.

***

في أحد الأيام، عام 2006، جاء مهدي المشيخص، وهو طالب هندسة في المنطقة الشرقية، متأخراً إلى خاله فؤاد المشيخص في حالة يُرثى لها. استلم أقارب هذا الشاب رسائل غريبة عن خطيبته. وكان الشابان يلتقيان أحياناً منذ بضعة أشهر بحكم أنهما قد كتبا عقد الزواج، المِلْكَة، أي العقد الذي يسمح لهما بالخلوة والعلاقة الجنسية، وقد كان مهدي سعيداً جداً مع زوجة المستقبل حتى اللحظة التي اطلع فيها على هذه الرسائل. لكن المكالمات الهاتفية بيّنت أنها كانت تلتقي أشخاصاً آخرين من خلف ظهره. إذا كان هذا الأمر صحيحاً فإن مهدي لا يرغب المضي قدماً في زواجه هذا.

فؤاد المشيخص هو الشخص الذي يلجأ إليه جميع أفراد العائلة بحثاً عن النصيحة. فؤاد رجل هادئ وحصيف ويعمل كمصمم جرافيكي في الأربعينات من العمر، كما أنه ناشط في المجتمع الشيعي في القطيف، في المنطقة الشرقية، ويتمتع برباطة جأش مكّنته من الذهاب إلى المنفى مع أصحابه وهو في الخامسة عشرة من العمر معتمداً على نفسه في أزمنة صعبة ومريرة. يحمل صدغه أثراً من طلق ناري أصبح تذكاراً شخصياً له عن انتفاضة 1979م. يقدّم فؤاد النصيحة والاستشارة للشباب الشيعة في منطقة القطيف بعد عودته إلى المملكة مع زملائه المنفيين في نهاية عام 1993م، كما أنه

يقوم بتدريس التصميم الجرافيكي بالكمبيوتر خلال نهايات الأسبوع.

«لا تستعجل. يجب أن تهدأ وتتحدث معها أولاً»، أخبر ابن أخته الذي كان على وشك إنهاء دراسته في جامعة البترول والثروة المعدنية في الظهران. لكن عندما قابل فؤاد الزوجين لاحظ أن الفتاة كانت مصدومة على نحو ما. كانت خائفة من الكلام.

«هل ستعطيني حقوقي؟» انفجرت الفتاة بشكل هجومي بعد أن طلب فؤاد من ابن أخته أن يتركهما لوحدهما.

«أستطيع أن أعدك»، ردّ فؤاد عليها «أنني لن أخبر أحداً إلا إذا وافقت على ذلك».

ولأول مرة، سردت «فتاة القطيف» القصة المثيرة التي احتلت العناوين الرئيسية حول العالم في الأشهر الأخيرة من عام 2007م - والتي كانت تمثّل رمزاً لأشياء خاطئة وأشياء قليلة صحيحة في سعودية الملك عبد الله. اعترفت الفتاة أنه تم اقناعها، قبل أن تقترن بمهدي، بتسليم صورة لها إلى صديقة قامت بدورها بتسليمها إلى شخص قريب لها، شاب وسيم أصغر منهما بسنة تقريباً اسمه حسن، كان أحياناً يأخذهما إلى المركز التجاري.

«هل أستطيع أن أرى الصورة؟» هذه هي الخدعة السائدة بين السعوديين الشباب الذين لا يجدون فرصة للالتقاء والتعرّف على بعضهما البعض. تجد استديوهات التصوير التي يديرها الباكستانيون والهنود رواجاً كبيراً في

الأسواق السعودية، كما يقول فؤاد، حيث يقومون بإضافات رومانسية جذابة إلى الصورة. أُخِذَت صورتها هذه قبل سنتين. تلبس الفتاة التي غطت شعرها باحتشام تنورة سوداء بغطاء برتقالي وتقف إلى جانب شجرة بلاستيكية صغيرة تحتوي على مجموعة منوّعة من الفاكهة البلاستيكية المتخيَّلة.

أخبرت الفتاة فؤاد أنها لم تختلِ أبداً بحسن ولم ترفع غطاءها أبداً لتريه وجهها. لكن بعد أن رتّبت عائلتها عقد الزواج مع مهدي بدأت بالقلق من الصورة التي بحوزة حسن. ازدادت عاطفة الحب بين المخطوبيْن الجديديْن، واكتشفت الفتاة أن زوجها / خطيبها من النوع الذي يحب التملّك إذ وصفت مهدي كما في العامية المصري أنه من النوع «الحِمِش»، أي تلك الطريقة التي يسيطر فيها السعوديون على نسائهم. وحيث إنها لا تريد أن تخاطر في فقدان الرجل الذي أحبّته فقد اتصلت بصديقتها لتطلب استعادة الصورة.

أخبرتها صديقتها بمشكلة بسيطة وهي أن حسن يريد أن يقابل صاحبة الصورة للمرة الأخيرة. سوف يسلّمها الصورة، كما وعد، في مركز سيتي بلازا، وهو المركز التجاري الذي لا يبتعد كثيراً عن منزل عائلتها، لكن بشرط أن يقابلها لوحده. ونظراً لحرصها الشديد على إنهاء هذا الأمر فقد تحرّكت الفتاة مشياً على الأقدام من منزلها إلى المركز التجاري حسب الموعد المحدّد وهو الساعة التاسعة من تلك الليلة.

لم تكن راضية على الطريقة التي أجبرها فيها حسن لمقابلته، وبينما كانت تحاول الانعطاف يساراً لتتجه إلى الشارع الرئيسي لاحظت بانزعاج شديد سيارة تهدّئ من سرعتها وتحاول الاقتراب منها. كان في السيارة ثلاثة

أشخاص يمدّون رؤوسهم نحوها ويلقون عليها بعض الكلمات المستهجنة. أسرعت نحو المركز التجاري ووبّخت حسن لإخباره هؤلاء الأشخاص الذين افترضت أنهم أصدقاؤه، لكنه حَلَف لها بأنه لا يعرف شيئاً – وكان خائفاً مثلها تماماً، وهما يهربان من الباب الخلفي للمركز، ليتفاجأ الاثنان بوجود الثلاثة هناك ينتظرونهما. ركب الاثنان السيارة ليلحق بهما هؤلاء الأشخاص بسيارتهم. وبعد خروجهما عن الطريق الرئيسي تجاوزتهم السيارة وأجبروهما على التوقف. تحولت المغامرة الساذجة إلى كابوس حقيقي واقعي. استخدم اثنان من أفراد العصابة السكّين لإخراجهما من سيارتهما وإركابهما في أرضية المقعد الخلفي لسيارتهم حيث جلس بينهما أحدهم واضعاً قدماً على كل واحد منهما.

«تعالوا إلى هنا»، سمعاه وهو ينادي أصدقاءه بفخر على الهاتف، «لدينا ولد وفتاة هذه الليلة!».

لم يستطع فؤاد المشيخص تصديق ما يسمعه. لكنّ ما تبع ذلك كان أسوأ. وصفت زوجة ابن أخته بعد أن وصلوا إلى مزرعة بأرض وعرة كيف نزعوا عباءتها وسحبوها من السيارة إلى غرفة جلوس بدائية. كان هناك وسائد بالقرب من جدران الغرفة وحصير قذر مصنوع من سعف النخيل في وسط الغرفة. وصل أربعة أشخاص إضافيين ملثّمين يضعون أشمغتهم على وجوههم فلم تستطع رؤية معالمهم. طلبوا منها أن تنزع ملابسها وتستعد لممارسة بعض «المتعة». عندما رفضت ذلك ضربوها بسعف النخيل إلى أن تمزّقت القطعة الرقيقة التي كانت تلبسها تحت عباءتها. توسّلت إليهم وأخبرتهم أنها متزوّجة ومن عائلة محترمة. توسّلت إلى الله ودعته، لكنهم كانوا يضحكون عليها. ثم طرحوها أرضاً فوق حصير الغرفة واغتصبوها واحداً بعد الآخر. وأثناء انتظار

دورهم في الاغتصاب كانوا يصوّرونها بأجهزتهم الجوّالة وهم ينظرون ويهتفون على وسائدهم في الغرفة.

«إذا تكلّمتِ»، قالو لها مهدّدين، «فسوف نقوم بنشر هذه الأفلام في كل مكان».

استمرت محنة الفتاة لساعات —حتى الساعة الثانية صباحاً، كما اعتقدت هي— وأثناء ذلك أيضاً قام أربعة أشخاص بربط حسن واغتصابه وتصويره أيضاً.

بكى فؤاد. لم يستطع تصديق ما سمعه. استغرقت الفتاة أربعين دقيقة في سردها للقصة. ابتزاز الفيديو الأخير أقنع فؤاد أن المهاجمين أفراد عصابة منظمة يخطفون الضحايا وينفّذون الاغتصاب بعربدة بشكل روتيني. لقد خططوا لكل شيء بتفاصيله، حتى أنهم يقومون بنسخ أرقام الهاتف من جوالات ضحاياهم قبل أن يطلقوا سراحهم. لقد فهموا المجتمع السعودي جيداً. هنا تكمن أهمية «الوجه» أو السمعة في هذه الثقافة العائلية التي تبحث فيها العائلة عن منتهكي ستر بناتها لتدفع لهم من أجل أن يصمتوا. أدرك الأشخاص الذين اغتصبوا فتاة القطيف أن المجتمع الشيعي في القطيف سوف يتستر على جريمتهم.

***

يمثّل فؤاد رمز الحداثة في مثل هذه القصة المأساوية. فكّر طويلاً لمدة أسبوع في ما يمكن أن يقوم به. كان مذهولاً. وجد أنه من الصعب القيام بأي

عمل، وأمضى الكثير من الوقت في المشي مبتعداً عن منزله حتى لا تلاحظ عائلته الألم والكرب الذي يشعر به. قابل الفتاة مرة أخرى ليحاول التأكّد من التفاصيل، ثم طلب الالتقاء بالزوجين مرة أخرى.

•

«نحن هنا أمام مشكلة كبيرة، ويجب أن نواجهها»، قال لابن أخته. عندما تسمع ما حدث، سوف تُصدم، ويجب أن تكون قوياً. يجب أن تتصرف كرجل وتقف بجانب زوجتك- حتى عائلتك، عندما تسمع ما حدث فلا ينبغي أن تصرّ على الطلاق.

استمع مهدي وعمل كما أخبره خاله. وقف إلى جانب زوجته. إحساسه بأنه ذلك النوع «الحمش» من الرجال جعله يصرّ على الانتقام من أولئك المجرمين، وقد بيّن غضب هذا الشاب الطريق الذي سيسلكه فؤاد. لم يكن قادراً على المشي قدماً في قضية فتاة القطيف من دون دعم زوج المستقبل لهذه الفتاة. أصرّ فؤاد على لعب دور شيرلوك هولمز في هذه القضية.

«هل تذكرين أي شيء عن المجرمين؟».

غياب الدليل المادي هو مشكلة إحضار هؤلاء المجرمين إلى العدالة. عادت الفتاة أخيراً إلى المنزل بعد الحادثة باكية وهي تشعر كما لو كانت في غيبوبة. اعتقدت عائلتها أنها تعاني من مشكلتها القديمة مع فقر الدم. أخذوها سريعاً إلى المستشفى حيث لم تذكر أنها تعرّضت لاغتصاب. ولم يتم فحصها داخلياً، ولم تُؤخذ عينة الحمض النووي – وحتى لو تم ضمان ذلك فالمستشفيات السعودية لا تحتوي على تنظيمات معينة تساعدها على

توجيه اتهامات بالاغتصاب، بل إن الأطباء –رجالاً ونساءً– في غرف الطوارئ تعوّدوا على رفض سماع أو قبول ما يحاول المريض الضحية أن يقوله.

عرف فؤاد أن الأمر سيكون أسوأ من ذلك عند الشرطة المحلية. وحتّى لو تم تقديم الدليل فإنهم سيفترضون أن المرأة تبالغ في التحريض: موعدها مع حسن سيضعف من حالتها. إذاً، كيف لفتاة القطيف أن تثبت براءتها؟

«أتذكّر»، قالت الفتاة لفؤاد، «أن بعضهم كان له رائحة نفّاذة قوية، مثل رائحة السمك».

أمسك فؤاد بالمفتاح الأول. اتصل فؤاد بحسن الذي أدّى رفضه تسليم الصورة إلى بداية هذه المشكلة. قد يصلح الولد بعض أخطائه، كما قال له فؤاد، بالذهاب معه إلى سوق السمك المزدحم في القطيف، وهو السوق الرئيسي على الساحل الشرقي، حيث سيمشي هناك أمام المحلات ببطء. كانت خطة فؤاد أن يراقبه من بعيد ليرى ما إذا كانت هناك ردة فعل لوجود حسن هناك.

ذهب فؤاد وحسن مرتين إلى سوق السمك، وفي الزيارة الثانية نجحت الخطة. عندما كان الولد يمشي عبر الممر الرئيسي الطويل والضيّق للسوق الذي ملأته المياه وموازين الأسماك اللامعة، رأى فؤاد شخصين أمام إحدى المحلات وهما يومئان لبعضهما البعض في حذر. اختفيا خلف ثلاجتهما الكبيرة ولم يظهرا حتى مرّ حسن بسلام.

الآن يحتاج فؤاد إلى تأكيد من الضحية الأخرى.

«لن يتمكّنا من رؤيتك»، أكّد لها فؤاد، «بسبب حجابك».

ذهبت فتاة القطيف إلى ذلك المحلّ كما أمرها فؤاد، وتوقّفت أمام بعض الأسماك. كان سمكاً جيداً، أخبرت فؤاد لاحقاً لكنها رفضت أن تدفع ريالاً واحداً لهذين الحيوانين اللذين سبّبا لها هذا الألم الكبير. أصابها الرعب وكادت أن تفقد وعيها في المكان. نعم، أكدت لفؤاد – هذا الشخصان اللذان اختفيا خلف الثلاجة كانا فعلاً من اختطفها.

وجد فؤاد الآن متّهميْن حيث قضى الأيام اللاحقة يجمع أسماءهما وأرقام الهواتف، وأرقام السيارات. كتب كل هذه التفاصيل على ورقة محدداً النقاط الرئيسية، على شكل رسالة من مهدي يطلب فيها العدالة. ذهب بدلاً من ذلك إلى مجلس أمير المنطقة الشرقية الأمير محمد بن فهد.

هنا تجد شيئاً يستحق التأمل في هذه القصة الأخلاقية الحديثة القديمة. حَكَم محمد، الابن الأكبر للملك فهد، منطقة البترول السعودية لأكثر من عقدين من التطور المدهش فيها، وقد استفادت مشروعاته التجارية التي يديرها أخوه وأبناؤه، من هذه المنطقة كثيراً. قد يثير الربط بين المنصب العام والربح الخاص العديد من الأسئلة الأخلاقية في أجزاء أخرى من العالم، لكن في السعودية هكذا تسير الأمور. هناك منتقدون كثر في هذه المنطقة المزدهرة والكبيرة من المملكة التي يحكمها، لكن بفضل هذا الأمير تم إحضار هؤلاء المغتصبين للوقوف أمام العدالة.

«رأيت ذلك في وجه الأمير»، يقول فؤاد، «لقد صُدِمَ فعلاً ببعض التفاصيل. لقد علّمتُ هذه التفاصيل بالقلم الأسود على الورقة التي سلّمتها له. تغيّر لونه». لماذا لم تذهب إلى شرطة القطيف؟ «سألني الأمير». أنا خائف من الشرطة، رددت عليه، «أكثر من خوفي من هؤلاء المجرمين».

بعد أيام قليلة كان فؤاد يجلس على طاولة في منتزه بكورنيش الدمام متحدّثا إلى اثنين من ضباط المباحث، وبينما كان يشاهد الضابطين وهما يستجوبان زوجة ابن أخته، لم يستطع إخفاء إعجابه بعملهما. لقد تم اختيار هذين الضابطين من قبل مكتب الأمير شخصياً للإشراف على القضية، وفي الأيام اللاحقة قاما باختيار فريق حقّق الكثير من النتائج. بعد إجراء التحرّيات اللازمة، قبض المحققون على بائعي السمك اللذيْن قاما بالكشف عن أسماء أصحابهما. اعترف العديد منهم. ومع تحوّل الأحداث إلى هذه المرحلة الإيجابية، قرّر مهدي وزوجته الانتقال للعيش سوياً في بيت أم مهدي، الذي لا يبعد كثيراً عن مقبرة القطيف، مقابل منزل فؤاد. لقد ساعدتهم هذه المحنة على أن يكونا زوجاً وزوجة.

***

اعتقد فؤاد أن العدالة ستأخذ مجراها، لكنه لم يعتمد كثيراً على نظام القضاء السعودي الذي يعتمد على الشريعة، أي قانون الله الثابت الخالد المستمد من القرآن والسنّة. وبسبب أن القانون فرع من الدين فإن القضاة السعوديين هم من المشايخ والكثير منهم ينتمي للمذهب الوهّابي المحافظ والذين ينصرون وجهة نظرهم للفضيلة والمعروف ورفضهم للمنكر، خاصة إذا كان المنكر يتعلّق ببدع ذات طبيعة غربية. هذا يعني، في قضية فتاة القطيف،

أن القضاة الثلاثة بدأوا مداولاتهم بالتركيز على العلاقة التي سبقت الزواج وأدت بالفتاة إلى الذهاب إلى سيتي بلازا في تلك الليلة المأساوية. كان هذا هو الخطأ الواضح الوحيد بالنسبة للمحكمة. تراجع المغتصبون عن اعترافاتهم فلم تتم إدانتهم، أما الفتاة فقد وقّعت «اعترافاً» للشرطة وهو موجود في سجلاتها.

«الشريعة واضحة»، يقول الشيخ عبد المحسن العبيكان الذي كان قاضياً بنفسه وهو الآن أحد أعضاء مجلس الشورى، «إذا اعترفت بالزنا، فإنها تُرجم. وكما هو في الحادثة فقد اعترفت بدون تحفّظ بعلاقة محرّمة قبل الزواج».

اعتبر قضاة القطيف الثلاثة، وجميعهم سنّة مخلصون، أنهم تساهلوا في الحكم على المرأة الشيعية الشابة المذنبة – وكذلك مع الرجل الذي كانت معه السيارة – فقط تسعين جلدة وشهرين في السجن. أما بالنسبة للمدّعى عليهم الآخرين، فإن اتهام الاغتصاب الجماعي كان ادعاءً من مذنب سُجّل اعترافه ضد مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يدافعون عن براءتهم، والذين إن ثبتت إدانتهم فقد يدّعون أنهم تعرّضوا للإغراء من قبل امرأة سُجّل أمر سلوكها الخاطئ بشكل رسمي. أما حادثة الاختطاف فقد ثبت وقوعها، لكن من يستطيع أن يبيّن ما حدث بالضبط بعد ذلك؟ كانت القضية باختصار كلمتها ضد كلمتهم. وبالنظر إلى عدم كفاية الأدلة الدامغة فلم يطبّق القضاة الحكم الشرعي بالموت للاغتصاب. الحكم عليهم بأحكام من عشرة أشهر إلى خمس سنوات هو حكم مناسب، في رأي القضاة.

وأثناء نطق حكم المحكمة، نظر المغتصبون بشكل ساخر إلى ضحيتهم.

لقد تم استدعاؤها للظهور والوقوف إلى جانبهم كمجرد زملاء في جريمة جنسية، وليس كامرأة تتهمهم باغتصابها. لقد وفّر فؤاد العدالة السعودية لزوجة ابن أخته، لكنها لم تكن العدالة التي يطمع بها.

***

سيظهر فؤاد المشيخص، للقرّاء الغربيين، كبطل في هذه القصة. لكن ليس هذا هو الاعتقاد السائد للعديد من الناس في القطيف. بمجرد أن بدأت عمليات الاعتقال، اتجه الناس إلى اتخاذ مواقف مختلفة، كان الأغلب فيها ضد فريق فؤاد.

«عندما أعود إلى المنزل كل مساء»، يقول فؤاد، «يكون هناك مجموعة من الأصدقاء والجيران الذين يدورون حول منزلي».

كان فؤاد يعرض عليهم تناول الشاي معه، وبعد الحديث التقديمي العادي يعرض معظم الزائرين عليه نفس النصيحة، «اترك القضية. لا تثر الموضوع».

توسّلت إليه عائلته أن يتنازل عن قضيته، بينما هدّدت عائلة زوجته بأخذها منه وطلب الطلاق. رفض أحد أحبّ أعمام فؤاد –وما زال– أن يصافح فؤاد، وهو نفس الاتجاه الذي تبنّاه الشيخ المحلي المهيّج نمر النمر الذي شجب على نحو علني أي شخص يسلّم أبناء الشيعة لبراثن النظام القضائي السنّي الكافر. ينتسب بعض المغتصبين إلى عائلة فؤاد، حيث جاءت بعض زوجاتهم إليه متوسّلات إليه أن يتنازل عن القضية.

«لم يذنب زوجي في هذا»، قالت إحداهن وهي تبكي، «لا ألومه أبداً. لقد تمّت دعوته من قبل امرأة عاصية».

عندما صدر قرار المحكمة، بدت الأحكام مُرضية للعديد من أفراد المجتمع القطيفي الذين كانوا يرون فؤاد شخصاً مثيراً للمشاكل. لكن لنفس ذلك السبب فقد رفض فؤاد الاستسلام.

«أخبرت الناس أنه كلما ازداد ضغطكم علي، كلما ازداد إصراري على زيادة الدائرة أكثر من ذلك».

وافق ابن أخته مهدي على موقفه. كان الشاب مصرّاً على حماية زوجته من الجلْد. قرّر الخال وابن الأخت أن يستأنفا الحكم متجّهاً إلى الإعلام السعودي وإلى عبد الرحمن اللاحم، وهو محام شاب مثير للجدل من الرياض يهتم كثيراً بقضايا حقوق الإنسان. الآن سيخضع اثنان من مقوّمات المجتمع المدني لعبد الله للاختبار وهما الحداثة والإصلاح.

«في البداية»، يقول فؤاد، «تجنّبت الرأي العام. توقّعت أن هذا سيربك القضاة. لكن كان لدي صديق صحفي كتب مقالاً صحفياً حول ضحايا الاغتصاب واستجابة المجتمع. لم يذكر الأسماء، لكننا تلقّينا سبعمائة ردّ تحدّث أغلبها عن الواقعة. كان من الواضح أن الناس كانوا يعرفون هذا الشيء وكان معظمهم ضد المجرمين. كانوا يريدون حكم الإعدام. قرّرت بعدها أن أوسّع الدائرة أكثر من ذلك».

على المدى البعيد، أدّى توسيع دائرة القضية إلى التأثير عليها سلبياً.
في نوفمبر 2007م، وافق القضاة، الثلاثة العاملون في محكمة القطيف العامة، الرأي الذي يقول إن أحكامهم لم تكن بالقوة الكافية على الجميع. زادوا أحكامهم على المغتصبين إلى فترات سجن تتراوح بين اثنتين إلى تسع سنين. لكنهم أيضاً ضاعفوا عقاب الضحايا، فتاة القطيف وحسن، إلى مائتي جلدة وستة أشهر في السجن. كما صادر القضاة رخصة المحامي الرسمية عبد الرحمن اللاحم على أساس أنه أضّر بسمعة المحكمة عندما صرّح للإعلام عن القضية. اعتبر موظف في المحكمة، في بيان رسمي نادر، أن مضاعفة الحكم على المرأة كان بسبب «محاولاتها التصعيد والتأثير على القضاة من خلال الإعلام».

انتقلت قضية فتاة القطيف إلى العناوين الدولية. أبدت وزارة الخارجية الأمريكية رأيها في القضية. وكذلك فعلت هيلاري كلينتون في حملتها الانتخابية، والعديد من الكتاب الصحفيين في أكثر من لغة. أدت محاولات قضاة القطيف لقمع امرأة شابة بسبب نشر محنتها إلى نتيجة عكسية. أصبحت هذه القضية هي حديث الشارع السعودي. لخّصت فكرة لوم الضحية وأنها بطريقة ما «دعت» إلى هذا الاغتصاب، القانون المقلوب رأساً على عقب للقيم التقليدية والعادات في المملكة. لاحظ المراقبون إعلان الملك عبد الله خططه الطموحة في أكتوبر لإصلاح النظام القضائي في المملكة محاولاً التقليل من سلطة علماء الدين والمشايخ. الآن، نحن في نوفمبر، ويبدو أن علماء الدين قد ردّوا سريعاً.

«لو كنت قاضياً في القطيف ذلك اليوم»، صرّح إبراهيم بن صالح

الخضيري، وهو قاض في محكمة الاستئناف بالرياض، «لكنت قد حكمت عليهم جميعاً بالموت. المرأة وصاحبها محظوظان بعدم الحكم عليهما بالموت».

وأثناء استماعه إلى مثل هذا النوع من التأكيدات على التفزيون الذي تحوّل إلى مناقشة موضوع «شرف» فتاة القطيف، قرّر مهدي المشيخص أن يتصل بالبرنامج.

«ما دامتم تخوضون وتطلقون الأحكام على شرف زوجتي»، قال مهدي. «فأنا أريد أن أوضّح لكم أمراً وهو أنكم لا تعرفونها. أما أنا فأعرفها. استمعوا إلي. أنا زوجها وسوف أخبركم بالحقيقة».

أدّت هذه المداخلة النارية العلنية إلى نتائج. في أقل من شهر، استعاد عبد الرحمن اللاحم رخصته في ممارسة المحاماة، وبعد أسابيع لاحقة أصدر الملك عبد الله قراراً بالعفو عن فتاة القطيف وحسن.

«لم يكن لدي أدنى شك»، قال اللاحم المثير للجدل –الليبرالي الآن، والمتعصّب السلفي السابق– «إنه في النهاية سيصحّح الملك عبد الله كل شيء خاطئ في هذه القضية».

أمر عبد الله في رسالة العفو التي أصدرها بتحقيق في ما أسماه «بالنفق المظلم للظّلم» الذي أحاط بالمغتصبين، وعلاقاتهم بالشرطة المحلية، والاستجابة الظالمة للنظام القضائي – وهو تحقيق لم تظهر بعد نتائجه. أثبتت

تحقيقات الشرطة أن المغتصبين، والذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين والثانية والأربعين، لهم علاقة وطيدة بتجارة الكحول والمخدرات. إنهم يمثّلون الوجه غير المقبول للحداثة، كما يراهم الليبراليون والمحافظون على حد سواء. بيَّن الأشخاص القريبون من الملك، بشكل غير علني، أن أمر الملك الشخصي بالعفو عن الفتاة لم يكن كافياً: كان يجب إعدام هؤلاء المجرمين.

***

إذاً، ماذا يخبرنا هذا الأمر، أو هذه الدراما السعودية غير السعيدة القديمة الجديدة؟ في نهاية الكتاب، يتوقع الناس الحديث عن التوقعات في المستقبل، وفي موضوع السعودية تستطيع بيوت الخبرة ومؤسسات الشؤون الدولية أن تقدم الإحصائيات والتحاليل الكثيرة. أما أنا فقد فضّلت أن أنهي الكتاب بهذه القصة الإنسانية الدراماتيكية لفتاة القطيف وذلك بسبب أنها قدّمت السعودية إلى العالم لفترة معينة، وهي في رأيي ما زالت تمثل الطريق الأفضل لفهم التقاليد والتطورات التي صنعت السعودية اليوم.

التقِطْ أي جزء من هذه القصة المعبّرة. قد تختار اللحظة المبهجة التي اختار فيها مهدي، ذو السادسة والعشرين من العمر الذي يدرس هندسة النفط، أن يلتقط سماعة الهاتف ويتصل بتلفزيون الفضائية اللبنانية أل بي سي، القناة التلفزيونية الذائعة الصيت، لكي يتحدث بشجاعة أمام الملايين دفاعاً عن شرف زوجته. هنا، في الحالة السعودية، نحن أمام شيء جديد.

قد تختار شيئاً قديماً من القصة – تدخّل أمير المنطقة محمد بن فهد،

ثم بعد ذلك عمّه الملك اللذين استخدما سلطاتهما لتصحيح مسار الآلية القديمة التي يتّبعها جهاز الشرطة والقانون وذلك من أجل تأمين ما نعتبره لدينا في الغرب العدالة. في فصول أخرى، رأينا هذه السلطة أيضاً وهي تُبعد الأذى عن منصور النقيدان، ذلك السلفي المتأمل، وتحمي محمد الحربي، مدرس الكيمياء التقدمي من بريدة. هل حُكْم الفرد هو الحلّ لهذا اللغز؟ هل نعتقد أن الاستبداد الخيّر يستطيع أو ينبغي عليه أن يوفّر للسعودية الطريق البعيد المدى نحو المستقبل؟

ويمكنك أيضاً التفكير في حقيقة أن مهدي، وأثناء ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة، يعيش الآن منفصلاً عن فتاة القطيف التي جمعت حقائبها بعد أشهر من العفو الملكي لتذهب للعيش مع أمها. أخبرها مهدي أن عليها أن تذهب. جميع أفراد عائلته –الإخوة والأخوات، الأم، وأبناء الأعمام والأخوال– شعروا أن زوجته المشهورة عالمياً الآن قد جلبت العار إلى عائلتهم. تأتي المعارضة فقط من خاله الليبرالي المتغرّب فؤاد المنبوذ من العديدين في مدينته. عدا ذلك، كل أفراد العائلة يريدون من مهدي أن ينهي زواجه منها، وفي وقت هذه الكتابة، ما يزال الطالب الشاب الذي تخرّج للتو مبتدئاً حياته الجديدة كمهندس بترولي، يعيش تحت ضغط كبير للاستجابة لطلبات عائلته. لقد أدّى الدور الذي عليه، تجاهها في نهاية المطاف – وهو دور لا يجرؤ عليه معظم السعوديين الشباب. في مجتمع المملكة العربية السعودية الذي تسيطر عليه العائلة، لم تنته قصة فتاة القطيف نهاية غربية سعيدة. كان يجب أن تنتهي بالطلاق، حسب المعايير السعودية.

الفصل الثالث والثلاثون

الملك عبد الله وعيد الحب

مبادرة الإصلاح السعودي في 14 فبراير 2009م

بقلم روبرت ليسي[1]

بمحض الصدفة ، كان ذلك في عيد الحب بتاريخ 14 فبراير 2009م عندما أعلن الملك عبدالله بن عبد العزيز عن أول تغيير كبير في حكومته منذ أن أصبح ملكاً على المملكة العربية السعودية في أغسطس 2005م[2]. من العادة في معظم دول العالم أن يقوم القادة بتعيين أو إحداث تعديل وزاري في مجلس الوزراء خلال أيام من استلام السلطة – على الرغم من أن هذا الأمر قد يستغرق في أمريكا عدة أشهر بعد الانتخابات الرئاسية. استغرق الملك عبد الله ثلاث سنوات ونصف لإحداث هذا التغيير ، وقد كان لهذا التأجيل أسبابه التاريخية. بعد سوء الحالة الصحية لأخيه غير الشقيق الملك فهد الذي أصيب بجلطة في نوفمبر 1995م، استلم عبدالله المزيد من السلطات كقائد فعلي وقد أحدث العديد من التغييرات التي أصبحت خلال السنوات

---

1 - أنا ممتن لمساعدتي في البحث والمشورة لحسن الحسيني، الأستاذة هالة الحوطي، د. عباس طاشكندي، الشيخ عبد الوهاب أبو سليمان، وأشخاص آخرين فضلوا عدم ذكر أسمائهم.

2 - ابن حميد يرأس مجلس القضاء الأعلى الجديد، عرب نيوز، 15 فبراير 2009م.

تمثّل مجلس الوزراء الخاص به – ولعل الأبرز والأكثر أهمية من بين ذلك كلّه تعيين الدكتور غازي القصيبي، السفير السابق في بريطانيا ووزير العمل الحالي منذ عام 2002م كمستشار له ومفتاح رئيسي لسياساته. كما اختار وزيراً جديداً للتربية في فبراير 2005م، وعيّن عبد الله زينل علي رضا في مارس 2008م وزيراً للصناعة والتجارة والذي قاد فريق الملك التفاوضي مع منظمة التجارة العالمية[3].

مع ذلك، كل هذه التغييرات لا ترتقي إلى الإقالات الدراماتيكية والتعديلات الوزارية التي أحدثها الملك في 14 فبراير – وهي دليل أكيد على نيّة حقيقية جديدة . يعكس تأخّر الملك في وضع بصمته الشخصية على ما اصطلح على تسميته بـ «فريق عبد الله» الحذر والصراعات والحلول الوسط التي تميّز السياسات السعودية. تناقش هذه الورقة التغييرات التي أحدثها الملك والصراعات التي نتجت في الأشهر التي أعقبت هذه التغييرات.

***

التغيير الذي جذب انتباه الإعلام في فبراير الماضي هو تعيين أول امرأة سعودية في منصب وزاري، رغم أنه لم يثر الكثير من الجدل كما كان متوقّعاً. عُيّنت نورة الفايز، 54 سنة ، المعلمة السابقة التي درست علم الاجتماع في جامعة الملك سعود بالرياض وحصلت على الماجستير من

---

3 - خدمة معلومات العلاقات السعودية الأمريكية، 5 مارس 2008م، «تعيين علي رضا وزيراً للتجارة»، جدة، 4 مارس 2008م .

أمريكا، كنائبة لوزير التربية لشؤون البنات . لقي هذا التعيين ترحيب وسائل الإعلام حول العالم. «هذا التعيين مفخرة للمرأة السعودية»، تقول الفايز في تصريحها الشهير للصحافة السعودية الذي لقي الرواج مصحوباً بصورة صغيرة وغير واضحة لنائبة الوزير الجديدة وهي تلبس حجاباً يغطي رأسها كاملاً لكنه يظهر وجهها تماماً[4].

في اليوم التالي ، نقل مكتب نورة الفايز إلى جميع الجرائد عدم رضاها عن نشر صورتها[5]، ولم تظهر لاحقاً أي صورة منشورة لها . ألقت العديد من الخطابات في المؤتمرات التربوية لكنها لم تستجب للكثير من الطلبات التي قُدّمت من الإعلام الأجنبي[6] لعقد مقابلات معها، ولم تدل بأي تصريح رئيسي هام. اختارت النائبة الجديدة أن تظهر إعلامياً بدرجة أقل مما كانت عليه قبل تعيينها وذلك من أجل عدم إثارة النقد حول تقدّمها الوزاري — رغم وجود مثل هذا النقد بالطبع. كشف تقرير في أبريل 2009م أن مجموعة من المتشّددين قد اجتمعت في الرياض لطلب إقالة وفصل الفايز وذلك من أجل إعادة تعليم البنات «إلى حظيرة، وتحت سيطرة المشايخ وعلماء الدين»[7]. اختفت الآن هذه الاعتراضات، إذ يستخدم أحياناً بعض المحافظين أسلوباً معيّناً عندما يتعرّضون لهجوم، وهو في هذه الحالة التظاهر بعدم الاهتمام.

4 - عرب نيوز، 15 فبراير 2009م.

5 - مقابلة مع رئيس تحرير جريدة سعودية، يوليو 2009م.

6 - معلومات من صحفيين غربيين طلبوا إجراء مقابلات مع الدكتورة الفايز دون جدوى.

7 - «متشددون يطالبون بإقالة وزيرة سعودية» بقلم عبد النبي شاهين ، نيويورك تايمز، 10 أبريل 2009م.

«أعطى تعيينها الشكل الرسمي فقط لعملها الذي كانت تقوم به سابقاً»، يقول أحد التقليديين لكاتب هذه السطور. «لا يوجد هناك أي مشكلة في أن تساعد امرأة في إدارة شؤون تعليم البنات»[8].

هذا «الابتعاد عن الإعلام» يميّز أيضاً رئيسها المباشر الأمير فيصل بن عبد الله بن محمد، الذي عُيّن وزيراً للتربية في التعديلات الوزارية، وهو ابن إحدى أختي عبد الله المحبوبتين وزوج ابنة الملك التقدّمية عادلة بنت عبد الله، وهو أمير معروف في مركز الدائرة الملكية. أسس الأمير فيصل مجموعة «الأغر للفكر الاستراتيجي» (www.al-aghar.com) التي أجرت العديد من الدراسات حول المواضيع التي يفضّلها الملك عبد الله مثل مجتمع المعرفة وحوار الأديان، إلا أن الوزير الجديد لم يكشف للرأي العام عن الطريقة التي يقترحها لمواجهة نظام التعليم الحالي بأسلوبه الجاف التلقيني الذي أضّر بالشباب السعودي. هناك من يقول إن الأمير قد جهّز خططه وهو الآن يعمل على تمريرها عبر المؤسسة الدينية المحافظة التي نجحت حتى الآن في الوقوف ضد أي تغيير تربوي قد يصفه المراقبون الغربيون على أنه إصلاحي. أول إجراء اتخذه الوزير الجديد بعد تعيينه هو اصطحاب نائبه لتعليم البنين لمقابلة المفتي العام الأعمى الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، أعلى سلطة دينية في المملكة، لمراجعة ما وُصف على أنه «الجوانب الهامة في التعليم السعودي». وبحسب تصريح رسمي فقد «أثنى المفتي على جهود الوزارة في إحداث نهضة تعليمية وتمنّى للوزراء الجدد كل نجاح في أدوارهم الجديدة»[9].

8 - مقابلة غير رسمية.

9 - «التعليم السعودي يمر بمرحلة تاريخية»، عرب نيوز، 18 فبراير 2009م.

كما أن تعيين فيصل بن معمّر كنائب وزير يعد إضافة نوعية لجهود الأمير، إذ إن ابن معمر يرأس مكتبة الملك عبد العزيز العامة ويعمل مديراً لمركز الحوار الوطني الجديد ومستشاراً قوياً آخر للملك عبد الله. إذاً، هناك خطوات إصلاحية هامة للتعليم السعودي – لكن من غير المحتمل أن تظهر هذه التغييرات سريعاً قبل أن تحصل على الموافقة الضرورية من علماء الدين الكبار الذين يُعتبرون بمثابة مجلس الشيوخ غير المصّرح به، للمملكة العربية السعودية.

كانت تغييرات الملك القوية «لمجلس الشيوخ» الديني هي في جعل مبادرة فبراير أكثر من مجرد تعديلات وزارية. كان هناك اعتقاد أن سلطة المؤسسة الدينية منيعة ولا يمكن الاقتراب منها. لكن هذا لا يبدو صحيحاً. بضربة واحدة، أقال الملك إبراهيم عبد الله الغيث، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الشرطة الدينية)، والشيخ صالح بن محمد اللحيدان، الرئيس القوي لمجلس القضاء الأعلى، وذلك بسبب إصدار فتوى تجيز قتل ملاّك القنوات الفضائية. «يجوز»، يقول الشيخ ، «أن تقتل أولئك الذين يدعون إلى الفساد»[10]. وعندما طُلب منه الاعتذار، أوضح أنه كان يقصد فقط أن يتم إصدار حكم القتل بعد المثول أمام محكمة إسلامية[11].

لكن الأكثر أهمية هو إبعاد وزير العدل الشيخ الدكتور عبد الله بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، من السلالة المباشرة لمؤسس الوهابية الشيخ محمد

---

10 - http://news.bbc.co.uk.

11 - «عرب نيوز»، 13 سبتمبر 2008م.

بن عبد الوهاب . تعتبر عائلة آل الشيخ العائلة النخبوية الثانية بعد آل سعود في المملكة والشريكة في إنشاء وتأسيس المملكة العربية السعودية بالتحالف مع آل سعود. وعلى الرغم من أنه قريب من الملك، إلا أن الدكتور عبد الله آل الشيخ لم يقم بالخطوات اللازمة والضرورية التي يتمناها الملك في إحداث إصلاح قضائي – وقد أوضح غازي القصيبي أن التغييرات الوزارية تهدف إلى «الإسراع» في عمليات الإصلاح القضائية والتعليمية[12].

«لا يُطلب من المسؤولين الآن تطبيق الإصلاحات»، يقول رئيس تحرير جريدة الوطن المؤثر جمال خاشقجي، «لأنهم يؤمنون بالإصلاح وإحداثه من تلقاء أنفسهم»[13].

وكما هي العادة في الطريقة السعودية، تم تسهيل حالات الإقالة والفصل عن طريق نقولات تحفظ ماء الوجه إلى مناصب أخرى بديلة : بقي اللحيدان كعضو في هيئة كبار العلماء حيث تعطيه خدمته الطويلة الأفضلية من بين العلماء (وقد استقبل فعلاً الاحتجاجات ضد تعيين السيدة الفايز في أبريل)، بينما انتقل آل الشيخ إلى رئاسة مجلس الشورى الضعيف (والخالي من النساء)، وهو مكان يتناسب معه على اعتبار أن الدكتور المتعلّم لم يحدث أي تغييرات في وزارة العدل، ومن غير المحتمل أن يقوم بأي تغييرات في المجلس (سلطة أكبر وتمثيل نسائي). ليس هناك أدنى شك أنه تم إبعاد ثلاث من أقوى الشخصيات الدينية في المملكة .

---

12 - اقتباس من دونا أبو ناصر، الأسوشيتد برس، 14 فبراير 2009م.

13 - حديث المؤلف الخاص مع الشخص الذي قال هذا التعليق.

«هذا أشبه ما يكون بانقلاب»، بحسب ما علّق عليه بإعجاب أحد الوزراء الكبار الذين أمضوا خدمة طويلة في الحكومة[14].

يجب التذكير هنا أن منصب الملك لا يُعتبر السلطة النهائية في المملكة العربية السعودية. بحسب التقاليد والتعليمات الإسلامية، هذه الحقيقة تعود إلى الدور الذي يقوم به ما اصطلح على تسميته «ولي الأمر» -«أصحاب المسؤولية الكاملة» أو «السلطة الحاكمة». لا يعتبر هذا مصطلحاً سياسياً محضاً. إذا أسأت التصرف كطالب في المدرسة السعودية فإن المعلم سيطلب ولي أمرك، أباك أو أمك- «المسؤولين عنك». عندما تتزوج المرأة السعودية، يصبح زوجها ولي أمرها. إذا عملت في شركة سعودية فإنه لا يمكن لرئيسك أن يكون ولي أمرك لأن علاقاتكم محكومة بعقد علماني - تستطيع أن تستقيل، كما أنه يمكن فصلك. يحتوي هذا المصطلح على إيحاءات روحية، وقد فسّره العديد من العلماء على أنه ذلك التحالف بين آل سعود والوهابيين، المشابه للاتحاد الذي يجمع بين الكنيسة والدولة، وهو ما يحدد طبيعة السلطة السعودية.

في بدايات الوجود السعودي في أوائل القرن الثامن عشر ، كما يقول المؤرخ النجدي ابن بشر، كان القائد الديني محمد بن عبد الوهاب هو من يلعب دور ولي الأمر، وليس محمد بن سعود القائد الدنيوي. «لا أحد يمتطي الجمال ولا أحد يعبّر عن رأيه»، كما يقول هذا المؤرخ لفترات الخمسينات والستينات من القرن الثامن عشر، من دون الحصول على موافقة الشيخ

---

14 - حديث المؤلف الخاص مع الشخص الذي قال هذا التعليق.

محمد بن عبد الوهاب[15]. «لا يوجد أي ذكر أو تلميح»، كما يقول المؤرخ الأمريكي جورج رينتز في تحليله لموازين القوى ، يبين أن محمد بن سعود أو ابنه أو وريثه عبد العزيز «قد تنازع مع (شيخه) أو ناقشه في أي موضوع، صغيراً كان أو كبيراً»[16].

ومع حلول القرن العشرين، انتقلت السلطة التنفيذية إلى أيدي عائلة آل سعود ، لكن في عام 1964م رجعت العائلة إلى المشايخ وعلماء الدين للحصول على موافقتهم في عزل الملك سعود بن عبد العزيز[17]، كما قالت بعض المصادر إن العلماء تدخلوا أيضا في الاتفاقية التي تنازل بموجبها محمد بن عبد العزيز عن حقه في الخلافة لمصلحة أخيه الأصغر منه خالد[18]. وليس غريبا أيضا أن تبحث الحكومة عن مساعدة هيئة كبار العلماء في عام 1979 في كيفية التعامل مع استيلاء المسلحين على المسجد الحرام (والذين وجدوا الرعاية من هيئة كبار العلماء)[19]، لكن موافقة العلماء أيضا

---

15 - اقتباس من دونا أبو ناصر، الأسوشيتد برس، 14 فبراير 2009م.

ابن بشر، 1-15، كما ذكره جورج رينتز في كتابه «مولد حركة الإصلاح الإسلامية في المملكة العربية السعودية (لندن، النشر العربي، 2004م)، ص 116». اشترك الشيخ والأمير منذ اتفاقهما في هذه الدولة الكهنوتية الجديدة: اشترك الاثنان معاً في إصدار القرارات والفتاوى، وإذا أراد الآخرون مخاطبة الحكومة فإنهم يخاطبون الاثنين معاً، ومع ذلك لم يكن هناك أدنى شك أن الشيخ يحمل الصفة الأقوى في هذه الشراكة. قبل محمد وابنه من بعده بامتنان كبير مكانة الشيخ كإرادة الله لهما في عالمهما الصغير وأظهرا له الإخلاص. لا يوجد أي دليل أو تلميح يبين أي اختلاف أو نزاع بينهما صغيراً كان أم كبيراً».

16 - المرجع السابق.

17 - المملكة، روبرت ليسي، (هاتشنسون، 1981م)، ص 355.

18 - الدعجاني، أحمد ، خالد بن عبد العزيز: صورة ملك. (مكتبة الملك فهد الوطنية، 2002م) ص 102 - 108.

19 - أنظر كتاب ليسي، المملكة من الداخل، ص 9 - 35؛ وهقرمان، توماس، وستيفن لاكروا، «الإسلاموية المعارضة في السعودية»، مجلة دراسات الشرق الأوسط الدولية، 2007م، ص 97 - 116.

في أغسطس 1990 كانت ضرورية جداً للموافقة على تواجد القوات الأمريكية في المملكة من أجل شن الحرب ضد غزو صدام حسين للكويت[20].

متوافقاً مع هذه الأحداث السابقة، أعلن الدكتور عبد الله التركي، أحد أعضاء هيئة كبار العلماء، في نقاش تلفزيوني في أوائل 2002م أن ولي الأمر في المملكة –الحاكم في السعودية– لا يشمل الملك والحكومة العلمانية فقط، بل يتعدّاهما ليشمل أيضا علماء الدين الكبار. كان الدكتور التركي، المعيّن حديثاً أميناً عاماً لرابطة العالم الإسلامي[21]، يتحدّث في إحدى الجلسات العامة التي دعا إليها عبد الله بن عبد العزيز لمناقشة دروس أحداث الحادي عشر من سبتمبر. في هذا الوقت الحرج، يقول الدكتور التركي، يجب أن يكون للعلماء ورجال الدين الكلمة الأقوى في إدارة شؤون البلاد – وهو اقتراح يبدو من الظاهر مُبرَّراً بدلائل تاريخية. إذا كانت المملكة العربية السعودية دولة إسلامية دستورها «القرآن الكريم والسنّة النبوية»[22] فإن هذا يعني أن تذهب بعض السلطات والصلاحيات إلى أولئك الخبراء الذين يفهمون تفسير القرآن والسنّة.

تفسّر العائلة المالكة الإسلام والتاريخ بطريقة مختلفة .

---

20 - «الحمد لله رب العالمين... تابعت هيئة كبار العلماء حشد القوات على حدود المملكة والغزو الغاشم العراقي على الدولة الجارة... هذا أدى بأولياء الأمر في المملكة... إلى طلب المساعدة من الدول العربية وغير العربية لدحر الخطر. من واجب ولي الأمر»، كما يقول البيان، «اتخاذ كل الوسائل الكفيلة بدحر العدوان وقوى الشر... لهذا فإن المجلس يدعم جميع الوسائل والتدابير التي يتخذها ولي الأمر». 13 أغسطس 1990م. للنص الكامل للبيان أنظر وكالة الأنباء السعودية، أصداء الموقف السعودي خلال أحداث الخليج العربي، 1411هـ (الرياض، وزارة الإعلام، 1991م).

21 - في 5 نوفمبر 2000م – 8 شعبان 1421هـ .

22 - قانون الحكم الأساسي، المادة 1، «أساس الدولة».

«كنت أشاهد الاجتماع على التلفزيون»، يقول الأمير تركي الفيصل[23]. كان الأمير وقتها يستعد لسماع تعيينه كسفير في بريطانيا العظمى وإيرلندا بعد أن كان يشغل منصب مدير المخابرات السعودية. «عندما سمعت هذا الرأي صرخت في الشاشة». أنت مخطئ تماما! هل من أحد يقف لإخباره بذلك؟!.

وحيث إنه لم يتكلم أحد، فقد جلس الأمير يكتب آراءه في مقال نُشر بعد عدة أيام[24].

«أردت أن أوضح»، كما يقول الأمير، «أنه، ومنذ الخلفاء الأوائل، كان الحكام الدنيويون هم الحكام التنفيذيون في التاريخ الإسلامي –لهم السلطة المطلقة. عملهم هو ممارسة السلطة، بينما كان عمل علماء الدين والمشايخ والمفتي– هو تقديم النصيحة. لم يحكموا أبداً. هذه هي المرحلة التي ضلّ فيها الخميني وآيات الله الإيرانيون عن الإسلام الحقيقي حيث وضعوا أنفسهم في منصب السلطة الحكومية المطلقة –وهذا أمر جديد تماماً– وغير إسلامي وبدون أي دليل تاريخي».

بعد أسبوع من هذا المقال، نُشِر مقال آخر يحمل نفس الرسالة – ومن عضو كبير في العائلة، الأمير طلال بن عبد العزيز. قاد «الأمير الحر» السابق مجموعة من إخوته واتجه إلى المنفى في مصر عبد الناصر في الستينات الميلادية. هو شخصية معارضة مستقلة وأشبه ما يكون برالف نادر آل سعود،

---

23 - ليسي، روبرت «المملكة من الداخل»، (فايكنج، 2009م)، ص 235.

24 - جريدة الشرق الأوسط، 20 يناير، 2002م.

لكنه أكبر من الأمير نايف والأمير سلمان. الأهم من ذلك أن طلال كان قريباً بشكل خاص من عبد الله في ذلك الوقت، وكان يشارك ولي العهد في رأيه إزاء الأخطار الناجمة عن الغلوّ في الدين. يملك العلماء والمشايخ شيئاً مهماً يمكن أن يقدّموه، بحسب ما كتبه الأمير طلال في مقاله، وهو النصيحة. لا شيء أكثر من ذلك. النصيحة فقط. يجب أن لا يعتبروا أنفسهم «ضمن أولئك الذين يحكمون»[25] أو أن يلعبوا دور ولي الأمر.

إذاً، تم رفض اقتراح الدكتور عبدالله التركي الذي يقضي للمؤسسة الدينية بلعب دور مباشر في الحكومة السعودية ، وحيث إن الدكتور المحترم لم يردّ على هذا، فمعنى ذلك أنه وزملاءه من العلماء قد رضخوا لهذا الأمر. إحدى نتائج أحداث الحادي عشر من سبتمبر هو تحوّل ولي الأمر السعودي إلى الشخصية العلمانية أو الدنيوية بحسب آراء البعض — كما لو كان الثمن الباهظ لهذه العواقب المأساوية المشينة الناتجة عن العاطفة الدينية التي خرجت عن زمام السيطرة هو سلب المزيد من السلطات الدينية. لابد من نتائج لهذا العار الذي جلبته العاطفة الدينية الزائدة. شهدت النهضة الإسلامية في الثمانينات سيطرة علماء الدين السعوديين على الأولويات السعودية على الطريقة الإيرانية، حيث لم تتجرّأ عائلة آل سعود على معارضتهم — لم يجد أمير واحد الشجاعة في الوقوف تلك الأيام لمعارضة ما يقوله أي عالم ديني. امتلك علماء الصحوة في التسعينات الحق في توجيه الحكومة وطلب التغييرات التي تتوافق مع معتقداتهم الدينية، على الرغم من انتهاء مطالباتهم

---

25 - جريدة الشرق الأوسط، 20 يناير، 2002م.

تلك بفقدان بعض أعضاء هيئة كبار العلماء لوظائفهم، وزجّ بعض المشايخ في السجن[26].

لكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر غيّرت ميزان القوى معلنةً انتهاء مرحلة انتظار موافقة الشيخ قبل امتطاء أي جمل أو التعبير عن أي رأي. الحكام هم من يتولّى الأمر، وعلى علماء الدين أن يقبلوا هذا. وعندما أعلن عبد الله عن إحدى خططه الجريئة في ديسمبر 2007م، وهي تحديد العملية التي تنتقل فيها السلطة الملكية، والتي اعتبرت الخطوة الأولى الحقيقية التي اتخذتها المملكة العربية السعودية في طريقها نحو الديمقراطية —أمير واحد، صوت واحد— لم يكن ضمن هذه الآلية الجديدة أي استخدام أو ذكر للموافقة أو الاستشارة الدينية. غاب اسم العلماء تماماً في قانون البيعة الذي يحدد طريقة علمانية في الاختيار ، حيث يتمتع الملك الذي اختارته العائلة بسلطات جاءت مباشرة نتيجة لاستخدام قانون وسلطة العائلة[27]. لم يكن ضرورياً طلب المباركة الدينية لهذا الأمر.

أصبح مصطلحا ولي الأمر والملك مترادفين تماماً ويؤديان نفس

26 - «العلماء» في كتاب ميتز، هيلين تشابين (محررة)، «المملكة العربية السعودية، دراسة دولة»، واشنطن: مكتبة الكونجرس، 1992م.

27 - يتوافق هذا مع المادة 5 من قانون الحكم الأساسي من عام 1992م (27 شعبان 1412هـ). هذا هو الدستور السعودي، لكنه يعرف بنظام الحكم الأساسي لأن القرآن هو دستور البلاد، (أنظر الملاحظة 21). «نظام الحكم في المملكة العربية السعودية ملكي. يكون الحكم في أبناء الملك المؤسّس عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، وأبناء الأبناء، ويبايع الأصلح منهم للحكم على كتاب الله وسنة رسوله». لا يوجد ذكر لمصطلح ولي الأمر في النظام الأساسي للحكم، أما العلماء فقد تم ذكرهم في المادة 45: مصدر الإفتاء في المملكة العربية السعودية كتاب الله تعالى وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).. ويبين النظام ترتيب هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء واختصاصاتها.

الأغراض العملية، وقد كان التعديل الوزاري الذي أحدثه عبد الله في فبراير 2009م تأكيداً دراماتيكياً لهذه الحقيقة الجديدة. لم يقلّل الملك من سلطة علماء الدين الأقوياء فقط، بل أعاد تشكيل هيئة كبار العلماء نفسها.

***

الحدث الذي لم يتوقّف عنده الكثير، وهو الأكثر أهمية في تعيينات الملك في 14 فبراير، هو تسمية ثلاث شخصيات معتدلة في مجلس هيئة كبار العلماء التي سيطر عليها الحنابلة (وفي المصطلح الغربي الوهابية) —الشيخ يعقوب بن عبد الوهاب الباحسين من المدرسة الحنفية، الشيخ محمد مختار الشنقيطي، من المدرسة المالكية، والشيخ قيس آل الشيخ مبارك، وهو مالكي آخر. هذا بالإضافة إلى الشيخ عبد الوهاب أبو سليمان، العضو الشافعي الذي خدم طويلا ومُدّد له أربع سنوات أخرى. لأول مرة منذ سنوات ومن خلال هذه التعيينات الجديدة أصبحت هيئة كبار العلماء تمثل جميع المذاهب الإسلامية الأربعة— ولو لم يكن ذلك بطريقة متكافئة: حنفي واحد، شافعي واحد، مالكيان، وأغلبية واضحة لسبعة عشر حنبلياً.

كتب العديد من المعلقين الإعلاميين أن تمثيل أربعة مذاهب في هيئة كبار العلماء كان تخطيطاً متعمّداً من الملك عبد الله[28] إلا أنني لم أجد أي تصريح رسمي أو غير رسمي يدعم هذا الرأي[29] . لم يتم ذكر ذلك في

---

28 - أنظر على سبيل المثال، «تعديلات الملك السعودي في الحكومة يصفها الجميع بالشجاعة»، بول هاندلي، 15 فبراير 2009م، وكالة الأنباء الفرنسية.

29 - «كانت هيئة كبار العلماء ذات تنوّع مذهبي عند تأسيسها»، بقلم عبد الله بن محمد زقيل، عكاظ، 26 فبراير 2009م.

الأمر الملكي الذي أعلن التعيينات الجديدة، كما أن العديد من الأشخاص القريبين من تفكير الملك عبد الله ذكروا أن مقصده الأساسي هو أن يتمتع أعضاء هيئة كبار العلماء بالمرونة واتساع الأفق[30] لكن فكرة أن تضم هيئة كبار العلماء جميع المذاهب الإسلامية السنّية الأربعة وتقليل السيطرة الحنبلية عليها (هذه المذاهب الأربعة لا تضم الشيعة، لأن السعوديين السنّة سيعتبرون ذلك خطوة صعبة) تعكس طموح العديد من علماء الدين المعاصرين. استخدام المذاهب الإسلامية الأربعة طريقة ملائمة في تعديل ميزان القوى في السياق الديني السعودي – كما أن ذلك يتوافق مع التاريخ الإسلامي والسعودي .

نشأت المذاهب الإسلامية الأربعة في القرون الأولى بعد رسالة (النبي) محمد. ولا تختلف هذه المدارس في العقائد الأساسية للإسلام السنّي (أي أنها لم تنفصل وتنشق مثل الشيعة)، لكنها تختلف في التفاصيل الصغيرة لبعض الممارسات الدينية مثل طريقة ووقت الصلاة. نشأ في القرن الرابع الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) نتيجة لهذه الاختلافات ما يُعرف بالمقامات في ساحة الحرم الشريف في كل من مكة والمدينة[31].كانت

30 - مقابلة غير رسمية .

31 - جاءت هذه التفاصيل من ورقة خاصة في تاريخ وممارسة المذاهب الإسلامية الأربعة في الجزيرة العربية، 10 مايو 2009م، التي أعدها خصيصاً من أجلي الدكتور عباس طاشكندي من مؤسسة الفرقان الإسلامية في جدة. أنا ممتن كثيراً لمساعدة طاشكندي لي عندما تقابلنا في المعهد في 21 يوليو لمناقشة هذا الموضوع بشكل منفصل بمصاحبة الشيخ عبد الوهاب أبو سليمان والذي أقدّر مشاركاته النيرة ذلك الوقت.

أربعة مقامات في البداية ثم أضيف مقام خامس لأتباع المذهب الزيدي، وهم أهل اليمن في جنوب الجزيرة العربية . عندما يصل الحجاج إلى مكة يتجهون إلى المقام الخاص بهم للاجتماع هناك وسماع توجيهات مشايخ المذهب الذي ينتمون إليه والصلاة في المقام الخاص بهم على الطريقة التي يحددها مشايخهم. يشارك المتدينون منهم في ما يُعرف بالحلقة (حلقات التدريس أو الذكر). بُنِيت المقامات في دائرة حول الكعبة إلى الدرجة التي ماثل فيها البعض منها حجم الكعبة ، الأمر الذي أدّى إلى وجود مجموعة من البنايات في مركز ساحة المسجد الحرام.

اختلفت الآراء حول تحديد القرون التي ظهرت فيها هذه الممارسات المتنوعة في عهد الإسلام. في عام 811هـ (1408م) أمر السلطان المملوكي فرج بن برقوق بإزالة هذه المقامات، لكنها ظهرت مرة أخرى في ساحة الحرم الشريف حتى جاء سعود بن عبد العزيز ، حفيد محمد بن سعود ، غازياً في جيش إلى مكة في 1218هـ (1803م) وفاجأ العالم الإسلامي بحملة وهّابية متشددة دمَّرت هذه المزارات وأماكن العبادة في المدينة المقدسة — بما فيها المقامات.

أما عبد العزيز «ابن سعود»، وريثه في القرن العشرين ، فكان حريصاً على عدم تكرار هذا السلوك عندما احتلّ مكة في عام 1924م . كان الملك السعودي الجديد متصالحاً مع المسلمين غير الوهابيين حيث بقيت أربعة من هذه المقامات حتى عام 1957م عندما أمر ابنه سعود بإزالتها . ولكي يثبت للجميع أن هذا العمل لم يكن «انقلاباً» وهّابيا فقد تمت إزالة المقام الحنبلي أول الأمر متبوعاً بالمالكي، ثم الحنفي في نفس العام. لأسباب لم أكن قادراً

على تحديدها، استمر المقام الشافعي حتى عام 1963م (1383هـ)[32].

لو أن والد سعود، عبد العزيز أُمِر من قبل علماء الدين الوهابيين بإزالة المقامات فإنه كان سيرفض تنفيذ هذا الطلب. أمر في عام 1344هـ (1925م) بإدخال المذاهب الأربعة في حلقات التدريس بمكة والمدينة، وعيّن مجموعة من المشايخ من غير الحنابلة لتدريس القرآن الكريم والعمل كقضاة في المحاكم الشرعية[33]. كان جميع مشايخ المذاهب الأربعة يدرّسون ويصدرون الفتاوى في جميع أنحاء البلاد كما يفعلون اليوم: في الأحساء الحديثة، على سبيل المثال، يستمع المجتمع السنّي إلى أحكام وتوجيهات مشايخ من المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية[34].

لكن في ما يتعلق بكبار العلماء فلم يحدث عبد العزيز أي تغييرات مهمة. كان يوجد في ذلك الوقت، مثل العصر الحالي، بضعة آلاف من علماء الدين في جميع مناطق المملكة العربية السعودية يصدرون الفتاوى والتوجيهات والذين يتبعون بدورهم إلى قادة في مجالس إقليمية تمثل أساليب العبادة التي يؤمنون بها. يمثل العلماء في مكة اتجاهات متنوعة بينما كان كبار العلماء في نجد والرياض من الحنابلة. وبسبب أن الرياض هي العاصمة فإن علماء نجد

---

32 - المرجع السابق.

33 - الشيخ حسن يماني، الشيخ سعد يماني، الشيخ صالح شطا، والشيخ علوي المالكي، وغيرهم. المرجع السابق.

34 - جاء هؤلاء المشايخ من عائلات كبيرة – الملاّ (حنفي)، المبارك (مالكي)، وعبدالقادر (شافعي). المرجع السابق.

يمثلون علماء المملكة العربية السعودية بشكل عام[35]. غيّر الملك فيصل هذا الاتجاه في عام 1971م عندما أسس هيئة رسمية جديدة ، مجلس كبار العلماء ، لتلعب دوراً استشارياً بين الملك والمؤسسة الدينية[36].

من بين سبعة عشر عضواً، هناك ثلاثة عشر عضواً من المدرسة الحنبلية، وأربعة أعضاء يمثّلون المذاهب الأخرى: الشيخ عبد الرازق عفيفي (حنفي)، الشيخ عبد المجيد حسن(شافعي)، الشيخ محضار عقيل (شافعي)، الشيخ محمد أمين الشنقيطي (مالكي – وجدّ الشيخ محمد مختار الشنقيطي الذي عينه الملك عبد الله في فبراير 2009م). أسس الملك فيصل عادة الاجتماع بشكل أسبوعي مع هيئة كبار العلماء –وقد استمرت هذه العادة من بعده حتى الآن– حيث يعمل هؤلاء العلماء كموظفين حكوميين برتبة وراتب وزير.

لم أكن قادراً على تحديد درجة تمثيل المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية في هيئة كبار العلماء خلال السنوات منذ عام 1971م،لكن الدلائل تشير إلى سيطرة الحنابلة في «العقود السلفية» في الثمانينات والتسعينات. وقد قيل إنه عند تعيين العالم المالكي الكبير البروفسور عبد الوهاب أبو سليمان في مجلس كبار العلماء في 1993م كان هو العضو الوحيد الذي لا ينتمي إلى المذهب الحنبلي وقد ظل كذلك حتى هذه السنة . يعتقد العديد من السعوديين أن العضوية في هيئة كبار العلماء محتكرة للمدرسة الحنبلية

---

35 - المرجع السابق.

36 - «العلماء» في كتاب ميتز، هيلين تشابين (محررة)، «المملكة العربية السعودية: دراسة دولة»، واشنطن: مكتبة الكونجرس، 1992م.

ولا يعرفون أن المدارس الأخرى موجودة في هيئة كبار العلماء، حتى وإن كان بنسب قليلة وغير متكافئة.

***

لقيت التعديلات الوزارية للملك عبد الله في فبراير ترحيب الإعلام الدولي والمحلي والتي اكتملت بتعيين النجم الطبيب الدكتور عبد الله الربيعة كوزير للصحة، والذي اشتهر بإجراء عمليات متلفزة طويلة في فصل التوائم السيامية. لكن في الأشهر الستة اللاحقة بدأ الشك يغلب على المزاج العام بعد سلسلة من «التراجعات» التي بيّنت، - كما هو الوضع دائما في الحالة السعودية - أن عملية الإصلاح تتحرك خطوة إلى الأمام وتتراجع خطوتين إلى الخلف.

أهم هذه التطورات هو تعيين وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز في مارس 2009م نائبا ثانيا في مجلس الوزراء[37]، أي أن نايف أصبح يحمل الرقم 3 في التسلسل الهرمي الملكي بعد عبد الله وسلطان، وبالتالي احتمالية أن يكون ملك المستقبل. يُعتبر الأمير نايف بحسب المحلّلين الأجانب شخصية محافظة ورجعية – وهي خطوة إلى الوراء بحسب الآراء الغربية – إذ أعقب تعيينه سلسلة من الأحداث التي قد تنبئ باتجاه رجعي: افتتاح مقر للشرطة الدينية (الهيئة) في درّة العروس – وهي منتجع فاخر خاص في شمال جدة – وهي المرة الأولى التي يدخل فيها المطاوعة إلى منتجعات

37 - «تعيين الأمير نايف نائبا ثانيا لمجلس الوزراء»، عرب نيوز، 28 مارس 2009م.

جدة[38]، إطلاق خبر إقالة التقدمي جمال خاشقجي[39]، رئيس تحرير جريدة الوطن التنويرية ؛ إغلاق مهرجان جدة الثالث للأفلام السينمائية في ليلة افتتاحه بسبب «سوء التنظيم» وإمكانية اختلاط الجنسين[40]، وتأجيل انتخابات المجالس البلدية لسنتين أخريين والتي كانت مقرّرة نهاية 2009م بأسباب غير مقنعة تتمحور حول الحاجة إلى المزيد من الإعدادات للعملية الانتخابية[41].

وباستعراض هذه السلسلة من الأحداث نجد أن الهيئة الأبوية الصارمة لجمال خاشقجي ما زالت تسيطر على المقعد الساخن كرئيس تحرير جريدة «الوطن». اعتمدت تقارير إقالته على إشاعات مصدرها الإنترنت بعد سلسلة من المقالات الافتتاحية «للوطن» قد تكون قد اخترقت الخطوط الحمراء كما هي في الماضي ، لكنها تعتبر مقبولة في العهد الحاضر . يمكن مقارنة خاشقجي الذي أقيل في فترة سابقة بطائر الكناري في مناجم الفحم والذي يستخدم كوسيلة إنذار – إذا مات فإن الأمور لا تسير على ما يرام ، وإذا بقي حيًا فإنه يعني العكس من ذلك تماماً– ويرى العديد من الصحفيين الخليجيين أن رؤساء التحرير السعوديين يخضعون لسيطرة رسمية ورقابة أقل مما يخضع لها زملاؤهم في الإمارات العربية المتحدة التي يعتبرها البعض أكثر ليبرالية[42].

---

38 - فيصل الأحمد، موقع الوئام، 7 يوليو 2009م. www.alweeam.com

39 - المرجع السابق.

40 - «الضغط الديني يغلق مهرجان الأفلام السعودي»، وكالة الأنباء الفرنسية، 19 يوليو 2009م.

41 - «تأجيل الانتخابات المحلية السعودية سنتين»، مايكل سلاكمان، نيويورك تايمز، 20 مايو 2009م.

42 - محادثات المؤلف مع الصحفيين الذين عملوا داخل المملكة والإمارات العربية المتحدة.

أكد منتج سينمائي سعودي خبير أن مهرجان الأفلام السينمائي الثالث سيء التنظيم بالفعل – ولم يقم بالترتيبات اللازمة لكي يجلس الرجال والنساء بشكل منفصل في الظلام[43]. هذا هو الشرط الرئيسي لما يُعرف «بالعروض المرئية»، وهو المصطلح الذي يستخدم في مثل هذه الحالة تهرّباً من الكلمة المثيرة للجدل «السينما»[44]. في الصيف الماضي نجحت روتانا، الشركة الفنية التابعة للمليونير الأمير الوليد بن طلال، في عرض الفيلم السعودي «مناحي». بعد عرضه في جدة ومدن أخرى، عُرِض في الرياض في صالة مستأجرة يتم فيها بيع حبوب الذرة المشوية –ويجلس فيها الرجال في القاعة الرئيسية بينما تجلس النساء في الشرفات العلوية. أغضب هذا الحدث المحافظين الإسلاميين– وخاصة الأخ المتدين للأمير الوليد، الأمير خالد الذي شجب الوليد بشكل علني وطالب بتجميد أصوله التجارية وذلك لمنعه من نشر الفساد وانتهاك أوامر الشريعة[45]. هذه المشاجرة الأخوية (والتي لم يعلّق عليها الأمير الوليد) تاريخية ونادرة في السنوات الأخيرة، إذ لا تظهر عادة الاختلافات بين عائلة آل سعود بشكل تلقائي في الإعلام. لم تتوقف عروض روتانا بسبب أنها التزمت بشروط الفصل السعودية – إذ وصلت إلى ستة محلات منفصلة لبيع الذرة المشوية. إذا التزم مهرجان جدة للأفلام بهذه الشروط فقد يستأنف عروضه السنة القادمة.

---

43 - مقابلة المؤلف مع منتج أفلام خبير في جدة.

44 - «علماء الدين منزعجون إزاء الحشود التي جذبتها الأفلام السعودية» بقلم رولا خلف، فايننشال تايمز، 24 مارس 2009م.

«السينما في الرياض لأول مرة»، بقلم دونا أبو نصر، هارفارد كورانت، 7 يونيو 2009م.

45 - «أمير سعودي يشجب أخاه»، مجدي عبد الهادي، موقع البي بي سي الإخباري، 29 يونيو 2009م.

أما وصول الشرطة الدينية (الهيئة) إلى داخل درّة العروس فلذلك قصة مشابهة. تُغفل التقارير الإخبارية الأجنبية حول الحياة الاجتماعية السعودية حقيقة أن العديد من السعوديين الذين تلقوا تعليمهم في الغرب لا يريدون استيراد كل شيء شاهدوه. على العكس تماماً . طلب العديد من المقيمين والمؤثّرين حضور الهيئة بعد أن تضايقوا من حفلات المراهقين المزعجة، والفتيات اللاتي كن يرتدين ملابس السباحة ، ومعاكسات الشباب لهن وذلك من أجل مساعدة رجال الأمن المهذّبين بشكل زائد في المنتجع[46]. لم يُفرض وجود الشرطة الدينية (الهيئة) من الخارج ، وحيث إنهم وصلوا إلى هذا المكان فلن يكون الأمر سهلاً بمغادرتهم المكان سريعاً.

ويمكن تفسير تأجيل انتخابات مايو 2009م للمجالس البلدية بعدة طرق. بحسب ما قاله أحد القريبين من عبد الله، «لا يريد الملك أن تكسب طالبان»[47]. في الفترة الأولى من انتخابات المجالس البلدية قبل أربع سنوات، ذهبت معظم المقاعد للمتشددين الإسلاميين، وهذا تذكير بأن المملكة العربية السعودية من الدول القلائل في العالم التي أصبحت فيها المؤسسة الهَرِمة أكثر تقدمية في المفهوم الغربي من سكانها الشباب. سبب آخر لهذا التأجيل هو الطموحات الكبيرة (حتى أبريل 2009م)[48] في

---

46 - معلومات من مقيم في درة العروس.

47 - مقابلة غير رسمية.

48 - «السعودية تفكر في السماح للنساء بالتصويت»، خليج تايمز، 26 أبريل 2009م. السعودية تدرس السماح للنساء بالتصويت في الانتخابات البلدية هذه السنة لكنهن لن يتمكن من الترشّح بأنفسهن، بحسب ما قاله موظف حكومي كبير الأحد... وذكر ذلك الأمير منصور بن متعب، نائب وزير الشؤون البلدية والقروية بعد حضوره مؤتمر المجالس البلدية في المنطقة الشرقية، بحسب ما أوردته الصحف السعودية.

السماح للنساء بالتصويت في هذه الفترة، وقد رأى الملك أن من التعقّل إرجاء المواجهات التي قد تكون عنيفة من جراء المضي قدماً في هذه الخطوة الرمزية الكبيرة (التي تعادل السماح للنساء بقيادة السيارات، وهو قرار محظور حتى اللحظة). تفسير ثالث لهذا التأجيل يقول إن الملك عبد الله لا يشعر بالراحة إزاء الحرية التي يتمتع بها أفراد رعيته في اختيار ولي الأمر الخاص بهم. قبل خمسة أيام من الإعلان الرسمي لتأجيل الانتخابات، أرسلت مجموعة من سبعة وسبعين ناشطاً دستورياً، معظمهم من الأكاديميين، التماساً إلى الملك يطلبون فيه برلماناً سعودياً منتخباً ورئيس وزراء من خارج العائلة المالكة[49] – وقد يكون هذا التأجيل ردّاً من قبل عبد الله على هذا الطلب. عندما تشعر عائلة آل سعود بالشكّ في أمر ما فإنهم يجنحون لتهدئة الأمور – السعادة دائماً في اتخاذ الطريق الآمن.

الاتجاه الآمن هذا هو سبب تسمية عبد الله أخيه غير الشقيق نايف النائب الثاني لمجلس الوزراء خلال أسابيع من تعديلاته الوزارية الإصلاحية. نائبه الأول ولي العهد سلطان موجود الآن في المغرب (وقت كتابة هذه السطور) ويتعافى من عملية جراحية كبيرة يقال إنه خرج منها بصحة ممتازة. يبدو من خلال الصور المنشورة سليماً ومعافى وهو في صحبة شقيقه الأصغر منه الأمير سلمان. لكن سلطان لم يحصل بعد على الحرية الكاملة في التحرك بعد مرضه، ويتذكر الأمراء الكبار أخاهم المحبوب عبد المجيد

---

49 - وكالة الأنباء الفرنسية، 19 مايو 2009م: «أرسلت مجموعة من 77 ناشطاً التماساً إلى الملك يطلبون فيه إصلاحاً أكبر وأسرع نحو الديمقراطية، بما فيها برلمان منتخب ورئيس وزراء من غير العائلة المالكة». من مصلحة الملكية أن يشارك الشعب في العلمية الانتخابية وأن يُمطى الحرية في الاختيار والتعبير. هذا بدوره سيؤدي إلى منافسة صحية وسوف تسود تبعاً لذلك الديمقراطية، كما قالوا في الالتماس.

بن عبد العزيز، الأمير التقدمي المساند لعبد الله، الذي وجد الترحيب عند عودته إلى المملكة بعد علاج ناجح لسرطان الدم أو اللوكيميا في 2007م لكنه توفّي خلال أسابيع من استئنافه لمسؤولياته كأمير لمكة . كما أن غياب الأمير سلطان عن المملكة يجعل من الصعب على عبد الله السفر خارجها، ومن هنا جاء تعيين الأمير نايف الرقم 3 في الهرمية الملكية .

اعترض أخو نايف غير الشقيق ، الأمير طلال ، على التعيين[50]. لقد تم تجاوز مرتبة هذا الأمير في الهرمية الملكية حيث اشتكى من أن ترقية نايف لهذا المنصب تعني الحكم مبكراً على أي تصويت في مجلس هيئة البيعة الذي أنشأته العائلة مؤخراً، وهذا الأمر صحيح نظرياً. عملياً، السلطة التي يتمتع بها نايف في العائلة والدعم الذي يلقاه من أشقائه السديريين، كل ذلك يؤكد على أنه الوريث القادم عندما يحين الوقت —لو أراد هو ذلك— ومن وجهة نظري أن هذا ليس أمراً سيئاً . المخاوف الغربية إزاء نايف مبالغ فيها. اجتمعت بوزير الداخلية وأجريت مقابلة معه قبل أكثر من ثلاثين سنة وما زلت أتذكر الاختلاف الكبير بين عملاق الأسطورة والرجل اللبق والحذر والبراغماتي الذي يستمع بحرص شديد لكل سؤال ويفكر قبل أن يجيب.

«يضطر الأمير نايف إلى تبنّي شخصية عامة معينة مناسبة لعمله الذي يقوم به»، يقول أحد الأشخاص الذين يعرفونه. «وقد أدّى دوره وعمله بامتياز. أبقى وزير الداخلية عائلة آل سعود آمنة مطمئنة لأكثر من ثلاثين سنة — وخاصة في معركتها مع القاعدة التي أحضر من أجلها ابنه (محمد بن نايف).

---

50 - «أمير سعودي يعترض على تعيين ملكي»، ميدل إيست إيكونوميك دايجست، 31 مارس 2009م.

أظهر هذا قدرات نايف على الثقة والتعيين. يعمل الأمير نايف بجد ونشاط، مثل جميع الأمراء السديريين في الحكومة – وهو الأمير الذي يتمتع بثقة المحافظين. نستطيع أن نرى المواقع الإلكترونية المحافظة التي قلّلت من شعبية الملك عبد الله في بعضِ الدوائر الدينية وذلك بسبب إصلاحاته الأخيرة. يعمل الرجلان الآن جنباً إلى جنب بنفس الطريقة الكلاسيكية لآل سعود في تطبيق سياسات متوازنة»[51].

بعبارة أخرى، تعيين نايف لا يتنافى مع إصلاحات عبد الله، بل إنه يعمل على إنجازها وتحقيقها – وخاصة أن نايف رجل إصلاحي على عكس ما يعرف عنه الكثيرون. يذكر أمير كبير غير سديري أن نايف هو من سارع في دفع عجلة التصويت في مجلس البيعة في 2006م. اجتمع أبناء عبد العزيز في رمضان لمناقشة اقتراح عبد الله حيث أبدى عدد منهم عدم سعادته في نشر بعض خلافاتهم الداخلية للرأي العام . وصل النقاش إلى طريق مسدود مع اقتراب صلاة الفجر تلك الليلة حتى اللحظة التي تدّخل بها الأمير نايف. «يبدو معقولاً بالنسبة لي»، قال الأمير نايف موافقاً عبد الله ورافضاً فكرة إخوته بتأجيل المناقشة لمناسبة أخرى. «يجب أن نقوم بذلك الآن».

نُشر الخبر في العالم مع بداية أذان صلاة الفجر واصلاً وكالات الأنباء الساعة الرابعة صباحاً. استمع المشاهدون السهارى إلى أخبار عمليات التصويت في المجلس الجديد يقرأها مراسل على عجلة من أمره ونور الفجر يظهر خلفه.

---

51 - مقابلة غير رسمية.

رغبة الأمير نايف ، أو الملك نايف مستقبلاً، في التقدم أو عدم رغبته ستظهر حتماً في المستقبل، لكنني أريد أن أختم بشيئين اثنين . الأول هو ما أتذكره عندما قابلت الأمير عبد الله ابن عبد العزيز لأول مرة قبل ثلاثين سنة . كان يشغل منصب النائب الثاني كما هو نايف الآن ، أو الرقم 3 في التسلسل الهرمي الملكي بعد ولي العهد فهد والملك القدير خالد الذي توفي السنة اللاحقة . كان عبد الله يعاني من مشاكل محرجة في النطق تخلص منها لاحقاً، وكان لا يستمتع كثيراً بالإجابة على أسئلة الصحفيين الغربيين المزعجين (ولا يستمتع بها الآن أيضاً). ولهذا لم أر سبباً للتشكيك في الاعتقاد السائد أن عبد الله، ذلك الإنسان الرجعي المحافظ الذي ينطلق من الحرس الوطني كمقر له، يمكن أن يُتوقع منه أي إصلاحات. يتعجب الصحفيون كثيراً عندما يُذكر اسمه، ويهز الدبلوماسيون رؤوسهم بقلق. حوار وطني يعبر فيه الشيعة والنساء والأقليات السعودية عن آرائهم؟ خطة سلام مع إسرائيل؟ حوار للأديان يشارك فيه المسلمون والمسيحيون واليهود؟ مقابلة مع البابا؟ إنشاء جامعة علمية بمقاييس دولية (كاوست، جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية) يختلط فيها الطلاب والطالبات داخل الحرم الجامعي؟ لا أحد يمكنه أن يتوقع هذه الأشياء من عبد الله.

الشيء الثاني والأخير يتعلق بمجموعة السبعة والسبعين من الإصلاحيين الدستوريين الذين طلبوا بتهوّر بإصلاحات أكبر هذا الصيف، كما طالبوا بتهميش الدور الذي تقوم به العائلة المالكة في الحياة السعودية. لم يتم القبض على أي واحد منهم، كما أعلم، ولم يتم تحذيرهم أو استدعاؤهم. لم يُعاقبوا على معارضتهم. وهذه تعتبر في المقاييس السعودية حادثة غير مسبوقة. ولم يتم عزل أي منهم من وظيفته كموظف حكومي (معظمهم

أساتذة في الجامعات) – ويمكن قول أكثر من ذلك عن الشيخ سعد بن ناصر الشثري، العضو الحنبلي في هيئة كبار العلماء ، الذي ظهر في التلفزيون بعد افتتاح كاوست لينتقد اختلاط الجنسين في حرم الجامعة ويتساءل عن مدى مطابقة المقررات الدراسية في الجامعة الجديدة للشريعة الإسلامية.

مع اكتمال كتابة هذا المقال في 5 أكتوبر 2009م صدر قرار ملكي بإعفاء الشيخ من واجباته في هيئة كبار العلماء فوراً[52]. قد يشكّك البعض في عملية التغيير في المملكة، لكن ولي الأمر في المملكة العربية السعودية مصمم على المضي قدماً بالإصلاح الذي يراه مناسباً[53] من دون أي تأجيل.

---

52 - «إعفاء الشثري من منصبه»، عرب نيوز، 5 أكتوبر 2009م.

53 - إقالة الشيخ الشثري تعني رسالة واضحة لنية ملكية في إصلاح تعليمي، وللسماح في اختلاط الجنسين، لكن بعض المراقبين المحليين فهموا الإقالة السريعة على أنها تهديد لحرية التعبير. أوضح أخرون أن الشثري لم يُسجن أو يُعاقب بأي طريقة. أُقيل فقط مثل أي وزير غربي ينشق بشكل علني عن حزبه الحكومي. هذا أيضا يثير السؤال حول مدى خضوع هيئة كبار العلماء وتبعيتها في الوقت الذي يتوقع منها تنفيذ القرارات الحكومية . إذا كان علماء الدين قد فقدوا دورهم كجهة مستقلة تمارس سلطتها وتصدر أحكامها وقراراتها الصعبة حول قضايا الساعة، فهل هذا يعني خطوات عجلى نحو إصلاح علماني داخل الوطن، وسياسة «وهابية» أقل للملكة العربية السعودية في الخارج؟

الخاتمة

قبل أن يذهب هذا الكتاب إلى المطبعة، كنت متجهاً، بالسيارة نحو وسط البلد في جدة، تلك المنطقة القديمة التاريخية التي هجرها الناس بعد الطفرة النفطية وانتقلوا للعيش في ضواحي المدينة. بعد مرور ثلاثة عقود من التطور السعودي المتقلّب على آخر مرة رأيت فيها هذه البنايات الخشبية المربّعة لهذا الحي القديم ، فكّرت وتأمّلت طويلاً في حالات الشدّ والجذب والصراعات التي عاشتها المملكة في تلك السنوات – لأصطدم فجأة بالزحمة المرورية في هذا المكان. أوقف الجمع المتلهّف ، أكثرهم من الباكستانيين والآسيويين، سياراتهم متجهين نحو الرصيف وتاركين سياراتهم أحياناً ليقفوا في الشارع محاولين الاندفاع نحو مكان بارز في مواقف السيارات التابعة للمسجد القريب بجانب الساحة المحاطة بأشجار النخيل. أستطيع أن أرى من هنا سيارات الشرطة المجتمعة حول سيارة إسعاف بيضاء طويلة ، بينما كان رجال الشرطة بملابسهم الكاكية يبعدون الحشد الرجالي عن المكان. صبّت الشمس جام غضبها الحارق كما لو كانت فوق رؤوس الحشد مباشرة. الساعة الآن الحادية عشرة – وهو التوقيت الذي تُنفذ فيه الإعدامات في السعودية.

انتهى تنفيذ الإعدام بمجرد وصول سيارتي للموقع. يفتخر السيّافون السعوديون بتنفيذ عملهم بسرعة وفعالية بضربة خاطفة لسيف حاد الشفرة. رأيت الجسم بلا رأس في وضع الركوع ومنتصباً بشكل غريب تحت ظل الأشجار، بينما تراجع الحشد نحو سياراتهم التي تركوها. جرت خطوط الدم الأحمر عبر القماش الأبيض القطني الذي لقي فيه هذا المسكين نهايته الشنيعة.

لاحظ السائق معي لباس الضحية بشكل سريع.

«أفغاني»، قال لي السائق، ثم تابع قيادته للسيارة.

الإعدامات العامة هي الجانب المظلم للحياة داخل المملكة، وتمثّل مشهداً من مشاهد القرون الوسطى التي يجد فيها الإعلام الغربي مادة دسمة للحديث عنها وانتقادها. القليل من السعوديين (والأقل من ذلك من السعوديات) من يشهد عملية الإعدام. الإعدامات في الأماكن العامة هي نوع من العروض التوعوية لكي تتعظ العمالة الأجنبية – التي يبلغ عددها عشرة ملايين، الشرعي وغير الشرعي – من أصل ثمانية وعشرين مليوناً، ويبدو أن هذا الرادع الشرير ناجح وفعّال. تستطيع أن تمشي في الشارع ليلاً أو نهاراً في أي مدينة سعودية من دون أن تخاف من قطّاع الطرق. يترك الناس سياراتهم من دون أن يغلقوها. جرائم السلاح بين الناس غائبة تماماً، وإذا أثرت موضوع الإعدام مع السعوديين فإن العديد منهم سيسألون عن السبب الذي يجعل نسبة الإعدام عندهم، ثلاث وسبعون حالة في السنة منذ عام 1985م بحسب إحصائيات منظمة العفو الدولية أكثر وحشية من الولايات المتحدة، التي تبلغ نسبة الإعدامات عندها اثنين وأربعين حالة بالسنة خلال نفس الفترة (أما الصين فتتفوق عليهما في هذا الجانب المروّع) أما في ما يتعلق بعلنية الإعدامات والمشاهدة فإنهم سيقولون لك إن كل غرفة إعدام أمريكية تحتوي على مكان مشاهدة، وإنه في يونيو من عام 2001م جمعت الحكومة الأمريكية ما لا يقل عن ثلاثمائة شخص لمشاهدة إعدام مفجّر مدينة أوكلاهوما تيموثي ماكفي في السجن خلال الدائرة التلفزيونية المغلقة،

لكن حماستهم تفتر قليلاً عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن دولتهم في قضايا التعذيب أو الاحتجاز دون محاكمة. كان التخطيط المنظم للإيذاء وإحداث الألم هو الأسلوب الذي تطبقه الشرطة السرية (المباحث) حتى وقت قريب، في 2002م تم تعذيب مجموعة من البريطانيين الأجانب بسبب أن البعض منهم قد تورّط في تجارة الكحول غير المشروعة على يد رجال المباحث، حيث تم اتهامهم بشكل خاطئ في عمليات تفجير قامت بها القاعدة. حاول الملك عبد الله أن يضع حدّاً لهذا الخطأ، من خلال جمعيتي حقوق الإنسان اللتين أنشأهما لمتابعة أي شكوى تتعلق بتعذيب المسجونين – حيث ذكر أحد المفرج عنهم مؤخرا أن أول سؤال يواجهونه في عمليات استجوابهم في الليل هو: «هل تعرّضت للتعذيب اليوم؟» هذا يعكس تأثير الأمير محمد بن نايف الذي يستخدم أساليب «سلمية رقيقة» لقيت الثناء من خبراء الأمن الأجانب. لكن الحقيقة هي أن الحكومة السعودية ما زالت تحتجز مواطنين من دون أن توجّه لهم أي تهمة لمدة ستة أشهر. وأثناء طباعة هذا الكتاب في صيف 2009م، يوجد هناك أحد عشر سجيناً سياسياً، وهم مجموعة من الليبراليين وشركائهم من جدة الذين احتُجزوا من دون محاكمة لمدة سنتين.

عندما تحدث فؤاد الفرحان لافتاً الانتباه إلى محنة هؤلاء الرجال في مدوّنته العربية الشهيرة، تم القبض عليه في 10 ديسمبر 2007م، وهو المصادف لليوم العالمي لحقوق الإنسان.

«خرجت من مقهى»، يقول فؤاد، «لأجد نفسي محاطاً بمجموعة من الأشخاص بملابس رياضية وأحذية للجري – ليس هناك زي موحد. كان

الأمر في غاية التهذيب والاحترام بطريقة غريبة. لم يكن أحد ليعرف أنه سيتم القبض عليّ إلا إذا اخترت أن أقاوم أو أحاول الهرب – وهم في هذه الحالة سيقبضون علي بسرعة. بدوا كما لو كانوا في فريق للجري يدعونني إلى صالة الألعاب الرياضية. أخذوني إلى المنزل لكي أودّع زوجتي وعائلتي ريثما ينتهون من فحص كتبي وجهازي الشخصي لمعرفة اتجاهاتي السياسية».

عندما أخبرتهم بالمصادفة الغريبة لتاريخ هذا اليوم اعتقدوا أن هذه نكتة كبيرة.

«إذاً تعال معنا لنحتفل بهذا اليوم سوياً» قال أحدهم، «سوف نصنع لك كعكة بالسجن».

اتضح أن الطعام في سجن المباحث شمال جدة والذي تم إنشاؤه حديثاً لذيذ جداً – ويتناسب مع بقية الخدمات الأخرى. تم تخصيص غرفة مكيّفة خاصة للفرحان بطول عشرة أقدام وعرض أحد عشر قدماً ، وتضم داخلها دورة مياه ودش استحمام. تقول الشائعات في السجن إن هذه الرفاهية بسبب ضغوط منظمة العفو الدولية ومنظمة حقوق الإنسان بعد زيارتهم للسعودية في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

«كل شيء من صناعة أمريكا»، يقول الفرحان، «حتى مقبض دورة المياه مطبوع عليه كلمة كاليفورنيا. سمعت، رغم أن هذا لم يحدث معي، أن بعض السجناء السياسيين في الرياض يلتقط سمّاعة الهاتف عندما يفد إليه بعض الزوّار ليطلب صحناً ضخماً من الأرز فوقه خروف كامل (مفطّح) يأتيه إلى غرفته».

في خضم هذا الترف السريالي المادي اكتشف الفرحان أنه غير قادر على التصرّف بمفرده.

«كنت ببساطة عاجزاً تماماً»، يتذكّر الفرحان، «مثل طفل رضيع أو شخص جاهل. إذا أردت أن أزيد من برودة المكيّف أو حتى أن أطفئ الأنوار أو أشعلها فإني أقوم عن طريق الميكروفون بمناداة الحرس ليساعدوني على ذلك. كنت تحت رحمتهم. عندما رفضت التعاون مع المحقّقين في أحد الأيام تركوني في زنزانتي مدة اثنين وثلاثين يوماً. يجب أن أقول إنني لم أتعرض للإيذاء أو التهديد من قبلِ أي أحد، كما أنني أستلم ثلاث وجبات يومياً. لكنهم أرهقوا عقلي. كدت أجَنُّ من الخوف والشك. عرفت الآن أن الإنسان لا يستطيع العيش بمفرده لمدة طويلة – وأنا كذلك لم أستطع مطلقاً. عندما نادوني أخيراً لغرفة التحقيق، كنت في الواقع ممتنّاً لهم».

خاف المحققون من أن لدى فؤاد صديقاً – أو «جاسوساً» داخل السجن. كان فؤاد قد كتب رسالة مسبقة ورتّب لنشرها في مدوّنته في حالة القبض عليه، وأعطى بذلك انطباعاً مزيّفاً بأن لديه معرفة مسبقة بأنه سيتم القبض عليه، وهذا الأمر أقلق محققي المباحث كثيراً.

«أنا هنا أحاول ملاحقة القاعدة»، قال الأمير محمد بن نايف في محادثة مطوّلة مع هذا المدوّن المثير للقلاقل، «وأنا الآن أبحث عن أي تسرّبات أمنية من بين رجالنا».

أصرّ الأمير محمد على أن اعتقال الفرحان لم يكن لتقييد حريته في

التعبير بل لأسباب أمنية. كان المدوّن يتحدث بالنيابة عن مجموعة من الإصلاحيين الذين اتهمتهم الوزارة بجمع التبرعات لصالح المتمرّدين ضد أمريكا في العراق ، وعند القبض عليه ، استمرت المدوّنة في نشاطها تحت إدارة الناشط التونسي المنفي سامي بن جربية، الذي ينتقد بشدة الحكومة التونسية. يقول فؤاد إن هذه ما هي إلا مقدّمات لانزعاج الحكومة من كتابته وتشير إلى الموضوع الذي ركّز عليه المحققون وهو أحد أكثر المواضيع المدوّنة شعبية وشهرة — وهي قائمة عشرة سعوديين يكرههم ولا يتمنّى مقابلتهم[1].

«هذه ليست الطريقة السعودية»، وبّخه المحققون، «كن مهذّباً. يجب أن تحترم الآخرين. أنت تُثير الآن فتنة»، وهو المصطلح الذي تستخدمه الشريعة الإسلامية ليعني الاختلاف والفوضى والانقسام بين الناس.

الفتنة هي التبرير الشرعي للنظام السعودي في الاحتجاز من دون محاكمة. بحسب الشريعة الإسلامية ، يكون ولي الأمر مسؤولاً عن حفظ النظام في المجتمع ، فإذا حدّد «ولي الأمر» أنك تشكّل تهديداً لأمن المجتمع أو النظام العام فإن ذلك يخوّلهم القبض عليك لصالح المجتمع بشكل عام.

---

1 - قائمة العشرة سعوديين الأكثر مكروهية هم، هاشم يماني وزير التجارة الذي طلب من السعوديين أن يبتعدوا عن أكل الأرز الغالي، صالح اللحيدان، رئيس مجلس القضاء الأعلى، الذي نادى بقتل مالكي القنوات التلفزيونية، والأمير الوليد بن طلال الأمير ورجل الأعمال الناجح الذي يخطط لناطحة سحاب يبلغ طولها كيلو متراً واحداً، لتكون بذلك أطول بناية في العالم، الأمر الذي رفع من أسعار الأراضي في جدة لدرجة لم يعد باستطاعة فؤاد شراء قطعة الأرض التي يريدها (في فبراير 2009، فُصل اللحيدان من منصبه بواسطة الملك عبد الله في التغييرات الإصلاحية التي أحدثها وكان من ضمنها تعيين نورة الفايز نائبة لوزير التربية والتعليم).

إنها مهمّة ربّانية. يتذكر أحد السفراء الأمريكيين أثناء نقاشه للأمير نايف في التسعينات حول احتجازه لمواطن أمريكي كيف كان وزير الداخلية القوي يرمي ذراعية في الهواء ليقول، «لا أفعل إلا ما يرضي الله».

وقد يكون المترجم قد اختصر أو تغاضى عن بعض الأشياء التي قالها الأمير. قد يكون وزير الداخلية قد وضّح له أن السجين احتُجِز أو حُكِم عليه حسب القانون ، والقانون في السعودية هو شريعة الله ، وأن الأمير هو مجرّد منفّذ لشرع الله. أي أن جميع الأمور تنتهي إلى شيء واحد. إذا كانت الدولة تطبق القرآن كدستور لها فإن جميع حروبها هي حروب مقدّسة ، وكل من يموت من أجل وطنه فهو شهيد – والشرطة السرّية (المباحث) هي في الواقع تؤدي عملاً ربانياً. فكرة الأمر القضائي لرؤية السجين ليست من الشريعة الإسلامية في شيء.

«كانوا يخبرونني دائما أنهم يحترمون حقوقي»، يقول فؤاد الفرحان، «جاؤوا إلى زوجتي وأعطوها ثلاثين ألف ريال (حوالي 8000 دولار) لمساعدتها في الانفاق، وعندما خرجت أعطوني أربعين ألف ريال (11500 دولار)، لتعويضي عن خسائري في التجارة، رغم أنني خسرت نحو عشرة أضعاف ما أعطوني. كان عليّ عند خروجي أن أوقع ورقة تعهد تطلب مني أن أكون مواطناً سعودياً صالحاً وألا أكتب على الإنترنت أي انتقاد ضد الحكومة السعودية. طلبوا من جميع من كان هناك أن يوقّع مثل هذه الورقة، وإذا «أسأت التصرّف» مرة ثانية يبرزوها لك ويخبروك أنك قد خذلتهم. كانوا يذكّرونني طوال وقت مكوثي هناك أنني لم أتعرّض لأي إيذاء جسدي أو عقلي، وهذا صحيح. لكن ماذا يعني هذا؟ توقّف العالم بالنسبة لي 137 يوماً. لم يكن مسموحاً لي أن أقرأ أي كتاب أو

جريدة. بعد أشهر من إطلاق سراحي اكتشفت أن بينازير بوتو قد اغتيلت. لم أخرج مرة لأرى الشمس. أليس هذا إيذاءً عقلياً وجسدياً؟».

أما محمد سعيد طيب، الإصلاحي الأكثر بقاءً بالسجن، والذي كان يقود حملة إصلاح الدستور نيابة عن زملائه ، فيُفسر الأمر بطريقة أخرى.

«لم نستخدم العنف مطلقاً. لم نحمل السلاح أبداً. الشيء الوحيد الذي، قمنا به هو التعبير عن رأي مختلف ، ولهذا السبب ذهبنا إلى السجن».

بلغ مجموع فترات بقاء سعيد طيب خلف القضبان خمساً فقط حتى الآن بمجموعٍ سنوات يصل إلى أكثر من سبع ، وهو الآن يبلغ من العمر سبعين عاماً ، ومع ذلك فهو ممنوع من السفر.

«عندما خرجنا، نحن الإصلاحيين الدستوريين، من السجن، لم تعطنا الحكومة مكافآت مثل تلك التي يعطونها للإرهابيين الذين يستخدمون العنف. ولم يوفّروا لنا أي عمل، أو سيارة، أو زوجة جديدة، ولم يُسمح لنا بالحوار والمناقشة كما فعلوا مع المتطرّفين. المرّة الأخيرة التي رأيت فيها الأمير محمد بن نايف قلت له: «أريد أن أكون في سلّتهم!» ابتسم لي قائلاً، «لا ، لا ، لا. هذا ليس ثوبك». كان ودوداً. أنا متأكد أن الأمور ستكون على ما يرام. قال لي: حاول أن تصبر. الأمور ستتحسّن إن شاء الله».

وعد ابن الأمير نايف أن النظام السعودي في منع السفر هو تحت المراجعة الآن من قبل وزارة الداخلية. في المستقبل ، كما يقول ، منع السفر

سيصدر لأسباب أمنية بقرار من القاضي. اتصل الأمير في منتصف مارس 2009م ليخبره أن قرار منعه من السفر قد انتهى ورُفع : أصبح محمد الآن حراً في السفر.

«أين ستذهب؟» سأل شخص صديقه المشاكس.

«إلى أي مكان في العالم»، ردّ عليه سعيد طيّب، «لا يوجد فيه إصلاحيون».

العثور على الطريق الصحيح

تأخر أحد الحجاج في رحلته نحو مكة، وعندما التحق بأصحابه اكتشف أنهم قد أنهوا زيارتهم للمسجد الحرام للصلاة. وجدهم في فندقهم يشربون الشاي حول طاولة في الهواء الطلق بجانب السوق.

«من السهل أن تصل إلى هناك»، قالوا له وهم يؤشّرون نحو أزقّة ضيقة ممتلئة بالمحلات التي مثّلت سوق مكة في تلك الأيام الخوالي، «اذهب في هذا الاتجاه. اتجه نحو اليسار بعد محل العود والعنبر، وسوف تصل إلى المسجد بالتأكيد».

كانت رحلة صعبة لهذا الحاج. كان متحمساً للصلاة في المسجد الحرام. كان بحاجة إلى أن يبتهل إلى الله. لذا اتجه فوراً عبر الأزقة الملتوية والمحلات البرّاقة، وعندما تجاوز محلّ العود اتجه نحو اليسار. لكن بمجرّد أن مشى في هذا الطريق وجد محلاً آخر للعود والعنبر – ومحلا آخر أيضاً

موجوداً في مفترق طرق. يقف الحاج وهو يفكّر في الطريق الصحيح المؤدي لوجهته. أي طريق يختار؟ ماذا لو اختار الطريق الخاطىء وضاع ثم ضلّ عن البقعة المباركة التي يبحث عنها؟

بعد المرور عبر الأزقة الضيقة والشوارع الملتوية، وجد الحاج نفسه أمام المدخل الرئيسي للمسجد الحرام متفاجئاً بهذه اللحظة السعيدة، حيث دخل المسجد وصلّى. عاد بفرح شديد ليتناول الشاي مع أصدقائه. أخبرهم بمشكلاته التي واجهها في الذهاب ومفاجأته السعيدة بالوصول إلى المسجد ليخبروه أن كل الطرق تؤدي إلى المسجد الحرام. اختر ما تريده من محلات العود والعنبر. هناك طرق كثيرة يمكن أن نسلكها للوصول إلى الله.

نحن الآن في سبتمبر 2008م، والحجاج يتجهون إلى جدة. جميع مقاعد الطائرة مشغولة. النساء يلبسن الثياب والأغطية السوداء أما الرجال فقد لبسوا الإحرامات البيضاء.

«لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لبيك. إن الحمد والنعمة ، لك والملك. لا شريك لك...».

هكذا يردّد الرجال ورؤوسهم نحو الأرض. البعض منهم يحرّكها بانسجام وتناسق مع الآخرين ، والبعض الآخر يغوص في دعائه السرّي الخاص والخاشع. يقطع ذلك صوت المذيع الداخلي : الطائرة تطير بارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق الأرض – لكنّنا الآن ، كما يقول الطيّار ، على وشك المرور على الميقات. هذه آخر نقطة للحجاج كي يغتسلوا أو يغيّروا إحراماتهم. تزداد

التلبية تدريجياً وتزداد معها الإثارة – سيبدأ رمضان غداً.

يسمح لمعظم الناس بالحجّ في تلك الرحلة الدينية السنوية نحو مكة والتي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يقوم بها مرة واحدة على الأقل في حياته متى استطاع إلى ذلك سبيلا. الأقل شهرة هو الرحلة التي يقوم بها بعض المسلمين في رمضان، شهر الصوم، ليمكثوا طوال شهر رمضان في مكة. تزدحم الفنادق والشقق في مكة وتمتلئ ساحات الحرم الشريف بالزوّار. تحدث نفس القصة في المدينة المنورة. أجر الصلاة يتضاعف في رمضان أكثر من أي وقت آخر، كما أن الصلاة في هاتين المدينتين المقدّستين تختلف في الأجر والثواب عن الصلاة في أي مكان آخر. أي أن الوقت مبارك وسانح لجمع أكبر عدد ممكن من الحسنات المضاعفة في الطريق نحو الجنة.

أحد معاني رمضان الكثيرة هو كبح جماح الشهوات. يتذكّر السعوديون قصة معركة بدر التي حدثت في شهر رمضان بعد سنتين من هجرة محمد نحو المدينة حيث انتصر عدد قليل من الصائمين المسلمين على جيش كبير من أهل مكة الذين لا يعرفون الصوم عن الأكل.

«عندما تتحكم في جوعك فأنت تتحكم برغباتك البشرية»، يقول الطالب أحمد صبري، «وعندما تتحكم بنفسك فأنت قوي».

يمتدّ الصوم خلال ساعات النهار إلى الليل. يعبد السعوديون الله الذي أعطاهم القدرة على الصيام – فهم يمتنعون عن الطعام والجنس والأصعب من ذلك السوائل من أي نوع لأكثر من اثنتي عشرة ساعة، بل إنهم يمتنعون

عن جرعة قليلة من الماء. إنهم يستمتعون بدينهم مع كل تنوّعه المعقّد في المطالب والمكافآت لأنهم يعرفون من داخل قلوبهم أنها لا توجد في أي دين آخر. والأهم من ذلك كله أنهم يمارسون هذه الشعائر بشكل جماعي مع العائلة والأصدقاء. ومع ظهور القمر ليلاً ، يحتفلون بإفطارهم ويتحدثون ويلعبون ويضحكون ويصلّون ، حيث تزداد الصلاة طولاً وعمقاً، وتصبح وأكثر شاعرية مع تقدّم الشهر. إنه شهر البركات. هناك هدايا رمضان وأنواره البرّاقة وديكوراته الجميلة. يلعب الأطفال بمرح وإثارة. هناك أيضاً الأطباق الرمضانية الخاصة التي تمتلئ بها المحلات. يحتفل الناس بطعامهم فيأكلون كثيراً. رمضان بالنسبة للسعوديين هو أشبه ما يكون باحتفالات عيد الميلاد لكنها هنا تمتد إلى شهر كامل وبعد حلول الليل فقط.

ينتقل الملك والديوان الملكي ووزراء الحكومة إلى جدة طوال هذا الشهر يمارسون أعمالهم لساعات مختصرة خلال النهار ثم يرتادون الطريق من وإلى مكة خلال الليل. يتم إطلاق سراح عدد من المسجونين خلال هذا الشهر – ممّن لم يرتكبوا جرائم في المخدرات أو جرائم عنف. تختفي في هذا الشهر أحكام الإعدام. إنه موسم « هواء رمضان» إذ لا يسمح لك الشرع ، أو لنقُل الآخرون ، باستخدام معطّر الهواء داخل الفم وذلك لإزالة الرائحة التي تنبعث من معدة خالية. إنه أيضاً موسم الاحتفال مع أصدقاء العمل الذين يتناولون التمر في الإفطار بشكل جماعي مع غروب الشمس. الجو السعودي في تناول الإفطار بدون الكحول يختلف تماماً عن الاحتفال الغربي البذيء: يضم كل الموظفين بدءاً من المدير العام إلى المراسل البسيط حيث يصطفّون بشكل جماعي متساو يركعون ويسجدون ويقيمون صلواتهم. في رمضان 2008م أعلن أمير منطقة مكة الأمير خالد الفيصل

لأول مرة بالسماح للموظفات بتناول إفطارهن في مثل هذه الاجتماعات جنباً إلى جنب مع زملائهن من الرجال.

رمضان هو أيضاً موسم بث البرامج التلفزيونية والمسلسلات الرمضانية الشهيرة وعلى رأسها «طاش ما طاش» – والتي تشبه الخليط الساحر لبرامج غربية مثل برنامجي «بريطانيا الصغيرة» أو «ليلة السبت» على الهواء. افتتح بطلا هذا المسلسل الكوميديان موسم عام 2007م بحلقة يخططان فيها لافتتاح قناة تلفزيونية فضائية. قاما بالتعاقد مع شقراوات جميلات لتقديم الأخبار على مدى 24 ساعة – لكن القناة فشلت. حاولا في قناة أخرى تقدّم نصائح الحب للمشاهدين، ثم قناة موسيقية، ثم قناة نفسية تقدّم المساعدة لضحايا السحر حيث ألبسا أولئك الشقراوات فساتين جذّابة (محاولين في الوقت نفسه إغراء الفتيات أنفسهن). لم ينجح أي شيء حتى جاؤوا بفكرة جديدة، «لنفتح قناة إسلامية». تحجّبت الفتيات تماماً ووضع الرجال اللحى على طريقة أسامة وقدّموا برنامجاً اسمه «التوبة». جاء المعلنون من كل حدب وصوب.

يُقال إن الملك عبد الله أحد المعجبين بـ «طاش ما طاش» – وهم يحتاجون إلى هذا المستوى من الدعم. منذ بداية عرضه في عام 1993م وهذا البرنامج يثير غضب المؤسسة الدينية الصارمة، فكانت الفتاوى تتوالى ضدّه كما لو كان من برامج «الـ إيمي». في عام 2000م شجبت اللجنة الدائمة لهيئة كبار العلماء هذا البرنامج – حيث تلقّى بطلاه ناصر القصبي وعبد الله السدحان تهديدات بالموت من جماعات إرهابية كان البرنامج ينتقدها كثيراً. سخر «طاش ما طاش» من القبائل السعودية والملابس

القبلية، والتأجيلات البيروقراطية، والمتطرفين الدينيين، والشرطة الدينية (الهيئة)، والمستثمرين الجشعين والوساطة، والأزواج السعوديين غير المخلصين، والمسافرين السعوديين إلى الخارج، والمعلمين الأغبياء، ومنع قيادة النساء للسيارات، وإذلال النساء. في إحدى الحلقات، ظهرت المرأة تدير الأسرة بينما الرجال على ركبهم يمسحون ويكنسون ويؤدون الأعمال المنزلية طوال اليوم. ويرى المعجبون أن المسلسل أصبح أكثر جرأة منذ رمضان 2006م عندما انتقل من القناة الحكومية الرسمية إلى قناة تلفزيونية فضائية في دبي. وفي عام 2008م أعاد تسمية نفسه وأصبح «كلنا عيال قرية». ومع ذلك فخلال ست عشرة سنة من بثّه، لم يسخر طاش ما طاش من أمير جشع أو وزير دولة مغرور.

«قادتنا يخطئون»، يقول ناصر القصبي، «ونحن نستمتع بالضحك على هذه الأخطاء. لكننا لا نسخر من القادة بشكل شخصي. هذه ليست الطريقة السعودية».

من غير المحتمل أن يتغير ذلك في المستقبل – لكن في الماضي لم يكن من عادة السعوديين أن يجلسوا أمام التلفزيون ليضحكوا على أنفسهم.

لو شاهدت التلفزيون قبل الإفطار، سوف تشاهد برنامجاً رمضانياً خاصاً للاستشارات الشهيرة التي يقوم بها خالد باحاذق اسمه «ياالله سعادة». حوّل المجاهد السابق عمله الاستشاري في الزواج إلى التلفزيون محاولاً نشر رسالته عن حاجة الرجال أن يتصّرفوا بشكل جيد ورقيق ولطيف مع زوجاتهم.

«بسبب أن الرجال لا يأتون إلى جلساتي الاستشارية»، يقول خالد، «جئت أنا إليهم برسالتي. أرجو أن يستمع البعض منهم إليّ - رغم أني أخشى أن يكون العدد قليلاً. سوف تتمكن النساء من قيادة السيارات، كما أعتقد، قبل أن يطرأ أي تغيير على الرجال - وسوف يتبع هذا التغيّر العملي تغيّر عقلي إن شاء الله».

وبانتظار هذا التجديد الرمزي الذي طال انتظاره والذي يستعد الملك عبد الله لإحداثه كما تقول الإشاعة، تحتفل النسوة الرائدات اللاتي قدن مظاهرة 1990م بهذه الذكرى في 6 نوفمبر ويتذكّرن مغامرتهن الجريئة وذكرياتها والنظر من خلالها إلى المستقبل.

«نناقش»، تقول فوزية البكر، «كل شيء يقوّي ويحسّن حياة الفتاة السعودية الشابة. منذ أحداث سبتمبر والنساء يمتلكن حق العمل في القطاع الخاص، لكن مثل أي نشاط خارج المنزل فهن يقمن بذلك من خلال موافقة مكتوبة من المحرم».

نوقشت مشكلة المحرم الرجل في الحوار الوطني الثالث الذي عُقد في المدينة المنورة في يونيو 2004م الذي حضرته الدكتورة فوزية العضو في اللجنة المنظمة. دُعِيت السجينة السياسية السابقة لوضع البرنامج واقتراح أسماء المشاركين. مثل الحوار الثاني في السنة الماضية، يكون الوفدان النسائي والرجالي في مكانين منفصلين حيث تشارك النساء في الحوار عن طريق الدائرة التلفزيونية المغلقة.

«كل طرف في مكان منفصل»، تقول فوزية، «حتى المصاعد مكتوب عليها (للنساء فقط)».

لكن هذا الفصل وفّر انسجاماً غير متوقع.

«معظم الوفد النسائي كان من المحافظات والملتزمات دينياً»، تقول فوزية، «كنت واحدة من الليبراليات القليلات اللاتي شاركن. كان الجو مشحوناً في البداية. لا أحد يثق في الآخر، كان هناك الكثير من العدائية. لكن لأننا كنا نقيم سوياً ونأكل سوياً بدأنا في النظر إلى الجانب الإنساني لكل واحدة منّا. كنّ نساءً فاضلات، ويتمتعن بقدرات فكرية جيدة. احترمتهن كثيراً وأعتقد أنهن فعلن نفس الشيء معي. أصبحنا أسرة واحدة. وفي نهاية اليوم كنا جميعاً نتحدث سوية عن مشاكلنا وأفكارنا حول أطفالنا وعملنا».

نتج عن اجتماع يونيو في 2004م ثلاث توصيات أساسية : أن تتمكن النساء من العمل والدراسة من دون موافقة المحرم، وأن يتم إنشاء محاكم خاصة للنساء بقاضيات يحكمن في الشؤون النسائية، وتأسيس نظام نقل عام وطني فعّال يخدم النساء وخاصة الفقيرات اللاتي لا يستطعن تحمّل استقدام السائقين.

استقبل الملك عبد الله الدكتورة فوزية البكر وزميلاتها من الوفد النسائي بعد ذلك لشكرهن على عملهن ووعد بدراسة اقتراحاتهن بشكل جدّي. بعد أربع سنوات ونصف، في ربيع 2009م (1430هـ) لا يوجد في الأفق ما يبين أن توصية واحدة من توصيات النساء قد تمّت دراستها، فضلا عن تنفيذها.

عاد حسين شبكشي، الحالم الذي كتب عن ابنته المحامية التي تقود سيارتها لتأخذه من المطار، إلى كتابة عموده الصحفي مرة أخرى، وإلى بث برنامجه التلفزيوني — في وقت أفضل من فترته السابقة وبجمهور أكبر. يقوم الآن بإنشاء قناة إخبارية تلفزيونية جديدة تبث أربعاً وعشرين ساعة في جدة. أصبح أيضاً صوفياً.

بعد شهور من عمليته الجراحية التجميلية والجلسات التأهيلية، استأنف فرانك جاردنر عمله كمراسل أمني في هيئة الإذاعة البريطانية الـ بي بي سي على كرسي متحرك معظم الوقت. في أكتوبر 2005م ذهب إلى قصر باكنجهام لاستلام وسام الإمبراطورية البريطانية من الملكة — وهو يقف ويجر أقدامه ثلاثين ياردة في القاعة ليقابلها على عكّازين.

«كم أنت شجاع ونبيل أن تأتي إلى هنا بهذا الشكل»، قالت جلالة الملكة له.

«تي — ون»، أو عبد العزيز التويجري، مات في عام 2007م في سن التسعين بعد أن رأى برضىتام العديد من مشاريعه تتحقق على أرض الواقع ليخلفه بعد ذلك كمستشار ملكي رئيسي ابنه خالد. خالد ، الابن النشيط والأقل من والده في المشاركة بالنشاطات الاجتماعية ، مسؤول عن لجنة البيعة التي تختار الملك القادم أو ولي العهد. تمت ترقية خالد الذي كان يُعرف بـ «تي - فور» بسبب ترتيبه في هرمية عائلة التويجري. اليوم، يُعرف بـ «تي — ون» بين الأجانب الذين يبحثون عن فهم التنوع المربك من الأسماء التي تجتمع حول الملك.

تمت أيضا ترقية المتحدّث الجريء والإصلاحي الأمير خالد الفيصل من قبل الملك عبد الله. هو الآن أمير منطقة مكة الذي سمح في أكتوبر 2007م بإعادة الاحتفال برمضان في الشوارع. استطاع البائعون المتجوّلون وصانعو الحلوى إنشاد أغانيهم مجدّداً – والتي شاهدتها لأول مرة بعد انقطاع دام ثلاثين سنة حشود كبيرة من الرجال والنساء من دون أن يكون هناك فصل بينهم. لو تحلّى التسعة عشر حفيداً من العائلة المالكة والأعضاء في مجلس البيعة الجديد بالشجاعة الكافية لاختيار أحد أبناء جيلهم في الخلافة – وهي رمية قوية فعلاً – فإن خالد هو الحفيد الذي يمكن أن تراهن عليه في أن يكون ولياً للعهد.

يقوم أخوه غير الشقيق تركي، الرئيس السابق للمخابرات السعودية والسفير لمدة قصيرة في واشنطن ، بإدارة مركز البحوث والدراسات الذي تملكه العائلة في الرياض – مركز الملك فيصل الرائد للدراسات والبحوث المستقلة – كما أنه يقوم هو أيضاً ببحث حول ما حدث في السنة الهجرية 1000هـ (1591–1592م). يأمل أن يستحق هذا الموضوع نشر كتاب حوله. وأثناء ذهاب هذا الكتاب الذي تقرأه للمطبعة، يعمل الأمير أستاذاً زائراً في الإدارة في جامعة جورج تاون في واشنطن دي سي – الوهابي «بين قوسين»، كما يقول الأمير تركي ، يحاضر في جامعة أسسها ويعمل فيها الآن مجموعة من اليسوعيين.

ما زال صهره بندر بن سلطان مستشاراً للأمن الوطني لعمّه الملك، لكنه لم يعد يظهر في الأخبار الرئيسية مؤخراً (عاد الأمير بندر إلى الظهور قبل صدور النسخة العربية من هذا الكتاب). في أكتوبر 2007م ، وخلال

سلسلة زيارات رسمية للعواصم الأوروبية ، توقّف الملك عبد الله لمشاهدة الجزء الأول من حلقات تلفزيونية ستُبثّ عن حياته وفترته، ليكتشف أن الأمير الثرثار بندر يسيطر على الشاشة مدّعياً أن جهوده الشخصية كانت خلف العديد من المبادرات الملكية – بما فيها الاختلافات التي حدثت في عام 2001-2002م والتي أدّت ببوش إلى الموافقة على إنشاء دولة فلسطينية منفصلة. غضب الملك كثيراً. تضاربت الأخبار حول ما حدث لاحقاً ، لكن الشيء المؤكد أن الحلقات التلفزيونية المخطط لها لم تر النور أبداً – وكذلك مثلها الأمير بندر. عندما وصل الوفد السعودي إلى روما، قال موظفوه إن الأمير غادر مضطراً إلى جنيف لإجراء عملية في الكتف تأخّرت كثيراً. أما بالنسبة لدوره الجديد كمستشار للأمن الوطني فقد قال أحد معاونيه إن الأمير يعتبر مسؤولياته الجديدة « سرّية» وليست موضع نقاش في كتاب أو جريدة.

أما أسامة بن لادن فهو الآخر ما زال غائباً – يختبئ في مكان ما ، كما يفترض الجميع، داخل المناطق القبلية في باكستان ، رغم أن هناك تقارير غير مؤكدة بموته. يفحص محامو عائلة بن لادن هذه التقارير جيداً على اعتبار أنهم مسؤولون عن إدارة ممتلكاته ونصيبه في ثروة العائلة التي صادروها منه بعد أن تبرّأ منه إخوانه في عام 1994م. عندما يموت أسامة، سيتم توزيع هذا المبلغ – حوالي سبعين مليون ريال (12 مليون دولار) بحسب ما قاله صديق للعائلة – بحسب الشريعة الإسلامية على زوجاته وأطفاله.

يعيش منصور النقيدان في عجمان في الإمارات العربية المتحدة مع زوجته التي تعمل طبيبة وطفليهما. يزور بريدة بين الحين والآخر ، لكنه لا

يجد صحيفة سعودية تنشر مقالاته. دفع ثمناً باهظاً لصراحته. يكتب الآن عموداً صحفياً في جريدة «الوقت» البحرينية حيث يعبّر عن أمله العظيم في ظهور لوثر إسلامي يقوم بإصلاح الإسلام كما فعل مارتن لوثر في إصلاح كنيسة القرون الوسطى الأوروبية.

«المسلمون صارمون»، كتب منصور في صيف 2007م، «في تفسيرهم الحرفي القديم للقرآن. حان الوقت لتفسير جديد للعديد من الآيات وخاصة تلك التي تتناول العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى ليكون لدينا إسلام أكثر حداثة. حان الوقت لنقبل أن الله يحب جميع المؤمنين من كل الأديان. حان الوقت للمسلمين في استجواب قادتهم ونقد تعليماتهم الصارمة، والوصول إلى فهم كلمات الرسول والمطالبة بتجديد إيماننا لكي يكون إيماناً يعتمد على المودّة والسلام والنور... هذا هو الإيمان الذي وصلت إليه بعد رحلة روحية مؤلمة وطويلة».

لا يوجد هناك حتى الآن نشاط رياضي منظّم في مدارس البنات السعودية. لم ترسل السعودية فريقاً نسائياً للألعاب الأولمبية في بكين بسبب مشكلة عدم الاحتشام – تُعتبر الملابس الرياضية في كل المنافسات الأولمبية غير محتشمة وكاشفة. تتعرّض النوادي النسائية الرياضية للانتقاد من قبل التقليديين وكونها «تؤدي إلى نشر ثقافة عدم الاحتشام» – على الرغم من أن ثلاثة من المشايخ المتشددين الذين طالبوا بمنع الرياضة للنساء وهم عبد الرحمن البراك وعبد الله بن جبرين وعبد العزيز الراجحي ، اقترحوا طريقة يمكن للنساء فيها ممارسة الرياضة بطريقة إسلامية. «يمكن للمرأة أن تمارس الرياضة في المنزل»، يقول المشايخ، «وهناك العديد من الطرق

لذلك: تستطيع، على سبيل المثال، أن تتسابق مع زوجها في مكان منعزل، مثل الرسول صلى الله عليه وسلم والذي تسابق مع زوجته عائشة مرتين».

استمرت المباحث في ممارسة عملها كنظام سيطرة وتحكم اجتماعي وهي وسيلة المراقبة الخاصة لوزارة الداخلية في متابعة المنشقين والمعارضين والمزاج الوطني. أطلقت سراح فؤاد الفرحان من السجن بعد 137 يوماً، لكن أثناء كتابة هذه السطور، ما زال هناك سبعة من المعارضين، الذين تكلم دفاعاً عنهم، خلف القضبان. لا يمكن قبول هذا الوضع بحسب المعايير الغربية. أما في المعايير السعودية فإن هذا يُعتبر تطوراً بالمقارنة مع اختفاء فوزية البكر من دون أي أثر في تجربة اعتقالها المريرة عام 1989م.

تعمل المباحث اليوم باتباع بروتوكولات محدّدة –على سبيل المثال يتم إخبار الزوجات والعائلة خلال أربع وعشرين ساعة من حدوث الاعتقال لشخص ما– وقد تزايد انتقاد الرأي العام لعمل المباحث في السنوات الأخيرة.

كما أن الجهة التي تتعرّض للانتقاد الشديد هي الشرطة الدينية أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. في أواخر عام 2008م انتظرت مجموعة من رجال الهيئة محاكمتهم على كثير من التهم ابتداءً من المضايقة والإيذاء وانتهاءً بالقتل غير المشروع لمتهم وقع في أيديهم – رغم أنه لا أحد يتوقع أن تقوم المحاكم الشرعية بالتعامل معهم بالقوة التي يتوقع العلمانيون أنهم يستحقونها. تعتمد الدولة السعودية على مبدأ التوافق التاريخي بين الأمراء والمشايخ، على الرغم من مشكلات الثلاثين سنة السابقة – داخل المملكة

وخارجها. هذا التوافق أنقذ العائلة المالكة من مثل هذه العواصف. وبالنظر إلى المستقبل وفي ما يمكن أن يساعد في تماسك هذا المجتمع المعقّد وهو يسلك طريقه نحو القرن الحادي والعشرين، يبدو أنه لا مفرّ من الالتزام بالأساس الديني.

استمرت خطوات الإصلاح أيضاً بين الشيعة في الشرق، على الرغم من بطئها. يعمل توفيق السيف جنبا إلى جنب مع جعفر الشايب والشيخ حسن الصفار على أن تتبنى المملكة العربية السعودية تفسيرات مرنة للقرآن الكريم - وهو ما يسميه المسلمون بالتفسير.

هناك آية في القرآن الكريم تقول إنه من أجل أن تكونوا أقوياء في الحرب ضد أعدائكم فإنه يجب عليكم أن تعدّوا «السيف والخيول»، يقول توفيق: «فإذا أخذت هذه الآية على المعنى الحرفي هذه الأيام وذهبت إلى المعركة بالسيف والخيل فسوف تجد نفسك ضعيفاً ضد أعدائك. إذاً في هذه الحالة يوافق الجميع على أن هناك حاجة لإعادة تفسير ما قاله الرسول. يمثّل التفسير الحرفي الأشياء الظاهرية فقط وقد جرّنا إلى مزالق خطيرة خلال الثلاثين سنة الماضية. يجب أن نبحث عن القيمة التي تكمن داخل الكلمات. الشيء الذي يجب أن يسأله المسلمون المخلصون - من السنّة أو الشيعة - هو ليس ماذا فعل الرسول في الماضي، بل ماذا سيفعل الآن لو واجه واقع ومعطيات الحياة الحديثة».

يعتقد أحمد التويجري، وهو أحد من صاغوا مذكّرة النصيحة، أنه يمكن للوهابية أن تصلح نفسها وتقود الطريق إلى اتجاهات جديدة.

«في البداية»، يقول التويجري، «كانت الوهابية حركة تقدّمية هزّت عالم الشعوذة والتقليد الأعمى. حاول محمد بن عبد الوهاب تصحيح مسار الأصوليين بطريقة ديناميكية وحديثة في ذلك الوقت. فقط خلال القرن العشرين أصبحت الدعوة الوهابية عصية على التغيير بوجود من يحاول جرّها إلى الخلف».

أصبح الرجل الذي قضى أربعين يوماً في السجن بعد تقديمه لمذكّرة النصيحة في عام 1992م يدير مكتباً للمحاماة للعمل في المحاكم السعودية، كما أنه يعمل مع ناشطين من دول أخرى لإنشاء منتدى عالمي من أجل السلام.

«يتحدّث الناس كما لو كان أمامنا طريقان فقط في المملكة»، يقول التويجري، «إما أن نقلد الغرب بكل شيء، أو نحافظ على كل شيء عندنا ونقاوم أي تغيير. لكن مازال أمامنا طريق ثالث وهو الاجتهاد – الكشف والبحث عن الحقيقة. إذا لم يتحرك العلماء المسلمون ولم يمتلكوا الشجاعة الكافية لإحداث التغيير فإنهم سيبقون لوحدهم في الخلف وسيدفع الإسلام الثمن الباهظ. ملكنا الحالي ، عبد الله، رجل طيب. نحن نعرف أنه يسعى إلى الإصلاح. لكن حتى عام 2008م ، تتحرك المؤسسات السياسية بشكل بطيء جداً».

يعتقد عبد الله بن عبد العزيز الشيء نفسه. في عمر السادسة والثمانين، هو رجل كبير في السن وفي عجلة من أمره. لأكثر من ثلاثين سنة، كان طموحه الكبير إنشاء كلية متميزة دولياً تحمل اسمه ، جامعة الملك عبد الله

للعلوم والتقنية (كاوست)، الجامعة العربية المماثلة لمعهد ماساشوسيتس للتقنية والتي تقبل خريجي الجامعات فقط. يجتمع العلماء والباحثون من جميع أنحاء العالم ويتحركون بحرية في حرمها، كما يحلم الملك – الرجال والنساء، الشرق والغرب، كلهم متّحدون من أجل العلم وملاحقة التعلّم.

استلهم عبد الله هذا الطموح الرومانسي من بيت الحكمة التي ازدهرت في بغداد بين القرنين التاسع والثالث عشر كمركز دراسة وقبلة معرفة في العالم الإسلامي – بل وفي العالم الغربي برمّته أيضاً. كان بيت الحكمة من أنقذ الحضارة عندما كانت أوروبا تغوص في العصور المظلمة. الرياضيات، الفلك، الطب، الكيمياء، الجغرافيا، علم الحيوان، والفلسفة، كل ذلك بقي وازدهر في هذه القرون بفضل بيت الحكمة العربي: من كتاب الجبر (المعادلات الرياضية) جاء العلم الذي نسميه علم الجبر. حافظ بيت الحكمة على أفكار جالينوس وفيثاغورث وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأبقراط ودرسها. إذاً العلماء المسلمون هم من مرّر المادة الخام التي ألهمت أوروبا وساعدتها على النهوض من جديد في نهاية العصور الوسطى. من دون بيت الحكمة العربي لم يكن ليوجد توماس ألاكويني، ولا بيكون، ولا غاليليو.

هذا هو الإسلام الحقيقي السابق الذي يجب أن ينظر إليه المسلمون المعاصرون ويستلهموه، وهذا ما فكّر فيه الملك عبد الله –أي ذلك العصر الذي تميز بالتسامح وملاحقة المعرفة. تابع علماء بيت الحكمة المعرفة أنّى ذهبت فأصبحوا منفتحين على أفكار جديدة. أن تفهم معجزة الكون فإن عليك أن تفهم ما خلقه الله. هذا ما آمن به أولئك العلماء. تهدف كاوست إلى متابعة تلك الأفكار الكبيرة، ولا تسعى فقط إلى استيعاب طلاب من جميع أنحاء

العالم. تمثل الجامعة ردّ الملك على الاتجاهات المتسلطة وغير السعيدة للفلسفة السلفية– النقطة الأساسية هنا هي إحداث تغيير في الاتجاهات التربوية التي ستكون مصدر إنارة للمدرسة العادية.

في ربيع 2007م قدّم عبد الله لشركة الزيت السعودية أرامكو، أي مبلغ تحتاجه لتحويل مشروعه إلى حقيقة. تمتلك كاوست ما مقداره 10 بليون دولار مثل معهد ماساشوسيتس، وهي في طريقها إلى مبلغ 25 بليون دولار أمريكي، بحسب جريدة فاينينشال تايمز، والتي ستجعلها في المركز الثاني عالمياً بعد هارفرد. يعتقد الملك أن أرامكو هي المؤسسة السعودية الفّعالة داخل وخارج الحكومة وهي تتقدّم بسنوات ضوئية على وزارة التعليم العالي التي أضنتها التقاليد. كانت فكرة عبد الله في البداية أن يكون مقرّها في مرتفعات الطائف الخضراء الباردة فوق مكة ، لكن تم إقناعه بنقلها إلى مكان المدينة الاقتصادية التي تحمل اسمه على ساحل البحر الأحمر. كان شرطه الوحيد أن يرى الطلاب والأساتذة يعملون في الحرم الجامعي خلال سنتين – أي في سبتمبر 2009م.

بعد عدة أشهر لاحقة، قرّر الملك أن يفحص تقدّم الجامعة، إذ طلب الحافلة الملكية، وسيلته المفضّلة في التنقّل رغم أنها تمثّل كابوساً أمْنياً. تُعتبر الحافلة هدفاً ضخماً، لكن الملك يستمتع بالسفر بشكل جماعي في الحافلات إذ تسمع الكثير من النكت والأناشيد عندما تسافر على حافلة الملك عبد الله، كما أنك تستمتع بالمناظر الجميلة على الطريق.

تحرّكت الحافلة عبر الطريق الساحلي من القصر الملكي في جدة وتوقفت خارج مدينة الملك عبد الله الاقتصادية الجديدة على بعد مائة ميل.

«أين الجامعة ؟» سأل الملك وهو ينزل من الحافلة.

عندما اكتشف أن هذه مجرد زيارة رمزية ابتدائية في مدينته الاقتصادية، رجع فوراً إلى الحافلة تاركاً خلفه لجنة الاستقبال في الغبار الطلق. جاء هنا لرؤية طلاّبه يدرسون ، وعندما وصل إلى المكان الصحيح لم يكتشف شيئاً سوى أشجار من النخيل وبعض الرمل. لم يكن مسروراً بذلك. تظاهر بإبداء بعض الاهتمام وهم يعرضون عليه الخطط ويفتحونها أمامه، لكن عائلته تستطيع رؤية الغضب والكآبة تسيطر على وجهه.

لم تكن رحلة العودة عبر الحافلة سعيدة ومرحة في الطريق الساحلي، وعندما توقفت الحافلة اتجه الملك مباشرة إلى الشاطئ لتأدية صلاة المغرب وهو جالس، خاصة وهو يعاني من صعوبة في الركوع في هذه الأيام. يُسمح للمسلمين الذين لا يستطيعون الركوع أن يصلّوا قاعدين، أو حتى الصلاة وهم مستلقون على السرير إذا كانوا فعلاً لا يستطيعون الحركة.

كان منظراً مؤثّراً. الملك جالس في مقعده لابساً ثوبه الأبيض ولوحده تماماً على الشاطئ يدعو الله في صلاته بخشوع واضح نحو مكة. كان رافعاً يديه إلى الأعلى أمام وجهه يتوسّل إلى الله ويبتهل إليه. قالت عائلته إنها لم تره أبداً بهذا الحزن – كان هناك الكثير من الأشياء التي يجب أن يقوم بها والقليل من الوقت أمامه.

في ذلك المساء الحزين ، قضى الملك وقتاً طويلاً في صلاته.

أهم الأحداث: تسلسل تاريخي

1744 تأسيس الدولة السعودية الأولى في الدرعية، وسط شبه الجزيرة العربية.

1803 الجيوش السعودية تفتح مكة.

1818 المدافع التركية تدّك الدرعية.

1824 بداية الدولة السعودية الثانية.

1891 الدولة السعودية الثانية تسقط في أيدي عائلة رشيد بحائل.

1902 استولى عبد العزيز (الذي كان يبلغ من العمر 25 عاماً حينئذٍ) على الرياض فأصبح بذلك سلطان نجد.

1913 ضم عبد العزيز القطيف والأحساء في الشرق.

1921 فتح عبد العزيز حائل مركز آل رشيد.

1926 دخل عبد العزيز جدة لكي يصبح ملك الحجاز وسلطان نجد.

1929 معركة السبلة، حيث هزم عبد العزيز الإخوان المتمردين.

1932 إعلان تأسيس المملكة العربية السعودية.

1933 بدء التنقيب عن النفط في المنطقة الشرقية.

1938 أول إصابة موفقة في العثور على نفط في البئر السابعة بالظهران.

1945 قابل عبد العزيز الرئيس الأمريكي روزفلت بالبحيرة المرة العظمى بمصر.

1953 وفاة الملك عبد العزيز وتولي الملك سعود بن عبد العزيز العرش.

1964 حل فيصل بن عبد العزيز محل أخيه سعود كملك للبلاد.

1965 تأسيس المجموعة السلفية للمدينة وهي الجماعة السلفية المحتسبة.

1973 أعلن الملك فيصل عن مقاطعة بيع النفط للولايات المتحدة.

1975 اغتيل فيصل وأصبح خالد بن عبد العزيز ملكاً للبلاد.

1979 الثورة الإيرانية حيث خُلع الشاه من منصبه.

1979 استيلاء جهيمان على المسجد الحرام بمكة.

قيام الانتفاضة من قبل الشيعة المعارضين في المنطقة الشرقية.

غزو الاتحاد السوفياتي لأفغانستان.

1980 غزو صدام حسين لإيران، بداية الحرب العراقية الإيرانية (1980م-1988م).

1982 وفاة الملك خالد والمناداة بفهد بن عبد العزيز ملكاً للسعودية.

1983 تعيين بندر بن سلطان سفيراً في واشنطن.

1984 أصبح محمد بن فهد حاكم المنطقة الشرقية.

1985 دار سلطان بن سلمان حول الأرض في رحلة استكشافية لوكالة ناسا للفضاء.

1986 إقالة وزير النفط أحمد زكي يماني.

1987 وفاة 402 حاجاً عقب المظاهرة الإيرانية السياسية بمكة.

1988 بداية نشاط أسامة بن لادن والعرب الأفغان في أفغانستان.

1989 خروج آخر الجنود السوفيات من أفغانستان.

1990 غزو صدام حسين للكويت.

قادت النساء مظاهرة السيارات في الرياض.

1991 حرب الخليج، طرد القوات العراقية من الكويت، معركة الخفجي.

1992 مذكرة التضحية والإصلاح ، تأسيس الملك فهد مجلس الشورى.

1993 نشاط أسامة بن لادن في السودان.

1994 تجريد أسامة بن لادن من الجنسية السعودية.

1995 تفجير مركز الحرس الوطني بالرياض.

أصيب الملك فهد بسكتة دماغية، فتولّى ولي العهد الأمير عبد الله مزيداً من السلطة.

1996 تفجير أبراج الخبر في المنطقة الشرقية.

1998	القاعدة تستهدف السفارات الأمريكية في نيروبي ودار السلام بشرق إفريقيا.
	رفضت طالبان تسليم أسامة بن لادن للسعودية.
2000	القاعدة تستهدف سفن الولايات المتحدة في عدن.
2001	هاجمت القاعدة يوم 9/11 كلاً من مركز التجارة العالمي والبنتاجون (أحداث الحادي عشر من سبتمبر).
2002	حريق مدرسة البنات بمكة الذي أدى إلى مقتل 15 طالبة وإصابة أكثر من 50.
	خطة السلام لعبد الله التي قدمت اعتراف العرب بإسرائيل.
2003	هجوم القاعدة على الرياض.مقتل سيمون كمبرس مصور قناة BBC.
	إطلاق ولي العهد الأمير عبد الله أول حوار وطني.
2004	خاطب ثالث حوار وطني قضايا المرأة.
2005	وفاة الملك فهد. وتولّي عبد الله بن عبد العزيز العرش.
	استقالة بندر بن سلطان كسفير للسعودية في واشنطن.
	أقام الملك عبد الله لجان حقوق الإنسان الأهلية.
2006	زيارة الملك عبد الله لبكين.
2007	الجلسة التأسيسية لمجلس البيعة لتحديد الخلافة المستقبلية.
	حادثة اغتصاب فتاة القطيف.
2008	بدء الملك عبد الله حوار الأديان في مدريد ثم نيويورك.
	هبوط أسعار النفط من 147 دولاراً أمريكياً للبرميل في شهر يوليو إلى40 دولاراً أمريكياً في ديسمبر.
2009	عزل الملك عبد الله الشخصيات الدينية المتحفظة من حكومته.
	تولي نورة الفايز منصب نائب وزير التعليم.
	تولى الأمير نايف بن عبد العزيز منصب النائب الثاني.

ملاحظات

مقدمة: أهلاً بكم في المملكة

- **الغرف المظلمة المحمولة**: صور النيجاتيف الزجاجية الخاصة للكابتن ويليام شكسبير، الذي كان من أوائل الرحالة والمصورين، موجودة في أرشيف الجمعية الملكية الجغرافية في لندن.
- **الخليج العربي**: هناك نزاع على الاسم بين العرب الذين يسمّون الخليج بالخليج العربي بينما الإيرانيون يسمّونه الخليج الفارسي. هذا الكتاب يستخدم اسم الخليج العربي.
- **ترجمته في الانترنت**:

Http//: www.rasid.com/artc.php?id=20576

الفصل الأول: الوجه الغاضب

- **خمسة أضعاف**: خلال عام1973 وهو عام المقاطعة النفطية، ارتفع سعر برميل النفط من 2،10 دولار أمريكي إلى 10،40 دولار أمريكي تبعا لما نشرته جريدة نيويورك تايمز بتاريخ 13 أغسطس 1990.
- «**امتلأت جيوب الناس بالدراهم**»: د.هورست أرتل، مقابلة مع الكاتب بجدة بتاريخ 1 أغسطس 2006.
- «**تضيع في مدينتك**»: الأمير عمرو محمد الفيصل، مقابلة مع الكاتب بجدة بتاريخ 11 يوليو 2006.
- **رائحة الندى**: زهرة م. المعابي، في كتاب لأيكرز وباقادر، «سوق الندى»

ص11-15.

- **«الحديد والإسمنت»**: الأمير فيصل بن عبد الله، مقابلة مع الكاتب في الرياض بتاريخ 25 فبراير 2006.

- **الحديث الشريف**: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» رواه الترمذي، المصدر:

.http: //islamicknowledge.faithweb.com/danger_of_bidah.htm

- **«فندق حديث»** خالد باحاذق، مقابلة مع الكاتب، جدة بتاريخ 9 ديسمبر2006.

- **« غطاء كل واحد فينا»**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض بتاريخ 20 ديسمبر 2006.

- **ماذا أوحى الله لمحمد**: هذه الحكاية البسيطة تعتمد على أعمال كارن ارمسترونج عن «محمد والإسلام» وأيضا على عمل رضا أصلان «لا اله إلا الله».

- **« اقرأ»**: في القرآن السورة 96 الآية الأولى.

- **مصباح كهربائي واحد**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، بتاريخ 21 سبتمبر 2006.

- **«لحم طير»**: القرآن سورة 56 الآية 21.

- **الجماعة السلفية بالمدينة**: هذه الرواية عن المجموعة السلفية تعتمد على سلسة من المقابلات مع ناصر الحزيمي في الرياض 2006 - 2007م، وعلى مقالات كتبها في جريدة الرياض بتاريخ 19و26 مايو 2003، و10 يونيو2003، و6 سبتمبر 2001. ولقد غطّى الخبر بشكل جيد ياروسلاف تروفيموف في كتابه «حصار مكة» والذي اعتمدت عليه أنا أيضاً. كتب المقال المذكور بالإنجليزية توماس هيجامر وستيفاني لاكروا تحت عنوان

«الإسلاميون المعارضون في المملكة العربية السعودية: حكاية جهيمان العتيبي مرة أخرى»، الجريدة العالمية لدراسات الشرق الأوسط العدد 39 (2007) ص97ـ116. اشعر بالامتنان لتوماس هيجا مر لمساعدته لي في هذا الموضوع وكذلك العديد من جوانب التاريخ الإسلامي الحديث.

- «**تعليق الصور على الجدار**»: فتوى أسلامية (الرياض دار السلام، 2002) المجلد الثامن، ص112، استشهد بها تروفيموف في كتابه ص 28.

- «**في سن الثامنة تقريبا**»: بعض الروايات تقول إن ابن باز أصبح كفيفا بعد بلوغه عشر سنوات و العشرينات من عمره. ولكن ذكر أمير رفيع المستوى قد قضى بعض الوقت بصحبته أن الشيخ أخبره أنه أصبح كفيفا قبل بلوغه العاشرة.

- **تسليمه الأرض الإسلامية**: جادوا ستنبرج. «العلماء الوهابيون والدولة السعودية: 1745م وحتى الآن» في أرت وتونيمان ص 25. تعتمد رواية ستنبرج على السجلات السعودية في عصر ابن باز في الخرج وعلى الوثائق الأمريكية في وزارة الخارجية.

- **الاختلاط مع المرأة السعودية**: د. عبد الله هـ مصري، خطاب للكاتب بتاريخ22 سبتمبر 2008.

- «**الوهابي الأول**»: يعتمد هذا التاريخ المبسط للمهمة الوهابية على روايات مؤرخي نجد ابن بشر (توفي عام1871) وابن غنام (توفي عام1811) حيث ترجمت و جمعت بواسطة جورج رنتز تحت عنوان «مولد الحركة الإصلاحية في السعودية».

- **ملك بها البلاد والعباد**: استشهد بها رنتز ص 50.

- **الحواريون القدماء**: د.على سعد الموسى، مقابلة مع الكاتب بـ أبها، بتاريخ 5 يونيو 2006.

- **منهجه كله ضد الحكومة**: السابق.
- **عملات معدنية وليست ورقية**: ناصر الحزيمي، الرياض، مقابلة مع الكاتب 19 نوفمبر 2006.
- **لا يمثّلون السلف الصالح**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 22 نوفمبر 2006.
- **مخبرين في المباحث**: هيجمر ولاكروا، ص102 و 103.

الفصل الثاني: الاخوان

- **مجوعة من الطباخين**: جون س حبيب، مجاهدو الإسلام في عهد ابن سعود، ص 140.
- **أكياس الإبل بلا عُرَى**: المانع، ص 103.
- **سبق الإصرار والترصّد**: أوضح محمد المانع الذي شهد المعركة أن عبد العزيز قد أعطى أوامره لحاملي المدافع الرشاشة أن يتراجعوا لإخفاء أنفسهم حتى يتمكنوا من إطلاق النيران عن قرب وإحداث أثر دموي قاتل في صفوف العدو، المانع، ص 103.
- **لم يعد لهم دور**: هاري سانت جون فيلبي، السعودية ص313. لقد كان هاري فيلبي الخواجة الذى حصل على الصورة الأولى التي تذكرها الملك خالد، وهو والد كيم فيلبي أشهر جاسوس مزدوج.
- **لا تستسلموا أبداً**: تروفيموف ص 18.
- **وُلد له ابن**: كان يعتقد لعديد من السنوات أن جد جهيمان سيف قد حارب مع الإخوان في السبلة ولكن ناصر الحزيمي والذي تحدث في نوفمبر 2006 كان مصراً على أنه والد جهيمان محمد.

- **حراج جدة للسيارات**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض 11، فبراير 2007.

- **الدعم المالي**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 20 سبتمبر 2006.

- **أطلق سراح الجميع**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 21 سبتمبر 2006.

- **في الباب الأمامي**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 19 نوفمبر 2006.

- **ثلاثين من الإخوان**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 22 نوفمبر 2006.

- **طبيب أسنان**: هيجمر ولاكروا، ص 104.

- **رسائل جهيمان**: انظر هيجمر ولاكروا، ص 104 و 105. من أجل تحليل رسائل جهيمان، والذي اعتقد أنها سبع فقط، وكيف تم نشرها.

- **الشر والفساد**: هيجمر ولاكروا، ص 105.

- **يقرأ أفكاره بصوت عال**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض 11 فبراير 2007.

- **تبدو غريبة بعض الشيء**: نبيل الخويطر، مقابلة مع الكاتب، الظهران 17 يناير 2008، رسالة بريد الكتروني للكاتب 27 سبتمبر 2008.

- **أناس يخافون الله يشغلون مناصب في السلطة**: السابق.

- **إن الملوك إذا دخلوا قرية**: القرآن، سورة النمل، آية 34.

- **شخصية المهدي**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 20 سبتمبر 2006.

- **أخبار عن الملائكة**: ناصر الحزيمي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، فبراير 2007.

- **انسحب**: ناصر الحزيمى، مقابلة مع الكاتب،الرياض، 22نوفمبر2006.
- « **نحن نحلم**»: ناصر الحزيمي، «الأحلام: من السعادة إلى الأنا» ، جريدة الرياض 6سبتمبر 2004.
- **الخضر**: د. على سعد الموسى، مقابلة مع الكاتب، أبها، 5يونيو 2006.

الفصل الثالث، الحصار

- **الأنباء المروّعة**: مقابلة في كتاب المملكة، 1980.
- **في الستينات**: كان رافضا أن يحل محل أخيه الكبير لبعض الوقت ولكن خالد رضخ لضغط العائلة وأصبح ولي العهد في عام 1965.
- **قضايا هامة في تونس**: الأمير تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، الرياض،11فبراير 2008.
- **قيادة سيارته اللامبورغيني**: معلومات من سائق الأمير.
- **رصاصة قادمة من المسجد**: ترفيموف.
- **الساعة التاسعة صباحا**: المرجع السابق، ص 79، اعتماداً على مقابلة مسؤول في القوات.
- **الهرب من المسجد**: السابق، ص74، اعتمادا على مقابلات لاحقة قام بها ابن سبيل.
- **فتوى عاجلة**: عرب نيوز، 26 نوفمبر1979.
- **رصاصة اخترقت الطائرة**: مهدي زواوي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 12أبريل 2007.
- **القنّاصون فوق منارات المسجد**: خالد المعينا، مقابلة مع الكاتب، جدة 15 يوليو2006.

- **مقربة من منارات المسجد**: مقابلة مع الفتيات، جدة، أغسطس 2006.
- **لحيتك سوف تتسبب في مقتلنا جميعا**: معتوق جنة، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 ديسمبر 2006.
- **فرصة سانحة لكسب المال**: حسين على الشبكشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 22 يناير 2007.
- **لم يعد للموت أي أهمية**: تروفيموف، ص 132.
- **ابتلاعه**: عبد العزيز القضيبي، «الرياض تقدم قصة القتال في المسجد الحرام»، جريدة الرياض، 12 ديسمبر 1979.
- **قدوم المهدي**: تروفيموف ص 134.
- **حماية بيت الله الحرام**: السابق ص 120.
- **ولا تقاتلوهم**: القرآن، السورة 2، الآية 191.
- **طالباً عندهم**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، 11 فبراير 2008.
- **تدخل بعض الناس بحسن نية وطالبوا بأطلاق سراحهم**: مقابلة مع جريدة السفير، لبنان، و ترجمت بواسطة وكالة الأنباء السعودية الرسمية ونشرت في عرب نيوز، جدة، 14 يناير 1980.
- **القتال داخل المسجد الحرام**: نص الفتوى كما ترجم من قبل وكالة الأنباء السعودية، عرب نيوز، 26 نوفمبر 1979.
- **يجب أن تستسلموا**: تروفيموف، ص 152.
- **خلود المهدي**: السابق ص 160.
- اذا كان ابني هو المهدي: السابق هو 166.
- **رائحة الشرّ**: السابق ص 162.
- **الوفاة عند التعرّض لكميات كافية منه**: السابق ص 192.
- **فنادقهم المترفة**: مساعدة الفرنسيين كانت موضع الكثير من الشك

والمبالغة. تناول ياروسلاف تروفيموف هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الفصل الحادي والعشرين والثالث والعشرين من كتابة الشامل «حصار مكة».

- **فرصٌ أفضل**: تركي الفيصل، الرياض، مقابلة مع الكاتب، 11 فبراير 2008.

- **رد قاهر على نحو غريب**: تروفيموف، ص 213.

- **رأس المتمرد**: مقابلة مع شخص مؤتمن في بلاط الملك فهد، الرياض، 17نوفمبر 2008.

- **«هل هذا هو الإسلام؟»**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، باريس، 2سبتمبر 2006.

- **الطريقة القبلية**: هذه الرواية عن أحد الشهود العيان في الشرفة.

الفصل الرابع، لا سنّة ولا شيعة

- **حذر في الإنفاق**: د.ماجد المنيف، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 18نوفمبر2008.

- **حليب الإبل**: ربط الأمير تركي الفيصل تلك القصة بالخطاب الذى ألقاه حديثا في مؤتمر السياسات العربية - الأمريكية في واشنطن، 31 أكتوبر 2008.

- **ينبع والجبيل**: مقالة الكاتب مع أحد رجال فهد كولي عهد، 30 نوفمبر 2008.

- **عشرة أفيال**: مقابلة غير رسمية، لندن.

- **يوم عاشوراء**: علي المرزوق، مقابلة مع الكاتب، القطيف، 27 يناير 2007.

- **عربي للمرة العاشرة**: من «عاشرة» رقم عشرة باللغة العربية.

- **خمسمائة ألف شيعي**: تمت مناقشة العدد الدقيق للشيعة وبعض الموضوعات بشكل جيد في مقالة توبي جريج جونز «التمرد على المحيط السعودي: الحداثة، التهميش، الثورة الشيعة 1979» الجريدة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، المجلد 38 (2006)، ص 219.

- **إخواني**: علي وعيسى المرزوق، مقابلة مع الكاتب، الخبر، 27 يناير 2007.

- **علي مولاه**: نصر، ص 37 - 38.

- **ذو الفقار**: السابق، ص 37.

- **لا حكم إلا لله**: أصلان، ص 135.

- **متاريس الموت**: السابق، ص 172 - 173.

- **يستوجب القتل**: شيخ أحمد بن حجر الطامي «الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حركته الأصولية و دعوتة الإصلاحية والعلماء، عليه السلام»، (الرياض1999) ص 79، والتي ذكرها إبراهيم، ص 23.

- **تدمير نصب الحسين**: ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض1982)، مجلد (1)، ص 12 - 122، ذكرها إبراهيم، ص 23.

- **العمّال من السنّة**: بن دايل، مقابلة مع الكاتب، 22 يناير 2008.

- **كاريكاتير البقرة**: رسام الكاريكاتير علي الخرجي الذي ذهب إلى السجن. أحمد العجاجي مقابلة مع الكاتب، 14 نوفمبر 2008.

- **مستمعوه يعرفون ما يقصد**: إبراهيم ص 98.

- **خيانة آل سعود المجرمين**: استشهد بها في مقال توبي كريج جونز، مرجع سابق، الجريدة الدولية لدراسات الشرق الأوسط مجلد 38. (2006) ص 218.

- **الدم في كل مكان**: علي وعيسى المرزوق، مقابلة مع الكاتب، الخبر،27 يناير2007.
- **مقعدان خاليان**: جن بي بارسيتن، مقابلة مع الكاتب، الخبر، 15 يناير 2008.
- **قُتل في أعمال الشغب**: إبراهيم ص 120.
- **إحراق**: توبي كريج جونز، مرجع سابق.
- **نهب**: كليف مروجان، رسالة بريد إلكتروني للكاتب، 2 نوفمبر 2008.
- **حرب فيتنام**: السابق.
- **آيات الله**: برونش، ص 147.
- **لا نريدك**: توبي كريج جونز، مرجع سابق.

الفصل الخامس: صوت الشعب من صوت الله

- **استطلاع وطني للرأي**: استشهد بها في مقال الندوة الافتتاحي «عندما يموت الإحساس»، (الرياض1980).
- **ما حدث للشاه**: عدنان خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، مارس2007.
- **السلطة الدينية**: ساهمت السعودية في المآسي الاقتصادية لإيران وذلك بزيادة إنتاج النفط عام 1977 مما عطل ازدياد أسعار النفط التي كان يعتمد عليها الشاه. اندرو سكوت كوبر «مكاشفة الدوحة: الاتفاقية السرية للنفط التي ساعدت في غرق شاه إيران». مجلة الشرق الأوسط 62، رقم 4 (خريف 2008) ص 567.
- **عقاب من الله**: مقابلة مع أحد أعضاء الأسرة المالكة الذي فضل عدم

ذكر اسمه.

- **مجلس الوزراء**: أخبر الكاتب الوزير في تلك الفترة، جدة 30 نوفمبر 2008.

- **خطواتنا بشكل متدرّج**: مقابلة مع صحيفة السفير، بيروت، 9 يناير 1980، استشهد بها في أبحاث الشرق الأوسط الاقتصادية، المجلد 23 رقم 14، 21 يناير 1980.

- **لجنة تعيد فحص**: السابق، المجلد 23 رقم 23، (24 مارس 1980).

- **لن يكون هناك تراجع**: عرف الكاتب ذلك من خلال صديق قريب من أحد أعضاء اللجنة وهو متوفى الان.

- **أربعة دور للسينما**: الأولى خلف بيت زينل عند فندق النهضة في البلد، وهناك دار سينما أبو صفية بالهنداوية، وأخرى افتتحها فؤاد جمجوم وخليل بغدادي في العمارية ودار سينما فندق العطاس في أبحر، عرب نيوز، 25 أكتوبر 2005 (14 شوال 1428) «أهمية الحفاظ على التسامح في جدة» لمحمود عبد الغني صباغ.

- **قراءة الأخبار**: سمر فطاني، مقابلة مع الكاتب، جدة، 5 مارس 2006.

- **الإخوان الشرسون**: لتفاصيل أخرى عن التغيير النجدي والوهابي لجدة، انظر فصل ويليام اوسيسنولد «ضم الحجاز» في كتاب لأيوب وكوزبالبان « الدين والسياسة في السعودية: الوهابية والدولة»، ص 75.

- **أولئك المساكين**: سامي نوار،مقابلة مع الكاتب، جدة، 16 فبراير 2006.

- **أعياد الحب**: د. إنعام عبد الوهاب غازي، مقابلة مع الكاتب، جدة،31 أكتوبر2006.

- **سيذهب إلى النار**: مهدي العصفور، مقابلة مع الكاتب، القطيف، 20فبراير 2006.

- **حُكم عليه عدم مناسبته**: رسالة بريد إلكتروني من جن آس. بارسينن،

20 أبريل 2008.

- **خارج الصف**: جن في بارسينن، مقابلة مع الكاتب، الخبر، 15 يناير 2008.

- **كل ذلك اختفى مبكراً**: حسن الحسيني، مقابلة مع الكاتب، الخبر، 15 يناير 2008.

- **حفظ القرآن**: محمد الرشيد، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 20 سبتمبر، 2006.

- **المتعصبات اللواتي نرى أعينهن فقط**: مقابلة غير رسمية مع الكاتب، جدة، 13 أبريل 2007.

- **نحن سبب ظلال الرجال**: المرجع السابق.

- **إلى النار**: بن دايل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 14 سبتمبر 2007.

- **الذهاب إلى المسجد**: عبد الله مصري، مقابلة مع الكاتب، لندن، 22يوليو2007.

- **الغناء والنشيد**: محمود عبد الغني صباغ، عرب نيوز،25 أكتوبر2007 (14 شوال 1428).

- **زوجتي هي زوجتي**: خالد المعينا، مقابلة مع الكاتب، جدة، 5 مارس 2006.

الفصل السادس: كرة القدم السلفية

- **الثقافة الغربية المتفسخة**: هالة الحوطي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 4 أبريل 2006.

- **الطريق المستقيم**: القرآن سورة 1، الآية 6.

- **شفاه عطشى**: «أمريكا التي رأيت» ذكرت في:
http: //gemsofislamin.tripod.com\milestones_Qutub.html#footnote_16
- **التسمّم الغربي**: رضا أصلان استعار هذه الكلمة من الناقد الاجتماعي الإيراني جلال الأحمد: أصلان، ص 238.
- **السلوك الحيواني**: قطب، ص 119.
- **«الإسلام هو الحل»**: السابق، ص 32.
- **الطريقة الإسلامية في الحياة**: السابق، ص 21،62،71.
- **دولة إسلامية كاملة**: جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 10أبريل 2008.
- **تحدي المؤسسة الحاكمة**: اشعر بالامتنان لعبد الله المعلمي لتحليله لتلك النقاط.
- **كان اجتماعاً ضخماً**: جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، جدة،7 سبتمبر2008.
- **محب لكرة القدم**: خالد باطرفي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 23سبتمبر2006.
- **تراخوما**: معلومات من أحد أحفاد عبد العزيز.
- **فقد عينه**: معلومات من أحد أبناء محمد بن لادن.
- **مدير الأعمال العامة**: في الأربعينات، كانت أقسام مثل الأعمال العامة والزراعة، والتي أصبحت الآن وزارات مستقلة، تعمل كأقسام لوزارة المالية.
- **ثم قطع رؤوسهم**: ذُكرت هذه الملحوظة في العديد من النسخ من قبل مصادر عديدة. انظر على سبيل المثال تروفيموف، ص 162.
- **الاستيلاء على أقدس بقعة في الإسلام**: خالد باطرفي، مقابلة مع

الكاتب، جدة، 23سبتمبر 2006.

- **لم يجدوا دليلاً:** جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 7 سبتمبر 2008.

- **شركة مقاولات بن لادن:** من موقع مجموعة بن لادن السعودية قبل إزالتها من شبكة الإنترنت بعد احداث11 سبتمبر 2001، برجن، «أسامة بن لادن الذى عرفته»، ص153، 152.

- **الطلاق:** أسامة بن لادن لديه تسع أخوات غير شقيقات من زواج ثان لوالدته.

- **تحرر الإسلام في ذلك المنزل:** مقابلة مع عضو من مجموعة مدارس الثغر الذى فضل عدم ذكر اسمه، جدة، 15 نوفمبر 2006.

الفصل السابع: الجهاد في أفغانستان

- **نقداً:** أحمد باديب، مقابلة مع الكاتب، جدة، 26 يوليو 2006.

- **مقاتلو الحرية:** الأمير تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، واشنطن، 10 مايو 2006.

- **المبلغ ملايين الدولارات:** المكتب الأمريكي للنقش والطباعة: 490 ورقة نقدية تزن بليون دولار من موقع: www.bep.treas.gov

- **فئة 100 دولار أمريكي:** كول، حروب الأشباح، ص 72.

- **مساندة المجاهدين:** خالد باطرفي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 23 سبتمبر 2006.

- **يمكن السماح بالتظاهر:** أليكس فاسيلي، تاريخ السعودية، ص 296.

- **رجال شجعان في الجبال:** ذُكر للكاتب من قبل وزير حكومي، جدة،

30نوفمبر 2008.

- **مصنع لطباعة القرآن**: أوتاواي ص X،Xi.

- **تسليم الشيك**: أبحاث الشرق الأوسط الاقتصادية، مجلد 23 رقم 32. (26مايو 1980).

- **نادي السفاري**: الأمير تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، باريس، 1سبتمبر 2006.

- **الاتحاد السوفياتي**: الأمير تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 10أبريل 2007.

- **جميع الوسائل الضرورية**: خطاب الاتحاد، 23 يناير 1980.

- **كشف حملات محاربي العصابات**: برونسن، ص 149.

- **3 مليار دولار لكل منهما**: راشل برونسن، « فهم العلاقات الأمريكية السعودية» في أراتس ونونيمان، ص 383.

الفصل الثامن: العلاقة الخاصة

- **تعداد سنوي للحجاج**: مونرو، ص 173.

- **إرضاء رؤساء القبائل**: مكتب السجلات العامة، كيو، المرجع السابق: الفقرة الثانية، 5 فبراير 1932.

- **النفط في الصحراء العربية**: فيليبي ص 78.

- **1933**: يرجع تاريخ هذه الحكاية إلى 1933 بحسب ما روته مضاوي الرشيد في كتابها «تاريخ السعودية»، ص 91، ولقد أكدت ذلك التاريخ من خلال رسائل بريد الكتروني مع الكاتب. ذكر بعض المؤرخين السعوديين الآخرين بأن تلك الحادثة وقعت قبل ذلك التاريخ بأكثر من عشرين عاما

عندما استضاف عبد العزيز المسؤول البريطاني كابتن شكسبير في نجد وقال أحد أحفاد الملك إن عبد العزيز قد أبعد الواعظ عن المنصة وإن المسئول البريطاني الذى أهان الشيخ وجوده كان سير برسي كوكس الذي كان يتفاوض بشأن أول معاش ستدفعه الحكومة البريطانية لابن سعود. من المحتمل أن تتكرر الحوادث أكثر من مرة.

- **«فتمسكم النار»**: القرآن، سورة 11، الآية 113.
- **«لكم دينكم ولي دين»**: السابق، سورة 109، الآية 1-6.
- **ثلاثمائة ألف مريض**: توماس ليبمان، «الروّاد»، عالم ارامكو 55، رقم 3 (مايو- يونيو 2004).
- **والد الملك**: السابق.
- **أنتم بعيدون جداً**: هرت، ص 38.
- **خلف المال**: المانع، ص 223.
- **على متن السفينة**: تعتمد هذه الرواية عن رحلة عبد العزيز للسويس ومقابلته لروزفلت على كتاب ويليام إيدي الذي يحمل موضوع مقابلة روزفلت لابن سعود.
- **الطريقة التي نشن فيها الحرب**: السابق ص 34.
- **تفضيلاته**: الموسوعة البريطانية الموجودة على شبكة الإنترنت والتي استخرجت 3 يوليو 2007 ، «وعد بلفور».
- **أي خطوة عدائية**: إيدي، ص 34.
- **اكبر شركة استثمار**: فيتالس، ص 9.
- **نثق بالولايات المتحدة**: راشل برونش «فهم العلاقات الأمريكية السعودية» في أراتس و نونيمان، ص392.
- **نشر صور له وهو يزور الملك**: فيتالس، ص 233.

- **لويزيانا**: سيميسون ص 57.
- **كل الأصوات**: السابق ص 58.
- **تفتقد إلى الدقة**: رسالة بريد إلكتروني بتاريخ الأول من أكتوبر 2008 للكاتب فن بيتر جي جونسون في مكتب دايفيد روكيفيلر.
- **تحويل المبلغ**: بسبب حركة 200 مليون دولار من والى البنك شاس عام1978 أصبح لدى البنك أداتان هامتان للعمل مع السعودية: صندوق التنمية الصناعية السعودي والذي بدأ أعماله عام 1975، والتعاون البنكي الاستثماري السعودي، والذي فتح أبوابه عام 1977. كل منهما تولى مسؤولياته بناء على طلب ساما وضمن بنك شاس في مجهودات التطوير الاقتصادي المباشر في السعودية. لقد كان الرئيسي المطابق لساما في الولايات المتحدة هو سيتي بنك والذي كان فيه ودائع ضخمة. لماذا حولت ساما الأموال من شاس إلى ورجان وليس إلى سيتى بنك فذلك الأمر غير واضح وكذلك حقيقة أن السعوديين يملكون 200 مليون دولار كودائع لدى شاس بدون سبب واضح، رسالة بريد الكتروني بتاريخ الأول من أكتوبر إلى الكاتب من بيتر ج. جونسون في مكتب دايفيد روكيفيلر.
- **مقابلة بندر**: رسالة بريد إلكتروني بتاريخ 10 يونيو2008 للكاتب من بيتر ج. جونسون في كتب دايفيد روكيفيلر.
- **نداء من ولي العهد**:و ولتر كتلر، مقابلة مع الكاتب، واشنطن 30 أبريل 2007.
- **طلب شخصي**: مقابلة للكاتب مع دبلوماسي سعودي حضر لقاء إفطار.
- **مليون دولار أمريكي شهريا**: برنسون، ص 184.
- **دعمت بالنيابة**: السابق، ص 184.

الدعم المالي: لمزيد من التفاصيل عن التمويل السعودي الأمريكي السري

للعمليات المعادية للشيوعية في سنوات حكم ريجان، انظر الفصل التاسع من برونش، ص 168 - 190.

الفصل التاسع: زوّار الفجر

- **اعتادت النساء على الكتابة بأسماء مستعارة:** تعتمد تلك الفقرات على مقابلة مع د. فوزيه البكر شخصيا ومن خلال الهاتف، في الرياض، بتاريخ 27 فبراير، 4 ابريل، 30 يوليو 2006.
- **الويسكي في جدة:** ذكريات الكاتب، جدة، 1980- 1981.
- **المفكرون الأحرار والملحدون:** مقابلة مع عضو سابق في الحركة الوطنية.
- **إشراك العائلة:** محادثة مع مسؤول مباحث.
- **انقطاع الاتصال:** بيتر ثيروكس، لقاء هاتفي، 8 نوفمبر 2007.
- **سوريا كشقيقة عربية:** السابق.
- **رقم الغرفة:** ثيروكس، ص 107.
- **خطاب رسمي:** مها فتحي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 7 مارس 2006.

الفصل العاشر: بروج في السماء

- **مسؤولية ربانية:** ألقى الملك فهد أول تصريح سياسي، 24يوليو1982، ترجم في أبحاث الشرق الأوسط الاقتصادية 25 رقم2 (2 أغسطس 1982).
- **ملذات فاسدة:** السابق.

- **من دون أن يغادر منزله:** مقابلة للكاتب، بدون تسجيل.
- **إظهار الاحترام:** السابق.
- **الذهاب إلى الجنة:** السابق.
- **اقتصاد الملذات:** عقب صدور أخبار عن وصول السعوديين ملئت محلات السوبر ماركت بلحم الأغنام بينما خرجت أساطيل من ناقلات السيارات الليموزين الفارهة. جيم ماكي، «الابن المفضل لماربيلا: الملك فهد ملك السعودية»، مرشد السياحة الأندلسية 22 نوفمبر 2007.
- **تكريم الملك السعودي:** جيلز ترملت، «ماربيلا تشعر بفقدان الملك السعودي: ثلاثة أيام من الحداد على أحد أفراد الأسرة المالكة الذي انفق الملايين في المدينة» الجارديان، 6 أغسطس 2005.
- **رحلة واحدة فقط:** جاءت تلك المعلومة من عائلة الملك فهد. لم يستطع الكاتب أن يؤكد تلك المعلومة في ماربيلا، حيث يذكر الناس زيارة الملك السعودي أكثر من مرة خلال العشر سنوات التي مرض فيها عقب إصابته بالسكتة الدماغية في أواخر التسعينات.
- **جزيرة صناعية:** معلومة من شريك تجاري لجون لاتسس، أبريل 2009.
- **إمكانية الصعود إلى الكواكب:** «إمكانية الصعود إلى الكواكب» شعبان 1389. اشعر بالامتنان للشيخ الدكتورمحمد الشويل لمنحي نسخة من تلك الفتوى وكذلك لهالة الحوطي التي ترجمتها لي.
- **قد يصل الإنسان للقمر:** السابق، ص 3.
- **دليل كاف:** السابق، ص 1.
- **تبدو مسطحة:** من ذاكرة شخص قرأ كتابات ابن باز.
- **أحكام السفر:** سلطان بن سلمان، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 2يونيو 2007.
- **أنهى رمضان في يومين:** السابق.

- **أبقى مفتوح العينين**: السابق.
- **بروج في السماء**: القرآن، سورة 15 «الحجر» الآية 16.
- **ليست المرة الأخيرة**: سلطان بن سلمان، مقابلة مع الكاتب،الرياض، 2يونيو2007.
- **يشعر بها تحت قدمه**: اعتمدت تلك الفقرات على فتوى شعبان 1389 لابن باز وعلى محادثات مع ابنه احمد بن باز، ومع الدكتور الشيخ محمد الشويل مساعد الشيخ وصديقه الحميم، ومع الأمير تركي الفيصل، ومع الأمير سلطان بن سلمان، و مع د.عبد الله المعلمي، ومع د.غازي القصيبي، ومع فؤاد الابراهيم والذين حاولت إن أوفق وجهات نظرهم المختلفة في تلك الرواية.
- **إغراق العالم بالنفط**: «محيطات من النفط»، شهرية تكساس، أكتوبر 1984.
- **يرفض باستمرار**: نيبلوك ومالك ص 56، 55.
- **يمكن أن يشكو**: مقابلة غير رسمية، نيقوسيا، 19 أكتوبر 2006.
- **الأستاذ - السيد يماني**: شرح للكاتب من قبل مستشار الديوان الملكي، جدة، 29 نوفمبر 2008.
- **مناقشة ساخنة**: مذكرات عضو من عائلة فهد الحالية.
- **لا أعرف كيف**: مذكرات قريب زميل وزاري.
- **ارفع صوت الجهاز**: مذكرات من عضو في العائلة، يونيو 2009.
- **أسعار النفط المنخفضة**: د. إبراهيم المهنا، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 5 ديسمبر 2006.
- **هبوط إنتاج النفط السعودي**: نيبلوك ومالك، ص 55 - 56.
- **دفع الرواتب**: مذكرات غير رسمية للكاتب، 30 نوفمبر 2008.

- **لأخي فيصل**: من ذاكرة مستشار ملكي.
- **انتشار الإسلام**: أوتاوا ص 185.
- **27 مليار دولار**: السابق.
- **عزيز على قلبي**: مذكرات وزير في حكومة فهد والذي ناقش هذا اللقب معه.
- **نظّف المكان جيدا**: من ذاكرة الكاتب نقلا عن اثنين من دبلوماسيي الولايات المتحدة في ذلك الوقت. لقد كان الكرتون واحدا من سلسلة تصف «كابتن نجد» وهو النسخة السعودية لسوبرمان والذي يجيء طائراً عند الأزمات لكي يطبق الحلول الوهابية للمشكلة.

الفصل الحادي عشر: في المنفى

- **المتحدث الهايد باركي الوحيد**: سير ديفيد جور بوث، مقابلة مع الكاتب، 16 يناير 2003.
- **أسس حديثة**: كليف مورجان، رسالة بريد إلكتروني للكاتب 8 ديسمبر 2008.
- **الناس كانوا يختبرونك**: محمد بن فهد، مقابلة مع الكاتب، الدمام، 30 يناير 2007.
- **يعانقان بعضهما البعض**: السابق.
- **إطلاق سراح السجناء**: إبراهيم، ص 136.
- **نطلب السلام**: علي المرزوق، مقابلة مع الكاتب، العوجام، 11 أكتوبر 2007.
- **الحرية التي يمكن أن يمنحها الإسلام**: السابق.

- **الأموال الإيرانية**: مقابلة مع الكاتب مع مسؤول أمن سعودي، لندن 8 ديسمبر 2008.
- **كان علي الاعتراف**: علي المرزوق، مقابلة مع الكاتب، العوجام، أكتوبر 2007.
- **مضطهدوهم من الأمراء**: سكوت كوبر وبروك تايلور «السلطة والإقليمية: شرح التعاون الاقليمي في الخليج الفارسي» من كتاب فين لورسن، «التكامل الإقليمي المقارن»، ص 115.
- **ترويج قضيتهم في مكة**: ثيروكس ص 145.
- **متفجرات بلاستيكية**: ولتر كاتلر، مقابلة مع الكاتب، واشنطن، 30 أبريل 2007.
- **حياة جديدة**: على المرزوق، مقابلة مع الكاتب، الخبر، 27 يناير 2007.
- **أفسدوا الشعيرة الإسلامية**: جون كيفنر، «حجاج مكة يقولون الإيرانيين يخفون الأسلحة» نيويورك تايمز، 8 أغسطس 1987. التحقيق المطول والدقيق ل د. مارتن كرامر بشان مأساة مكة عام 1987 والذي اختتمه قائلا: «يشير الدليل المتاح أن مجموعة من الحجاج الإيرانيين غير المنظمين والذين يتصرفون تحت تأثير التصريحات الاستفزازية لمسؤول ايراني كبير يرغبون في دخول المسجد الأكبر كمتظاهرين. وبناء على ذلك استخدمت السلطات الأمنية السعودية، والتي كانت يقظة تجاه هذه الاحتمالية رغم نقص الثقة بالنفس في مواجهة مثل هذه الاستفزازات، القوة المفرطة لإبعاد الحشود الايرانية». مارتن كرامر، «الصحوة العربية وإحياء الإسلام»، 1996، ص 166 - 187.
- **مستقلون**: حسن الصفار، مقابلة مع الكاتب، القطيف، 7 يونيو 2007.
- **لعبتهم**: جعفر شايب، مقابلة مع الكاتب، القطيف، 30 يناير 2007.

- **عالم الدين... لا يحكم بنفسه:** حسن الصفار، مقابلة مع الكاتب، القطيف، 7 يونيو 2007.
- **دجاجة واحدة شهرياً:** على المرزوق، مقابلة مع الكاتب، الخبر، 27 يناير 2007.

الفصل الثاني عشر: اليمامة والريح الشرقية

- **القوات الجوية السعودية:** أوتاوا، ص 55.
- **إسقاط المعتدي:** سلطان وسيل، ص 144.
- **الأصدقاء الفلسطينيون:** برونسن، ص 165.
- **تلك المرأة:** مقابلة للكاتب مع مساعد للأمير بندر، جدة، 26 نوفمبر 2008.
- **عشرات المليارات:** يوم 22 أغسطس، استشهدت الصنداي تايمز بمايك تورنر رئيس الشركة البريطانية للفضاء الذي قال إن شركته قد ربحت 43 مليار يورو خلال 20 عاما من العقود ويمكن أن تحصل على 40 مليار أخرى.

عبر تاريخها: أوتاوا، ص 133.

صناعة الدفاع الأمريكي: سيمبسون، ص 133.

- **إجابة بندر غير المعتذرة:** مقابلة بالفيديو، 7 يونيو 2007، موقع الجارديان «ملفات الشركة البريطانية للفضاء».
- **بليون جنيه استرليني:** «اتهام وزارة الدفاع حول دور بندر في هذا المبلغ» كتبها دايفيد لي و روب ايفانز، الجارديان، 12 يونيو 2007.
- **ترتيب مثالي:** سيمبسون ص 148 - 149.
- **مال لا يكون له سجل حكومي:** السابق، ص 150.

- **10 مليون دولار**: السابق، ص 100 - 101.
- **وافقت على كل بنس فيها**: مقابلة غير رسمية، جدة، 26 نوفمبر 2008.
- **قدرات هجومية عالية**: سيمبسون ص 143.
- **حرب المدن**: برنسن ص 164.
- **صاروخ لانس**: بندر بن سلطان، مقابلة في نايت واتش على قناة سي بي أس، استشهد بها سيمبسون، ص 152.
- **لا يذكر اللقاء**: رسالة بريد إلكتروني بتاريخ 31 مايو 2008، من سوزان سي في مكتب شولتز.
- **نعطيها للعراق**: سيمبسون، ص 152.
- **قاذفات الصواريخِ والمتدربين**: السابق، ص 165.
- **يتفاوضون همساً**: سلطان وسيل، ص 140.
- **توقيت القمر الصناعي**: خالد بن سلطان، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 6 مارس 2007.
- **إنهم أحياء**: السابق.
- **منتصف عام 1989**: سلطان وسيل ص 150.
- **رجال ملتحون**: السابق.
- **معسكر صحراوي**: مقابلة غير رسمية، الرياض، نوفمبر 2008.
- **أسلحة نووية**: سيمبسون، ص 159. ريتشارد مورفي لم يعطِ استجابة لطلب مرسل له بالبريد الالكتروني استقبله مكتبه واعترف به لكي يؤكد أو ينكر أو يصحح أحداث هذه الجملة المقتبسة وترجمتها.
- **قطع جميع الاتصالات**: رسالة بريد إلكتروني بتاريخ 31 مايو 2008 من سوزان شندل في مكتب شولتز.
- **هدف أولي لإسرائيل**: سيمبسون، ص 162 انظر أيضا برونسون. لم

يقدم ريتشارد ارميتاج أى رد للطلب الذي أرسل له بالبريد الالكتروني الذى استقبله مكتبه واعترف به لكي يؤكد أو ينكره أو يصحح أحداث تلك الجملة المقتبسة.

- **تقوم إسرائيل بتفجيرها:** السابق، بحسب سمبسون، وهو الكاتب المصدق لسيرته الذاتية، يصف باول تلك الواقعة في مقابلة شخصية مع سيمبسون. ومع ذلك لم يرد باول على الطلب المرسل بالبريد الإلكتروني والذي استقبله واعترف به مكتب باول لكي يؤكد أو ينكر أو يصحح ترجمة سيمبسون للأحداث.

- **العودة إلى واشنطن:** ادعت مصادر سعودية انه تم وضع هوران في طائرة متجهة إلى السودان في تلك الليلة. ولكن ذلك الأمر أنكره دبلوماسي أمريكي واحد على الأقل إذ تذكر حضوره حفل وداع دعا إليه السفير في عجلة من أمره بعد أيام قليلة.

الفصل الثالث عشر: الجهادي السائح

- **حسومات على التذاكر:** خالد باحاذق، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 يناير 2006.

- **جاؤوا للقتال:** الأمير تركي الفيصل، الذي أمرت استخباراته أن يبقى بعيداً عن المتطوعين إذ أنه بدءاً من عام 1981 - 1982 كان هناك ألفان من العرب الأفغان يحاربون في أفغانستان. وتذكّر أن المجاهدين المحليين قالوا له إنهم لا يرغبون بمقاتلين من السعودية — بل كانوا بحاجة أشد إلى الدواء والأسلحة والإمدادات. محادثة مع الكاتب، باريس، 15 ديسمبر 2008.

- **مواد حافظة:** خالد باحاذق، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 يناير 2006.

- **مساعدة الجهاد**: خالد باحاذق، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 ديسمبر 2006.

- **يأخذ قنبلة يدوية**: السابق.

- **أشعر بالذنب**: عزام، الجبل الشاهق، ص 113.

- **قاعدة عسكرية**: برجن، أسامة بن لادن الذي أعرفه ص 49.

- **الطريقة الاستراتيجية**: جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 28 مارس 2008.

- **التوكل على الله**: عرب نيوز، 4 مايو 1988.

- **إرادة الله**: الجبل الشاهق، ص 113.

- **تحب الموت**: روبرت فيسك عن أسامة بن لادن مقابلة مع إيمي جود مان، 5 مارس 2007.

www.democracynow.org

- **إحصائية المغادرين**: مقابلة للكاتب مع مستشار حكومي سعودي، 8 ديسمبر 2008. إن ذلك أكثر بشكل كبير من المقدر وهو بعض المئات من العرب الأفغان بحسب بيتر برجن في «أسامة بن لادن الذي أعرفه».

- **من 175 ألف إلى 250 ألف مواطن أفغاني**: عربان، ص 244.

- **الجثامين**: علي الجهني، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 24 نوفمبر 2006.

- **مسجد خلية نحل كبيرة الحجم**: زار الكاتب هذا المسجد في يناير 2007.

- **يتغيبون عن المدرسة**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان، 9 نوفمبر 2007.

- **ساحة الإعدام**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان، 9 نوفمبر 2007.

- **قصص مرعبة عن النار**: عبد الله ثابت، مقابلة مع الكاتب، جدة، يوليو 2006.
- **قبضت عليه المباحث**: منصور النقيدان، رسالة بريد إلكتروني للكاتب، 22 سبتمبر 2008.
- **هدف جديد**: خالد باطرفي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 23 سبتمبر 2006.

الفصل الرابع عشر: عاصفة الصحراء

- **سيارات ودبابات مصفحة**: أحمد باديب، مقابلة مع الكاتب،جدة، 26 يوليو 2006.
- **هبوط الفرق الخاصة**: السفير شاس فريمان، التاريخ الشفهي للدبلوماسية الأمريكية، مكتبة الكونجرس، واشنطن.
- **اخرج فوراً**: أحمد باديب، مقابلة مع الكاتب، جدة، 26 يوليو 2006.
- **بي بي سي**: بي بي سي، ملخص إذاعات العالم، 2 أغسطس 1990.
- **اترك الحدود**: محمد بن فهد، مقابلة مع الكاتب، الدمام، 30 يناير 2007.
- **إلى الدمام**: رسالة بريد إلكتروني من حسن الجاسر، مكتب الأمير، الدمام 1 ديسمبر 2008.
- **منظمة التحرير الفلسطينية**: بون، ص 124. تم التأكد من هذا الرقم من قبل شخصية سعودية خبيرة.
- **أكبر داعم مالي**: محلل خبير في الحكومة السعودية، جينيف، 11 ديسمبر 2008.
- **مساعدة الفلسطينيين**: الأميرة لطيفة بنت مساعد، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 17 سبتمبر 2006.

- **مستعمرة بريطانية**: أوتاواي، ص 91.
- **نادوني بالشريف**: سلطان وسيل، ص 210.
- **خريطة الطقس**: أحمد بأديب، مقابلة مع الكاتب، جدة، 26 يوليو 2006.
- **سنعود**: مقابلة مع. علي سعد الموسى، أبها،5 يونيو 2006.
- **نأت بنفسها بعيداً**: سلطان وسيل، ص 183 - 184.
- **شريط تم تسريبه**: ريم علاف «النجاح يقاس بالحضور»، بيتر ليمونز 6 الطبعة 12 (20 مارس 2008).
- **إجماع**: مقابلة غير رسمية، جدة، 1 يونيو 2006.
- **الإجابة العاجلة هي لا**: نواف عبيد، «قسوة القادة الإسلاميين للمملكة العربية السعودية»، الشرق الأوسط (مجلة ربع سنوية سبتمبر1999). http//www.meforum.org/.article/482.
- **الحكمة التي ينطق بها**: مركز الدراسات الدينية للشيخ عبد العزيز بن باز، الشميسي الرياض، زيارة بتاريخ 12 مارس 2008.
- **يدعم جميع التدابير**: وكالة الأنباء السعودية، ص 40 - 42.
- **سمح لنا الملك فهد**: مقابلة نورمان شوار سكوف، نامبا، أف أل، 11 مايو 2006.
- **سيستمعون إلى تقريري**: السابق.
- **صور أمريكية**: السابق.
- **دخلت المناطق السعودية**: السابق.
- **الدبابات باتجاه الجنوب**: السابق.
- **ليس هناك قواعد ثابتة**: السابق.
- **غرف الفنادق في لندن**: السفير شاس فريمان، مشروع التاريخ الشفهي للدبلوماسية الأمريكية، مكتبة الكونجرس، واشنطن.

- **قيادة سياراتهم**: أخبار آي بي سي، لندن، 19 فبراير 2007.
- **هي تتذكر**: د. عائشة المانع،مقابلة مع الكاتب، الخبر، 27 يناير 2007.
- **الجزيرة العربية موحّدة**: انظر القراءات المقترحة.
- **خلف أهدافهم الذاتية**: د. عائشة المانع، مقابلة مع الكاتب، الخبر، 27 يناير 2007.
- **يذوب الحظر من السفر تلقائياً**: السابق.
- **قيلولة الظهيرة**: معلومات عائلية.
- **يتميّز من الغضب**: مقابلة مع ريم الجربوع، جدة، 12 يوليو 2006.
- **بدون موافقته**: د. فوزية البكر، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 27 فبراير 2006.
- **ألا تستطيعون التحكم بحريمكم**: د فوزية البكر و د. فهد اليحيى، مقابلة مع الكاتب الرياض، 27 فبراير 2006.
- **التظاهر شيء غير سعودي**: مقابلة مع باسم عالم، جدة، 11 يوليو 2006.
- **الويلات التي نعيشها**: رجاء وشادية عالم، مقابلة مع الكاتب، جدة، 8 يونيو 2006.
- **الفاجرات الشيوعيات**: فاندي ص 49.
- **البصق على مدرسيهم**: السفير شاس فريمان، مشروع التاريخ الشفهي الدبلوماسي الأمريكي، مكتبة الكونجرس، واشنطن.
- **أنتن بناتنا**: الأميرة لطيفة بنت مسعد، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 17 سبتمبر 2006.

- **الخفجي بدت مهجورة**: تلك الفقرات من معركة الخفجي تعتمد على زيارة 3 أيام للبلدة في يونيو 2007 وعلى مقابلات مع الجنود الذين اشتركوا في المعركة، بمن فيهم الجنرال (الرائد وقتها) سليمان الخليفة. أشعر بالامتنان لدوجلاس جالدوين الذي قام بتنسيق الرحلة وكذلك أشعر بالامتنان للأمير خالد بن سلطان على المقابلة بتاريخ 6 مارس 2007 حيث ناقش الخفجي وحرب الخليج.
- **لقد كانت البلدة غير محمية**: سلطان وسيل، ص 362.
- **38 يوماً وليلة**: السابق، ص 344.
- **ثمانية عشر سريراً بالمستشفى**: السابق، ص 362.
- **وحدات صدام المهاجمة**: شوارسكوف وبيتر ص 495.
- **أنا محظوظ**: سلطان وسيل، ص 377.
- **هجمة عراقية**: موريس، ص 10.
- **أحتاج إلى طائرات التورنيدو**: سلطان وسيل، ص 374.
- **محاطة بالفرق العراقية**: عاصفة في الأفق،كتبه دايفيد ج موريس، يحكي فيه حكاية الخفجي من وجهه نظر قوات المارينز الذين وقعوا في الفخ في البلدة.
- **إخراج المارينز**: سلطان وسيل، ص 347.
- **من الصعب تحمله**: السابق.
- **حرب حقيقية**: سليمان الخليفة، مقابلة مع الكاتب، الخفجي، 6 يونيو 2007.
- **حريصون على النهب**: السابق.

- **أكثر من أربعمائة سجين**: سلطان وسيل، ص 387.
- **سيارة الأمير الجيب**: السابق، ص 388.
- **لاجئون عسكريون**: السابق، ص 389.
- **أفضل وحدات مدرعة**: شوارسكوف وبيتر، ص 496.
- **شهداء**: موريس، شرح بالحاشية ص 153.
- **المعركة البرية الوحيدة**: خالد بن سلطان، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 6 مارس 2007.
- **أهدافنا في الحرب**: شاس فريمان، مقابلة مع الكاتب، واشنطن، مايو 2007.
- **السؤال صادماً**: السابق.
- **صعوبة في الابتسامة**: السابق.
- **بقي في قصره**: السفير شاس فريمان، مشروع التاريخ الشفهي، مكتبة الكونجرس، واشنطن، ص 293.
- **نخرج سريعاً**: سلطان وسيل، ص 421، 426.
- **ديناصور دخل الفخ برجليه**: شوار سكوف وبيتر، ص 579.
- **أرض عدائية**: تقرير الشرق الأوسط، مايو - يونيو 1992. استرجعت بتاريخ 18 أغسطس 2007 في الموقع الإلكتروني لمشروع الخليج 2000: مارشا ب كوهن، جامعة فلوريدا الدولية.
- **أجاب بدون تردد**:

.http: //www.youtube.com/watch: ?v=YENbElb5_*Y&NR=1

- **جنود أمريكيون إضافيون**: السابق.

- **اتصل بي**: جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 28 مارس 2008.
- **القيام بالجهاد**: السابق.
- **المدرسة السلفية**: أسامة بن لادن الذي أعرفه، ص 108 - 109.
- **محاولة أخيرة**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 10 أبريل 2007.
- **حريصاً على الأمن**: أحمد بن عبد العزيز، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 5 فبراير 2009.
- **الأخ الأكبر، بكر**: يقول بكر بن لادن اليوم إنه لا يتذكّر بشكل محدد ذلك اللقاء ويضيف بأنه سعيد بقبول صحة ما قاله الأمير أحمد، مقابلة مع الكاتب، جدة، 5 فبراير 2009.
- **اللون الأسود من الغضب**: بيرك، ص 136.
- **كفار في الداخل**: السابق، ص 139.
- **لتدمير الإسلام**: جوديو سترنيرج، مرجع سابق، ص 31.
- **رفع الظلم**:
.http: //ibnba2.org/mat/8345
- **بعض الدول الكافرة**: السابق.
- **شعار الإسلام**: فاندي، ص 95.
- **هدفه الحقيقي**: السابق، ص 97.
- **العمل في محل بيع الأحذية**: دايفيد راندل، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 6 مارس 2007.

- **سلسلة ذهبية**: دايفيد راندل، رسالة بريد إلكتروني إلى الكاتب، 30 أكتوبر 2008.

- **يدعم النساء**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان. 9 نوفمبر 2007.

- **جماعتك الضيقة**: مقابلة غير رسمية، دبي، 9 نوفمبر 2007.

- **قلادة ملكية فيكتورية**: مكتب أخبار قصر باكينجهام، 9 فبراير 2009.

- **لا تناقش هذا الموضوع**: بارجن، أسامة بن لادن الذي أعرفه، ص 59 - 60.

- **الجهاد في اليمن**: جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 28 مارس 2008.

- **التوقف عن إلقاء المحاضرات**: السابق.

- **يتوقف عن الكلام فوراً**: محمد سعيد طيب، مقابلة مع الكاتب، 27 نوفمبر 2008.

- **تختلف المصادر**: لقد اتبعت كتاب برجن «أسامة بن لادن الذي أعرفه» كدليلي الرئيسي في الترتيب الزمني لتلك التواريخ في أفغانستان والسودان. أشعر أيضا بالامتنان تجاه توماس هجمار بسبب آرائه الشخصية التي تتميز بعمق النظر.

الفصل السابع عشر: إيقاف الذنوب

- **أصدقاؤه الجهاديون**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان، 9 نوفمبر 2007.

- **خطاب المطالب الإصلاحية**: ستيفاني لاكروا، السياسات الإسلامية

التحررية فى المملكة العربية السعودية في كتاب اراتس ونونيمان، ص 41.

- **غربي نخبوي**: مقابلة غير رسمية،1 أبريل 2006

- **إحياء القيم الإسلامية**: للاطلاع على قائمة الترتيب الزمني لأهم التماسات الإصلاح منذ التسعينات انظر عبد العزيز صقر « المعارضة السياسية في المملكة العربية السعودية» في كتاب أراتس ونونيمان جدول 6، ص 268.

- **الاستماع للإذاعة**: د. أحمد التويجري، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 11 ابريل 2006.

- **مقابلة مع الملك**: السابق.

- **لكي تكون وطنياً**: السابق.

- **تسليم المذكرة**: السابق.

- **نصيحة خالصة لله**: تايتلباوم ص 40.

- **سجوننا أفضل**: د. أحمد التويجري، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 1 أبريل 2006.

- **مواقع إلكترونية مبكرة**: اندرو هامسوند، محادثة هاتفية مع الكاتب، 22 نوفمبر 2008

- **التأثير المدمر للنفط**:

.http: //www.iiwds.com\said_aburish\indexhtm

- **أمر ملكي**: مرسوم رقم 128 لعام 1994 منع الامتلاك الشخصي الصحون اللاقطة للأقمار الصناعية التليفزيونية. مي يماني « قناع الإعلام للملكة العربية السعودية» في كتاب مضاوي الرشيد، المملكة بلا حدود، ص 330.

- **الأعمال التجارية التليفزيونية**: انظر كتاب الرشيد، المملكة بلا حدود، وقائع جلسات المؤتمر الذي عقد في جامعة الملك بلندن في سبتمبر 2007

لمعرفة الانتشار الإعلامي السعودي.

- **السيطرة و التأثير**: مكالمة تلفونية خاصة مع عضو من جماعة فهد التي يستشيرها هاتفياً، مارس 2007، جدة.

- **اتصالات للحصول على الخبرات والأفكار**: السابق.

الفصل الثامن عشر: العودة من المنفى

- **الشيعة السعوديون**: حسن الصفار، مقابلة مع الكاتب، القطيف،7 يونيو 2007.

- **تجنيدهم**: السابق.

- **حقوق الشيعة**: السابق.

- **تغييرات إصلاحية**: توفيق السيف، مقابلة مع الكاتب، جزيرة تاروت، 8 يونيو 2007.

- **الفضائح السعودية والاعتقالات**: إبراهيم ص 149 - 152.

- **حقوق الإنسان**: صادق الجيران، مقابلة مع الكاتب، الإحساء، 27 يناير 2007.

- **سعوديون يتظاهرون**: فايزة أمبا، مقابلة مع الكاتب، جدة، 7 فبراير 2007.

- **كابوس بالنسبة لهم**: مقابلة غير رسمية، الخبر، يونيو 2007.

- **الدفاع عن أمتنا**: إبراهيم، ص 157.

- **أي نوع من الاعتذار**: مقابلة غير رسمية، لندن، أكتوبر 2007.

- **الاعتراف بالخطأ**: توفيق السيف، مقابلة مع الكاتب، جزيرة تاورت، 8 يونيو 2007.

- **دولة إسلامية تحت حكم سنّي**: مقابلة.

- **إحداث التغيير**: توفيق السيف، مقابلة مع الكاتب، جزيرة تاورت، 8 يونيو 2007.

- **وافقوا على كل الشروط**: صادق الجران، مقابلة مع الكاتب، الحصة،17 يناير 2007.

- **برقية إلى السفارات السعودية**: إبراهيم ص 190.

- **لقد سمحوا لنا بالدخول**: صادق الحبران، مقابلة مع الكاتب، حصة، 27 يناير 2007.

- **الشيعة مواطنون مثل أي مواطن آخر**: السابق.

- **مجلة بلاي بوي**: مقابلة للكاتب مع مصدر ذي علاقة بالمناقشة.

- **مساعدة إيرانية**: المعلومة من مستشار أمني للحكومة السعودية، 8 ديسمبر 2008.

الفصل التاسع عشر، ردّة

- **وجد نفسه حراً طليقاً**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان، 10 نوفمبر 2007.

- **الملك فهد كافر**: السابق.

- **تطرد الملائكة**: السابق.

- **آخذ ما أريد**: السابق.

- **استخدام الإعلام البريطاني**: انظر الرشيد، تاريخ المملكة العربية السعودية، ص 177 - 184.

- **قنبلة ضخمة**: اللجنة الوطنية للهجمات الإرهابية، ص 60.

- **تغيير الأشياء بالقنابل**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان، 10

نوفمبر 2007.

- **التخلص من آل سعود**: رايت، ص 246.

- **372 جريحاً**: السابق.

- **الأفكار التي تأثر بها**: فاندي ص 3.

- **التورط الإيراني**: انظر

http: //www.fbi.gov/pressrel/pressel01/khobar.htm

انظر تفاصيل الاتهامات، ص 29 بتاريخ 21 يونيو 2007.

- **شاطئ النيل الأزرق**: برجن، الحرب المقدسة، ص 80.

- **لوكسمبرج وسويسرا**: مقابلة للكاتب مع دبلوماسي سعودي ذي علاقة بالمعلومة التي اكتشفتها الحكومة الأمريكية.

- **شيخ سعودي محب للإحسان**: روبرت فيسك عن أسامة بن لادن في 50 مقابلة مع إيمي جودمان، 5 مارس 2007 .www.democrocynow.org

- **ننتظر هذا الطريق**: روبرت فيسك، الحرب العظمى من أجل الحضارة، ص5.

- **لم يُكتب لبعضها النجاح**: تيم نيبلوك، رسالة بريد الكتروني إلى الكاتب، 9 نوفمبر 2008.

- **المنتقد الأول للحكومة**: عضو في عائلة بن لادن، مقابلة مع الكاتب، جدة، سبتمبر 2007.

- **شجبهم لأعمال أسامة**: برجن، أسامة بن لادن الذي أعرفه، ص 152.

- من أجل أطفاله: معلومات من عضو رفيع المستوى من عائلة بن لادن.

- العودة إلى الوطن: برجن، أسامة بن لادن الذي أعرفه، ص 151.

- **تغير اسأمة**: جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 28 مارس 2008.

- **الاستمتاع بالكبسة والحنين إلى الوطن**: رايت، ص 200.
- **إنسَ موضوع السفر**: جمال خاشقجي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 28 مارس 2008.

الفصل العشرون: ولي العهد يتقدّم

- **تخرج الكلمات مندفعة**: مقابلة، جدة، 7 مارس 2003.
- **زنزانة من دون نور**: مقابلات مع العديد من مساعدي الملك، بمن فيهم موظف سابق بالحرس الوطني، حيث قال إن عبد الله روى تلك القصة لهم شخصيا. تطابق قصة أعضاء العائلة مع تلك القصة.
- **من الصحراء**: والتر كاتلر، مقابلة مع الكاتب، واشنطن، 30 أبريل 2007.
- **عشاء جماعي ضخم**: السابق.
- **تقبيل اليد والبكاء**: على الجهني، مقابلة مع الكاتب، 15 نوفمبر 2008.
- **ليضربه برفق علي رأسه**: اللواء نيك كوكينج، مقابلة مع الكاتب، لندن، 4 نوفمبر 2008.
- **تنبطح إلى الأرض**: السابق.
- **باحثاً عن الإصلاح**: فاندي، ص 133، 187.
- **إذا أصبح عبد الله ملكاً**: رايت، ص 199.
- **حقوق المواطن**: ديجوري، ص 104.
- **يطلق أفكاره القوية**: مصدر عائلي.
- **دستور المملكة**: ديجوري، ص 106.
- **لا علاقة له فيها**: اللواء نيك كوكنيج، مقابلة مع الكاتب، لندن، 5 مارس 2008.

- **الأفضل مستوى:** عبد الرحمن أبو حميد، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 25 يناير 2007.

- **والدي بالطبع:** اللواء نيك كوكينج، مقابلة مع الكاتب، لندن، 5 مارس 2008.

- **دروس في النطق:** جيمس إي اكينز، مقابلة مع الكاتب، فيرجينيا،10 مايو2007 أكدها أفراد العائلة الملكية.

- **تحدث بطلاقة:** اللواء نيك كوكينج، مقابلة مع الكاتب، لندن، 5 مارس 2008.

- **منح الأراضي:** معلومة من رجل أعمال بجدة، أكتوبر 2008.

- **يعيش كأمير:** مقابلة غير رسمية، جدة، 13 مايو 2008.

- **إغلاق الأبواب والنوافذ:** عبد الرحمن أبوحميد، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 18 نوفمبر 2008.

- **ينكرون هذا الأمر:** تركي بن عبد الله، مقابلة مع الكاتب، باريس، سبتمبر 2005.

- **يجلس مع أولاده:** عبد الله معروف بأبي متعب بعد مولد ابنه الأول الذي مات في طفولته. وابنه الثاني سمي خالد. وابنه متعب الحالي قد ولد بعد موت أخيه الأكبر.

- **في درجة رجال الأعمال:** مقابلة غير رسمية، 26 مارس 2008.

- **امتيازات الطيران الخاصة:** ظلت هذه الامتيازات لأبناء وبنات عبد العزيز ولكل حكام المناطق السعودية. لقد خفضت نسبة التذاكر المجانية الملكية بنسبة 80 بالمائة، و تم تقليل أسطول الطائرات المخصصة للسفر الملكي من أربع عشرة إلى خمس طائرات فقط. قد يستخدم الأمراء تلك الطائرات للسفر الخاص ولكن عليهم أن يدفعوا سعر السوق.

- **تعقيد الأمور بالنسبة لعبد الله**: مقابلة، جدة، 6يونيو 2006.
- **تنقله على العربة**: ذكريات أحد وزراءه، 4 مارس 2007.
- **إنه أمر محزن**: مقابلة غير رسمية، 29 يناير 2007.
- **تقوية العلاقات**: مقابلة غير رسمية، 19 سبتمبر 2006.
- **تغيير الستائر**: مستشار للملك عبد الله.
- **قائد للمعارضة**: هذه الملحوظة صادرة من الراحل عبد العزيز التويجري. كانت قد بلغها للكاتب واحد من مساعديه القريبين.
- **وزير بدون منصب**: وستون، ص 375.
- **الأخ الأكبر الحبيب**: ذكريات صادرة من السفير الاوروبى في الرياض.
- **يحضر له حذاءه**: ذكريات للكاتب، جدة، 30 نوفمبر 2008.
- **انخفض إلى 9 دولار**: نيبلوك ومالك، جدول 401، ص 100.
- **طريقة مختلفة للحياة**: أخبار بي بي سي؛ 19 يناير 1999.
- **ميزانية شديدة التقشف**: السابق.
- **لا يستطيع رعاية عائلته**: د. أحمد قباني، مقابلة مع الكاتب، جدة، 11يوليو 2006.
- **الكثير من الثروات في السابق**: رجل أعمال، مقابلة مع الكاتب، جدة،12 فبراير 2006.
- **خطوط كافية**: علي الجهني، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 24 نوفمبر 2006.
- **ستة فقط؟**: السابق.
- **يحصل على صورة إضافية**: السابق.
- **مستحيل أن نتجه نحو التخصيص**: على الجهني، محادثة هاتفية، 13 مايو 2008.

- **معلومات منتهية الصلاحية**: السابق.
- **يريد وظيفتي**: السابق.
- **لا يستطيعون العمل مع الجهني**: مقابلة مع عضو من أعضاء مجلس الإدارة الذين قدموا استقالتهم، ديسمبر 2006.
- **تحرير**: عندما تولى علي الجهني وزارة الاتصالات عام 1995 كان هناك 1،8 مليون خط أرضي و 360 ألف رقم جوال. كانت الخصخصة قد انتهت في بداية عام 1998، وبعد ذلك بعشر سنوات كان هناك 4 مليون خط أرضي في المملكة وأكثر من 20 مليون رقم جوال من خلال شبكتين خلويتين متنافستين وثالثة تبدأ لتوها.
- **أهدافنا الخفية في الإصلاح**: مقابلة الكاتب مع مستشار اقتصادي للملك عبد الله، 18نوفمبر2008.

الفصل الحادي والعشرون: الطلاب

- **أوامر بقصف كابول**: أحمد باديب، مقابلة مع الكاتب، جدة، 26 يوليو 2006.
- **بعيدة عن الحرب**: أحمد بأديب، مقابلة مع الكاتب، 11 مايو 2008.
- **مشروع سعودي أمريكي مشترك**: مقابلة غير رسمية، جدة،26 نوفمبر2008.
- **تخصيص مبلغ 300 مليون دولار**: أحمد باديب، مقابلة مع الكاتب، 11مايو 2008.
- **لتحفيزهم**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 سبتمبر 2008.
- **الله معنا**: رشيد، ص 22.

- **طالبان**: في اللغة العربية جمع «طالب» هو «طلاب».
- **يطلقون النار عليه فوراً**: كول، حروب الأشباح، ص 283.
- **الحياة التي عاشها النبي**: رشيد، ص 43.
- **دفع رسومهم بشكل طوعي**: السابق. ص 22 - 24.
- **هؤلاء أبنائي**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 سبتمبر2008.
- **كان ريفياً**: السابق.
- **فقد عينه**: أحمد باديب، مقابلة مع الكاتب، 11 مايو 2008.
- **فقأ عينه اليمنى**: كول، حروب الأشباح، ص 288.
- **شرع الله على الأرض**: السابق.
- **إعادة النظام**: احمد بأديب، مقابلة مع الكاتب، 11 مايو 2008.
- **سوف أنفذه**: كول، حروب الأشباح، ص 295.
- **مئات من مركبات النقل الجديدة**: رشيد، ص 45.
- **قد يكونون سعوديين**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 سبتمبر 2008.
- **مساعدة سعودية**: أحمد رشيد، رسالة بريد إلكتروني للكاتب، 24 سبتمبر 2008.
- **سيارات الجمس**: بحسب ما يقوله دبلوماسي امريكي كان قد درس معركة السبلة، كان عدد من المركبات السعودية هي سيارات جمس شيفروليه.
- **ملعونات من قبل الشريعة**: «عينه من أحكام طالبان» ملحق «1» في كتاب رشيد،طالبان، ص 217.
- **تنظيمات وحشية**: نواف عبيد، «تحسين تحليل الاستخبارات الأمريكية في عملية صناعة القرار السعودي»، جامعة هارفارد، 1998.
- **التدريب والرواتب**: احمد رشيد، رسالة إلى الكاتب،

24 سبتمبر 2008.

- **أطلق النار وأصاب الهدف**: رشيد، طالبان، ص 1 - 4.

- **الحماية**: برجن، أسامة بن لادن الذي اعرفه. ص 164.

- **اختار بن لادن**: كول. حروب الأشباح، ص 342.

- **طفل صغير مضلل به**: أوتاواي، ص 157.

- **قدم له الملاذ**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 سبتمبر 2008.

- **ظل صامتاً**: كول، حروب الأشباح، ص 342، استشهاداً بمقابلة الأمير تركي مع برنامج نايت لاين بتاريخ 10 ديسمبر 2001.

- **المنفي السعودي الوحيد**: برجن، أسامة بن لادن الذي أعرفه، ص 160.

- **هناك قتل وكسر للرقاب**: بورك، ص 163، و رايت ص 234.

الفصل الثاني والعشرون: الذراع الطويلة

- **إبادة جماعية**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 19 ابريل 2008.

- **صفحة التحقيق الخاصة**: ملخص دليل وضع المقاتل ـ الحبيشى، خالد سليمان، 24 سبتمبر 2004، رقم 000156، غير مصنف.

- **معلم متفجرات**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 12مايو 2008.

- **جاء ليموت**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 19 أبريل 2008.

- **تأشيرة الولايات المتحدة تلقائياً**: مقابلة غير رسمية.

- **للنخبة**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 19 ابريل 2008.

- **يقتلك من أجل 100 دولار**: السابق.
- **لإخافة الناس**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 12 مايو 2008.
- **الفيديو**: السابق.
- **ثمانية آلاف غير أفغانيين**: يشمل هذا الرقم عمال المؤسسة الخيرية، تبعا لأقوال محلل في وزارة الدفاع السعودي. ولقد كانت تقديرات وزارة الداخلية السعودية أكثر من ذلك الرقم.
- **جهاد ضد اليهود والصليبين**: برجن، أسامة بن لادن الذي أعرفه، ص 195.
- **كلها أهداف**: اللجنة الوطنية للهجمات الإرهابية. ص 47.
- **مثل الجراد**: برجن، أسامة بن لادن الذي اعرفه، ص 195.
- **إهانة شعبها**: السابق.
- **صواريخ لاستخدامها في المملكة**: كول، حرب الأشباح، ص 397.
- **القنصلية الأمريكية بجدة**: توماس هيجمار، « العنف الإسلامي واستقرار النظام في المملكة العربية السعودية»، الشؤون الدولية 84، رقم4 (يوليو2008) ص 708.
- **عمليات داخل السعودية**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 سبتمبر 2008.
- **ستسلّم بن لادن لنا**: رأيت ص 268.
- **دعم خليجي لطالبان**: أحمد رشيد، رسالة بريد الكتروني للكاتب، 24 سبتمبر 2008.
- **أعمال وحشية**: رشيد، ص 72.
- **يموت حياً تحت لهيب الشمس**: السابق، ص 73 - 74.
- **فريقان انتحاريان**: الأرقام من كتاب ستيف كول حروب الأشباح ولورانس

رايت، البرج القادم.

- **زر التفجير المربوط بسلك**: رايت ص 272.

- **علاقة خارج الزواج الشرعي**: مقابلات غير مسجلة مع دبلوماسيين سعوديين و أمريكيين قد حضروا الاجتماع.

- **الجبل لا تهزه الريح**: مقابلة مع دبلوماسي حضر الاجتماع.

- **أنا حي**: رايت، ص 285.

- **شاهد على الـ سي أن أن**: مقابلة مع مصطفى مطبقاني، جدة، 15 يوليو 2006.

- **أعطيتنا كلمتك**: كول، حروب الأشباح، ص 414.

- **شاي مع رئيسه الشخصي**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9سبتمبر 2008.

- **خطأ في الترجمة**: رايت، ص 288-289.

- **البطل المسلم الشجاع**: كول، حروب الأشباح، ص 414.

- **صواريخ توماهوك**: رشيد، طالبان، ص 134.

- **النكوص عن كلمته**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 سبتمبر 2008.

- **الخوف من الله**: كريك وايتلوك، «بحثاً عن بن لادن: توجه جديد» واشنطن بوست، 10 سبتمبر 2008.

- **دولة محتلة**: رايت، ص 289.

- **مباشرة إلى عمر**: تركي الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 سبتمبر 2008.

- **الضرر للأفغان**: رايت، ص 289.

- **يتجاهلان بعضهما البعض**: أوتاواي، ص 115.
- **سلك دبلوماسي**: السابق، ص 127.
- **صدم عبد الله**: فري، هيئة التحقيقات الفيدرالية الخاصة بي، ص 25، استشهد بها أوتاوي ص 121.
- **حوالي 10 مليون دولار**: جون سولومون وجيفري اتش بريتبام، «ماكينة كلينتون حصلت على تمويل من الخارج». واشنطن بوست، 15 ديسمبر 2007.
- **لم يطلب الرئيس مثل هذا الشيء**: ويتش فولر، مقابلة مع الكاتب، 30 أكتوبر 2008.
- **العلاقات الخاصة**: أوتاوا، ص 126.
- **يعاني من كآبة**: معلومات من عضو من السفارة السعودية في واشنطن في التسعينات.
- **العميد الخفي**: وثّق دايفيد أوتاواي تلك الفترة الصعبة جيدا في « أزمة منتصف العمر»، الفصل الثامن من كتابه رسول الملك. ولقد اعترف مكتب الأمير بندر بأن الأمير قد قام بالعديد من المقابلات والملخصات لأوتاوا عبر السنوات، ولكنه قال إن الأمير لم يشترك في الكتاب. وقالوا أيضا إنه لم يكن راغبا في أن يفوته الاحتفال باليوم الوطني السعودي.
- **سعودياً أكثر منا**: أوتاوا، ص 143.
- **جيد لدرجة يصعب تصديقه**: السابق.
- **نجاح الصهيونية**: أيدي، ص 37.
- **ثلاثة أضعاف**: المعلومات الخاصة بالنسب بعيداً عن اللغة الأم لم تجمع

في تلك الأيام. أشعر بالامتنان لياسمين شاهين ماكورنل من المعهد العربي الأمريكي لتقديمها تلك المعلومات.

- **6،4 مليون يهودي أمريكي**: هناك العديد من التقديرات التي تقول إن التعداد السكاني اليهودي بأمريكا هو من 5 إلى 7 ملايين نسمة.

هذا الرقم من الكتاب السنوي اليهودي الأمريكى، دراسة التعداد السكاني لعام 2006.

- **الوقوف ضد إسرائيل**: شيندلر، كولين «الليكود و واضعو النظام الديني المسيحي»، دراسات إسرائيلية، مجلد 5 رقم 1، ربيع 2000، ص 153ـ182.

- **محاولات اغتيال إسرائيلية**: أوتاواي، ص 148.

- **تحويل الأصدقاء إلى أعداء**: السابق.

- **وجدته كاتبا**: مقابلة للكاتب مع مسؤول رفيع المستوى له علاقة بهذا التجاذب، 30 نوفمبر 2008، وأكده مسؤول سعودي آخر استقبل المعارضة الرسمية الأمريكية.

- **إهانة كبيرة**: مقابلة مع مسؤل سعودي رفيع المستوى، جدة، 31 اكتوبر2006.

- **الأطفال الفلسطينيون**: روبرت ج كيدز وديفيد أوتاواي، «غضب القائد السعودي يكشف عن علاقة ضعيفة»، واشنطن بوست، 10 فبراير 2002.

- **عمل إرهابي**: السابق.

- **يمكنه أن يؤدي وظيفة أفضل**: ملحوظات للرئيس 24، 10.44CDT اغسطس2001،

www.whitehouse.gov/news

- **تبسيط ماكر شرير**: مقابلة مع مسؤول إسرائيلى رفيع المستوى، الرياض، 3 أبريل 2006.

- **الاستجابة التي ينشدها**: هذا الوصف يبين كيفية قيام بندر بتطوير وشرح تعليماته. ولقد جاء من الرياض مسؤول سعودي قد عمل معه لعدة سنوات.
- **اهتماماتنا**: مقابلة مع مسؤول سعودي رفيع المستوى، جدة، 31 أكتوبر 2006.
- **باول لبندر**: أفادنا مسؤول سعودي رفيع المستوى ذو علاقة بالتبادل، ديسمبر 2008.
- **أخفنا أنفسنا**: روبرت ج كيندر ودايفيد أوتاواي، «غضب القائدالسعودي يكشف عن علاقة ضعيفة». واشنطن بوست، 10 فبراير 2002.
- **فرصتك الأخيرة**: أكدها مسؤول سعودي رفيع المستوى، جدة، نوفمبر 2008.
- **قبلات وأحضان**: مقابلة غير رسمية، الرياض، 24 نوفمبر 2006.
- **سمحت لنفسي بيوم إجازة**: أكدها مسؤول سعودي رفيع المستوى، جدة، نوفمبر 2008.

الفصل الرابع والعشرون: خمسة عشر خاطفاً سعودياً

- **ضرب البرجين**: الأمير خالد الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 25 سبتمبر 2007.
- **سوف يأتون خلفنا**: خالد الحبيشي: مقابلة مع الكاتب، جدة، 12 مايو 2008.
- **تكون مع الحمقى**: فؤاد الفرحان، مقابلة مع الكاتب، جدة،2 ديسمبر 2007.
- **صاحب عمود صحفي جريء**: لقد قيل للنقيدان أن يتوقف ولو لفترة،

ولكن بعد أحداث 11سبتمبر حمل قلمه مرة أخرى. لقد كتب عموداً على صفحتين في الوطن يدين فيه بن لادن - وهو أول مقال بجريدة سعودية كتبه شخص كان يتواجد في المعسكر الإسلامي.

- **يتحدى التفكير البشري**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان، 10نوفمبر2007.

- **نحن وهم**: استشهد بها أنجر، ص 197.

- **عدو خطير ضخم**: «جرب آل غور، لن يكون لديك حرب» ناثان جاردلز، مقابلة مع جور فيدال، سعودي جازيت، 13 ديسمبر 2006، ص 13.

- **جاءت من الله**: أحمد العجاجي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 9 فبراير 2008.

- **رفض تصديق**: مقابلة مع خالد المعينا، 10 يوليو 2006.

- **نسلب أنفسنا من أي أهمية**: مقابلة مع سمية جبرتي، جدة، 12 - 14 يوليو 2006.

- **جريئون**: الأمير عمرو الفيصل، مقابلة مع الكاتب، جدة، 11 يوليو 2006، ورسالة بريد الكتروني للكاتب، 24 نوفمبر 2008.

- **بدأ الجهاد**: محمد الحربي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 13 فبراير 2007.

- **عاجزون**: السابق.

- **شخص مريض كملك لها**: روبرت جوردن، مقابلة مع الكاتب، واشنطن، 1 مايو 2007.

- **عبارات الثناء المطلوبة**: أحمد صبري، مقابلة مع الكاتب، جدة، 16 سبتمبر 2007.

- **رجال الكونجرس يلبسون القلنسوة اليهودية**: قال الأمير سلطان تلك الملحوظة لجريدة الشرق الأوسط (وهى جريدة سعودية يومية تصدر

في لندن) عقب احتفال في المعهد السعودي للصناعات العسكرية،الشرق الأوسط، 23 يونيو 2002.

- **منفذو تلك الهجمات**: مقابلة مع الأمير نايف، نقلها علاء شاهين، اسوشيتد برس، ديسمبر 2002، استشهد بها برونس، ص 236.

- **نصائح متضاربة**: روبرت جوردن، مقابلة مع الكاتب، واشنطن، 1 مايو 2007.

- **أقام دعوى على المكتب**: تم تأكيد الإجراء القانوني من قبل دبلوماسي للكاتب، 8 نوفمبر 2008.

- **موافقة الشيخ**: رينتر، ص 116.

- **مخطئ تماماً**: الأمير تركي الفيصل، الرياض، 3 مارس 2007.

- **ضمن أولئك الذين يحكمون**: عبد الله المعلمي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 25 سبتمبر 2006.

الفصل الخامس والعشرون، الحريق

- **ممارسة الرئاسة**: بعض الروايات السعودية أكدت أن السبب هو بوابات المدرسة التي ظلت مغلقة.

- **حراس الفضيلة**: عرب نيوز، 14 مارس 2002، استشهد بها في موقع أخبار بي بي سي، 15 مارس 2002.

- **أيديهم لضربنا**: السابق.

- **الرئاسة العامة لتعليم البنات**: حنان الغامدي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 12 سبتمبر2006.

- **ينتقم**: سعد السريح، مقابلة مع الكاتب، جدة، 31 أكتوبر 2006.

- **نورة الفايز**: عرب نيوز، 15 فبراير 2009.

- **ملحد خطير**: محمد الرشيد، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 20 سبتمبر 2006.

- **بلا أخلاق**: السابق.

- **تعليم البنات**: عبد الله عبيد، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 26 فبراير2006.

- **جامعة أكلوهوما**: عبد الله العبيد قد درس في إنديانا للحصول على درجة الدكتوراه.

- **الأغر**: الأمير فيصل بن عبد الله أطلق عليه ذلك الاسم بسبب اللقاء الأول الذي تم في نادي الرياض للفروسية و الذي يحمل ذلك الاسم. لقد قدم عدداً من التقارير الثقافية والاقتصادية بالإضافة إلى عمله عن المجتمع المبني على أساس المعرفة. محادثة للكاتب مع فهد أبو النصر، 17 فبراير2009.

- **رسائل نصية سامة**: منصور النقيدان، مقابلة مع الكاتب، عجمان، 10نوفمبر2007.

- **خمس وسبعون جلدة**: منصور النقيدان، رسالة بريد الكتروني للكاتب، 22 سبتمبر 2008.

- **عقاب مهين**:

.http: //www.mytimes.com/2003/11/28/opinion/28MANS.html

- **الثمن الباهظ الإصلاح**: السابق.

- **جئنا لنقتلكم**: جاردنر، ص 271.

- **حصيلة القتلى**: نيويورك تايمز، 14 مايو 2003، أيضا وكالة الأنباء السعودية 7 يونيو 2003.

- **حرب على آل سعود**: توماس هيجمار، «العنف الإسلامي واستقرار النظام»، الشؤون الدولية 84 رقم 4 (يوليو2008) ص 709.

- **السوق السوداء بالرياض**: دوجلاس بالدوين، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 5 مارس 2007.

- **حفظ القرآن**: قدم اللواء يحيى المعلمي، المدير العام للسجون السعودية، مفهوم تقليل حكم المسجون إلى نصف المدة إذا حفظ القرآن عام 1979 لأن اللواء شعر أن التعليم الديني يعتبر طريقة جيدة لإصلاح المجرمين المحكوم عليهم.

- **الأماكن الدموية**: فرانك جاردنر، مقابلة مع الكاتب، لندن، 8 مارس 2003.

- **سمح له... بتصوير الموقع**: فرانك جاردنر، رسالة بريد إلكتروني للكاتب، 10 نوفمبر 2008.

- **استخرج مسدساً**: تلك الفقرات تعتمد على مقابلة مع فرانك جاردنر في لندن في 3 مارس 2008، وعلى رواية من كتابه دم ورمل.

- **رصاصة في ساقه**: جادنز، ص 26.

- **كره حقيقي وتعصب**: السابق، ص 27.

- **يتحسس الرصاص في بطنه**: السابق، ص 28.

- **من قتل أو أسر**: السفارة السعودية، واشنطن، إطلاق سراح الصحافة في

11 أبريل 2005. www.saudiembassy.net.

- **مدرّبين بشكل جيد**: جاردنر، ص 269،270.

- **هدف بن لادن وحده**: دايفيد راندل، مقابلة مع الكاتب، 6 مارس 2007.

- **رجال الكهف**: محمد الحربي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 13 فبراير 2007.

- **أحلامه في مكان أفضل**: حسين الشبكشي «الحلم» أوكيز، 30 مايو 2003.

- **ليس أقل من 40 بالمائة**: عرب نيوز، 11 ديسمبر 2007.

- **يمكن أن يكون صوفياً فقط**: عائلة المالكي بمكة لديها الكثير من الأتباع في الحجاز وفى جميع أنحاء العالم الإسلامي، خاصا في إندونيسيا، حيث يتبع ملايين من الناس تعاليمهم و ممارساتهم للصوفية من خلال العادات المتبعة لديهم.

- **اعرف حدودك**: مقال الشبكشي اثار الكثير من الجدل، عرب نيوز، 16 يوليو 2003.

الفصل السابع والعشرون: أبناء مسرفون

- **اختفى تماماً**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 19 ابريل 2008.

- **نحو الأفق لنموت**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 12 مايو 2008.

- **لقد قيدونا**: السابق.

- **قلت «كوبا»**: خالد الحبيشي، مقابلة مع الكاتب، 19 أبريل 2008.

- **اعتقال 137 سعودياً:** قائمة بأسماء الأشخاص المعتقلين من قبل وزارة الدفاع في خليج جونتانامو، كوبا، من يناير 2002 خلال 16 مايو 2006.

.http: //www.defenselink.mil/news/may20060515 list.pdf

- **فيروس يصيب الدماغ:** مقابلة مع محمد بن نايف، الرياض، 7 مارس 2007.

- **نحول تفكير المحتجز:** السابق.

- **غوانتانامو سعودية:** محمد بن نايف، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 3 فبراير 2009.

- **ذهب إلى اليمن:** «ارتياب سعودي في طلب أحياء القاعدة» الخليج تايمز، 8 فبراير 2009.

- **خمسة و ثمانون شاباً سعودياً في قائمة المطلوبين:** «خمسة و ثمانون في قائمة المطلوبين»، سعودي جازيت، 3 فبراير 2009.

- **من يكسب بالمجتمع:** محمد بن نايف، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 3 فبراير 2009.

- **اتصالاً هاتفياً:** طلال الزهراني، مقابلة مع الكاتب، الطائف، 27 يوليو 2006.

- **واجبه تجاه الله:** طلال الزهراني، مقابلة مع الكاتب، جدة، 16 يوليو 2006.

- **قبض عليه مع ياسر:** «أبو فواز»، مقابلة مع الكاتب، جدة، 22 يناير 2007.

- **يضلل المحققين:** ملخص وضع المقاتل الزهراني، ياسر، 24 سبتمبر 2004، رقم 000149، غير مصنف.

- **أقدم على الانتحار:** انظر ويكيبيديا، «محاولات انتحار جوانتنامو»، تغطية

صحفية لجرائم الانتحار. أيضاً جماعة أمريكية تقاضي البنتاجون بسبب جريمتي انتحار في جوانتنامو، اتهامات رُفعت بالنيابة عن الأقارب، أسوشيتد برس في انترناشونال هيرالد تريبيون، 11 يونيو 2008، كارول ج ويليامز، «تغطية أحداث جوانتنامو» لوس أنجلوس تايمز، 18 يونيو 2006، ميشيل ميلايا « موت معتقلين جوانتنامو السعوديين العرب في جرائم انتحار واضحة» سان دييجو يونيون تريبيون، 13 مايو2007.

- **اذهب إلى الجحيم**: «أبو فواز»، مقابلة مع الكاتب، جدة، 22 يناير2007.
- **إزالة الحنجرة**: التقرير الأخير للتشريح للزهراني، ياسر، 2 اغسطس2006. مؤسسة القوات العسكرية للباثولوجي، مستشفى نافل، خليج جوانتنامو، كوبا. لقد وصف ذلك التقرير الحنجرة بأنها مبطنة بغشاء.
- **ثلاثة آلاف كذبة**: طلال الزهراني، محادثة هاتفية مع هالة الحوطي، 26 نوفمبر 2008.
- **اتفاق انتحاري منسق**: أندي ورش انجتون، «تقرير انتحار جوانتنامو: حقيقة أم هزل؟ تقرير الكتروني في: Antiwar.com.theHuffingtonPostCounterPunch.2netandAlterNet.
- **خط ابني**: طلال الزهراني، محادثة هاتفية مع هالة الحوطي، 26 نوفمبر 2008.
- **يشبه الجثة**: هالة الحوطي، مقابلة مع الكاتب، الطائف،27 يوليو 2006.

الفصل الثامن والعشرون: الملك عبد الله

- **ملائكة الموت**: مكالمة، أغسطس 2006.
- **طائرة خاصة**: معلومات من طيار رفيع المستوى بالخطوط الجوية

السعودية، 12 أبريل 2008. أكدها عضو رفيع المستوى بالعائلة المالكة.
- **دفع ثمن**: صحفي سعودي، جدة، يوليو 2006.
- **نفس الجدول**: مقابلة غير رسمية، ديسمبر 2008.
- **الماء الكلوري**: على لسان عضو في بلاط عبد الله.
- **أوقات.... في بركة السباحة**: على لسان أحد مستشاري عبد الله.
- **بعد فكري**: د. ماجد المنيف، مقابلة مع الكاتب، 18 نوفمبر 2008.
- **الجابري - أركون**: السابق.
- **عيد الأضحى - عيد الفطر**:

http: //www.2eids.com/introduction_to_eid.php

- **سعوديون ليسوا من الأسرة المالكة**: المرشح المهزوم، مقابلة مع الكاتب، الخبر، أبريل 2007.
- **حمّى الانتخابات**: مقابلة عبد الله مع صحيفة لومند، أعيدت طباعتها في مركزخدمة المعلومات الخاصة بالعلاقات السعودية الأمريكية،

14 أبريل 2005. ص 2. www.saudi_us_relations.org
- **مجلس البيعة**: وضع عبد الله بنفسه تفاصيل دور المجلس وآليات عمله، تبعا لعضو رفيع المستوى في العائلة المالكة.
- **تعيين ولي العهد**: «أصدرت المملكة العربية السعودية قواعد مجلس خلافة العرش»، رويترز، 9 أكتوبر 2007.
- **يجب أن نفعل ذلك الآن**: معلومات قدمت للكاتب من عضو رفيع المستوى من الأسرة المالكة.
- **أخبار تشكيل المجلس**: معلومات من صحفي محلي كان قد غطى الخبر.
- **مشاهدي التلفزيون**: محمد سعيد طيب، مقابلة مع الكاتب، جدة، 27 نوفمبر 2008.

- **اجتماع مجلس البيعة**: ب. ك. عبد الغفور «مشاعل عينت رئيس لجنة الولاء»، عرب نيوز، 11 ديسمبر 2007.
- **صوت والدهم المتوفى**: وصف عن لسان عضو من لجنة الولاء.
- **مبدأ التسامح**: ملحوظات عن لسان الملك عبد الله بن عبد العزيز في الأمم المتحدة «ثقافة السلام»، مؤتمر، نيويورك، 12 نوفمبر2008.
- **احترام آراء الأخرين**: عرب نيوز، 23 يونيو2003.
- **مؤسسات المجتمع المدني**: مقابلة عبد الله مع صحيفة لومند، أعيدت طباعته في مركز خدمة المعلومات الخاص بالعلاقات السعودية الأمريكية، 14 أبريل 2005، ص 2.
- **بسرعة الصاروخ**: واستون، ص 483.
- **كان التحسن ملموساً**: انظر جداول البلد في البنك الدولي، أداء الأعمال التجارية 2009 (لندن: بالجريف، ماكميلين).
- **13 بالمائة من ناتج الدخل العام**: هانري سندر، «ماذا يمكن أن تتعلمه الولايات المتحدة من المملكة العربية السعودية»، فايننشيال تايمز، 6 فبراير 2009.
- **513 مليار دولار**: أرقام مثبتة في مؤسسة النقد العربي السعودي في «سلطة صناديق الأموال في دول الخليج العربية» كتب براد سيتسر وراشل زيمبا، ورقة عمل، مركز الدراسات الاقتصادية الأرضية، مجلس العلاقات الخارجية، يناير 2009، ص 2.
- **ثمانية عشر مليون مواطن**: يعتبر كتاب حقائق العالم الذي أصدرته المخابرات الأمريكية أحد المصادر العديدة التي قدرت التعداد السكاني السعودي بحوالي 28 مليون في يوليو 2008، بمن فيهم 5.5 مليون شخص غير مواطنين ويحملون هوية قانونية.

- **غير موجودة:** سوزان المشهدي «انا أسود وأنت أبيض»، الحياة، 22 فبراير 2007.
- **بارعون في جاهزيتهم للموت:** خالد باحذاق، مقابلة مع الكاتب، جدة، 9 ديسمبر 2006.
- **حب غير مشروط:** السابق.
- **مجنونة به:** مشاعل، محادثة هاتفية، 29 يناير 2008، ومقابلة، 11 فبراير 2008.
- **الحرم الجامعي النسائي:** العديد من السيدات السعوديات.
- **هل المرأة فضيحة ؟:** عرب نيوز، 10 أكتوبر 2008.
- **مصطلحات:** السابق.
- **كان الرسول رحيماً مع زوجاته:** حديث 170، كتاب 73، فعن أنس بن مالك أن النبي كان في سفر وكان هناك غلام اسمه أنجشة يحدو بهن أي ببعض أمهات المؤمنين وبينهن أم سليم، فاشتد بهن في السياق، فقال النبي: «رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير».
- **صور مهنّد:** فايزة صالح أمبا «مسلسل هدام يعكر صفو المملكة العربية السعودية»، واشنطن بوست، 3 أغسطس 2008.
- **شجب المسلسل:**

http: //www.ammaro.com/2008/07/divorces-tv-shows-fatwas.html

- **دعوة للفساد:**

http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr/-/i/hi/world/middle_east/7613575.stm

- **أكبر عالم إسلامي**: «انتقد اللحيدان بقوة تحريف كلامه»، عرب نيوز، 13 سبتمبر 2008.

الفصل الثلاثون: الاحتلال غير شرعي

- **سوف تقابل ملكاً**: عن لسان عضو في مجموعة مزرعة كراوفورد.
- **يجب أن تصلح هذا**: السابق.
- **رجل أستطيع أن أثق به**: السابق.
- **كانا رجلي دين**: السابق.
- **بضعة آلاف نسخة من القرآن**: عرب نيوز، 22 أبريل 2002.
- **مبادرة سلام**: توماس فريدمان، « إشارة مثيرة للاهتمام صادرة من ولي العهد السعودي»، نيويورك تايمز، 17 فبراير 2002.
- **عينة صادقة**: مستشار عبد الله، مقابلة مع الكاتب، الرياض، فبراير 2007.
- **قصاصات الصور الإخبارية**: جلين كاسلرو وكارين دي ينج، «أصبح السعوديون أكثر عنفا مع أمريكا علانية». واشنطن بوست، 30 مارس 2007.
- **محلات كينكو**: ذكريات مسؤول سعودي ساعد في جمع البوم الصور.
- **صفر اليدين**: والجمل السابقة. ذكريات مسؤول حضر الاجتماع.
- **هل هم جادون فعلاً**: روبرت جوردن، مقابلة مع الكاتب، واشنطن، 1 مايو 2007.
- **ارتفعت أصواتهما**: دي ينج، ص 386.
- **في السلام والأمن**:

http: //www.whitehouse.gov/news/releases/2002/ob/20020624-3.html

- **يتحدثان متجاوزين بعضهما البعض**: أوتاواي، ص 237.
- **يتوافق مع مصالح أمريكا**: ميشيل شوارتز،» عندما يعد النجاح فشلاً في العراق»، 10 سبتمبر 2008.

http: //www.atimes.com/atimes/MiddleEast/JI10AK01.html

- **حملة تقودها أمريكا للإطاحة بصدام**: السابق.
- **ضرب صدّام حسين**: اللجنة الوطنية للهجمات الإرهابية، (تقرير 9/11) ص 335.
- **علاقة محتملة للعراق في الهجمات**: استشهد بها كلاركي في اللجنة القومية للهجمات الإرهابية (تقرير 9/11) ص 334.
- لا يوجد أساس شرعي له: بيل سامون، «السعوديون يرغبون في تفتيش العراق وليس مهاجمة العراق» واشنطن تايمز، 28 أغسطس 2002.
- **إرسالهم إلى الرياض**: توماس إى ريكس «بيان موجز يصف السعوديين بالأعداء» واشنطن بوست، 6 أغسطس 2002. من أجل تفاصيل عن الأربع وعشرين شريحة، انظر جاك شافر، «عرض الـباور بوينت الذي هزّ بالبنتاجون»، سلات، 7 أغسطس 2002

http: //www.slate.com/id/2069119

- **أساس الشر**: السابق.
- **تعاون السعوديين بشكل كامل**: توماس إي.ريكس، «بيان موجز يصف السعوديين بالأعداء»، واشنطن بوست، 6 أغسطس 2002.
- **آراء معادية**: موراويك، استشهادات غلاف الكتاب.
- **استراتيجية المحافظين الجدد**: توماس إي.ريكس، «بيان موجز يصف السعوديين بالأعداء» واشنطن بوست، 6 أغسطس2002.
- **حليفتان لأكثر من ستين عاماً**: السابق.

- **الإجابة هي لا**: دانا ميلبنك وجلين كانلر، «تحرك بوس لتخفيف التوتر مع السعوديين»، واشنطن بوست، 28 اغسطس 2002.
- **تطيح صدام**: أوتاوا ص 214. أنظر أيضاً والش، «الأمير»، نيويوركر، 24 مارس 2003
- **يحاول اغتياله**: أوتاواي، ص 214.
- **محض هراء..... السياسة السعودية**: معلومات من زميل طويل العهد ذي خبرة وعلم بالأمير بندر، جدة، 26 نوفمبر2008.
- **عضو حقيقي غير معين**: أوتاوا، ص 214.
- **إخبار بندر**: ودورد، ص 264 - 266.
- **زوجتان... شمّر**: معلومات من عضو في القصر الملكي، ديسمبر 2008.
- **يقتلون ويهربون**: رأي شخصي لدبلوماسي سعودي رفيع المستوى تورط في الاتصالات السعودية الأمريكية في تلك السنوات.
- **قاعدة جوية في الخرج**: توماس إي ريكس، «الطريقة الأمريكية للحرب في الصحراءالسعودية»، واشنطن بوست، 7 يناير2003.
- **أساس سري صارم**: رون سكربورو، «أمريكا تسحب قواتها من المملكة العربية السعودية»، واشنطن تايمز، 30 أبريل 2003.

الفصل الحادي والثلاثون: نهاية العلاقة

- **زواج إسلامي**: أوتاوا، ص 226.
- **دول أخرى في آسيا**: مابين عام1991 وعام2001 ارتفعت مبيعات النفط السعودي لحوالي 2 مليون برميل في اليوم إلى اليابان وكوريا الجنوبية و 2 مليون إلى بعض البلدان الآسيوية الأخرى بما فيها الصين، و2 مليون

إلى أوروبا، و2 مليون إلى أمريكا، و مليون برميل يوميا للاستهلاك المحلي. معلومات من مستشار للنفط بالبحرين.

- **المزود الأساسي للصين:** ما بين 2002 و 2008 ازداد استهلاك الصين للنفط إلى حوالي 8 مليون برميل، تستورد خمسين بالمائة منه، توفر المملكة العربية السعودية حوالي ربع نسبة الاستيراد (1 مليون برميل يوميا).

- **علاقة استراتيجية:** على النعيمي، «الوجهة الأسيوية وسياسة النفط السعودية»، كونجرس النفط العالمي، شنغهاي، الصين، 29 سبتمبر 2001.

- **مشروع مصفاة بتكلفة 3،5 مليار دولار:** عرب نيوز، 23 يناير 2006.

- التاريخ كمرآة: السابق، 24 أبريل 2006.

- **صواريخ CSS الصينية:** سيمون هندرسن، «التعاون الصيني - السعودي: نفط ولكنه أيضاً صواريخ»، مؤسسة واشنطن، الرقابة على السياسات، رقم 1095، 21 أبريل 2006.

- **فكرة الخيار النووي:** أوتاوا، ص 228ـ229.

- **السعودية الفقيرة:** لمعرفة التاريخ المبكر للعلاقات السعودية السوفياتية، انظر لاسي، ص 240ـ 241.

- **تنافس متبادل:** استمر التنافس بين البلدين في إنتاج 8،9 مليون برميل يومياً. معلومات من مستشار نفط في البحرين.

- **26 بالمائة... 31 بالمائة:** التقويم العالمي وكتاب الحقائق (نيويورك: كتب التقويم العالمي، 2007) ص 113.

- **في يناير 2004:** لقد تم توقيع الاتفاق في نوفمبر 2003 وهو حق امتياز لمدة 40 عاما يغطي حوالي 81.000 ميلاً مربعاً. عرب نيوز، 27 يناير 2004.

- **القطب الواحد:** فلاديمير بوتن، حديث في مؤتمر ميونيخ الثالث والأربعين حول السياسة الأمنية، 10 فبراير 2007.

- **التقنية النووية**: بحسب أحد المستشارين الملكيين، لقد تم نبذ تلك القائمة الروسية للتسوق بسبب شكوك عبد الله من تراجع السعوديين عن الصفقة.

- **عملية إعادة البناء**: مسؤول دبلوماسي، مقابلة مع الكاتب، الرياض، نوفمبر2006.

- **يحمل رسائل من الملك**: الأمير تركي الفيصل، محادثة مع الكاتب، باريس، 15 ديسمبر 2008.

- **إحراج المسؤولين السعوديين الآخرين**: أوتاواي ص 259.

- **يطالب بالهدوء**: «نسخة من ملاحظات الأمير تركي الفيصل» 4 أكتوبر 2006، سفارة المملكة العربية السعودية.

http://www.suadiembassy.net/2006news/statements/speechdetail.asp?cindex=644.

- **تأثير إيران**: سعود الفيصل، «الحرب ضد التطرف والبحث عن السلام». مجلس العلاقات الأجنبية، 23 سبتمبر 2005.

- **مورد مالي ضخم**: روبن رايت، «مكيدة ملكية، فواتير غير مدفوعة تسبق خروج السفير السعودي». واشنطن بوست،23 ديسمبر2006. مسؤول سعودي متورط في العقد أنكر مبلغ الـ 10 مليون دولار المذكور في الواشنطن بوست قائلا إن الرقم اقرب إلى عشر ذلك المبلغ.

- **شرف المكان الثالث**: أوتاوا، ص 249.

- **ضعف مستوى 1،41 دولار**: السابق، ص 247.

- **مصافي تكرير كافية**: مركز إخبار الولايات المتحدة، 25 أبريل 2005.

- **تطرف أبنائي**: ذكريات مسؤول حضر الاجتماع الذي عقد في مزرعة الملك بالجنادرية. قال عادل الجبير، وهو من ترجم للملك أثناء اجتماعاته مع

ميشيل شيرتوف أثناء الزيارة، أنه لا يتذكر أي شيء عن المحادثة التي حدثت.

- **المقارنة بين الاحتفالين**: ذكريات مسؤول حضر الاجتماع، الرياض، 19 نوفمبر 2008.

- **نجعل منه مسلماً**: دارت تلك القصة عقب وصول عبد الله إلى أمريكا في نوفمبر2008. أكد عادل الجبير، وهو السفير السعودي الذي رافق الملك معظم الوقت، أن الملك عبد الله قد تلقى دعوة خاصة من أوباما عقب وصوله في نوفمبر 2009، ولكنه قال إن الملك لم يقل ذلك التعليق.

الفصل الثاني والثلاثون: فتاة القطيف

- **خارج الخيمة**: تسمى فيلابي تيمّناً بهاري سانت جون فيلبي (1885ـ1960) المكتشف الانجليزي، متابع الطيور وموظف استعماري تحول إلى مستشار للملك عبد العزيز، والذي قيل عنه إنه أول من جلب الخيام الواسعة الطويلة مستقيمة الجوانب من الهند. تحول فيلبي إلى الإسلام، متخذا اسم عبد الله وكتب العديد من الكتب عن الجزيرة العربية. وبعيداً عن الفيلاني، فهو يذكر في علم الطيور بسبب اقتران اسمه بطائر الحجل، وفي التاريخ غير السعودي عُرف بأنه والد كيم فيلبي، الجاسوس البريطاني والذي تحول إلى عميل مزدوج لدى السوفيات.

- **في الصحراء**: في فرنسا تلك الكرة الخشبية الصغيرة معروفة بخنزير صغير.

- **يحرز الملك دائما بطولة**: قال ذلك لاعب أجنبي في البولو السعودية. أنكرت العديد من المصادر السعودية أن الملك يلعب بكرة إضافية ولكن المرافقين للأمير تشارلز عام 2004 يعرفون ميزة اللعب بين جمهورك وأرضك.

- **قضاء الوقت في المزرعة**: تلك التفاصيل قد وصفت للكاتب من قبل أمين السر الخاص بالملك.

- **هو معاويتنا**: هالة الحوطي، مقابلة مع الكاتب، جدة، 1 فبراير 2009.

- **إذا أرخوها شدّدتها**: القصيبي، نعم، وزير(سعودي) ! ص 17

- **تعلم كلاسيكي**: السابق.

- سورة «الرعد»: القران، السورة 13، الآية 11.

- **عين ملكية**: مستشار الملك عبد الله، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 20نوفمبر2006.

- غمامة من الفوضى:

http: //www.youtube.com/watch?v=8kt40fp_nik

- **تسعة عشر نوعا من الأرز**: الجزيرة (جريدة) 17 أغسطس 2007.

- **تلتقي أشخاصاً آخرين**: رواية اغتصاب فتاة القطيف يعتمد على مقابلة مع فؤاد علي المشيخص فى الأواجم، 16 يناير2008، وعلى محادثات لاحقة في الخبر والظهران والقطيف، 24 نوفمبر2008، وعلى زيارات لبعض المواقع الخاصة بالحادثة مع المشيخص وعلي المرزوق، وعلى مقابلات مع عبد الرحمن اللاحم فى الرياض، 6 فبراير و10مارس 2008، وعلى مقابلات مع ابتهال مبارك وسوزان زواوي وصحفيين آخرين قد قاموا بتغطية القضية.

- **شجرة بلاستيكية**: فؤاد المشيخص، مقابلة مع الكاتب، الظهران، 24 نوفمبر2008.

- **بنت وولد**: فؤاد المشيخص، مقابلة مع الكاتب، الأواجم، 16 يناير 2008.

- **أهمية الوجه**: مقابلة مع محلل نفسي، الرياض، مارس 2008.

- **إقامة دعوة قضائية**: استفتاء قامت به صفاء الأحمد 2007.

- **خائف منهم**: فؤاد المشيخص، مقابلة مع الكاتب، الظهران،

24 نوفمبر 2008.

- **علاقة محرمة قبل الزواج**: الشيخ عبد المحسن العبيكان، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 11 مارس 2008

- **يدورون حول المنزل**: فؤاد المشيخيص، مقابلة مع الكاتب، ظهران، 24 نوفمبر 2008.

- **دعوته من قبل امرأة مذنبة**: السابق.

- **شوّه سمعة المحكمة**: المملكة العربية السعودية: معاقبة ضحية الاغتصاب بسبب التصريح للإعلام، مراقبة حقوق الإنسان، نيويورك، 17 نوفمبر 2007.
.http: //hrw.org/english/dog/2007/07/18saudia16399.htm

- **الحكم بالموت**: مقابلة فى «عكاظ»، 27 نوفمبر 2007، قدمت في تقرير «قضية الاغتصاب السعودي تحفز دعوات الإصلاح». بقلم رشيد أبو السمح، نيويورك تايمز، 1 ديسمبر 2007.

- **شرف زوجتي**: ابتهال مبارك، مقابلة مع الكاتب، جدة، 24 فبراير 2008.

- **العفو عن فتاة القطيف**: عبد الرحمن اللاحم، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 10 مارس 2008.

- **النفق المظلم للظلم**: عبد الرحمن اللاحم، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 9 فبراير 2008.

- **عليها أن تذهب**: فؤاد المشيخص، مقابلة مع الكاتب، الظهران، 24 نوفمبر .2008

- كتب روبرت ليسي فصل عيد الحب تحية منه للنسخة العربية، وهو غير متوفر في النسخة الإنجليزية الأصل.
- كان التغيير الحكومي الذي قام به الملك عبدالله في 14 فبراير 2009م موعداً لأول امرأة سعودية لتولي منصب وزاري.
- عزل الملك عدة شخصيات دينية، وعيّن شخصيات أخرى من غير المذهب الحنبلي في هيئة كبار العلماء.
- يرى بعض المراقبين أن التعديل الوزاري قد جرى اختباره في تعيين الأمير نايف بن عبد العزيز نائباً ثانياً في مجلس الوزراء في مارس 2009م، كذلك في تأجيل الانتخابات البلدية، وفي تعديلات أخرى خلال الصيف.
- يوافق الكاتب أن الأمير نايف هو براغماتي وليس رجعياً كما جرى تصويره.

- **بضع عشرات الملايين**: جلال فخار،» العديد من الوظائف البرية المربحة تتحايل على القوانين، عرب نيوز، 13 نوفمبر 2008.
- **ثلاثة وسبعون حالة في السنة**: روبرت أف وارث، «المملكة العربية السعودية: ارتفاع نسبة حالات الإعدام في 2008»، نيويورك تايمز، 15 أكتوبر 2008.
- اثنين وأربعين كل عام: » حقائق بشأن عقوبة الموت. 1 ابريل 2008.
http: //www.deathpenaltyinfo.org/factsheet.pdf.deathpenaltyformati
.oncenter
- **ثلاثمائة شخص**: «أعلن أشكروف عن نقل في الدائرة التلفزيونية المغلقة لإعدام ماكفيه». المحكمة التلفزيونية 2001/04/12.
- **تعذيب**: هولنج ورث وميتشيل.
- **هل تعرضت للتعذيب**: مقابلات غير رسمية.
- **أساليب رقيقة**: انظر على سبيل المثال، كريستوفر بوسيك «الاستراتيجية السعودية الرقيقة المعادية للإرهاب: الوقاية، التأهيل والاهتمام».
(صندوق كارنييجي للسلام العالمي، برنامج الشرق الأوسط، رقم 97، سبتمبر 2008).
- **نادٍ للجري**: فؤاد الفرحان، مقابلة مع الكاتب، جدة، 12نوفمبر2008.
- **كعكة في السجن**: السابق.
- **أرز وفوقه خروف**: فؤاد الفرحان، مقابلة مع الكاتب، جدة، 5 فبراير 2009.
- **ملاحقة القاعدة**: فؤاد الفرحان، مقابلة مع الكاتب، 12 نوفمبر 2008.

- **أسباب أمنية**: الأمير محمد بن نايف، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 3 فبراير 2009.

- **كما يأمرنا الله**: مقابلة غير رسمية، واشنطن، أكتوبر 2008.

- **إيذاء جسدي وعقلي**: فؤاد الفرحان، مقابلة مع الكاتب، 12 نوفمبر 2008.

- **آراء مختلفة**: محمد سعيد طيب، مقابلة مع الكاتب، 27 نوفمبر 2008.

- **ليس ثوبك**: السابق.

- **تحت المراجعة**: الأمير محمد بن نايف، مقابلة مع الكاتب، الرياض، 3فبراير 2009.

- **منتصف مارس 2009**: محمد سعيد طيب، محادثة هاتفية، 15 مارس 2009.

- **لا يوجد فيه أي إصلاحيين**: فؤاد الفرحان، 16 مارس 2009.

- **تتحكم فى جوعك**: احمد صبرى، مقابلة مع الكاتب، جدة، 20 سبتمبر 2007.

- **الفتاوى تتوالى**: بازل مينورت. «الضربة الخطيرة للتلفزيون السعودي»، لوموند دبلوماتك، 16 سبتمبر 2004.

- **تهديدات بالقتل**: محمد أحمد، «ممثلي طاش ما طاش تلقوا تهديدات بالموت»، أخبار العرب، 27 أكتوبر 2004.

- **لا نسخر**: ناصر القصبي، مقابلة مع الكاتب، دبي، 8 نوفمبر 2007.

- **تغيراً عقلياً**: خالد باحذاق، مقابلة مع الكاتب، جدة، 12 سبتمبر 2007.

- **موافقة مكتوبة من المحرم**: د. فوزية البكر، محادثة هاتفية، 8 يونيو 2008.

- **نوع من الأخوة**: السابق.

- **ما تم تجميعه في يونيو 2004**: واستن، ص 435.
- **وهابي ما بين علامتي تنصيص**: تركي الفيصل، مؤتمر السياسة العربية الأمريكية، واشنطن 31 أكتوبر 2008.
- **السيطرة على الشاشة**: جاء ذلك الوصف من العديد من الأشخاص الذين رأوا تلك الحلقة الوحيدة من الحلقات التلفزيونية التي تم إلغاؤها.
- **عملية بالكتف**: تصريح للكاتب من قبل متحدث باسم الأمير بندر، جدة، 26 نوفمبر 2008.
- **سرية**: شرح للكاتب عضو من فريق عمل الأمير بندر.
- **مناطق قبلية في باكستان**: بيكو هنيز، «قالت المخابرات الأمريكية إن أسامة بن لادن انفصل عن القاعدة»، تايمز أون لاين، 14 نوفمبر 2008.
- **سبعون مليون ريال**: تصريح للكاتب من قبل مستشار لعائلة بن لادن، جدة، 29 نوفمبر 2008.
- **زوجات وأطفال أحياء**: عضو في عائلة بن لادن،مقابلة مع الكاتب، جدة، سبتمبر 2007
- **إسلام أكثر حداثة**:

http://www.washingtonpost.com/wpdyn/content/article/2007/07/20/AR200707200188.html

http: //www.islamlight.net

- **رياضة بالمنزل**: استشهد بذلك فايزة امبا، «الاتجاه نحو الهدف ذي الحرية الأكبر». واشنطن بوست، 15 أبريل 2008.
- **حقيقة الحياة الحديثة**: توفيق السيف، مقابلة مع الكاتب، جزيرة تاورت، 8 يونيو 2007.
- **التطور ببطء شديد**: د. أحمد التويجري، مقابلة مع الكاتب، الرياض،

1 أبريل 2006.

- **أكثر من ثلاثين عاما:** مقابلة مع أحد أتباع الملك عبد الله، جدة، 30 نوفمبر 2008. كان يجب على عبد الله أن ينتظر حتى يصبح ملكا ـ وحتى يرتفع سعر النفط ـ لكي يحقق حلمه.
- **بيت الحكمة:** أشعر بالامتنان للسفير شاس فريمان بالنسبة لوجهة نظره في بيت المعرفة ودوره في رؤية الملك عبد الله لكاوست.
- **هبه قدرها 10 مليار دولار:** نيويورك تايمز، 6 مارس 2008.
- **المركز الثاني عالمياً بعد هارفارد:** فايننشيال تايمز، 19 مايو 2008.
- **النخل والرمل:** روى هذه الرواية للكاتب شخص سافر بالأتوبيس.
- **يبقى طويلا في صلاته:** رواها عضو من العائلة كان مع الملك تلك الليلة.

قراءات مقترحة

- Aarts, Paul, and Gerd Nonneman, ed.
Saudi Arabia in the Balance: Political Economy. Society. Foreign Affairs.
London: Hurst, 2005.
- Aburish, Said K.
The Rise, Corruption, and Coming Fall of the House of Saud.
London: Bloomsbury، 1995.
- Akers, Deborah S., and Abubaker Bagader, trans. and eds.
Whispers from the Heart – Tales from Saudi Arabia.
Beirut: ICCS, 2002.
- Al-Amri, Hasan Zuhair, ed.
Post 11th September: The Arab Perspective.
Riyadh: Ibn Baz Foundation، 2003.
- Algar, Hamid.
Wahhabism: A Critical Essay.
Oneonta, New York: Islamic Publications International, 2002.
- Algosaibi, Ghazi.
Yes, (Saudi) Minister! A Life in Administration.
London: London Centre for Arab Studies، 1999.
The Gulf Crisis: An Attempt to Understand.
London: Kegan Paul International، 1991.
- Alireza, Marianne.
At the Drop of a Veil.
Boston, Mass: Houghton Mifflin, 1971.
- Almana, Mohammed.
Arabia Unified: A Portrait of Ibn Saud.
London: Hutchinson Benham, 1980.
- Alsanea, Rajaa.
Girls of Riyadh.
London: Fig Tree-Penguin, 2007.
- Al-Suud, Faisal ibn Mishal.
Islamic Political Development in the Kingdom of Saudi Arabia.
Washington DC: National Association of Muslim American Women, 2002.
- Armstrong, Karen.
Muhammad: A Biography of the Prophet.
London: Phoenix، 2001.

- Aslan, Reza.
No God but God: the origins. evolution and future of Islam.
London: Arrow، 2005.
- Ayoob, Mohammed, and Hasan Kosebalaban, editors.
Religion and Politics in Saudi Arabia: Wahhabism and the State.
London: Lynne Rienner، 2009.
- Azzam, Abdullah (Sheikh).
The Lofty Mountain.
London: Azzam Publications, 2003.
- Baer, Robert.
Sleeping With the Devil: How Washington Sold Our Soul for Saudi Crude.
New York: Crown, 2003.
- Bergen, Peter L.
Holy War Inc.: Inside the Secret World of Osama Bin Laden.
New York: Free Press, 2001.
The Osama bin Laden I Know:
an Oral History of the Making of a Global Terrorist.
New York: Free Press, 2006.
- Boucek, Christopher.
Saudi Arabia's "Soft" Counterterrorism Strategy:
Prevention. Rehabilitation and Aftercare.
Washington, DC: Carnegie Endowment for International Peace, Middle East Program، no. 97، September 2008.
- Bowen, Wayne H.
The History of Saudi Arabia.
Westport, CT: Greenwood Press, 2008.
- Bradley, John R.
Saudi Arabia Exposed: Inside a Kingdom in Crisis.
New York: Palgrave Mamillan, 2005.
- Bronson, Rachel.
Thicker than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia.
Oxford, New York: Oxford University Press، 2006.
- Burke, Jason.
Al-Qaeda: The True Story of Radical Islam.
London, New York: Penguin، 2004. 2003 in notes.
- Cave Brown.
Anthony. Oil, God, and Gold: The Story of Aramco and the Saudi Kings.
New York: Houghton Mifflin, 1999.

- Coll, Steve.
Ghost Wars: the secret history of the CIA, Afghanistan. and Bin Laden, from the Soviet invasion to September 10. 2001.
London: Penguin Press, 2004.
The Bin Ladens: an Arabian family in the American century.
New York: Penguin Press, 2008.
- Commins, David.
The Wahhabi Mission and Saudi Arabia.
London: I. B. Tauris, 2006.
- Cook, Michael.
Forbidding Wrong in Islam: An Introduction.
Cambridge: Cambridge University Press, 2003.
Cordesman، Anthon H., and Nawaf Obaid.
National Security in Saudi Arabia.
Westport CT: Praeger Security International, 2005.
- Dawood, N. J., trans.
The Koran.
London، New York: Penguin Books, 1974.
- DeGaury، Gerald.
Faisal, King of Arabia.
London: Arthur Barker، 1966.
- Delong-Bas, Natana J.
Wahhabi Islam: From Revival and Reform to Global Jihad.
New York: Oxford University Press, 2004.
- DeYoung، Karen.
Soldier: The Life of Colin Powell.
New York: Vintage, 2007.
- Esposito، John L., and Dalia Mogahed.
Who Speaks for Islam? What a Billion Muslims Really Think.
New York: Gallup Press, 2007.
- Fandy, Mamoun.
Saudi Arabia and the Politics of Dissent.
London: Palgrave، 1999.
- Gardner, Frank.
Blood and Sand.
London: Bantam, 2006.
- Hart, Parker T.
Saudi Arabia and the United States: Birth of a Security Partnership.
Bloomington، Indiana: Indiana University Press, 1998.

- Heck, Gene W.
Islam, Inc.
Riyadh: King Faisal Center for Research and Islamic Studies، 2004.
Heck, Gene W., and Eng. Omar Bahlaiwa.
Saudi Arabia: An Evolving Modern Economy.
Riyadh: Saudi Council of Chamber of Commerce and Industry, 2006.
- Hollingworth, Mark, and Sandy Mitchell.
Saudi Babylon: Torture. Corruption and Cover-Up inside the House of Saud.
London: Mainstream, 2005.
- Ibrahim, Fouad.
The Shi'is of Saudi Arabia.
London: Saqi, 2006.
- Kepel, Gilles. Jihad:
The Trail of Political Islam.
London: I.B.Tauris, 2002.
- Khan, Riz.
Alwaleed: Businessman. Billionaire, Prince.
New York: William Morrow, 2005.
- Lacey, Robert.
The Kingdom - Arabia & the House of Saud.
London: Hutchinson، 1981.
- Levine, Mark.
Heavy Metal Islam: Rock. Resistance.
and the Struggle for the Soul of Islam.
New York: Three Rivers, 2008.
- Lippman, Thomas W.
Inside the Mirage.
Cambridge, Massachusetts: Westview Press، 2004.
- Long, David E.
The Kingdom of Saudi Arabia.
Gainesville: University Press of Florida, 1997.
- Menoret, Pascal.
The Saudi Enigma: A History.
London: Zed Books, 2005.
- Monroe, Elizabeth.
Philby of Arabia.
London: Faber, 1974.

- Morris, David J.
Storm on the Horizon: Khafji-The Battle That Changed the Course of the Gulf War.
New York: Ballantine, 2005.
- Munif, Abdelrahman.
Cities of salt.
Translated by Peter Theroux. London: Cape, 1988.
- Murawiec, Laurent.
Princes of Darkness: the Saudi Assault on the West.
Translated by George Holoch. Lanham: Rowman & Littlefield Publishers، Inc., 2005.
- Nasr, Vali.
The Shia Revival: how conflicts within Islam will shape the future.
New York: Norton, 2006.
- National Commission on Terrorist Attacks upon the United States.
The 9/11 Commission Report: final report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States.
New York: W.W. Norton, 2004.
- Nawwab, Nimah Ismail.
Poems: The Unfurling.
Vista, California: Selwa Press, 2004.
- Niblock, Tim.
Saudi Arabia: Power, Legitimacy and Survival.
London: Routledge, 2006.
- Niblock, Tim, and Monica Malik.
The Political Economy of Saudi Arabia.
London: Routledge، 2007.
- Obaid, Nawaf.
The Oil Kingdom at 100: Petroleum Policymaking in Saudi Arabia.
Washington DC: Washington Institute for Near East Policy, 2000.
- Ottaway, David B.
The King's Messenger.
New York: Walker, 2008.
- Philby, Harry St John.
Saudi Arabia.
Beirut: Librairie du Liban, 1955.
Arabian Oil Ventures.
Washington DC: Middle East Institute, 1964.

- Qutb, Sayyid.
Milestones.
Indianapolis: American Trust Publications, 1990.
- Al-Rasheed, Madawi.
A History of Saudi Arabia.
Cambridge: Cambridge University Press, 2002.
Contesting the Saudi State:
Islamic Voices from a New Generation. Cambridge: Cambridge University Press, 2007.
- Editor.
Kingdom Without Borders: Saudi political. religious and media frontiers.
London: Hurst, 2008.
- Rashid, Ahmed.
Taliban: the story of the Afghan warlords: including a new foreword following the terrorist attacks of 11 September 2001.
New Haven، Yale: Nota Bene, 2001.
- Rentz, George S.
The Birth of the Islamic Reform Movement in Saudi Arabia.
London: Arabian Publishing, 2004.
- Robinson, Jeffrey.
Yamani: The Inside Story.
New York: Atlantic Monthly Press, 1988.
- Saudi Press Agency.
The Echoes of the Saudi Position During the Events of the Arab Gulf. 1411 H.
Riyadh: Ministry of Information, 1991.
- Schwarzkopf, Norman, and Peter Petre.
It Doesn't Take a Hero: the autobiography.
New York: Bantam Books, 1992.
- Simpson, William.
The Prince: The Secret Story of the World's Most Intriguing Royal. Prince Bandar bin Sultan.
New York: Regan, 2006.
- Sultan, Khaled bin (Al-Saud), and Patrick Seale.
Desert Warrior: a personal view of the Gulf War by the Joint Forces commander.
London: Harper Collins, 1995.

- Teitelbaum, Joshua.
Holier than thou: Saudi Arabia's Islamic opposition.
Washington, DC: Washington Institute for Near East Policy, 2000.
- Theroux, Peter.
Sandstorms: Days and Nights in Arabia.
New York: Norton, 1990.
- Trofimov, Yaroslav.
The Siege of Mecca: the forgotten uprising.
New York: Doubleday, 2007.
- Unger, Craig.
House of Bush. House of Saud: the secret relationship between the world›s two most powerful dynasties.
London: Gibson Square, 2006.
- Urban, Mark.
War in Afghanistan.
London: Macmillan, 1988.
- Vitalis, Robert.
America's Kingdom: Mythmaking on the Saudi Oil Frontier.
Stanford, California: Stanford University Press, 2007.
- Weston, Mark.
Prophets and Princes: Saudi Arabia from Mohammed to the Present.
Hoboken, NJ: John Wiley, 2008.
- Woodward, Bob.
Plan of Attack.
London: Simon & Schuster, 2004.
- Wright, Lawrence.
The Looming Tower: Al-Qaeda and the road to 9/11.
London: Allen Lane, 2006.
- Yamani, Mai.
Changed Identities: The Challenge of a New Generation in Saudi Arabia.
London: Royal Institute of International Affairs, 2000.
Feminism and Islam: Legal and Literary Perspectives.
New York: New York University Press, 1996.

شكر وتقدير

كم هي بعيدة ظلال الجزيرة العربية
حيث الأمراء يركبون الخيل في وقت الظهيرة
بين الأودية والهضاب الخضراء
وأسفل طيف القمر...
تجذبني أعوادها وغاباتها؛
لأرى جمالاً على الأرض
إلا وقد غطّاه ذلك الحلم
الذي يعيد جمالها إليّ
العيون الساكنة تنظر إليّ ببرود
والأصوات الباردة تهمس وتقول لي:
«كم هو مفتون بسحر الجزيرة العربية»
لقد جرّدته من عقله

وولتر دي لي مير

أكتب هذه السطور بعد قضائي مساءاً جميلاً فى السيارة وأنا أتجوّل في مدينة عرعر الشمالية على الحدود السعودية مع العراق حيث تم استقبالي بجبل من الأرز والضأن والتحيات السعودية الحارة التي تعوّدت عليها طوال تلك السنين. نحن نتحدّث الآن عن أكثر من ثلاثين سنة، فأنا مدين لكل من ساعدني خلال تلك الفترة الطويلة بالشكل الذي أعجز عن ردّه بكلمات – ابتداءً من عام 1978م، عندما وافقت زوجتي الجميلة والشجاعة ساندي على ترك منزلنا في لندن وتجشّم أخطار الحياة في جدة التي ظهرت عليها آثار الطفرة النفطية. الأصدقاء الذين كوّنتهم في ذلك الوقت ما زالوا هم الأصدقاء حتى هذا اليوم وعلى رأسهم خالد أحمد يوسف زينل علي رضا وزوجته غادة عبد الجواد، أقوى الحلفاء المحاربين بالنيابة عن الخواجة الاستقصائي الذي سبّب بفضوليته الكثير من المتاعب.

بعد مراجعتي لقسم الشكر والتقدير في كتاب المملكة، الذي نُشر في عام 1981م، وجدت أنني شكرت ما لا يقلّ عن 380 شخصاً وفي مقدمتهم ساندي. لقد انفصلنا إلا أن إعجابي بها وثنائي على ما قدّمت لا حدود له.

يعود الفضل في هذا الكتاب، والذي يمثّل تتمّة لسابقه، إلى مجموعة من أفراد العائلة، والأصدقاء، والزملاء، ومن لا أعرفهم أبداً – والذين استغلّهم المؤلف بلا رحمة وهو يبحث عن الأسرار وأرقام الاتصال، والآراء والتصويبات، والتشجيع، والحقائق الموثوق بها – بالإضافة إلى أقداح الشاي التي لا يبدو أن المملكة تعاني من أي نقص فيها. ساعدتني الأسماء التالية في جانب أو عدة جوانب ابتداءً من الأشخاص الذين وافقوا على توثيق مقابلاتهم:

رجاء وشادية عالم؛ د. عبد الخالق عبد الحق؛ كمال علي عبد القادر؛ عبد الله أبو السمح؛ رشيد أبو السمح؛ عبد الرحمن أبو حيمد؛ منى أبو سليمان، د. حمود أبو طالب؛ علي الأحمد؛ أحمد العجاجي؛ يوسف العجاجي؛ مديحة العجروش؛ أحمد علي القيسي؛ د.عبد المحسن العكاس؛ السفير جيمس أكينز؛ باسم أ. عالم؛ الشيخ أحمد يوسف زينل علي رضا؛ حميدة علي رضا؛ طارق علي رضا؛ الجوهرة العنقري؛ د. سامي عنقاوي؛ د. عيسى الأنصاري؛ مهدي العصفور؛ الكولونيل عادل آل الشيخ؛ آسيا آل الشيخ؛ د. عبد الله العسكر؛ حسين السيد علي العوامي؛ الشيخ سلمان العودة؛ عبد الله العياف؛ أحمد باديب؛ د. لمياء باعشن؛ د. أبو بكر باقادر؛ د. خالد باحاذق؛ دوجلاس بالدوين وجودي بالدوين؛ د.فوزية البكر؛ ألن بارتون؛ د. فوزية باشطح؛ د.خالد باطرفي؛ سعيد البيات؛ سعود البحيري؛ أحمد بن باز؛ عبد الله بن لادن؛ سام بلاتيس؛ براد بورلاند؛ ماريان بخاري؛ إبراهيم البليهد؛ دان بي كيجل؛ العميد نيك كوكينج؛ السير شيرارد كوبر كولز؛ د. بول توماس كوكس؛ السفير والتر كتلر وديدي كتلر؛ عمرو الدبّاغ؛ يوسف الديني؛ تركي الدخيل؛ علي الدوميني؛ نانسي دوتون؛ نيكولاس إيكون؛ د. هورست ارتل؛ الشيخ عبد الله فدّاغ؛ عبد العزيز هـ. فهد؛ أحمد العبادي؛ د. متروك الفالح؛ فريدة فارسي؛ د. هتون الفاسي؛ سمر فطاني؛ الشيخ هادي مطر الفيفي؛ مها فتيحي؛ د. وليد فتيحي؛ السفير وك فولر؛ السفير شاس فريمان؛ د. أحمد قباني؛ فرانك جاردنر؛ الشيخ عبد الله القرني؛ قوس قنرش؛ تتين سي فولر؛ حياة الغامدي؛ قينان الغامدي؛ خالد الغذامي؛ د. إنعام غازي؛ ريتشارد غوفن؛ د. غازي القصيبي؛ أرموند حبيبي؛ د. علي الحاجي؛ تركي الحمد؛ محمد سلامة الحربي؛ بندر الحسن؛ د. سليمان الهتلان؛ حسن حترش؛ د. جين و. هيك؛ د. توماس هيجامر؛ د.ستيفن هرتوق؛ عباس

هداوي؛ العنود الهوتي؛ خالد الحبيشي؛ الشيخ صالح بن حميد؛ صالح الحميدان؛ لبنى حسين؛ حسن الحسيني؛ د. سداد الحسيني؛ وجيهة الحويدر؛ فؤاد إبراهيم؛ الشيخ خالد الابراهيم؛ نسرين الإدريسي؛ سهير الإدريسي؛ البروفيسور كمال الدين إحسان أوغلو؛ د. سميرة إسلام؛ مجدي إسلامي؛ سمية جبرتي؛ مصطفى جلالي؛ معتوق جنّة؛ شيرين جاوه؛ محمد الجزيري؛ سلمان الجشي؛ د. يحيى بن جنيد وموظفو مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض؛ د. علي الجهني؛ السفير روبرت جوردن؛ عادل الجبير؛ د. صديق الجبران؛ عبدالله صالح جمعة؛ الرائد عمر القحطاني؛ المهندس طارق القصبي؛ سين كيلينغ؛ حسناء القنيعير؛ د.خليل الخليل؛ سيما خان؛ عدنان خاشقجي؛ جمال خاشقجي؛ غسّان الخنيزي؛ نجيب الخنيزي؛ د.هند الخثيلة؛ نبيل الخويطر؛ جون كينكانون؛ أسامة كردي؛ زهير كتبي؛ عبدالرحمن اللاحم؛ د.هيفاء جمال الليل؛ الشيخ حاتم لطف الله؛ إياد مدني؛ د. غازي مدني؛ خالد المعينا؛ محمد محفوظ؛ عبدالله المجدوعي؛ حسن فرحان المالكي؛ د. صادق المالكي؛ د. عائشة المانع؛ د. حمد المانع؛ هيفاء المنصور؛ علي المرزوق؛ عيسى المرزوق؛ سوزان المشهدي؛ د. عبدالله مصري؛ سمر المقرن؛ فؤاد المشيخيص؛ د. علي سعد الموسى؛ د. عبدالإله المؤيد؛ د. حمزة المزيني؛ عبدالله المعلمي؛ فيصل المعمر ومركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني؛ ابتهال مبارك؛ إبراهيم مفتار؛ إبراهيم المقيطيب؛ د.إبراهيم المهنا؛ د.ماجد المنيف؛ د. وفاء المنيف؛ مصطفى مطبقاني؛ حسن النخلي؛ الشيخ نمر النمر؛ منصور النقيدان؛ د.زكير نايك؛ د.صالح النملة؛ الشيخ عبدالله ناصيف؛ البروفيسور تيم نبلوك؛ فؤاد نهاد؛ د.عبدالله عبيد؛ أحمد العمران (www.saudijeans.org)؛ عبدالوهاب العريّض؛ د. يوسف العثيمين؛ السير وليام بيتي؛

د. عبدالله الربيعة؛ لورنس راندولف؛ تركي فيصل الرشيد؛ د. مضاوي الرشيد؛ د. محمد الرشيد؛ أوين روريس؛ د. حامد الرفاعي؛ سيسليا رشدي؛ ديفيد راندل؛ أحمد مصطفى صبري؛ الشيخ حسن الصفّار؛ د. عبدالعزيز صقر؛ د. عبدالرحمن السعيد؛ د. توفيق السيف؛ عدنان صلاح؛ سامي سلمان؛ الجنرال نورمن شوارزكوف؛ د. فهد السماري وموظفو دارة الملك عبدالعزيز؛ إيان سيمور وموظفو مؤسسة استفتاءات الشرق الأوسط الاقتصادية؛ د. جميل شامي؛ جعفر الشايب؛ حسين شبكشي؛ د. محمد الشويعر؛ أحمد شقيري؛ د. كمال شكري؛ د. نايلة السويل؛ جواهر السديري؛ تركي السديري؛ محمد السحيمي؛ د. سعيد السريحي؛ د. فالح السليمان؛ لمى سليمان؛ د.فهد السلطان؛ زاهر دهلوي؛ د.عباس طاشقندي ليلى طيبة؛ محمد سعيد طيب؛ عبدالله ثابت؛ بيتر ثيروكس؛ ندى الطبيشي؛ د.عبدالله التركي؛ خالد علي التركي وسالي التركي؛ اللواء منصور التركي؛ عبدالعزيز التويجري؛ د.أحمد التويجري؛ الشيخ عبدالمحسن العبيكان؛ جراهام ويزنر؛ د. عدنان اليافي؛ د.محمد عبده يماني؛ فيصل يماني؛ هاني يماني؛ د. مي يماني؛ علي اليامي؛ مانع بن صالح اليامي؛ حسن ياسين؛ صباح ياسين؛ الشيخ سهل ياسين؛ فواز الزهراني؛ الكولونيل طلال الزهراني؛ د. عبدالرحمن الزامل؛ مهدي الزواوي؛ د. محمد الزلفة.

أنا ممتن أيضاً لأفراد الأسرة المالكة التالية أسماؤهم: عبدالعزيز بن نواف بن عبدالعزيز؛ عبدالعزيز بن سلمان بن عبدالعزيز؛ عبدالله بن فيصل بن تركي؛ أحمد بن عبدالعزيز؛ عمرو الفيصل؛ بندر بن عبدالله بن عبدالرحمن؛ بندر بن خالد الفيصل؛ الأميرة فهدة بنت سعود بن عبدالعزيز؛ فيصل بن عبدالعزيز بن فيصل؛ فيصل بن عبدالله بن محمد؛ فيصل بن

بندر بن عبدالعزيز؛ د.فيصل بن مشعل بن سعود بن عبدالعزيز؛ د.فيصل ابن سلمان بن عبدالعزيز؛ خالد الفيصل؛ خالد بن بندر بن سلطان بن عبدالعزيز؛ خالد بن فيصل بن تركي؛ خالد بن سلطان بن عبدالعزيز؛ الأميرة لطيفة بنت مساعد بن عبدالعزيز؛ الأميرة لولوة الفيصل؛ الأميرة مها بنت مشاري بن عبدالمحسن؛ منصور بن متعب بن عبدالعزيز؛ الأميرة مشاعل بنت فيصل؛ مشعل بن محمد بن سعود بن عبدالعزيز؛ محمد بن خالد بن عبدالله الفيصل؛ محمد بن منصور بن متعب بن عبدالعزيز؛ محمد بن نواف ابن عبدالعزيز؛ مقرن بن عبدالعزيز؛ محمد بن نايف بن عبدالعزيز؛ نواف ابن ناصر بن عبدالعزيز؛ نايف بن أحمد بن عبدالعزيز؛ الأميرة سارة بنت طلال بن عبدالعزيز؛ د. سيف الإسلام بن سعود بن عبدالعزيز؛ سلطان بن فهد بن عبدالله؛ سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز؛ طلال بن عبدالعزيز؛ تركي الفيصل؛ د. تركي بن محمد سعود الكبير؛ د. تركي بن سعود بن محمد؛ تركي بن طلال بن عبدالعزيز.

يجب أن أشكر أيضاً: د. عبدالرحمن عبدالواحد؛ د. حسن عابدين؛ فهد أبو النصر؛ صفاء الأحمد؛ بندر محمد العيبان؛ نيل ألن؛ مجى أحمد العنزي؛ رضا إسلام؛ ألن بارتن؛ شجهان شاندرائيل؛ السير جيمس كريج؛ السير ديفيد غوربوث؛ د.كريستفور بوسيك؛ إيفوني بوتشر؛ جيم تشابمان؛ د. جيفان ديول؛ سامية الإدريسي؛ اشتياق افتخار؛ أحمد اعتزاز؛ مات إليوت؛ جاكي باول وكريستي ماك آرثر؛ زكي فارسي؛ البروفيسور ف. غريغوري غوز؛ كاميليا كوسلت؛ محمد حنيف؛ روجر هاردي؛ روجر هارسن؛ د.وليد حسنين؛ منير حسنية؛ أولدين هني؛ سعود الهوتي؛ حمدان الحنيتي؛ كريستوفر جونسن؛ ألبرت بكفورجونز؛ الكولونيل براين ليز؛ توماس ليبمان؛ ليزلي ماكلولن؛

ياسمين مالك؛ رحاب مسعود؛ ريما ميمون؛ بن مونتنيز؛ آن موريس؛ وليم مورسن؛ السير ألن مورو؛ د.جوشو مرفشيك؛ كارل ميرفي؛ خديجة نحفاوي؛ البروفيسور تيم نبلوك؛.فرحان نظامي؛ ديفيد أوتوي؛ ك. ب. بيلي؛ سلطان غالب القعيطي وزوجته سلطانة؛ رائد قستي؛ لورنس راندولف؛ هيو رنفرو؛ د. أوجين روغان؛ شهيدة صابر؛ عبدالباسط الصحفي؛ د.عبدالعزيز ابن سلمة؛ د. سامي سلمان؛ نجاة الشافعي؛ منصور الشلهوب؛ البروفيسور إفي شليم؛ غاري سيك؛ وأعضاء منتدى الخليج 2000؛ غازي سهيل؛ كيفن سوليفان؛ كريستي سذرلاند؛ د. عبدالله الطيار؛ جان وآنا ثيزلف؛ جيم توماس؛ إسماعيل تتلي؛ سراج وهاب؛ د. أيمن سمير وهبة؛ فال وير؛ ديفيد ويلز وجون ويتبك؛ السير جون ومورين، الليدي ويلتون؛ سوزان زواوي؛ و رستم زيري.

وصلت إلى جدة في فبراير 2006م لأجد لورنس رايت وهو يضع اللمسات الأخيرة على كتابه البرج المتداعي. أطلعني كزميل حقيقي على أفضل الأسماء في قائمة الاتصال عنده مثل فايزة صالح امبا. لن تكون الحياة بجانب البحر الأحمر جميلة من دونها – ومن دون أيضاً وجبات الغداء في يوم الجمعة والصحبة اللطيفة مع بن دايل، السعودي «الميتافيزيقي» أو «الافتراضي» الذي عرفته لأكثر من ثلاثين سنة منذ أن التقيته في مدرسة بوليقلوت لتعلّم اللغات في لندن. هذا الرجل، بن، الذي يعرف ويعشق جين أوستن، هو شخص ينتمي إلى القرن الثامن عشر ويعيش في القرن الحادي والعشرين– مثل الكثير من النّاس في هذه البلاد.

أما في الساحل الشرقي، فقد استفدت كثيراً من دعم وحكمة أصدقائي نبيل الخويطر وحسن الحسيني، وهذا الأخير قام بكرم بالغ في المهمّة الصعبة

بمراجعة الجانب العربي من مخطوطة هذا الكتاب. وفي الرياض، أضحكتني المذيعة لبنى حسين كثيراً وسمحت لي بالظهور كثيراً في برنامجها الإذاعي جسور.

أما امتناني الأكثر في المملكة فيعود إلى الأستاذة هالة الحوطي، المساعدة التنفيذية لخالد علي رضا والذي أوكلها بكرم لمساعدتي على الترجمة والتنظيم والرعاية طوال الثلاث سنوات التي قضيتها في بحث موضوعي. لقد كانت هالة مصدراً للسعادة والمعلومات معاً وهي برهان حيّ، مثل العديد من الشابات اللاتي قابلتهن، على أن المستقبل في السعودية يعتمد كثيراً على الجنس الذي يلبس العباءة السوداء. أما الجنس الذي يلبس «الأبيض» فهو يكتشف يوماً بعد يوم أنه غير قادر على منافسة الفعالية الكبيرة للنساء أمثال هالة.

أما في بلدي، فمرشدي هو وكيلي الأدبي الشاب الهادئ النشيط، جوناثان بيج، الذي دلّني على فريقيْن ومحرّريْن متميزيْن هما كيفين دوتن، دار نشر بنجوين في نيويورك، و كارولين جاسكوين من دار نشر هاتشينسون التي نشرت كتابي المملكة كما شاءت الظروف وهي الآن جزء من مجموعة راندوم هاوس في لندن. أشكر أيضاً كارلا بولت، وإميلي فورتوبا، وفيرونيكا وندهولز، ووندي وولف من مجلة الصنداي تايمز، وسوزان هودجرت وإيان دننغ لعملهما الدؤوب في الحصول على وتصميم قسم الصور، ومتين منشي ول. رامنرايان إير في جريدة عرب نيوز في جدة، الذي اهتم بالتعليمات الكريمة لرئيس التحرير خالد المعينا لفتح أرشيف الصور في الجريدة. كما أشكر أيضاً كاميليا بونافنيك على خبراتها في برنامج الفوتوشوب.

أسعدني صديقي كيران بيكر، من مؤسسة الإنتاج السياسي، مؤخراً بإحضار هايدي أوينج وراشيل جريدي من مؤسسة لوكي للإنتاج إلى المملكة لتصوير فيلمين وثائقيين بالاعتماد على كتابي هذا. أشكر كيران وزوجته نانسي على كرمهما في واشنطن – وديفيد شيروود وجيمس بوكر من فلامبل على جهودهما في استمرارية عمل جهازي الأبل وبريدي الإلكتروني. ايضاً شكري يمتد إلى السيد والسيدة أيان سيمور على كرم الضيافة في قبرص عندما كنت أبحث في أرشيف مؤسسة استفتاءات الشرق الأوسط الاقتصادية - وكذلك المؤسسة على سماحها لي بدراسة مصادر المعلومات المهمة لديها.

وحيث إنني كنت بعيداً عن الوطن، مهما كان التعريف لهذا لوطن، فقد استفدت كثيراً من عروض دقائق موبايلي المجانية الأخيرة للاتصال دولياً مع أصدقائي الداعمين ليلي أجي، نفيسة جينوي، جو فاينبرغ، برنتيس هانكوك، نيل ليتسون، دانيل سانت جورج، بوب وباتريشيا شاهين– وجين رين، الصديقة الداعمة والملهمة كثيراً. «الوطن» بالنسبة لي، بعد أن أدركت ذلك في السنوات الثلاثة الأخيرة، هو السعادة في البقاء دائماً مع جين.

أما أطفالي، شاشا وسكارليت، فقد زوْدوني بما أحتاجه من الوطن عندما أكون معهما في أوريجون وكاليفورنيا، أما برونو فقد اعتنى بما كنت أعتبره منزلي في بيمليكو. شكري أيضاً يمتد إلى توماس وستيفاني على كونهما أفضل مستأجِريْن يمكن لمؤجِّر أن يصادفهما.

قبل أن أحصل على ناشر لهذا الكتاب، كان لدي صديقي القديم المحرر بيل فيليبز الذي شجّعني على تجاوز العقبات التي واجهتني في

المراحل الأولى لكتابة هذا النص ودلّني على تحديد الخبر في المعاني التي اكتشفتها. هو وزوجته، جلاديس، كانا كريمين معي عندما استضافاني في زياراتي السنوية لماساشوستس. في انجلترا، زودتني ديانا ميلي بتعليقات مفيدة ومفرحة على المخطوطة، بينما كان كل من كلوس فون بولو وكريستوف جلت مفرحيْن ومفيديْن بشكل عام. أيضاً أشكر جريجوري كوهون.

قامت هناء مؤذني بعمل مرتّب ومهم في تنظيم الملاحظات والمراجع لهذا الكتاب عندما كنت مستعجلاً لإنهاء المخطوطة، وكما هو دائماً عند مفترق الطرق جاءت صديقتي القديمة وزميلتي جاكلين ويليامز لتنقذني بتفاصيل لا تنتهي لبنك المعلومات المدهش الذي تمتلكه ويضم قوائم الاتصال الشخصية والوثائقية والإلكترونية. ذهبت أنا وجاكي إلى الصحراء من أجل كتابي المملكة. أما في هذا الكتاب فقد وجدنا الأحجار الكريمة في ماربيلا.

جاء الدعم المرحَّب به و غير المتوقع من أخي جراهام. مرضت أمنا فيدا ليسي السنة الماضية وكان جراهام هو مَنْ اهتم بها بمساعدة صاحبته جابرييلا ميري، الأمر الذي مكّنني من العمل على هذا الكتاب. الأهم من ذلك كله أنه جعل الأشهر الأخيرة لحياة أُمي تجربة دافئة ومريحة لها في منزلها ومحاطة بأحبائها. بفضل جراهام، كنت هناك عندما توفّيت.

روبرت ليسي

عرعر، السعودية

مارس 2009

كشاف الأعلام

ب

ث

ج

ح



غ

ف

ق

هـ

و

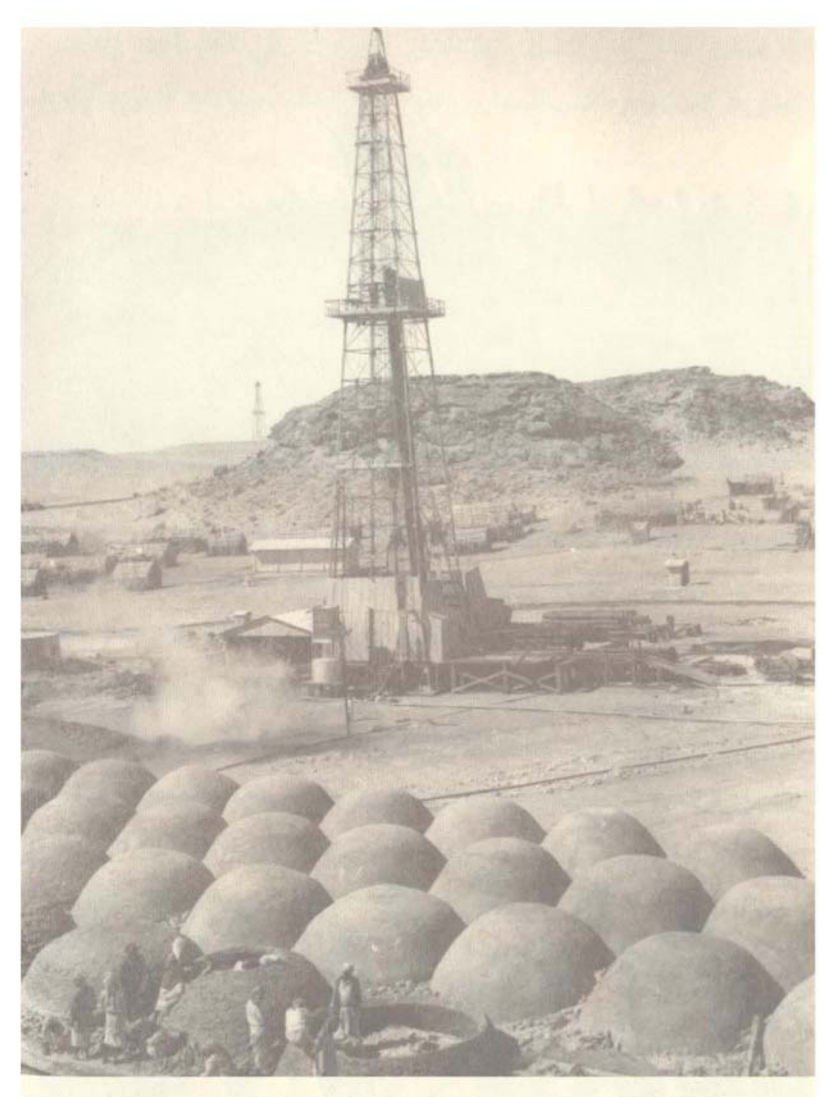
ي



الجيش السعودي لحظة الزحف في شرق الجزيرة العربية في عام 1911م. (تصوير الكابتن ويليام شكسبير، الوكيل السياسي البريطاني في الكويت). يحمل العلم عبارة الشهادتين في الإسلام: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» - وهو نفس تصميم وكلمات العلم السعودي حتى يومنا الحاضر.



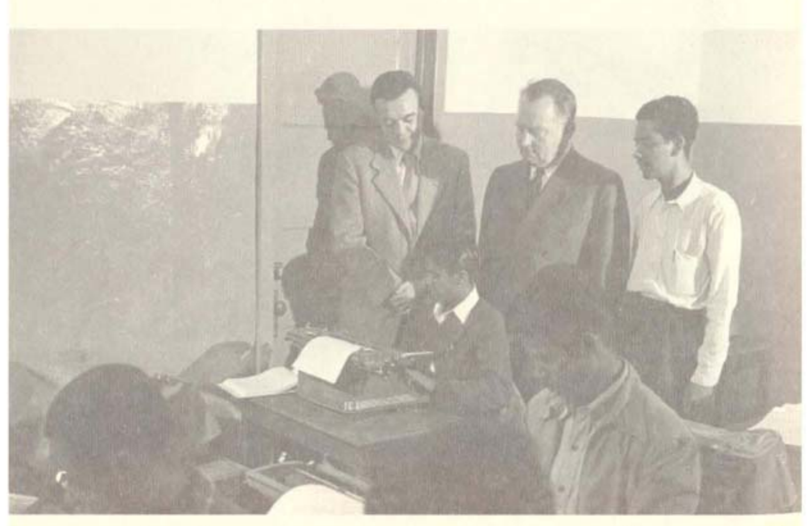
عبد العزيز، «ابن سعود» (في البشت الفاتح، الثالث من اليسار)، مع عائلته في الرياض في عام 1918م. تم تصويره من قبل الرحالة البريطاني والموظف الاستعماري هاري سانت جون فيلبي. في عام 1979م. تذكّر الملك خالد (المولود عام 1912م) وقفته هذه مع أبيه. تستطيع رؤية خالد هنا أمام والده عبدالعزيز مباشرة، وعلى يساره أخوه الأكبر منه محمد.



بئر النفط ذات الرقم 15 على التلال المحيطة بالظهران في شرق المملكة العربية السعودية. بعد اكتشاف البترول بكميات تجارية في عام 1938م. أمر الملك عبدالعزيز بإنفاق أول عائد نفطي في بناء مسجد للعبادة يصلّي فيه عمّال النفط، ولهذا أنت ترى في مقدمة الصورة القباب الطينية التي يتم بناؤها مع التشكيلات الجمالية في سطح المسجد. ينتصب المسجد الأبيض مع سطحه المتعدّد القباب على تلك التلال حتى هذه اللحظة. أما البئر النفطية فقد تم تغطيتها.



الملك عبد العزيز «ابن سعود» يقابل الرئيس الأمريكي فرانكلن ديلانو روزفلت على ظهر سفينة كوينسي الأمريكية الراسية في البحيرات المرة التابعة لمصر في 14 فبراير 1945م، تاريخ بداية «العلاقات الخاصة» بين السعودية وأمريكا.



صفّ دراسي في شركة أرامكو (شركة الزيت الأمريكية العربية) في الظهران في أواخر الأربعينات. الطالب على الطابعة هو علي النعيمي (المولود في 1935م) وهو الوزير الحالي السعودي للبترول والثروة المعدنية.



أحمد زكي يماني، وزير البترول السعودي، 1962-1986م. أو «صوت أوبك» في عيون مستهلكي النفط في العالم، المفتونين بأخلاقه والغاضبين من سياساته.



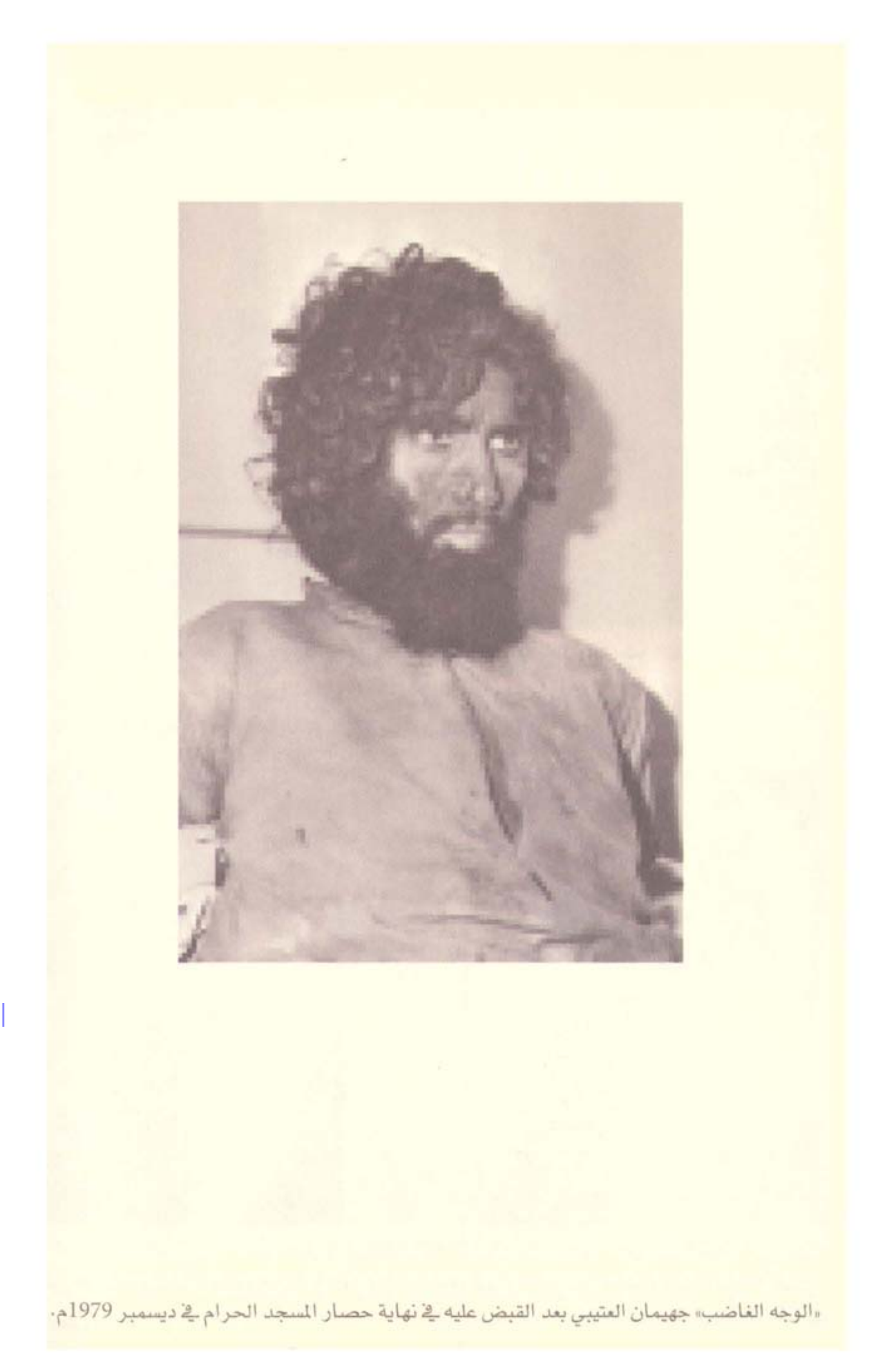
أوبك (منظمة الدول المصدّرة للنفط)، كما تراها مجلة التايم في مارس 1979م. رسمها دون رايت الذي يعمل في جريدة بالم بيتش بوست. ارتفع سعر البترول من دولارين للبرميل في السوق المفتوحة في 1973م. إلى 37 دولاراً في بداية عام 1979م.



الملك فيصل في عام 1967م، وهي السنة التي انضمّت فيها السعودية إلى المقاطعة النفطية العربية -التي لم تستمر طويلاً- ضد الولايات المتحدة وبريطانيا احتجاجاً على دعمها لإسرائيل في حرب الأيام الستة. في عام 1973م قطع فيصل النفط عن الغرب بشكل أكثر فعالية.



الملك فيصل (الثاني من اليسار) وهو يؤدي رقصة العرضة، رقصة آل سعود التقليدية بالسيف، مع إخوانه غير الأشقاء وملوك المستقبل: خالد (الأول من اليسار)، فهد (الثاني من اليمين) وعبدالله في (أقصى اليمين).



«الوجه الغاضب» جهيمان العتيبي بعد القبض عليه في نهاية حصار المسجد الحرام في ديسمبر 1979م.



المرشد الديني السابق لجهيمان،
الشيخ عبد العزيز بن باز، الذي أصبح لاحقاً
المفتي العام للمملكة العربية السعودية،
والذي اشتهرَ بقوله إن الأرض مسطّحة كما رآها
بعينيه عندما كان مبصراً.



أتباع جهيمان المقبوض عليهم في أعقاب استعادة المسجد الحرام. أُعدِم منهم 67 مع جهيمان في يناير 1980م.



الشيخ حسن الصفّار،
شيخ الطائفة الشيعية في القطيف
والبلدات الأخرى في المنطقة الشرقية.



أوائل نوفمبر 1979م، وذلك قبل ثلاثة أسابيع من انتفاضة الشيعة في القطيف. علي المرزوق الذي كان عمره آنذاك 15 عاماً، يقرأ في مسجد قريته احتفالاً بعيد الغدير، الذكرى السنوية للمناسبة التي يعتقد الشيعة أن الرسول قد ولّى فيها صهره علي الخلافة من بعده. ولا يقبل المسلمون السنة هذه الدعوى، وبالتالي فهم لا يحتفلون بعيد الغدير.



منذ عام 1980م، أنفقت السعودية، بحسب بعض الإحصائيات، ما مقداره 40 بليون دولار لدعم الحرب الدموية المريرة التي شنّها صدام حسين ضد إيران وآية الله الخميني. في هذه الصورة، التي التُقطت في منتصف الثمانينات يستعرض الدكتاتور العراقي بأسلحته أمام صديقه العربي، الملك السعودي.



اليخت الخاص بفهد الذي يبلغ طوله 482. قدم ويحمل اسم الأمير عبد العزيز. يُعتبر هذا اليخت الأطول في تاريخ القرن العشرين.



أول لقاء بين الرئيس الأمريكي رونالد ريجان وولي العهد السعودي في عام 1981م. في القمة الاقتصادية بين الشمال والجنوب في المكسيك. قابله فهد بعد أن أصبح ملكاً في واشنطون من عام 1985م، عندما طلب ريجان، في وجبة الإفطار، من فهد أن يزوّده بدعم مادي وصل فيما بعد إلى 32 مليون دولار – وهو ما أدى إلى فضيحة الكونترا في نيكاراجوا.



قصر فهد الخاص في ماربيلا، جنوب أسبانيا، الذي يبدو على نحو غريب مشابهاً في شكله الخارجي للبيت الأبيض.



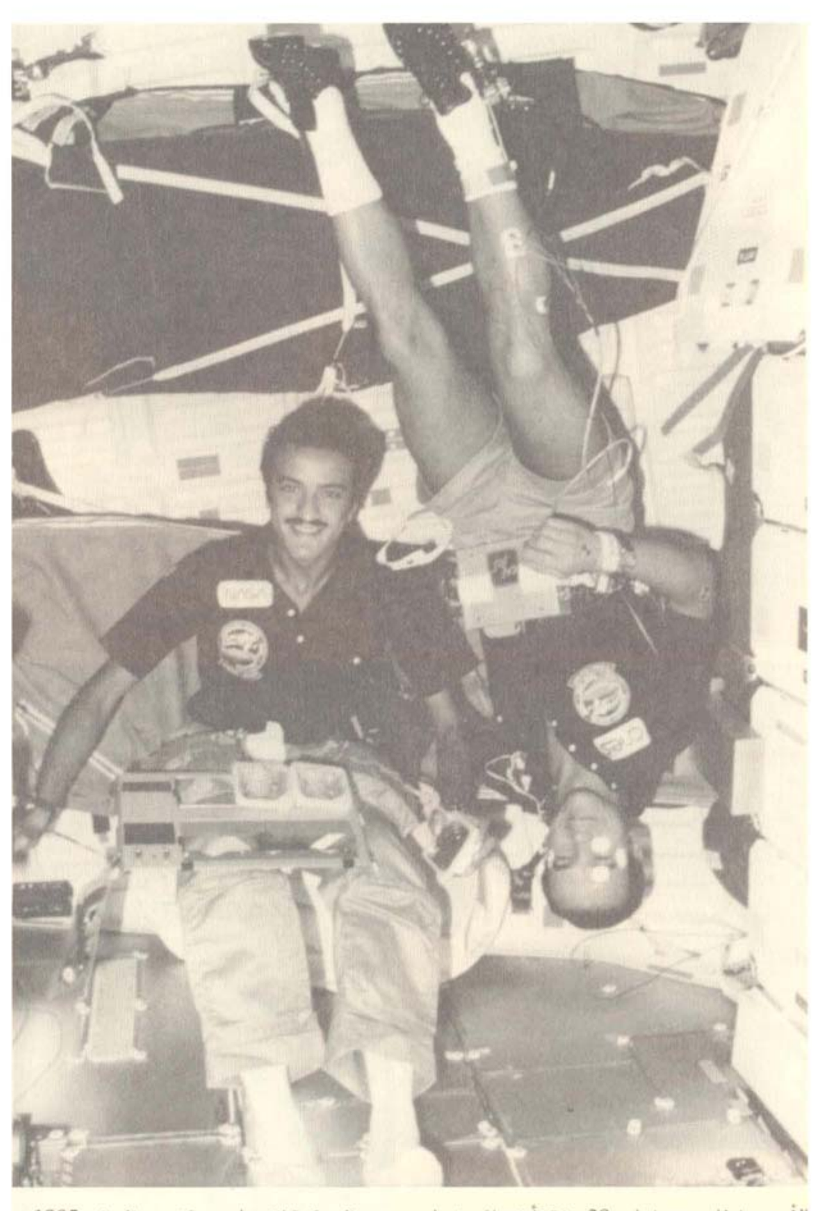
الأمير تركي الفيصل، مدير السي آي أي السعودية أو الاستخبارات أو دائرة الاستخبارات العامة من عام 1977م إلى 2000م. أشرف هذا الأمير وساعد على طرد القوات السوفيتية من أفغانستان في الثمانينات الميلادية، وترأس هذا الجهاز في فترة التسعينات المثيرة التي ظهرت فيها طالبان والقاعدة التابعة لأسامة بن لادن. وبعد خدمته في لندن كسفير من عام 2002م إلى 2005م عُيّن سفيراً للولايات المتحدة، لكنه استقال من منصبه في واشنطون بعد سنة من عمله في ظروف لم تتضح تفاصيلها بعد.



الأمير بندر بن سلطان كطيار حربي. تدرب في كلية القوات الجوية الملكية البريطانية في كرانول وخدم لاحقاً كسفير سعودي من عام 1983م وحتى 2005م.



ساعد بندر في الضغط على الكونجرس الأمريكي من أجل شراء طائرات المراقبة الجوية الأواكس (يسار) للسعودية في عام 1981م. دعم الرئيس ريجان هذه الصفقة، وعندما اعترض عليها الرئيس الإسرائيلي مناحيم بيجن، رفع السعوديون شعار «ريجن أو بيجن». وافق مجلس الشيوخ في النهاية على الصفقة.



الأمير سلطان بن سلمان، 29 سنة، أول رائد فضاء عربي، في مركبة الفضاء ديسكفري في يوليو 1985م.
مع رائد الفضاء الفرنسي باتريك بودري.



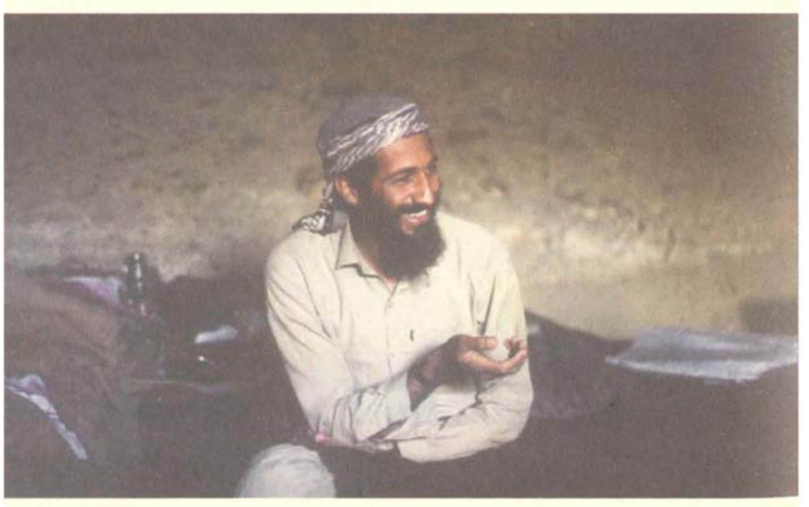
الأمير سلمان بن عبد العزيز (وسط) في الملابس الغامقة وهو يؤدي رقصة العرضة، رقصة السيف التقليدية. سلمان الذي يعتبر أحد الأمراء السديريين السبعة الأقوياء يعمل كحاكم للرياض منذ عام 1962م، وقد ساهم كثيراً في تنمية العاصمة وتحويلها من بلدة صحراوية نائمة إلى عاصمة حديثة تزخر بالحركة بأكثر من أربعة ملايين نسمة.



منذ عام 1975م. والأمير نايف بن عبد العزيز يتمتع بشخصية قوية حازمة حول العالم كوزير للداخلية ومدير لشرطة المملكة وأمنها. يبدو في هذه الصورة أمام شعار الوزارة، العين الحارسة التي تراقب كل شيء وهو يتحدث عن استعدادات حج عام 2006م. والتي تعتبرها المملكة أهم واجب أمني يمكن أن تقوم به. في مارس من عام 2009م. أصبح نايف النائب الثاني لمجلس الوزراء وهذا ما يجعله خليفة أخيه سلطان كولي للعهد.



ولي العهد سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع وعقود التسليح العسكري منذ عام 1962م محولاً ثروته الضخمة إلى فائدة أبنائه – أكثر من ثلاثين ولداً وبنتاً – وصرفها على مؤسساته الخيرية.



كان أسامة بن لادن في عام 1988م، 31 سنة، في مقر قيادته (أحد الكهوف)، أحد الأبطال السعوديين آنذاك. ساعد مقاتلوه العرب الأفغان في هزيمة الملحدين السوفيت مما مهّد له الطريق في بناء دور جديد ملهم للشباب السعودي – المحارب الحديث في سبيل الله.



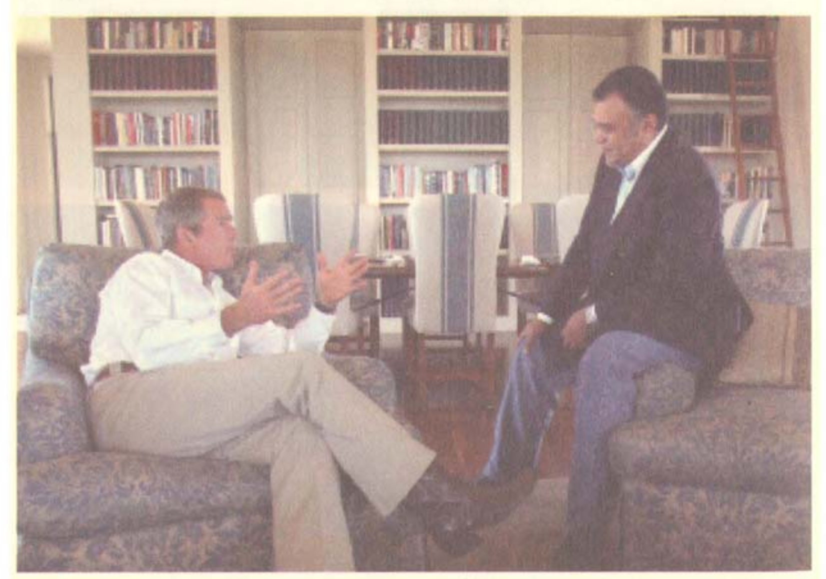
عاصفة الصحراء. 6 يناير 1991م. يستعرض الملك فهد والجنرال نورمان شوارزكوف جنود قوات التحالف من 34 دولة اجتمعوا لطرد قوات صدام حسين الغازية للكويت. بعد أكثر من شهر من القصف الجوي، دخلت قوات التحالف الكويت مباشرة وعبر العراق في 24 فبراير. وبعد أقل من مائة ساعة من الحرب البرية، استسلمت قوات العراق بعد توقيع وقف لإطلاق النار في صفوان 3 مارس.



في ساعات الصباح الأولى من 30 يناير 1991م، عبرت الدبابات العراقية الخط السعودي الكويتي لاحتلال بلدة الخفجي المهجورة. في اليوم التالي، تحركت قوات الحرس الوطني السعودي مع وحدتين عسكريتين آليتين قطريتين نحو البلدة لاستعادتها، وخاضت تلك القوات أول مواجهة عسكرية في حرب الخليج – وقامت تلك القوات بتحرير كتيبتين أمريكيتين من قوات المارينز كانتا متواجدتين في البلدة للمساعدة في توجيه الطلعات الجوية. قُتل ثمانية عشر جندياً سعودياً وجُرح اثنين وثلاثين.



ازدادت العلاقة القوية بين الأمير بندر بن سلطان وجورج بوش الأب (هنا في البيت الأبيض في 1989م) بعد طرد صدام حسين من الكويت في 1991م.



استأنف السفير السعودي -الذي لم يكن قريباً من إدارة كلينتون- الأوقات الجميلة، مع عودة آل بوش إلى البيت الأبيض، ثم جاءت بعد ذلك أحداث الحادي عشر من سبتمبر.


كارثة أمريكا: خسائر الأسهم بمئات المليارات ومخاوف على 700 مليار دولار عربية وارتفاع أسعار النفط والذهب

الوطن

36 صفحة

دهانات الجزيرة

جودة وجمال

إنتحاريون يخطفون طائرات ويهاجمون مركز التجارة العالمي والبنتاجون والخارجية وتساؤل عما إذا كان المخططون قتلوا الطيارين وقادوا الطائرات بأنفسهم

أكبر هجوم انتحاري منسق يستهدف أمريكا ويهز العالم

الثلاثاء الأسود يشهد كارثة ضرب العصب الأمريكي عسكرياً واقتصادياً وسياسياً

خادم الحرمين وولي العهد يستقبلان الرئيس السوداني

السعودية تدين الهجمات لأنها تتعارض مع القيم الدينية والمفاهيم الحضارية

الصفحة الأولى من جريدة الوطن السعودية، 12 سبتمبر 2001م تنشر خبر أحداث الحادي عشر من سبتمبر.



خالد اليوم بعد ثلاث سنوات ونصف من احتجازه في غوانتانامو، وخمسة عشر شهراً في سجن سعودي، ثم زواجه بمساعدة من وزارة الداخلية. خالد الحبيشي كجهادي في أفغانستان 2001م. بقبعة على رأسه تقيه البرد.

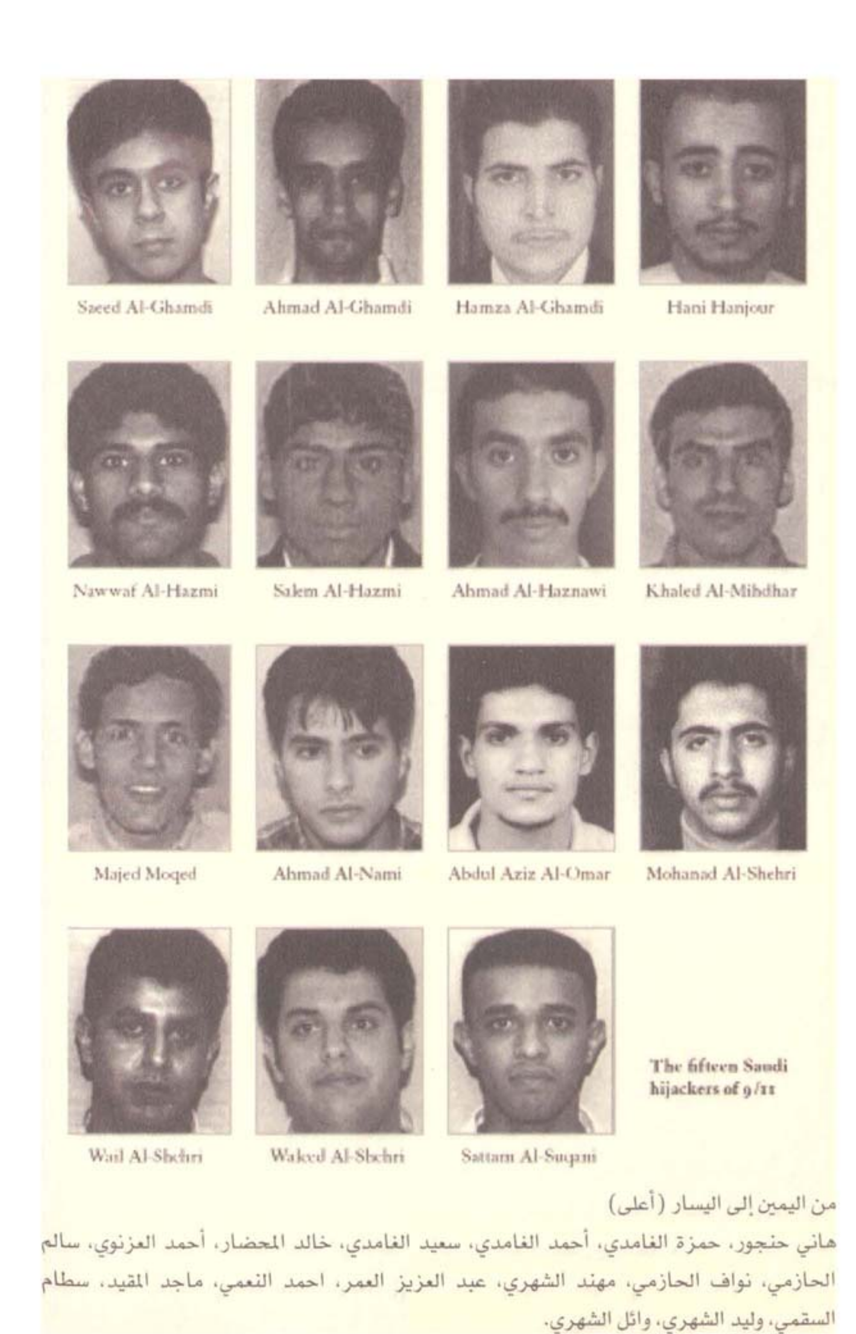


في مارس 2002م، أدى الموت المأساوي لخمس عشرة طالبة في مدرسة للبنات في مكة إلى صرخة انتقاد كبيرة. أمر ولي العهد عبد الله بنقل الإشراف على مدارس البنات من المؤسسة الدينية إلى وزارة التربية شاقًا طريقه نحو الإصلاح الوطني.

منصور في عام 2008م. مع زوجته منى وابنه يوسف وابنته ليلى.



منصور النقيدان في عام 1995م. الذي دخل
السجن أربع مرات لأفكاره المتطرفة وفي مرة
بسبب إحراقه لمحل بيع الفيديو.



The fifteen Saudi hijackers of 9/11

من اليمين إلى اليسار (أعلى)

هاني حنجور، حمزة الغامدي، أحمد الغامدي، سعيد الغامدي، خالد المحضار، أحمد العزنوي، سالم الحازمي، نواف الحازمي، مهند الشهري، عبد العزيز العمر، احمد النعمي، ماجد المقيد، سطام السقمي، وليد الشهري، وائل الشهري.

5. MESSAGE
نص الرسالة

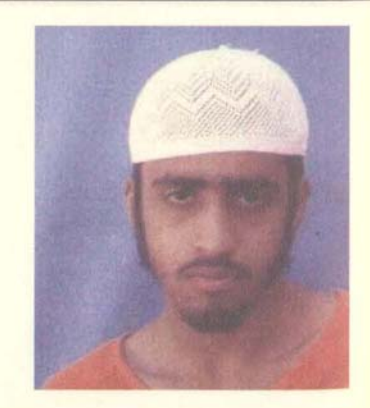
Family and/or private news only
أخبار شخصية أو عائلية فقط

بسم الله الرحمن الرحيم
إلى الوالد العزيز / السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أرجو
أن تكون وأنتم بخير وأسأل الله أن يحفظكم ويحفظكم ويمدكم
بالأمن والأمان وأن يلبسكم لباس الصحة والعافية
وأن يجمعنا بكم في جنات عدن وأن يغفر لنا ولكم
ما تقدم من ذنبنا وما تأخر أكتب لكم هذه الرسالة
وأنا في ألم الثقة بوعد الله عز وجل بأنه
سيجمع شملنا بينا عن قريب وليس ذلك تأليا
على الله عز وجل ولكن ثقتنا بوعد الله ورسوله إذا وصلتكم
رسالتي هذه فأرجو ألا تبخلوا علينا بأخباركم ووضعكم
وأرجو إبلاغ سلامي إلى أحبابنا جميعا وأقاربنا وإخواننا
وأخواتنا جميعا أكتب هذه الرسالة من
تاريخ ٢٧/٩/١٤٢٣هـ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
ابنكم / ياسر

6.

Date .... التاريخ Signature .... الامضاء

رسالة ياسر الزهراني إلى والده في نهاية السنة الأولى التي قضاها في غوانتانامو.



ياسر في لباس معتقل غوانتانامو قبل موته الغامض أو الانتحار في زنزانته في يونيو 2006م.



ياسر الزهراني كمراهق في المملكة قبل سنوات من مغادرته للالتحاق بالقاعدة في أفغانستان.



مراسل البي بي سي فرانك جاردنر ملقى على الأرض وهو مصاب في شارع بالرياض حيث تعرض لست طلقات نارية من مسلحي القاعدة الذين قابلوه وهو يصور فيلم مع مصوره سيمون كمبرز الذي قتل في نفس المكان في يونيو 2004م.



فرانك جاردنر في قصر باكينغهام 13 أكتوبر 2005م. بعد تسلمه وسام الإمبراطورية البريطانية من الملكة إليزابيث.



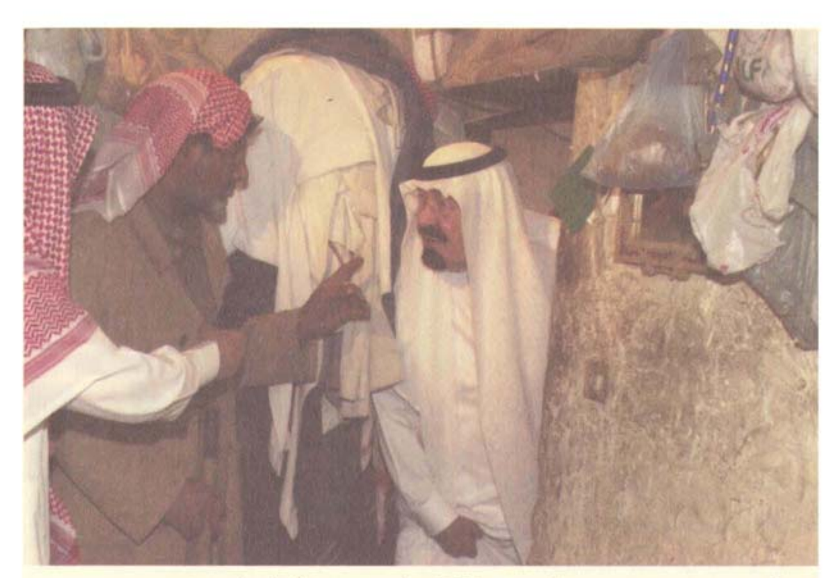
يعمل المشائخ مع سجناء غوانتانامو السابقين والمتشددين المقبوض عليهم لتبنّي نظرة معتدلة للحياة في مركز الأمير محمد بن محمد التأهيلي شمال الرياض، نوفمبر 2007م، ولرؤية الجهاد بطريقة جديدة.



أدار ولي العهد الأمير عبد الله (هنا في لباس رئيس الحرس الوطني في الستينيات) الحكومة بعد مرض الملك فهد في نهاية التسعينيات.



خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز في الحوار الوطني في أبها، جنوب المملكة، في أبريل 2008م، لمناقشة قضايا المرأة. عمل الملك بجد من أجل مراعاة أكبر لحقوق المرأة، على الرغم من أنه لم يصدر بعد أي قرار بالسماح لهن بقيادة السيارات، أو الاعتراف بحقهن القيام بقرارات هامة من دون الرجوع إلى محارمهن الرجال.



قبل أن يستلم السلطة كملك في أغسطس 2006م، أصبح عبد الله أول أمير يتم تصويره وهو يزور أحد الأحياء الفقيرة في الرياض. شملت مبادراته الأخرى حرية أكبر للصحافة، إنشاء جمعيات حقوق الإنسان، تأسيس الحوار الوطني لمناقشة القضايا الاجتماعية المثيرة للجدل، وإصلاح المناهج الدراسية السعودية. كما قدّم أيضاً انتخابات المجالس البلدية في 2005م لكنه أجل الفترة الثانية منها في 2009م.



في نوفمبر 2008م ذهب عبد الله بن عبد العزيز إلى نيورك لافتتاح مؤتمر «حوار الأديان» في الأمم المتحدة، ثم التحق بقادة العالم في قمة العشرين دولة الأكبر صناعياً في العالم لمناقشة الأزمة الاقتصادية العالمية، في واشنطون، وقد كان الملك الوحيد والعربي الوحيد فيها.


حراسة الإيمان
المؤسسات الدينية
المسبار
الدّعاة الجدد
بين
«عصرنة التديّن» و «بيع الدعوة»
المسبار
الحركة الإسلاميّة
في كردستان
المسبار
السنّة في لبنان
رهانات السّياسة والطائفيّة
المسبار
شيعة العراق
المرجعيّة والأحزاب
المسبار
الطائفيّة
صحوة الفتنة النائمة
المسبار
السلفيّة الجهاديّة
دار الإسلام ودار الكفر
المسبار
الحوثيون
سلاح الطائفة وولاءات السياسة
المسبار
الصفويّة
التاريخ والصراع والرواسب
المسبار
Twitter: @ketab_n



الإسلام الحضاري
(النموذج الماليزي)
المسبار
إسلام بلا دماء
تيّار اللاعنف الإسلامي
المسبار
الإسلام الأوروبي
صراع الهويّة والإندماج
المسبار
الشعائر الدمويّة
جبهة الإنقاذ الجزائريّة
من التأسيس إلى النكبة
المسبار
رائحة البارود
مراجعات
الجماعة الإسلامية في مصر
المسبار
حلم الخلافة
حزب التحرير
والتمرّد على الدولة
المسبار
رماح الصحائف
السلفيّة الألبانيّة وخصومها
المسبار
رشيد الخيّون
100 عام من
الإسلام السياسي بـ العراق
1 الشّيعة
المسبار
رشيد الخيّون
100 عام من
الإسلام السياسي بـ العراق
2 السُّنّة
المسبار



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

www.almesbar.net

المراسلات البريدية

ص.ب. 333577

دبي الإمارات العربية المتحدة

للاشتراك:

هاتف: 77 151 36 4 971+

فاكس: 78 151 36 4 971+

info@almesbar.net

المملكة من الداخل

«ملحمة عميقة حول دولة في قلب العالم الإسلامي. أهم وأثرى كتاب في الدولة السعودية منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر. يعرض لنا روبرت ليسي أكثر الحكومات والمجتمعات تعقيداً في العالم. بكتابة أخّاذة جميلة، وبراعة فكرية عالية، وروعة لا تُضاهى».

أحمد رشيد، مؤلف كتاب «طالبان وسقوطها في عالم الفوضى»

«رجع روبرت ليسي إلى المملكة ليقدّم لنا تصويراً حياً وملهماً لدولة - وعائلة - مقيّدة بالتقاليد وفي سباق لا يرحم نحو الحداثة وقد احتوى كتابه على تفاصيل مروّعة وممتعة في آن واحد لتجعل هذا التاريخ مدهشاً وجديداً وضرورياً».

لورنس رايت، مؤلف كتاب «البرج القادم» الفائز بجائزة البوليتزر

السعودية دولة المتناقضات. في الوقت الذي يعمل فيه الأمراء الأثرياء ورجال الأعمال على بناء مدن مستقبلية في الصحراء، يحتقر رجال الدين الأصوليون الحداثة الغربية ويحاولون إرجاع قيم المملكة إلى ما كانت عليه قبل ألف وأربعمائة سنة حيث عصر الرسول محمّد. هي أكبر منتج للنفط في العالم، وهي أيضاً من أنتج خمسة عشر خاطفاً من أصل تسعة عشر تسببوا في أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

عاش المؤلف صاحب الكتب الأكثر رواجاً روبرت ليسي في المملكة في 1979 لبحث قصة الطفرة النفطية وتأليف كتابه المثير «المملكة» الذي حظرته الحكومة السعودية. رجع هذا المؤلف بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ليكشف في كتابه الجديد العناصر الدراماتيكية لقصة أغرب من الخيال:

كيف وجد أسامة بن لادن ومجاهدوه العرب الدعم من الحكومتين الأمريكية والسعودية.

القصة الدموية للاستيلاء على المسجد الحرام في مكة، أقدس بقعة على وجه الأرض.

القصة المأساوية لحادثة اغتصاب «فتاة القطيف» وكيف تحولت الضحية إلى متهمة.

الطريقة التي اتبعتها السعودية في إعادة تأهيل العائدين من غوانتانامو - عن طريق توفير الوظائف والسيارات والزوجات.

يسرد ليسي هذه الأحداث الدراماتيكية والمثيرة للجدل عن طريق السعوديين أنفسهم مقدماً صورة مجتمع يحاول أن يتبنّى أفكاراً كان يرفضها سابقاً: التسامح الديني، حقوق الإنسان، المسؤولية السياسية -ليست الديموقراطية بعد- والأكثر تحدياً حقوق المرأة. لكي نفهم عالم القرن الحادي والعشرين الذي نعيشه فإنه ينبغي علينا أن نفهم السعودية: يمثّل هذا الكتاب أفضل تصوير وأدقّه لمملكة الصحراء التي لا نعرفها.

الناشر


ISBN 978-9948-443-43-8

